الأوقاف في بلاد الشام
منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين

المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام
١٧-٢١ شعبان ١٤٢٧هـ/ ١٠-١٤/٩/٢٠٠٦م

المجلد الثاني /القسم الأول
«سورية»

تحرير
محمد عدنان البخيت

منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام - الجامعة الأردنية
عمان
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/١٢/٤٢٠٩)
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة للجنة تاريخ بلاد الشام، ولا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مُسبق من رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام.

All rights are reserved for History of Bilad al-Sham Committee. No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the Chairman of History of Bilad al-Sham Committee.

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدني أن أقدم للباحثين وللقراء المجلد الثاني من أعمال المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الذي تناول الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين، والذي عُقد (١٧-٢١ شعبان ١٤٢٧هـ/ ١٠-١٤/ أيلول ٢٠٠٦م)، في رحاب الجامعة الأردنية برعاية ملكية سامية وبحضور رؤساء الجامعات الثلاث الداعمة للمؤتمر: الجامعة الأردنية وجامعة دمشق وجامعة اليرموك، هذا بالإضافة إلى العلماء المشاركين وضيوف المؤتمر من المهتمين وطلاب الدراسات العليا.

وترعى هذه الجامعات أعمال المؤتمر منذ سبعينات القرن الماضي، وهي حريصة في الحفاظ على مسيرته دائماً إلى الأمام للبحث بتاريخ بلاد الشام من جميع وجوهه بشكل موضوعي ومتكامل بعيداً عن الهوى والغرض، ويجيء هذا المجلد المتعلق بجوانب من الأوقاف في سورية بعد أن صدر أولاً عام ٢٠٠٨م المجلد الثالث المخصص لفلسطين وتلاه في نفس العام المجلد الأول عن أوقاف الأردن.

وحرصنا على تقييم جميع البحوث (٢٦ بحثاً) التي يضمها هذا المجلد، كما قُمنا قدر الإمكان بتدقيق الإحالات والهوامش وضبط أسماء المصادر والمراجع بعدما زودنا صاحب كل بحث بالملحوظات التي أبداها المقيمون على بحثه.

وعالجت هذه البحوث جوانب من الأوقاف في سورية منذ أواخر العهد الأيوبي مروراً بالعهد المملوكي، ومن ثم العهد العثماني هذا بالإضافة إلى البحث في بعض الوقفيات التي تتناول الأوقاف في مرحلة الانتداب والاستقلال في سورية.

والجديد في هذا المجلد أن عدداً من الباحثين قد تناولوا أوقاف الأديرة والأوقاف الأرثوذكسية وأوقاف السريان الأرثوذكس وأوقاف الفرنسيسكان؛ وشكلت هذه البحوث في الأوقاف المسيحية بالإفادة من قيود الكنائس إضافة نوعية في معالجة موضوع الأوقاف في سورية سواء أكانت إسلامية أو مسيحية، ولا بد من الإشارة هنا إلى أهمية المادة المتوفرة في سجلات المحاكم الشرعية وسجلات الأوقاف بالإضافة إلى النقوش والنحاسيات والعملة، التي ما زالت مجهولة لم يعالجُها الباحثون مثل: الأوقاف

في محافظات اللاذقية وجوارها، والمقاطعة الشرقية من تدمر جنوباً إلى القامشلي ودير الزور والحسكة شمالاً بالاضافة إلى محافظات: حماه وحمص وحوران، وأن المادة في السجل الشرعي والسجلات العثمانية ما زالت بحاجة إلى من ينفض عنها الغبار ويكتشف لنا كنائزها، وليس بمقدور أي مؤتمر أن يبحث في كل صغيرة وكبيرة وأن يكشف عن كل المواضيع وقيمة أي مؤتمر هي بمقدار ما يثير من أسئلة وتساؤلات، وبمقدار ما يشير إلى مواضيع لم تبحث بعد والمأمول من طلاب الدراسات العليا أن يولوها عنايتهم عند إعداد رسائلهم الجامعية، والمرجو من وزارات الأوقاف ودوائرها في دول بلاد الشام الأربعة أن تحصي كل واحدة منها ما لديها من وقفيات على شكل «درج» وما بحوزتها من سجلات وقيود وأن تقوم بتصويرها وفهرستها لاطلاع الباحثين عليها، فالغوص في مقتنيات مؤسسات الوقف يسعفنا في فهم التاريخ الأهلي والمدني والاجتماعي والاقتصادي لمجتمعات بلاد الشام في الحاضرة وفي الريف وفي البادية ومن خلاله يمكن فهم هذا التاريخ واستيعابه ونستطيع بعد ذلك أن نصل إلى فهم سليم لتاريخ المؤسسات التي قامت معتمدة على الوقف مثل: المساجد والمدارس والتكايا والترب والمشافي وخدمة توفير المياه والدشيشة والخبز والشوربة للفقراء، فلقد عبر الوقف بشكل وافٍ عن تطبيق مفهوم التكافل والتضامن الاجتماعي الإسلامي في مجتمعات بلاد الشام.

ويسرني بهذا الخصوص أن أشكر الزملاء أصحاب البحوث المنشورة في هذا المجلد والشكر موصول إلى الدكتور عبد الحميد الفلاح العبادي الذي حرر النصوص، وكذلك الشكر إلى الآنسة صفية السلامين من طلاب الدراسات العليا التي ساعدت في التدقيق وتوثيق الإحالات والهوامش، ولقد بذلت السيدة رانيا قاسم جهوداً كبيرة في المتابعة والطباعة ومثل ذلك جهود السيدة نسرين زبن، والسيد فايز الخلايلة. فلهم جميعاً شكري وتقديري، ونعرف جميعاً ما تبذله السيدة إيمان عمورة في متابعة أعمال المؤتمر وتنفيذ المطلوب منها بكفاءة متميزة.

ومن دواعي سعادتي أن اشكر السيد مشهور جرادات، مدير مطبعة الجامعة وزملاءه لما يبذلون من جهود كبيرة في طباعة النصوص مع الحرص على سرعة الانجاز.

وكما هي عادتنا في إصدار مطبوعاتنا في لجنة تاريخ بلاد الشام، فإننا نحرص على تزويد الكتاب المطبوع بفهارس تفصيلية للأعلام والجماعات والمواقع والمصطلحات...الخ، لذا أقدم شكري لكل من الآنسة منال عيد حداد واحمد عبد القادر خريسات الذين قاما بإعداد الفهارس الملحقة بالكتاب.

ولقد ساهمت دوائر الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك كافة مثل العلاقات العامة وشعبة النقل ودائرة المطاعم في توفير أفضل الخدمات؛ وعليّ من باب الوفاء تقديم الشكر لكل العاملين فيها وأن أعبر عن شكري أيضاً إلى الملكية الأردنية لما بذلت من جهود في خدمة المشاركين والمسافرين على متنهاس، وكان وزير التعليم العالي والبحث العلمي الأستاذ الدكتور خالد طوقان قد قدم لنا دعماً مالياً للمساهمة في تغطية نفقات المؤتمر وطباعة المحاضر بعد تمييزها وتحريرها، فله وللوزارة كل الشكر والتقدير.

وفي الختام يسُرني أن أنوه بالدعم الكبير الذي تلقاه لجنة تاريخ بلاد الشام من الأساتذة رؤساء الجامعات الثلاثة الراعية والممولة لأعمال المؤتمرات والندوات العلمية التي تعقدها، ونتناول فيها جانباً من تاريخ بلاد الشام، وتمرس أعضاء اللجنة منذ أيار سنة ١٩٧٢م إلى اليوم بخبرة ومعرفة مفادُها أن تاريخ بلاد الشام وبقية الأقطار العربية ما زال ينتظر من يبحث فيه بشكل علمي وموضوعي حتى لا يبقى مطموراً أو عرضة للافتراس.

وكما هي العادة، اختتم كلمتي بقوله سبحانه وتعالى (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، ونضيف إلى ذلك قوله سبحانه وتعالى (رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)

صدق الله العظيم.

رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام

محمد عدنان البخيت

الجامعة الأردنية – عمان

١٦ شعبان ١٤٣٠هـ / ٢٨ تموز ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

رئيس وأعضاء لجنة تاريخ بلاد الشام

١. الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت	الجامعة الأردنية	رئيس اللجنة
٢. الأستاذ الدكتور علي محافظة	الجامعة الأردنية	عضواً
٣. الأستاذ الدكتور وكيل جامعة دمشق للشؤون العلمية	جامعة دمشق	عضواً
٤. الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب	جامعة دمشق	عضواً
٥. الأستاذ الدكتور عميد كلية الشريعة	الجامعة الأردنية	عضواً
٦. الأستاذ الدكتور عميد البحث العلمي	الجامعة الأردنية	عضواً
٧. الأستاذ الدكتور عميد كلية الآثار والانثروبولوجيا	جامعة اليرموك	عضواً
٨. الأستاذ الدكتور رئيس قسم اللغة العربية وآدابها	الجامعة الأردنية	عضواً
٩. الأستاذ الدكتور رئيس قسم التاريخ	جامعة اليرموك	عضواً
١٠. الأستاذ الدكتور رئيس قسم اللغة العربية وآدابها	جامعة اليرموك	عضواً
١١. الدكتور عمر موسى عميرة / كلية الهندسة والتكنولوجيا	الجامعة الأردنية	عضواً

المحتويات

المقدمة

محمد عدنان البخيت – رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام ——— ٣–٥

رئيس وأعضاء لجنة تاريخ بلاد الشام ——— ٧

١. أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية فيها في العصر الأيوبي

شكران خربوطلي ——— ١٣–٢٧

٢. الوظيفة الاجتماعية للوقف في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي

يوسف حسن غوانمة ——— ٢٩–٥٨

٣. أوقاف بلاد الشام في العهد المملوكي بين المصادرة والتملك بالاحتيال

خليل عثامنة ——— ٥٩–٧٦

٤. وقفية صالحة خاتون في دير عطية ٦٧٥هـ/١٢٧٦م

عبد الله حنا ——— ٧٧–١١٠

٥. دور الوقف في إنشاء ورعاية مساجد ومدارس حي الصالحية بدمشق

فالح حسين ——— ١١١–١٤١

٦. خزائن الكتب الموقوفة بجامع بني أمية في دمشق من القرن (٦هـ/١٢م – ١٠هـ/١٦م)

سمير الدروبي ——— ١٤٣–١٦٢

٧. أوَقافُ المماليك ببِلاد الشَّام على مُنْشَآتهم في القاهرة من خِلالِ خِطَط المقريزي

أيمن فؤاد سيّد ——— ١٦٣–١٦٧

٨. الأوقاف التنكزية في دمشق
اكتمال إسماعيل ١٦٩-١٨٢

٩. معطيات عن الأوقاف والحياة العلمية في دمشق وجوارها في أواخر العصر المملوكي:
يوميات المؤرخ الدمشقي ابن طوق أنموذجاً
عليان عبد الفتاح الجالودي ١٨٣-٢٠٩

١٠. واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي المتأخر (٨٠١هـ/١٣٩٨م - ٩١٥هـ/١٥٠٩م)
كتب التراجم واليوميات مصدراً
هند أبو الشعر ٢١١-٢٤٣

١١. الوقفيات الحجرية في حلب
طارق محمد جلال الدين عبد الحميد ٢٤٥-٢٦٨

١٢. كتاب وقف فاطمة خاتون : دراسة تحليلية
غيداء عادل خزنة كاتبي ٢٦٩-٣٠٧

١٣. وقف المرأة في لواء دمشق في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي
أسماء رمضان الشيخ خليل ٣٠٩-٣٥٥

١٤. المهايأة ووقف المياه في دمشق حسب دفاتر التحرير ذوات الأرقام ١٠٤، ٦٠٢، ٣٩٣
محمد عيسى صالحية ٣٥٧-٣٩٠

١٥. الأوقاف على الأيتام ومكاتبهم في دمشق وبعض المدن الشامية / حسب دفتر الطابو رقم
(٦٠٢) تاريخه(٩٩٠هـ/١٥٨٢م) المحفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء في
إستانبول
محمود محمد هملان الجبارات ٣٩١-٤٢٨

١٦. التجاوزات على الأوقاف في بلاد الشام وإجراءات الدولة العثمانية تجاهها : دراسة تاريخية في ضوء ما ورد في دفاتر المهمة
فاضل بيات ٤٢٩–٤٥٠

١٧. وقف عثمان باشا عام (١١٤٢هـ / ١٧٢٩م) على جامع الرضا بحلب ومشتملاته
راشد بن سعد القحطاني ٤٥١–٤٨٥

١٨. الوقف بين الشريعة والسلطة مثال وقف أسعد باشا العظم والي الشام (١٧٤٣م – ١٧٥٧م)
عبد الكريم رافق ٤٨٧–٥٠٢

١٩. واقع أوقاف المدارس بدمشق في النصف الأول من القرن الثامن عشر من خلال سجلات محاكم دمشق الشرعية
عبد المجيد شعبان ٥٠٣–٥٥١

٢٠. جمعية الثانوية المحسنية كأحد نماذج الأوقاف الإسلامية في القرن العشرين
بشرى خير بك ٥٥٣–٥٨٢

٢١. الأوقاف الفرنسيسكانية
حليم نجيم الفرنسيسكاني ٥٨٣–٦٢٨

٢٢. أوقاف الأديرة في دمشق خلال النصف الأول من القرن (١٢هـ / ١٨م) نموذج: وقف دير مارتقلا في معلولا
مهند مبيضين ٦٢٩–٦٤١

٢٣. أضواء على الأوقاف الأرثوذكسية في دمشق
جوزيف زيتون ٦٤٣–٦٦٧

٢٤. أوقاف السريان الأرثوذكس في بلاد الشام

المطران ثاوفيلوس جورج صليبا ________ ٦٦٩-٦٧٨

٢٥. Renovation and restoration of waþf property and their financing in Ottoman (Aleppo (18th and 19th century

Stefan Knost ________ ٧٢٥-٧٤٣

٢٦. The Copper Plates of Ipshir Muşţafā Pasha Waķf al-manķūl in early Ottoman Damascus

Astrid Meier & Brigitte Marino ________ ٦٧٩-٧٢٤

الفهارس ________ ٧٤٥-٩٥٩

إصدارات لجنة تاريخ بلاد الشام ________ ٩٦١-٩٦٥

أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية فيها في العصر الأيوبي

شكران خربوطلي*

المقدمة:

يعد تاريخ الأيوبيين من التواريخ الهامة بالنسبة للعالمين العربي والإسلامي، فقد واجهت هذه الدولة منذ تأسيسها الحركة الصليبية في أوجها، إذ كان الصليبيون قد استقروا في بلاد الشام، وأسسوا دولهم التي امتدت على طول الساحل الشامي، وما لبث هؤلاء أن قرروا احتلال مصر لتثبيت نفوذهم في الشام، وأخذت حملاتهم البحرية تطرق سواحل مصر وتهددها، وكثيراً ما رافق هذه الحملات البحرية زحف الجيوش البرية عبر فلسطين إلى سيناء فمصر.

ووقع عبء قتال الصليبيين، والقضاء على هجماتهم الشرسة في كثير من الأحيان على عاتق الأيوبيين، وقد نهض صلاح الدين الأيوبي مؤسس هذه الدولة بواجبه على خير ما يرام، وتمكن من استرداد مناطق واسعة في بلاد الشام، وقلص نفوذ إمارة إنطاكية إلى حد كبير، وكذلك فعل في إمارة طرابلس، وتمكن من القضاء النهائي تقريبا على إمارة بيت المقدس التي حرمت من مركزها الأول في مدينة القدس، ورضيت بمدينة عكا كمركز لها بعد أن عجزت جيوش الصليبيين من احتلال بيت المقدس ثانية، فأصبحت الإمارة لا تتناسب مع اسمها.

وجاء خلفاء صلاح الدين من بعده، فلم يستطيعوا أن يحملوا الأمانة كما يجب، وأخذ بعضهم يستنجد بالصليبيين ضد أقربائه في سبيل تحقيق منافع شخصية، ووقع العداء، والاقتتال بينهم، فكان بأسهم شديداً بينهم مما مد في عمر الاحتلال الصليبي لسواحل الشام مدة أخرى حتى كان عصر المماليك الذين تمكنوا من القضاء النهائي على الصليبيين[1].

لم يكن الجهاد المقدس أهم ما يميز تاريخ الأيوبيين، فقد برزت جهودهم في مجال التعليم وفتح المدارس المتعددة التي عمرت بها بلاد الشام ومصر.

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، الجمهورية العربية السورية.

(١) أمينة بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، دار الطباعة الحديثة، دمشق ١٩٨٢م، ص١. وسيشار إليه فيما بعد: بيطار، العصر الأيوبي.

أهمية دمشق:

كانت دمشق من المدن الأولى في بلاد الشام، وأسبق من القاهرة في مجال الحركة المدرسية[٢]، فساعدت على تكوين طبقة متعلمة ضمت بين جوانحها الرجال والنساء، وتقدمت العلوم الدينية والتاريخية وغيرها، وأصبحت المنطقة حيث امتدت الدولة الأيوبية، تعج بالمدارس على اختلاف أنواعها، وكان بناتها أو أفراد آخرون يدعمون استمرار ازدهارها بإيقاف الأوقاف عليها.

فدمشق هذه المدينة العريقة بماضيها، لم تسعد سعادة علمية حقيقية مثل سعادتها في عصر الأيوبيين –إذا استثنينا العصر الأموي– فمعظم مانراه من بقايا عمرانية فيها الآن هو من وضع ملوكهم، وأمرائهم، ومن وضع خدامهم وعتقائهم، وزوارهم.

ولقد تمتعت هذه المدينة على الرغم من الحروب الصليبية آنذاك بأزهى حلقة من تاريخها الثقافي، وتميزت وتفردت بمجد علمي عظيم تمثل بأسبقيتها في تأسيس المدارس وإجراء الأرزاق، والأعطيات لمدرسيها وطلابها، والقائمين عليها، وقد دام ذاك المجد إلى أواسط القرن التاسع الهجري، الرابع عشر الميلادي، وبعد ذلك أخذ هذا المجد بالأفول والتلاشي[٣] ليستعيد زهوه في العصور التالية.

وبما أن البحث في المدارس متشعب، وطويل، فقد ارتأينا الحديث عن مدارس دمشق وأوقافها في عصر السلطان المعظم عيسى حرصا منا على التقيد بمحاور الندوة، والزمن المخصص لكل بحث، ولأهمية دمشق في هذا العصر، ولكثرة رعاية السلطان المذكور للعلم والعلماء متناولين الأوقاف التي رصدت لها، لتستطيع تأدية هذا الدور والاستمرار في العطاء.

دوافع إنشاء المدارس:

لإنشاء المدارس دوافع ومؤثرات، ولعل أبرزها على الإطلاق الدافع الديني، فقد حث الإسلام على طلب العلم، والاهتمام بنشره، بدليل أن أول آيات القرآن الكريم نزولا على

---

(٢) – تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، مطبعة النيل ١٣٢٦هـ ج٤ ص١٩٣، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، الخطط.

– حسن شميساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ط١، ١٩٨٣، ص١٥، وسيشار إليه فيما بعد: شميساني، مدارس .

(٣) شميساني: مدارس ص٢٠.

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٥] وكذلك قوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[٦] وقوله تعالى أيضا: ﴿وقل ربي زدني علما﴾[٧].

أضف لذلك تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم. في الكثير من أحاديثه على طلب العلم: (العلماء ورثة الأنبياء)[٨] وقوله (أفضل الناس المؤمن المتعلم)[٩].

ولقد جعل عليه الصلاة والسلام العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فانسجاما مع مبادئ الدين الإسلامي، قام الأيوبيون ببناء المدارس التي تشكل الركيزة الأساسية لنشر العلم، وبثه بين أفراد الشعب على مختلف فئاته، وعلى الأخص الفقراء منهم حيث أمر لهم بمحاضر، وكتاتيب ألزم فيها بمعلمين لكتاب الله، وأوقف عليها أوقافاً يأخذ منه المعلم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم، ويكسونه، وكان الأيتام منهم مكفولون إلى أن يبلغوا الحلم بالنفقة، والكسوة، والطعام، وتعلم الآداب وحفظ القرآن، ومعرفة الحلال من الحرام[١٠].

والمفيد ذكره أن الاهتمام بنشر التعليم كان متوافقا مع الاهتمام العسكري، لأن الصراع في هذا العصر لم يكن صراعاً عسكرياً فحسب بل كان صراعا سياسياً، واقتصادياً، وحضارياً، ودينياً، وإذا كان الإنسان هو الدعامة الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة الإسلامية، فلا بد من إعداده إعداداً جيداً شاملاً، ومتكاملاً ليكون قادراً على مواجهة الزحف الصليبي، فبناء الإنسان لا يقل أهمية عن الإعداد العسكري ولربما استخدم الأيوبيون برامج دراسية فيما يسمى اليوم بالتعليم السياسي، وفي كل ذلك توحيد للجبهة الداخلية وتدعيمها للتصدي للخطر الخارجي ولا ننسى في الوقت ذاته نشر المذهب السني لإزالة

---

(٤) سورة العلق: آية ١.

(٥) سورة المجادلة: آية ١١.

(٦) سورة الزمر: آية ٩.

(٧) سورة طه: آية ١١٤.

(٨) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، صحيح البخاري، ضبط د. مصطفى ديب البغا، مطبعة الهندي ، القاهرة، ١٩٧٦م، ج١، ص٣٧. وسيشار إليه فيما بعد: البخاري، صحيح البخاري.

(٩) البخاري: صحيح البخاري ج١ ص٣٧.

(١٠) - أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م ص٢٤٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن جبير، الرحلة.

- أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف للنشر، بيروت، ١٩٥٤م، ص٢٨٥، وسيشار إليه فيما بعد: شلبي، تاريخ التربية الإسلامية.

معالم المذهب الشيعي(الإسماعيلي) الذي نشره الفاطميون[١١]، حيث كان باني المدرسة أو واقفها يحدد المذهب الذي سيدرس في مدرسته، وهذا ما سنبينه لاحقاً.

ولعل الصراع المذهبي آنذاك، ووجود الخطر الصليبي الذي كان يهدد ليس بابتلاع بلاد الشام فقط، بل جميع المناطق الإسلامية، وذلك بعد أن نجح الصليبيون في تأسيس دولات لهم في أنطاكية، والرها، وطرابلس، فضلاً عن مملكة بيت المقدس[١٢]، وهذا ما ترك أثره السيء في العالم الإسلامي، ودفع ببعض زعمائه إلى القيام بحركة جهاد واسعة، وكان لابد لنجاح هذه الحركة من أن تكون في ظل جبهة إسلامية عريضة، تمتد لتشمل العالم الإسلامي من النيل إلى الفرات، وبالتالي أن تكون متحدة القوى والمذهب، لتجعل من المسلمين بنياناً مرصوصاً يستطيعون معه الصمود والتصدي.

وكان التعليم أهم الوسائل التي اعتمدوا عليها، وبما أنهم أكراد[١٣] وحديثو العهد بالثقافة الإسلامية، لهذا كانوا بحاجة ماسة إلى رضي الخلافة العباسية من جهة، وإلى رضي الرعية من جهة ثانية، لذا لم يجدوا أمامهم طريقا يضمن لهم التوجيه المطلوب من توحيد المعتقد، وتوحيد المعتقد الذي هم عليه يتطلب إنشاء المدارس، والإكثار منها، فساد المذهب السني.

والجدير بالذكر هو اشتهار السلاطين الأيوبيين بميلهم الفطري إلى العلم، فقربوا إليهم العلماء والفقهاء والشعراء، وحضروا مجالسهم، وشاركوهم في أبحاثهم وناظروهم في مسائلهم، واستدعوهم إلى قصورهم لمسامرتهم، ومنادمتهم، ولأجل ذلك لا نعجب، والحالة هذه إذا ظهر في بني أيوب أعلام في مختلف ضروب المعرفة، فكان منهم العالم والأديب، والمؤرخ، والشاعر، ومن كان له مثل هذا الميل، فليس بالكثير عليه إذا رعى وتعهد الحياة المدرسية وساهم في إنشاء مؤسساتها، وساعد على تطورها وازدهارها[١٤].

---

(١١) – شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي أبو شامة، (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، د. ت، ج١ ص٢٠١-٢٠٢، وسيشار إليه فيما بعد: أبو شامة، الروضتين.
– شميساني: مدارس ص٢٦٥.

(١٢) المصدر السابق، ص٢٦٣.

(١٣) حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، منشورات المكتبة الأهلية، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص ٢٢٤، وسيشار إليه فيما بعد: أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي.

(١٤) شميساني: مدارس ص٢٦٨.

حياة المعظم عيسى العلمية:

يذكر أن المعظم عيسى[١٥] كان أحد علماء البيت الأيوبي حيث كان بارعاً في الفقه الحنفي، والأدب، والنحو، تفقه على جمال الدين الحصيري، لذا كان حنفياً متعصباً، وقرأ كتاب سيبويه على تاج الدين الكندي، وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات مستعيناً بغيره من العلماء، كان عالماً محباً للعلم والعلماء، مكرما لهم، مجتهدا في متابعة أعمال الخير، جمع بين الشجاعة والعلم والبراعة، وناظر العلماء، وتحدث معهم وكان عنده جماعة من الفضلاء لا يفارقونه في سفر أو حضر منهم فخر القضاة نصر الله بن براقة المصري الفاضل في فنون الأدب، والنظم، والرسائل، وشرف الدين بن عنين الدمشقي كاتب الإنشاء، والشاعر المبدع، الذي كان لا يجاريه أحد في النظم البديع، ولذلك ولاه المعظم الدواوين بدمشق وأسند له وزارة مملكته، وكان معجباً به وقد كان عمله هذا أكبر تكريم للأدب والشعر العربي، ولقد كان جمال الدين بن شيث كاتب الإنشاء،جيد الترسل فاضلا متأدبا له معرفة بصناعة الكيمياء[١٦]، وبلغ من حب المعظم للعلم أنه كان يجيز كل من حفظ المفصل للزمخشري بمائة دينار، ولمن يحفظ الجامع الكبير بمائتي دينار، ولمن يحفظ الإيضاح ثلاثين دينارا سوى الخلع[١٧]، وقد أمر بجمع كتاب في اللغة العربية يشتمل على صحاح الجوهري، والجمهرة لابن دريد، والتهذيب للأزهري كما أمر أن يرتب له مسند الأمام أحمد وكلف الفتح بن البنداري بترجمة شاهنامة الفردوسي إلى اللغة العربية فعربها البنداري فكانت هي الترجمة الوحيدة باللغة العربية.

---

(١٥) خير الدين الزركلي، الأعلام، ١٠ أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٤، ١٩٩٩م ، ج٥ ، ص١٠٧، وسيشار إليه فيما بعد: الزركلي، الأعلام.

(١٦) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المازني التميمي، (ت٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،تحقيق حسنين محمد ربيع، راجعه: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م ج٤ ص٢٠٨-٢١١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن واصل، مفرج الكروب.

(١٧) – الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)البداية والنهاية، ١٤ جزء، مكتبة المعارف، بيروت، الرياض، ١٩٦٦م، ج١٣ ص١٢١. وسيشار إليه فيما بعد: ابن كثير، البداية والنهاية.

– عبد القادر محمد النعيمي، (ت٩٢٧هـ / ١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق، جعفر الحسني، مطبعة الترقي ، دمشق، ١٩٤٨م، ج١ ، ص٥٨٠. وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

– شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان، تحقيق محمود بك البارودي، مكتبة عبد العزيز عتيق د. ت ج١ص٥٠١. وسيشار إليه فيما بعد: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

– تقي الدين ابو العباس احمد بن علي بن عبد القادر المقريزي(ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٣٤م ج١ ص٢٦١ . وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك.

وله مؤلفات كثيرة في نواح عديدة أشهرها كتاب السهم المصيب في الرد على أبي بكر الخطيب، وهو دفاع عن أبي حنيفة مؤسس المذهب الحنفي[١٨] وهو مطبوع.

قام بأعمال عمرانية واسعة نذكر منها خدمة للموضوع المدرسة المعظمية الحنفية بالصالحية[١٩]، في سفح جبل قاسيون الغربي، ولم تشد في عهده عندما استقل بالملك في دمشق أية مدرسة شافعية، واقتصر ذلك على بقية المذاهب، وهي الآن مدفن ومكانها مجهول[٢٠]

وكان للمدرسة أوقاف كثيرة من أراض وضياع، ودكاكين لم تذكر بالاسم عدا عن الأموال، ويفيد ابن شداد أن أول من درس بها القاضي مجد الدين قاضي الطور، ثم صدر الدين بن برهان الدين مسعود ثم من بعده القاضي شرف الدين عبد الوهاب الحوراني[٢١]، وأتمّ بناء المدرسة العادلية الكبرى داخل مدينة دمشق شمالي الجامع الأموي بغرب، وقد كان نور الدين زنكي قد بدأ بتأسيسها، ولكن الأجل عاجله قبل إتمامها، فتولى أمرها الملك العادل سيف الدين أبو بكر فتوفي قبل أن يتمها أيضا، ثم جاء ولده المعظم عيسى فأتمها ونسبها إلى والده العادل الذي دفن فيها[٢٢]. وأوقف عليها أوقافا سخية ذكر منها جميع قرية الدريج وجميع قرية ركيس، وجميع قرية نيطا، والباقي من هذه الأوقاف كان قد استولى عليه بعض أرباب الشوكة والنفوذ بطريق م لتقادم العهد[٢٣].

وقد أجمعت المصادر والمراجع على أن المدرسة العادلية الكبرى، كانت ولازالت إلى اليوم تعد من أعظم مدارس دمشق في العصر الأيوبي، لقد كانت أول مدرسة أنشئت لتدريس العلوم المختلفة من قرآن وحديث وفقه وأصول وكلام وطب ورياضيات وطبيعيات، وفلك

---

(١٨) – جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والطباعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة، ١٩٥٣م ، ج٦ ، ص٢٦٧. وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

– جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٧م ج٣ص٦٨. وسيشار إليه فيما بعد: زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية.

(١٩) – عز الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي، ابن شداد، (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٦م، ج٢ ص٢٢٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة.

– النعيمي :الدارس ج١ ص٥٧٩.

(٢٠) محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ج، مكتبة النوري، دمشق، ط٢، ١٩٨٣م، ص ٩٤، وسيشار إليه فيما بعد: كرد علي، الخطط.

(٢١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٢٠.

(٢٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٤٠ .

(٢٣) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٤٠، النعيمي: الدارس ج١ ص٣٥٩. وعلقين قرية من قرى حوران .

وتاريخ وأدب حتى أضحت قبلة العلماء والمتعلمين[٢٤]، درس بها وسكنها منذ إنشائها وحتى في العصور اللاحقة للعصر الأيوبي خيرة المشاهير، والأعلام منهم الجلال القزويني، والعلاء القونوني، وأبناء السبكي وابن جماعة، والفيلسوف الفقيه الكمال التفليسي، وابن مالك النحوي، والشهاب أحمد المنيني، صاحب التآليف المشهور من أهل المئة الثانية عشرة وأولاده من بعده[٢٥].

والمفيد ذكره أن المؤرخ أبو شامة صاحب كتاب الروضتين جمع كتابه هذا فيها، وذكر أن القطب النيسابوري أوقف كتبه على طلبة العلم، وبعد وفاته ٥٧٨هـ/١١٨٢م نقلت إلى المدرسة العادلية بعد إتمام بنائها[٢٦] وأن ابن خلكان جمع وفياته بها، وقرأ صحيح البخاري بها وأن الفيلسوف الشهير ابن خلدون نزل بها في أوائل المئة التاسعة[٢٧]، وقد وصف لنا أبو شامة الاحتفال بافتتاحها قائلا: حضر السلطان المعظم عيسى بن العادل، فجلس في إيوان المدرسة، وجلس عن يمينه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ثم فخر الدين بن عساكر، ثم القاضي محيي الدين الشيرازي ثم القاضي محيي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري ثم سيف الدين الآمدي، ثم شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، وجلس مقابل السلطان تقي الدين بن الصلاح، ودارت حلقة صغيرة فيها أعيان المدرسين والفقهاء والناس وراءهم، متصلون ملء الإيوان، وكان مجلساً جليلاً لم يقع مثله إلا في سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م واشترك السلطان مع الجماعة في الكلام العلمي.

والعادلية كانت إلى الأمس القريب مقر المجمع العلمي العربي بدمشق، الذي كان قد أسس في سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م، بعد أن رممت بما يقربها من الهندسة الأصلية وجعل قسم منها متحفا للآثار الإسلامية[٢٨].

---

(٢٤) محمد كرد علي، العادلية والظاهرية، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، عدد كانون الثاني، ١٩٢١م، ج١، ص٣٦، وسيشار إليه فيما بعد: كرد علي، العادلية والظاهرية.

(٢٥) النعيمي: الدارس ج١ص٣٦٢-٣٦٣.

(٢٦) أبو شامة: الروضتين ج١ص٢١٤.

(٢٧) - عبد القادر بن احمد، الشهير بابن بدران، (ت١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٠م، ص٢٥، وسيشار إليه فيما بعد: بدران، منادمة الأطلال.

- كرد علي: الخطط ج٦ ، ص٨٣.

- فيليب حتي، تاريخ العرب (مطوّل)، ترجمة: أدور جرجي، جبرائيل جبور، دار غندور للطباعة، بيروت ١٩٧٤م، ص٧٤٢ ، حاشية ٥، وسيشار إليه فيما بعد: حتي، تاريخ.

(٢٨) كرد علي: الخطط ، ج٦، ص٨٣.

وقد ذكر أنها أحرقت بالنار مرات عدة، في رمضان ٦٢٤هـ/١٢٢٦م[٢٩]، وثانية ٦٩٩هـ/١٢٩٩م في فتنة غازان التتري، وحكى ابن كثير في تاريخه أن العادلية خربت سنة أربع وسبعمائة، ويفهم من كلامه أنها كانت قبلها معطلة ثم جددت عمارتها، فعادت إلى أيامها، ثم انحطت عقب وقائع تيمور لنك فخلت من المدرسين، وتناولتها أيدي المحسنين، هذا عدا ما تناولها من الزلازل، ومع ذلك فإن ما بقي منها لا يزال في غاية الجمال والدقة، وهي اليوم العضو الأثري المهم المتبقي من مدارس العصور الإسلامية التي كانت مفخرة الشام والإسلام.

ويذكر أن هناك تقارباً كبيراً بين تخطيطها، وتخطيط المدرسة النورية الكبرى، ويرجح أن مهندسيها كانوا سوريين حلبيين. وأنها في رأي ابن بطوطة أكبر مدرسة شافعية كانت بدمشق[٣٠]

ولم يقتصر إنشاء المدارس على الرجال فقد ساهمت النساء في بنائها ووقف الأوقاف عليها، وكانت مساهمتهن واضحة في هذا المجال، وهذا يعني أنهن قد ساهمن في تنشيط الحركة الفكرية في هذا العصر، ففي الحقبة المدروسة، أنشأت عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين مودود صاحب ماردين، وزوجة السلطان الملك المعظم عيسى في سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م المدرسة الماردانية على نهر ثورا ملاصقة للجسر الأبيض بالصالحية[٣١] وهي الآن جامع عامر بالصلوات فيه مدفن بني المؤيد على حد تعبير محمد كرد علي[٣٢]، مسجلة من المباني الأثرية رقم ٦٨[٣٣]، وقد ذكر سوفاجيه أنه اكتمل بناؤها سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وأصبح شكلها الخارجي مشوه بعد ترميمها، يوجد فوق مدخلها من الجهة

– محمد أحمد دهمان، في رحاب دمشق، دراسات عن أهم أماكنها الأثرية ومقالات عن أهم حوادثها المجهولة وأبحاث ثقافية، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص١١١، وسيشار إليه فيما بعد: دهمان، في رحاب دمشق.

(٢٩) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ص٦٨.

(٣٠) Elissee ff,Nikita,Niir AD Din.tome3-Damas institut francais –de Damas, 1967 p.929 .

– شميساني: مدارس ص١٣٥.

– محمد عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: علي منتصر الكيلاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م، ص١١١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن بطوطة، الرحلة .

(٣١) – النعيمي: الدارس ج١ ، ص ٥٩٣ .

– كرد علي: الخطط ج٦ ، ص٩٤ .

(٣٢) كرد علي: الخطط ج٦، ص٩٤.

(٣٣) النعيمي: دور القرآن بدمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٣ م ص٥١، وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، دور القرآن.

الشمالية عتبة خشبية محفورة، وغرفة العبادة فيها محاطة من الداخل ببراويز خشبية، وللباب إطار خشبي دقيق الصنع، وفي المدرسة ثلاث قطع من الزجاج المحفور القديم، موجود في الحمامات، وساحة المدرسة مبلطة ببلاط جميل منظم[٣٤].

ومما يدل على مقدار عنايتها بشأن هذه المدرسة أنها خصصت لوقفها الكثير من الأوقاف منها بستان جوار الجسر الأبيض، وبستان آخر بجوار المدرسة، وثلاثة حوانيت بالجسر الأبيض، والحواكير جوارها[٣٥]. فهذه الأوقاف تؤمن الاستمرار لهذه المدرسة، وقد عثر على هذا الوقف في ستة ٨٢٠هـ/١٤١٧م في وثيقة بكشف سيدي محمد بن منجك الناصري، كما نصت هذه الشرطية على أن المدرس بها لا يكون مدرسا بغيرها[٣٦]، وهذا يعني أن كان من صلاحيات باني المدرسة تحديد ما يراه مناسباً من الشروط لضمان أداء وظيفتها التعليمية حتى لو كان بانيها امرأة.

وقد كان الصدر الخلاطي، ومن بعده برهان الدين بن التركماني، ومن بعده شمس الدين ملكشاه المعروف بقاضي بيسان ثم من بعده برهان الدين حمزه بن خلف بن أيوب، ثم من بعده إبراهيم بن عقبة في سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ثم تولاها بعده شمس الدين مشرف العجمي الذي استمر بها حتى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[٣٧].

وقد لمس ابن جبير عندما زار مدينة دمشق مشاركة النساء في الحركة الفكرية التي ازدهرت في هذا العصر، فقال: (ومن النساء الخواتين، ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط، أو مدرسة، وتنفق عليها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف)[٣٨]. فالمرأة والرجل على حد سواء ساهما في ازدهار الحركة التعليمية في هذا العصر.

ولم يقتصر أمر إنشاء المدارس ووقفها في هذا العصر على الأحرار، والسادة، وأفراد الأسرة الحاكمة، فالناس دائما يتأثرون بأخلاق رؤسائهم، وزعمائهم، وحكامهم، والناس

---

(٣٤) Sauvaget ,Jean ,Les Manumen t Snis Toriques de Damas ,Beyrouth. imprime rie .catholique. 1932. p. 62

– شميساني: مدارس ١٦٠.

(٣٥) –ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ، ص٢٢٧ – ٢٢٨. π

– النعيمي: الدارس ج١ ص٥٩٢.

(٣٦) النعيمي: الدارس ج١ ص٥٩٢.

(٣٧) شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، جزآن ، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م، مكتب الدراسات الإسلامية ١٩٤٩م، ج١، ص٦١. وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، القلائد الجوهرية.

(٣٨) ابن جبير: الرحلة ص٣٤٦.

جميعا تبع في مجاراتهم، ومحاكاتهم، وتقليدهم، وقد قالوا: الناس على دين ملوكهم، لذا ساهم العبيد، أو الخدم، والعتقاء منهم في بناء المدارس، وهذه الميزة تحسب للأسرة الأيوبية، وللدين الإسلامي الذي يرد لهذه الفئة إنسانيتها، وكرامتها، فعند تحريرها تستطيع فوراً أن تمارس دورها في الحياة العامة، فقد بنى الطواشي شبل الدولة كافور الحسامي في سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م المدرسة الشبلية الجوانية داخل باب الجابية[٣٩] وهي اليوم أمام محكمة الباب الشرعية، وقد انطمست الآن معالمها، وعفت آثارها، وأصبحت دورا للسكن على حد تعبير محمد كرد علي[٤٠] وبنى في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م المدرسة الشبلية البرانية بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر نهر ثورا[٤١] وقيل بقاسيون عند جسر كحيل بطريق الصالحية[٤٢]. وقيل أيضا هي فوق جسر ثورا من طريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قطعة يسيرة قاومت صروف الزمان، ولهذه المدرسة شهرة في مكانها، وإلى اليوم لا يزال يوجد موضعها حوض ماء، وإيوان، وبعض القبور الماثلة للعيان[٤٣].

وذكر أنها أنشئت بعد وفاة شبل الدولة بأشهر تنفيذا لوصيته وحملت اسمه فيما بعد، وقيل إنها من أقدم مدارس الحنفية بدمشق، أنشأها شبل الدولة كافور بن عبد الله الحسامي الرومي المعظمي طواشي حسام الدين لاجين، ولد ست الشام وذلك قبل وفاته، ومن أوقاف هذه المدرسة قرية بيت نائم بأواخر الغوطة[٤٤].

يحكى أن شبل الدولة كافور الحسامي كان دينا، صالحا، وافر الحرمة وله منزلة عند الملوك، اعتمدت عليه ست الشام في بناء تربتها ومدرستها الشامية البرانية بالعوينة[٤٥] التي رممتها الأوقاف العربية السورية بإشراف مديرية الآثار، وهي اليوم مدرسة ابتدائية

---

(٣٩) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٠٨.

(٤٠) كرد علي: الخطط ج٦ ، ص٩١-٩٢.

(٤١) - ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٢٧.
- النعيمي: الدارس ج١ ص٥٣٠.

(٤٢) شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، المعروف بأبي شامة(ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، ذيل الروضتين، أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري، تحقيق عزت العطار الحسني، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٤٨ - ١٥٠. وسيشار إليه فيما بعد: أبو شامة، ذيل الروضتين.

(٤٣) كرد علي: الخطط ج٢ ص٢٢٧ .

(٤٤) بدران: منادمة الأطلال ص١٧٧.

(٤٥) - أبو شامة: الروضتين ج٢ ص١٩٥.
- ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٥٤.

للأيتام تقوم بها جمعية الاسعاف الخيري[٤٦].

ومما يذكر أنه كان حنفي المذهب له صدقات داره وإحسان كثير[٤٧] فقد بنى بجانب المدرسة الشبلية البرانية خانقاه، ووقفها على الصوفية، ووقف عليهما القناة، والمصنع، وفتح للناس طريقاً من عند المقبرة غربي المدرسة الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش، ولم يكن لهم قبل ذلك طريق إلى الجبل من هناك.

وكانت وفاة الشبل في رجب ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ودفن إلى جانب المدرسة، وكان قد سمع من الكندي أبو اليمن وغيره[٤٨].

والجدير بالذكر أنه كان قد اسند إلى مولاه بشاره بن عبد الله الأرمني الأصل بدر الدين الكاتب، النظر في أوقافه، وجعله في ذريته فنظروا فيه سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بعد وفاة بدر الدين في تلك السنة[٤٩].

وقد وصف ابن طولون في كتابه تاريخ الصالحية هذه المدرسة بأنها تشمل على حرم له شباك غربي مطل على جنينة خاصة بالمدرسة، وآخر غربي أيضا مطل على الطريق الآخذ إلى نهر ثورا، وللحرم ثلاثة أبواب أوسطها الأكبر، وبصحن المدرسة ثلاثة لواوين الشرقي، والغربي منهما بهما عمودان من رخام، وفي صدر الإيوان الشمالي باب مدفن الواقف وأعلاه وأعلى المدرسة خلاوى، وفي هذا لإيوان الشمالي بيت الخلاء ولتربة الواقف شباك، وباب إلى الطريق، وفي الإيوان الشرقي باب المدرسة، وفوقه سيباط متسع به خلاوى، وقد فكت في أيام ابن طولون بعضها، وبعض السيباط، وفي طرف حائطه الشرقي (أي الحائط الشرقي من الإيوان الشرقي) جرن ماء، وكان في قبلي المدرسة قاعة لطيفة للأمام فكت، وأضيفت إلى جنينة المدرسة[٥٠].

درس بالشبلية البرانية، وأعاد بها عظماء كبار من قضاة وعلماء، وفقهاء، وشيوخ، ذكر منهم الشيخ صفي الدين السنجاري، وكان أول من درس بها، وعلم إنه كان ضريراً فاضلاً، عالما استمر حتى وفاته فوليها من بعده شمس الدين بن الجوزي بمرسوم من الملك المعظم،

---

(٤٦) كرد علي: الخطط ج٦، ص٧٩.

(٤٧) أبو شامة: ذيل الروضتين ص١٥٠.

(٤٨) - النعيمي: الدارس ج١ص ٥٣٠.
- ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١١٦ .

(٤٩) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٨ .

(٥٠) ابن طولون: القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص٢٠٣-٢٠٤.

وحضر عنده أول يوم القضاة، والأعيان[٥١] ثم من بعده وجيه الدين محمد، وكان أيضاً عالماً فاضلاً إلى أن توفي فوليها من بعده جمال الدين يوسف، ثم من بعده نور الدين بن قاضي آمد، واستمر حتى استيلاء التتار على الشام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م[٥٢].

وكان من مدرسي هذه المدرسة أبو شامة شهاب الدين المقدسي، ثم تقي الدين بن أبي الغر الحنفي، وكان صدراً من الصدور[٥٣].

والجدير بالذكر أنه من بين الذين ساهموا في بناء المدارس في هذا العصر العلماء منهم الضياء أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي توفي ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م والذي أفنى عمره في الدين والورع، والفضيلة والفقه، بنى المدرسة الضيائية المحمدية، ويقال لها دار الحديث الضيائية، ودار السنة بسفح جبل قاسيون[٥٤] وقد أوقف عليها أوقافاً كثيرة شملت غالب دكاكين السوق الفوقاني[٥٥]، وحوانيت، وجنينة في النيرب، وأرض بسقبا، وكان يؤخذ لأهلها ثلث قمح ضياع وقف دار الحديث الأشرفية، وهي الدير والدوير والمنصورة والتليل والشبرقية[٥٦].

ويقال أنه وفر لها ما تحتاج إليه من الكتب منها كتب بخطه بخزانة المدرسة انتفع بها الناس جميعاً، وقد أعانه أهل الخير على إتمامها، وقد كان للمدرسين والطلاب بها أرزاق[٥٧].

شملت المدرسة على مسجد له باب غربي أمام باب خلوة الكتب، ولهذا المسجد شباكان مطلان على صفة بها بير ماء، وهذه الصفة في صحن هذه المدرسة، ودايرها خلاوى سفلية وعلوية، وفي شرقيها بيت الخلاء، وفي قبلي بيت الخلاء باب المدرسة الخارج وهو قدي[٥٨].

وبسفح جبل قاسيون أيضا أنشأ ضياء الدين محاسن توفي ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م المدرسة

---

(٥١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١١٢.

(٥٢) – ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٢٧.
– النعيمي: الدارس ج١ ص٥٣٢.

(٥٣) زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص٧٠؛ شميساني: مدارس ، ص١٦٥.

(٥٤) – ابن طولون: القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٣٠.
– كرد علي: الخطط ج٦ ص٩٩.

(٥٥) النعيمي: الدارس ج٢ ص ٩١ .

(٥٦) – ابن طولون: القلائد الجوهرية ، ج١ ص١٣٩ .
– عبد الله محمود حسين، الإسهام العمراني والعلمي لبني قدامة في الشام، دار النمير، ١٩٩٥ م ص٧٣. وسيشار إليه فيما بعد: حسين، الإسهام العمراني.

(٥٧) شميساني: مدارس ١٦٨.

(٥٨) ابن طولون: القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٣٩–١٤٠.

الضيائية المحاسنية، بقي منها الآن أربع نوافذ وجدار[٥٩]، وقفها على من يكون أمير الحنابلة يذكر فيها الدرس[٦٠] وقد ذكر في ترجمته أنه حسن السلوك قليل التعصب، ماتنافس في منصب ولا أكل من وقف، بل كان يتقوت من شكارة تزرع له في حوران، وما آذى مسلما قط، ولا تنعم في ملبس، ولا في مأكل، كثير العبادة، قرأ عليه جماعة، وحدث ودفن بجبل قاسيون[٦١].

من قراءة الأمثلة السالفة يمكننا القول أن العصر الأيوبي عصر سادت فيه الحركة العلمية، وأن جميع شرائح المجتمع ساهمت في تنشيط هذه الحركة، فظهر التنافس، والتمايز كل يريد لمدرسته أن تظهر بأبهى حلة، فرصدت الأوقاف الكثيرة لضمان استمراريتها وللإنفاق على الأساتذة والمعيدين والطلبة، فانصرف الجميع إلى علمهم في جو من الاطمئنان وراحة البال، وقد اختلفت الرواتب تبعا لشهرة المعلم، ومكانته العلمية والمدرسة التي يدرس فيها، وهذا يعني أن الراتب كان يتفاوت من معلم آخر، أضف لذلك أن توفير الأموال كان يهيء للمدرس سبل التفرغ من أجل العلم وتدريسه، وقد حدثنا عبد اللطيف البغدادي، أنه رحل إلى دمشق طلبا للمخصصات الغزيرة فقد كان يأخذ كل شهر مئة دينار[٦٢].

وما يلفت الانتباه أنه جرت العادة في هذا العصر أنه إذا مات الفقيه، أو المعيد، أو المدرس، وكان أبناؤه جديرين بتولي منصبه في المدرسة، كانت تخصص لهم رواتب من مال الأوقاف، يظهر ذلك من خلال قراءتنا للشروط التي وضعها واقفو المدرسة الشامية الجوانية فهم قد خصصوها من أجل الفقهاء، والمتفقهة الشافعية، وكمثال على ذلك أنه عهد التدريس في المدرسة المذكورة إلى قاضي القضاة زكي الدين أبي العباس الطاهر أحمد بن محمد بن علي القرشي، إن كان حيا، فإن لم يكن حيا فعلى ولده، ثم ولد ولده، ثم نسله المنتسبون إليه ممن لهم أهلية التدريس شرط أن يكونوا من أهل الخير والعفاف والسنة، غير منسوبين إلى بدعة، فهم حريصون على حسن الخلق من جهة، والكفاءة العلمية من جهة أخرى.

ولم يقتصر طلب العلم في هذا العصر على العلوم الدينية، بل شمل العلوم الدنيوية، حيث أكدت بعض المصادر والمراجع على أن صناعة الطب كانت مزدهرة، ونشطة في العصر

---

(٥٩) كرد علي: الخطط ج٦ ، ص٩٧.

(٦٠) -ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٥٨ .
- النعيمي: الدارس ج٢ ص٩٩ .

(٦١) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي،(ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي ١٣٥١هـ، ج٥ ،ص٢٢٣ م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن العماد، شذرات الذهب .

(٦٢) دهمان: في رحاب دمشق ص٢٦٠ .

الأيوبي، وإن كانت مدارس هذه الصناعة تبدو قليلة، حيث أرجعت المصادر سبب هذه القلة إلى أن الطب كان لا يدرس في مدارس خاصة إلا نادرا شأنه في ذلك شأن سائر العلوم كعلم الهندسة، والفلك، والتاريخ، والطبيعيات، وغيرهم.

فالبيمارستان كان في ذلك العصر هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، ففي إيوانه كانت تلقى النظريات العملية الطبية، وفي حجراته كان طلاب الطب ينسابون بين صفوف المرضى، ويجرون التطبيقات العلمية بإشراف أساتذتهم الأطباء ومنه كانت تتخرج في أغلب الأحيان جماعات الطلبة في مختلف أصناف الطب فكان منهم الطبيب، والجراح، والفاصد، والكحال، والأستاتي، وغير ذلك[٦٣]، وفي إيوانه أيضا كانت تعقد المناظرات، والمناقشات بين الأطباء لبحث مرض استعصى، أو دواء اكتشف، أو لحل سريع أوجد.

وإلى جانب هذه المجالس التعليمية الطبية التي كانت تقوم في رحاب البيمارستان كانت هناك مجالس خاصة يقيمها الموصوفون بصناعة الطب في دورهم مع المشتغلين عليهم[٦٤]، وشجع الأيوبيون العمل بصناعة الطب، فاهتموا بمراكزها، وعمالها، ويسروا للمشتغلين فيها من أطباء، وطلاب سبل المعاش، وأعفوا المرضى في كثير من الحالات من دفع النفقات، وهذا ما أشار إليه الرحالة ابن جبيرحين زار دمشق أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ودخل المستشفى النوري، فقال: (وجراحته في اليوم الخمسة عشر ديناراً وله موظفون مشرفون، ومعهم لوائح بأسماء المرضى، وبالنفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية، والأغذية، بالإضافة إلى الأطباء الذين يبكرون إليه كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يلائمهم من الأدوية، والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم)[٦٥].

وقد ذكر من مدارس الطب في دمشق في العصر الأيوني مدرستان الدخوارية والدنيسرية. فالدخوارية أنشئت في عهد الملك المعظم عيسى، وكان موقعها بالصاغة القديمة[٦٦] قرب الزاوية الخضراء بدرب العميد قبلي الجامع الأموي[٦٧]،وفي رواية أنها شرقي المناخلية،

---

(٦٣) جرجي زيدان، تاريخه التمدن الإسلامي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٣١م، ج٣ ، ص١٨٧-١٨٩، وسيشار إليه فيما بعد: زيدان، تاريخ التمدن .

(٦٤) كرد علي: الخطط ج٦ ، ص١٠٢.

(٦٥) ابن جبير: الرحلة ص٢٥٧.

(٦٦) - ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٦٥.
- أبو شامة: نيل الروضتين ص ١٥٩ .

(٦٧) - النعيمي: الدارس ج٢ ص١٢٧ .

وهي اليوم دور سكن[٦٨] أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م[٦٩] شيخ الطب، صنف التصانيف فيه، وحظي عند الملوك، وكان دخله في الشهر مائة وخمسين ديناراً، وله إقطاع يعادل ستة آلاف وخمسمائة دينار[٧٠] وقد كانت أوقاف هذه المدرسة ضياعا، وأماكن يستغل منها ما ينصرف في مصالحها، وفي راتب المدرس، والمشتغلين بها، ووصى أن يكون المدرس بها شرف الدين علي بن الرجبي[٧١].

وفي رواية أنشأها عبد المنعم بن علي المعروف بالدخوار. أما المدرسة الدنيسرية فقد ذكر أنها أنشئت بعد المرحلة الزمنية مجال البحث لذا نترك التعريف بها.

- عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي الشافعي،(ت٩٨١هـ / ١٥٧٣م)، تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق: صلاح المنجد، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق ١٩٤٧م .ص١٣٦. وسيشار إليه فيما بعد: العلموي، تنبيه الطالب.

(٦٨) كرد علي: الخطط ج٢ ص١٢٧ .

(٦٩) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٦٥ .

(٧٠) بدران: منادمة الأطلال ص٢٥٣ .

(٧١) موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ابن أبي اصيبعة، (ت٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٧٢٨. وسيشار إليه فيما بعد: ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء.

الوظيفة الاجتماعية للوقف في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي

يوسف حسن غوانمة*

نظمت الصحيفة التي أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة الأسس الأولى للدولة الإسلامية الناشئة، كما حددت حرية الاعتقاد والمساواة في المواطنة والحماية والأمن والعدل ومنع الظلم لأفراد المجتمع كافة. وكانت أساسا لتنظيم المجتمع الإسلامي الجديد الذي تطور فيما بعد بتطور الحضارة العربية الإسلامية التي اشتملت عدة أنظمة اهتمت بالإنسان وحياته ومستقبله، نذكر منها (نظام الأوقاف) الذي ازدهر مع ازدهار الحضارة الإسلامية. وكان للأوقاف دورها الخاص في المدن الإسلامية المختلفة لما امتازت به من حياة اجتماعية متعددة الألوان واسعة النشاط، متباينة المؤسسات والمنشآت، مما جعل تلك الحياة في تلك المدن تتصف بالحيوية والإبداع والمحبة والإخاء والتعاون والتكافل الاجتماعي.

والوقف لغة الحبس، وتعني المنع من التصرف، ويشترط في الموقوف أن يكون ملكا للواقف وقت الوقف، وهو عمل من أعمال البر والخير، يقوم به الإنسان بمحض إرادته. وللوقف أهداف وغايات ودوافع نبيلة اجتماعية وإنسانية وعلمية ودينية[1]. والرسول صلى الله عليه وسلم استنبط الوقف لمصالح لا توجد في معظم الصدقات، هدفها خدمة فئات المجتمع كافة، وإشاعة التكافل والترابط بين أفراد المجتمع الواحد، وهذا ما امتاز به الإسلام وحض عليه ودعا إليه. حتى إن الوقف غطى كثيراً من متطلبات المجتمع بعد أن تطورت وتشعبت أهدافه وأغراضه ووظائفه، وأصبح عنصراً مهماً من عناصر المجتمع الإسلامي. وقد نهضت الأوقاف برسالة عظيمة في رعايتها المؤسسات الاجتماعية والخيرية العديدة التي حفلت بها مدن إسلامية كثيرة، والتي استطاعت البقاء والاستمرار طويلا في أداء رسالتها الإنسانية والاجتماعية دون أن تتوقف بعد وفاة مؤسسها، وذلك بفضل نظام الوقف الذي كفل استمرار وديمومة تلك المؤسسات والمنشآت المتعددة الأغراض والأهداف، بسبب المورد المالي الثابت الذي ضمن لها البقاء والاستمرار مئات السنين. ولم

* قسم التاريخ، جامعة اليرموك، الأردن.

(١) محمد عبيد عبد الله الكبيسي، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، جزآن، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٧م، ج١، ص ٢٦، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠. وسيشار إليه فيما بعد: الكبيسي، أحكام الوقف.

تقتصر الأوقاف على الأراضي الزراعية بل شملت الدور والقصور والأسواق والحوانيت والحمامات، والأفران والمطاحن والمعاصر ومصانع الصابون، وغراس الزيتون والفواكه، والقياسر، والقرى بكاملها أو جزءاً منها. وبلغت الأوقاف من الكثرة في مدينة دمشق حتى قال ابن جبير فيها: (حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه) [٢].

لم تكن الرعاية الاجتماعية في مجملها من مهمة الدولة، بل كان قسم كبير منها من مهمة الجماعة الإسلامية (فكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين فيها السلطان أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها، وهذه أيضا من المفاخر المخلدة. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة (مبادرة) مشكورة عند الله)[٣]. ومن هنا يظهر لنا أهمية الوقف في التكافل الاجتماعي، وتوفير الرعاية الاجتماعية للفئات الفقيرة والمحرومة والمحتاجة، ولكل ما فيه نفع عام للمجتمع والإنسان وكل منحى من مناحي حياته. ومن أبرز تلك الأوقاف نذكر :

الأوقاف الخاصة برعاية الأيتام

حض الإسلام على العناية بالأيتام والإحسان إليهم والحفاظ على أموالهم ورعايتهم، نذكر من ذلك إنشاء المكاتب لتعليمهم، لذا تسابق الخيرون في إنشاء مكاتب لتعليم الأطفال، ووقفوا عليها الأوقاف الكبيرة. وقد شاهد الرحالة ابن جبير في مدينة دمشق عند زيارته إليها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، الاهتمام الكبير الذي يوليه أهالي دمشق بالأوقاف، وتعدد أغراضها حتى عدها من مفاخر تلك البلاد، فهو يقول: (وللأيتام من الصبيان محضرة (مكان إقامة) كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم)[٤]. ويتعلم الأطفال في مكاتب خاصة بهم القرآن الكريم والخط وكتب الأشعار. والمعروف أن التعليم في صدر الإسلام كان في المساجد، إلا أن تعليم الصغار والصبيان في المساجد كان غير مستحب، لذا أقيمت لهم هذه (الكتاتيب) الخاصة، للأيتام ولغير الأيتام، ووقفت عليها الأوقاف لتعليمهم وكسوتهم. ففي سنة (٨٤٧هـ / ١٤٤٣م) وقف أبو العباس أحمد زين الدين دلامة دار القرآن الكريم الدلامية بدمشق، ونصت الوقفية

(٢) أبو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكناني(ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٢٣، وسيشار إليه فيما بعد: ابن جبير، الرحلة

(٣) ابن جبير ، الرحلة، ص ٢٢٣.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٠.

أنه رتب فيها: (ستة أيتام مكانهم المكتب أعلى بابها، وكل منهم له عشرة دراهم شهرياً، وقرر لهم شيخاً يعلمهم له من المعلوم ستون درهماً في كل شهر، ولكل من هؤلاء الأيتام جبة قطنية وقميص ومنديل)[٥]. وهناك وقفية تمسنك الحسيني على تربته ومسجده ومكتبته في محلة قبيبات من دمشق. وجاء من شروط هذه الوقفية أن يكون في هذه التربة والمسجد والتكية عشرة أيتام يتعلمون القرآن الكريم، ويصرف لهم ما هو معين في كتاب الواقف[٦].

أما وقفية طارق حارثة بن عبد الله من أوقاف القدس الشريف المؤرخة سنة(٧٦٣هـ / ١٣٦١م) فقد نصت هذه الوقفية على أن يصرف من ريعها على عشرة أيتام من المسلمين، فلكل واحد منهم في كل يوم ثلث رطل خبز بالدمشقي وربع درهم فضة، كما يصرف لكل منهم كل ستة أشهر كسوة كاملة، وهي قميص ولباس ومداس وقبع وملوطة (رداء يشبه العباءة) أو فروة، ويصرف لمعلمهم ما يراه ناظر الوقف[٧].وهناك وقفية حسام الدين أبي محمد الحسن بن ناصري على مدرسته بالقدس الشريف والمؤرخة سنة ٩٣٨هـ / ١٥٣١م) ونصت هذه الوقفية على أن يصرف منها لعشرة أيتام يدرسون داخل المدرسة المذكورة القرآن الكريم على فقيه خاص له في الشهر ثلاثون درهماً، ويصرف لكل واحد من هؤلاء الأيتام في كل شهر سبعة دراهم ونصف، بالإضافة إلى نصف رطل خبز[٨].ومن شروط وقفية عبد الباسط على الخانقاة الباسطية بالقدس المؤرخة سنة (٨٣٤هـ / ١٤٣٠م) أن يصرف منها على عشرة أيتام من أيتام المسلمين، بحيث يصرف لكل يتيم منهم في الشهر خمسة عشر درهماً، أما مؤدبهم فيصرف له في كل شهر خمسون درهماً، على أن يعلم الأيتام المذكورين القرآن الكريم والخط العربي. ونصت الوقفية كذلك على أن يصرف للأيتام في عيد الفطر من كل سنة برسم كسوتهم ثلاثون درهماً لكل واحد منهم[٩].ويصرف منها كذلك على الفقراء والمساكين من ذوي الحاجات والفاقة. هذه نماذج قليلة من أوقاف الأيتام التي لعبت دوراً اجتماعياً إنسانياً رائداً في مجتمع بلاد الشام.

---

(٥) عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م) الدارس في أخبار المدارس، جزآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٨. وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

(٦) أوقاف أملاك المسلمين في فلسطين، حسب الدفتر رقم ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، تحقيق محمد ابشرلي ومحمد داود التميمي، نشر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٨٢م، ص ١٧. وسيشار إليه فيما بعد: أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين .

(٧) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٢٦ .

(٨) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٩) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٣٨

أوقاف لعلاج المرضى والعناية بهم (البيمارستانات):

حظي المرضى بقدر كبير من الرعاية الطبية والتخفيف عنهم ورعايتهم، ومداواتهم وعلاجهم، فأقيمت البيمارستانات لهذه الغاية. وزودت هذه البيمارستانات بالأطباء والصيادلة والممرضين، نذكر من ذلك البيمارستان النوري الذي أنشأه الأمير نور الدين محمود زنكي (سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م) في مدينة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكبيرة ولم يجعله وقفا على الفقراء، حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير. زاره الرحالة ابن جبير في القرن السادس الهجري فقال إنه مفخرة من مفاخر الإسلام، وأن مقدار ما يصرف عليه في اليوم خمسة عشر ديناراً. وقد عين نور الدين زنكي لهذا البيمارستان قومة بأيدهم الازّمة (السجلات) المحتوية على أسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. وكان الأطباء يأتون مبكرين إلى البيمارستان في كل يوم يتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يحتاجونه من الأدوية والعلاجات[١٠]. وكان أمر الطب في البيمارستان النوري بين يدي الطبيب محمد بن عبد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي وذلك بأمر من نور الدين نفسه، وهو من أفضل الحكماء المشهورين بدمشق[١١] وكان للبيمارستان النوري أوقاف كثيرة في مدن وقرى عديدة في بلاد الشام. واستمر هذا البيمارستان يؤدي دوره حتى العصر العثماني، فقد ذكر محمد عدنان البخيت في كتابه (ناحية بني كنانة) أن أوقافا في هذه الناحية رصدت لهذا البيمارستان في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)[١٢].

وأقام صلاح الدين يوسف الأيوبي بيمارستانا بالقدس بعد أن حررها من الفرنج سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وسمي (البيمارستان الصلاحي)، ووقف عليه الأوقاف العديدة، وجعل

---

(١٠) ابن جبير، الرحالة، ص ٢٣٠

نور الدين محمود زنكي: مؤسس الدولة النورية في دمشق، وأصبح جاراً عنيداً للفرنج في مملكة بيت المقدس، وكانت له صولات وجولات معهم وحرر العديد من القلاع والأماكن من الفرنج وضم مصر إلى دولته بقيادة أسد الدين شيركوه توفي في دمشق سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق، بنى البيمارستانات ومنها البيمارستان النوري وبنى العديد من الربط والخانقاوات ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأمر عليهم الادرارات الصالحة. انظر: علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بان الأثير، (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٦١، ١٧٠، ١٧٢) وسيشار إليه فيما بعد: ابن الأثير، التاريخ الباهر.

(١١) النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٠٨.

(١٢) محمد عدنان البخيت، ناحية بني كنانة (شمالي الأردن الحالي) في القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩م، ص ١٥، ١٦. وسيشار إليه فيما بعد: البخيت، ناحية بني كنانة.

النظر في هذه الأوقاف للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف باب شداد (ت٦٣٢هـ / ١٢٣٤م). وبقى هذا البيمارستان يؤدي دوره في علاج المرضى في العصرين الأيوبي والمملوكي، فالوثيقة رقم (٢٠) تاريخ ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس نصت على أن جعفر بن محمد أبا بكر السعاد من أهالي القدس، وقف الدار الكائنة بخط باب العامود على مصالح البيمارستان الصلاحي[١٣]. وقد جدد وقف هذا البيمارستان في نهاية دولة المماليك الثانية سنة (٩١٠هـ / ١٥٠٤م) نذكر بعض ما اشتمل عليه الوقف وهو: ثلاثة عشر بيتاً في محلة القطانين، وفران وقبو طاحون في سوق الزيت، ودكاكين ومخازن ومعصرة ومحاكر أرض كرم خارج باب العامود، وصهريج ماء كبير عند باب البيمارستان، ومزرعة حارة الإفرنج، وغراس زيتون، وحكر خان زيت مع حكر قبان زيت، وخمسة مخازن بجانب البيمارستان، وفرن قرب حمام علاء الدين في محلة قطانين، وأحد عشر مخزناً داخل البيمارستان المذكور، ومعصرة جوار البيمارستان، بالإضافة إلى ثلاثة عشر دكاناً في سوق الزيت، وستة بيوت في حارة اليهود[١٤].

وهناك البيمارستان الذي أنشأه الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق (سنة٧٤١هـ / ١٣٤٠م) في مدينة صفد، ووقف عليه أوقافا كبيرة من جملتها قيسارية للتجار في مدينة عجلون[١٥].وكانت هذه البيمارستانات في معظمها توقف لعلاج الفقراء دون الأغنياء، ولكن

---

(١٣) يوسف حسن غوانمة، القدس الشريف، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٥. وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، القدس الشريف.

ابن شداد: التحق بخدمة صلاح الدين الأيوبي، وأصبح من أخص أصحابه وأقربهم منزلة إليه، حتى عينه قاضياً للجيش، ويعتبر كتابه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) من أهم مصادر سيرة صلاح الدين. انظر: يوسف حسن غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية.

(١٤) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٤٥، ٤٦.

(١٥) يوسف حسن غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص ١٦٧، ٢٨٧. وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، التاريخ الحضاري.

تنكز بن عبد الله : كان من مماليك السلطان لاجين وبعد مقتل لاجين أصبح من خاصكية السلطان الناصر محمد بن قلاوون، جعله الناصر محمد نائباً على دمشق سنة(٧١٢هـ/ ١٣١٢م) وقربه وتزوج من ابنته، كما زوج ابنتيه من ابني تنكز. منحه تقليداً بتفويض الحكم في جميع الممالك الشامية بأسرها. تغير عليه فألقى القبض عليه وحبسه في سجن الإسكندرية ثم قتله فيها سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، له أملاك وأوقاف عديدة وثروة طائلة. (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٠ج، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص٣٠، ١٥٤، ٢٤٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

إذا لم يجد الأغنياء علاجاً لأمراضهم فيمكنهم العلاج في هذه البيمارستانات، وهذا يؤكد الأهمية الاجتماعية لمثل هذه المؤسسات العلاجية وأوقافها التي كرست للخدمة الإنسانية وتخفيف الآلام عن المرضى والمحتاجين، وهذه من أسمى رسالات الحضارة الإسلامية.

أوقاف لتدريس طلاب العلم المغتربين

لقي الغرباء العناية والرعاية في المدن الشامية، وخاصة أولئك القادمين من المغرب العربي والأندلس، لأن مجموعات من تلك البلاد قدموا إلى بلاد الشام ومصر لأسباب أمنية أو طلباً للعلم أو لأداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس. وخصصت لهؤلاء المنقطعين الغرباء مأوى خاص بهم، ولكي لا يضطرون إلى السؤال كان الخيرون من أهالي دمشق يؤمنون لهم الأعمال التي تكفي نفقاتهم وإقامتهم. نذكر من تلك الأعمال والوظائف، كأن يصبح الواحد منهم إماماً في مسجد، أو أن يسكن في مدرسة تجري عليه النفقة، أو أن يلتزم في زاوية من زوايا الجامع الأموي يجبى إليه فيها رزقه، أو أن يقوم بقراءة القرآن الكريم، أو أن يعمل في سدانة مشهد من المشاهد المباركة يقيم فيه ويجري عليه ما يقوم به من أوقافه. فعلى العموم فالغريب المحتاج كما يقول ابن جبير: (إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه)[١٦]. أما أولئك الذين لديهم مهنة أو أنهم مارسوا مهنة أو خدمة فباستطاعتهم العمل حراساً في البساتين، أو يخدمون في الحمامات والطواحين وغيرها من الأعمال التي توفر لهم حياة كريمة[١٧].

قيسارية: جمعها قياسر أو قيساريات، وهي أبنية تقوم بمهمة الأسواق ولا تختلف وظيفتها عن الفنادق والخانات، وبها حوانيت تؤجر للتجار، كما تقوم القيسارية بجانب مهمة البيع والشراء بمهمة نزل وإقامة التجار وخزن بضائعهم وحفظ أموالهم (يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٨٣).

صفد: مدينة لها قلعة حصينة تقع بجبال عاملة شمال فلسطين الحالية، وكانت نيابة مستقلة في العصر المملوكي، أنظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، خمسة أجزاء، نشر دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٣م، ج٣، ص ٤١٢) وسيشار إليه فيما بعد: ياقوت الحموي، معجم البلدان

عجلون: اسم علم فاحد ملوك مؤاب اسمه (عجلون)، وعجلون مدينة تقع في أحضان منطقة جبلية جميلة غير بعيدة عن جبل عوف الذي بنى صلاح الدين الأيوبي على قمته قلعة عجلون وهي ذات موقع استراتيجي حصين، كان لها أهميتها في العصر الأيوبي والمملوكي وجعلها الظاهر بيبرس نيابة مستقلة (يوسف حسن غوانمة، المساجد الإسلامية القديمة في منطقة عجلون، منشورات مركز الدراسات الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م، ص ٤٥، ٤٦، ٤٨) وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، المساجد الإسلامية القديمة.

(١٦) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٥.

(١٧) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٥.

ومن السلاطين والأمراء الذين خصصوا أوقافاً لطلاب العلم المغاربة، نذكر نور الدين محمود زنكي الذي وقف أوقافاً كثيرة يصرف ريعها عليهم، وهي: طاحونتان وسبعة بساتين وأرض زراعية وحمام ودكانان بالعطارين، وبلغ ريع هذا الوقف سنوياً خمسمائة دينار. وهناك أثرياء وتجار وقفوا عدداً كبيراً من الأوقاف في دمشق لطلاب العلم حتى قال ابن جبير: أن مرافق الغرباء في دمشق كثيرة وعديدة لا تحصى، وخصوصا لطلاب العلم والمنتمين إليه[١٨] لذلك يدعو ابن جبير الطلاب المغاربة بأن يرحلوا إلى هذه البلاد المشرقية (بلاد الشام ومصر) طلباً للعلم على فقهائها وأشياخها وفي مدارسها الكثيرة، وسوف يجدون ما يعينهم في الوصول إلى أهدافهم بسبب فراغ البال من أمر المعيشة، لأن هذا الأمر من أصعب المعوقات.

في طلب العلم فإذا كان الطالب همته عالية ومجداً ومجتهداً، فلا شك في أنه سينال مبتغاه، لأن جميع الظروف مهيأة له، ولا عذر للمقصّر (فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء كفى بذلك شرفاً لها)[١٩]. ولم يقتصر وجود طلاب العلم على دمشق بل استقبلت القدس أفواجاً عديدة، منهم طلاب العلم، ومنهم المهاجرون، فوجدوا كل رعاية وعناية، بل سكنوا وأقاموا في حارة خاصة بهم عرفت (بحارة المغاربة) بجوار المسجد الأقصى. وفي هذا الصدد يذكر مجير الدين الحنبلي أن الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق، وقف حارة المغاربة هذه على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم، ذكورهم ونسائهم، وثبت مضمون هذا الوقف لدى حكام الشرع الشريف بعد وفاة الواقف[٢٠].

أوقاف لتوفير مياه الشرب للمحتاجين (الأسبلة والسقايات) :

من المنشآت الاجتماعية التي أدت خدمة جليلة للمجتمع الأسبلة لتوفير مياه الشرب

وانظر: محمد بن عبد الله اللواتي المعروف بأن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة، جزآن، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ج١، ص١١٨ وسيشار إليه فيما بعد: ابن بطوطة، الرحلة .

(١٨) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٢.

(١٩) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢٠) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي المقدسي المعروف بمجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزآن، نشر مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م، ج٢، ص ٩٩. وسيشار إليه فيما بعد: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل.

لعابري السبيل. وكان الهدف من إنشاء هذه الأسبلة هو طلب الثواب من الله، لذا عمد الموسرون إلى بنائها وأوقفوا عليها الأوقاف التي تساعد على بقائها واستمرار الخدمة التي تؤديها. ولما كانت القدس من المدن التي تفتقر لمورد مائي مستمر؛ لذا فاعتمادها كان على مياه الأمطار، أو على المياه التي تجلب إليها عبر القنوات من أماكن بعيدة، كقناة السبيل الواصلة إليها من عين العروب (بين القدس والخليل) التي قام بعمارتها السلطان الظاهر خشقدم[٢١].وقد كثر إنشاء الأسبلة في هذه المدينة لتوفير الماء للوضوء والشرب مجاناً لأهلها وللوافدين إلى المسجد الأقصى، وكذا بالنسبة إلى مدينة الخليل ونابلس وغيرهما من المدن الشامية قليلة المياه.

ومعظم الأسبلة المقامة في ساحة الحرم القدسي أقيمت على آبار جمع مياه الأمطار، فالملك العادل أخو صلاح الدين بنى عدداً من الأسبلة للوضوء والشرب داخل الحرم القدسي[٢٢]. ومن الأسبلة المشهورة في القدس السبيل الذي أقامه السلطان أينال (ت٨٦٥هـ / ١٤٦٠م)، والذي قام بتجديد عمارته فيما بعد السلطان قايتباي سنة (٨٨٧هـ / ١٤٨٢م)، ففرش أرضه بالرخام، وأصبح في هيأة لطيفة[٢٣].وذكر ابن جبير وجود (السقّايات) المخصصة للوضوء والشرب في مدينة دمشق، ويكون في صحن كل سقّاية حوض من الحجر مستطيل، ولكل سقّاية خمسة أنابيب أو أكثر، ترمي الماء في ذلك الحوض، وتخدم هذه السقايات الغرباء وسواهم في دمشق. (والبلد كله سقّايات قلما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه من سقاية، والمرافق به أكثر من أن توصف)[٢٤].

وكان المزملاتي هو الذي يوزع الماء على من يطلبه، واشترطت فيه شروط جسمية وخلقية خاصة، كأن يكون سليماً من العاهات والأمراض، حسن المعاملة مع الناس ودوداً. وكان عليه تنظيف السبيل وغسله وتبخيره وكنسه، ويشترط في الأدوات المستخدمة في السقاية أو جلب الماء أن تكون نظيفة صالحة. أما سقاة الماء في الكيزان فعليهم نظافة أزيارهم وتغطيتها وغسلها باستمرار لإزالة الأوساخ المتجمعة فيها، أما الكيزان فعليهم

(٢١) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٩ وانظر: كامل العسلي (تحرير) القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م، ص ٢١٧، ٢١٩، وسيشار إليه فيما بعد: العسلي، القدس في التاريخ.

(٢٢) كامل العسلي (تحرير) القدس في التاريخ، ص ٢٠٨.

(٢٣) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٣٣٠
سعيد عبد الفتاح عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، مجلد ١١، العدد الأول، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٠م، ص ١١٦. وسيشار إليه فيما بعد: سعيد عاشور، الحياة الاجتماعية.

(٢٤) ابن جبير، الرحلة، ص ٢١٩، ٢٢١.

غسلها وتبخيرها لأنها تتغير من أفواه الناس، وكان هؤلاء يتكسبون من السقاية [٢٥] وقد نصت الوثيقة رقم (٢٢) من وثائق المتحف الإسلامي في القدس المؤرخة سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) على وقف إحدى القرى في معاملة القدس، يصرف ريعها على جامكية (راتب) الخطيب والمؤذن ومصالح السقاية في القدس الشريف. أما الوثيقة رقم (٧٧) من وثائق المتحف الإسلامي في القدس، فنصت على وقف عشرة حوانيت في سوق الليل معقودة بالحجر والجير ارتفاعها ستة أذرع بالعمل، ومعها بئر ماء عمقها أربعون ذراعاً، وقفت على السقاية ولمنفعة المسلمين[٢٦].

وهناك علاقة بين الأسبلة والكتاتيب، فقد كان بعض الكتاتيب يقام فوق الأسبلة. والسبيل عادة يتكون من طابقين، الأدنى يشتمل على مورد للماء، يستقي منه الناس، أما العلوي فيستخدم (كتّابا) لتعليم الأطفال. وقد أقبل الناس على الإكثار من بناء هذه الأسبلة في عصر دولة المماليك في مصر والشام كعمل من أعمال البر، وحبسوا عليها الأوقاف للصرف على التلاميذ ومعلميهم، وتوفير ماء الشرب لمن يحتاجه من الناس. وقد وجد في الكرك أحد هذه الأسبلة وقام بتجديد بنائه قاضي الكرك عماد الدين أحمد بن عيسى المقيري (ت ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، وقد عثر على لوحة بقلعة الكرك تثبت ذلك، وعليها نقش من ثلاثة أسطر هي:

جدد هذا السبيل

احمد بن عيسى الحاكم

بالكرك سنة ثمنين وسبعمائة [٢٧]

وظلت حرفة السقاية بالقدس مستمرة في العصر العثماني، وشكلوا طائفة خاصة بهم، كان لها شيخ، وقد عين الحاج خليل بن كانون في سنة (١٠١٠هـ/ ١٦٠١م) شيخاً ومتكلماً على طائفة السقايين بالقدس[٢٨].

---

(٢٥) محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الاخوة (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩م) معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣٤٨. وسيشار إليه فيما بعد: ابن الاخوة، معالم القربة، انظر: سعيد عاشور، الحياة الاجتماعية، ص ١١٧.

(٢٦) غوانمة، القدس الشريف، ص ١٦٣.

(٢٧) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٦٤.

(٢٨) محمود علي عطا، وثائق الطوائف الحرفية في القدس في القرن السابع عشر الميلادي، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، ط١، ١٩٩٠م، ص ١٩٩. وسيشار إليه فيما بعد: عطا، وثائق الطوائف الحرفية في القدس.

أوقاف النظافة والطهارة للفقراء (الحمامات):

حض الإسلام على النظافة، ويحب الله تعالى المطهرين والمتطهرين، فالنظافة من الإيمان، لذا اهتم المجتمع الإسلامي بإنشاء الحمامات العامة التي يرتادها الناس من جميع الفئات رجالاً ونساءً للاستحمام. ولم يكن في معظم البيوت حمامات خاصة بسبب صعوبة نقل المياه إلى تلك البيوت، لذا انتشرت الحمامات في المدن الشامية حتى إن ابن جبير ذكر عند زيارته لدمشق أن عددها بلغ مائة حمام[٢٩].وقد أوقفت بعض هذه الحمامات على مرافق متعددة كالمساجد والمدارس والخانقاوات نذكر من ذلك ما وقفه الأمير عبد الله بن عبد ربه بن عبد الباري سنجر الدواداري الصالحي على الخانقاة الدويدارية في القدس سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، وشمل هذا الوقف أماكن متعددة في فلسطين والشام منها: قرية بيت نبالا (قرب رام الله)، وقرية حجلا من أعمال أريحا، ودار ومصبنة وستة حوانيت ووراقة وحمام الملكة في مدينة نابلس، وثلاثة بساتين، وثلاثة حوانيت في بيسان (بغور الأردن)، وقرية طبرس من أعمال قاقون[٣٠].أما الناصر محمد بن قلاوون فقد بنى حماماً في مدينة الكرك وأوقفه سبيلاً[٣١]

وقد جاء في وثيقة وقف السلطان الأشرف شعبان (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م) رقم (٤٩) محفظة(٨) المؤرخة في ٣ جمادى الأولى ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، الموجودة في دار الوثائق القومية بالقاهرة، أنه وقف قرية آدر (قرب الكرك في الأردن الحالي) والبستان والحمام في الكرك على مصالح مدرسته التي أنشأها في القاهرة. وجاء في وصف الحمام أنه يشتمل على مشلح بأربعة قناطر حجارة بجنب بسراويل بجنب اتنعشري، وعليه قبة معقودة بالطوب الآجر، وبه ايوانان شرقي وغربي، معقود ذلك بالطين والحجر، وبهما مقصورتان معقودتان بالحجر والطين، وفي وسطه فسقية برسم الماء البارد. وبالمشلح المذكور باب يتطرق منه إلى بيت السخن في دهليز، وعن يمين الدهليز بيت البارد يشتمل على قبة وحوض كبير. يتطرق من الدهليز المذكور إلى بيت وسطاني، يشتمل على قبة وحوض وخلوة فيه من جهة القبلة يشتمل على قبة وحوضين[٣٢]...الخ. والملاحظ أن بعض هذه الحمامات كانت تقدم الخدمة

(٢٩) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٣٥.

(٣٠) غوانمة، القدس الشريف، ص ١٦٣.

(٣١) غوانمة، التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، دار الفكر، عمان، ط٢، ١٩٨٢، ص ١٨٥. وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، التاريخ السياسي.

(٣٢) لقراءة نص وقفية البستان والحمام بوادي الكرك انظر: يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٢٩٠-٢٩٢.

مجاناً خصوصاً للغرباء وعابري السبيل وطلاب العلم من الصوفية وغيرهم. والبعض الآخر كان القيم يتقاضى أجوراً من المستحمين وهذه الأجور تعود إلى الوقف، فقد أشارت الوقفية رقم (٤٦) تاريخ ٧٤٧هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس أن حمام البترك أو البطرك كان وقفاً على الخانقاه الصلاحية بالقدس، وقد استأجر هذا الحمام داود بن نصر وشقيقه أحمد بمبلغ ثلاثة عشر درهم فضة يومياً، عشرة دراهم أجرة الحمام، وثلاثة ترصد لتنظيفه. وقد دفع المستأجران القسط الأول وقدره ثلاثمائة درهم أجرة شهر كامل، أما الباقي فيقسط ويدفع عند غروب شمس كل يوم[٣٣].

وكانت هذه الحمامات تحت إشراف المحتسب فيأمر القائمين على تلك الحمامات بغسلها وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر، يفعلون ذلك مراراً في اليوم، ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة، كما يغسلون الأحواض من الأوساخ المجتمعة في المجاري، وعليهم استعمال البخور في اليوم مرتين. كما عليهم أن لا يدخلوا الأبرص والمجذوم إلى الحمامات، وأن يكون في الحمامات مآزر يؤجرونها للناس، ويتفقد المحتسب ورجاله الحمامات في كل يوم لإدامة النظافة والطهارة فيها، والمحافظة على صحة المستحمين وعدم نقل العدوى للأصحاء[٣٤].

أوقاف لخدمة المسافرين والزائرين (الخانات) :

من مفاخر الحضارة الإسلامية كثرة المؤسسات والمنشآت التي تقام كي تقدم خدمة جليلة للمجتمع بجميع فئاته، نذكر منها الخانات التي كانت تبنى على الطرق العامة خارج المدن لتؤمن الراحة للمسافرين والعابرين، وبعضها كان يقام في المدن نفسها لخدمة الغرباء القادمين إلى تلك المدن. ولم يكن بناء هذه الخانات وقفاً على السلاطين والأمراء، وإنما كان يتولى بناءها كذلك التجار والأعيان، وكانوا يوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، وكان بعض تلك الخانات يسمى باسم بانيه وواقفه[٣٥]. وقد أمنت هذه الخانات الراحة للمسافرين عبر الدروب والمسالك في أنحاء البلاد، فالمقريزي ذكر بأن المرأة كانت تسافر بمفردها راكبة أو ماشية من دمشق إلى القاهرة دون ما حاجة إلى أن تحمل طعاماً أو شراباً. فقد كان الطعام

وعن وقفية قرية آنر انظر: يوسف غوانمة، وقفية قرية آنر في : دراسات في التاريخ والآثار الأردنية، نشر دائرة الآثار العامة، عمان، الأردن، ١٩٨٢م، ص ٣٦٣ – ٣٧١، وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، دراسات.

(٣٣) غوانمة، القدس الشريف، ص ٢٠٩.

(٣٤) ابن الاخوة، معالم القربة، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٣٥) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٠٥، ٢٠٩.

والشراب متوفرين في هذه الخانات التي كانت تقام عادة بجانب قرية أو نبع ماء، ومعظمها تقدم خدمة مجانية للعابرين والمسافرين من مأكل ومشرب ومنامة، بالإضافة إلى أنها كانت تقدم النعال للرجال وحذاء الخيل للدواب[٣٦]. نذكر من ذلك ما ذكره ابن جبير عن خانات بلاد الشام، فقد ذكر أن لمدينة حلب ربض كبير فيه من الخانات ما لا يحصى عدده، وقد نزل هو نفسه في خان يعرف بخان أبي الشكر، فأقام فيه أربعة أيام. وفي طريقه من حلب إلى دمشق أقام في عدة خانات، ووصف هذه الخانات بأنها كالقلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد، وهي من الوثاقة في غاية. وعندما وصل إلى حمص نزل بخان السبيل الذي يقع بظاهر المدينة، ومن ثم نزل في خان السلطان الذي بناه السلطان صلاح الدين الأيوبي بين حمص وحماة، وهذه الخانات كلها مزودة بالماء والطعام للنزلاء ورواحلهم[٣٧].

وبنى السلطان الظاهر بيبرس خاناً في القدس سنة (٦٦٢هـ/١٢٣٦م) وأقيم هذا الخان خارج أسوار القدس، وهناك لوحة تأسيسية من الرخام أثبت عليها الظاهر بيبرس إنشاء هذا الخان، وجدت هذه اللوحة أثناء ترميم قبة الصخرة سنة ١٩٦٠م، يحتفظ بها المتحف الإسلامي بالقدس، وقد فقدت أجزاء من النقش بسبب تحطيم الرخامة إلى جزأين، أما النقش الباقي فهو من ثمانية اسطر على النحو التالي :

١. بسم الله الرحمن الرحيم.... وصلى الله على سيدنا محمد وآله
٢. مما أمر بإنشاء هذا الخان المبارك... وايه الجسيم (؟)
٣. مولانا السلطان الأعظم... مالك رقاب الأمم ملك
٤. العرب والعجم والترك... الملك الظاهر
٥. ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحي... قسيم أمير المؤمنين
٦. ضاعف الله اقتداره... واعز نصره
٧. وكتب في آخر... سنة اثنتين وستين وستمائة
٨. والحمد لله وحده.... واله وسلم[٣٨].

ثم أن الظاهر بيبرس بنى فرناً وطاحوناً برسم هذا الخان لطحن القمح وإعداد الخبز وتوزيعه على كل من يبيت في هذا الخان من المسافرين أو القادمين إلى القدس لزيارة الأماكن المقدسة، بالإضافة إلى إصلاح زرابيل (نوع من الأحذية يلبسه الخدم) الذين يحتاجون

(٣٦) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٦٣.
(٣٧) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠.
(٣٨) غوانمة، القدس الشريف، ص ١٣٧.

منهم. ووقف السلطان بيبرس على هذا الخان عدة قرى ببلاد الشام والقدس منها ثلاثة قراريط في قرية الطرة (شمال الأردن قرب الرمثا)، وثلث وربع قرية المشيرفة من بلد بصرى، ونصف قرية لفتا الواقعة شمال غربي القدس[٣٩]. وأثبت هذا الوقف على قطعة رخامية يوجد جزء منها في المتحف الإسلامي بالقدس تحت رقم (زم ١٤)، والنص الباقي من النقش من أربعة اسطر :

١. (هذا) الخان المبارك أربعة عشر قراطاً من جميع الضيعة

٢. (من) أعمال بصرى والحصة الثانية والنصف من لفتا من ضياع القدس

٣. ثلاثة أسهم وثلث ثمن عشر سهم من أربعة وعشرين سهما

٤. (لاجل) إطعام الواردين من الفقر(اء) والمساكين تقبل الله منه وضاعف حسناته[٤٠].

وذكر النعيمي أن التاجر أمين الدين بن البص (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) بنى خاناً بالمزيريب (راس الماء) بحوران، كما عمر خان اللجون في فلسطين براس وادي عارة قبالة مصطبة السلطان، وقد حصل النفع بهم للمسافرين إلى الديار المصرية وغيرها[٤١]. أما التاجر شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن المزلق (ت ٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤م) فقد أنشأ كما ذكر النعيمي على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة في كل من: القنيطرة (في الجولان)، وجسر يعقوب، والمنية، وعيون التجار، وكلها على الطريق المؤدي من دمشق إلى عقبة أفيق في الجولان ومنها إلى وادي اليرموك ومن ثم إلى غور الأردن، وظل هذا الطريق مستخدماً في عصر دولة المماليك الثانية [٤٢] وقد أنفق ابن المزلق على عمارة هذه الخانات ما يزيد على مائة ألف دينار، وكل هذه الخانات فيها الماء، وجاءت في غاية الحسن، ولم يسبقه

---

(٣٩) المرجع السابق، ص ١٣٧.

بصرى: مدينة من أعمال دمشق، قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديما وحديثاً (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤٤١).

(٤٠) غوانمة، القدس الشريف، ص ١٣٨.

(٤١) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ١٨٢.

(٤٢) غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٥م، ص ١٣٠، وسيشار إليه فيما بعد: يوسف غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية القنيطرة : قرية من حوران جنوب دمشق وتقع في الجولان الحالي (الباحث).

جسر يعقوب، المنية، عيون التجار، مواقع على الطريق الذي يطرقه المسافرون في طريقهم إلى عقبة أفيق ومن ثم إلى غور الأردن وفلسطين ومصر (الباحث).

أفيق: قرية من حوران (الجولان) في طريق الغور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق ، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٢٣٣.

أحد من الملوك والخلفاء كما يقول النعيمي لمثل ذلك، ووقف أملاكه الطائلة على مشاريعه الخيرية العديدة[٤٣]. وذكر النعيمي كذلك أن الشيخ زين الدين عبد الرحمن أبا بكر بن داود القادري المولود سنة(٧٨٣هـ/ ١٣٨١م) عمر خانا بقرية الحسينية من وادي بردى على طريق بعلبك طرابلس كي يأوي إليه المسافرون[٤٤]. وهناك خان خطاب بين الكسوة وغباغب بناه الأمير عز الدين خطاب بن محمود بن مرتعش (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، وقد حصل للكثير من المسافرين به رفق، وكان للشيخ خطاب ثروة من المال كبيرة وأموال أملاك[٤٥].

أوقاف للعناية بالنساء الأرامل والمطلقات والقواعد والفقراء من الناس أولى المجتمع الإسلامي كل العناية والاهتمام بالنساء الأرامل والقواعد (ذوات العاهات) والمطلقات والفقيرات اللاتي لا مأوى لهن، فالإسلام حض على التكافل والتعاون ومد العون للفقير والمحتاج، وهذه من سمات الحضارة الإسلامية السمحة المتسامحة. وكانت المرافق الدينية كالزوايا والمساجد والأربطة والخانقاوات مقراً لهن، ووقف أهل الخير من الموسرين على هذه الفئة من أفراد المجتمع الأوقاف يصرف ريعها على خدمتهن وتوفير الحياة الكريمة لهن من مأكل ومشرب وملبس وعناية صحية، وخصص من يقوم بخدمتهن وتوفير كل متطلباتهن. ويذكر النعيمي أن الأوقاف التي وقفها نور الدين زنكي على الأعمال والمنشات العديدة من بيمارستانات ومدارس ودور الحديث وعلى الفقراء والعلماء والفقهاء والأيتام والأرامل والمساكين كانت تدر مبلغ تسعمائة دينار صوري(نسبة إلى مدينة صور) في الشهر[٤٦].

وكانت بعض الزوايا تقدم الطعام لمن يأتي إليها، نذكر من ذلك زاوية على مقام

---

(٤٣) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ٢٢٤.

بعلبك: مدينة قديمة تبعد عن دمشق مسافة اثني عشر فرسخا (وتقع في لبنان الحالي)، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤٥٣.

طرابلس: وتسمى طرابلس الشام تقع في الإقليم الرابع وهي على ساحل البحر المتوسط (شمال لبنان الحالي)، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٦.

(٤٤) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ١٥٨.

الكسوة: قرية في أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٦١.

غباغب: قرية في أول حوران من جنوب دمشق، وهي على طريق القوافل المتجهة إلى مصر والحجاز (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٨٤)

(٤٥) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ١٩٠

(٤٦) المصدر السابق، ج١، ص ٤٦٨

الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن الجراح في عمتا بغور الأردن، يقدم فيها الطعام لأبناء السبيل، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة في طريقه قادماً إليها من عجلون. ومن الزوايا الأخرى التي ذكرها ابن بطوطة أثناء تجواله في بلاد الشام، زاوية في كرك نوح من البقاع في لبنان يطعم فيها الوارد، وقد وقف صلاح الدين الأيوبي عليها الأوقاف العديدة[٤٧]. وهناك زاوية في اللاذقية بناها علاء الدين البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم، عمر هذه الزاوية وجعل بها الطعام للوارد والصادر[٤٨].

ومن الخوانق (مفردها خانقاه) المخصصة للنساء تلك التي ذكرها ابن شداد في مدينة حلب وهي: خانقاة فاطمة خاتون بنت الملك الكامل، وخانقاة نور الدين محمود زنكي، وخانقاة بنت سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وخانقاة زمرد خاتون وأختها بنتا حسام الدين لاجين عمر، وأمهما أخت صلاح الدين الأيوبي، وخانقاة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر أم الملك العزيز محمد صاحب حلب[٤٩]. ووقف الأمير دكز على مدرسته في باب السلسلة بالقدس وعلى رباط النساء الذي أنشأه هناك سنة (٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) وقفاً يتألف من: حكر خان، وحمام قرب المدرسة، ودكاكين جوار المدرسة في سوق القطانين، ودكاكين في أماكن مختلفة، ومحصول قبان بجوار دار ابن أبي شريف، وكلها بالقدس، بالإضافة إلى دكاكين وحمام في غزة[٥٠]. أما الشيخ برهان الدين إبراهيم بن شريف القدس فقد وقف في سنة (٩١٦هـ / ١٥١٠م) تسع حصص من قرية طيبة الاسم، واثنتي عشر حصة من قرية نجم واثني عشر حصة وربع وثمن حصة من قرية بيت نعم، وكلها من أعمال القدس، بحيث يصرف من ريع هذا الوقف على الأرامل المنقطعات بالرباط

---

(٤٧) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ٨٠، ٨٢

عمتا: قرية بغور الأردن فيها قبر أبي عبيدة عامر بن الجراح (ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٥٣)

كرك نوح: بفتح الكاف وتسكين الراء، قرية في أصل جبل لبنان وهي ليست الكرك بفتح الكاف والراء انظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٥٢ .

(٤٨) ابن بطوطة، الرحلة ج١، ص ٩٨.

(٤٩) عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم المعروف بابن شداد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ج١ ق١، ص ٢٣٦. وسيشار إليه فيما بعد: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة.

الخانقاة: أماكن أعدت خصيصاً للصوفية وطلاب العلم، ولم تكن معروفة قبل الدولة الأيوبية وخصص بعضها لأغراض إنسانية أخرى ، انظر: غوانمة، المساجد الإسلامية القديمة، ص٧١ .

(٥٠) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٣٨.

المخصص لهن في مدينة القدس[٥١].

وذكر ناصر خسرو عند زيارته لمدينة الخليل أن هناك أعداداً كبيرة من الناس يزورون الحرم الإبراهيمي بالخليل، وقد أعد لهؤلاء الضيوف والزائرين والمسافرين (مضيف) يقوم على خدمتهم وتقديم الطعام إليهم. ومن أجل ذلك بني طاحون وفرن لتوفير الدقيق وصنع الخبز، وكان يقدم لكل شخص يومياً رغيف من الخبز وطبق من العدس المطبوخ بالزيت وشئ من الزبيب، وكان الزوار لهذا المرفق الإنساني الخيري يبلغ في بعض الأيام خمسمائة زائر[٥٢]. إلا أن هذا الطعام تنوع في عصر دولة المماليك فمجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) يذكر أن (سماط سيدنا الخليل عليه السلام يعمل فيه ليلة الجمعة الأرز المفلفل والحب رمان والعدس في كل يوم، وفي الأعياد تعمل الأطعمة المفتخرة)[٥٣]. ووقف على هذا السماط الأوقاف الكبيرة سواء من السلاطين أو الأمراء أو الأثرياء، نذكر ما قدمه السلطان جقمق(ت٨٧٥هـ / ١٤٧٠م) فقد أنعم على الوقفين بالقدس والخليل مبلغ ألفين وخمسمائة دينار ذهباً، ومائة وعشرين قنطاراً من الرصاص برسم العمارة، بالإضافة إلى مائة وعشرين غرارة من القمح قيمتها ثلاثة آلاف وستمائة دينار ذهباً، كما أمر بتوفية الديون التي ترتبت على الوقف جراء ثمن الغلال (القمح والحبوب) وقيمته أربعة آلاف وسبعمائة دينار من الذهب[٥٤]. أما الشيخ مجد الدين عبد الملك أبي بكر الموصلي (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م)، فقد أوقف الأوقاف التالية: قرية نعلين تابعة للرملة، وقرية جبعا البطيخ تابعة للقدس، وغراس التين والمشمش وغير ذلك القائم أصوله بأرض الصلاحية بالقدس، واشترط أن يصرف ريع تحصيل هذا الوقف على سماط سيدنا الخليل عليه السلام[٥٥]. وفي سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩١م) وقف شمس الدين المزلق كلاً من: قرية كفر ياسيف التابعة لعكا، ومزرعة سمونية من أعمال طبرية، ومزرعة كفر عنان التابعة لجيرة مع مزارعها، ونصت الوقفية على أن يصرف ريع هذه الوقفية لذوي العاهات والمجذومين بالشام[٥٦]. وقد توقف سماط الخليل عليه السلام فترة فأعاده السلطان فرج سنة (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) فابن حجي

---

(٥١) المصدر السابق، ص ٢٧.

(٥٢) أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي، سفر نامة، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م، ص ٧٣، وسيشار إليه فيما بعد: ناصر خسرو، سفر نامة.

(٥٣) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج١، ص ٩٧.

(٥٤) المصدر السابق، ج١، ص ٩٧.

(٥٥) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٣٣.

(٥٦) المصدر السابق، ص ٦٧.

الحسباني يقول: (وكان راتب الخليل عليه السلام قد قطع من مدة فرسم بمائة غرارة تحمل إليه ما بين قمح وشعير يطبخ منه جشيشة (القمح يدق ويكسر ثم يطبخ) وتخبز خبزاً إلى آخر العام إلى مجيء المغل)[٥٧]. ولا شك أن هذه الأعمال الإنسانية الجليلة تؤكد أن المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى كان مجتمعاً متكاملاً متضامناً فيه الخير كله.

أوقاف لأعمال البر والصدقات

وهناك أوقاف عديدة حبست على أعمال البر والصدقات نذكر من تلك الأوقاف ما ظل قائماً حتى العصر العثماني، وسجلت تلك الأوقاف في دفتر رقم (٥٢٢) من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، نذكر منها وقف شهاب الدين أحمد القرمشي المؤرخة في سنة (٨٥٨هـ/١٤٥٤م) الذي وقفه على ذريته وبعد الانقراض اشترط أن يصرف نصف ريع هذا الوقف للفقراء بالحرمين القدس والخليل، والنصف الآخر يشترى به خبز يفرق للفقراء والمساكين في ليلة الجمعة في حرم جامع الظاهرية في صفد[٥٨]. أما وقفية شهاب الدين بن أحمد بن زين الدين صديق بن مراد المؤرخة في سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م) فقد نصت على أن يقوم ناظر الوقف بصرف عشرة دراهم ثمن خبز ولحم يفرق على الفقراء والمساكين في كل ليلة جمعة، ونصت كذلك على أن يكون محصول الوقف بعد الانقراض أثلاثا: ثلثين يشترى بهما قماش خام، ويرسل قمصانا إلى الحجاز، ويفرق على الفقراء بالحرمين الشريفين[٥٩].

وذكر النعيمي أنه جاء في وقفية الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي التي وقفها على مدرسته التي بناها في سفح جبل قاسيون بدمشق سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) أن يصرف ناظر الوقفية من ريعها رغيفين يومياً لكل فقير ونزيل ويتيم في هذه المدرسة، أما الشيخ الذي يقرئ أو يدرس في هذه المدرسة فيصرف له ثلاثة أرغفة في اليوم، واشترط أن يستمر ذلك طول السنة، ونصت الوقفية كذلك أن يصرف لكل مقيم في هذه المدرسة سنويا قميص وسروال. أما الطعام المقدم في هذه المدرسة فقد اشترط أن يكون بلحم في شهر رمضان، وأن ينوع من وقت لآخر، على أن يصرف الصابون بالإضافة إلى تقديم الحلوى

(٥٧) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي الحسباني (ت ٨١٦هـ/١٤٠٣م)، الذيل على تاريخ ابن كثير (تاريخ ابن حجي)، رسالة ماجستير تحقيق عمر علي الشامي، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م، ص٥١٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجي، تاريخ ابن حجي.

(٥٨) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٦٠.

(٥٩) المصدر السابق، ص ٦٠.

أحياناً مثل الحلاوة الدهنية، والكعك والمشبّك بعسل وخصوصاً في شهر رمضان[٦٠]. وجاء في وقفية الأمير سيف الدين فارس الدوادار التنمي المؤرخة في سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) أن يوزع من ريع هذه الوقفية في كل يوم جمعة ربع قنطار من الخبز على الفقراء والمساكين من مسلمي دمشق[٦١]. ونصت وقفية الناصري محمد والزيني عبد اللطيف المؤرخة سنة(٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) أن يخصص ما فضل من ريع الوقف على شراء خبز يفرق على الفقراء في ليالي الجمعة. أما وقفية شهاب الدين أحمد بن محمود العدوي المؤرخة في سنة (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) فقد نصت على أن ما فضل من الوقف يصرف على شراء قمصان تجهز لفقراء الحرمين في كل سنة[٦٢]. أما وقفية الناصري محمد بن محمد المشهور بابن أبي والي المؤرخة سنة (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م) فقد جاء فيها أن يقوم الناظر بشراء عشرة أرطال من خبز الحنطة يفرق كل ليلة جمعة من كل أسبوع على باب جامع برسباي في سوق الساروجة، والوقف هو قرية كفر نعمة التابعة للقدس[٦٣]. أما وقفية الشريفة ست الأشراف بنت السيد محمد المؤرخة سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) فقد نصت على أن يخصص كيل دقيق من ريع هذه الوقفية يفرق على الفقراء والمساكين في كل شهر، والوقف هو طاحون يعرف بالبويصة تابع جيرة، وهي من أوقاف صفد[٦٤]. وجاء في وقفية الفرسي خليل بن الشهابي احمد بن يوسف الحسامي وتاريخها سنة (٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م) أن يقوم الناظر بشراء فاكهة بمبلغ سبعة دراهم تفرق على الفقراء كل جمعة، بالإضافة إلى شراء ماء عذب بمبلغ ثمانية دراهم تسقى على باب الجامع بصفد، والوقف هو قرية المنصورة التابعة لتبنين (جنوب لبنان الحالي)[٦٥].

ووجد في دمشق ناظر للصدقات وناظر آخر للسبيل، مهمة كل منهما التحدث بالأوقاف التي يوقفها أصحابها وصرف ريعها على الأوجه التي اشترطها الواقف سواء كانوا من الفقراء والمحتاجين أو أبناء السبيل[٦٦].

---

(٦٠) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ٨٧.

(٦١) المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٤.

(٦٢) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٦٨.

(٦٣) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص٤٢.

(٦٤) المصدر السابق، ص٧٠.

(٦٥) المصدر السابق، ص٧٠.

(٦٦) غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص ٨٢.

أوقاف لفكاك الأسرى

ومن أعمال الخير التي تسترعي الانتباه وجود وقف لفكاك أسرى المسلمين من الفرنج، وخصوصا في مرحلة الصراع الإسلامي الفرنجي، وبقى هذا مستمراً حتى بعد تحرير الأرض الشامية وتطهيرها منهم. فقد ظل الأوروبيون يهددون السواحل المصرية والشامية وشمال أفريقية، وكثيراً ما كانوا يهاجمون مدن السواحل أو السفن التجارية عبر البحر المتوسط. فيستولون على أموال التجار ويأسرون بعضهم، أو بعض سكان السواحل، وبقى الخطر الأوروبي ماثلا طيلة عصر دولة المماليك[٦٧]. وقد خصص بعض السلاطين والأمراء والتجار والأثرياء أوقافاً لدفع فدية لهؤلاء الأسرى وإطلاق سراحهم. ذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وجود وقف لفكاك الأسرى المسلمين في مدينة دمشق، وذلك من أجل فكاك الأسرى المغاربة. وقال إن نور الدين زنكي وقف وأنذر اثني عشر ألف دينار في فداء الأسرى من المغاربة، وأن عدداً كبيراً من الأثرياء عندما كانوا يوقفون وقفاً أو يوصون وصية كان يخصص جزءاً منها (في افتكاك المغاربة خاصة، لبعدهم عن بلادهم وانهم لا مخلص لهم سوى ذلك، فهم المنقطعون عن بلادهم)[٦٨]. أما كبار التجار في دمشق الذين كانوا يفكون الأسرى المغاربة بأموالهم وأموال ذوي الوصايا فنذكر منهم التاجرين المحسنين: نصر بن قوام، وأبا الدر ياقوت مولى العطافي[٦٩]. وقد أثارت هذه الأوقاف وكثرتها وتعدد أغراضها في دمشق وبلاد الشام دهشة ابن بطوطة حتى قال: (إن الأوقاف بدمشق لا تحصى أنواعها ومصاريفها لكثرتها... وذكر منها أوقافاً لفكاك الأسرى)[٧٠].

ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الوقفيات في عصر دولة المماليك أشارت إلى تخصيص جزء من ريعها للأسرى، نذكر وقفية شهاب الدين أحمد بن محمد العدوي المؤرخة في سنة (٨٥١هـ/١٤٤٧م) الذي اشترط أن يصرف من ريعها في كل سنة خمسون درهما للأسرى بمدينة صيدا على الساحل الشامي. والوقفية هي مزرعة دير قانون التابعة لتبنين في جنوب لبنان[٧١]. ووجد في دمشق ديوان سمى (ديوان الأسرى) له ناظر مهمته التحدث بالأوقاف

---

(٦٧) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص ٣٧٤، ٣٧٦، غوانمة؛ دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص١٢٥.

(٦٨) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٣.

(٦٩) المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٧٠) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١١٨.

(٧١) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٦٨.

التي يوقفها أهل الخير لفداء أسرى المسلمين في بلاد الشام وبلاد المغرب[٧٢].

وقف التزويج

يدعو الإسلام إلى العفة والأخلاق الحميدة وتكوين الأسرة الطيبة الصالحة، ولكي تتحقق هذه الأهداف النبيلة شجع الزواج وحض عليه. ولمنع انتشار الرذائل الخلقية والمفاسد الاجتماعية كان لا بد من تقديم العون للشباب والشابات الفقراء المعوزين الذين لا يجدون المال الكافي من أجل مصاريف الزواج. لذا قام أهل الخير من الأمراء والأثرياء وأوجدوا وقفا سمي (وقف التزويج)، وقد ذكر النعيمي عن وجوده بدمشق فقال: (كان يعطى منه كل من تزوج من فقراء الحنابلة، وهو بيد القاضي علاء الدين المرداوي)[٧٣]. أما ابن بطوطة فقال إن الأوقاف بدمشق متعددة منها (أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلن على تجهيزهن)[٧٤]. ولا شك أن هذا الوقف أحد مفاخر الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

أوقاف لأداء فريضة الحج

الحج ركن من أركان الإسلام وهو لمن استطاع إليه سبيلا، أي بمعنى القادرين مالياً وصحياً، ولكن يمكن توكيل شخص ليقوم بأداء الفريضة عن الشخص العاجز وخصوصاً إذا كان فقيراً لا مال لديه، ولتلبية رغبة هؤلاء وجدت أوقاف بدمشق لهذه الغاية فابن بطوطة يقول: (في دمشق أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته)[٧٥]. وذكر النعيمي أن الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن يأمن الكردي (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أحد مقدمي الجيش في الشام في عهد نور الدين زنكي، وقف أوقافاً جعل النظر فيها إلى القاضي زكي الدين بن الزكي (وأوصى أن يحج عنه بثلاثين دينارا)[٧٦].

أوقاف رصف الطرق وتسويتها

ومن الأوقاف ذات النفع العام ولها وظيفة اجتماعية جيدة، وقف خاص بالطرق

(٧٢) غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص٨١.
(٧٣) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ٩٩.
(٧٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١١٨.
(٧٥) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١١٨.
(٧٦) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج١، ص٣٤٥.

وتعديلها ورصفها لتسهيل السير عليها. وذكر ابن بطوطة عن وجود هذا الوقف في مدينة دمشق فقال إن هناك أوقافاً (لتعديل الطرق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك)[٧٧].

أوقاف الأنهار والقناطر والجسور

اهتم السلاطين والأمراء والنواب ببناء الجسور والقناطر على الأنهار في مصر وبلاد الشام، وأوقفوا عليها الأوقاف العديدة من أجل ترميمها وإصلاحها والعناية بها، ولتسهيل التنقل عليها وخدمة للمسافرين والمزارعين. ففي سنة (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) رسم السلطان الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ببناء جسر على نهر الأردن قرب بلدة دامية في غور الأردن، وندب لهذا العمل الأمير جمال الدين نهار المهمندار، وطلب منه أن يكون من خمس قناطر. واجتمع الولاة لمساعدته منهم الأمير بدر الدين محمود رحال والي نابلس والأغوار، وبعد إتمام الجسر اضطرب بعض أركانه، فأمر السلطان بإعادة البناء، وقد لاقى البناؤون بعض الصعوبات بسبب شدة الأمطار وفيضان نهر الأردن، ومع ذلك تمكنوا من إصلاحه سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)[٧٨]. وفي هذا الموضوع يذكر ابن تغري بردي عن السلطان الظاهر بيبرس: (وعمر جسراً بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، ووقف عليه وقفا برسم ما عساه يتهدم منه، وانشأ جسوراً كثيرة بالغور والساحل)[٧٩]. ويذكر ابن تغري بردي كذلك أن الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م)، بنى جسورا وقناطر عديدة في مصر والشام عمم النفع بها الفلاحين والمزارعين من أصحاب تلك المناطق[٨٠].

ووجد في دمشق في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ناظر الأنهار، وكان يساعده عدد من الرجال يطلق عليهم (مباشرو الأنهار) مهمتهم العناية بأنهار دمشق وإصلاح جسورها وقناطرها وتقويتها وتفادي الفيضانات أيام الشتاء[٨١].

---

(٧٧) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١١٨.

(٧٨) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٠ج، تحقيق: محمد عبد الهادي شعيرة ومحمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م، ج٣، ص ١٢٧، ١٢٨. وسيشار إليه فيما بعد: النويري، نهاية الأرب.

(٧٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٤.

(٨٠) المصدر السابق، ج٩، ص ١٩٠ – ١٩٣.

(٨١) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص٦٢١؛ يوسف غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص٨١.

أوقاف جبر القلوب (وقف الأواني)

ومن الأوقاف المثيرة للاهتمام ما سمي بدمشق (وقف الأواني)، فذكر ابن بطوطة أنه شاهد مملوكاً صغيراً سقط من يده صفحة من الفخار الصيني فانكسرت فصار يبكي، فأشار عليه أحدهم بجمع قطع الصفحة، وسار معه إلى صاحب وقف الأواني، فأخذها من المملوك ثم دفع إليه ثمن الصفحة. فذهب المملوك واشترى أخرى بمواصفاتها، وعاد إلى بيت سيده. ويعلق ابن بطوطة على ما شاهده قائلا: (وهذا من أحسن الأفعال فان سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا)[٨٢].

وذكر ابن بطوطة عن وجود (أوقاف لأبناء السبيل) في مدينة دمشق، وهم المنقطعون عن بلادهم، فكان هؤلاء يعطون من الأوقاف ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم[٨٣]. ووجدت في بلاد الشام أوقاف للأبراج من اجل إصلاحها لتظل منيعة تدافع عن المدن الساحلية في وجه الأخطار الأوروبية، نذكر من ذلك ما وقفه شمس الدين محمد بن الشهابي احمد العدوي في سنة (٨٧١هـ/١٤٦٦م) واشترط في وقفيته أن يصرف الناظر نصف ريع هذا الوقف على مصالح الأبراج في مدينة صيدا، والنصف الآخر على مصالح البيمارستان النوري بدمشق. ويشتمل هذا الوقف على :

- قرية جوّيا التابعة لتبنين.
- قرية مجادل، وقرية طير دبة (أو طير زبنا).
- ومزرعة دير قانون[٨٤]. وهذه القرى والمزرعة تابعة لتبنين في جنوب لبنان الحالي.

أوقاف المدارس والمساجد والمقامات

نالت المؤسسات العلمية والدينية اهتماما خاصا من السلاطين والأمراء والأثرياء، فالتعليم كان من مهمة الجماعة الإسلامية، فأنشئت مئات المدارس والخوانق والأربطة والزوايا خدمة لطلاب العلم من الغرباء وأهل التصوف، وتوفير حياة كريمة لهم، وإمدادهم

(٨٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١١٨.

(٨٣) المصدر السابق، الرحلة، ج١، ص ١١٨.

(٨٤) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٦٨.

بالمأوى والمأكل والمشرب وحتى الملبس كل ذلك من خلال الأوقاف التي توقف على هذه المؤسسات الدينية ذات النشاط الاجتماعي، ولم يقتصر الأمر على الطلاب بل خدمت هذه المؤسسات العلمية المعلمين والقائمين عليها، وتعدى ذلك إلى تقديم المأوى والمأكل لفئات اجتماعية بحاجة إلى المساعدة، كالأرامل والمطلقات من النساء، وللغرباء والمسافرين ومساعدتهم وتسهيل مهماتهم.

أما المساجد فقد كان لها أنشطة ووظائف أخرى إضافة إلى وظيفتها الأولى والأساسية في أداء الصلاة وإقامة الشعائر الدينية، فقد كانت مراكز للتعليم، وقد أدت رسالة عظيمة مع بدايات الدولة الإسلامية، فقد كان يجلس بها الصحابة والفقهاء والعلماء يعلمون أهل الشام القرآن الكريم والعلوم العربية، ولم يقتصر ذلك على بلاد الشام فحسب بل في كل البلاد التي فتحها العرب المسلمون فقد كانوا ينشرون الإسلام والعربية معا في تلك البلدان شرقا وغربا. ثم أن هؤلاء العلماء والفقهاء ورجال العلم كانوا يعقدون الحلقات في المساجد ويتحلق الطلاب حولهم طلبا للعلم، كما كانت البلاغات والمراسيم والتوجيهات تتلى من على منابر تلك المساجد مما جعل منها مراكز اجتماعية ذات نفع عام.

ولدينا مئات الوقفيات التي وقفها أصحابها على مثل هذه المؤسسات الدينية والتعليمية، وكانت تلك الأوقاف ذات مردود مادي كبير، وعينوا لكل وقف ناظراً يشرف على هذا الوقف وريعه وينفذ ما جاء في وصية أو شروط صاحب الوقف، وكانت هذه الأوقاف كافية لبناء هذه المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية واستمرار أدائها في خدمة المجتمع المحيط وأهله، تحقيقا للوظيفة السامية للأوقاف التي نصت على أن يكون ريعها (صدقة جارية). ومن أمثلة تلك الأوقاف نذكر الوقف الذي أوقفه أبو العباس احمد بن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة ابن عز الدين البصري على دار القرآن الكريم الدلامية التي أنشأها بدمشق وتاريخ هذه الوقفية سنة (٨٤٧هـ / ١٤٤٣م)، وقد رأى النعيمي كتاب وقفها وجاء فيه انه رتب فيها :

- إماما وقيما لكل واحد منهما مائة درهم في الشهر.
- ستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين في قراءة القرآن لكل منهم ثلاثون درهما في كل شهر.
- ستة أيتام مكانهم المكتب الذي يقع في أعلى باب الدار، ويصرف لكل واحد منهم ثلاثون درهما في الشهر، بالإضافة إلى شراء جبة قطنية وقميص ومنديل لكل يتيم، كما قرر لهم شيخا يعلمهم، له من المعلوم ستون درهما في كل شهر.

- ناظراً لهذه الدار له في كل شهر ستون درهما.
- عاملاً له في كل سنة ستمائة درهم.

ونصت الوقفية على أن يصرف مائة درهم ثمن شمع من أجل قراءة صحيح البخاري ولصلاة التراويح في شهر رمضان من كل سنة. ونصت الوقفية على شراء خمسة عشر رطلا من الحلوى ورأسي غنم أضحية في كل عيد أضحى، ونصت كذلك أن يقرر قارئ كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع وله في الشهر ثلاثون درهما[٨٥].

أما ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان أخت صلاح الدين الأيوبي والعادل ووالدة الملك الصالح إسماعيل (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) فقد أنشأت المدرسة الشامية الجوانية بدمشق ووقفت عليها وقفا يتألف من :

- جميع الدار بدمشق.
- ضيعة بظاهر دمشق تعرف ببزنية.
- أحد عشر سهماً ونصف سهم من أربعة وعشرين سهماً تعرف بجرمانا من بيت لهيا.
- أربعة عشر سهما وربع سهم من أربعة وعشرين سهماً من ضيعة تعرف بالتينة من جبة عسال.
- جميع الضيعة المعروفة بمجيدل القرية.
- نصف ضيعة تعرف بمجيدل السويدا.

ويصرف ريع هذا الوقف على: المدرسين والمؤذن، والقيم، وثمن زيت ومصابيح وحصر وبسط وقناديل وشمع. على أن يصرف للمدرس في كل شهر غرارة حنطة وغرارة شعير إضافة إلى مائة وثلاثين درهماً. والباقي يصرف على الفقهاء والمتفقهين والمؤذن والقيم، على أن لا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهين المشتغلين بهذه المدرسة على عشرين رجلاً. أما الناظر فيأخذ عشر دخل الوقف نظير تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردده عليها. واشترطت الوقفية أن يصرف في كل سنة مبلغ ثمانين درهما لشراء بطيخ ومشمش وحلوى في ليلة النصف من شعبان للمشتغلين في هذه المدرسة[٨٦].

ثم أن مجاهد الدين إبراهيم أخا زين الدين أحمد أمير خازندار الملك الصالح نجم

(٨٥) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج١، ص ٨، ٩.

(٨٦) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج١، ص ٢٢٨.

الدين أيوب بنى خانقاة سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وجعلها للصوفية، وقرر فيها عشرين صوفيا[٨٧]. أما علاء الدين علي المشهور بابن وطيّة الموقّت (أوقات الصلاة) بالجامع الأموي فقد بنى سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م) زاوية شمالي جامع جراح بمدينة دمشق ووقفها على المغاربة على اختلاف أجناسهم. أما الوقف فيتكون من حوانيت وطباق حولها، وقد شاهد النعيمي هذه الوقفية في أواخر جمادى الآخرة سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) واسم الزاوية آنذاك كان زاوية المغاربة[٨٨].

أما الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبد الله الدوادار الصالحي فقد بنى في مدينة القدس الشريف المدرسة الدوادارية سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) ووقف عليها وقفا يتألف من التالي:

- قرية بيت نبالا من القدس الشريف.
- قرية حجلا من أريحا بغور الأردن.
- فرن وطاحون وعلوهما في مدينة القدس نفسها.
- دار ومصبنة وستة حوانيت ووراقة في مدينة نابلس.
- ثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت وأربع طواحين في مدينة بيسان بغور الأردن.
- قرية طبرس من قاقون بفلسطين.

وقد اشترط الواقف أن يصرف ريع هذا الوقف على ما يلي :

- ثلاثين نفرا من الصوفية من العرب والعجم شرط أن يكون منهم عشرون عزابا وعشرة متزوجون مقيمون بها.
- كل صوفي يرد إلى هذه المدرسة أو الخانقاة يكون بضيافتها لمدة عشرة أيام.
- يخصص عشرة قراء لقراءة القرآن الكريم، وعشرة أشخاص يسمعون الحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى مادح ينشد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بالمسجد الأقصى[٨٩].

وجاء في وقفية علاء الدين النصر المؤرخة سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) تفاصيل الوقف ومفرداته ووجوه صرفه على الرباط الذي أقامه في مدينة القدس كما يلي :

---

(٨٧) المصدر السابق، ج٢، ص ١٣٢.

(٨٨) المصدر السابق، ج٢، ص ١٥٩.

(٨٩) انظر : مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٩؛ غوانمة، القدس الشريف، ص ٢٤٢.

مفردات الوقف:

- الدار المجاورة لدار الرباط المذكور بالقدس.
- الحوش الملاصق للدار المذكورة بالقدس.
- الدار المجاورة لتربة الوقف من جهة الشرق بالقدس.
- طاحون وفرن بالقدس وقبو بخط وادي الطواحين بالقدس والقبو الآخر بجوار العيساوية والداران الملاصقتان المجاورتان للقبو، ثم الصهريج الواقع بالسوق القديم والصهريج الآخر الذي يقع بالزردخانة بالقدس، إضافة إلى الحمام المعروف بحمام علاء الدين، وكل هذه الأوقاف بالقدس.

وجوه صرف ريع هذا الوقف :

اشترط الواقف أن يصرف ريع هذا الوقف على النحو التالي:

- على عمارة الرباط وصهريجين داخله بالإضافة إلى المطهرة المختصة به، ويكلف ناظر الوقف بالإشراف على ذلك، وما بقى من ريع الوقف يخصص منه للقيم ثمانية دراهم في كل شهر، وعليه كنس الرباط وغلقه وفتحه وتنظيفه وتنظيف طهارته وإبقاء مصابيحه وهما مصباحان في كل ليلة حتى الصباح على أن يكون أحد هذين المصباحين في مجمع الرباط والآخر في طهارته. ويصرف الناظر ما يرى صرفه في ثمن حبل ودلو وقناديل وأباريق وحصيرتين لفرش المجمع الذي بالرباط، وما فضل يصرف ثمن خبز وسميط يوزع على الفقراء والمساكين الواردين في هذا الرباط لكل فقير منهم كل يوم رطلان من الخبز بالرطل المصري لمدة خمسة أيام في الأسبوع. وان زاد عدد الواردين إلى الرباط عندئذ يصرف لكل واحد منهم خبز لمدة ثلاثة أيام، وان ارتفع العدد يصرف الخبز للذي يأتي أولا للرباط. أما النظر فقد نصت الوقفية بان يكون لإمام الصخرة المشرفة كائناً من كان[٩٠].

وهناك أوقاف عديدة وكثيرة أوقفت على عشرات المدارس في المدن الشامية المختلفة نذكر من ذلك ما وقفه في عجلون القاضي فخر الدين ناظر الجيوش في الديار المصرية على مدرسته بنابلس والمؤلف من عدد من الحوانيت في مدينة عجلون نفسها وقد هدم بعضها في السيل الذي اجتاح مدينة عجلون سنة (٧٢٨هـ / ١٣٢٧ م)[٩١].

(٩٠) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، ص ٢١.

(٩١) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٢٨٧.

وهناك أوقاف أخرى خصصت للطلاب المشتغلين بالعلوم نذكر ما أوقفه نور الدين زنكي والمكون من جملة كثيرة من الكتب الطبية جعلها في خزانتين في صدر إيوان المدرسة اللبودية النجمية، وكان جماعة الأطباء والمشتغلين بالطب يأتون إلى هذه المدرسة لدراسة الطب وتدريسه والنظر في هذه الكتب[٩٢].

أما المساجد فهناك ثلاثة مساجد كبيرة أهميتها عظيمة لدى المسلمين وهي المسجد الأقصى بالقدس، والمسجد الإبراهيمي بالخليل، والمسجد الأموي بدمشق، وكلها جوامع واسعة بديعة البناء يقصدها المسلمون في كل أنحاء العالم الإسلامي. ولهذه المساجد أوقاف كبيرة وعديدة، وكان الأمراء من السلاطين والأمراء والتجار الأثرياء يوقفون الأوقاف عليها، بعضها مشروط لأغراض بعينها، وكان العاملون في هذه المساجد من نظار وخطباء وأئمة ومؤذنين وفقهاء وقيمين وحراس وغيرهم من الموظفين يأخذون رواتبهم من تلك الأوقاف.

وقد اشتملت هذه الجوامع على أعداد كبيرة من الأئمة والخطباء، والفقهاء وطلاب العلم، كباراً وصغاراً، بالإضافة إلى وجود عدد من المدارس في أروقتها، كما هو موجود في الجامع الأموي والمسجد الأقصى. وهناك عشرات الوقفيات التي خصص ريعها للمسجد الأقصى والجامع الأموي، نذكر من أوقاف المسجد الأقصى دار الوكالة بالقدس ويذكر الحنبلي أن أجرتها السنوية بلغت أربعمائة دينار، وقد جدد دار الوكالة هذه السلطان برقوق سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)[٩٣]. وبلغ عدد أئمة الجامع الأموي في عهد النعيمي في القرن العاشر الهجري تسعة أئمة، أما القراء فكانوا ثلاثة وسبعين قارئاً، أما الطلاب فكانوا ثلاثمائة وأربعة وخمسين طالباً، أما الطلاب الصغار (المتلقين) فكانوا ثلاثمائة وثمانية وسبعين نفراً، وفيه اثنتا عشرة حلقة درس للعلماء والفقهاء والقضاة والشيوخ المشهورين[٩٤]. وهناك المئات من المساجد في بلاد الشام بناها أصحابها، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة من أجل إدامتها واستمرارها في أداء رسالتها الدينية، وعين فيها الأئمة والخطباء والمؤذنون والقيمون، وكلهم يأخذون رواتبهم من تلك الأوقاف. نذكر من ذلك جامع القبيبات بدمشق الذي بناه كرم الدين عبد الكريم بن المعلم وكيل الخاص السلطاني

(٩٢) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ١٠٨.

(٩٣) غوانمة، القدس الشريف، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٩٤) النعيمي، الدارس في أخبار المدارس، ج٢، ص ٣١٥ – ٣١٨.

ببلاد الشام سنة (٧١٨هـ / ١٣١٨م) ووقف له وقفاً كبيراً[٩٥]. أما جامع الطواشي فقد بناه الطواشي مرجان خازندار الأمير شيخ نائب دمشق سنة (٨١٣هـ / ١٤١٠م) خارج باب النصر، وعمل فيه خطبة ووسعه ووقف عليه وقفاً، ورتب له إماماً وخطيباً، كما جعل فيه محدثا يقرأ الحديث النبوي، بالإضافة إلى قارئ حديث، وجعل في جوانبه حوانيت ووقفها عليه وجاء في غاية الحسن[٩٦].

أما مقامات الصحابة الأجلاء فقد بنى على أضرحتهم أو بقربها المساجد والقباب ووقفت عليها الأوقاف لخدمتها وخدمة الزائرين إليها نذكر من هؤلاء الصحابة خالد بن الوليد في حمص، وجعفر بن أبى طالب في مؤتة، وأبو عبيدة عامر بن الجراح في عمتا بغور الأردن. ففي سنة (٦٧٥هـ / ١٢٧٦م) أمر السلطان الظاهر بيبرس بناء قبة على قبر أبي عبيدة، وندب لهذه المهمة نائب عجلون، ووقف على هذا المقام وقفاً كبيراً لتنويره وبسطه وإمامه ومؤذنه، ونقش ذلك على رخامة من ستة سطور قرأت فيها التالي :

١. بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة على ضريح أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح.
٢. رضي الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم مركز الدنيا والدين.
٣. سلطان أمراء الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضات الله ورسوله ما أوقفه.
٤. وحبسه عليه من نصف مغل تونين من مناصفات حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيساً مؤبداً دايماً أثاب الله واقفه.
٥. بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع جزاء المحسنين وذلك بنظر الأمير الأجل الأعمال.
٦. الكبير ناصر الدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيدي نايب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة.

وقد وردت في هذا النقش كلمة (الجاشنكير)، ولم يستطع الآخرون قراءتها رغم أن هذا النقش نشر في مراجع عربية وأجنبية عديدة. وتعطينا هذه الكلمة معلومات جديدة لم تذكر في المصادر التاريخية، فالجاشنكير تعني الذي يتذوق طعام وشراب السلطان قبل أن يقدم إليه خوفا من أن يدس السم إليه. ثم صارت من وظائف أرباب السيوف في دولة

(٩٥) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢١.
(٩٦) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٢٥.

المماليك، وصاحبها من الأمراء المقدمين. وهذا يعني أن نائب عجلون أحد الأمراء الكبار، ومثل هذه الرتبة لا تعطى إلا للنيابات الهامة لان التعيين فيها يكون من السلطان بالقاهرة. ونستخلص من ذلك أن نيابة عجلون في عهد الظاهر بيبرس كانت نيابة مستقلة كواحدة من نيابات بلاد الشام الأخرى، ولم تكن نيابة صغيرة تابعة لدمشق(٩٧). وقد جعل الظاهر بيبرس من عجلون نيابة مستقلة لأهميتها العسكرية والإستراتيجية، ولتقف في وجه أي تقدم للقوات الفرنجية قاطع نهر الأردن، ولتكون خط دفاع أول عن مدينة دمشق في وجه الأطماع الفرنجية في فلسطين.

ثم هناك وقف مقام جعفر بن أبي طالب في مؤتة جنوب الأردن، فقد قام الظاهر بيبرس بتوسعة وتجديد مسجد جعفر الطيار، ووقف عليه وقفاً زيادة على وقفه من أجل الإنفاق عليه وعلى الزائرين والوافدين إلى هذا المقام المبارك(٩٨).

وقد استمرت هذه الأوقاف وجددت في العصر العثماني وهذا يؤكد أن هذه الأوقاف حافظت على ديمومة هذه المنشآت الاجتماعية بجميع وظائفها الدينية والتعليمية والخدمية، نذكر من تلك القرى في لواء بنى كنانة كنموذج لهذه الأوقاف. فقد وقفت قرية بلوقس قرب إربد على المدرسة العزّية بدمشق (عز الدين آبيك)، وقسم منها وقفه غلام الدين سنجر على البيمارستان النوري بدمشق، وقرية حريما على مسجد شادي بك في محلة قنوات بدمشق، ووقفت قطع من الأراضي على بعض الزوايا في كل من قرية دوقرة، وجمحة، وحبراص خصصت معظمها للصوفية في تلك الزوايا، بالإضافة إلى أن كلاً من زاويتي: بني حميد وشيخ مسمار في بلدة حبراص وزاوية شيخ عيسى في ملكا كان لها أوقاف يصرف ريعها على الصوفية والفقراء المقيمين والوافدين إلى تلك الزوايا(٩٩).

وهكذا كان الوقف في العصرين الأيوبي والمملوكي نموذجاً رائداً في التعاون والتكافل الاجتماعي المتعدد الأغراض والأهداف، فقد أخذت الجماعة الإسلامية على عاتقها خدمة المجتمع والإنسان معا، وقدموا وبذلوا من ثرواتهم ما يخفف آلام المحتاجين، وتعليم وإيواء الأيتام والفقراء والمساكين والنساء والأرامل وذوي الحاجات الخاصة. فالوقف كفل مجتمعا إسلامياً متماسكاً متحاباً متعاوناً يعتني بكل من يحتاج إلى عناية أو مساعدة

---

(٩٧) غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن، نشر وزارة الشباب، عمان، ١٩٩٥م، ص ٦٩، ٧٠ وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، مقامات الصحابة في الأردن.

(٩٨) غوانمة، التاريخ السياسي، ص ٧٩.

(٩٩) البخيت، ناحية بنى كنانة، ص، ١٥، ٣٦، ٣٧.

مهما كانت، وهذا ما أكدناه في هذه الدراسة.

ومع ذلك فان الوقف والأوقاف تعرضت أواخر دولة المماليك الثانية إلى المصادرات لحاجة السلطان والدولة للأموال مما أدى إلى تراجع الوقف والأوقاف ووظيفته الاجتماعية. إلا أن أوقافاً كثيرة ظلت مستمرة حتى العصر العثماني. فقد وصلت إلينا وثائق تلك الأوقاف من خلال الأرشيف العثماني، وهناك باحثون ينشرون ويدرسون بعض تلك الوقفيات وقد اعتمدنا على بعضها في دراستنا هذه.

أوقاف بلاد الشام في العهد المملوكي
بين المصادرة والتملك بالاحتيال

خليل عثامنة*

I. نشوء المصطلح:

مثل كثير من المفردات الإسلامية الاصطلاحية، لم يرد في القرآن الكريم ذكر لمفردة الوقف أو لأي من المفردات المرادفة لها كالحبس أو الحبوس أو الأحباس، ولعل عدم ورود هذه الألفاظ في القرآن الكريم يوحي بغياب المؤسسة عن الذهنية الحضارية التي ورثها الإسلام عن الجاهلية وعن التراث الحضاري القبلي الذي كان يشكل الحاضنة الطبيعية لدين الإسلام، وأنها كانت بالتالي مؤسسة مستحدثة نشأت وتطورت في أحضان الإسلام.

كانت البوادر الأولى لتشكل مؤسسة الوقف قد لمحناها، كما يشهد بذلك ما وصل إلينا من الروايات، في إبان النصف الأول من القرن السابع الهجري، حين كان رسول الله صلى الله، عليه وسلم، ما زال على قيد الحياة، وفي هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي لم يكن أي من الألفاظ الاصطلاحية الدالة على الوقف قد استخدم، وعوضاً عن ذلك شاع لفظ «الصدقة»، كاسم اصطلاحي لهذه الظاهرة، كون مثل هذه المؤسسة إنما تقع في إطار دائرة الصدقات التي كانت إحدى أهم ركائز أعمال البرّ والإحسان. ويجب أن ننوه أن الانتفاع بهذه الصدقة لم يكن يخضع للمعايير المحددة التي نصت عليها آية الصدقات سواء في مادتها أو الفئات المسلمة من المستحقين الذين سمتهم الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ سورة التوبة، آية (٦٠). وفي هذا السياق روي أن أبا طلحة الأنصاري آتى النبي، صلى الله عليه وسلم، وعرض أن يتصدق بأرضه في بيرُحاء فقال له: اجعلها في الأقربين[1].

---

* جامعة بيرزيت، كلية القاسمي الأكاديمية

(١) القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد، (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م)، الأموال، تحقيق: خليل محمد هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٧٤٣، وسيشار إليه فيما بعد: أبو عبيد، الأموال؛ شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني، (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بإشراف عبد العزيز ابن باز، إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة السعودية، ج٦، ص ٤٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن

وتكشف لنا روايات أخرى عن الفترة ذاتها كيف أن مفهوم الوقف بدأ يتحدد وتظهر ملامحه ليصبح متميزاً عن الصدقات العادية من جهة أن العقار الموقوف يجب أن يخضع لمبدأ التأبيد والديمومة، وهو ما جرت عليه أحكام الوقف عند الفقهاء فيما بعد. وهو مبدأ عبر عنه لفظ «الحبس» أو «التحبيس»، فقد ورد في إحدى الروايات أن عمر بن الخطاب جاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبلغه أنه ينوي أن يتصدق بنصيبه من أرض خيبر وسأله كيف يتم له ذلك، فروى عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه قال لعمر: «حبس الأصل، وسبِل الثمرَ»[٢]. فلفظ التحبيس في هذه الرواية إنما جاء ليؤكد مبدأ عدم التصرف بالعقار الموقوف الذي هو «رقبة الوقف». ثم نجد في روايات أخرى تفسيراً مفصلاً لمعنى التحبيس يشمل حظر بيع العقار الموقوف، ومنع منحه هبة لطرف ثالث، ومنع توريثه إلى الأبناء والذرية. فقد روى عمر بن شبة عن الواقدي أن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص أشارت إلى صدقة تصدق بها أبوها فقالت فيها ما نصه: «صدقة أبي حبس لا تباع ولا توهب ولا تورث[٣]. وقد أجمل عالم المدينة سعيد بن المُسيب (٩٤هـ/ ٧١٢م)، حال هذه الدور والعقارات التي حُبست على عهده فقال: «إنها لا تباع ولا توهب ولا تورث[٤]». ورأينا في مواضع أخرى أن العقارات التي وقفها أصحابها في هذه الحقبة الزمنية المبكرة قد سميت باسم «الصدقات المحبسة».

فروي في هذا المعنى أن صفية بنت حُيي (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، زوج النبي، صلى الله عليه وسلم، اليهودية التي سبيت يوم خيبر والتي اعتقها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتزوجها بعد ذلك، كانت قد أعدت شهوداً شهدوا أن العقار الذي وقفته جعلته «صدقة حبس لا يباع ولا يوهب ولا يورث[٥]».

حجر العسقلاني، فتح الباري.

(٢) أحمد بن عمر الشيباني، الشهير بالخصّاف، (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، كتاب أحكام الأوقاف، مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية، القاهرة ، ط٢، ١٩٠٤م، ص ٥-٦، وسيشار إليه فيما بعد: الخصاف، أحكام الأوقاف؛ أبو يوسف يعقوب بن سفيانبن جوان الفسوي(ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، كتاب المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ج٢، ص ٧٠٤، وسيشار إليه فيما بعد: الفسوي، المعرفة والتاريخ، من الملاحظ أننا نجد في هذا الحديث الأسس الأولى الذي يقوم عليها الوقف التي نقصت بتأبيد ملكية المال الموقوف أو ما يعرف رقبة الوقف الذي دلّ عليه لفظ الأصل.

(٣) أبو زيد عمر بن شبّة النميري، (ت٢٦٢هـ/ ٨٧٥م)، تاريخ المدينة المنورة(أخبار المدينة النبوية)، تحقيق: فهيم شلوت، مكة المكرمة، ١٩٧٩م، ج١، ص ٢٣٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شبّة، تاريخ المدينة، وانظر عن الدار التي حبّسها خالد بن الوليد، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٤٤.

(٤) الخصّاف، أحكام الوقف، ص ١٦.

(٥) الخصّاف، أحكام الوقف، ص ١٤.

ويبدو أن إضفاء صفة التحبيس على هذه العقارات الموقوفة إنما جاء لتأكيد ازدواجية طبيعتها وقيامها، فهي صدقات أولاً كما أن وظيفتها ودورها يتسم بالديمومة والأبدية، كما هي حالة الوقف في أحكام الشريعة الإسلامية.

واللافت للنظر بإزاء هذه العينة من حالات الوقف والتحبيس منذ ظهورها وحتى أواخر العهد الأموي (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، إن الوقف كان مقصوراً على الأبناء والأهل والذريّة، والذي اصطلح عليه فيما بعد باسم الوقف الذري، وهي التسمية السائدة في بلاد الشام تمييزاً لها عن مصطلح الوقف الأهلي الذي كان يميز في هذا النوع من الوقف في مصر[٦]. يتبين لنا ذلك مما روى عن أحدهم أنه اعترض أمام الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ/ ٧١٧م - ١٠١هـ/ ٧١٩م)، لماذا تؤول الأحباس للجهة التي وقفت عليها، فرّد عليه الخليفة الأموي بأن انتقال الأحباس لورثة الواقف هو سنة سنها الراشدون والصحابة ولا يجوز أن يتخلى عن تلك السنة[٧].

إن اقتصار الأحباس على أهل الوقف وذريته إبان تلك الحقبة عائد بالضرورة إلى قوة عنصر النسب وقرابة الدم، حيث كانت العصبية القبلية من القوة بحيث تبدو روابط الدين والعقيدة ضعيفة أمامها، وأن وشائج "الأمة"، التي أرسى أسسها النبي في المدينة لم تكن قد تجذرت وتجاوزت روابط القبلية وعلائق القربى.

II: نشوء المؤسسة

لما كانت عامة الصدقات المُحبسة، أو الأحباس موقوفة على ورثة الواقف وأهله، فإن أمر إدارتها كان موكولاً إلى ذوي الرأي والثقة من بين هؤلاء الورثة. وقد أرسى الصحابة الأوائل هذه القاعدة التي استمر العمل بها ردحاً طويلاً. فقد روي أن الخليفة عمر بن الخطاب أوكل أمر صدقته التي حبسها إلى ابنته حفصة، أم المؤمنين، ثم آل الأمر بعد وفاتها إلى ذوي الرأي من نسله وذريته، وقد حفظت لنا المصادر قائمة بأسماء من تولوا هذا الوقف منذ نشأته وحتى خلافة هارون الرشيد (١٧٠هـ/ ٧٨٦م - ١٩٤هـ/ ٨٠٩م)، فذكر خمسة من نسله تتابعوا على إدارة الوقف قرابة قرن ونصف[٨]. يتضح من هذا

---

(٦) انظر:
Gabriel Baer, "The Wakf as a Prop for the Social System" (16th - 20th Centuries) in: Law and Society, Leiden, 1997, pp. 264- 297.

(٧) الخصّاف، أحكام الوقف، ص ١٦.

(٨) الخصّاف، أحكام الوقف، ص ٥، ٦، ٨، ١٦؛ قارن أيضاً: أبو علي إسماعيل القاسم البغدادي القالي، (ت٣٥١هـ/

المثال ومن أمثلة أخرى غيره[٩]، أن الدولة لم تتول أية مسؤولية إدارية عن هذه الحبوس أو الأوقاف الذرية، وكان أقصى ما تقوم به هو ذلك الدور التوفيقي الذي كان يقوم به والي البلد أو قاضيها لحل نزاع ينشب بين الوارثين بعد أن يكون أحدهم قد لجأ إلى ذلك الوالي طمعاً في أن ينصفه من خصومه[١٠].

ظل حال الأوقاف على هذا المنوال خارج مؤسسات الدولة غالبية أيام الدولة الأموية. ولم نلحظ أي محاولة لإخضاع مؤسسة الوقف لسلطة الدولة إلاّ في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ/ ٧٢٣م - ١٢٥هـ/ ٧٤٢م)، ففي رواية لابن لهيعة الحضرمي (٩٧هـ/ ٧١٥م- ١٧٤هـ/ ٧٩٠م)، يوردها الكنْدي، أبو عمر محمد بن يوسف (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م - ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، في كتاب الولاة والقضاة يقول: "أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس، توبة بن نمر في زمن هشام، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: "ما أرى مرجع هذه الصدقات إلاّ إلى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدي

٩٦٢م)، كتاب الأمالي، دار الفكر، بيروت، ج٢، ص ٣١٠، وسيشار إليه فيما بعد: القالي، الأمالي؛ ابن عساكر ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)تاريخ مدينة دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٩٢م، ص ٣٣١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق؛ أبو عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيري(ت٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، نسب قريش، تحقيق: بروفنسال ايفاريست، دار المعارف، القاهرة ، ط٢، ١٩٥٣م، ص ٣٥٨، وسيشار إليه فيما بعد: المصعب الزبيري، نسب قريش.

(٩) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف أمر الحسن بن علي، تحقيق: محمد باقر المحمودي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٢٣٠- ٢٣١، ٢٣٥وسيشار إليه فيما بعد: البلاذري، انساب الأشراف؛ أبو العباس محمد بن يزيد المَرد (ت٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، الكامل في اللغة والأدب، ٣ج، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م، ج٣، ص ١١٢٩- ١١٣٠؛ أبو بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي المعروف بوكيع القاضي، (ت٣٠٦هـ/ ٩١٨م)، أخبار القضاة، ٣ج، تحقيق: عبد العزيز المراغي، عالم الكتب، بيروت، (د. ت.)، ج١، ص ١٥٤، وسيشار إليه فيما بعد: وكيع، اخبار القضاة؛ وسيشار إليه فيما بعد: المَرد، الكامل؛ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤ج، تحقيق: مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥م، ج٣، ص ٧٦٨، وسيشار إليه فيما بعد: البكري، معجم؛ ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ج١، ص ٢٠٢، ٢٢٢.

(١٠) انظر نماذج من هذه النزاعات بين ورثة الواقفين وتوجههم للولاة لفض تلك المنازعات فيما بينهم، المصعب الزبيري، نسب قريش، ص ٤٢- ٤٧؛ الخصّاف، أحكام الوقف، ص ١١، ص ١٧؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة المنورة، ج١، ص ٢٣٧؛ البلاذري، أنساب الأشراف، أمر الحسن بن علي، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥؛ مؤلف المجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١م، ص ١٢٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٣٣١.

عليها حفظاً لها من الالتواء والتوارث. فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديواناً عظيماً"، ثم يضيف الكندي مؤكداً: "كان أول قضاة مصر تسلم الأحباس إلى ديوانه توبة بن نمر سنة ثماني عشرة ومائة"(١١). بعد بضع سنوات من الخطوة التي قام بها قاضي مصر توبة الحضرمي، حدث تطور مشابه في المدينة المنورة بالحجاز، حيث اشتكى أحد ورثة عبد الله بن مطيع الأنصاري متولي الوقف إلى قاضي المدينة سعد بن إبراهيم الزهري الذي ولي القضاء فيها بين سنتي (١٢٣هـ/ ٧٤٠م - ١٢٨هـ/ ٧٤٥م) متهماً المتولي بأنه غمط المشتكى حقه بأن أعطاه أقل من نصيبه، عندها استدعى القاضي ذلك المتولي وألزمه بأن يرفع إليه حساب الوقف كي ينظر فيه وينصف المشتكي ممن ظلمه(١٢).

من خلال هاتين الحادثتين اللتين حدثتا كل واحدة على حدة في مصر وفي الحجاز في السنوات الأخيرة من خلافة هشام بن عبد الملك، نستطيع أن نخمن أنهما لم يحدثا بالصدفة، وأنهما لم تحدثا بمبادرة شخصية من قبل قضاة الولايتين المتباعدتين، بل كانتا على الأرجح، تجسيداً لقرار رسمي على مستوى الخلافة الأموية. وفي ذلك ما يؤكد بالضرورة أن الدولة قد حولت موضوع الأوقاف إلى مؤسسة سلطانية تقع ضمن صلاحيات قضاة الولايات في الأقاليم المختلفة قبل منتصف القرن الميلادي بل جعلت للأوقاف ديواناً خاصاً بها عرف باسم "ديوان الأحباس"، ولما قامت الخلافة العباسية، حذا العباسيون الأوائل حذو ما كان قائماً أيام أسلافهم الخلفاء المروانيين حيث خولوا للقضاة صلاحية الإشراف على الأوقاف في مختلف الولايات(١٣). وذلك قبل أن يجعلوا للأوقاف مؤسسة مستقلة عرفت باسم "ديوان البِر"، في إبان القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي(١٤). وفي هذا السياق يجدر بنا الوقوف عند العبارة التي وردت عند الكندي حين يروى لنا ما نسبه ابن لهيعة إلى القاضي توبة بن نمر الحضرمي وهو يلاحظ البعد الاجتماعي للأحباس في زمانه، وذلك في قوله: "ما أرى مرجع هذه الصدقات إلاّ إلى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدي عليها

---

(١١) أبو عمر بن يوسف الكندي المصري، (ت٣٥٥هـ/ ٩٦٥م) كتاب الولاة والقضاة، تحقيق رفن كست، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د. ت.)، ص ٣٤٦، وسيشار إليه فيما بعد: الكندي، الولاة؛ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، (ت ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)، صبح الأعشى، ٢ج، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٦٣م، ج١، ص ٤١٨، وسيشار إليه فيما بعد: القلقشندي، صبح الأعشى.

(١٢) وكيع، أخبار القضاة، ج١، ص ١٥٤.

(١٣) وكيع، المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٨، ٦١، ٧١، ١٢٥.

(١٤) انظر:

Meier Astrid. "WAKF". Encyclopedia of Islam. (new ed.).

حفظاً لها من الالتواء والتوارث"، فعبارة الحضرمي التي يصف بها طبيعة الوقف إبان القرنين السابع والثامن، إنما تنطوي على العنصر الأساسي الذي يتميز به الوقف الخيري الذي اتسعت دائرته منذ القرن العاشر فصاعداً، حين جعل من فئة الفقراء والمساكين هم الفئة المخصوصة بمنافع الوقف الاقتصادية، ومع ذلك فإن غلبة هذا النوع من الوقف، أي الوقف الذري في تلك الحقبة المبكرة، لم تنف وجود النوع الثاني من الوقف الإسلامي، أي "الوقف الخيري"، فيروي لنا وكيع بن خلف أن قاضي المدينة سعيد بن زيد بن ثابت، استعاد لرجل من المدينة أرضاً كان غصبها الولاة منه، فجعلها صاحبها بعد ذلك صدقةً على فقراء قومه، فانتعش من ذلك خلق كثير من الفقراء(١٥).

III: الدولة ومؤسسة الوقف

كان إنشاء ما سماه الكندي ديوان الحبس في مصر، وما أشرنا إليه من الأحباس في المدينة قد وضعت ضمن صلاحيات قاضي الولاية، قد شكلت الخطوات الأولى في طريق سيطرة الدولة على مؤسسة الأوقاف وضبطها والتحكم في توزيع ريعها الذي أنيط بالوالي أو المتولي على الأحباس، ولمّا كانت العقارات الموقوفة، الدور والأرض والأسواق، معفاة من الضرائب، صار هذا الإعفاء حافزاً عند المُلاك الذين ينوون التهرب من الضريبة إلى وقفها (أي جعلها وقفاً)، على أبنائهم وذريتهم(١٦). ولما أخذت مصادر دخل الدولة بالضمور والاضمحلال بسبب توقف الفتوحات، وازدياد عدد معتنقي الإسلام سعياً وراء إسقاط جزية رؤوسهم، وكذلك ازدياد رقعة أرض الخراج التي تحولت إلى أرض عشرية، هذا إلى ازدياد أعباء الخزينة بسبب الفتن والثورات، فنتيجة لكل ذلك بدأ القائمون على شؤون الاقتصاد في البحث عن مصادر دخل لتعويض عجز الخزينة المتزايد(١٧)، وهنا لجأت الدولة لأموال الصدقات (أي الزكاة)، وصارت تستعين بها للوفاء برواتب الجند والمقاتلة(١٨). ولمّا

(١٥) وكيع، أخبار القضاة، ج١، ص ١٦٧- ١٦٨.

(١٦) انظر: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م)، المُصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، ١٩٧٠- ١٩٧٢م، ج٤، ص ١٥٢، وسيشار إليه فيما بعد: الصنعاني، المصنف؛ أبو عبيد، الأموال، ص ٦٦٦.

(١٧) انظر:
Khalil Athmania. "Taxation reforms in early Islamic Khurāsān. A reassessment". Der Islam, 6 (2), 1988, pp. 272- 281.

(١٨) الصنعاني، المصنف، ج٣، ص ٥٣؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)،

كانت مؤسسة الوقف تستحوذ على مساحات شاسعة من الأراضي وبالتالي كانت الأموال التي تدرها الأوقاف أموالاً عظيمة[١٩]، اضطرت الدولة أن تمد يدها إلى مال الأوقاف، كما رأينا ذلك في مصر حين أُنشئ ديوان الحبس أو في غيرها من الولايات. وقد وصف النويري الضائقة الاقتصادية التي ألمت بخزينة الدولة الأموية في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وأشار إلى بعض الخطوات التي قامت بها الدولة تفادياً لاستفحال السوء، فقال: "فلما كان في آخر أيام الدولة الأموية عندما كثر الاختلاف بينهم، وقلت الأموال في أيديهم، شرعوا في مصادرات الرعايا، وأخذوا الأموال من غير وجوهها، وتعرضوا إلى أموال الأوقاف والأيتام[٢٠]. وبعد قيام الدولة العباسية تحولت سياسة ضبط أموال الوقف ووضع الأوقاف ضمن صلاحيات القضاة سياسة رسمية للدولة، وكان بعض هؤلاء القضاة يبالغ في البحث عن تلك الأحباس لاكتشاف أمرها، حتى أنه استعان بشبكة من المخبرين جعل لهم أجراً ليشجعهم على التحري وكشف ما أخفي عن السجلات أو أعين السلطة من الوقفيات. وذكر في هذا السياق ما كان يقوم به القاضي خالد بن طليق، حيث كان يفتش ويتحرى عن الأموال التي في أيدي الناس من الوقوف والصدقات، حتى أنه جعل لمن دلّه على شيء من ذلك جائزة مالية قدرها عشر العشر من المال المقبوض. فأخبر عن مال عند رجل يدعى عبد الوهاب بن عبد المجيد، فأرسل إليه وسأله عن المال فأقر له به، وقال: هو من وقوف في يدي فأمر القاضي بعد ذلك بتثبيت الوقوف، فأحيا الوقوف بما أمر به من تثبيتها، وحُمد على ذلك"[٢١]. وبالجملة فإن القضاة أيام العباسيين الأوائل قد أوكل إليهم قبض الوقوف وإدارة شؤونها والإشراف عليها[٢٢]، كي لا تبقى بأيدي مُتوليها من بين أقارب الواقفين فيكون ذلك مدعاةً لضياع المال واختلاسه وحرمان مستحقيه من ثمراته.

معجم البلدان، ٥مج، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٢٤٨، وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم البلدان.

(١٩) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوي، التراتيب الإدارية، نشر حسن جفتا، بيروت، د. ت.، ج١، ص ٤٠١، وسيشار إليه فيما بعد: الكتاني، نظام الحكومة.

(٢٠) شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٨ج / ٩مج، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، د.ت.، ج١٢، ص ٢٩، وسيشار إليه فيما بعد: النويري، نهاية الأرب.

(٢١) وكيع، أخبار القضاة، ج٢، ص ١٢٥.

(٢٢) وكيع، أخبار القضاة، ج٢، ص ٥٨؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم الأدباء، ١٠ج، تحقيق: س. مرجليوث، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٢٢م، ج٨، ص ٨٧، وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم الأدباء .

وتدل عبارة تثبيت الوقوف التي وردت في هذه الرواية، أن الأوقاف صارت مؤسسة رسمية، سميت ديواناً، أو أي اسم أخر، وصارت الأوقاف تسجل في أوراق رسمية وتضبط حساباتها وتعرف الجهات التي تستفيد من ريعها، ويحمل ما يفيض من دخلها عن المستحقات إلى خزينة الدولة أو ما كان يعرف ببيت المال.

ويستفاد مما يقوله المقريزي أن هذا الترتيب كان معمولاً به في مصر في ظل النظام المركزي للخلافة العباسية في بغداد، وأنه لم يتوقف حتى بعد استقلال أحمد بن طولون بهذه الولاية. وهو أمر ينسحب بالضرورة على باقي الولايات الخاضعة للنظام المركزي في بغداد في كل من بلاد الشام ومناطق أخرى في جزيرة العرب[٢٣].

ولكن كما يقول المقريزي: «لما قدمت الدولة الفاطمية من الغرب إلى مصر، بطل تحبيس البلاد وبمعنى آخر، صار قاضٍ يتولى أمر الأحباس من الرباع، وإليه أمر الجوامع والمشاهد، وصار للأحباس ديوان مفرد[٢٤]» واقتضى ذلك بطبيعة الحال أن تحمل أموال الأحباس التي تفيض عن أوجه الصرف والصيانة إلى بيت المال وطولب مُتولو تلك الأحباس الالتزام بتنفيذ الشروط التي تنص عليها وثائق الوقف أو ما يعرف بالوقفيات، واستدعى ذلك بالضرورة الاستعانة بأكثر الكتاب كفاية وأوفرهم أمانة وعدلاً. وأنشأت الدولة في عهد الحاكم بأمر الله في مطلع القرن الخامس الهجري شبكة من المراقبين الميدانيين للإشراف على المؤسسات الدينية والتعليمية التي تمول من ريع الأوقاف للكشف عن العامر منها وتخصيص الأموال اللازمة لها وقطع المخصصات المالية عن الخرب غير العامر من تلك المؤسسات. واستمر حال الأوقاف على هذا النحو طيلة أيام العهد الفاطمي، ولم يتغير بقيام دولة بني أيوب حيث ظلت إدارة الأوقاف والإشراف عليها ضمن صلاحيات الجهاز القضائي، ثم قامت دولة المماليك ولم يتغير شيء من ذلك طيلة الخمسين سنة الأولى بعد قيامها[٢٥]. ولما انتقلت السلطنة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٨هـ/١٣٠٨م - ٧٤١هـ/١٣٤٠م)، صُنفت الأوقاف ثلاثة أصناف وجعل لكل صنف منها جهة إدارية مستقلة عن الأخرى، وتكون مرجعيتها جميعاً إلى ديوان الأحباس. وكان أولها "الرزق الأحباسية"، يتولاها أحد كبار موظفي الدولة وهو دوادار السلطان، أو ما قد نسميه حامل

(٢٣) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/ الخطط المقريزية، ٢ج، مصورة عن مطبعة المطبعة الأميرية، بيولاق، القاهرة، ١٢٧١هـ/ ١٨٥٣م، ج٢، ص ٢٩٤- ٢٩٥، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، الخطط.

(٢٤) المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢٩٤- ٢٩٥.

(٢٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٩٥.

أختام السلطان أو سكرتيره الخاص الذي يشكل حلقة الوصل بين السلطان وبين جهات الدولة المختلفة، وتشمل الرزق الأحباسية الأراضي والعقارات الموقوفة على المساجد والزوايا وباقي المصالح الخيرية في جميع أنحاء الدولة، وكانت في غالبيتها تحت نظر الأمراء وكبار رجال الدولة، آلت إليهم بحكم صلتهم بالسلطة أو بدفع الرشاوي، وأناب هؤلاء عنهم مجموعة من صغار الفقهاء ورجال الدين من أهل الأرياف يتستر الأمراء من خلفهم، وكان حجم الأراضي والعقارات الداخلة في هذا الصنف هائلاً، بينما كانت غالبية المساجد والزوايا والمصالح التي خصصت لها هذه العقارات وهمية لا وجود لها، أو أنها كانت خربة معطلة، وكان الصنف الثاني يعرف بالأوقاف الحكمية، يتولى أمره قاضي القضاة الشافعي، وكان ريع هذا النوع من الأوقاف يصرف على الحرمين في مكة والمدينة بالإضافة إلى جهات أخرى من الصدقات وأعمال البر وفكاك أسرى المسلمين، وكان القاضي الذي يتولى هذه المؤسسة يعرف باسم ناظر الأوقاف. أما الصنف الثالث فهو الأوقاف الأهلية أو الذرية، يتولاها ناظر خاص من أبناء الواقف أو رجل آخر تعينه الدولة أو قاضي القضاة، وتدخل في إطار هذا الصنف الخوانق والمدارس والجوامع والتُرب، واستفادت مؤسسات هذا الصنف من ريع أراض واسعة في مصر وفي بلاد الشام[٢٦].

IV: الفساد الإداري والسياسي ومؤسسة الأوقاف

ألمحنا فيما سبق إلى عدد من الأسباب والتطورات التي صبت في اتجاه ضبط الأوقاف ومأسستها ووضعها تحت نظر الدولة سواء تحت إشراف القضاة الإقليميين أو تركيزها في ديوان خاص بها. ورأينا أن الأهداف التي توختها الدولة من وراء اتخاذ تلك السلسلة من الخطوات الإدارية، كانت كلها في إطار الضبط وحفظ أموال العامة والمحافظة على مصالح جمهور المستفيدين من الأوقاف، من فقهاء وعلماء ومدرسين وطلبة وفقراء معدمين وغرباء ومسافرين ومجاهدين وأسرى، وعلى مدار القرون الأربعة التي انقضت منذ أن بادرت الدولة إلى ممارسة إجراءات الإشراف والضبط بشأن الأحباس، وهي القرون التي شهدت أحداثاً كباراً، بل عواصف سياسية جامحة أطاحت بدون قائمة وأتت بأنظمة حكم جديدة، لم يتوفر لدينا من المعلومات ما يمكننا من تتبع التطورات وتقصي النتائج التي أسفرت عنها تلك الإجراءات، في هذا الإقليم أو ذاك، وهل كانت قد نجحت في تحقيق الأهداف التي سعت لبلوغها، وماذا كانت التفاعلات السلبية التي ترتبت على فشلها.

(٢٦) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٩٥- ٢٩٦.

وأوضح ما وصل إلينا في هذا الصدد، كان ذلك التقرير الذي أورده المقريزي مجملاً فيه ما آلت إليه الأمور وما كان عليه حال الأوقاف في مصر، مسقط رأس المقريزي، ملمحاً إلى حال الأوقاف في بلاد الشام، كذلك في إبان النصف الأول من القرن التاسع / الخامس عشر الميلادي، فيصف الأوقاف في زمانه ويقول: "إلاّ أنها اختلت وتلاشت في زمننا هذا، وعما قليل إن دام ما نحن فيه لن يبقى لها أثر البتة". ويتناول المقريزي في الموضع نفسه جانباً من الممارسات التي أدّت إلى ضياع الكثير من الأوقاف واستيلاء رجال الدولة عليها أو على نصيب الأسد من ريعها ومدخولاتها، حتى بلغ بهم الأمر أحياناً إلى بيع أراضي الوقف ووضع أثمانها في جيوبهم(٢٧).

V: أساليب السيطرة على الأوقاف

كانت أساليب السيطرة على الأوقاف تتراوح بين اختلاس أموال الوقف من قبل المتولي، بغض النظر عن صفته إن كان قاضياً أو رجل سلطة، وبين المصادرة الكاملة للوقف وإلحاقه بملكية السلطان أو الملكية الخاصة، وبين الاختلاس والمصادرة. كانت هنالك وسائل أخرى مثل الاستبدال أو ما يسمى المناقلة أو حل الوقف وبيعه أو توريثه. وأياً كانت الوسيلة التي تمارس للاستيلاء على الوقف، فإن لكل منها آليات خاصة تستخدم لتغطية عملية السيطرة على الوقف أو على ريعه ومدخولاته.

أ. المصادرة المباشرة

شهد العهد المملوكي ازدياداً منقطع النظير في مساحة الأراضي الموقوفة في إطار ما كان يعرف بديوان الأحباس أو الرزق الأحباسية حتى بلغت قبيل منتصف القرن الثامن / الخامس عشر ما يقرب من ١٣٠ ألف فدان في مصر وحدها، عدا عن المساحات التابعة لهذه المؤسسة في نيابات بلاد الشام(٢٨). وبين التقرير الذي رفعه ناظر ديوان الخاص في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، أن غالبية هذه الوقوف إنما سجلت في الديوان عن طريق التزييف والرشاوي والمحسوبيّات، وأن إدارتها أسندت إلى أشخاص يفتقدون إلى المؤهلات الأساسية التي تكسبهم الأهلية الشرعية، وأن المرافق التي

(٢٧) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٩٦.

(٢٨) انظر:
Poliak. A. N.. Feudalism in Egypt. Syria. Palestine and Lebanon. 1250- 1900. reprinted with 28 additions. Philadelphia. 1977. pp. 33-34.

وقفت الممتلكات والعقارات من أجلها من مساجد أو مدارس أو زوايا كانت معطلة خربة. وأوصى التقرير أن ينشأ ديوان مراقبة وجهاز مراقبة وإشراف يطوف موظفوه على البلاد لإجراء مسح ميداني يكشف عن العامر من تلك المرافق ليستمر الإنفاق عليه، وأن تلحق باقي الأراضي الموقوفة على المرافق المعطلة إلى ديوان السلطان أي ما نسميه اليوم أراضي الدولة. ولكن الموت المفاجئ للسلطان، جمّد العمل بهذه التوصيات التي وردت في تقرير ناظر الخاص السلطاني[٢٩].

بالرغم من أن هذه الخطة التي وضعها ناظر الخاص السلطاني كانت بمثابة خُطة إصلاحية تهدف إلى وضع حد للفساد المستشري الذي أصاب مؤسسة الوقف وأضر بمصلحة جمهور المسلمين حين جعل من مؤسسة الوقف مؤسسة تخدم مصالح الطامعين من الأمراء وكبار أصحاب الجاه والنفوذ، إلا أنها وفي الوقت نفسه، قد أرست قواعد مبدأ مصادرة الوقف من قبل السلطان والمتنفذين من كبار موظفي السلطنة. فتوالت بعد هذا التاريخ أعمال المصادرة التي بودر إليها من الجهات الرسمية المرتبطة بالسلطان، وفي كثير من الحالات بمبادرة السلطان نفسه، وكانت الذرائع التي تُساق لتبرير المصادرة في غالب الأحيان تنصب في محور واحد هو تقوية الجيش أمام التهديدات والمخاطر التي تواجه الدولة من قبل أعدائها، فتلجأ الدولة أو ممثلوها لمصادرة أراضي الوقف لتوزع كإقطاعات على أمراء عساكر جدد، لتضخ دماء جديدة في العسكر المملوكي، ولكننا مع ذلك سنصادف أمثلة من مصادرات حدثت، لم تكن بذات صلة، مباشرة أو غير مباشرة، بتقوية الجيش أو الموضوع العسكري أصلاً، بل مورست تحت ذرائع شتى، تتراوح بين نية العقاب والانتقام ومن إشباع لنزوات التسلط والجشع في زيادة الدخل والملكية، وسوف تتبين بعض هذه الذرائع من خلال الأمثلة التي سنسوقها فيما يأتي.

ففي سنة ٧٥٤هـ / ١٢٥٣م، وبعد ما يقرب من أربع عشرة سنة على الخطة الإصلاحية التي مر ذكرها آنفاً، أقدم الأمير صرغتمش بن عبد الله الناصري، مُدبر المملكة، على حل أوقاف ابن زنبور وإرجاع العقارات إلى ديوان السلطان، ولأجل استتمام الإجراءات الشرعية اللازمة لذلك عقد مجلس للقضاة حضرة قاضي قضاة الشافعية العز ابن جماعة والقاضي الموفق الحنبلي ورفضا بشدة محاولة الأمير صرغتمش حل الوقف المذكور ومنعا بذلك عملية المصادرة[٣٠]، وأول ما يتبادر إلى الذهن لدى قراءة هذه الرواية أمران

(٢٩) المقريزي، الخطط المقريزية، ج٢، ص ٢٩٥.

(٣٠) عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري(٩٢٠هـ / ١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول، ٩ج، تحقيق: عمر عبد

على جانب كبير من الأهمية، أولهما الاستقلالية شبه التامة التي كان الجهاز القضائي ما يزال يتمتع بها، بعد مرور ما يقرب من قرن على قيام دولة المماليك، أما الأمر الثاني فهو القوة والمهابة التي تميز قرار الجهاز القضائي بل أرجحيته على القرار السياسي الصادر عن السلطان أو عن الدوائر المرتبطة به.

وعلى الرغم من الصلابة والحزم الذي أبداه الجهاز القضائي إزاء محاولة حل الأوقاف ومصادرتها، إلاّ أن ذلك لم يكن رادعاً لمنع استمرار تلك المحاولات؛ ففي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، ماتت الخوند بركة، والدة السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون الذي تولى منصب السلطنة بين سني (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م - ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م)، وكانت خوند بركة قد بنت المدرسة المعروفة بمدرسة أم السلطان وبنت ربعاً وقيسارية ووقفتهما على مدرستها، فقام الأمير جمال الدين يوسف الاستادار بمصادرة هذين العقارين إضافة إلى أوقاف أخرى، ليجعلها جزءاً من أوقاف المدرسة التي حملت اسمه[٣١].

وفي سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، كانت أول خطوة شاملة للاعتداء على الأوقاف مصادرتها، ليس فقط في مصر وحدها بل في بلاد الشام أيضاً، وليس فقط على الوقف الأهلي أو الذّري بل على الوقف الخيري بما في ذلك أوقاف الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والزوايا والربط، وعلى الأوقاف الخاصة بأولاد الملوك وبالأمراء، وغير ذلك من الرزق الأحباسية، وكان ذلك أيام السلطان علي بن الأشرف شعبان (٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م - ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م). وبمقتضى الإرادة السلطانية قام الأمير الكبير برقوق (الذي سيلي السلطنة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) باستدعاء القضاة وشيوخ الفقهاء، بعد أن بسط أمامهم صورة من الوثائق المتعلقة بالأوقاف في مصر وبلاد الشام، وبما أحتيل على تملكه منها، والمبالغ المالية المتحصلة منها في كل عام، قال لهم: "إن هذا هو الذي أضعف جيش المسلمين". فانبرى القضاة الحاضرون يتصدون لفكرة المصادرة، ثم تكلم شيخ الإسلام، الشيخ سراج الدين عمر البلقيني وأفتى بأن لا يتعرض السلطان للأوقاف الخيرية التي يعتاش من ريعها الفقهاء والعلماء والأئمة الخطباء والمدرسون وشيوخ المتصوفة، وهي لذلك لا يصح حلها والمسّ بها، وأما ما وقف على الذرية وكان أصحابه قد تملكوه بالحيلة والغش، فيستطيع السلطان وضع يده عليه

السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ج١، ص ٢٥٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شامين الظاهري، نيل الأمل.

(٣١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، (٨٤٥هـ/ ١٨٤٢م)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، مركز تحقيق التراث بدار الكتب الوثائق القومية، القاهرة، ١٩٧٠م، ج٣، ص ٢١٠، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك.

ومصادرته[٣٢].

في هذه المرة لحقت بالجهاز القضائي أول هزيمة أمام السلطة السياسية، ولكن انتصار المستوى السياسي لم يكن حاسماً، حيث اكتفى الأمير الكبير برقوق بمصادرة بعض الأوقاف الذرية التي ثبت أنها آلت إلى أصحابها بغير وجه حق حيث اشتريت بأموال احتيل على بيت المال بأخذها، وامتلكت بأساليب غير شرعية.

وإذا كان الأمير برقوق قد سجل نجاحاً جزئياً بمصادرة بعض الأوقاف الأهلية / الذرية في عهد إمارته، إلاّ أنه صادف إخفاقاً في الوصول إلى بغيته في عهد سلطنته، فلما طلب من مجلس القضاء الذي عقده لاستصدار فتوى بشرعية مصادرة الأوقاف في عام ٧٩٨هـ / ١٣٨٧م، رفض مجلس القضاء إصدار مثل تلك الفتوى[٣٣].

وعلى غرار المحاولات التي كان يبادر إليها سلاطين مصر أو بعض كبار مرؤوسيه من الأمراء ورجال الدولة لمصادرة الأوقاف، كنا نرى مبادرات مماثلة يلجأ إليها نواب الشام يفعلون ذلك حيناً تحت غطاء الشرعية السياسية، كونهم ينوبون عن السلطان، وأحياناً بشرعية غصب السلطة كزعماء لحركة انفصالية عن السلطان بالقاهرة، ففي سنة ٨١٢هـ / ١٤٠٩م، استدعى نائب الشام الأمير شيخ المتمرد على السلطان قضاة دمشق، وأبلغهم قراره وضع يده على الأوقاف لكي يوزعّها إقطاعات على أصحابه من الأمراء، وطلب إليهم المصادقة على هذه الخطوة، وبعد أخذ ورد فيما بينهم توصلوا إلى تسوية معه تقضي بتنازلهم لهذا الأمير / النائب عن ثلث الريع السنوي للأوقاف. وكان قبل ذلك قد وزع على أصحابه عدداً من الإقطاعات التي سبق وصادرها من مال الأوقاف[٣٤]. وعندما تمرد الأمير نوروز في بلاد الشام سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، واستقر في مدينة دمشق بدأ بتعمير وترميم قلعها، ففرض الأموال على الأراضي، واستخرج كثيراً من أراضي الأوقاف وصادرها

(٣٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٣٤٥- ٣٤٧؛ قارن أيضاً شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، إنْباء العُمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩- ١٩٧٢م، ج١، ص ١٨٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر العسقلاني، إنباء العُمر؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ج، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٨٢م، ج١، ق٢، ص ٢٣٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

(٣٣) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، ٢ج، تحقيق: قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦م، ج١، ص ١٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن الفرات ، تاريخ.

(٣٤) المقريزي، كتاب السلوك، ج٤، ص ٩٢، وانظر عن الممتلكات الوقفية التي صادرها ووزعها إقطاعات، المصدر نفسه، ج٤، ص ٩١.

ووزعها إقطاعات على أصحابه[٣٥].

وكان الأمير شيخ الذي استقل بنيابة الشام قد فعل شيئاً مشابهاً قبل هذا التاريخ؛ واستثنى القرى الواقعة في إقطاع أمراء المماليك، ثم فرض مبالغ من المال على بقية الأوقاف في دمشق وطالب القضاة بتسديد تلك المبالغ كونهم المتولين لتلك الأوقاف[٣٦].

ووثقت لنا الحوليات التاريخية التي تغطي حوادث الفترة المملوكية كثيراً من الحالات التي كان بعض الأمراء وبعض السلاطين يغيرون فيها على الأوقاف الخاصة ثم يلحقونها بممتلكاتهم أو بالأوقاف التي كانوا أوقفوها على بعض المؤسسات[٣٧].

ب. المصادرة بالاحتيال:

لما كانت الصعوبات تكتنف عملية إصدار فتاوى شرعية لتغطية عمليات مصادرة الأوقاف فقد لجأت بعض الأوساط الدينية من فقهاء أو قضاة إلى أعمال بعض الحيل الفقهية[٣٨]، لتسهل على السلاطين وكبار الأمراء عملية المصادرة كي تبدو وكأنها قد تمت وفقاً لأحكام الشريعة، فلما همّ السلطان فرج بن برقوق (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م - ٨١٥هـ/ ١٤١٢م)، مصادرة المدرسة التي كان بناها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار بعد مقتله عام ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، حسّن البعض للسلطان أن يهدم المدرسة ويستولي على رخامها تمهيداً

(٣٥) المقريزي، كتاب السلوك، ج٤، ص ٣٩- ٣٩، ص ٤٠.

(٣٦) المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٦٠.

(٣٧) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٣٦٤؛ وانظر أيضاً: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٢٢٨؛ شرف الدين أبو زكريا يحيى بن شاكر بن الجيعان (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ١٢٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن الجيعان، التحفة السنية؛ المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٢٣٧، ج٤، ص ٦١٦؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، كتاب التبر المسبوك في نيل الملوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د. ت.، ص ٤٢٧، وسيشار إليه فيما بعد: السخاوي، التبر المسبوك؛ محمد بن احمد بن اياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٣ج، مكتبة الباب الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٠م، ج٣، ص ١٤، ج ٤، ص ١٠٩- ١٦٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن اياس، بدائع الزهور؛ انظر على سبيل المثال: شمس الدين محمد بن علي بن طولون (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٠٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان؛ .

(٣٨) عن موضوع الحيل في الفقه، انظر:

J. Schact, "Hiyal", E. I.², (newed.).

ومن أشهر ما كتب في موضوع الحيل: كتاب الحيل والمخارج للخصاف (ed. Hanover, 1923)، وكتاب القزويني، كتاب الحيل في الفقه (ed. Hanover, 1924)، وكتاب الشيباني، المخارج في الحيل (ed. Leipzig, 1930).

للاستيلاء على الأراضي والعقارات الموقوفة عليها، فلما هم بذلك ثناه كاتب سرّه عن ذلك، وأشار عليه بإبقاء المدرسة على حالها، وأن يعمد إلى حلّ الوقف التابع لها لأنه كان بالأصل موقوفاً على إحدى الترب قبل أن يجعله الاستدار وقفاً على المدرسة، فلما تم للسلطان ذلك صارت المدرسة باسمه[٣٩].

ويبدو أن هدم العقارات والأبنية الموقوفة، كان أحد الوسائل الناجعة التي يستخدمها رجال السلطان لمصادرة الوقف، وهذا ما حدث في عام ٨٣١هـ / ١٤٢٧م، إبان عهد السلطان الأشرف برسباي، حيث شرع بهدم خان الحجر الذي كان جزءاً من وقف الشهابي الششماني حين استولى عليه السلطان[٤٠]، وبالطريقة ذاتها هدمت الجوانيت المعروفة باسم الصيارف والتي كان جزءاً من أوقاف المدرسة الصالحية، فصودرت وسجلت باسم ولد الأمير جانبك الدوادار على أنها جزء من التركة التي ورثها عن أبيه[٤١] وشكل ذلك بطبيعة الحال مخالفة لأحكام الوقف التي أجمع عليها كافة فقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وقد أورد شمس الدين السرخسي، جملة من هذه الآراء والأحكام التي تمنع عملية توريث الوقف[٤٢].

ج. حيل الاستبدال أو المناقلة

الاستبدال: هو وجه آخر من وجوه الاستيلاء على الوقف، والفرق بينه وبين المصادرة أنه يتم بتغطية شرعية تحت ذريعة ترجيح مصلحة جمهور المنتفعين بهذا الوقف، ولا يتم الاستبدال إلا بعد أن يثبت للقاضي تعطل الموقوف أو خرابه وانقطاع غلته، وأن يقدم بديل عن الموقوف المراد استبداله ليصدر القاضي الحكم الشرعي المناسب للحالة المعروضة[٤٣].

---

(٣٩) المقريزي، كتاب السلوك، ج٤، ص ١٧٥- ١٧٦.

(٤٠) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٧٥٣- ٧٥٤، ص ٧٦٥.

(٤١) المصدر نفسه، ج٤، ص ٧٦٨.

(٤٢) شمس الدين السرخسي، المبسوط، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٧٨م، ج٢، ص ٣٣- ٣٤.

(٤٣) انظر عن الاستبدال:

Meier Astrid. Wakf". E. I. (new ed.).

تقي الدين أبو العباس احمد بن عبد الحليم الحراني ابن تيمية (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) ، الفتاوى الكبرى، ٥ج، دار صادر، بيروت، د. ت.، ج٣، ص ٥٤٢، وسيشار إليه فيما بعد:ابن تيمية، الفتاوى؛ شرف الدين احمد بن الحسن بن عبد الله بن قدامة المقدسي ابن قاضي الجبل(ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، المناقلة والاستبدال بالأوقاف والإفصاح عما وقع في ذلك النزاع والخلاف، تحقيق محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ١١- ١٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن قاضي الجبل، المناقلة والاستبدال؛ أبو العباس

وفي أول إشارة للمقريزي عن ظاهرة الاستبدال في مصر، يتحدث عما جرى يوم الخميس، السادس من شهر رجب سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، أن أحد أمراء الدولة تقدم إلى قاضي القضاة الحنفية القاضي شرف الدين ابن منصور الحنفي، وحاول إلزامه إصدار قرار يحكم له فيه باستبدال بعض الدور الموقوفة بملك أحسن منه، على مقتضى مذهب أبي حنيفة وكان الاستبدال بالأوقاف حينئذٍ غير معمول به في مصر والشام، كما يؤكد ذلك المقريزي، ولا يعمل به قضاة المذهب الحنفي تنزّها وتحرجاً لما فيه من الخلاف، ولذلك امتنع القاضي ابن منصور عن إصدار حكم بالاستبدال، كما أراد الأمير، ولما أصرّ أمير الدولة على طلبه، ما كان من قاضي القضاة المذكور إلاّ أن قدم استقالته من منصبه(٤٤).

يفهم من كلام المقريزي، أن قضاة المذهب الحنفي وحدهم دون غيرهم من قضاة المذاهب الثلاثة الأخرى، كانوا يمتنعون من إصدار الأحكام والفتاوى التي تسهل بل تعطي الشرعية للاستبدال بسبب الخلاف الحاصل بين الفقهاء تجاه هذه المسألة، فالاستبدال في الوقف كان ما زال قضية خلافية حتى ذلك التاريخ ولم يكن معمولاً به، لا في مصر ولا في بلاد الشام. ويبدو أن الفتوى بجواز الاستبدال وإباحته، التي كان أصدرها أحد قضاة دمشق الحنابلة، الذي اشتهر باسم ابن قاضي الجبل الحنبلي سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، قبل عشرين عاماً من القضية التي تحدث عنها المقريزي، لم تؤثر من قريب أو من بعيد في حسم الخلاف القائم بين جمهور الفقهاء. فظل قضاة مصر كما كان عليه الحال لدى بعض قضاة بلاد الشام – يتحفظون على هذه المسألة، بل يبدون معارضتهم المبدئية لها، بدليل أن القاضي الحنفي شرف الدين ابن منصور كان أهون عليه أن يتخلى عن منصبه الرفيع، وإلاّ يفتي بإباحة الاستبدال المطلوب.

وفي إشارة إلى فتوى ابن قاضي الجبل الحنبلي، يقول المؤرخ ابن كثير الدمشقي، أنه وقع في شهر ربيع الأول من سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م، نزاع بين القضاة الحنابلة في مسألة المناقلة (أي الاستبدال)، وكان ابن قاضي الجبل يحكم بالمناقلة، فأصدر حكماً بشأن دار الأمير سيف الدين طيدمر الإسماعيلي التي كانت موقوفة، يقضي بأن تصبح طِلْقاً وأن

احمد بن يحيى الونشريسي (ت٩١٤هـ/١٥٠٨م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، ١٢ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٧، ص ١٥– ١٦، وسيشار إليه فيما بعد: الونشريسين المعيار المعرب؛ محمد قدري باشا، قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف، مكتبة الأهرام، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، ص ٦٣– ٦٥، وسيشار إليه فيما بعد: محمد قدري باشا، قانون العدل .

(٤٤) المقريزي، كتاب السلوك، ج٣، ص ٢٦٩.

تستبدل بوقف أخر عوضاً عنها إذا ما كان في استبدالها مصلحة راجحة للمسلمين. ولقيت هذه الفتوى قبولاً لدى قضاة المذاهب الثلاثة الشافعي والحنفي والمالكي. ثم جاء رد الفعل الرافض لهذه الفتوى من قبل قاضي القضاة الحنابلة بدمشق الفقيه الكبير جمال الدين المرداوي المقدسي ووقف من خلفه غالبية قضاة وفقهاء الحنابلة[٤٥]، وكتب القاضي المرداوي رسالة تضمنت ردّه على فتوى ابن قاضي الجبل، فنّد فيها كافة الدعاوى التي استند عليها صاحب تلك الفتوى[٤٦].

ويستدل من صدور هذه الفتوى، ومن الفتاوى المضادة التي نقضتها أن موضوع استبدال الأوقاف كان مطروحاً بشكل لافت على الصعيد القضائي في بلاد الشام قبل سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م، وأن صدور تلك الفتوى لم ينه النزاع المحتدم بين الفقهاء حول شرعية أو عدم شرعية هذه المسألة، وإن ظل قائماً بضعة عقود بعد صدورها، وهو ما أشار إليه المقريزي في روايته المتقدمة، ويلاحظ أن موضوع الاستبدال شهد في العقود الأخيرة من القرن الثامن وفي إبان العقود الأولى من القرن التاسع تغيراً انقلابياً في موقف القضاة الحنفي على الأقل حين أصبح القضاة الأحناف في مصر على الأقل يفتون بإباحة الاستبدال، وهذا ما دلت عليه أقوال المقريزي حين تحدث عن أحوال مصر في مستهل القرن التاسع / الخامس عشر الميلادي، وتحديداً في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق. فعندما تحدث عن الخلل أو الانهيار الذي آلت إليه مؤسسة الوقف في مصر يقول: "إنه ولى قضاء الحنفية، كمال الدين عمر بن العديم في أيام الملك الناصر فرج، وولاية الأمير جمال الدين يوسف تدبر الأمور والمملكة. فتظاهرا معاً على إتلاف الأوقاف؛ فكان جمال الدين إذا أراد أخذ وقف من الأوقاف، أقدم شاهدين يشهدان بأنّ المكان يضرّ بالجار والمارّ، وأن الحظ (أي المصلحة)، فيه أن يستبدل به غيره، فيحكم له قاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستبدال ذلك. وشره جمال الدين في هذا الفعل كما شرِه في غيره، فحكم له المذكور باستبدال القصور العامرة والدور الجليلة بهذه الطريقة[٤٧].

إذن توفرت لدى السلطة ولدى أصحاب النفوذ من رجال الدولة، بعد أن اكتسب استبدال الوقف الشرعية الدينية التي منحها الجهاز القضائي، وسيلة شرعية لم تكن

(٤٥) الحافظ عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي ابن كثير الدمشقي (ت ٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، البداية والنهاية، ١٤ج / ٧ مج، مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٠م، ج ١٤، ص ٢٥٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن كثير، البداية والنهاية.

(٤٦) ابن قاضي الجبل، المناقلة والاستبدال، ص ١٢٩- ١٣٧.

(٤٧) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٩٦.

متوفرة دائماً لمحاولات المصادرة التي كانت تحدث بين الحين والآخر، ولهذا السبب رأينا المقريزي يحذّر من تلاشي الأوقاف بل من اختفائه كلياً إذا لم تتوقف هذه السياسة المنهجية لاستيلاء السلاطين ورجالهم على الوقف.

ولما اشترط القضاة الذين أباحوا الاستبدال انعدام جدوى الممتلكات الموقوفة وثبوت خرابها وتعطلها، فقد عمد كثير من الطامعين بالأوقاف إلى وسائل التخريب المختلفة التي تؤدي بالأوقاف إلى هذه النتيجة كي تصير لقمة سائغة لإشباع شرههم في الاستيلاء عليها. وحفظت لنا المصادر نماذج من أعمال الهدم والتخريب التي تعرضت لها الأوقاف من أجل تحقيق أهداف هؤلاء الطامعين[٤٨].

واستغل كثير من الناس هذا التساهل الذي أبداه جهاز القضاء الحنفي تجاه مسألة الاستبدال، بحجة العطل والخراب الذي تتعرض له الأوقاف، وسعوا عند القاضي ليجيز لهم بيع وقف أو شراء وقف آخر، وتوسلوا إليه بالرشوة أو المحسوبية (الجاه). واستدرج قضاة آخرون لإصدار أحكام تقضي ببيع الوقف انقاضاً بعد هدمه، وخاصة القضاة التابعون للمذهب الشافعي، فيأتي الرجل منهم بشهود يسمون "شهود القيمة"، فيدلون أمام القاضي بأن الوقف ضارٌ بالمار والجار، وأن المصلحة تقضي أن يهدم ويُباع أنقاضاً، فيحكم القاضي ببيع تلك الأنقاض. وتمادى بعض القضاة في هذا الصدد حتى أنهم حكموا ببيع المساجد الجامعة، إذا خرب ما حولها، دون أن تكون المساجد نفسها قد لحقها خراب، ثم قضوا أن توزع أثمان هذه المساجد على ذريّة من وقف ذلك المسجد. ووصل الأمر ببعضهم إلى الحكم ببيع الوقف ودفع الثمن لمستحقيه دون اشتراط عقار بديل عنه[٤٩].

ومنذ مطلع القرن العاشر / السادس عشر، تفاقمت ظاهرة بيع الأوقاف ليس في مصر وحدها، بل تعدتها لتشمل الأوقاف في بلاد الشام. وحفظ لنا ابن طولون بعض حالات البيع الغريبة تلك[٥٠]. وإزاء تفشي ظاهرة بيع الأوقاف واستفحالها اضطر السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦هـ / ١٥٠٠م - ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)، إلى إصدار مرسوم سلطاني يقضي بمنع بيع الأوقاف في بلاد الشام خاصة[٥١].

---

(٤٨) المقريزي، كتاب السلوك، ج٤، ص ٤٥٧، ٦٦٩، ٧٦٥- ٧٦٨.

(٤٩) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ٢٩٦.

(٥٠) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

(٥١) ابن طولون، المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

وقفية صالحة خاتون في دير عطية
٦٧٥هـ/١٢٧٦م

عبد الله حنا*

تقع دير عطية على إحدى هضاب القلمون، وعلى بعد ٨٩كم من دمشق باتجاه الشمال الشرقي، مرتفعة عن سطح البحر ١٢٠٠م. وتتراوح معدلات هطول الأمطار والثلوج فيها من ٨٠–١٢٠مم ونادرا ما تصل إلى ١٨٠مم. وبلغ عدد سكانها في مستهل القرن العشرين أكثر من أربعة آلاف نسمة، ربعهم من المسيحيين .

١– الأحداث التي سبقت أو تزامنت مع صدور الوقفية

حلّت في الربع الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي في دير عطية صالحة خاتون ابنة الأمير صلاح الدين بهلوان بن الأمير شمس الدين الآمدي[١] أحد قواد العهد الأيوبي. وكان زوج صالحة خاتون فارس الدين أقطاي[٢].

لا نعلم شيئاً عن والد صالحة خاتون وجدها وأين عاشت طفولتها في مصر أم الشام؟.. أما زوجها فارس الدين أقطاي فيذكر المقريزي في السلوك[٣] شخصيتين باسم فارس الدين أقطاي: الشخصية المشهورة، التي اشتركت مع إيبك التركماني وبيبرس في قتل آخر الملوك الأيوبيين في مصر توران شاه ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م. وما لبث أيبك أن قتل أقطاي، وانفرد بالسلطة. والشخصية الثانية باسم "فارس الدين أقطاي المستعرب أتابك العسكر في الشام[٤]" .وهذا الأخير كانت له مكانة في عهد بيبرس. ونرجح أن صالحة خاتون كانت زوجة الأخير. ومعنى ذلك أن مصدر قوتها في أخذ دير عطية ومزارعها يعود إلى مكانة والدها من جهة وسلطة زوجها أقطاي من جهة أخرى. ولا تزال الذاكرة الدير عطانية تردد

---

* باحث، دمشق، الجمهورية العربية السورية

(١) لم نعثر على ترجمة لحياتهما .

(٢) سترد ترجمته في الفقرة التالية .

(٣) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، "كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ". صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، ٢ق، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٧م، ج١، ق٢، ص ٣٥٢. وما يليها. وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك.

(٤) لا تزال إحدى العائلات في ديرعطية تحتفظ بلقب " تابك " وهو كما يقال تحريف لأتابك .

أن صالحة خاتون وحاشيتها كانت من الأكراد.

وتتناقل أجيال دير عطية رواية مفادها أن صالحة خاتون اختارت دير عطية ذات الهواء العذب للسكنى فيها للمعالجة من مرض صدري ألمَّ بها. ولاشك أن توفر الينابيع والأقنية القديمة شجعت صالحة خاتون وحاشيتها على الإقامة في دير عطية وإعادة إعمارها بعد إصلاح قناتها، التي يبلغ طولها ما يقرب من عشرة كيلومترات بين نبعها من داخل كروم النبك حتى انتهائها في حقول دير عطية، التي بلغت مساحتها ٦٠٠٠ دونم في منتصف القرن العشرين(٥).

ولنستعرض التواريخ الهامة المتزامنة مع صدور وقفية صالحة خاتون ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، في الأحداث التالية(٦):

- وفاة الصالح أيوب ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م وصعود نجم زوجته المملوكة شجرة الدر .
- مقتل توران شاه ابن الصالح أيوب على يد أمراء المماليك البحرية ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.
- فشل محاولات الأيوبيين في الشام استعادة حكمهم في مصر .
- ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م قتل أيبك أقطاي غيلة وانفرد بالسلطة.
- سقوط بغداد في يد المغول ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م.
- دخول الجيش المغولي دمشق ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.
- معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وهزيمة المغول، وبروز المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م – ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠)، الذي دانت له بلاد الشام وانتهى حكم الأيوبيين فيها.
- انعم قطز على أمرائه وأعوانه، فأقطع الأمراء من المماليك الصالحية والمعزية إقطاعات جليلة في الشام(٧).
- وفي ظروف منح تلك الإقطاعات يُطرح السؤال التالي: هل حصلت صالحة خاتون زوجة الأمير فارس الدين أقطاي الصالحي "في عهد قطز أم في عهد خلفه بيبرس على دير عطية" كإقطاعية "أولا ثمّ حولتها إلى وقف ذري؟.. إذ المعروف أن المماليك ومن قبلهم الأيوبيين والسلاجقة منحوا أمراءهم وخاصتهم إقطاعات من الأرض بدلا من مرتبات

(٥) مرعي مليسان: "ديرعطية دراسة إقليمية" نشرتها رابطة المثقفين في ديرعطية عام ١٩٥٨م. ص ١٥. وسيشار إليه فيما بعد: مليسان، ديرعطية .

(٦) تفاصيل هذه الأحداث عرضها محمد سهيل طقّوش: "تاريخ المماليك في مصر والشام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م- ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م". دار النفائس بيروت، ط٢، ١٩٩٧م. ص٣٢-٨٢.

(٧) المقريزي، السلوك. ج١، ق١، ص ٤١٧، ٤٣٤.

نقدية مقابل دفع رواتب جندهم[٨].

- حكم المملوك الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م – ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م أو٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) وقف ضد الأيوبيين والمغول والفرنج وتحالف مع مغول القفجان والفرنج. تحرير قلعة الحصن في ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م.
- بعد تولي بيبرس السلطة عيّن الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكاً للعسكر في الشام...وبذلك أرضى الأمراء(المماليك) واستقطبهم[٩].
- سقوط عكا ٦٩٠هـ/ ١٢٩٠م، ونهاية الحروب الصليبية، التي تسميها المصادر العربية حروب الفرنجة.
- وفي أيام بيبرس حُرّرت وقفية صالحة خاتون المؤرخة في ٢٦ربيع الآخر سنة ٦٦٥هـ، والتي جاء فيها أن أراضي دير عطية وقف على ابن صالحة خاتون "الأمير الكبير حسام الدين أبي المعالي محمد بن الأمير الكبير المجاهد الأتابك فارس الدين أقطاي ثم من بعده على أولاده...للذكر مثل حظ الأنثيين من ولد الظهر دون ولد البطن... وان بادوا جميعهم كان ذلك وقفاً على فكاك أسرى المسلمين لدى الفرنج الكفرة وعلى الفقراء والمساكين المسلمين وعلى إعمار وتحسين القرى ومائها...»[١٠]

بعد أن استقرت صالحة خاتون في دير عطية قامت بعدة خطوات لتثبيت أقدام «إقطاعيتها» جرياً على عادة الأمراء الأيوبيين ومن بعدهم المماليك، الذين ازدهرت الإقطاعيات في عهدهم.

كانت الخطوة الأولى لصالحة خاتون وقف «الضياع الخمس» بما فيها دير عطية على ذريتها عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م[١١]. ونرى أن تخصيص ريع الوقف في حال انقراض ذريّة

---

(٨) عادل زيتون: "المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من صدر الإسلام حتى عهد المماليك. إصدار الاتحاد العام للفلاحين، دمشق، دون تاريخ، المجلد الثاني، ص ٥٨٥، وسيشار إليه فيما بعد: زيتون، المسألة الزراعية. ويستند زيتون في عرضه لصعود الإقطاع العسكري على السبكي والمقريزي والقلقشندي وابن خلدون وصبح الأعشى.

(٩) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص ٤٣٦ .

(١٠) تملك مديرية الوثائق التاريخية بدمشق نسختين من " وقفية صالحة خاتون " محفوظتين ضمن " مجموعة نسب ووقفيات "رقم ١٨. النسخة الأولى كانت في يد آل الناظر وآخر تاريخ للتصديق على الحجة لدى قاضي قارة هو عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م. والنسخة الثانية كانت في حوزة آل الجراح وينتهي آخر تاريخ لتصديقها عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م. وسيرد شرح لهما في حاشية لاحقة .

(١١) الوقف الذُرّي هو الذي يوقف في ابتداء الأمر على نفس الواقف أو أي شخص أو أشخاص معينين، ولو جعل آخره لجهة خيرية. أنظر وهبة الزحيلي : " الفقه الإسلامي وأدلته" ٨ج، دار الفكر، دمشق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م،

صالحة خاتون "على فكاك أسرى المسلمين من أيدي الفرنج الكفرة"[١٢] هو شكل من أشكال "الإقطاع العسكري". فبدلا من تقديم الجند للحرب، وهذا لم يكن بمستطاع سيدة كصالحة خاتون أن تؤديه، نصت وقفيتها على تقديم ريع الوقف لفكاك أسرى المسلمين لدى الفرنج. هذا مع العلم أن حروب الفرنجة انتهت بسقوط عكا عام ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م، أي بعد تحرير وثيقة الوقف الذري بخمس عشرة سنة. وسنعود إلى هذا الأمر فيما بعد .

وكانت الخطوة الثانية، التي قامت بها صالحة خاتون لإصلاح القناة وإعادة إعمار دير عطية ومزارعها استقدام الحرفيين والفلاحين «مسلمين ومسيحيين» من مختلف الأصقاع للعمل في زراعة الأرض، وبناء المساكن. وقد قدمت صالحة خاتون عدداً من المغريات للحرفيين والفلاحين الجدد للإقامة في دير عطية كي تحوز على قوة عمل مختصة في الشؤون الزراعية والحرفية[١٣]، لأن الحاشية المرافقة لصالحة لم تكن على خبرة في العمل الزراعي، أو أن عددها لم يكن كافيا. ويلاحظ تدفق مجموعات بشرية متلاحقة مسلمة ومسيحية للعمل في دير عطية، بمغرياتها: أرض مروية، وطواحين، وحمام ، وأراضي البرية الواسعة الصالحة لزراعة الحبوب والرعي، والأمن والعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين، والمناخ الملائم...ومن ثمّ انتشار أسلوب "مَشَدْ مَسْكَة"[١٤] في علاقة الفلاحين المريحة مع ناظر وقف صالحة خاتون. ونرى أن إطلاق يد الفلاحين في حق التصرف بالأرض كان من العوامل، التي جذبت تلك المجموعات البشرية للقدوم إلى دير عطية والعمل فيها .

٢- من نص الوقفية وإشكالاتها

تملك مديرية الوثائق التاريخية بدمشق نسختين من "وقفية صالحة خاتون[١٥]". النسخة الأولى كانت في يد آل الناظر وآخر تاريخ للتصديق على الحجة لدى قاضي قارة

الجزء ٨ ص ١٦١. وسيشار إليه فيما بعد: الزحيلي، الفقه الاسلامي.

(١٢) يلاحظ أن الوثيقة استخدمت كلمة الفرنج ولم تستخدم الصليبيين، الذين أطلقت عليهم المصادر العربية القديمة اسم الفرنجة. ولهذا الأمر مدلوله التاريخي من حيث نظرة العرب والمسلمين إلى الحرب بأنها حرب غزو من الفرنجة ولا علاقة للصليب بها من وجهة النظر العربية الإسلامية.

(١٣) هذا ما تناقلته المرويات الشفهية جيلا بعد جيل ووصل إلى مسامعنا. ونقدم مثلا على ذلك قدوم أحد الحدادين من حوران، الذي بقيت عائلته تمارس مهنة الحدادة حتى ثلاثينيات القرن العشرين. والحارة التي سكنها أطلق عليها حارة الحدادين. وكذلك الأمر بالنسبة للبياطرة والنجارين والبنائين.

(١٤) سيرد شرحها في فقرة لاحقة .

(١٥) النسختان محفوظتان ضمن مجموعة " نسب ووقفيات " رقم ١٨.

هو عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م[١٦]. والنسخة الثانية كانت في حوزة آل الجراح وينتهي آخر تاريخ لتصديقها عام ١١٠١ هـ[١٧].

تاريخ الوقفية الأصلية المحررة أيام صالحة خاتون يعود إلى عام ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م وتاريخ النص المنسوخ الموجود في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق يعود إلى عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م. وهذه الوقفية يجري الآن (ربيع وصيف ٢٠٠٦) ترميمها في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ".والنسخة الثانية، التي كانت في حوزة آل الجراح، والتي يجري ترميمها، ملف ضخم يحتوي على التصديقات المكتوبة على وجهي كل صفحة. وسيفتح الترميم الطريق لدراسة هذه الوقفية دراسة تشمل جميع وجوهها. وسنقتصر هنا على بعض الجوانب منها. أما النسخة الثانية للوقفية، التي كانت في يد آل الناظر وآخر تاريخ للتصديق عليها لدى قاضي قارة عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م. وهي أصغر حجماً من الأولى[١٨]. وعندما تتمّ عملية ترميم الوثيقتين يمكن إجراء المقارنة بين نصوصهما واستخلاص نتائج هامة تتعلق بأدب الوقف والاختلاف في محتوى النصوص، والعلاقة بين حق التملك وحق التصرف وجوانب من تاريخ المنطقة. كما اطلعنا على وقفية ثالثة كانت في حوزة السيد محمد النسر وهي أقل حجماً وتختلف في بعض نصوصها عن الوثيقتين الأخريين، كما سنرى[١٩].

جاء في وثيقة الوقف المؤرخة في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وستمائة[٢٠] والتي جرى نسخها بمعرفة القاضي الشرعي بدمشق يوم الجمعة الرابع من شعبان المبارك سنة ثمان وسبعمائة[٢١] (والمنسوخة عن الوثيقة الأصلية المفقودة) ما يلي[٢٢]:

"إن الست الجليلة صالحة خاتون بنت الأمير الكبير صلاح الدين بهلوان بن الأمير الكبير شمس الدين الآمدي وقفت وحبست وأبدت في صحتها وسلامتها وطواعيتها وجواز أمرها جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادي الذخاير من عمل دمشق

(١٦) سيشار إليها عند ورودها : نسخة وقفية آل الناظر .

(١٧) وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: نسخة وقفية آل الجراح .

(١٨) لا تزال كلا العائلتين : الناظر والجراح، تعيشان إلى الآن (٢٠٠٦م) في ديرعطية .

(١٩) اطلعت في أحد أيام شتاء ١٩٨٢م، على نصّ هذه الرقفية. وفي هذه الوقفية نصّ صريح على ضرورة إصلاح الأقنية والدمن والطواحين من مال الوقف ويتم ذلك بواسطة الناظر. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: وقفية آل النسر.

(٢٠) ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م .

(٢١) ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م .

(٢٢) النص المنقول هنا لا يختلف في كلا نصي وقفية آل الجراح ووقفية آل الناظر.

المحروسة وتعرف إحداهن بالبويضا والثانية بالبريصا والثالثة بالحميرا والرابعة بدير عطية والخامسة بالحمرا ويشتملن على أراضي معتمل ومعطل وسهل ووعر وأقاصي وأداني ومصايف ومشاتي ومروج وصِيرَ وبيادر وطواحين برسم سكنى فلاحيها وشربهم من قناة قديمة تعرف بالولجة وقناة الحمرا بحق واجب في كل سنة مبلغ معلوم. حدّ الضيعة الأولى منهم البويضا بكاملها من القبلة الجبل ومسيل الماء ومن الشرق رأس جبل الذخر ومن الشمال أراضي (كلمة غير مقروءة) الآتي تحديدها ومن الغرب أراضي قارا وحدّ الضيعة الثانية المعروفة ببريصا من أراضي القبلة أراضي البويضة المتقدم تحديدها ومن الشرق رأس جبل الذخر ومن الشمال اراضي الحميرا ومن الغرب أراضي قارا وحدّ الضيعة الثالثة المعروفة بالحميرا المذكورة من القبلة أراضي دير عطية الآتي تحديدها ومن االشرق رأس جبل الذخر ومن الشمال أراضي النهشين واراضي صدد ومن الغرب أراضي قارا ولهذه الضيعة المعروفة بالحميرا قناة خاصة بها لسقي أراضيها وحد الضيعة الرابعة المعروفة بدير عطية بكمالها من القبلة أراضي الحمرا الآتي تحديدها، ومن الشرق رأس جبل الذخر، ومن الشمال أراضي الحميرا المتقدم تحديدها، ومن الغرب اراضي قارا. وحدّ الضيعة الخامسة المعروفة بالحمرا من القبلة أراضي بريصا المتقدم تحديدها ومن الشرق رأس جبل الذخر ومن الشمال اراضي الحميرا ومن الغرب أراضي قارا ... وتشرب الضياع الأربع المعروفات بالبويضا وبريصا ودير عطية والحمرا المذكورات من قناة الولجة والنهشين الخاصين بها، وذلك داخل هذه الحدود بجميع حقوق ذلك قليله وكثيره وطرق (كلمة صعبة القراءة ولعلها كلمة بناء–المؤلف) وأراض ومزارع ودمن وطواحين (كلمة صعبة القراءة–المؤلف) وجميع ما اشتمل عليه حدوده المذكورة...وقفا صحيحاً مؤبداً وحبساً دايماً سرمديا على ولدها البطن الأمير الكبير حسام الدين أبي المعالي محمد بن الأمير الكبير المجاهد الأتابك فارس الدين أقطاي عبد الله الصالحي مدة حياته ثمّ من بعده على أولاده... للذكر مثل حظ الأنثيين من ولد الظهر دون ولد البطن... وان بادوا جميعهم كان ذلك وقفاً على فكاك اسرى المسلمين لدى الفرنج الكفرة وعلى الفقراء والمساكين المسلمين وعلى إعمار وتحسين القرى ومائها...»

لا بد من إبداء جملة ملاحظات على هذا النص من وقفية صالحة خاتون المكتوب عام٧٠٨هـ–١٣٠٨م[٢٣] والمنسوخ عن الأصل المؤرخ عام٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م.

(٢٣) هذا التاريخ مدوّن على الوثيقة، التي كانت موجودة في حوزة آل الجراح. وهي الآن في مركز الوثائق التاريخية ضمن مجموعة نسب ووقفيات " رقم ١٨. وقد اطلعنا على هذا الملف عام ١٩٩٦م وهو الآن في الترميم ومن

الملاحظة الأولى: عدم الدقة في رسم الحدود بين الضياع الخمس وبخاصة موقع ضيعة الحمرا وحدودها. وكذلك عدم الإشارة إلى النبك كحدود جنوبية لهذه الضياع في حين جرى ذكر قارة من الغرب وصدد من الشمال. واكتفت الوثيقة في تحديد حدود البويضة من الجنوب بجبل ومسيل ماء. فأين يقع هذا الجبل؟.... وهو غير موجود على أرض الواقع الطبوغرافي، إلا إذا كان المقصود إحدى الروابي أو التلال الصغيرة. ومن يقرأ الوقفية (الوثيقة) يرى أن حدود دير عطية من الجنوب هو ضيعة الحمرا حسب الوثيقة، في الوقت، الذي تضع الوثيقة للحمرا ضيعة الحميرا كحدود شمالية دون الإشارة إلى ضيعة دير عطية.

الملاحظة الثانية : لعلّ المقصود بالحمرا هو مزرعة البريكة، إذا تنطبق حدود البريكة الحالية مع حدود الحمرا. وتبقى إشكالية جعل الحمرا حدوداً جنوبية لدير عطية. وهذا مما يبعث على القول بأن البريكة لم تدخل في الوقف الذري لصالحة خاتون، وبقيت «أرضاً ميرية». ومرد هذا الاضطراب في تحديد حدود الضياع الخمس يعود في تقديرنا إلى احتمالين الأول جهل واضعي الوثيقة بالأراضي والاتجاهات مما جعلهم يرتكبون هذا الخطأ، والاحتمال الثاني، وهو الأرجح، خطأ النُسّاخ في النقل. إذ تعرضت الوثيقة للنقل أكثر من مرة. وثمة شكوك في تحوير أو تبديل بعض جملها، كما سنرى في تصفية الوقف الذري. ومعنى ذلك أن عملية النسخ تتعرض لاحتمالين: النسخ بأمانة ووقوع الخطأ سهواً، وهذا ما جرى في تحديد الحدود، والنسخ المتعمد التغيير في نص الوثيقة لصالح فرد دون آخر أو لحذف جملة أو وضع جملة جديدة وهذا وارد أيضاً...

الملاحظة الثالثة: تتعلق بالسؤال المطروح : هل وُجد بشر في هذه الضياع في لحظة مجيء صالحة خاتون؟.. وماذا حلّ بهؤلاء بعد سكنى صالحة خاتون واستثمارها مع ذريتها لعمل الفلاحين وإخضاعهم لنوع من أنواع الاستثمار الإقطاعي الخفيف الوطأة تحت غطاء

المتعذر إعادة قراءته حاليا. ويذكر مرعي مليسان عام ١٩٥٨م، أن ملف آل الجراح منقول عن ملف آخر إلا انه بحالة تتعذر معها قراءته، مليسان ديرعطية ص ٣٥. ولكن جرجي البطل (١٨٧٠م-١٩٥١م) يشير في مذكراته أن تاريخ وقفيه الصالحة خاتون يعود إلى زمن سابق إلى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م حسبما سمع ممن قرؤوها. والوقفية، التي كانت موجودة في حوزة آل الجراح ومؤرخة في ٤ شعبان ٧٠٨هـ/١٣٠٧م ليست هي الوثيقة الأصلية بل منسوخة عنها. ومن تدقيق الملف الموجود في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق يتبيّن أن وثيقة آل الجراح منقولة عن وقفية سابقة مؤرخة في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وستمائة أي ١٢٧٦م. وهذا التاريخ سنعتمده في التحليل .

الوقف الذري .

يفهم من وثيقة الوقفية أن الضياع الخمس كانت مسكونة من فلاحين لدى مجيء صالحة خاتون وخدمها. فذكر الضياع الخمس وتحديد حدودها هو اكبر دليل على ذلك. كما ورد في النص إشارة واضحة أوجبت على الفلاحين في هذه الضياع دفع رسم سنوي معلوم لصالحة خاتون، التي أخذت هذه الضياع، كما نرى، بقوة «الإقطاع العسكري»، وحمت نفسها بجعل هذه الضياع وقفاً ذرياً يحميه قانون "الدولة الإقطاعية" الأيوبية" و "المملوكية"، في حال امتناع الفلاحين عن دفع ما ورد في الوثيقة «رسم سكنى فلاحيها وشربهم من قناة قديمة تعرف بالولجة وقناة الحمرا بحق واجب في كل سنة مبلغ معلوم[٢٤]».

وثمة برهان آخر يثبت سكنى الفلاحين في هذه الضياع الخمس، أو بعضها، وهو إشارة الوقفية إلى أنواع أراضي هذه الضياع الخمس وهي «اراضي معتمل» أي أراضٍ يزرعها الفلاحون ويعملون عليها، و«أراضي معطل» أي غير مزروعة وهي أرض البور. كما تبين الوثيقة وجود «صِيَرْ وبيادر وطواحين» وهذا أكبر دليل على أن هذه الضياع كانت مسكونة من فلاحين ورعاة يملكون الصير لإيواء الماشية والبيادر لجمع الحبوب بعد حصدها لدرسها وتذريتها. وذكر الطواحين في الوقفية دليل على وجودها قبل صالحة خاتون، التي كما يتبين لم تبن الطواحين. ولا شك أن صالحة خاتون ومن جاء بعدها قاموا بإصلاح القناة والطواحين أكثر من مرة.

الملاحظة الرابعة : تشير الوثيقة إلى أن الفلاحين كانوا يشربون من «قناة قديمة تعرف بالولجا»، وهي في تقديرنا قناة دير عطية الحالية قبل جفافها. كما شربوا من «قناة الحمرا » ولعلها كما نرجح قناة البريكة. وهناك إشارة إلى قناة الحميرا. ويبدو أن إقامة صالحة خاتون مع خدمها وحاشيتها في مكان قرية دير عطية الحالية القديمة أدى إلى ظهور « سلطة مركزية» في ضيعة دير عطية، التي تفوقت كونها «العاصمة» على الضياع الأخرى. ومع الزمن، ولأسباب نجهلها، هاجر فلاحو الضياع الأخرى إلى دير عطية أو سواها، وأصبحت هذه الضياع مهجورة اندثرت معالمها وبقيت أسماؤها[٢٥].

---

(٢٤) وهذا الرسم بحاجة إلى دراسة معمقة تعتمد على " أحكام الوقف " والإحاطة بتاريخ تلك الفترة. وهذا الأمر يقع على من سيتولى دراسة هذه الوقفية مرة ثانية .

(٢٥) مع مستهل القرن العشرين عادت الحميرة والبريكة إلى الوجود وجرى إعمارهما من الأهالي وتعزيل أقنيتهما القديمة بمعزل عن قيود وقفية صالحة خاتون .

الملاحظة الخامسة : تتعلق بنظّارة الوقف. فقد جاء في إحدى تصديقات الوقفية[٢٦] أن قاضي القضاة قرر " للناظر نصف العشر من مغلّ الوقف المشار إليه وربع العشر في كل سنة من السنين على عمله في الوقف وقيامه بوظيفة الناظر فيه ومصالحه إذناً شرعيا وأنفذ ذلك وأمضاه مستوفياً شرائطه الشرعية ... ". ومعنى ذلك أن الناظر أخذ من حاصل (مغلّ) الوقف ٥٪ ٧ من الوارد. وله الحق – كما جاء في الوثيقة في تعيين " " نائب عنه وكاتب لضبط مال الوقف وعمل حسابه وعدول بسبب قسمة المغلّ من فلاحي الوقف ومستحقيه".

الملاحظة السادسة : يتبين من التصديقات الجارية على نسخة آل الناظر في سنة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م أن " الشيخ أحمد بن محمد الناظر الشرعي على وقف جدته "، أي صالحة خاتون، اصطدم مع عدد من الفلاحين الراغبين في التحرر من الوقف، والتجأ إلى قاضي قارة لأخذ حكم ضد الفلاحين .

ف " الحاج علي بن الحاج محمد الزحيلي البصير من أهالي قرية دير عطية وزوجته الحرمة الحاجة فاطمة بنت الحاج محمد ..." خسرا الدعوى في محكمة قارة للحصول على " قطعة الأرض السليخ وتعرف بكرم رزق وتشتمل ... لأن الأرض المذكورة من جملة أراضي القرية والناظر متصرف بها لجهة الوقف ".

كما أصدر قاضي قارة في السابع عشر من شهر محرم من سنة ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩م حكما لصالح الشيخ أحمد بن محمد الناظر على وقف صالحة خاتون ضد الفلاحين :

" الشيخ سليمان عبد الله، والشيخ خليل منصور النصراني، وموسى زين الدين، ومحمد أحمد طحيشان و ومحمد القدسي، ومحمد شلهوب وأخيه سليمان، وسليمان مظلوم، وجرجس حبيب النصراني وإبراهيم قشويط الجميع من أهالي قرية دير عطية ". وجاء في شكوى الناظر أن الجماعة المذكورة " يتعرضون لجهة وقفه ويريدون تعمير بعض أراضي القرية والحال ان القرية المرقومة وأراضيها جارية في وقف صالحة خاتون بموجب ... ". وجاء في حكم قاضي قارة : " أن ليس لأحد منهم ولا من أهالي قريتهم تعمير شئ من الأراضي المرقومة إلا بإذنه ومعرفته "، أي بإذن الناظر .

وتدل هذه الوثيقة أن أهالي دير عطية مسلمين ومسيحيين بدأوا منذ عام ١٠٩٠هـ/

---

(٢٦) فاتنا مع الأسف تسجيل سنة التصديق على الوقفية، وقفية آل الجراح. ولم نستطع العودة ثانية إلى الوقفية وتصديقاتها بسبب وضعها في الترميم في ربيع وصيف ٢٠٠٦م.

١٦٧٩م، وربما قبل هذا التاريخ، في التمرد على أحكام وقفية صالحة خاتون والتحرر من أعبائها، وهذا ما تمّ لهم تدريجيا، مع انقطاع الورثة.

الملاحظة السابعة : يشرح نص الوقفية كيفية تسلسل إرث الوقف. ويتضح من ذلك أن الست صالحة خاتون " وقفت لولدها الأمير حسام أبي المعالي هذه الضياع مدة حياته ثم من بعده على أولاده ثم على أولاد أولاده وهكذا بالتسلسل للذكر مثل حظ الأنثيين، ومن ولد الظهر دون ولد البطن. أما في حالة انقراض الورثة فيعود الوقف على فكاك أسرى المسلمين من الفرنج الكافرين وإن تعذر هذا فللفقراء والمساكين " .

تقدم وثيقة الوقف من خلال تصديقاتها أسماء ورثة الوقف في عهوده الأولى. فالتصديق الجاري في ثاني ذي القعدة سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م تبين أن " الأمير حسام الدين توفي وأعقب الأخوة الستة " خمس بنات وذكر هو السيد ناصر الدين علي. وتمضي الوثيقة قائلة أنه " ثبت لدى قاضي القضاة تقي الدين أن الأمير ناصر الدين علي أهل للنظر في الوقف وله نصف العشر من مغلّ الوقف وربع العشر منه ". والتصديق الجاري في الثامن والعشرين من رمضان المعظم سنة ست وثلاثين وثماني مائة ٠٠ يوافق ١٤٣٢م) يبين تسلسل أسماء الورثة : " صارم الدين إبراهيم بن حسام الدين مهلهل بن ناصر الدين علي بن حسام الدين محمد بن فارس الدين أقطاي الأتابك الساكن في دير عطية ...[٢٧]".

حول تملك الفلاحين للأرض والمياه وانحلال حق ملكية الوقف الذري بسبب انقراض الورثة كتب جرجي البطل في مذكراته التعليل التالي[٢٨]:

إن وثيقة الوقف «شرطت لصحة ذلك ان تقوم تلك الذرية بتعهد وإصلاح القناة من أراضي النبك حتى دير عطية. وبنقل الماء الدائم إلى الخان الأبيض[٢٩] الذي لا يزال قائماً في الجهة الشرقية وراء جبلها الشرقي بجانب طريق بغداد. وبإبقاء خمسة أزواج أحذية

(٢٧) وبسبب ترميم الوثيقة لم نستطع تتبع أسماء الورثة وزمن انقراضهم .

(٢٨) جرجي البطل: " الذكرى، سيرة حياة جرجي بن إبراهيم البطل من ديرعطية بقلمه ". دوّن جرجي البطل (١٨٧٠م-١٩٥٠م) ذكرياته بين عامي ١٩٣٦م-١٩٤٦م، متضمنة سيرة حياته وتاريخ القرية ومشكلاتها. ولا تزال هذه الذكريات المؤلفة من٥١٩ صفحة مخطوطة محفوظة لدى ابنه المحامي إبراهيم البطل المقيم بدمشق. وتبدأ المخطوطة بالعبارة التالية : " الحمد لِمَنْ كوّن الأكوان وأبدع الإنسان وزيّنه بالنطق والجنان وميّزه عن مطلق الحيوان. أما بعد ... ". وسيشار إليه فيما بعد: البطل، الذكرى.

(٢٩) قمنا في ربيع ١٩٩٧م، بزيارة هذا الخان الواقع حاليا بقرب محطة ضخ البترول. وهو بشكل مستطيل لا تزال أساسات جدرانه الحجرية السميكة بادية للعيان و وبعضها بارتفاع يزيد على المتر. ويتوسط الخان مستودعان للماء (مصنع) لا يزال قسم من سقفهما الجملون قائما يصارع عوادي الطبيعة .

معلقة على باب ذاك الخان للفقير من عابري السبيل». (وبعد انقطاع سلسلة سلالة صالحة خاتون) «استولى على الوقف أحفاد الحاشية التي كانت مرافقة لصالحة خاتون تحت إدارة نظّار يقامون من أفراد أولئك، الذين آل بهم الأمر إلى إهمال الشروط المنصوص عليها إهمالاً تاماً. فقام الأهلون الذين تقاطروا من الأمصار المختلفة إليها فشاركوهم فيها حتى ثبت لهم الحق فيها. فاندرس ذلك الوقف وقضت الدولة التركية باندراسه وأحالت أملاك دير عطية ومزارعها الخمس لعهدة أبنائها المقيمين فيها يتصرفون فيها تصرف ذوي الأملاك وذوي الحقوق. ولكنها حفظت لتلك الأملاك اسم واقفها الأصلي لأنها لا تزال تذكر في سجلاتها التمليكية: قولها إنها من وقف السيدة صالحة خاتون. وبذلك لم يبق (للحاشية) حق إلا في البيوت التي بنوها لأنفسهم، والأرض، التي داموا على فلاحتها وزراعتها، وعلى مطاحنها المائية الثلاث".

رأي جرجي البطل هذا عبّر عن وجهة نظر أكثرية سكان القرية من مسلمين ومسيحيين، ولكنه لم يكن يرضي " الوقفجية "، وهم من الحاشية، التي أتت مع صالحة خاتون، والذين اختلفوا في كيفية توزيع واردات الوقف .

نتوقف هنا عند الوثيقة المؤرخة في ٢١شوال١٢١٠ – ١٧٩٥ م[٣٠]، التي يعلن فيها ناظر وقف صالحة خاتون الحاج محمد الجراح موافقته على تأجير أحمد حسن العَرَصَةْ المحددة بالجوار ومساحتها ٢٤ ذراعاً، طالما أن هذا التأجير ومن ثُم السماح بالبناء لا يضر أحداً. والأجرة مقبوضة سلفاً لمدة ثلاث سنوات، وبعدها يصبح العمار، أي ما بناه أحمد حسن ملكاً له.

تدل هذه الوثيقة على أن نظارة وقف صالحة خاتون كانت تقوم بتأجير الأرض والسماح بالبناء عليها. ولا نعلم هل أن هذا الأمر كان عاماً أم محدداً، كما نعتقد، ببعض قطع الأرض غير المملوكة أو الواقعة في تصرف الأراضي. فوثائق البيع اللاحقة والأحدث لا تشير نهائياً إلى اسم صالحة خاتون ووقفها. في حين أن العقود المسجلة في دائرة الطابو كانت جميعها تشير إلى أن العقار وقف صالحة خاتون.

الملاحظة الثامنة : بعد أن يشرح نص الوقفية كيفية تسلسل إرث الوقف ينتهي إلى القول : " أما في حالة انقراض الورثة فيعود الوقف على فكاك أسرى المسلمين من الفرنج الكافرين وإن تعذر هذا فللفقراء والمساكين " .

لنقرأ ما حرره القاضي " في اليوم المبارك من شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وألف

(٣٠) هذه الوثيقة هي في حوزة الأستاذ أحمد حسن المقيم في دير عطية. اطلعنا عليها في ربيع ١٩٩٥م.

من الهجرة الشريفة " (الموفق ١٦٦٧ م) في تصديقه على وقفية آل الناظر وكيفية صرف ريع الناظر للوقف في الفقرة التالية :

" فإذا آل الوقف إلى فكاك أسرى المسلمين من أيدي الفرنج المخذولين جمع الذي في هذا الوقف وما يفضل من ريعه تحت يده مدة سنة كاملة وإرساله مع من يثق به من المسلمين الأمناء واحدا كان أو أكثر إلى ما يرده من بلاد الفرنج في البر والبحر العذب والمالح ويفك به من يختاره من المسلمين المأسورين من الرجال والنساء والصبيان المميزين على أن يشتري كلا منهم بخمسين دينارا مصريا فما دونها. وان يطلق لكل من يستفكه ما يقوم به من نفقة وكسوة إلى أن يبلغه مأمنه من بلاد المسلمين، فإن تعذر (ذلك – المؤلف) صرف ريع الوقف المذكور للفقراء والمساكين المسلمين ".

بعد انقراض ورثة صالحة خاتون من ابنها حسام وضع قاضي قارة، الذي صدّق الوقفية في سنة ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م أمام ناظر الوقف صرف ريعه، كما جاء في نصّ الوقفية الأصلي، في فك أسرى المسلمين لدى الفرنج. ونلاحظ هنا أن القاضي استخدم تعبير " الفرنج المخذولين " بدلا من تعبير " الفرنج الكفرة " الوارد في نص الوقفية الأصلي. وهذا يشير إلى هزيمة الفرنج وانسحابهم من بلاد الشام قبل قرون من الزمن. ولا نعلم كيف سيتمكن رسول الناظر من الوصول إلى بلاد الفرنج وافتداء الأسرى في ظروف صعوبة المواصلات في ذلك الزمن، واختفاء أثر الفرنج وسيطرة العثمانيين على القسم الأكبر من البحر الأبيض المتوسط. ولهذا فإن القاضي احتاط للأمر وأضاف فإذا تعذر صرف ريع الوقف على الفكاك صرف مال الوقف على الفقراء والمساكين من المسلمين.

ولا نعلم هل جرى فعلا فك أسرى المسلمين لدى الفرنج قبل انسحابهم من بلاد الشام بعد تحرير عكا، عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩٠م، آخر معاقلهم فيها ؟ .. وهل جرى فعلا فك أسرى المسلمين بعد انتهاء حرب الفرنجة ؟ .. أم أن إيراد القاضي لهذا الشرط كان عملا روتينيا فحسب ؟ .. أشار إليه بقوله : " فإذا تعذر ذلك ...". وكيف جرى توزيع ريع الوقف على الفقراء والمساكين، داخل دير عطية ومزارعها أم خارج حدود هذه الوقفية ؟ .. ولماذا تجاوزت التصديقات الشرط الثالث والهام وهو إصلاح قناة الري ؟ .. وهل كان نظّار الوقف أمناء في تطبيق الشروط ؟ ..

٣ – بين حق الرقبة وحق التصرف " مَشَدْ مَسْكَة " في وقف صالحة خاتون

رأينا في الملاحظة السادسة من الفقرة رقم ٢ أن عددا من فلاحي دير عطية اصطدموا

عام ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م مع ناظر الوقف الشيخ أحمد بن محمد، الذي أخذ حكما شرعيا من محكمة قارة " أن ليس لأحد منهم "، من الفلاحين، " ولا من أهالي قريتهم "، دير عطية " تعمير شئ من الأراضي إلا بإذن ومعرفة الناظر. وكان من الممكن في حال وجود سجلات محكمة قارة معرفة كثير من حقائق ذلك الزمن والعلاقة بين حق التصرف وحق الرقبة. ومع ذلك فإن وثيقتين صادرتين عن محكمة دمشق الشرعية توثقان عقدي بيع لأفراد من دير عطية تلقيان الأضواء على هذه المشكلة(٣١).

وثيقة عقد البيع الأقدم مسجلة في محكمة الميدان الشرعية ويعود تاريخها إلى عام ١١٦٣هـ - ١٧٤٩ م. وننقل فيما يلي أهم ما جاء في سجل المحكمة الشرعية(٣٢):

"لدى مولانا السيد محمد سعيد أفندي الحنفي دام فضله اشترى حسن بن حمودة المبيض، من أهالي قرية دير عطية تابع ناحية قارة، بالولاية الشرعية على ولدي ولده المرحوم عثمان المتوفى قبل تاريخه هما حسن وصالح القاصران عن درجة البلوغ وتحت ولاية جدهم بالأبوة شرعاً بمال القاصرين المزبورين المخلف لهما عن والدهما المزبور من والدة القاصرين المرقومين هي الحرمة فاطمة بنت شعبان الجرودي المرأة الكاملة فباعت للقاصرين المرقومين ما هو جار في ملكها وحوزها وبيدها وطلق تصرفها الشرعي بالطريق الشرعي، وذلك جميع الغراس القايم بالقطعة الأرض الكاينة بالقرية المرقومة المشتمل الغراس المزبور على عنب جبلي وغيره وشربه من ماء القرية المرقومة ربع ساعة على نهر أهله المتعارف بينهم(٣٣) بحق شرعي حده: قبلة شارع وشرق بيت درويش وشمالاً بيت رمضان وغرباً (اسم غير مقروء)، وما هو جار في ملكها ومنتقل إليها إرثاً عن بعلها والد القاصرين المزبورين المرحوم عثمان المزبور، وذلك جميع الحصة وقدرها ثلاثة قراريط من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع الدار الكاينة بقرية دير عطية المرقومة المشتملة على ساحة سماوية وبايكي ومسكن ومنافع شرعية حد كاملها: قبلة الزقاق وفيه الباب وتمامه بيد بيت بركودي وشرقاً دار بخه وشمالاً دار حزيان وغرباً عزار بحق ذلك كله، وجميع الحصة وهي ثلاثة قراريط من الأصل المزبور من جميع الحمار الأسود اللون

(٣١) يعود الفضل في الحصول على هاتين الوثيقتين إلى الباحثة الفرنسية بريجيت مارينو، التي أصدرت مع تاموكي أوكاوارا " دليل سجلات المحاكم الشرعية العثمانية المحفوظة بمركز الوثائق التاريخية بدمشق " الصادر في دمشق ١٩٩٩م. ومع الأسف يفتقر مركز الوثائق إلى سجلات محكمة قارة. ولم تكلل جهودنا بالنجاح في البحث عن هذه الوثائق في بلدة قارة جارة ديرعطية، وعلى بعد ثماني كيلومترات منها إلى الشمال الغربي .

(٣٢) مركز الوثائق التاريخية، المحاكم الشرعية، السجل ١٢٨، الصفحة ٢٠٠، الوثيقة ٣٧٦.

(٣٣) المتعارف في ديرعطية بيع الماء مستقلاً عن الأرض وهنا جرى بيع الأرض والماء سوية.

وجميع الثلاثة عنزات ونتاجهم المختلفات الألوان والأسنان... بثمن قدره أربعون قرش فضة صحيح. وفرغت البايعة المرقومة عن حق تصرفها في مشد مسكة فلاحة القطعة الأرض الحاملة للغراس المزبور. كما فرغت البايعة عن حق تصرفها في مشد مسكة فلاحة القطعة الأرض الحاملة للغراس المزبور. كما فرغت البايعة عن حق تصرفها في مشد مسكة فلاحة فدان واحد من جملة أفدنة القرية المشتملة على قطع أراضي متفرقة وشهرتها تغني عن التحديد بحق ذلك كله فراغاً شرعياً.. وثمن الفراغ المزبور مبلغاً قدره ثلاثون قرشاً فضة صحيحة...".

وثيقة البيع الثانية المسجلة في المحكمة الشرعية بدمشق يعود تاريخها إلى سنة ١٢٣٧هـ - ١٨٢١ م[٣٤]. وفيما يلي محتوى عقد البيع المنظم لدى القاضي مصطفى أفندي القاري:

"اشترى عبد الغني بن أحمد السمان من ابن أخيه مصطفى بن محمد السمان ما هو جار في ملكه الشرعي إرثاً عن والده كامل حصته الشائعة وقدرها ستة قراريط من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من الحوش الكائن بقرية الدير عطية ويشتمل على أربعة جدران وسقف وباب ومنافع شرعية، يحده قبلة: معصرة بيت الناظر، شرقاً: حوش بيت الناظر، شمالاً: ساحة الحوش وفيها الباب، غرباً: بيت الأبطح بثمن قدره ٣٠ غرش فضة صحيح.

كما " فرغ البايع للمشتري عن حق تصرفه في جميع مشد مسكة قطعة الأرض السليخ" وحدها: قبلة بيت عبد الجليل، شرقاً بيت (كلمة غير مقروءة) شمالاً (كلمة غير مقروءة) والطريق، غرباً الطريق. كما فرغ البائع مصطفى السمان لعمه عبد الغني "عن تصرفه في مشد مسكة قطعة الأرض في المزارع" يحدها قبلة: السيل، وشرقاً: الجبل، وشمالاً: بيت محمد غرة، وغرباً: بيت الناظر. و"شرب هذه الأراضي من قناة الضيعة على عادات أهلها المتعارف بينهم بحق شرعي". ويتبين من عقد البيع هذا أن الفراغ عن "مشد مسكة"، أي حق العمل بقطعتي الأرض جرى مقابل ٧٠ غرش فضة صحيحة. والشاري شريك في الأرض بمقدار النصف".

ما يهمنا هنا من هاتين الوثيقتين المؤرختين في عامي ١١٦٣هـ - ١٧٤٩ م و١٢٣٧-

(٣٤) مديرية الوثائق التاريخية. سجل المحكمة الشرعية بدمشق رقم ٢٩٧، الصفحة ٥٣٨، رقم الوثيقة ١٢٣٧، وتاريخها في ٢٢ جمادى الثاني ١٢٣٧هـ الموافق ١٨٢١م.

١٨٢١ م هو قضية العلاقة بين دير عطية الموقوفة عام ٦٧٥هـ – ١٢٧٦م وقفاً ذرياً لصالحة خاتون والفلاحين القاطنين في هذه القرية والعاملين في أراضيها المروية والبعلية. وأول ما يلفت النظر عدم إشارة القاضي في كلتا الوثيقتين إلى ملكية الوقف الذري. ولكن تعبير " مَشَدْ مَسْكَة " أو عملية المُفالحة، كما أسماها الباحث المختص عبد الكريم رافق، تبين بصورة لا تحتمل التأويل أن الأرض لم تكن رقبتها (ملكيتها) من حق الفلاحين العاملين عليها، بل كان لهم فقط حق التصرف وهو ما عُرف بـ " مَشَدْ مَسْكَة ".

فأرض الميري والوقف لم تكن خاضعة للتملك كبياض، ولكن أمكن شراء أو بيع الأشجار والأبنية القائمة عليها، كما أمكن الحصول على حق التصرف بزراعتها، وهو المعروف بمشد المسكة مقابل عوض وليس ثمناً[٣٥]، وهذا واضح في عقدي البيعين، فقد جاء في سجل المحكمة الشرعية حرفياً " وفرغت البايعة عن حق تصرفها في مشد مسكة فلاحة قطعة الأرض الحاملة للغراس" مقابل ثمن للفراغ بحق التصرف هذا. ومعنى ذلك أن الفلاح في دير عطية العامل على أرض الوقف الذري كان يحق له فراغ (نقل) حق التصرف بالأرض إلى غيره لقاء ثمن وليس له حق بيع الرقبة (الملكية) التابع لوقف صالحة خاتون.

ويلقي، عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، الأستاذ في معهد الحقوق بدمشق شاكر الحنبلي ضوءا مبسطا على " مَشَدْ مَسْكَة " ننقله فيما يلي[٣٦]:

> "مشد مسكة هو أن تكون أرض الوقف مأجورة للزراعة لمدة ما والمستأجر يفلحها ويسمدها ويعدها للزرع. فتنقضي مدة إجارته وله فيها فلاحة وسماد ومعدات للزرع فتؤجر له ثانية أيضا لئلا يكون متضررا بضياع ما بذل فيها.
>
> وهكذا كلما انقضت مدة الإجارة تجدد له مدة أخرى إلى أن يدعي بأن له يدا ثابتة عليها فيسمونه صاحب مشد مسكة. ويعد مستحقا للأرض وأولى من غيره باستثمارها ".

---

(٣٥) أنظر: عبد الكريم رافق: "العلاقات الزراعية في بلاد الشام في العهد العثماني بين المذاهب الفقهية والواقع"، "مجلة دراسات تاريخية" العدد ٤٣ – ٤٤ أيلول – كانون الأول ١٩٩٢م، ج١٣، ص١٢٠-١٣٩. وأشار رافق إلى مصدر هام عالج "مشد المسكة" هو محمد علاء الدين بن محمد أمين الشهير بابن عابدين (ت ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م) في كتابه "رد المختار على الدر المختار المعروف اختصاراً بحاشية ابن عابدين. طبع القاهرة ١٩٧٢م، مج٤، ص ١٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عابدين، رد المختار.

(٣٦) شاكر الحنبلي: "موجز في أحكام الأوقاف". مطبعة الاتحاد والترقي، دمشق، ط٢، ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م. ص ١٣٠. سيشار إلى هذا المرجع حين وروده : الحنبلي، أحكام الوقف.

٤ – الأرض المروية والبعلية (أرض البرية) وعلاقتها بالوقف الذُرّي

تقسم أراضي دير عطية الزراعية إلى قسمين: مروية وبعلية.

وقد كانت ملكية المياه منفصلة عن ملكية الأراضي، حيث تراوحت هذه الملكية بين نصف ربع الساعة (نصف ربع)، التي تعادل في الواقع ٢٥ دقيقة وساعة ونصف الساعة أي ٣٠٠ دقيقة. ولكن من ملكوا ساعة ونصف كانوا قلة. والوحدة القياسية لبيع المياه هي نصف ربع، الذي تراوحت أسعاره تبعاً لشح المياه او غزارتها وكثرة المال أو قلته. وعموماً كان الفلاح يملك من المياه ما يوازي مساحة الأرض المزروعة. كما كانت ملكية الأرض المروية من قناة دير عطية موزعة توزيعاً شبه متساو. فالملكيات الكبيرة معدومة. وأكبر ملكية (أو حق التصرف الاسمي) لا تتجاوز عدة دونمات. وكانت الأشجار المثمرة تحيط بساتين دير عطية من أطرافها. وزراعة الخضروات والحشائش العلفية، إلى جانب الحبوب كانت جزءاً من الحياة الزراعية.

كان القمح والذرة الصفراء المحصولين الرئيسين في الأراضي المروية. كما كانت زراعة كروم العنب تؤلف الجزء الأهم من محصول الأشجار المثمرة ويليها المشمش والتين والرمان والجوز والخوخ الطبيعي والأجاص. وفي مستهل القرن العشرين بدأت تنتشر زراعة البطاطا، التي بيعت في دمشق .

كانت الملكية على الشيوع في أرض دير عطية البعلية المعروفة بـ (أرض البرية)[٣٧]، التي يجري لأهل القرية جميعاً حق التصرف بها. ولكل فلاح حق زراعة أي أرض، إذا لم تكن مفلوحة ومزروعة من فلاح آخر. وخلافاً للأرض المشاع في حوران مثلاً، لم تكن الأرض البعلية المشاعية في دير عطية مقسمة إلى حصص او اسهم أو أفدنه. فقد كان حق التصرف بالأرض أو ملكيتها (المؤقتة) يقوم على مبدأ استصلاح الأرض (أي شقها حسب التعبير المحلي) والاستمرار في زراعتها. فإذا أهمل الأرض عدة سنين، فيعود حق زراعتها لغيره. مع ملاحظة أن الفلاح القوي المتمتع بعصبية ونفوذ لا يجرؤ أحد على فلاحة أرضه المتروكة أو المهجورة. وعلى العكس من ذلك فإن الفلاح الضعيف أو الفقير، " اللي ما إلو ضهر[٣٨]"، إذا ترك أرضاً خصبة مدة قصيرة فإن فلاحاً قوياً يقوم بفلاحة الأرض واستغلالها.

نعتقد أن ظاهرة تسجيل (تطويب) الأرض البعلية بدأت في أربعينات القرن العشرين

---

(٣٧) نظريا كانت أرض البرية تقع في حدود وقفية صالحة خاتون. فقد حددت الوثيقة الحدود من الشرق بـ راس جبل الذخر، المعروف الآن بجبل دير عطية .

(٣٨) ليس له صولة ودولة وليس حوله عدد من الرجال يسندونه .

ولكنها بقيت محدودة وليست عامة. ولم نعثر من خلال اطلاعنا على دفتر تسجيل (طابو) الأراضي والعقارات ابتداءً من عام ١٨٩٤ في قضاء القلمون وحتى عام ١٩٣٥، لم نعثر على تطويب (للأرض البعلية)، واقتصر التطويب على الارض المروية[٣٩].

ولكن محاولات تسجيل الأرض المشاع ملكية خاصة فردية كانت معروفة في دير عطية عن طريق "الحجّة" وجمعها "حجج"، وهي عبارة عن وثيقة مكتوبة يدعي فلاح ما انه اشترى أرضاً من فلان من الناس ويضع لها حدوداً: سيلاً، وادياً، طريقاً، تلة أو جواراً، ويشهد على ذلك عدد من الشهود. وكان الفلاحون يلقون، همساً، أو بملء أفواههم ظلالاً من الشك على صحة هذه الحجج، أو بعضها. ويقولون إن بعضها مزوّر يحمل تواقيع غير صحيحة أو أن الاتفاق يجري بين صاحب الحجة والشهود ولا حاجة لأكثر من ذلك. ولم يشكل امتلاك الأرض عن طريق الحجة مشكلة حادة في دير عطية بسبب اتساع الأراضي البعلية وقلة اليد العاملة القادرة على الذهاب إلى الجبل للفلاحة بواسطة البغال ومن ثم القيام بالحصاد ونقل الزرع (الرجاد) من الأرض البعلية البعيدة إلى بيادر دير عطية. إذ كان الزمن اللازم لنقل الزرع (الرجاد) يتراوح بين ساعة من الوديان القريبة وثلاث ساعات ونصف من الوديان البعيدة الشمالية مثل "وادي خبرا" مثلاً المحاذي لحدود الحفر[٤٠].

ولعل الملكية الاسمية لوقفية صالحة خاتون من جهة، واتساع أراضي دير عطية من جهة ثانية، لم تدفع الفلاحين لتملك الأرض البعلية والتشبث بها، والسعي للمحافظة على ملكية الأراضي البعلية، كما هو الحال بالنسبة لأراضي النبك المحدودة المساحة، والتي يتنازع على ملكيتها عدد وافر من الفلاحين. ولهذا فإن ملكية أراضي جبل النبك كانت مستقرة ومقسمة بين العائلات بصورة شبه جليه.

ولا بد من التساؤل الآتي: ما دور الملكية الاسمية لوقف صالحة خاتون على أرض البرية لجعل ملكية الشيوع هنا تختلف عن ملكية الشيوع في حوران مثلا ؟ ..

٥ – الأصول التاريخية لأهالي دير عطية

أدى مجيء الست خاتون وحاشيتها إلى انبعاث الحياة مرة أخرى في دير عطية والمزارع

(٣٩) انظر: سجلات الطابو لمنطقة القلمون (النبك) في المديرية العامة للمصالح العقارية. فرع ريف دمشق.

(٤٠) انظر: عبد الله حنا " دير عطية التاريخ والعمران، من الوقف الذري إلى المجتمع المدني (أواخر القرن الثالث عشر – منتصف القرن العشرين) " إصدار المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ٢٠٠٢م، الفقرة الخامسة: نماذج من عقود البيع والشراء وحلّ الخلافات بمعزل عن الدولة " ص ٩٥ – ١٠٢ ، وسيشار إليه فيما بعد: حنا، دير عطية.

المحيطة بها. فقام فلاحو المزارع بتعزيل القناة وإصلاحها وأخذ الحرفيون من حدادين ونجارين وبياطرة وغيرهم، الذين استدعتهم صالحة خاتون أو أتوا بعد وفاتها يتقاطرون من لبنان والمناطق الأخرى للسكنى في دير عطية والعمل فيها. كما أن أعداداً أخرى من فلاحي القرى البعيدة والمجاورة يتقاطرون إلى دير عطية للعمل فيها. وأخيراً أخذت مجموعات بدوية صغيرة تستوطن في دير عطية منتقلة من حياة البدو إلى حياة الحضر.

ويمكننا أن نصنف أحوال سكان دير عطية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضمن المجموعات التالية:

١. الفلاحون المستقرون في أراضي دير عطية والضياع المحيطة بها قبل مجيء الست خاتون في مستهل القرن الثامن الهجري. وهؤلاء شكلوا الهيكل الأساسي لسكان دير عطية الجديدة في عهد الصالحة خاتون. ويذكر الأستاذ جرجي البطل في مذكراته أن قسماً كبيراً من أهالي دير عطية، بموقعها الحالي، أتى من البريكة بعد اندثارها[٤١].

٢. الحاشية المرافقة للست خاتون من خدم وحشم وغيرهم، الذين سعوا دون نجاح للتمسك بملكية الوقف بعد انقراض ذرية الصالحة خاتون من ابنها الأمير حسام الدين. وحسب رواية جرجي البطل المستقاة من مرويات المسنين في أيامه فإن حسام الدين أنجب ناصر الدين، وبعده انقطعت الذرية لكونه لم يرزق ولداً[٤٢]. ولكن «البد» الذي يحمل أقدم سقف في دير عطية مكتوب عليه أن «هذا المكان المبارك للفقير إلى الله تعالى زين الدين ابن شعبان بن الحسام، بني بتاريخ ذي القعدة المبارك ٨٦١» الموافق ١٤٥٦ م[٤٣].

المهم في الأمر أن انقطاع سلسلة ذرية الصالحة خاتون أدى، كما تدلّ النتائج، إلى استيلاء المتنفذين من أحفاد الحاشية على الطواحين الثلاث، التي بقيت وقفاً لأحفاد الحاشية حتى جفاف مياه القناة في أواخر خمسينات القرن العشرين .

يطلق على العائلات، التي تحدّرت من حاشية الصالحة خاتون اسم «الوقفجية». أما الأسر الفلاحية الأخرى فإنها تلقي ظلالاً من الشكوك حول صحّة نسب «الوقفجية» إلى الست خاتون ويؤكدون أن «الوقفجية» هم من الحاشية السائرة في ركاب الست خاتون[٤٤]. كما أن بعض أسر الوقفجية تنفي عن الأسر الأخرى صحة انتسابها إلى الست خاتون في

---

(٤١) البطل، الذكرى. ص ٥ .

(٤٢) المصدر السابق .

(٤٣) بعد تهديم الدار وبالتالي السقف في إحدى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، نُقل البد إلى متحف دير عطية.

(٤٤) هذا رأي عدد كبير ممن التقيت بهم من المسنين في خمسينيات القرن العشرين وما بعدها .

محاولة للاستئثار بما تدره الطواحين من أرباح[٤٥]. وهذا ما سنطلع عليه في فقرة لاحقة .

والملاحظ عموماً أن أخصب الأراضي القريبة من قناة الري هي ملك أسر الوقفجية مما يدل على حيازتها لهذه الأرض في وقت مبكّر، في حين نجد أن الأسر التي استوطنت دير عطية في وقت متأخر حصلت على الأرض البعيدة عن قناة الري أو على الأرض الكثيرة الأحجار والحصى.

٣. الحرفيون من حدادين ونجارين وبياطرة ومعماريين وغيرهم، الذين تحدر معظمهم من لبنان أو حوران، وكانوا في أكثريتهم من المسيحيين، الذين حصلوا أيضاً على الأرض وأسهموا في إعمار المنطقة. وكان معظم الحرفيين يمارسون العمل الزراعي إلى جانب عملهم الحرفي.

٤- الفلاحون القادمون من قرى قريبة أو بعيدة (زحلة، جسية .....) جذبتهم قناة الري وسهولة الحصول على أرض مروية بالإضافة إلى توفر الأمن النسبي وتوفر مواد الإنتاج الحرفي والطواحين وحمام وغيرها من وسائل "الرفاه" بالنسبة لذلك الزمن. كما حلت في دير عطية مجموعات قادمة من مصر .

٥- البدو الذين استساغوا حياة الحضر فاستقروا في دير عطية في ستينيات القرن التاسع عشر. وهؤلاء أتوا على دفعات واندمجوا في سكان القرية مع مرور الزمن .

٥ - من منشآت دير عطية ذات العلاقة بالوقف الذري

قامت في دير عطية قبل وقف صالحة خاتون وبعده بنية تحتية متناسبة مع ذلك الزمن وهي:

١- أوقاف خيرية إسلامية موقوفة على المعابد، وكانت حتى أواخر القرن التاسع عشر محدودة ومؤلفة من بعض الحقول وعدد من الحوانيت (الدكاكين). ثم أخذت في الاتساع وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين ولم تعد مقتصرة على المعابد، بل شملت المؤسسات الخيرية وجهات البر.

٢- أوقاف تابعة لكنيسة دير عطية للروم الأرثوذكس، وتتضمن عدداً من الحوانيت وبستاناً مروياً وقفه يوسف غيلان، كما تشير إلى ذلك حاشية في أنجيل مخطوط يعود إلى بداية القرن الخامس عشر كان موجوداً بين مخطوطات الكنيسة ثم عبثت به الأيام[٤٦].

---

(٤٥) سيرد تفصيل الخلاف بعد قليل في فقرة تصفية الوقف الذري .

(٤٦) من مرويات المتقدمين في السن من المسيحيين. كما أشار أيضا مرعي مليسان إلى هذا الوقف في كتابه انظر:

٣- الخان: وهو خان صغير لإيواء دواب (حيوانات النقل) لأصحابها الغرباء عن البلدة أثناء مرورهم بها. ولم تكن دير عطية ممراً للقوافل، ولذا فإن أهمية الخان كانت ضئيلة ولا يدر ربحاً يذكر. وقد تحول هذا الخان إلى ارض تابعة لمديرية الأوقاف. والآن تقوم مكانه بناية تابعة للأوقاف. ولذلك لم يجر خلاف على ملكيته أو ريعه، كما هو الشأن بالنسبة للحمام والطواحين. وقبل أن يهدم الخان بمدة طويلة قامت في جهته الغربية مجموعة من الحوانيت وأماكن النجارة المشرفة على سوق القرية .

٤- الحمام : يقع هذا الحمام ذي الطراز الإيراني، على الحدود الشمالية للقرية محاذياً للنهر العمومي وعلى بعد عشرين متراً من الجامع التحتاني إلى الشمال الغربي منه لم يرد ذكر الحمام في وقفية صالحة خاتون. ولكن الوقفجية اعتبروا أن الحمام تابع للوقف الذري وخالفهم في الرأي بقية الأهالي، الذين رأوا أن الحمام ملك لعامة البلد. وجرى بسبب ذلك في أوائل ثلاثينات القرن العشرين خلاف حاد بين الفريقين كاد يؤدي إلى الشجار. وانتهى الخلاف بانتصار البلدية وتسجيل الحمام باسمها في تموز ١٩٣٤- ١٣٥٣ هجرية[٤٧].

٥- الطواحين الثلاثة : أقيمت هذه الطواحين في مواقع ملائمة على القناة حتى تستطيع المياه بتأثير الميل تدوير فراش الطاحون، الذي يدير بدوره حَجَري الرحى

وهكذا فان أحفاد الحاشية الذين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بملكية الوقف فيما يتعلق بالأرض والمياه استطاعوا المحافظة على ملكيتهم للطواحين المشهورة. فقد قامت على قناة دير عطية ثلاث طواحين مائية استفادت الأولى والثانية من انحدار الأرض لتدوير ما يسمى بفرّاش الطاحونة، الذي يدير بدوره حجر الرحى. ووجود ثلاث طواحين أسهمت في تأمين الطحين والبرغل المجروش وغيره لسكان دير عطية. أما ما كانت توفره هذه الطواحين فكان يعود لذرية الست صالحة - حسب ادعائهم- كل حسب أسهمه. وكان يقوم على إدارة الطواحين والاعتناء بها أحد أفراد ذرية الحاشية الأقوياء. وبعد قيام المطاحن الحديثة تراجعت الطواحين المائية إلى أن تلاشت في أواخر الخمسينات من القرن العشرين مع جفاف مياه القناة.

مليسان، ديرعطية ص ٤٥ .

(٤٧) يتبين من محضر جلسة ٢٦ تموز ١٩٣٤م، لمجلس بلدية ديرعطية أن إجراءات تسجيل الحمام باسم البلدية قد انتهت. وعليه قرر المجلس البلدي دفع الرسم القانوني لتطويب الحمام واستلام أوراق التمليك باسم البلدية. وتحتفظ بلدية ديرعطية بسجلاتها كاملة ودون تلف منذ عام ١٩٣٢م. هذا مع العلم أن البلدية تأسست عام ١٩٠٩م.

كان ريع هذه الطواحين يوزع على المستحقين من وقف صالحة خاتون بموجب الأسماء الواردة في الحجة الوقفية وتصديقاتها. ويتبين من الدعاوى المقامة بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٨ للحصول على غلة الوقف أن آل الجراح ملكوا حجة لا تتطابق أسماء مستحقيها مع الحجة، التي في حوزة آل الناظر. وكان لآل الجراح نصيب وافر من أسهم ريع الطواحين، التي وزعت في أواخر القرن التاسع عشر وفق «مبدأ الحبة[٤٨]». ولم تُجدِ احتجاجات آل الناظر، الذين اعتبروا أنفسهم أهل الوقف الأصليين، فتيلاً في الحصول على نصيب وافر من نسبة الحصص أو الأسهم العائد ريعها لكل أسرة[٤٩]. وأثناء الدعاوى قام آل الناظر في عام ١٩٦١ بتسجيل الطواحين كعقارات وقفية، في وقت كانت هذه الطواحين قد توقفت عن العمل بسبب جفاف المياه[٥٠].

يتبين من قيود مديرية السجل العقاري بدمشق أن إخراج قيد عقارات الطواحين هو على النحو التالي[٥١]:

السجل	القرية	الموقع	الجنس	المساحة	الحدود	المالك	الحصة
٣٠٩١	دير عطية	مطحنة التحتا بين البساتين	مطحنة ماء مع جنينه ملك	٢٩٤م٢		وقف صالحة خاتون	الكامل
٣٠٩٢	دير عطية	مطحنة الفوقا	مطحنة ماء خربة ومعطلة أميري	٢٠٨م٢		كذلك	كذلك
٣٠٩٣	دير عطية	مطحنة ضمن القرية (العرجا)	مطحنة ماء ملك	٦٠م٢	شرقاً حمام شمالاً نهر ماء القرية وحمام	كذلك	كذلك

(٤٨) مليسان، ديرعطية. ص ٢٠.

(٤٩) لقاء مع عبده أحمد الناظر في ديرعطية بتاريخ ٢٥ / ٥ / ١٩٨٦م.

(٥٠) إضبارة تصفية الوقف الذري لوقفية صالحة خاتون الموجودة في نصر العدل بدمشق، محكمة تصفية الأوقاف الذرية والمشتركة، رقم ٢٨ لعام ١٩٦٨م. وسيشار إليه فيما بعد: إضبارة تصفية الوقف الذري.

(٥١) إضبارة تصفية الوقف الذري الموجودة في مكتب المحامي شفيق الجراح بدمشق، والذي تكرم ووضعها في خدمة البحث ربيع ١٩٩١م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: إضبارة المحامي شفيق الجراح .

بقيت الطاحون الفوقا تعمل حتى أواخر الأربعينات ثم تعطلت ونُقلت أحجار الرحى والفراش وانتُزعت سقوف البناء العائد لها في أوائل الخمسينات. وكان لبعد هذه الطاحون عن القرية وقيام المطاحن الحديثة أثر واضح في الاستغناء عنها، بعد أن كانت كالطواحين الأخرى مركزاً اقتصادياً هاماً بالنسبة للقرية.

الطاحون الثانية المسماة بالعرجا نظراً لضعفها بسبب الانحدار البطيء جداً للماء، تقع إلى جانب الحمام وتوقفت عن العمل في أواخر خمسينات القرن العشرين مع جفاف مياه القناة. وقد « أُزيلت من الوجود» شأن جارتها الحمام، في وقت لم يكن الاهتمام بآثار القرية يعتبر موقفاً حضارياً.

الطاحون الثالثة (التحتا) تقع إلى شمال القرية بين الحقول. وقد توقفت هي الأخرى مع جفاف المياه ولا يزال بناؤها قائماً إلى الآن .

وعملاً بأحكام المادة ٣٧ من المرسوم ٦٩ لعام ١٩٤٧ والمرسوم ذي الرقم ٢٠٤ لعام ١٩٦١ صدر في ١٩ آذار١٩٦٨(الموافق ١٣٨٨ هجرية حكم محكمة تصفية الأوقاف الذرية والمشتركة باعتبار هذه الطواحين شأن سائر أوقاف صالحة خاتون، أوقافاً خيرية مضبوطة.

والواقع أن جفاف المياه من جهة وتوقف الطواحين وبالتالي توقف وارد (أو ريع) هذه الطواحين على مستحقيها من «الوقفجية»، جعل من هذا الحكم الصادر عام ١٩٦٨ أمراً ليس من الأهمية بشيء بالنسبة لملكية الطواحين، ولكن كانت له أهمية مالية فيما يتعلق بعدم توزيع رسوم غلة الأوقاف من الأراضي المروية على المدّعين من مستحقيها، كما سنرى.

٦ – أموال الوقف الذري من رسوم الأراضي المروية من قناة دير عطية

كانت هذه الأراضي بناء على وثيقة الوقف المؤرخة في ٢٦ربيع الآخر سنة ٦٦٥هـ (الموافق ١٢٧٦م) وقفاً لابن صالحة خاتون «الأمير الكبير حسام الدين أبي المعالي محمد بن الأمير الكبير المجاهد الأتابك فارس الدين أقطاي ثم من بعده على أولاده ...للذكر مثل حظ الأنثيين من ولد الظهر دون ولد البطن... وان بادوا جميعهم كان ذلك وقفاً على فكاك أسرى المسلمين من أيد الفرنج وعلى الفقراء والمساكين المسلمين وعلى إعمار وتحسين القرى ومائها...»(٥٢)

وبسبب انقراض ذرية الأمير حسام الدين بقيت الأرض اسمياً وقفاً ذرياً لصالحة خاتون

(٥٢) هذا النص موجود في إضبارة المحامي شفيق الجراح .

وتحولت إلى ما عُرف بـ " مَشَدْ مَسْكَة " ومن ثمّ إلى " ملكية " للفلاحين الذين يعملون في الأرض سواء كانوا من حاشية الصالحة خاتون أو من غيرهم مِمَن جاء واستقر مستوطناً في دير عطية.

ذكر الأستاذ شفيق الجراح في مرافعته في الدعوى رقم ٢١٦ لعام١٩٥٩« أن أعشار الأرض من الوقف كان يجبيه المتولي ثم أصبحت الدولة تجبيه باسم الوقف وتولت مديرية الأوقاف أمر التولية بعد ذلك وتحصيل الأعشار. ولم يتجسد وضع اليد للذرية على أموال الموقوف إلا في الطواحين. وأما الرقبة الموقوفة فهي للواقف والمنفعة للفلاحين يتقاضى الورثة منها العشر»[٥٣]، الذي لم يوزع على المستحقين اعتباراً من عام ١٩٢٧ – ١٣٤٦ هجرية وتجمعت وارداته في خزانة الأوقاف، مما دفع من يعتقد أنه مستحق إلى المطالبة بهذه الأموال.

آخر متول للوقف . كما أفاد المحامي شفيق بن مصطفى الجراح[٥٤] . هو سعيد الجراح والد مصطفى الجراح، كما هو ظاهر من الفقرة الرسمية الصادرة عن محكمة صلح النبك سنة ١٩٢٥ وورقة الضبط الرسمية المؤرخة سنة١٩٢٧[٥٥].

أما المحامي ابراهيم البطل[٥٦] فيرى أن صلة الوقف وغيره من الأوقاف غير الصحيحة قد انتهت وانقطعت مع المتصرفين بالأراضي الموقوفة منذ صدور قرار المفوض السامي الفرنسي رقم ١٦٧ تاريخ ٢٢ / ٣ / ١٩٢٦م بتحديد العوائد المستحقة لهذه الأوقاف وقيدها في ميزانية الدولة نفدة وحيدة تدفعها الدولة للأوقاف في أول شهر تموز من كل عام، لكي تقوم دائرة الأوقاف بتوزيعها على أصحاب الحق تحت إشراف المراقب العام للأوقاف[٥٧].

يتبين من وثيقة وقف صالحة خاتون أنه في حال انقراض الورثة يعود الوقف ويصرف على الجهات التالية:

– فكاك أسرى المسلمين من أيد الإفرنج. وقد انتهى هذا الشرط مع انتهاء غزوات الفرنجة.

(٥٣) إضبارة المحامي شفيق الجراح .

(٥٤) المحامي شفيق الجراح من عائلة الجراح المالكة لإحدى نسخ الوقفية. وقد تكرم وأعارنا إضبارة تصفية الوقف الذري مما سهّل علينا العمل .

(٥٥) المصدر السابق .

(٥٦) المحامي إبراهيم البطل إبن جرجي البطل صاحب منكرات تاريخ ديرعطية. وكان محاميا عن الفلاحين من غير الوقفجية في كل ما له علاقة بالوقف الذري. وهو خريج معهد الحقوق بدمشق عام ١٩٣٣م، ويتقن اللغة الفرنسية .

(٥٧) إبراهيم البطل: "نكريات الحداثة والدراسة والمحاماة". طبعها على نفقته بدمشق دون ذكر تاريخ الطبع. ص ٨٦ .

- مساعدة الفقراء والمساكين. هل طبّق هذا الشرط، وإلى متى ؟ أمران نجهلهما .
- إصلاح أقنية الري والدمن (المزابل)[٥٨]. أو " تحسين القرى ومائها ". والمقصود الضياع الخمس المذكورة في وثيقة الوقف- وهذا التعبير يتضمن مفهوماً عاماً يشمل نواحي كثيرة من أجل تحسين القرى (أو القرية) التابعة للوقف الذري بواسطة الناظر أو متولي الوقف. وهذا الشرط تجاهلته – حسب قراءتنا – وقفية آل الجراح ووقفية آل الناظر وأكدته وقفية آل النسر.

بعد بدء تسجيل الأراضي والعقارات، فيما يُعرف بالطابو، أخذ يتجمع ريع آخر للوقف الذري آت من الرسوم التي تجبيها الدولة لدى تسجيل أية قطعة أرض ذات علاقة بالوقف في المصالح العقارية. وكانت الدولة تحوّل لمديرية أوقاف دمشق جزءاً من تلك الرسوم باعتبارها وقفاً ذرياً للصالحة خاتون. وقد جرى آخر توزيع للرسوم على الوقفجية عام ١٩٢١، ثم تراكمت تحت اسم الرسوم المؤجلة وبلغت عام ١٩٥٥ مقدار / ٢٧٠ / ألف ليرة سورية أرادت مديرية الأوقاف توزيعها على " الوقفجية "[٥٩]. ولكن الخلاف سرعان ما نشب بين هؤلاء حول توزيع النسب بين الأسر، التي تعتبر نفسها من أصحاب الوقف[٦٠].

في الوقت نفسه تحرك "أهل البلد" من غير " الوقفجية " وطالبوا، عن طريق العرائض، بصرف الأموال المتجمعة في مديرية الأوقاف على إصلاح قناة دير عطية تمشياً مع وثيقة الوقف وانطلاقاً من واقع أن "الوقفجية" ليسوا من ذرية صالحة خاتون بل من حاشيتها. وكان الشعور السائد في دائرة الأوقاف متعاطفاً مع " الوقفجية ". ولهذا قرر "أهل البلد" إقامة دعوى في القضاء عام ١٩٥٣. وبناء على ذلك قام خالد القليح وعبد الكريم الزايد كممثلين للجنة إصلاح النهر بتوكيل المحامي إبراهيم البطل، الذي أقام دعوى على الأوقاف بإلزامها بإصلاح قناة دير عطية من غلة وقف صالحة خاتون بصفتها متولية الأوقاف. ولهذا توجه ثلاثة خبراء للكشف عن القناة دون أن تؤدي الدعوى إلى الحكم بتحويل غلة الوقف لإصلاح القناة. وبقيت الأموال تنتظر من يمكنه الحصول عليها[٦١].

هذه الأموال المودعة في خزانة مديرية الأوقاف دفعت " الوقفجية " للمطالبة باستحقاقهم

---

(٥٨) لقد شاب النص الأصلي أكثر من تحريف فيما يتعلق بواجبات الواقف. وبسبب ترميم الوثيقة وطولها نترك لباحثي المستقبل دراسة أمر التحريف في النص لصالح هذا المتولي أو ذاك .

(٥٩) إضبارة المحامي شفيق الجراح.

(٦٠) مقابلة مع عبده أحمد الناظر في ٢٥ / ٥ / ١٩٨٦م .

(٦١) منكرات خالد القليح. الدفتر ٤. وهذه المنكرات المكتوبة بخط صاحبها لا تزال في حوزة كاتبها الموجود في دير عطية .

من هذه الأموال. ولكنهم اختلفوا فيما بينهم وانقسموا إلى عدة فرق كل فرقة تنفي عن الأخرى صحة نسبها للصالحة خاتون وتدعي بصحة نسبها هي حتى يتسنى لها الاستئثار بالحصة الأكبر من الاستحقاق.

وازدادت الحماسة لإثبات النسب إلى صالحة خاتون والحصول على الاستحقاق المتراكم في مديرة أوقاف دمشق بعد أن نشرت جريدة النصر في ٢٨ كانون الثاني ١٩٦٠ إعلاناً صادراً عن (رئيس محكمة التصفية بدمشق) «يدعو مستحقي وقف صالحة خاتون بنت صلاح الدين البهلوان للحضور إلى بهو محكمة تصفية الأوقاف الذرية والمشتركة في المحكمة الشرعية بدمشق. وعلى كل منهم جلب الوثائق المؤيدة لعلاقته بالوقف المذكور». وتكرر هذا الإعلان خلال سبع سنوات كان آخرها في ١١ / ٣ / ١٩٦٧م المنشور في جريدة الثورة في ١٣ / ٤ / ١٩٦٧[٦٢].

ولكن إثبات النسب إلى صالحة خاتون أو رَده بدأ بين " الوقفجية " قبل هذا التاريخ منذ أواخر عام ١٩٥٨م. فقد تقدم مصطفى سعيد الجراح ورفاقه البالغ عددهم ١٩ شخصاً (إلى فضيلة القاضي الشرعي بدمشق، بصفته ناظراً في قضايا النسب الموقر) طالبين ما يلي[٦٣]:

- المصادقة على " النسب إلى جدتنا الكبرى صالحة خاتون كما هو واضح من الشجرة وجدول التوزيع ".
- "الحكم بثبوت الاستحقاق لنا حسب شرط الواقف المبين أعلاه والواضح من كتاب الوقف المبرز والوثائق الأخرى ".
- "تصديق شجرة النسب المبرزة لمطابقتها لما جاء بكتاب الوقف ووقوعاته وشهادات الشهود والحقيقة " .
- "تصديق جدول التوزيع المبرز المتعلق بأصحاب السهام ولكل حسب سهامه المبينة".
- الوثائق المقدمة للقاضي الشرعي تضمنت: "شجرة النسب وجدول توزيع الاستحقاق المنظم من قبل الفَرَضي المحلف أصولاً وصورة حكم صادر عن محكمة صلح النبك لسنة ١٩٢٢ وكتاب الوقف وشهادة الشهود الذين سنحضرهم يوم المحاكمة[٦٤]".

---

(٦٢) إضبارة تصفية الوقف الذري .

(٦٣) إضبارة المحامي شفيق الجراح .

(٦٤) التفاصيل موجودة في : إضبارة المحامي شفيق الجراح .

رداً على دعوى إثبات النسب هذه تقدم بتاريخ ١٠.٣.١٩٥٥ محمد بن عبده الناظر وعبده بن أحمد الناظر إلى المحكمة الشرعية بدمشق بدعوى (رقم أساس ٢١٦لعام ١٩٥٥) على السيد مصطفى بن سعيد الجراح ورفاقه الثماني عشر لرد نسب المذكورين إلى صالحة خاتون ومنعهم من اخذ (ما تجمع من غلة الوقف لدى مديرية الأوقاف العامة والبالغة ما ينوف على / ٢٤٠٠٠٠ / مائتين و أربعين ألف ليرة سورية واقتسامها فيما بينهم)[٦٥].

مطالعة محامي آل الناظر تضمنت النقاط التالية[٦٦]:

- إدخال عدد كبير من العائلات والأسماء ممن لا علاقة لهم بالمستحقين في الوقف. وذلك اكتساباً للرأي العام في بلدة دير عطية.
- إغفال ذكر أكثر المستحقين الحقيقيين في الوقف.
- بطلان شجرة النسب المبرزة من الفريق الآخر وعدم مطابقتها للواقع.
- تقديم شجرة نسب خاصة بآل الناظر ومن معهم من العائلات
- عدم صحة دفتر التوزيع المقدم من الفريق الآخر وكثرة المغالطات.
- إلقاء ظلال من الشكوك على صحة حجة الفريق الآخر، حيث أن تصديقاتها تنتهي في عام١١٠١هـ / ١٦٨٩م، ولا تحتوي على شيء غير التصديقات وكتاب الوقف. في حين (أن الحجة التي أبرزها آل الناظر تحتوي) . كما قال وكيلهم . "بالإضافة إلى كتاب الوقف على أسماء المستحقين والنظار على الوقف إلى جانب التصديقات عليها من القضاة الذين تعاقبوا بتسلسل صحيح حتى عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م.

وقد أجرى محامي آل الناظر مقارنة بين الحجتين اللتين تحتويان على نفس خاتم وخط القاضي المرحوم الشيخ محمد بن مصطفى (قاضي قارا) وذلك في أواخر شهر ذي القعدة الحرام من عام ١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م، وتحملان نفس الخط والعبارات التي صدق بها القاضي المذكور على الحجتين معاً. الفرق الوحيد هو أن الحجة المقدمة من آل الجراح تنتهي تصديقاتها في عام ١١٠١هـ / ١٦٨٩م، دون أن تحتوي شيئاً زيادة على التصديقات بينما تحتوي الحجة التي أبرزها آل الناظر بالإضافة إلى ذلك أسماء المستحقين في الوقف و أسماء عائلاتهم[٦٧].

---

(٦٥) إضبارة المحامي شفيق الجراح .

(٦٦) المصدر نفسه .

(٦٧) إضبارة المحامي شفيق الجراح .

فهي، أي حجة آل الناظر، تحمل بالإضافة إلى تصديق قاضي قارا الشيخ محمد بن مصطفى عام ١٠٧٨هـ /١٦٦٧م الذي تحمله الحجتان معاً، تصديقاً مؤرخاً في العام الذي يليه أي ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م من القاضي (اسم غير مقروء) ثم تصديقاً في عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م من قبل قاضي دمشق الشيخ أحمد. ثم في عام ١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م من قاضي قارا وقد ورد في تصديق القاضي المذكور أن التصديق قد جرى بناء على طلب أحمد بن محمد الناظر الشرعي على وقف جدته صالحة خاتون .... ثم تلا ذلك تصديق قاضي قارا الشيخ مصطفى عبد السلام في عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢ م ثم تصديقاً في عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م ثم تصديقاً من قبل قاضي قارا الشيخ محمد سعيدي عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م، ثم تصديق قاضي قارا الشيخ عبد الكريم عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م والذي خط فيه الهامش الذي يحتوي على أسماء المستحقين في الوقف[٦٨]

فريق ثالث دخل على خط الوصول إلى "غلة الوقف" هو محمد بن الشيخ أحمد الخطيب، الذي تقدم باستدعاء إلى المحكمة الشرعية بدمشق مؤرخ في ١٩٥٩.٣.١ يطلب التدخل بمواجهة من يعارضون في نسبه إلى جدته السيدة صالحة خاتون. وجاء في استدعائه : " ولما كان أكثر المدعين في هذه الدعوى لا ينتسبون إلى جدتي المذكورة وإنما يحاولون بالتواطؤ فيما بينهم اخذ حكم بالنسب إلى جدتي صالحة خاتون طمعاً بغلة الوقف المتجمعة لدى دائرة الأوقاف[٦٩]"

بتاريخ ٩ / ٥ /١٩٦٧م تقدم محمد بن مسعود النسر باستدعاء إلى رئاسة محكمة التصفية بدمشق ذكر فيه أن الحجة تتضمن أسماء أجداده وهم من مستحقي الوقف. وأضاف أنه " من أحفاد الصالحة خاتون وأحد مستحقي وقفها وحيث أنه واضع اليد على المطاحن واستفاد من ريعها لغاية أنها وقفت عن العمل بسبب قلة المياه[٧٠]" . وقبل ذلك تقدم محمد زكي بن محمد باظ بتاريخ ٥ / ٥ /١٩٦٧م بطلب إلى محكمة التصفية قال فيه: " إننا ننتسب إلى وقف جدتنا صالحة خاتون وكان انتسابنا إلى هذا الوقف منذ مدة سبعمائة سنة تقريباً كما أننا نتقاضى ما يخصنا من ريع هذا الوقف... كما أننا نرجو التفضل بالعلم بأن اسم جدتنا في الوقفية هو علي بن أحمد النسر وبمرور الزمن انقلبت كلمة النسر إلى

(٦٨) إضبارة المحامي شفيق الجراح .

(٦٩) إضبارة تصفية الوقف الذري .

(٧٠) المصدر نفسه. ونذكر بأن محمد النسر يملك نسخة ثالثة لوقفية صالحة خاتون كما أشرنا. وقفية آل النسر. وهذه الوقفية تشير إلى شرط قيام الناظر باصلاح القناة والدمن ون ريع الوقف .

مرادفها باز ومن ثم تغير إلى اسم باظ. لذا يرجى التفضل بالموافقة على إدراج أسمائنا بين المستحقين للوقف..."[٧١].

والطريف في الأمر أن آل بهلوان المقيمين في جزيرة أرواد وكلوا عنهم المحامي محمد إسماعيل حمادة، الذي طالب في جلسة ١٨شباط١٩٦٠م بحق آل بهلوان في الوقف لأنهم ينتسبون إلى صلاح الدين بهلوان والد صالحة خاتون[٧٢].

مديرية أوقاف دمشق، ممثلة بمحاميها، نفت صحة نسب جميع من تقدموا من دير عطية، إلى صالحة خاتون. وذكرت في مرافعة محاميها بتاريخ ٢٠ / ١٢ / ١٩٥٨م إلى فضيلة القاضي الشرعي بدمشق أن جميع من تقدم من المدعين وطالبي التدخل في هذه الدعوى " تقدموا لإثبات نسبهم من الواقفة صالحة خاتون أملاً بالتوصل أيضاً إلى استحقاق أموال الوقف المذكور". وهذا "من قبيل التواطؤ أملاً بالتوصل إلى استحقاق الأموال العائدة لجهة وقف صالحة خاتون". وجاء في مرافعة مديرة الأوقاف : " إن هؤلاء المدعين لا ينتسبون مطلقاً إلى الواقفة صالحة خاتون وبالتالي فدعواهم حَريَة بالرد"[٧٣]. ومعنى ذلك أن أموال الوقف تعود إلى مديرية أوقاف دمشق.

بتاريخ ١٦ / ٤ / ١٩٥٩م رفعت مديرية أوقاف دمشق مذكرة جوابية لمقام المحكمة الشرعية بدمشق في الدعوى رقم أساس ٢١٦ لعام١٩٥٩ فنّدت فيه شهادات الشهود من جميع الفرقاء من دير عطية أمام المحكمة الشرعية وبيّنت أن شهاداتهم " بجملتها لم تستطع أن تنهض دليلاً على دعوى المدعين من ثبوت نسبهم إلى صالحة خاتون[٧٤]". ثم انتقلت المذكرة إلى إلقاء الأضواء على الحجج المبرزة من الجهة المدعية (آل الجراح ومن معهم) والجهة المتدخلة (آل الناظر). فالحجة الأولى تنتهي تصديقاتها الشرعية في عام ١١٠١هـ ثم انقطعت مما يدل على أنها انتقلت في هذا التاريخ إلى يد غير محقة مما جعل هذه اليد تحتفظ على علاّتها دون إبرازها للتصديق من مراجعها الشرعية حتى يصبح انتقالها من يد السلف إلى يد الخلف منهم متواتراً ومؤكداً بتصديق قاضي الشرع الشريف كما هي الأصول المتبعة في ذلك العهد"[٧٥]. " الحجة الثانية تنتهي تصديقاتها في عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ثم انقطعت مما يدل على أنها هي الأخرى قد انتقلت في هذا التاريخ إلى يد غير محقة

(٧١) اضبارة تصفية الوقف النري .
(٧٢) إضبارة، تصفية الوقف النري .
(٧٣) المصدر نفسه .
(٧٤) المصدر نفسه .
(٧٥) المصدر نفسه .

مما يجعل هذه اليد تحتفظ بالحجة دون إبرازها لتصديقها من مراجعها الشرعية في حينه حتى يصبح انتقالها من يد السلف إلى يد الخلف منهم متواتراً ومؤكداً بتصديق قاضي الشرع الشريف، كما هي الأصول المتبعة في ذلك العصر "(٧٦).

بعد ذلك أعلن ممثل الأوقاف في جلسة ٩مايو ١٩٦١م " أن وقف صالحة خاتون هو من الأوقاف الخيرية المضبوطة التي لم يتناول أحد من المستحقين ريعه منذ أربعين سنة". وطالب ممثل الأوقاف بتحويل هذا الوقف الخيري المضبوط إلى وقف خيري صرف استناداً للقانون ٢٠٤(٧٧).

استمرت دعاوى إثبات النسب إلى صالحة خاتون، من أجل الحصول على غلة وقفها المتراكمة منذ ١٩٢٧م في خزانة أوقاف دمشق، من عام ١٩٥٩م إلى عام١٩٦٨م حيث صدر الحكم التالي(٧٨):

" باسم الشعب العربي في سوريا إن محكمة تصفية الأوقاف الذرية والمشتركة بدمشق المؤلفة من السادة سعد الدين الحمصي رئيساً ومحمد عوض المقداد وجمال الدين الشلبي عضوين. بعد إطلاعها على هذه الاضبارة المتعلقة بوقف صالحة خاتون وما أبرز فيها من وثائق ومستندات. وبعد المداولة في موضوع هذه القضية تبين مايلي:

لما كان ممثل دائرة الأوقاف قال بجلسة ٢٢ تموز ١٩٦٧م أن هذا الوقف هو من الأوقاف الخيرة المضبوطة التي لم يتناول أحد من المستحقين ريعه منذ أربعين سنه. ولما كان مدعو الاستحقاق لم يثبتوا شيئاً من ريع هذا الوقف. لذلك

وعملاً بأحكام المادة الأولى من المرسوم رقم٢٠٤ لعام ١٩٦١م تقرر بالاتفاق:

اعتبار هذا الوقف من الأوقاف الخيرية المضبوطة المنقطعة الاستحقاق.

رد دعوى تصفيته كوقف ذري أو مشترك.

تضمين طالبي التصفية محمد بن مصطفى الناظر وعبده بن احمد الناظر من دير عطية الرسوم والمصاريف وعشرين ليرة سورية خرج قرار يحسم منها خمس ليرات سورية المدفوعة باسم ريع الخرج وتحصيل الباقي ١٥ ليرة سورية.

قراراً وجاهياً قابلاً للطعن بطريق النقض صدر وتفهم بتاريخ / ٢٠ ذي الحجة ١٣٨٧هـ و ١٩آذار ١٩٦٨م علناً حسب الأصول ".

---

(٧٦) اضبارة تصفية الوقف الذري .

(٧٧) المصدر نفسه .

(٧٨) المصدر نفسه .

٧ – قرار القاضي العقاري بعدم شرعية وقف صالحة خاتون

مع قرار افتتاح التحديد والتحرير في دير عطية بتاريخ١ / ٦ / ١٩٨١م بدأت عملية التحديد والتحرير في دير عطية وأعقبتها عملية تسجيل العقارات أو الأراضي في الدائرة العقارية (الطابو) دون وضع أية إشارة على هذه العقارات، كما كان يجري الأمر في السابق بأن أراضي دير عطية وقف صالحة خاتون. فاعترضت شعبة أوقاف النبك طالبة وضع عبارة "الأرض جارية بوقف صالحة خاتون" على صحيفة جميع العقارات في دير عطية بموجب الحجة الوقفية للصالحة خاتون وقرار محكمة تصفية الأوقاف الذرية تاريخ١٩ / ٣ / ١٩٦٨م، الذي أوردناه قبل قليل(٧٩). رداً على هذا الاعتراض أصدر القاضي العقاري لمنطقة النبك سلسلة من القرارات ليست في صالح الأوقاف، ومنها قرار القاضي العقاري السيد منير يوسف بتاريخ ٢٦ / ٤ / ١٩٨٨م، الذي ردّ فيه اعتراض الأوقاف، وأصدر حكماً اعتبر فيه وقف صالحة خاتون من أساسه باطلاً، لأنه لا يجوز أن ينشا وقف على الأراضي الأميرية، على اعتبار ارض دير عطية قبل صالحة خاتون كانت أراضي أميرية وليست ملكاً لصالحة خاتون. وفيما يلي النص الحرفي لقرار القاضي العقاري(٨٠):

" باسم الشعب العربي في سوريا

بالتدقيق تبين أن مديرية أوقاف دمشق قد اعترضت على العقارات من الرقم١ حتى الرقم٧٩٨ من المنطقة العقارية لدير عطية ١ / ١٥ طالبة وضع إشارة وقف على هذه العقارات بداعي أن هذه العقارات من أوقاف صالحة خاتون. وحيث ثبت من الإطلاع على صورة الحجة الوقفية المؤرخة بتاريخ ٤ شعبان عام ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨م وصورة القرار الصادر عن المحكمة الذرية السادسة بدمشق أساس ٨ قرار٨ تاريخ١٩ / ٣ / ١٩٦٨م المبرز خلال فترة الاعتراض بأن الحجة الوقفية تتضمن وقف ضيعة دير عطية بما فيها الأراضي و السهول ومصايف ومشاتي ومروج وصير وبيادر وطواحين وغير ذلك برسم (كلمة غير مقروءة) فلاحيها، وحيث أن الجهة المعترضة مديرية أوقاف دمشق لم تتقدم خلال المدة القانونية للاعتراض ولم تقدم مع الوثائق المرفقة ما يبين أن هذه العقارات كانت بتاريخ الوقف أي بعام٧٠٨هـ / ١٣٠٨م، نوعها الشرعي ملك حيث أن العقارات التي نوعها الشرعي أميري

---

(٧٩) هذه المعلومات أخذناها أولا من أوراق الطابو الموجودة في حوزة السيد أحمد الخطيب في ديرعطية. ثم تحققنا من صحتها في إضبارة وقف صالحة خاتون في شعبة أوقاف النبك .

(٨٠) نص القرار مدون في محضر تحديد العقار رقم ١ من المنطقة العقارية ١ – ١٥ ديرعطية الموجود في مديرية المصالح العقارية بدمشق .

لا يجوز وقفها وأن الوقف الذي ينشأ على الأراضي الأميرية يعتبر باطلاً وحيث أن نص المادة ٧٧٤ من القانون المدني جاءت مانعة من التصرف في عقار أميري ان ينشا عليه وقف. واعتبر كل وقف ينشأ على الأراضي الأميرية باطلاً. وإن الوقف الصحيح هو الذي يتناول العقارات والأراضي التي كانت ملكاً بحتاً بتاريخ الوقف ثم أوقفها أصحابها على جهة من جهات البر والخير وفقاً للأحكام الشرعية، مما يوجب ترقين اعتراض الأوقاف على أن يبقى للجهة المقرضة حق الاستفادة من أحكام المادة٣١ من القرار١٨٦ المعدل. لهذه الأسباب وعملاً بأحكام المواد٢١، ٢٢، ٣٧، ٣٨ من القرار ١٨٦المعدل قرر:

١. ترقين اعتراض مديرية أوقاف دمشق عن محاضر العقارات من الرقم ١ حتى الرقم٧٩٨ من المنطقة العقارية لدير عطية١ / ١٥.

٢. التصديق على الشروحات الأخرى لمحضر التحديد والأمر بقيدها وقيد الحقوق العينية بالسجل العقاري واستيفاء الرسوم المتوجبة.

صدر عن القاضي العقاري منير يونس في ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م(٨١)".

وبهذا القرار الصادر عن القاضي العقاري والمعبّر عن الجو العام السائد في سورية انتهت قصة وقفية صالحة خاتون وتملك ذريتها لدير عطية قانونياً بعد أن كان هذا الوقف قد انتهى عملياً منذ مدة طويلة نجهل تاريخها .

٨ – وقفية صالحة خاتون في ميزان التاريخ

لاشك أن إقامة صالحة خاتون مع حاشيتها في دير عطية دليل واضح على وجود حياة بشرية قائمة قبل صالحة خاتون في دير عطية ومزارعها المحيطة بها. وتاريخ دير عطية قبل صالحة خاتون مفقود. ولم نعثر في المصادر والمراجع على أي إشارة إلى هذه القرية قبل مجيء صالحة خاتون وإصدارها للحجة الوقفية التي وهبت بها نريتها أراضي دير عطية ومزارعها.

وهنا نواجه، فيما يتعلق بحق صالحة خاتون في وقف دير عطية ومزارعها لذريتها رأيين:

- الرأي الأول يقول إنها وهبت أملاكا ليست لها، فهي إما ملكية للفلاحين المقيمين في هذه المزارع أو أملاك للدولة (أرض ميري) بعد أن هجرها أهلها بسبب الحروب أو الأوبئة أو السيول الجارفة. وتُجسّدَ هذا الرأي أخيرا في قرار القاضي العقاري في ستينات

(٨١) الموافق ١٤٠٩هـ. ويلاحظ أن القاضي لم يدون في قراره التاريخ الهجري.

القرن العشرين كما رأينا .

- الرأي الثاني يقول بأن دير عطية ومزارعها لم تكن مسكونة عند مجيء صالحة خاتون. أي لم يكن ثمة فلاحون مقيمون لدى مجيء صالحة، التي أحيت القناة وما عليها من منشآت. هذا مع العلم أن نص الوثيقة لا يحتمل التخمين والاجتهاد في أمر وجود أناس في دير عطية ومزارعها شقوا الأقنية وعمّروا الطواحين وبنوا الضياع وزرعوا الأرض و كما هو واضح من نص الوقفية .

وثمة رأي ظهر أخيرا في دير عطية اعتبر فيه وقف صالحة خاتون في دير عطية هو أشبه بخط دفاع خلفي في حرب المسلمين ضد الصليبيين. خط الدفاع الخلفي هذا لا يعتمد على إرسال الجند إلى ساحات القتال مقابل استثمار الأرض، كما هو المتبع في نظام الإقطاع الحربي السائد، بل يعتمد على تزويد المسلمين المقاتلين ضد الفرنجة بالمال والغذاء. ولعل ما ورد في نص وثيقة صالحة خاتون أن ريع الوقف يصرف على " فكاك أسرى المسلمين لدى الفرنجة في حال انقراض الورثة " هو الذي دفع إلى هذا الرأي.

ولكن الوقفية لم تضع فك أسرى المسلمين لدى الفرنجة كشرط أول، بل جاء هذا الالتزام كشرط ثان في حال انقراض الورثة. . وليس ثمة أية إشارة في النص إلى تزويد المحاربين بالمال أو السلاح أو الغذاء. ومن يدرس مصادر ذلك العصر المضطرب ومجريات الأحداث والاغتيالات التي رافقت عملية انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك وغدر أمراء المماليك بعضهم ببعض، وطبيعة الحروب القائمة آنذاك والتي لم تكن دوافعها دينية فحسب بل حملت في ثناياها دوافع اقتصادية وطموح في الوصول إلى السلطة (المصدر الأول للحصول على الثروة) واقتتال بين المسلمين أنفسهم قابله اقتتال وتنازع على السلطة في صفوف الغزاة الفرنجة، ترافق مع تحالفات ومعاهدات شملت الفريقين. إضافة إلى ذلك فإن حروب الفرنجة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة أثناء تحرير الوقفية، وتمّ دحر الغزاة والاستيلاء على عكا آخر معاقلهم بعد عقد ونصف من تحرير الوقفية. ومعنى ذلك أن دفع المال لفك الأسرى لم يعد واردا في الواقع العملي. هذا على الرغم من إشارة قاضي قارة أثناء تصديقه السنوي على الوقفية إلى شرط فك الأسرى .

ويبدو واضحا من مرافعة المحامي شفيق الجراح وهو ابن آخر متول للوقف أن شروط الواقف من فكاك الأسرى أو الإنفاق على الفقراء والمحتاجين أصبحت في خبر كان واستأثرت الحاشية التي تدعي النسب لصالحة خاتون بريع الوقف مع إهمال إصلاح القناة. نعيد هنا ما ذكره الأستاذ شفيق الجراح في مرافعته في الدعوى رقم ٢١٦ لعام١٩٥٩م:

« إن أعشار الأرض من الوقف كان يجبيه المتولي ثم أصبحت الدولة تجبيه باسم الوقف وتولت مديرية الأوقاف أمر التولية بعد ذلك وتحصيل الأعشار. ولم يتجسد وضع اليد للذرية على أموال الموقوف إلا في الطواحين. وأما الرقبة الموقوفة فهي للواقف والمنفعة للفلاحين يتقاضى الورثة منها العشر»[٨٢]، الذي لم يوزع على المستحقين اعتباراً من عام ١٩٢٧م وتجمعت وارداته في خزانة الأوقاف، مما دفع من يعتقد أنه مستحق إلى المطالبة بهذه الأموال.

آخر متول للوقف ـ كما أفاد المحامي شفيق بن مصطفى الجراح[٨٣] ـ هو سعيد الجراح والد مصطفى الجراح، كما هو ظاهر من الفقرة الرسمية الصادرة عن محكمة صلح النبك سنة ١٩٢٥م وورقة الضبط الرسمية المؤرخة سنة١٩٢٧م.[٨٤]

ونحن نميل إلى الرأي القائل بأن الوقف الذري أو الأهلي هو وسيلة ابتدعها الحكام لحماية إقطاعياتهم وعقاراتهم وما جمعوه من ثروات بفضل السلطة، التي اعتلوا سدتها.

جاء في موجز أحكام الوقف للحنبلي أن "الوقف قسمان: وقف صحيح يتناول الأراضي والعقارات، التي كانت ملكا بحتا ثمّ وقفها أصحابها على جهة من جهات البر والخير وفقا للأحكام الشرعية ".

" والوقف غير الصحيح يتناول الأراضي التي أفرزت من الأراضي الأميرية ووقفها السلاطين أنفسهم أو وقفها غيرهم بإذنهم على جهة خيرية، وهذا الوقف هو عبارة عن تخصيص منافع الأراضي الموقوفة كأعشارها ورسومها القانونية لجهة من الجهات على أن تبقى رقبتها عائدة لبيت المال "[٨٥]. والحنبلي يتحاشى في عام ١٩٢٥م ذكر " جهة من الجهات" ، التي استغلت الوقف الذري لصالحها. فالزمن كان لا يزال زمن هيمنة من يتولون الأوقاف الذرية أو يستفيدون منها. والحديث عنهم له عواقب غير مستحبة، لأستاذ يريد البقاء في منصبه .

"ويلاحظ" – كتب د. وهبة الزحيلي صاحب الفقه الإسلامي وأدلته – " أن القليل من أحكام الوقف ثابت بالسنة، ومعظم أحكامه ثابت باجتهاد الفقهاء بالاعتماد على الاستحسان

(٨٢) إضبارة المحامي شفيق الجراح. وهنا يبدو جليا أن من أدعوا أنهم ورثة صالحة خاتون لم يطبقوا شروط الوقفية واستأثروا بالمنافع سواء من الأرض أو من الطواحين .

(٨٣) المحامي شفيق الجراح من عائلة الجراح المالكة لإحدى نسخ الوقفية. وقد تكرم وأعارنا إضبارة تصفية الوقف الذري مما سهّل علينا العمل .

(٨٤) المصدر السابق .

(٨٥) الحنبلي، أحكام الأوقاف. ص ٢ .

والاستصلاح والعرف"[٨٦]. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الوقف الذري وسيلة أوجدها الحكام والمتنفذون لضمان ما وصلت إليه أيدهم، حلالا أو حراما، من المصادرة ممن سيخلفهم. وما كان على الفقهاء إلا الاجتهاد وإضفاء الشرعية على هذا الإجراء .

ويرى صاحب " كتاب أحكام الأراضي"[٨٧] الصادر عام ١٩٢٣م أن الوقف الذري أو الأهلي ينقسم بحسب ماهيته إلى نوعين : الوقف الصحيح وهو ما كان ملكا صرفا فوقفه أصحابه ليعود الانتفاع به إلى ذرية الواقف. وأوقاف غير صحيحة تشمل أراضي وقرى بكاملها... والمادة الرابعة من قانون الأراضي العثماني الصادر سنة ١٨٥٨ تعرف الأوقاف غير الصحيحة بأنها " أراض أميرية ارصد ريعها أو مرتبتها من طرف السلاطين العظام أو بإذنهم لجهة خيرية مع بقاء رقبتها عائدة لبيت المال مثل الأراضي الأميرية الصرف"[٨٨]. فأين موقع وقف صالحة خاتون في دير عطية ؟ ..

وقصارى القول نرى أن الأوقاف الذرية غير الصحيحة بدعة أو حيلة لجأ إليها المتنفذون من الحكام وأصحاب الثروة لنقل أموالهم وما حصلوا عليه من جهد المنتجين في المدينة والريف إلى مؤسسات الأوقاف الذرية (الأهلية)، وأناطوا مهمة الإشراف والإدارة بأقربائهم فضمنوا بذلك موردا ثابتا لهم ولذراريهم من بعدهم، وحافظوا بذلك على الثروة التي جمعوها أو اغتصبوها بحكم موقعهم في جهاز السلطة الإقطاعي. وهكذا فعملية الوقف الذري (غير الصحيح) هي شكل من أشكال الاستغلال الإقطاعي ووسيلة لجأ إليها المتنفذون لحماية " ثرواتهم " في صراع بعضهم مع بعض أو مع السلطة المركزية حول ملكية الأرض وضمان الثروة.

ولكن ذلك لا ينفي الجوانب الإيجابية للوقف الذري في بعض الأحيان، وفي ظلّ ظروف خاصة. ويتبدى ذلك جليا في مجئ صالحة خاتون إلى دير عطية وإصلاح منشآتها كالأقنية والطواحين والدور وغيرها، وتحويل هذه الأرض مرة ثانية إلى واحة خضراء وإتاحة الفرصة أمام الفلاحين والحرفيين للعمل والإنتاج : وهنا تكمن الأهمية التاريخية لحلول صالحة خاتون في دير عطية.

---

(٨٦) الزحيلي، الفقه. ص ١٥٧ .

(٨٧) دعيبس المر: " كتاب أحكام الأراضي(المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية)، مطبعة بيت المقدس، القدس ١٩٢٣م، ص ١٦، وسيشار اليه فيما بعد: المر، كتاب احكام الأراضي .

(٨٨) النص الكامل لقانون الأراضي العثماني موجود في : الدستور، مجلدان، ترجمه من اللغة التركية على اللغة العربية : نوفل أفندي نعمة نوفل. المطبعة الأدبية، بيروت١٣٠١هـ/١٨٨٣م، مجلد ١، ص ١٤٠ – ١٦١، وسيشار اليه فيما بعد: الدستور .

دور الوقف في إنشاء ورعاية مساجد ومدارس حي الصالحية بدمشق

فالح حسين*

قبل الحديث عن الوقف ودوره لابد من التعريف المختصر بالصالحية ونشأتها مدار البحث. إذ المعروف أن نواة الصالحية تشكلت أساساً على أثر توطن جماعة من أهل فلسطين، هاجرت من بعض قرى جبل نابلس إلى دمشق منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وكانت بداية القدوم تحديداً في سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، على خلفية المضايقات التي كانت تمارسها سلطات الاحتلال الفرنجي في فلسطين على أهالي هذه القرى. فقام بعض سكانها بالهجرة إلى دمشق حيث سكنوا في أحد أحيائها القريبة من باب شرقي، وهم الذين عرفوا فيما بعد بالمقادسة. رغم أنهم عملياً من فلاحي هذه القرى، التي ذكرت عند الحديث عن هجرتهم. أما القرى التي جاءوا منها فهي: جماعيل (جماعين)، ومردا، وياسوف، ودير عوريف، والفندق، وجيت، وقيرا، وقراوة، ودير استيا، والساوية، وجراعة[١].

وكان ابن عبد الهادي المعروف بابن المبرد (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، أول من أرخ للصالحية، إلا أن ما كتبه ضاع، لكنه وصلنا عن طريق تلميذه ابن طولون (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦-١٥٤٧م)[٢]، وابن كنان (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠-١٧٤١م)[٣]، الذي لخص ما كتبه ابن طولون عنها، كما أن مادة النعيمي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، في كتابه (الدارس في تاريخ المدارس)، لا

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية

(١) انظر بعض هذه القرى في: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ج، دار صادر- بيروت ١٩٧٩م، جماعيل، ج٢، ص ١٥٩-١٦٠، قراوة، ج٤، ص ٣١٩، ياسوف، ج٥، ص ٤٢٥، مردا ج٥ ص ١٠٤. وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم البلدان.

(٢) شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦-١٥٤٧م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، جزءان، تحقيق محمد أحمد دهمان، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، القلائد

(٣) محمد بن عيسى بن كنان، (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠-١٧٤١م). المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، نشر مديرية الآثار القديمة العامة، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م. وسيشار إليه فيما بعد: ابن كنان، المروج. " نشر الكتاب في الأصل بعنوان: (المروج السندسية الفسيحة..) ولكن المحقق عاد وصحح النقل كما أثبتناه. انظر ابن طولون، القلائد ج١، ص ١٥.

غنى عنها عند الحديث عن الصالحية[٤].

أقام المقادسة عند وصولهم دمشق بزعامة الشيخ أحمد بن قدامة بن نصر الحنبلي في مسجد أبي صالح بباب شرقي أول أمرهم حوالي ثلاث سنوات بين سنتي ٥٥١هـ/١١٥٦م -٥٥٤هـ/١١٥٩م، ثم انتقلوا بعد أن لاقوا كثيراً من العناء إلى منطقة يبدو أنها كانت غير مسكونة عند سفح قاسيون، فنشأ على خلفية هذا الانتقال وبالتدريج حي جديد خارج دمشق المسورة عرف بالصالحية، نسبة لهم أو للمسجد الذي كانوا يقيمون فيه من قبل، أي مسجد أبي صالح[٥]، ثم لحق بهم المهاجرون. إذ انتقل الشيخ أحمد أولاً ثم تبعه الآخرون ممن كانوا معه لاحقاً. وسرعان ما ازدهر هذا المكان الجديد وكوّن قرية مزدهرة، قال عنها ياقوت (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م): (قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون... أكثر أهلها ناقلة البيت المقدس)[٦].

والفضل في هذا الازدهار السريع والانتشار العمراني في الصالحية يعود إلى الوقف الذي كان الأساس في إنشاء الصالحية، ورعاية كل المنشآت العمرانية التي أقيمت فيها لخدمة أهلها من علماء وطلبة وبقية عناصر سكانها كما سيحاول هذا البحث أن يبين.

فقد كان الوقف على المصالح العامة هو أساس نشوء ورعاية كل هذه العمائر والقائمين عليها والمنتفعين منها، للحفاظ على استمرارية أدائها لمهامها التي أقيمت من أجلها، وذلك بتخصيص الأموال التي تعينها على ذلك، وترعى كل القائمين عليها والمنتفعين منها ليس المساجد والمدارس فحسب، بل والزوايا والترب والخانقاوات والأربطة والمستشفيات والحمامات ومكاتب الأيتام، وكل ما يمكن أن يحقق استمرار خدمات هذه المصالح

---

(٤) عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م). الدارس في تاريخ المدارس، جزءان، فهرسة إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت طبعة أولى، ١٩٩٠م. وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

(٥) انظر لهجرة المقادسة وسكناهم في مسجد أبي صالح وانتقالهم إلى الصالحية: ابن طولون، القلائد، ج١، ص٦٥-٨٤؛ ابن كنان، المروج، ص ٢-١٧، وانظر ١٠١-١٠٢. وقد تحدث بالتفصيل عن ذلك محمد مطيع الحافظ، المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر المقدسي الصالحي المتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، والتعريف بأسرة آل قدامة. نشر دار الفكر - دمشق، ٢٠٠٠م، ص ٢٥- ٤١. وسيشار إليه فيما بعد: الحافظ المدرسة العمرية. أما مسجد أبي صالح فينسب إلى الشيخ العابد أبي صالح مفلح بن عبد الله واقفه ظاهر باب شرقي، وهو المسجد الذي سكن فيه آل قدامة ومن صحبهم عند هجرتهم إلى دمشق. انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص ٢٥٠-٢٥١. للمزيد انظر الحافظ، المدرسة العمرية. ص ٢٥-٢٦، هامش٢.

(٦) ياقوت، معجم، ج٣، ص ٣٨٩-٣٩٠.

الخيرية[٧].

وأثناء العمل على إعداد هذه الورقة للتعرف على المدارس والمساجد وملحقاتها من زوايا وخوانق وأربطة وترب وأوقافها في حي الصالحية للتعرف على دور الوقف في إنشائها ورعايتها، رأيت أن الوسيلة المناسبة هي محاولة حصر المنشات بما يتضمن حصر المنشاة وواقفها وسنة وقفها وما عرف مما أوقف عليها من أوقاف لتحقيق غاية التعرف على دور الوقف في إنشائها واستمرار رعايتها، ولنبدأ بالمدارس:

- **المدرسة العمرية**: تنسب هذه المدرسة التي وصفت بالمدرسة العظيمة: لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها)[٨]، للشيخ أبي عمر المقدسي محمد بن أحمد بن محمد قدامة المولود في سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، وكان قد هاجر مع والده شيخ آل قدامة أحمد بن محمد بن قدامة (ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)، إلى دمشق، وتوفى سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م وكان قد بدأ ببناء المدرسة سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[٩]. وقد نقل ابن طولون عن ابن عبد الهادي أن مكان المدرسة كان مقصبة، أي مكان ينبت فيه القصب قبل البناء، فاتخذ الشيخ المدرسة وبنى المسجد كما بنى عشر خلاوي للفقراء أول الأمر، ثم أصبحت المدرسة تضم ٣٦٠

(٧) محمد الارناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، طبعة أولى، ٢٠٠٠م، ص٤٠، سيشار إليه فيما بعد: الارناؤوط، دور الوقف.

(٨) النعيمي الدارس، ج٢، ص١١١، انظر: الحافظ، المدرسة العمرية، ص٣٥٣

(٩) لترجمة أبي عمر ووالده الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة والحديث عن بناء المدرسة، انظر : ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٤٨-٢٥٤؛ النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٧٧-٧٨؛ ابن كنان، المروج ص١٠٣-١٠٥. وأوسع ترجمة لأبي عمر نشرت في كتاب المدرسة العمرية، ص٥٤-٥٩، وهي ترجمة وافية وضعها الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) بعنوان: (جزء فيه ذكر الشيخ الإمام العالم الزاهد أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن نصر المقدسي عليه، وكراماته، وما رئي به بعد موته وغير ذلك). وانظر أيضاً لترجمة أحمد بن قدامة، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٤٣١م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، حوادث وفيات ٥٥١-٥٦١، ص ٢٤٦-٢٤٧، ولترجمة الضياء، حوادث وفيات ٦٠١-٦١٠، ص ٢٧٦، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي- بيروت، طبعة أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، وسيشار إليه فيما بعد: الذهبي، تاريخ الإسلام؛ الحافظ أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ١٣ جزء، تحقيق: احمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة ١٩٩٤م، ج ١٣، ص ٣٨، ٥٩، ٧٠-٧٣؛ إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، ٣ أجزاء، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الراشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ج١ ص ١٧، ولترجمة الضياء، ج٢ من ص ٤٥٠-٤٥١، وانظر المصادر هناك. وسيشار إليه فيما بعد: ابن مفلح، المقصد الأرشد؛ انظر حسن شميساني، مدارس دمشق في العهد الأيوبي، نشر دار الآفاق الجديدة، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م، ص ١٠٢-١٠٣، وسيشار إليه فيما بعد: شميساني، مدارس دمشق.

خلوة فيما بعد. ثم اتخذ مصنعاً للماء وفرناً[١٠]. وقد اشتهر المصنع[١١] فيما بعد ببئر الشيخ، أما الخلاوي فهي الأماكن المخصصة لإقامة الطلبة أو الفقراء في المدرسة.

أما أوقافها فقد أسعفتنا المعلومات حولها مما ذكرته بعض المصادر بالحديث عنها بشيء من التفصيل، دون بقية المدارس والمنشآت الوقفية الأخرى في الصالحية، ولذلك سنتحدث عن أوقاف العمرية كأنموذج للوقف الذي ضمن لها ولمرتاديها المأكل والملبس والمأوى، ولموظفيها والقائمين عليها الرواتب المنتظمة، إذ يمكن اعتبار هذه المعلومات حول الوقف الذي خصص لأهم معلم من معالم حي الصالحية بدمشق بالغة الأهمية؛ لذا اعتبرناها تمثل أنموذجا للتعرف على طبيعة ونوعية وشمولية الوقف في رعاية شؤون المدارس ومرتاديها من شيوخ ومدرسين وطلبة ومدى استمراريته؛ لأن الصورة التي يعطيها لنا أول من كتب عن تاريخ الصالحية وهو ابن عبد الهادي[١٢] تعبر عما كان عليه حال المدرسة الأكثر شهرة بين مدارس عصره ووفرة وقفها. ويؤكد ما ذكره لاحقا ما جاء على لسان ابن الديوان[١٣] لدى ابن كنان عندما ذكر اتساع أوقاف المدرسة العمرية: (ثم اتسعت أوقاف هذه المدرسة فلها خبز يفرق عليها في كل يوم ألف رغيف ولا يزال، وهو المدون عند ابن الديوان)[١٤]. ولم يستمر الحال على ذلك إذ ذكر ابن طولون اضمحلال أوضاع هذه المدرسة في أيامه أي أواسط القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، (عندما تولاها اثنان من الفاسدين وصار لا يخبز لها إلا في كل شهر مرتين أو ثلاثاً، وقد تهدم غالب خلاويها، والباقي لا يسكنها إلا

---

(١٠) ابن طولون، القلائد، ج١، ص ٢٥٢-٢٥٤، ٢٧٣. انظر ابن كنان، المروج، ص ١٠٥.

(١١) ولاستعمال مصطلح مصنع للبئر، انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ١٥ جزءً، دار صادر – بيروت. مادة صنع ج٨ ص ٢٠٨-٢١٣، وسيشار إليه فيما بعد: ابن منظور، لسان العرب.

(١٢) جمال الدين يوسف بن الحسن بن عبد الهادي المشهور بابن عبد الهادي. وهو من آل قدامة ولد سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م، وتوفي سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، وعمل مدرساً بالعمرية، وله كثير من المؤلفات في الفقه والحديث، وقد أكثر ابن طولون من الأخذ عنه (قال شيخنا الجمال عبد الهادي)، انظر مثلاً القلائد، ج١، ص ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١. انظر ترجمته: نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ٣ج ، بيروت، د. ت.، ص٣١٦. وسيشار إليه فيما بعد: الغزي، الكواكب السائرة.

(١٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الرزاق الحنبلي المعروف بإبن الديوان (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م -٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م)، قام بتوسيع المدرسة العمرية، وكان ناظراً لها. وانظر: محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ج، القاهرة، د.ت، ج ١-١، ص٣٤٦. وسيشار إليه فيما بعد: السخاوي، الضوء اللامع؛ انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٥٦، ابن كنان، المروج ص١٠٦.

(١٤) ابن كنان، المروج، ص ١٠٦.

الآكلون من تكية السلطان سليم بن عثمان)[١٥]. ويعود ابن كنان ليتحدث عنها في أيامه أي في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، واصفاً تردي أحوالها[١٦].

وقد حفظ لنا ابن طولون نصاً عن أستاذه ابن عبد الهادي، ابن المبرد، (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، ذكر فيه الأوقاف التي خصصت لهذه المدرسة، وكيفية صرفها وبين أوجهها والمستفيد منها[١٧]. وقال الجمال بن المبرد: (وقد اتسعت أوقاف هذه المدرسة وخيراتها، وقلّ سنة من السنين تمضي إلا ويصير إليها فيها وقف حتى صار من كل أنواع البر لها (كذا)، فلها خبز يفرق فيها كل يوم، وليس ثم من المدارس ما يفرق فيها من الخبز أكثر منها، فإنه يفرق فيها كل يوم ألف رغيف أو نحو ذلك. ولا يزال منزل (ينزل) فيها الخمسمائة ونحو ذلك)[١٨].

وكان من عاداتها القديمة أنهم يعملون طلما وأرغفة كباراً الواحدة منها طلمة[١٩] ونصف، فإذا نزل الواحد أولا في الطلمة ثم ينقل إلى الرغيف الكبير ثم إلى الطلمتين، وللشيخ الذي يقرئ أو يدرس ثلاثة وهو مستمر طوال السنة.

ولها أمين يفرق الخبز، وكاتب غيبة على من لم يحضر[٢٠]. وفي أيام شيخنا أبي الحسن الدويليبي[٢١]... فرتب لها على داريا كل سنة ستين غرارة[٢٢] من القمح زيادة على عشر

(١٥) ابن طولون، القلائد ج١، ص٢٧٠، والنص يدل على أن ابن طولون يتكلم عما شاهده بعد سيطرة العثمانيين على دمشق.

(١٦) ابن كنان، المروج، ص١٠٩-١١٢، وانظر تفاصيل ذلك لدى الحافظ، المدرسة العمرية، ص٣٥٧.

(١٧) الحافظ، المدرسة العمرية، ص ٣٥٣-٣٥٦؛ انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص٨٦-٨٧؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٦٦-٢٦٨.

(١٨) أي ينزل فيها ويقيم فيها حوالي خمسمائة شخص.

(١٩) الطلمة: الخبزة ويبدو أنها تعني الخبزة الصغيرة الحجم. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (طلم).

(٢٠) أي موظف خاص يشرف على توزيع الخبز، وآخر للإشراف على مراقبة الحضور لحصر من يغيب عن الدرس، ويفترض أن ذلك مرتبط بصرف الخبز أو مراقبة الدوام بالنسبة للطلبة

(٢١) هو الشيخ علاء الدين أبو الحسن علي بن عبد المحسن بن عبد الله البغدادي الصلاحي الشهير بابن الدواليبي. قدم دمشق وأقام بمدرسة الشيخ أبي عمر، وولي مشيختها ومات سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م بالصالحية. كان معظماً لدى الملوك وهو الذي رتب للمدرسة قمح دارياً، انظر: جمال الدين يوسف بن حسن بن احمد الدمشقي ابن عبد الهادي (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد، تحقيق عبد الرحمن بن سلمان العثيمين، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبد الهادي، الجوهر المنضد.

(٢٢) الغرارة: مكيال دمشقي للحنطة وزنها ٢٠٤,٥ كغم من القمح والغرارة الدمشقية مختلفة عنها في غزة أو القدس. انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٦٤، وسيشار إليه فيما بعد: كامل العسلي، المكاييل.

البقاع وستة آلاف درهم زيادة للغنم في طعام رمضان.

وصار يطبخ لها في رمضان بلحم كل ليلة، وأعرف في أيام الشيخ عبد الرحمن بن داود[٢٣] وهو يفرق لهم الأطعمة ما بين قمحية، وحب رمان ولبنية وغير ذلك ثم اقتصر على القمحية والعدس ليلة الجمعة.

ويطبخ لها ليلة العيد ثلاثة أطعمة: هريسة، ورزاً حلواً وطعاماً حامضاً، ولها أضحية في العيد الكبير، ويعطى كل من هو منزل بها ... وكان يطبخ لها جشيشة في الشتاء[٢٤].

ولها وقف على قمصان كل سنة لكل منزل فيها، وقد رأيناه وهو مستمر.

وعلى سراويل لكل منزل سروال، سمعنا به و لم نره.

وعلى أبشات كل سنة لكل منزل بشت[٢٥]، وقد رأيناه وهو مستمر.

وعلى فراء كل سنة لكل منزل بها فروة، سمعنا به ولم نره.

وعلى ختان من لم يكن مختوناً كل سنة، وهو عام في سائر فقراء الصالحية و أيتامها، رأيناه ثم انقطع[٢٦]، ووقف هؤلاء خارج عن وقف المدرسة.

ولها وقف لحلوى في موسم رجب، وحلوى في نصف شعبان، رأيناهما ثم انقطعت الثانية واستمرت الأولى.

وحلوى دهنية في كل شهر سمعنا بها ولم نرها.

ولها وقف زبيب وقضامة كل ليلة جمعة يفرق عليهم بها بعد قراءة ما تيسر رأيناه، ووقفه دكاكين تحت القلعة خارج عنها.

وزبيب في السنة مرة تحت يد ابن عبد الرازق[٢٧] خارج عن وقف المدرسة أيضاً.

---

(٢٣) الشيخ عبد الرحمن بن بكر بن داود شيخ زاوية جده بالصالحية، الزاوية الداودية، (ت ٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، ودرس بالعمرية، وعمّرها وتولى لنظرها. انظر: ابن عبد الهادي ، الجوهر المنضد، ص٦٣، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٩٩.

(٢٤) الجشيشة أو الدشيشة أو الجريشة: هي حساء بجريش القمح وهو ما طحن منه طحناً غليظاً. انظر: لسان العرب، مادة جشيش، ج ٢، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢٥) البشت: لباس يشبه المعطف القصير، ويلبسه الناس في الشتاء، وينتشر بين أهل المناطق الجبلية والقروية عموماً، وهو مصنوع من الصوف، حسن حمامي، الأزياء الشعبية وتقاليدها في سوريا، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٦، ص ١٦، وسيشار إليه فيما بعد: حمامي ، الأزياء الشعبية.

(٢٦) تشعر العبارة أن وقف الختان غير مقتصر على فقراء المدرسة بل يشمل أيتام و فقراء الصالحية عموماً انظر النعيمي، الدارس، ج٢، ص١١١، ينكر: (النازلين في المدرسة) بينما عبارة ابن طولون تجعله عاماً في أهل الصالحية.

(٢٧) هو ابن الديوان نفسه المار ذكره، انظر هامش (١٣).

ولهم حُصُر لبيوت المجاورين كل سنة وهي مستمرة.

وصابون لهم سمعنا به ولم نره.

وكعك سمعنا به ولم نره.

ومشبك بعسل[٢٨] في ليلة العشرين من رمضان، وهو مستمر، ولكنه أُخِّر إلى ليلة سبع وعشرين منه.

وكنافة ليلة العشر الأول منه، وهي مستمرة، ولكنها أخرت إلى ليلة النصف منه.

ولها وقف أطباق غسيل لغسيل الفقراء، ودسوت لطبيخهم، ودسوت كبار في المطبخ للطعام العام.

ومسقاة في قطع النهر لها أباريق للوضوء.

وسخانة يسخن فيها الماء في سائر الشتاء والبرد لغسل من احتلم ثم صار يغتسل فيها غالب أهل الصالحية، حتى أن الحمامات تكسد في أيامها.

ولم يزل أهل الخير والأكابر والأمراء والتجار يتفقدون أهلها بالمآثر.

ويزيد النعيمي في وقف المدرسة: (وقنديل يشعل طوال الليل في المقصورة للمدرسة مستمراً[٢٩].

وجاء تعقيب ابن طولون في نهاية النص المنقول عن ابن عبد الهادي مشعراً بتراجع أحوال المدرسة ووقفها أواخر الفترة المملوكية (.. وقد اضمحل حالها... وصار لا يخبز لها إلا في الشهر مرتين أو ثلاثاً وتهدم أغلب خلاويها ... فنسال الله أن يصلح حالها ولا يضيعها[٣٠]. إلا أن تراجعها استمر كما يبدو ونعرف ذلك من خلال ما ذكره ابن كنان عن تراجع أحوالها فيما بعد[٣١].

ويتبين لنا من هذا النص مدى تنوع أوجه الوقف وتعددها وشمولها، إذ تضمنت إطعام الطلبة والفقراء أنواع الأطعمة المختلفة من الخبز واللحم والحلوى وأنواع المآكل المختلفة، منها الدائم ومنها الموسمي المرتبط بمناسبات معينة، ومنها تامين مأوى أي الإنزال في خلاوي الطلبة والفقراء، ومنها تامين الملابس لكل النازلين في المدرسة من قمصان وسراويل والأبشات والفراء لكل من ينزل فيها. كما قدمت رعاية للفقراء والأيتام من غير الساكنين

(٢٨) نوع من الحلوى الشامية لا يزال موجوداً.

(٢٩) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١١٢.

(٣٠) ابن طولون، القلائد، ج١، ص ٥٧٠.

(٣١) ابن كنان، المروج، ص١٠٩ وما بعدها.

بها، فالختان الذي يرد في النص أنه: (عام في سائر فقراء الصالحية وأيتامها) وتعدى كل ذلك ليشمل تأمين الحُصر للبيوت و الصابون وأطباق الغسيل وأوعية الطبخ للمدرسة وللساكنين بها وأباريق الوضوء وسخانة لتسخين الماء لغاية الاستحمام بالشتاء .

كل هذه الخدمات ضمنها الوقف الذي خصصه أهل الخير لهذه المدرسة ومرتاديها والقائمين على أمورها. هذا الوقف الذي كان في أول أمرها كثيراً ومتوالياً، كما توحي نهاية النص الذي نقله ابن طولون عن ابن عبد الهادي وكما أوحت به بداية النص أيضاً (وقد اتسعت أوقاف هذه المدرسة وخيراتها وقلّ سنة من السنين تمضي إلا و يصير إليها فيها وقف)[٣٢].

ورغم هذا الوقف الكثير إلا أننا لم نحصل على وقفية واحدة من الأوقاف الكثيرة التي خصصت لها لأن هذه الوقفيات فقدت أو أخفاها بل أعدمها نظارها والمتولون على شؤونها حتى تسنى لهم اختلاس أوقافها من العقارات بشكل خاص[٣٣].

إلا أن دفاتر الأوقاف العثمانية تقدم للباحثين مادة جيدة عن أوقاف هذه المدرسة وغيرها من خلال إحصاء الوقف المدون في هذه الدفاتر والذي اعتمد معدّوه كما يبدو على وثائق سابقة، لأننا وجدنا من خلال إطلاع سريع على دفترين من دفاتر الأوقاف على مادة واسعة تذكر دائماً أسماء الواقفين وسنة الوقف والعقار الموقوف، مثل: (دفتر أوقاف ٥٨١، ودفتر أوقاف ٦٠٢)، التي تذكر أكثر من ٢٣ وقفاً على المدرسة العمرية وحدها، يعود أغلبه إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. وتقدم هذه الدفاتر دعوة جادة لمن يريد البحث في الأوقاف ودورها في المجتمع الإسلامي ليس في الفترة العثمانية فحسب بل وفي الفترات السابقة أيضاً.

وقد حفظ لنا إيوان المدرسة العمرية نقشا يمثل وقفاً من بين هذه الوقوف الكثيرة، ويعود تدوينه إلى سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م. وقد بين النقش إجراء إعادة تنظيم لبعض وقوف المدرسة وإلغاء بعض الوظائف الخاصة بالإشراف عليها، وتثبيت بعض الخدمات التي يعود نفعها للمنتفعين. ونظراً لأهمية وندرة النص ننقله بحرفيته: "بسم الله الرحمن الرحيم. في سنة إحدى وعشرين وثمان مئة حكم مولانا وسيدنا قاضي القضاة أبو حفص عمر ابن حجي الشافعي[٣٤]، الناظر في الأحكام الشرعية الشامية أعز الله أحكامه وأدام أيامه بإبطال ما

(٣٢) ابن طولون، القلائد، ج١، ص ٢٦٦.

(٣٣) انظر الحافظ، المدرسة العمرية، ص ٣٦٠.

(٣٤) أبو حفص عمر بن حجي بن موسى الدمشقي قاضي قضاة الشافعية، تولى قضاء دمشق سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م

أحدث من الوظائف والمعاليم على أوقاف مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر تغمده الله برحمته، بعد وفاة المرحوم قاضي القضاة شمس الدين بن التقي[٣٥] الحنبلي وهي: مشارفة الديوان، ومشارفة الرتب، وكتابة الغيبة على المشايخ القراء والمصدرين، ونقابة الفقراء وعمالة وقف القرماني وجباية كفر بطنا[٣٦]، والزيادة المحدثة في معلوم الأمانة والمحدث في تصدير[٣٧] علم الدين بن نوح[٣٨]، والتصدير المحدث باسم فخر الدين عثمان الحجيني[٣٩]، وإبقاء ما تجدد بإشارته الكريمة في مباشرة خادم الفقراء عبد الرحمن بن داوود[٤٠].

من زيادة الحلوى في نصف شعبان، وزيادة اللحم في شهر رمضان، وزيادة الأضحية من الأغنام والأبقار السمان. وتأبيد هذه الحسنة واستمرار جراية الخير في جميع السنة وزيادة البسط والتنوير. وذلك كله بعد عمارة المدرسة المذكورة، وتتمة أوقافها المبرورة. وأنفذ الحكم المذكور مولانا قاضي القضاة شهاب الدين ابن الحبال الحنبلي[٤١]، الحاكم بالشام المحروس، وأذن في نقش ذلك بالمدرسة المذكورة. ثم وقف قاضي القضاة نجم الدين المشار إليه[٤٢] وقفاً على ختان من لم يكن مختوناً بالمدرسة، وعلى زبيب وقضامة تفرق بها

ودرس في مدارسها، توفي مقتولا في دمشق سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م. انظر ترجمته: شمس الدين محمد بن علي ابن طولون الدمشقي الصالحي(ت ٩٥٣هـ/١٩٤٧م)، قضاة دمشق (الثغر البسام في نكر من ولي قضاء الشام) تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٥٦م، ص١٣٣-١٤٧. وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون الثغر البسام.

(٣٥) لم نتبين الاسم للبحث عن ترجمته.

(٣٦) كفر بطنا: من قرى غوطة دمشق من إقليم داعيه. ياقوت، معجم، ج٤، ص ٤٦٨.

(٣٧) التصدير: التدريس وسمي تدريس المحدثين المذكورين تصديراً، لأنهم يجلسون في صدر المجلس ومن حولهم الطلبة للاستماع.

(٣٨) هو علم الدين أبو الربيع سليمان بن نوح بن علم الدين سليمان الحجيني الحنبلي عمل في التدريس بمدرسة أبي عمر وتولى نيابة القضاء ولم يكن حسن السيرة في القضاء، توفي في الصالحية ت٨٢٢هـ/١٤١٩م، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٦٩؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٥٨-٢٥٩؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٦٩.

(٣٩) لم نعثر له على ترجمة

(٤٠) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود (ت٨٥٦هـ/١٤٥٢م)، كان معظماً عند الخاصة والعامة، توفي بالصالحية ودفن بزاوية جده. ابن عبد الهادي، الجوهر المنضد، ص٦٣.

(٤١) هو شهاب الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن يوسف بن الحبال الحنبلي، توفي (٨٦٦هـ/١٤٦١م). فقيه، مقرئ، محدث، عمل مدرساً بالعمرية، كان ورعاً متواضعاً، ويهتم بقضاء حوائج الناس، ولما توفي كانت جنازته مشهودة، ودفن بالروضة بالصالحية. ابن عبد الهادي، الجوهر المنضد، ص٦٤، السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٤٣.

(٤٢) يقصد بنجم الدين المشار إليه الشيخ أبو حفص عمر بن حجي بن موسى المذكور في مقدمة النقش. انظر: هامش ٣٤.

لمن يحضر قراءة السُّبع[٤٣] في ليالي الجمع، تقبل الله عمله وبلغه من الثواب أمله ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤٤] فمن غيّر ذلك أو سعى في نقض شيء منه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وذلك في شهر جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وثمان مئه. وصلى الله على سيدنا محمد واله وسلم)[٤٥].

ويلقي هذا النص الضوء على وجوه الوقف المختلفة وعلى تنظيمه إذ يتحدث عن إبطال بعض وظائف الإشراف على المدرسة وإعادة تنظيم وقفها بأمر القاضي الذي تولى قضاء دمشق سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، دون أن يحدد الوقت. ويفيد بنفس الوقت أن المدرسة كانت تقوم بنوع من رعاية الفقراء إضافة إلى التدريس، كما يفيد وقف الختان الذي ذكره ابن عبد الهادي وابن طولون فيما بعد. ويحدد نوع الأطعمة التي كانت تقدم ومواعيدها، كما يبين النقش ممارسة قراءة السبع أي قراءة القرآن في سبعة أيام بالمدرسة وخصص لذلك وقف خاص.

لكن حال هذه المدرسة لم يستمر فيما بعد، كما كان في عهدها الأول الذي وصف على لسان ابن عبد الهادي، ونفترض أن هذا الوصف الذي ذكرناه أعلاه يوافق فترة الازدهار الأولى للمدرسة، إذ جاء في أحداث سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، ما نصه (في جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وفد جماعة كثيرون من مدرسة الشيخ أبي عمر للنائب تحت القلعة يشكون إليه أمر تأخر القمح الذي للمدرسة، وهو مئة غرارة مرتبه لهم، ولم يصرفها لهم الصاحب، فأمر بضربهم فضرب كل منهم ضرباً مبرحاً)، وعلق بعضهم على الحادثة بقوله: وقد تألم الناس لذلك وخافوا على النائب...[٤٦]. وجاء على لسان ابن طولون فيما بعد انه في سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، أي بعد دخول العثمانيين دمشق ما يؤكد استمرار المشكلة إذ قال: (وقد ذهبت إلى السلطان مع جماعة من مدرسة الشيخ أبي عمر بصالحية دمشق ليشكون حالهم في قمح داريا والمال المرتب لهم في القلعة بسبب الطعام في رمضان فأمر مماليكه بضربهم بالعصا...فرجعنا خائبين)[٤٧].

---

(٤٣) يقصد بالسبع قراءة القران و ختمه كل اسبوع مرة أي قراءة السبع من القران كل يوم فيكتمل بعد أسبوع. قال ابن طولون: (وبها سبع يقرا كل يوم ... يختمون القران فيه كل اسبوع مرة)، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٦٤.

(٤٤) سورة البقرة، الآية رقم (١٨١).

(٤٥) انظر الحافظ، المدرسة العمرية، ص٣٦٠-٣٦١.

(٤٦) انظر الحافظ، المدرسة العمرية، ص٣٦٣.

(٤٧) شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث

ومن أوقاف العمرية أيضا عدة خزائن للكتب الموقوفة من أناس عدة ذكر بعضهم ابن طولون. وعندما يتحدث عن ديوان السبع في المدرسة يقول: (وبه قراء مرتبون يصرف عليهم من وقف خاص، وبهذا الوقف دراهم تفرق عامة على كل مستحقي المدرسة. وكان للمدرسة (٣٦٠) خلوة وهي مخصصة لإقامة الطلبة تعطل منها الكثير في أيام ابن طولون[٤٨].

هذه هي صورة عن أوقاف المدرسة العمرية والتي كما يبدو لم يماثلها أي وقف لأي مدرسة أخرى من مدارس الصالحية، فأما بقية المدارس فقد ذكر أثناء الحديث عنها بعض ما أوقف عليها، والمعلومات عموماً نزرة يسيرة بعكس ما رأيناه بالنسبة للعمرية.

ولنحاول الآن استكمال الصورة حول نشأة المدارس ووقفها في الصالحية:

- **المدرسة المعظمية**: أنشأها الملك المعظم عيسى (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦-١٢٢٧م)، وكان إنشاؤها سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، (وكان لهذه المدرسة أوقاف كثيرة من أراض وضياع ودكاكين عدا عن الأموال)[٤٩].
- **المدرسة المارداينية**: أنشأتها زوجة السلطان المعظم عيسى عزيزة الدين أخشا خاتون بنت صاحب ماردين سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وأوقفتها سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦-١٢٢٧م، وكان من أوقافها (بستان جوار الجسر الأبيض وبستان آخر جوار المدرسة وثلاثة حوانيت بالجسر الأبيض والحواكير جوارها)، ويذكر النعيمي أن وقفها هذا، ذكر في وثيقة تعود إلى سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م ونصت على أن لا يكون مدرّسها مدرّساً بمدرسة أخرى[٥٠].
- **المدرسة الشبلية البرّانية**: أنشأها شبل الدولة كافور الحسامي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م[٥١].

الزمان، جزءان، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢، ج٢، ص٢٠. وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان، وانظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٤٨) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤.

(٤٩) انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص ٢٠٤- ٢١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢١-١٢٢، ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري الحلبي (ت ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، (تاريخ مدينة دمشق)، ٣ج، ج٢، ٣، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المعهد الفرنسي – دمشق ١٩٦٢، ١٩٥٦، ج٢، ص٢٢٠. وسيشار إليه فيما بعد: ابن شداد، الأعلاق، انظر: شميساني، مدارس دمشق، ص١٥٨.

(٥٠) انظر ابن شداد، الأعلاق، ج٣، ص٢٢٧ ؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص ٥٩٢؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص١١١-١١٣.

(٥١) ابن شداد، الأعلاق، ج٢، ص٢٧٧، ابن كثير، البداية و النهاية، ج١٣، ص ١١٦ ؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٣٠، ، ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٩٤ .

- **المدرسة الضيائية المحمدية**: أنشأها ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الشهير بالضياء المقدسي، أنجزها سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، وتوفي سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م وتسمى (دار السنة أو دار الحديث الضيائية). وقد وقف ضياء الدين المقدسي منشؤها عليها كتباً كثيرة بخطه بخزانة المدرسة التي أوقفها على أصحابهم من أهل الحديث والفقهاء أي على الحنابلة، وقد وقف عليها أوقافاً كثيرة بعد ذلك. وذكر ابن طولون أوقافها بقوله: (الوقف على هذه المدرسة غالب دكاكين السوق الفوقاني وحوانيت وجنينة في النيرب وأرض بسقبا ويؤخذ لأهلها ثلث قمح ضياع وقف دار الحديث الأشرفية بالجبل، وهي الدير والدوير والمنصورة والتليل والشرقية (الشبرقية)[٥٢].
- **المدرسة الضيائية المحاسنية**: أنشأها ضياء الدين محاسن بن عبد الملك (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، وذكر ابن طولون أن ابن عبد الهادي لم يعرفه[٥٣].
- **المدرسة البهنسية**: أنشأها المجد البهنسي ت ٦٢٨/ ١٢٣٠-١٢٣١م وهو القاضي مجد الدين الحارث بن المهلب بن حسن المهلبي المصري، ودفن بتربته (وجعل كتبه بها وقفاً عليها، وأجرى على المدرسة والتربة أوقافاً حسنة دارّة[٥٤].
- **المدرسة الركنية البرانية**: أنشأها ركن الدين منكورس (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م)، وأوقفها سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م. وكان قد أوقف عليها أوقافاً كثيرة وعمل بها تربة ودفن بها[٥٥].
- **المدرسة العلمية**: أنشأها علم الدين سنجر المعظمي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م.
- **المدرسة الميطورية**: أنشأتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م.
- **المدرسة الصاحبية (الصاحبة)**: أنشأتها ربيعة خاتون بنت نجم الدين أخت الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، ويقول ابن طولون (الذي علم الآن من وقفها غالب قرية جبة عسال والبستان الذي تحت المدرسة والطاحون

---

(٥٢) النعيمي، الدارس، ج١، ص٧٢-٧٣، ٧٦؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٣٩، انظر ص١٣١-١٣٢؛ انظر عبد الله محمود حسين، الإسهام العمراني والعلمي لبني قدامة في الشام، دار التميز، دمشق، ١٩٩٥م، ص٧٣، وسيشار إليه فيما بعد: حسين، الإسهام العمراني. والنيرب وسقبا من قرى الغوطة.

(٥٣) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٤٦-٢٤٧

(٥٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٠؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٨٩، وقال أنها كانت خربة في أيامه، ج١، ص١٩٠.

(٥٥) ابن كثير، البداية و النهاية، ج١٣، ص١٤١، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٩٥-٩٦.

وحاكورة وغالب تلك الحارة جوارها)[٥٦]. ويرى ابن عبد الهادي أن وقف هذه المدرسة كان يسيراً لأن واقفتها بنت المدرسة أولاً، ولما انتهى البناء (لم يبق معها إلا اليسير فاشترت به وقفاً يسيراً).

- **المدرسة الاتابكية**: أنشأتها تركان خاتون (ت٦٤٠هـ / ١٢٤٢م)، أخت أرسلان اتابك الموصل زوجة الملك الأشرف موسى بن العادل (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م). قال ابن طولون: (كان وقفها مدرستها وتربتها بالجبل) وقفتهما على أصحاب الشافعي[٥٧].
- **المدرسة العزيزية**: أنشأها الملك العزيز عثمان بن الملك العادل سيف الدين سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م، وتوفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م. من وقفها قرية كتيبة، يقول ابن طولون وهو يتحدث عن أحد مدرسيها: (توفي بقرية كتيبة وقف المدرسة العزيزية)[٥٨].
- **المدرسة البدرية**: أنشأها الأمير بدر الدين أخي نور الدين، من أوقافها (نصف الحمام بقرية مسنون والبستان بقرب جسر كحيل)، قال ابن كثير: (كذا رأيته مكتوباً على عتبتها)[٥٩].
- **المدرسة اليغمورية**: أنشأها الأمير جمال الدين موسى بن يغمور (ت ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م).
- **المدرسة المرشدية**: أنشأتها خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى سنة٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، (ولها وقف مزرعة القابون و بساتين بالصالحية)[٦٠].
- **المدرسة القاهرية**: أنشأها الملك القاهر اسحق بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في حدود سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م[٦١].
- **المدرسة الجمالية**: أنشأها جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن إبراهيم المعظمي سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م[٦٢].
- **المدرسة الحاجبية**: أنشأها الأمير ناصر الدين محمد بن المبارك الحاجب سنة

(٥٦) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٦٧ ؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦، ٢٣٦، عبد الله محمود حسين، الاسهام العمراني، ص٨٥.

(٥٧) ابن كثير، البداية و النهاية، ج١٣، ص١٦١، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٩٦، ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٠٢، ١٦٥..

(٥٨) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٥٩) ابن كثير، البداية و النهاية، ج١٣، ص٨١.

(٦٠) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٢٩-٢٣٤، انظر شميساني، مدارس دمشق، ص٢٥٣.

(٦١) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٦٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٥.

٨٧٨هـ / ١٤٧٣م (وكان فيها خانقاه ومكتب الأيتام)[٦٣].

- **دار الحديث النظامية (المدرسة النظامية)**: أنشأها القاضي نظام الدين أبو حفص عمر بن إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م)[٦٤].
- **المدرسة الدلامية (الدلائية)**: أنشأها أبو العباس أحمد بن زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله البصري (ت٨٥٣هـ / ١٤٤٩م)، كان أحد الأعيان بالشام إلى جانب داره وأوقفها في سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م. قال النعيمي: (وفيها تربة الواقف كما رأيته في كتاب وقفها[٦٥] وذكر ابن طولون وقفها بقوله: (ورتب لها إماماً وله من المعلوم مائة درهم، وقيّماً وله مثل الإمام، وستة أنفار من الفقراء الغرباء المهجرين في قراءة القران ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر. ومن شرط الإمام الراتب أن يتصدى شيخاً لإقراء القران للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهماً، وستة أيتام لكل منهم عشرة دراهم كل شهر. وقرر لهم شيخاً وله من المعلوم ستون درهماً في كل شهر، وقراءة بخاري في الشهور الثلاثة وله من المعلوم مائة درهم وعشرون درهماً، وناظراً وله من المعلوم ستون درهماً، وعاملاً وله من المعلوم في كل سنة ستمائة درهم. ورتب للزيت في كل عام مثلها، وللشمع لقراءة البخاري والتراويح مئة درهم. ولأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلوى، ورأسا غنم أضحية. ولكل من الأيتام جبة قطنية وقميص، كذلك ومنديل. وقرر قارئ ميعاد في يوم الثلاثاء من كل اسبوع وله في الشهر ثلاثون درهماً. وشرط على أرباب الوظائف حفظ حزب في الصباح والمساء لابن داود يقرؤونه عقب صلاة الصبح والعصر، وأن يكون الإمام هو قارئ البخاري والقارئ على ضريح الواقف)[٦٦]. ويلاحظ هنا التشابه في مبدأ صرف الأوقاف وتخصيصها كما صار في وقف المدرسة العمرية سابقاً.
- **المدرسة الأسعرتية (الأسعردية)**: أنشأها سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م، إبراهيم بن مبارك

---

(٦٣) المصدر نفسه، ج١، ص٩٩-١٠١-١٠٢.

(٦٤) ورد اسمها لدى ابن طولون عرضاً أثناء ذكره لمساجد الصالحية (... مقابل المدرسة النظامية)، القلائد، ج١، ص٣٥١، حسين، الاسهام العمراني، ص٤٨-٤٥.

(٦٥) النعيمي، الدارس، ج١، ص٨-٩.

(٦٦) انظر: ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٢٥، النعيمي الدارس، ج١، ص٨-٩. والقيم هو المؤذن والبواب. أما الميعاد الوارد ذكره في النص فهو الذي يقرأ درس الحديث أو الواعظ في المدرسة وهو مصطلح وجد في العصر المملوكي، أطلق على درس الحديث أو الوعظ، إذ لم يكن متتابعاً كأن يكون مرة في الأسبوع أو مرتين، انظر هامش (١) ابن طولون، ج١، ص١٢٥.

الأسعردي (المتوفى سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م). وتعرف بمدرسة الخواجا إبراهيم، وكانت تشتمل على خلاوي للقراء، ومكتب للأيتام. قال النعيمي وهو يتحدث عنه: (عمّر المدرسة المشهورة على الجسر الأبيض وتأنق في بنائها وعمل بها تربة ورتب بها فقراء ومقرئة يقرؤون القران)[٦٧].

- **دار الحديث العالمة (مدرسة العالمة)**: أنشأتها أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي، توفيت سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، وهي التي أرشدت ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين لوقف المدرسة الصاحبة المار ذكرها. وكانت فاضلة لها تصانيف. أما وقفها فكان (الوقف عليها البستان بجسر البط (البطة) والغيضة (الغيطة) وحكر ابن صبح عند الشامية البرانية). وخربت أيام ابن طولون إلا أن أحد الشيوخ (أسكن فقراءه بخلاويها العامرة)[٦٨].
- **دار الحديث القلانسية**: أنشأها عز الدين أبو يعلى حمزة بن القلانسي (ت٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م)[٦٩].
- **دار الحديث الناصرية البرانية (المدرسة الناصرية)**: وبها رباط الناصري، أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م أو ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)[٧٠].
- **دار الحديث الأشرفية البرانية**: أنشأها الملك الأشرف موسى بن الملك العادل (ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م). وقرر لشيخها عبد الله بن عبد الغني المقدسي معلوماً لكن الشيخ توفي سنة (٦٢٩هـ/ ١٢١٣م)، قبل إنجاز المدرسة (خصص لها الملك الأشرف أوقافاً عديدة منها خمس ضياع بالبقاع وهي الدير والدوير والمنصورة والتليل الشرقية (الشبرقية) وبيت ابن النابلسي المعروف بابن الكشك والجنينة وحكر حارة الجوبان)[٧١]. وهذا الوقف يذكر بوقف المدرسة الضيائية المحمدية المار ذكرها، فقد كانت هذه الأوقاف قد اشتركت فيها المدرستان الأشرفية والضيائية المحمدية وكلاهما مدارس للحديث (السنة) كما ذكر ابن طولون صراحة .

---

(٦٧) النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٨، ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٢٧-١٢٨.

(٦٨) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٨٧-٨٨، ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٤٠-١٤٢، عبد الله محمود حسين، الاسهام العمراني، ص ٧٤.

(٦٩) ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٤٣.

(٧٠) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٦-١٤٨.

(٧١) النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٦، ٤٢، (الشرقية، ابن الشكل)، ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٥٥، ص١٦٤.

- **المدرسة الجركسية (الجهاركسية)، الشركسية**: أنشأها فخر الدين الصلاحي جهاركس (ت ٦٠٨هـ / ١٢١١م)، (وكان لها أوقاف هي ثلث ونصف قرية بيت سوى (من قرى الغوطة) واثنا عشر سهماً والثلث من المزرعة؟)[٧٢].
- **المدرسة المقدمية البرانية**: أنشأها الأمير إبراهيم بن المقدم (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، وقد حاول ابن طولون الحصول على كتاب وقفها للاطلاع عليه دون جدوى[٧٣].
- **المدرسة الشيرازية**: ولم يرد ذكر من بناها أو أوقفها وقال ابن طولون: أنها اندثرت في أيامه[٧٤].
- **المدرسة الأمدية**: أورد ابن طولون على لسان أحد نظارها أنها تربة ثم علق قائلاً: (ولعلها مدرسة بها تربة وقصد بها التمويه عنها خوفاً من الفقهاء على وقفها)[٧٥].

جوامع الصالحية ومساجدها:

أقيمت في حي الصالحية منذ البداية المساجد والجوامع، إذ ذكرت بعض المصادر كابن عبد الهادي وابن طولون والنعيمي الكثير من المساجد في الصالحية، أما المساجد التي يذكرها ابن عبد الهادي في (ثمار المقاصد) فتصل إلى (١٥٧) مسجداً[٧٦]، وقال عن بعضها: (ليس له سقف)، وعن مسجد الصاحبة (وقف على الحنابلة)[٧٧]، وعن مسجد قبيس (عليه وقف كثير وبه قراء أيتام)[٧٨]، وذكر مسجد باسمين (مسجد ناصر الدين ويقال له مسجد عز الدين لأنهما اشتركا في عمارته)[٧٩].

وقال مجملاً حديثه عن مساجد الصالحية: (غالب مساجد الصالحية للحنابلة إلا جامع

---

(٧٢) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٠٨-٢١١.

(٧٣) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢١٥-٢١٦.

(٧٤) المصدر نفسه ، ج١، ص٢٤٩.

(٧٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٣-١٩٤.

(٧٦) جمال الدين يوسف بن عبد الهادي القرشي العمري الدمشقي الصالحي الملقب بابن عبد الهادي (ت٩٠٩هـ / ١٥٠٣م)، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق محمد أسعد طلس، نشر المعهد الفرنسي بدمشق-النصوص الشرقية -٣- طبع مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد.

(٧٧) المصدر نفسه، ص١٤٩.

(٧٨) المصدر نفسه، ص١٤٩-١٥٠، انظر ص١٥٣.

(٧٩) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص١٥١. ولمساجد الصالحية لدى ابن عبد الهادي، انظر: ثمار المقاصد، ص١٤٨-١٥٨. ولم نر فائدة من ذكر أسماء المساجد لخلو الكتّاب من ذكر بنائها أو واقفيها ونذر أن نكر أي معلومات وقفية إلا ما أشرنا إليه.

الشبلية والجامع الجديد ومدرسة ابن مبارك والمدرسة الركنية ومدرسة الخواجا إبراهيم، والدلامية والعزية ومسجد ابن القونسي)، أي أن كل المساجد عدا هذه وأغلبها مرتبط بمدارس ذكرناها أعلاه، فإنها لغير الحنابلة[٨٠].

أما ابن طولون فانه يتحدث عن المساجد في الصالحية، ويبدأ حديثة بالقول: (إنها كثيرة لا يمكن حصرها)، لكنه يعدد منها "٧٣" مسجداً، دون ذكر منشئيها أو واقفيها، ولذلك لم نجد فائدة في استعراض أسمائها، لكنه يذكر أحياناً موقعها و تغير أسماء بعضها[٨١].

ويلفت الانتباه حديثه عن أول مساجدها الذي يسميه مسجد عز الدين وناصر الدين، أي أنه ينسبه لشخصين لأن الأول أنشأه، والثاني وسعه فنسب إليهما، ولكن الأهم من ذلك أنه يقول عن هذا السجد: (أنه مقابل للباب الغربي لمدرسة أبي عمر فانه قبلها بل وقبل الصالحية أيضاً)[٨٢]، وهذه إشارة بالغة الأهمية إذ تعني أن أصل المسجد كان قبل بناء حي الصالحية نفسه، وهو الذي كان يصلي فيه الشيخ أحمد بن قدامة، رأس آل قدامة المهاجرين إلى دمشق، في أول أمره ومجيئه إلى الصالحية مما يعني أن المنطقة لم تكن مهجورة بالكلية عندما جاء إليها هو وجماعته ليتخذوها داراً لهم. وقد قام نور الدين زنكي بإعانته على إصلاح وترميم هذا المسجد لما رأى حاجته لذلك[٨٣].

أما جوامع الصالحية:

فتذكر المصادر أنها ثمانية، أولها بناء وأكثرها شهرة هو جامع الجبل الذي عرف تحت أسماء عدة هي: جامع الحنابلة، وجامع الصالحية، وجامع المظفري، وجامع قاسيون، فإن هذا الجامع الذي تعددت أسماؤه هو المسجد الجامع الأول الذي أقيم في الصالحية. شرع ببنائه الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م وانتهى من بنائه ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، عندما صار أول جامع للجمعة في الصالحية فأنجزت الصالحية بذلك أهم مقومات استقلالها عن دمشق القديمة المسورة. وهذا يعني أن أهالي الصالحية استمروا حوالي نصف قرن دون مسجد جامع. والشيخ قد بدا بناءه على نفقة أحد أهل الخير، فلما بلغ البناء مقدار قامة نفد ماله، فأرسل الملك المظفر كوكبوري بن زين الدين علي

---

(٨٠) ابن عبد الهادي ، ثمار المقاصد، ص ١٥٩.

(٨١) انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٢٧٩-٢٨٢، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٤٨-٣٥٨.

(٨٢) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٤٩.

(٨٣) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٤٩، انظر أيضاً ص ٢٥٢-٢٥٣.

كجك المتوفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م صاحب أربيل مالاً جزيلاً لإتمامه، وأرسل كذلك ألف دينار لسَوق الماء إليه. ومن هنا جاءت تسمية الجامع بالمظفري نسبة إليه. ثم حفر للجامع بئراً وأوقف عليه وقفاً لذلك (وكانت تكاليف إتمامه ثلاثة آلاف دينار، لإتمام العمارة وما فضل من ذلك يشتري له وقف ويوقف عليه)[٨٤].

- جامع الافرم: أنشأه نائب السلطان جمال الدين الأفرم، واكتمل بناؤه سنة (٧٠٦هـ / ١٣٠٦م)، ورتب فيه خطيباً يوم الجمعة[٨٥].
- جامع الركنية: أوقفه باني المدرسة الركنية[٨٦]، أوقف الجامع وجعل للمدرسة والجامع أوقافاً كثيرةً، وأنجز ذلك سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م[٨٧].
- جامع الحاجبية: أنشأه الأمير ناصر الدين بن محمد بن مبارك ٨٧٨هـ / ١٤٤٤م، باني المدرسة الحاجبية وأوقفه مع المدرسة[٨٨].
- جامع الجديد: أوقفته زوجة نور الدين زنكي ابنة حاكم دمشق الذي تغلب عليه نور الدين، وهي عصمة الدين بنت معين الدين اتز (أنر) زوجة نور الدين ثم صلاح الدين من بعده. توفيت سنة٥٨١هـ / ١١٨٥م، (وهي واقفة الخاتونية الجوانية وخانقاه خاتون... ولها أوقاف كثيرة غير ذلك)[٨٩]. وهو نفسه جامع علم الدين سليمان بن حسين العقري التاجر؛ لأن أصله تربة، وجعل العقري هذه التربة جامعاً بخطبة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م، وكان اسمه وتاريخ بنائه على باب الجامع أيام ابن طولون[٩٠].
- جامع المردانية: واشتهر بالمدرسة المارداني المار نكرها، وأنشأتهما معاً زوجة الملك المعظم عيسى عزيزة الدين أخشا خاتون وأوقفتها سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م[٩١]. وتوجد إلى جانب المدرسة والجامع تربة دفن فيها آسنك بن ازدمر المتوفى سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م؛ لأن واقفتها لم تدفن فيها، فاشترى أخوه الأمير آسبك بن ازدمر (وقفاً ووقفه

(٨٤) انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٣٥-٣٣٦، و انظر ابن كنان، المروج، ص٣٧، ٤٤، ٤٥-٤٧، ٥٣، ٥٨، ٨١-٨٣-٨٥، ٨٨-٨٩. الجزء الخاص بجامع المظفري والافرم بعده، ضائع من كتاب القلائد الجوهرية، لابن طولون.

(٨٥) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٣٣٥.

(٨٦) انظر المدرسة الركنية أعلاه.

(٨٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٤١.

(٨٨) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٩٩-١٠٣.

(٨٩) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٣-١٠٥، ١٠٦، ١٠٩-١١٠.

(٩٠) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٩ هامش رقم (٤).

(٩١) انظر المدرسة المارديني. ونكرت أوقافها هناك.

على مقرئين يقرؤون على تربته، واشترى للمدرسة بسطاً ... وعمل أسمطة ومدت هناك)[٩٢].

- جامع النحاس: أنشأه الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسين بن النحاس ونسب إليه. وقد انقطع إلى مسجده نحواً من ثلاثين سنة، ولما توفي ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م دفن عند مسجده الجامع بتربة مشهورة به[٩٣].
- جامع الشيخ محيي الدين بن عربي: وهو الذي صار يعرف فيما بعد بجامع الخنكار، والخنكار كلمة فارسية استعملت هنا بمعنى السلطان، لأن السلطان سليم وسعه. وكان قبل ذلك تربة فحولت إلى جامع سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م[٩٤].
- وعندما تحدث ابن طولون عن المساجد ذكر معها في نفس الفصل الرباطات (المساجد والرباطات)[٩٥]. وعرف النعيمي الرباط بأنه: (المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة)[٩٦]. وقال عنها المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م): إنها دار يسكنها أهل طريق الله وهو بيت الصوفية ومنزلهم، ويعيد أصله إلى أيام رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عندما اتخذ للفقراء الصوفية مكاناً في مسجده[٩٧]. أما ابن طولون فقال في تعريفه أن الرباطات أو الأربطة (معدة للعجائز والنساء والأرامل)[٩٨]. وهي مرتبطة بالمدارس أو المساجد والترب غالباً، لذا ذكرناها ههنا بعد الحديث عن المدارس والمساجد وذكر منها: ستة عشر رباطاً. زاد عليها النعيمي رباط التكريتي (كان رباطا وتربة)، كما ذكر رباطين آخرين[٩٩]، فتصبح الأربطة في الصالحية تسعة عشر رباطاً. ويمكن أن نقول أن المسجد والتربة والرباط والمدرسة وجدت بشكل متكامل في عين المكان ويكون منشؤها غالباً هو من ينشئ المدرسة أو المسجد.
- أما الترب في الصالحية والزوايا والخانقاوات وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً في المدارس

(٩٢) ابن طولون، القلائد، ج١، ص١١٢-١١٣.

(٩٣) ابن كثير، البداية و النهاية، ج١٣، ص١٥٢، حوادث سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، النعيمي، ج٢، ص٣٤٠.

(٩٤) ابن طولون، القلائد، ج١، ص١١٤-١١٥-١١٦.

(٩٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣٤٨.

(٩٦) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٥٢؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٤٨.

(٩٧) تقي الدين أبو العباس احمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مجلدان، طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م. اوفست دار صادر، بيروت، ج٢، ص٤٢٧، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، الخطط.

(٩٨) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٥٩-٣٦٠، انظر ص ٢٨٣.

(٩٩) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥٠-١٥٢.

والمساجد. فرأينا إدراجها هنا لاستكمال الصورة عن الوقف ودوره. ونود ابتداءً قبل الحديث عن هذه المنشآت أن نبدأ بتعريفها. فالترب تعني في الأصل المقابر مفردها تربة أي مقبرة، وهذه لا تعنينا هنا، وما يعنينا هو التربة بالمعنى الذي اكتسبه هذا المصطلح منذ القرن السادس، وانتشر في القرنين السابع والثامن عندما صارت الكلمة تعني اصطلاحا القبر الذي يبنى فوقه قبة، كثيراً ما يبنى إلى جانبها مدرسة أو مسجداً أو مكتبة أو تبنى هي أي القبة على القبر إلى جانب المدرسة والمسجد، ويلحق بها مكتب أيتام، وتوقف عليها الأوقاف الخيرية لتمويل المنشاة إلى جانب التربة. وهذا ما أراده ابن طولون عندما كتب فصلاً عن الترب في الصالحية، وقصد بها القبة التي تبنى فوق القبر وملحقاتها[١٠٠].

- أما الزوايا والخوانق أو الخانقاوات: فهي منشآت دينية، وتشكل مراكز للصوفية ووصفت بأنها(محدثة في الإسلام في حدود الأربعمائه من سني الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى) كما يقول المقريزي وهو يتحدث عن الخوانق[١٠١].
- وقد ذكر ابن طولون الترب العامة، وقال إن أول تربة في الصالحية هي للشيخ أبي عمر، ولكنها تأتي هنا بمعنى المقبرة؛ لأنه اشترى مكانها (ووقفها عليه وعلى نريته) وهي وإن كانت موقوفة وقفاً نرياً، فقد دفن فيها من هو ليس من نريه أبي عمر[١٠٢]، ومع أنه يذكر بعض الترب العامة إلا أنها خارج اهتمامنا هنا. لأننا نريد الحديث عن الترب بالمعنى الاصطلاحي الذي ذكرناه أعلاه. وهو ما ذكر لدى ابن طولون تحت عنوان (الترب الخاصة بالصالحية)[١٠٣].
- وقد رأينا من الفائدة ذكر هذه الترب في الصالحية؛ لأنها معروفة الواقفين وزمن الوقف غالباً، وذلك تنويهاً بدور الوقف باعتبارها من الملحقات التابعة للمدارس، وتقوم بمهام المدارس أحياناً كثيرة، كما وجد فيها وقف لمكتبات في كثير من الأحيان وعددها (٦٥) تربة. نذكرها هنا مع ذكر واقفيها:
- التربة الأسدية: تنسب لعلي بن عبد القادر أبو الحسن القرشي الأسدي (ت٦٢٨هـ / ١٢٣٠م).

---

(١٠٠) انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص٦٣٥-٦٣٦، تعليقات المحقق محمد أحمد دهمان.

(١٠١) المقريزي، خطط، ج٢. ص٤١٤، انظر النعيمي، الدارس، ج ٢، ص٢٥٢ .

(١٠٢) ابن طولون، القلائد، ج٢، ص٥٩٣ -٥٩٤.

(١٠٣) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٠٨.

- التربة الآيدمرية: تنسب للأمير عز الدين أيدمر (ت ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م).
- التربة البزورية: تنسب لأبي بكر بن البزوري محفوظ بن معتوق البغدادي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٦م).
- التربة البهنسية: تنسب للمجد البهنسي صاحب المدرسة البهنسية (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م).
- التربة البهائية: تنسب لبهاء الدين الحلبي محمد بن سليمان بن فهد (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م).
- التربة التكريتية: تنسب لأبي البقاء توبة بن علي بن مهاجر التكريتي (ت٦٣٤هـ / ١٢٣٦م).
- التربة الجمالية الأسنائية: تنسب لعبد الرحمن بن علي بن الحسين الأموي الأسنائي (ت٦٢٥هـ / ١٢٢٧م).
- التربة الخاتونية: تنسب لعصمة الدين ربيعة خاتون زوجة نور الدين، وبعده صلاح الدين صاحبة المدرسة الصاحبية. (انظر المدرسة الصاحبية)
- التربة الاستديارية: تنسب لشمس الدين بن استديار (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م).
- التربة الدوباجية: عملت لشمس الدين دوباج من بلاد العجم بعد أن توفي وهو عائد من الحج سنة ٧١٤هـ / ١٤١٣م[١٠٤].
- التربة البلبانية: تنسب للأمير سيف الدين بلبان (ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م).
- التربة الحافظية: تنسب لخاتون آرغون سميت بالحافظية لخدمتها لأحد أصحاب قلعة جعبر[١٠٥] (ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م).
- التربة الخطابية: تنسب لأمير عز الدين خطاب بن محمود. وكان من أصحاب الأموال والأملاك (توفي سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م).
- التربة الزاهرية: تنسب للزاهر مجيد الدين داود بن شيركوه من أمراء بني أيوب، دفن فيها حفيده الأمير شادي الملك بن تقي الدين بن الزاهر مجيد الدين المتوفى سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م. ودفن فيها قبله أمير أيوبي آخر هو مظفر الدين موسى ابن الزاهر داود سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م.

---

(١٠٤) انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص١٩١، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣١٦-٣١٧.

(١٠٥) قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديما تسمى دوسر والمقصود بالحافظية نسبة إلى الملك الحافظ بن العادل أبي بكر بن أيوب الذي كان صاحبها أيام ياقوت، انظر ياقوت، معجم، ج٢، ص١٤٢.

- التربة السودونية: تنسب إلى سودون النوروزي حاجب الحجاب وأمير التركمان بدمشق المتوفى سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م.
- التربة الشهابية: يذكر ابن طولون أنها كانت موجودة سنة ٨٢٩هـ / ١٤٠٦م، إذ توفي (ناظر التربة الشهابية بالصالحية)[١٠٦].
- التربة السنقرية: تنسب للأمير مبارز الدين سنقر الحلبي توفي سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م. لكنه لم ينشئها بل اشتراها له أحد أصدقائه بعد وفاته. كان من كبار رجال الدولة بحلب، وكان من الأمراء الصلاحية، وله مواقف كثيرة مشهورة فلم يكن بين أقرانه من هو أكرم ولا أشجع منه[١٠٧].
- التربة السلامية: تنسب لناظر الجيش قطب الدين موسى بن أحمد بن شيخ السلامية توفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م.
- التربة الصارمية البرغشية العادلية: تنسب لصارم الدين برغشي العادلي نائب القلعة بدمشق توفي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م.
- التربة العزية الحلبية: كانت إلى جانب مسجد منسوب لنفس الشخص وهو عز الدين الحلبي عبد العزيز بن منصور بن محمد بن وداعة تولى شد الدواوين بدمشق وتوفي سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م.
- التربة العمادية: وهي أول تربة بنيت بالصالحية وتنسب إلى أحد أمراء نور الدين وصاحب بعلبك توفي سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م.
- التربة العزية البدرانية الحمزية: تنسب لحمزة بن موسى بن أحمد بن الحسين بن بدران عز الدين المعروف بابن شيخ السلامية، توفي سنة ٧٦٩هـ / ١٣٢٨م. (ووقف درساً بتربته في الصالحية وكتباً وعين لذلك شيخاً).
- التربة العادلية: تنسب لمتولي حماة الملك العادل زين الدين كتبغا (ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)، الذي كان قد تسلطن بمصر لمدة عامين ثم خلع سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، فالتجأ إلى صلخد (صرخد) ثم أعطي حماة، (وكان له عليها أوقاف دارّة على وظائف من قراءة وآذان وإمامة)[١٠٨].

---

(١٠٦) انظر النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٩٧، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٢١.

(١٠٧) انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣١٩.

(١٠٨) النعيمي. الدارس، ج٢، ص٢٠١-٢٠٢، ابن طولون القلائد، ج١، ص٣٢٥-٣٢٦. وصلخد أو صرخد: قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة من أعمال دمشق. انظر ياقوت، معجم، ج٣، ص٤٠١.

- التربة الغرلية: تنسب لسيف الدين غرلو العادلي أحد مماليك العادل (ت٧١٩هـ/ ١٣١٩م).
- التربة القيمرية: تنسب لسيف الدين القيمري صاحب المارستان بالصالحية، كان من مشاهير أبطال الأمراء المماليك (ت ٧٥٣هـ/١٣٥٢م).
- التربة العزية الآيبكية الحموية: تنسب للأمير عز الدين آيبك الحموي نائب دمشق وصرخد وحمص توفي سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م.
- التربة القمارية: تنسب لقماري خاتون بنت حسام الدين الحسن بن أبي الفوارس القيمري، وكانت قد أوقفت أيضاً الخان الذي بمسجد القصب، توفيت سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م.
- التربة الكندية: تنسب لتاج الدين أبي اليمن الكندي، وهو زيد بن الحسن بن زيد الكندي توفي بدمشق سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م.
- التربة الكاملية الصلاحية البرانية تنسب للحاج إبراهيم الصالحي، ويذكر ابن طولون أسماء ثلاثة من أبنائه دفنوا بهذه التربة في أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[١٠٩].
- التربة المحمدية الأمينية العيشية الأنصارية: تنسب للشيخ أمين الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي العيش الأنصاري (توفي سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م. (وعمر تحت الربوة مسجدا وطهارة وانتفع الناس بذلك)[١١٠].
- التربة النشابية: تنسب لابن النشابي عماد الدين حسن بن علي (ت ٦٩٩هـ/١٢٩٩م).
- التربة الدخوارية: تنسب لمهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الطبيب المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق، خدم الملك العادل فولاه رئاسة الأطباء بمصر والشام، توفي سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م-١٢٣١م.
- التربة القرشية: تنسب للحاج عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن طعم القرشي، وأوقفها سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨-١٢٥٩م وتوفي بعد وقفها بقليل.
- التربة المهرانية: أنشئت للشهيد فتح الدين أبي طالب حسن بن عبد الله المهراني (ت ٥٦٨/ ١١٧٢م).
- التربة الصيرفية: تنسب لجمال الدين إبراهيم بن محمود الصيرفي توفي سنة ٦٤٤هـ/

(١٠٩) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٢٨-٣٢٩.

(١١٠) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٣٠.

١٢٤٦م.

- التربة السراجية: تنسب لعلي بن عبد الله السراج توفي ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م.
- التربة المثقالية: أنشأها المجاهد أبو سعيد مثقال بن عبد الله الناصري المعظمي حوالي سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م.
- التربة الآيبكية: أنشأها الأمير عز الدين آيبك بن عبد الله الصالحي حوالي ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م. (كان لها أوقاف كتبها واقفها على باب شباكها القبلي)[١١١].
- التربة الفاطمية: وبها مسجد أنشأتها فاطمة بنت السنقر الطغوسي توفيت سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م.
- التربة المنيعية: أنشئت لشخص توفي شابا اسمه إسماعيل بن منيع المعظمي توفي سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م.
- التربة الخواجكية: أنشأها محمد بن علي الصالحي الشهير بابن الحارة توفي سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م.
- التربة الساوية: أنشأها الأمير شهاب الدين محمد بن أبي بكر بن حسين الساوي توفي سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م.
- التربة المظفرية: أنشأها شمس الدين مظفر بن أيوب نقيب قلعة دمشق توفي ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م.
- التربة المحمودية: أنشأها العفيف محمود بن موسى بن هداية الله العجمي توفي سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م.
- التربة التاجية: أنشأها تاج الدين محمود بن كامل التفليسي وتوفي ٧٠٤هـ/ ١٣٩٤م.
- التربة الستية: أنشأتها ست العراق ابنة الشجاع الملكي الناصري لولدها محمد في سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م.
- التربة الطغريلية: أنشأها شجاع الدين طغريل بن حيدر الملكي الناصري المتوفى سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧-١١٩٨م.
- التربة الظهيرية: أنشأها ظهير الدين الطونبا بن عبد الله ت ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م.
- التربة الأيديكنيه: أنشأها الأمير بدر الدين داود بن أيدكين الصالحي متولي قلعة بصرى توفي ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م.
- التربة الكرمانية: أنشئت لأبناء عبد الخالق كرمان توفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م.

(١١١) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٣٤. وهي غير العزية الآيبكية المار نكرها سابقاً.

- التربة العبيدية: أنشأها عبد الرحمن بن احمد بن عبيد سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧-١٣٢٨م.
- التربة الدمانيسية: وكانت تعرف أيام ابن طولون بتربة الشرفا وبها مسجد. أنشأها صدر الدين حميد بن علي الدمانيسي توفي ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م[١١٢].
- التربة الكجكرية: أنشأها كجكر بن عبد الله الملكي الناصري سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م.
- التربة العلوشية: أنشئت لناصر الدين منصور بن علي بن منصور بن علي بن علوش المالكي توفي سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م (ووقفها مكتوب على شباكها)[١١٣].
- التربة الخيمية: أنشأها تقي الدين أبو بكر بن محمد الخيمي توفي ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م.
- التربة الصفوية: أوقفها سيف الدين فضل بن مليح بن عبد الله الصفوي سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م. وكان وقفها مكتوب على إحدى واجهاتها.
- التربة النظيفية: أوقفها محمد بن علي بن نظيف توفي سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م.
- التربة السخاوية: منسوبة لعلي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين أبو الحسن الهمداني السخاوي شيخ القراء والنحاة والفقهاء في زمانه بدمشق توفي سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م.
- التربة الخوارزمية: وهي أشبه بالزاوية منها بالتربة، دفن بها أحد العلماء المشهورين قطب الدين محمد بن محمد أبو عبد الله الرازي الذي توفي سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م.
- التربة الصائغية: منسوبة لابن صائغ عز الدين أبي المفاخر الدمشقي قاضي القضاة عز الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق توفي ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م.
- التربة البلبانية: أنشأها ناصر الدين محمد بن سيف الدين بلبان، أنشأ الواقف لها بئراً، وكان إنشاء الوقف سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م.
- التربة الجامعية الغربية: تنسب للفقيه جامع الغربي الذي كان يتولى عقود الأنكحة، وتوفي سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م.
- التربة القراجية: تنسب للأمير زين الدين قراجا الصلاحي صاحب صرخد توفي سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م.
- التربة المعتمدية: تنسب لإبراهيم بن موسى والي دمشق المعروف بالمعتمد توفي ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م.
- التربة الناصرية: أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد صلاح الدين

---

(١١٢) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٣٨.

(١١٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣٨.

الأيوبي[١١٤].

- التربة الصوابية: منسوبة إلى الخادم بدر الجيوشي الصوابي المنسوب إلى الطواشي صواب العادلي، توفي سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م، ثم صارت فيما بعد زاوية وفي الأصل كانت تربة[١١٥].

ويرد عرضاً ذكر بعض الترب مثل تربة ابن تميرك، وتربة ابن الرومي، وتربة بني هلال الدولة، وتربة الملك العزيز والتربة الصصرية والتربة الكيلانية والتربة العلانية[١١٦].

وتبين هذه القائمة أن الفضل في بناء ووقف هذه الترب إنما يعود في الأغلب إلى رجال الدولة وقادتها من الأمراء المماليك إضافة إلى بعض العلماء وأهل الخير من التجار أحياناً، ويلاحظ ظهور الترب بالمعنى الذي قدمناه من أواسط القرن السادس / الثاني عشر الميلادي. وكان لأمراء بني أيوب الفضل في إنشاء الكثير منها إذ أنشئ الكثير منها في الفترة الأيوبية، وقليل منها يعود إلى الفترة المملوكية. وحرصنا على حصرها على هيئة التعداد لمعرفة بناتها وسنة البناء للتدليل على اهتمام أهل هذه الفترة بالأوقاف بشكل عام.

أما الخانقاوات أو الخوانق أو الخوانك فأصلها فارسي يأتي بمعنى دار الصوفية[١١٧]، فيمكن حصر ثمان منها في الصالحية وسنستعرضها كما فعلنا بالترب للتعرف على منشئيها وسنة البناء إن أمكن وهي:

- الخانقاه الحسامية الشبلية: منسوبة لأم حسام الدين عمر بن لاجين وهي ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين، وقد توفي ابنها ودفن بالتربة الحسامية سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م. وقد ذكرت هذه الخانقاه مع التربة والمدرسة الشبلية[١١٨].
- الخانقاه الباسطية: منشئها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش والخوانق والكسوة الشريفة، توفي سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م. وقد كانت داراً له فلما نزل السلطان الملك الأشرف برسباي الشام سنة ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م، خاف من نزول العسكر بها، فجدد لها محراباً وأوقفها، وكان له أوقاف منها أوقافه (بدمشق بالصالحية ووقف على ذلك كله أوقافاً حسنة جيدة) وكان إلى جانبها

(١١٤) النعيمي، الدارس، ج١، ص١٣٨. ولم يذكرها ابن طولون.

(١١٥) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٩٤. ذكرت في الزوايا.

(١١٦) للترب بشكل عام، انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٠٨-٣٤٥، النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٧٦-٢٣١.

(١١٧) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤١٤.

(١١٨) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١١٢ ، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٧٨-٢٨٠. وانظر ص١٩٨ .

(خلاوي عدة كما كان فيها مكتب للأيتام) فهدم أيام ابن طولون[١١٩].

- الخانقاه العزية: وهي موجودة إلى جانب تربة ومدرسة ورباط[١٢٠]. وكان لكل ذلك وقف وهو (الحصة التي قدرها أحد وعشرون قيراطاً وربع قيراط من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من قرية دسيا من وادي بردى، وجميع الخان بمحله باب الجابية المعروف بخان العميان.... وجميع الغرف المعروفة قديما بوقف التربة المذكورة بصالحية دمشق)[١٢١].
- الخانقاه الشبلية عند المدرسة الشبلية[١٢٢].
- الخانقاه الناصرية: منشؤها هو صاحب التربة الناصرية والمدرسة الناصرية[١٢٣].
- الخانقاه الإسكافية: أنشأها شرف الدين محمد الإسكاف نكرها النعيمي[١٢٤]. ولم يرد لها ذكر عند ابن طولون.
- الخانقاه الحاجبية. بجامع الحاجبية، وكان بها مكتب أيتام وخلاوي علوية وسفلية وكان لها شيخ[١٢٥].
- الخانقاه القلانسية، أنشأها صاحب التربة المنسوبة إليه، وله أيضاً في الصالحية رباط، وهذا يعني أن منشئ الرباط والتربة والخانقاه والمدرسة هو نفس الشخص[١٢٦]. وكثيراً ما يصادفنا مثل هذه الحالة.

أما الزوايا التي وصفت بأنها: (الزوايا التي للفقراء بالصالحية) لدى ابن طولون، فيعد منها ثماني وعشرين زاوية[١٢٧]. ولأن الحديث عن الزوايا يأتي بذكرها وذكر أصحابها دون التطرق غالباً إلى وقفها. فسنذكر هنا أسماء الزوايا التي ذكر لها وقف فقط:

- فالزاوية المنصورية يبدو انه كان لها وقف، ولكن ابن بانيها (باع غالب

(١١٩) ابن طولون، القلائد، ج١، ٢٧٤-٢٧٥. النعيمي.، الدارس، ج٢، ص١١١.

(١٢٠) انظر التربة العزية والمدرسة العزية في مكانهما من البحث.

(١٢١) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٨١-٢٨٢. ودسيا من قرى غرب دمشق قرب الهامة، انظر النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٣١.

(١٢٢) انظر المدرسة الشبلية.

(١٢٣) انظر المدرسة الناصرية والتربة الناصرية.

(١٢٤) النعيمي، الدارس، ج ٢، ص١١٠.

(١٢٥) انظر جامع الحاجبيه، ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٠٢-٢٨٣.

(١٢٦) انظر المدرسة و التربة القلانسي أعلاه. ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٤٣-٢٨٣.

(١٢٧) انظر لزوايا الصالحية عموما لدى ابن طولون، ص ٢٨٤-٣٠٨،

وقفها)[١٢٨].

- الزاوية السيوفية: أنشأها الشيخ نجم الدين عيسى بن شاه أرمن المعروف بالسيوفي (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م). (أوقف عليها وعلى ذرية الشيخ نجم الدين...قريتي عين الفيجة ودير مقرن فوقها بوادي بردى الثلث للزاوية والثلثان للذرية، وبنى له ولجماعته بيوتاً حولها)[١٢٩].
- الزاوية القوامية: تنسب للشيخ أبي بكر بن قوام بن علي البالسي المشهور بابن القوام (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م). (وقد وقف عليها بعض التجار بعض قرية). في حين قال النعيمي: ليس لهذه الزاوية مرتب ولا وقف؛ لأن صاحبها كان يرفض قبول ذلك، وأن الوقف الذي ذكره ابن طولون من بعض التجار كان فيما بعد[١٣٠].
- الزاوية الصوابية: مرت الإشارة إليها عند الحديث عن التربة الصوابية، وقام أحدهم ببناء اصطبل لها، كما حفر بئراً وجعل له بركة كبيرة للماء وغرس عندها حاكورة. (وصار لها وقف مرتب له قمح من داريا)[١٣١].
- الزاوية الأحمدية، (الذي علم من وقفها قطعة الأرض حولها وهي صغيرة)[١٣٢].
- الزاوية الداودية، وهي أعظم زوايا الصالحية قام ابن منشئها الشيخ عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود (ت ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، بتوسيعها (وجعل لها الأوقاف والمرتبات السلطانية... وجعلها من العجائب فانه جعل لها مدارا للماء وصهريجاً... ولها مسجد جيد وخلاوي كثير للفقراء وميضأة وبيت الكتب الموقوفة بها، ومساكن للنساء وقرر فيها إماماً ومؤذناً وقيّماً وواعظاً... ويقام بها الذكر كل ليلة ثلاثاء، ويقصدها الناس من كل جهة، ويجعل لهم ألوان الأطعمة... ثم تلاشى أمر وقفها)[١٣٣].
- الزاوية الرجحية: أنشأها القاضي الرجيحي محيي الدين عبد القادر بن محمد (ت٩٦٠هـ/ ١٤٠٥م)، يقول ابن طولون: (كان لها ميضأة وجرن ماء للوضوء ومن شرقيها بيت لطيف، سمعت الواقف المذكور يقول: إنه للشيخ بهذه الزاوية وبه حمام

(١٢٨) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٠٦.

(١٢٩) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥٧-١٥٨، ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٨٨.

(١٣٠) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٦٢؛ انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٩٣ .

(١٣١) انظر ابن طولون، القلائد، ج١، ص١٩٤.

(١٣٢) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٩٧. ولم يذكر اسم صاحبها أو تاريخ إنشائها.

(١٣٣) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥٨؛ ابن طولون، القلائد، ج١، ص٢٩٨-٣٠٠.

من إنشائه)[١٣٤].

- الزاوية النحلاوية: أنشأها على النحلاوي توفي حوالي ٨٥٠هـ/١٤٤٦م. يقول ابن طولون أنها خربت في أيامه، وكان لها من قبل ذلك مرتب على داريا)[١٣٥].
- زاوية عين الملك (الزاوية الملكية): أنشأها احد القادمين إلى دمشق سنة ٦٢١هـ/١٢٥٣، وعمل لها وقفاً ذرياً يعود بعد انقراض الذرية (على المقيمين بالزاوية المذكورة) وعند مآله إليها، يكون النظر في الوقف إلى (ناظرها وإلى الآن يقام بهذه الزاوية الوقت ليلة السبت ويطبخ بها الأطعمة... وهذه الزاوية من محال الخير بالصالحية... ويطبخ لها في العيدين هريسة فيتجمع بها الفقراء وفي رمضان تزدحم الخلق في صلاة التراويح بها)[١٣٦].
- الزاوية المنصورية: أنشأها برهان الدين بن منصور الشافعي (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، وكانت قبل ذلك مسجداً ثم وسعه، وجعل بالتوسعة خلوة. ثم خلفه ابنه (وباع غالب وقفها واقتصر على إمام يصلي بها الصبح ثم ترك ذلك أيضاً)[١٣٧].

وتبين القوائم السابقة التي عرضنا من خلالها المدارس والمساجد والجوامع والترب والزوايا والخانقاوات والربط في الصالحية، حقيقة أثر ودور الو قف باعتباره السبب الرئيسي وربما الوحيد ليس في نشأة ورعاية هذه المنشآت فقط بل وحي الصالحية نفسه، الحي الذي نشأ وتطور وازدهر بسبب الأوقاف الكثيرة التي خصصت من الوهلة الأولى لكثير من المصالح الاجتماعية والثقافية فيه بكل ما ترعاه من طلبة علم وعلماء، ومدرسين ومشرفين ليس بتخصيص الرواتب فقط بل بتأمين كل ما يحتاجونه وخصوصاً رواد المدارس من الطلبة إضافة إلى الفقراء والغرباء بالصالحية من مأكل وملبس ومأوى. إذ لم يقم الوقف بإنشاء العمائر والمؤسسات بل استمر بتامين ما يضمن استمرار أدائها ورعايتها للمنتفعين منها عن طريق وسائل الوقف التي تضمن الريع لضمان استمرار أداء هذه المصالح لمهامها كالأراضي الزراعية والدكاكين والمباني التي خصص ريعها للصرف على المؤسسات الوقفية المختلفة.

كما تؤيد القوائم التي أوردها البحث لهذه المؤسسات المقولة التي تقول إن ازدياد

---

(١٣٤) ابن طولون، القلائد، ج١، ص ٣٠٢.

(١٣٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٢-٣٠٣.

(١٣٦) ابن طولون، القلائد، ج١، ص٣٠٣-٣٠٤.

(١٣٧) المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٦.

الأوقاف بصورة ملحوظة حصل في الأيام الأيوبية والمملوكية. فجل هذه العمائر التي ورد ذكرها في البحث بل والصالحية نفسها إنما بدأت نشأتها في أيام نور الدين زنكي، واستمر الاهتمام بها بشكل واضح على يد أمراء الدولة الأيوبية ومن جاء بعدهم من مماليك. ولعل ذلك كان متصلاً بالجهاد ضد الغزو الإفرنجي إضافة إلى الاعتناء بالنشاط العلمي والثقافي؛ لأن الوقف انصب كما رأينا على مؤسسات الثقافة في المجتمع وأصلها المدارس والجوامع والترب والخوانق، فقد امتد الاعتناء بالمساجد والجوامع ليشمل ليس فقط بناءها بل الإنفاق على الأئمة والخطباء، والقوام والقراء والمؤذنين، كما اعتنى أيضاً بالإنفاق على طلبة العلم لتامين كل ما يحتاجونه ابتداء بالمعلمين إلى حاجات المأكل والملبس والمأوى لهم، وكذلك إنشاء مكاتب الأيتام الخاصة بفقراء الطلبة وتأمين الكتب التي كانت توقف على المدارس والجوامع[١٣٨].

وكان التوسع في الوقف في بلاد الشام عموماً، ومنها الصالحية، زمن المماليك ربما محاولة منهم لإضفاء بعض الشرعية على حكمهم للتقرب من الناس، لكن هناك حالات شهدت الوقف كوسيلة للمحافظة على الأملاك خوفاً من المصادرة ولتامين مورد دائم لأصحاب الوقف، خاصة في أوقاف العقارات والأراضي التي يزيد إيرادها بكثير عن مصاريف الوقف وخصوصاً عندما ينص الوقف على أن ما فاض عنه يعود إلى الواقف وذريته لضمان مورد جيد له ولذريته وحمايته من المصادرة باعتبار أن الوقف يؤمن حماية شرعية للمال أو الأرض الموقوفة[١٣٩].

ونود أن نختم حديثنا بما وصف به أحد الدمشقيين الذي وضع كتابه سنة (٨٨٧هـ / ١٤٨٢م)، أوضاع الصالحية وعمائرها الوقفية. إذ يبدو أن أواخر القرن التاسع و أوائل العاشر الهجري / أوائل القرن السادس عشر الميلادي وهي الفترة التي ينتهي فيها بحثنا أيضا شهدت تراجع أمر الأوقاف في حي الصالحية. وبالتالي تراجع معاهده ومدارسه، فكما كان الوقف هو الأصل في نشوئه وازدهاره، فقد كان تراجع الوقف وسوء الإدارة والسيطرة على الأوقاف من أهم أسباب هذا التراجع. إذ جاء على لسان أبي البقاء البدري الذي وضع كتابه سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م[١٤٠]، وصفه لتردي أحوال الصالحية وألمه على

(١٣٨) انظر عبد العزيز الدوري، دور الوقف في التنمية، مجلة المستقبل العربي، عدد٢٢١ لسنة ١٩٩٧م، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٨-٩، ١٠، وسيشار إليه فيما بعد: الدوري، دور الوقف. انظر أيضا المقريزي، خطط، ج٢، ص٣٦٣.

(١٣٩) قارن مع الدوري، دور الوقف، ص٨-٩.

(١٤٠) أبو البقاء البدري، عبد الله بن محمد البدري الدمشقي، ولد سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م وألف كتابه سنة٨٨٧هـ /

ما آلت إليه معالمها قوله: (ومن محاسن الشام الصالحية مشحونة بالزوايا والترب والمدارس... استولى عليها المباشرون والنظار، فأزالوا منها العين ولم يبق سوى الآثار، فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح، وأمست في ظلمة بعد تلك المصابيح، وهي تقول: أصبحت حاصداً بعد ما كان إيواني في القراء عامراً[١٤١] آهلا. وهذه تقول: أضحيت مربطاً للبهائم بعد ما كنت معبداً للقائم والصائم، وهذه تقول: اتخذوني مسكناً، وهذه تقول جعلوني متبناً، وهذه تقول: هدّوني واخذوا سقفي وكشفوني، وهذه تقول: أخربوا جداري وباعوا الباب وجعلوني مأوى للكلاب. والأوقاف تستغيث إلى الولي المغيث. فيقال لهم (كذا): اسمعوا كلام الرحمن في محكم القران: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[١٤٢]، فيا شوقاه لحسن الجركسية وحلاوة الركنية، ويا لهفاه على جامع الأفرم والناصرية. تغيرت تلك المعاهد، وغلّقت أبواب تلك المساجد والمعابد. إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء العظيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[١٤٣].

١٤٨٢م. نزهة الأنام في محاسن الشام،، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤١هـ/١٩٢٢م، وسيشار إليه فيما بعد: ابو البقاء البدري، نزهة الأنام.

(١٤١) وردت الجملة بالأصل هكذا: (أصبحت حاصلاً بعد ما كان إيواني بالقراء عاملاً).

(١٤٢) سورة الغاشية، آية (٢٥-٢٦).

(١٤٣) أبو البقاء البدري، نزهة الأنام ص ٣٢٠-٣٢١ .

خزائن الكتب الموقوفة بجامع بني أمية في دمشق من القرن (٦هـ/١٢م - ١٠هـ/١٦م)

سمير الدروبي*

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع تاريخ خزائن الكتب الموقوفة في الجامع الأموي بدمشق من القرن السادس الهجري حتى مطلع القرن العاشر الهجري؛ أي في فترات حكم الزنكيين أو النوريين والأيوبيين والمماليك حتى مجيء العثمانيين.

وقامت هذه الدراسة على أساس استقصاء مصادر تلك الفترة، التي تجلت في كتب التراجم والطبقات، والتاريخ والرحلات، والموسوعات والزيارات، والخطط والبلدان، وبرامج الشيوخ، وغيرها من المصادر بحثاً عن الكتب الموقوفة في الجامع الأموي بدمشق.

وكانت مصنفات أبي شامة المقدسي والذهبي، وابن فضل العمري، وابن الجزري، وابن كثير والصفدي، وابن رافع السلامي، وابن حجر العسقلاني، والسيوطي وغيرهم من أهم المصادر التي اتكأ عليها هذا البحث.

وكشف البحث عن عددٍ كبيرٍ من خزائن الكتب الموقوفة بجامع دمشق، منها: خزانة المصحف العثماني، وخزانتا الحنابلة، وخزانة التاج الكندي، وخزانة مشهد عروة، وخزانة ابن الأنماطي، والخزانة الفاضلية، والخزانة الأشرفية، وخزانة الفخر ابن المالكي، وخزانة ابن الطحان وخزانة كتب المالكية وغيرها.

وتبين أن وقف الكتب في الجامع الأموي كان جزءاً من ثقافة المجتمع الدمشقي التي يشترك فيها السلاطين والأمراء، والنواب والعلماء، والتجار وطلاب العلم.

وفوق ذلك، فإن توافر مصادر العلم في هذا الجامع التاريخي العظيم قد حَوّله إلى جامعة علمية مفتوحة لكل طلاب العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، مما جعل له دوراً علمياً لا يقل شأناً عن الأزهر والزيتونة والنجف والقرويين وغيرها من مراكز العلم في العالم الإسلامي.

يعد الجامع الأموي من أعظم مآثر بني أمية العمرانية وأجلها في بلاد الشام، وبانيه هو الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (ت٩٦هـ/ ٧١٤م)، وفي أيام الوليد فتحت الهند وبلاد التُّرك والأندلس.

* قسم اللغة العربية، جامعة آل البيت، المملكة الأردنية الهاشمية

وكان الإنفاق على بناء الجامع الأموي عظيماً، وتأنق الوليد في ترخيمه وبنائه، وجعله من مفاخر دمشق، وذلك عندما خاطب الدمشقيين قائلاً: "رأيتكم يا أهل دمشق تفتخرون على الناس بأربع خصال، فأحببت أن يكونَ مَسجدُكم الخامس، تفتخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأردت أن يكون مسجدكم الخامس"(١).

وحقاً، فإن مقولة الوليد قد جعلت من جامعه منذ بنائه وحتى يومنا هذا مفخرة كبرى، وآيةً عظمى يُعجب بها من حَطَّ ركابه بدمشق، حتى قال الشاعر:

دمشقُ قد شَاعَ حُسنُ جَامعها ... وما حَوتْهُ رُبى مَرابعها
جَامِعُها جَامعُ المَحاسنِ قَد ... فَاقت بِه المُدن في جَوامِعها

وأصبح هذا المسجد العظيم مركزاً دينياً تؤدى به الصلوات الخمس، ولا تنقطع منه تلاوة القرآن، ومركزاً علمياً تعقد فيه حلقات العلم والتدريس في: الحديث والفقه والتفسير، والنحو واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم والفنون، كما أنه أصبح مركزاً سياسياً للمجتمع الدمشقي في العصور: الزنكي والأيوبي والمملوكي والعثماني، يُعبِّر فيه أهل دمشق عن ثورتهم على الظلم، ويرفعون فيه الآذان والتكبير على المتسلطين والمتجبرين والظالمين(٢).

أما أهم خزائن الكتب الموقوفة في جامع بني أمية، فهي:

- خزانة المصحف العثماني:

نكر ابن القلانسي أن أتابك طُغْتَكين (ت٥٢٢هـ/١١٢٨م) هو الذي حمل المُصحف العثماني من طبرية إلى جامع دمشق في سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م، خوفاً عليه من الفرنج، وكان هذا المُصحف الشريف قد حُمل إلى طبرية أيام عثمان بن عفان -رضي الله عنه-(٣).

(١) عبد القادر بن محمد النعيمي(ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، ٢ مجلد، تحقيق: جعفر الحسني، المجمع العلمي بدمشق، ١٩٤٨م، ج٢، ص٣٨٣-٣٨٤، وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

(٢) انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٤١٤؛ محمد بن عبدالله اللواتي المعروف بإبن بطوطة(ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢ مجلد، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ج١، ص١٠٤-١٠٦، وسيشار إليه فيما بعد: ابن بطوطة، تحفة النظار؛ شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢ مجلد، تحقيق: محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، مج١، ص ٦٥، ٧١، ١١٨، ١٧٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان.

(٣) انظر: حمزة بن أسد بن علي بن القلانسي(ت٥٥٥هـ/١١٦٠هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان،

وقد حدد كلٌّ من ابن بطوطة والعمري موقع خزانة المصحف العثماني، بأنه في قبلة المسجد إلى اليسار من مقصورة الخطابة، يقول ابن بطوطة: "وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية، وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب، خزانة كبيرة فيها المُصحف الكريم الذي وجَّهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان –رضي الله عنه– إلى الشام، وتُفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم، وهناك يُحلّف الناس غرماءهم، ومن ادعوا عليه شيئاً"(٤).

ولقي المصحف العثماني من الدماشقة إعظاماً وإجلالاً، وتقديراً واحتراماً، ولا عجب في ذلك بعد أن تشرف جامعهم بحلول هذا الأثر الراشدي العظيم، وهو كتاب الله، المكتوب بخط خليفة رسول الله عثمان بن عفان –رضي الله عنه–.

وعُيّن خازن أو خادم لهذا المصحف يقوم بحفظه والإشراف عليه، ومن خُزّان هذا المصحف: سليمان بن عبدالله بن عمران الزيلعي الحنفي (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وقد وصف هذا الرجل بأنه كان "شيخاً صالحاً زاهداً حسن السمت"(٥)، وطُلب الفضل بن عيسى بن قنديل العجلوني الحنبلي (ت٧٣٥هـ / ١٣٣٤م) لخزانة المصحف فامتنع، ولم يذكر لنا الذهبي سبب امتناعه، مع أنه كان "ذا شكل وعمّة كبيرة وبزة حسنة"(٦).

وكانت عناية سلاطين المماليك ونوابهم في دمشق عظيمة بهذا الأثر الجليل، فقد قام السلطان المملوكي العادل زين الدين كَتُبغا بن عبدالله المنصوري (ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) في

دمشق، ط١، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص٢٩٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن القلانسي، تاريخ دمشق؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، تحفة ذوي الألباب، ٢ مجلد، تحقيق: إحسان خلوصي وزهير الصمصام، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، مج٢، ص٦٢، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، تحفة ذوي الألباب؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٤٠٠.

(٤) أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي (ت٦١١هـ/ ١٢١٤م)، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل–طومين، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٣م، ص ١٥، وسيشار إليه فيما بعد: الهروي، الإشارات؛ وانظر: أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/ ١٢٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م، ج١، ص١٩٥، وسيشار إليه فيما بعد: العمري، مسالك الأبصار؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، ص١٠٥؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٦٥.

(٥) قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، ٤ مجلد، حيدر أباد، الهند، ط١، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، مج٤، ص١٧٠-١٧١، وسيشار إليه فيما بعد: اليونيني، ذيل مرآة الزمان.

(٦) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، معجم الشيوخ، ٢ مجلد، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص١٠١، وسيشار إليه فيما بعد: الذهبي، معجم الشيوخ.

سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م، بزيارة مصحف عثمان[٧].

وفي زمن نائب دمشق تَنَكز الحُسامي، وفي ليلة الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة من سنة (٧٣٥هـ / ١٣٣٤م)، عُلق الستر الحرير على خزانة المصحف العثماني بمقصورة الخطابة بجامع دمشق، "وهو حرير أبيض وأسود، وقد ذكر الشيخ علم الدين أنه عُمل فيه مدة سنة ونصف حتى كَمُل، وأُنفق عليه أربعة آلاف درهم وخمس مائة درهم، منها ألف درهم وخمس مائة درهم أجرة صانعه، وطوله ثمانية أذرع وعرضه أربعة أذرع ونصف"[٨].

ويبدو أن شهرة هذا المصحف الشريف قد تجاوزت الشام إلى العراق ومصر والحجاز وغيرها من الأقطار الإسلامية حينذاك، فقد حكى إسماعيل بن حماد البغدادي: "رأيت ليلة عيد الفطر كأن مصحف عثمان قد رُفع من جامع دمشق إلى السماء، فلحقني غمٌ شديد فتوفي الموفق يوم العيد"[٩]. والمقصود هنا بالموفق ابن قدامة (ت٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) صاحب "المغني" في الفقه، وهو من أجلّ علماء دمشق.

ولما تَقضّى عهد المماليك بعد معركة مرج دابق المشؤومة سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م)، وأصبحت دمشق نيابة عثمانية، ووصلها النائب الجديد لطفي، وتلقاه قاضي القضاة وأكابر دمشق، صلى بالجامع الأموي، وزار المصحف العثماني[١٠].

ولا يتسع المقام لتتبع أخبار خزانة هذا المُصحف الشريف المتناثرة في المصادر، ولعلّ فيما تم ذكره ما يدل دلالة واضحة على أهمية هذا الأثر الشريف.

---

(٧) أنظر: شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري (ت٦٩٩هـ / ١٢٩٩م)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، ٣ مجلدات، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج١، ص٢٩١، وسيشار إليه فيما بعد: الجزري، تاريخ حوادث الزمان؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ج٩، ص١١٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، المنهل الصافي.

(٨) الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ج٣، ص٧٦٤. وانظر: الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ١٤ مجلداً، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ج١٤، ص١٧٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن كثير، البداية والنهاية.

(٩) شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن علي بن طولون (ت٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ٢ مجلد، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط١، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م، ج٢، ص٤٦٩، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، القلائد الجوهرية.

(١٠) شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون (ت٩٥٣هـ / ١٥٤٦م). حوادث دمشق اليومية، تحقيق: أحمد أيبش، دار الأوائل، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م، ص ١٨٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، حوادث دمشق اليومية.

خزانتا الحنابلة:

لقد جاء الحديث عن هاتين الخزانتين عرضاً، عندما ترجم أبو شامة المقدسي للحافظ عبد الغني المقدسي الجماعيلي المعروف بالعماد الحنبلي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، الذي رحل إلى بغداد طلباً للعلم، وعاد إلى دمشق داعية للسُّنة.

وكان الحافظ الجماعيلي صبوراً على تعليم الفقراء القرآن والفقه في حلقة الحنابلة بجامع دمشق، قال أبو شامة: "رأيته مُصلياً بالجماعة في حلقة الحنابلة مراراً، ولم يكن لهم في حياته هذا المحراب الآن، إنما كان يصلي بالجماعة هو تارة، والموفق تارة، إلى خزانتين مجتمعتين في موضع المحراب الآن سنة سبع عشرة أو نحوها، فجدد لهم هذا المحراب. وسببه أن قاضي دمشق جمال الدين يونس بن بدران، حَسَّن للملك المعظم عيسى بن العادل أن يجمع خزائن الكتب التي في الجامع إلى مَشهد عُروة، فنقلت الخزائن من الزاوية الغربية، ومن الكُلاسة، ومن أروقة الجامع، فكان من جملة المنقول الخزانتان اللتان بحلقة الحنابلة، فبقي مكان صلاة إمامهم مكشوفاً، فتعصب لهم الركن الأمير المعظمي في عمل المحراب، فركب في ليلة ذلك اليوم، وصلى فيه الشيخ الموفق... وُردّت الخزانتان إلى الحلقة، فجُعلتا عن يمين المحراب ويساره"(١١).

فالنص السابق يكشف لنا بجلاء عن وجود خزانتين في حلقة الحنابلة، وعندما جُمّعت الخزائن في مشهد عروة بأمر من الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي، لم يَرُق ذلك للحنابلة المعروفين بدأبهم وشجاعتهم في الحق، فأُحدث لهم محراب خاص في حلقتهم، ورُدت إليه الخزنتان اللتان حوتا كتب الحنابلة وأصول علمهم.

خزانة كتب التاج الكندي:

وهو تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) وهو شيخ القراء والنحاة في الشام، والكندي بغدادي الأصل، سمّع "كتاب سيبويه"، و"المقتضب" للمبرد(ت٢٨٥هـ/٨٩٨م)، و"الحجة" لأبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م)، وقرأ العربية على أبي السعادات الشجري (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م)، واللغة على أبي منصور الجواليقي (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م).

---

(١١) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م، ص ١٠٥-١٠٦، وسيشار إليه فيما بعد: ابو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين؛ العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص١٩٥.

وقد غادر الكندي بغداد في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م إلى الديار المصرية، واتصل بعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وهو ابن أخي صلاح الدين، وتردد إلى مجلس القاضي الفاضل في القاهرة، ثم انتقل إلى دمشق وعلّم بداره، واختلف إليه كبار المتصدرين بجامع دمشق كأبي الحسن السخاوي، ويحيى بن معطٍ، وغيرهم من العلماء والملوك والأمراء، مثل الملك المعظّم.

وقد نيَّف الكندي على التسعين من عمره، يقول أبو شامة: "وكان مسكنه بدمشق بجيرون بدرب العجمي، فكم ازدحم ذلك الدرب من شيوخ العلم، وطلبته أولاد الملوك وخدمته"؟![١٢].

وقد وقف الكندي كتبه على مُعتَقَه نجيب الدين ياقوت، ثم على ولده، ثم على العلماء في الحديث واللغة والفقه وغيره، وكان ياقوت قد هيَّأ له خزانة كبيرة تقع في مقصورة ابن سنان الحلبية المجاورة لمشهد زين العابدين الواقع داخل مشهد علي بن أبي طالب، الذي يقع في الركن الشامي من مسجد بني أمية[١٣].

أما عدد هذه الكتب الموقوفة –التي وصفت بأنها نفيسة– فهو سبعمائة وواحد وستون مجلداً، توزعت على الفنون الآتية: علوم القرآن مائة وأربعون، الشعر مائة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون[١٤].

ومما يؤسف عليه أن أكثر نفائس هذه الخزانة قد تبعثرت وتفرقت، وامتدت إليها الأيدي، وبيعت سراً وجهراً، ولم يبق إلا أقلها[١٥].

---

(١٢) أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين، ص ٩٥.

(١٣) انظر: أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين، ٩٨؛ العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص١٩٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص٧٢؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٤٨٥؛ يوسف العش ، دُور الكتب العربية وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمة: نزار أباظة ومحمد صباغ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٢٣٣-٢٣٤، وسيشار إليه فيما بعد: العش، دور الكتب العربية؛ يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية(اسبطان للموروث الثقافي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط٢، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص ٧٠، وسيشار إليه فيما بعد:ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية.

(١٤) أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين، ص ٩٨.

(١٥) أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين، ص ٩٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣ ،ص٧٢؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٤٨٥.

خزانة مشهد عروة :

يقع هذا المشهد في الركن الغربي القبلي[١٦] من جامع بني أمية، وكان يسمى بمشهد عمر بن الخطاب، وكانت تحفظ فيه الآلات والحواصل التي تتعلق بالجامع، ففتحه محمد بن عروة الموصلي (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م) وقام بترميمه وبيضه، وجدد محرابه، وأنشأ فيه خزانتين وقف فيهما كتباً.

وأطلق ابن عروة على هذا المشهد اسم دار الحديث العُروية، وكان به: "شيخ حديث وجماعة من العلماء يستمعون الحديث بوقف مستقل، وعدة خزائن كتب وقف"[١٧].

وكان ابن عروة مُقرّباً من الملك الأيوبي المعظم وأصحابه، وعندما انتقل الملك المعظّم من القُدس إلى دمشق، أمر بجمع الخزائن المفرقة في أروقة الجامع، ورُكّزت في مشهد عروة[١٨]، ومرّ بنا أن هذا العمل لم يرق للحنابلة الذين استطاعوا ردّ خزانتهم إلى حلقتهم في الجامع.

ويبدو أن خزانة علي بن طاهر بن جعفر، أبو الحسن السلمي النحوي (ت٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) وكان ثقة ديناً، و"كانت له حلقة في الجامع، وقف فيها خزانة فيها كتبه"[١٩]، قد جمعت إلى ما في مشهد عروة من الخزائن التي لم يحدد أغلب واقفيها.

ومن الكتب الموقوفة بمشهد عروة "مختصر كتاب الأغاني" لـ "مؤيد الدين أبي الفضل محمد بن عبدالكريم المهندس الدمشقي (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، وكان بارعاً في الهندسة والطب، ونسخ كتباً كثيرة في العلوم الحكمية والطبية، وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع الأموي، ومن كتبه "الحروب والسياسات"، و"الأدوية المفردة" وغيرها، وله "اختصار كتاب الأغاني الكبير" لأبي فرج الأصبهاني. وكتب من تصنيفه هذا نسخة بخطه

---

(١٦) انظر: أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٣٦؛ العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص١٩٦. وذكر النعيمي وابن طولون، أن هذا المشهد يقع شرقي الجامع. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٨٢؛ شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون (ت٩٥٣/١٥٤٦م)، الفلك المشحون في أحوال محمد طولون، تحقيق: محمد خير رمضان، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٦٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، الفلك المشحون.

(١٧) العمري، مسالك الأبصار،ج١، ص١٩٦؛ ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ٧٠ .

(١٨) أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٣٦؛ وانظر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، إعتناء، هلموت ريتر، فرانز شتايز، فيسبادن، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ج٤، ص٩٤، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، الوافي بالوفيات.

(١٩) شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ٧ مجلدات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٤، ص ١٧٧٥، وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم الأدباء.

في عشر مجلدات، ووقفها بدمشق في الجامع، مضافاً إلى الكتب الموقوفة في مقصورة ابن عروة"[٢٠].

والمعروف أن ابن عروة الموصلي قد رمّم وأصلح مشهده بعد هذا التاريخ، مما يدل على أن كتاب أبي الفضل المهندس كان موقوفاً في الجامع الأموي قبل هذا التاريخ في إحدى خزائنه، ثم ضُمَّ فيما بعد إلى مشهد عروة بأمر الملك الأيوبي المعظم.

وأشار ابن كثير الدمشقي، ونقل عنه ذلك النعيمي، إلى وجود نسخة موقوفة من كتاب أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الطبيب المعروف بابن أبي أصيبعة (ت٦٦٧هـ / ١٢٦٨م): "له تاريخ الأطباء في عشرة مجلدات لطاف، وهو موقوف بمشهد ابن عروة بالأموي"[٢١].

قلت: لا يُدرى هل كان هذا الكتاب من وقف ابن أبي أصيبعة أم غيره، علماً بأنني قد قرأت عيون الأطباء قراءة فحص ودرس فلم أجد إشارة إلى هذا الوقف.

ويبدو أن خزانة مشهد ابن عروة كانت عامرة ومُعتَنًى بأمرها في العصر المملوكي، فقد ذكر ابن طولون الصالحي في ترجمته لـ عجلان التلخضري البقاعي الدمشقي (ت٨٩٦هـ / ١٤٩٠م): "الرجل الصوفي المُفيد، أقام مُدةً بالجامع الأموي بمشهد ابن عروة الموصلي خازناً للكتب"[٢٢].

ويُشير ابن طولون في غُضون حديثه عن المناصب والوظائف الكثيرة التي باشرها في دمشق، أنه تولى خدمة الكتب المنسوبة لـ علاء الدين البخاري الحنفي الموضوعة بالخزانة في مشهد عروة وخَزْنها في سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٦م، وأضاف أنه قد باشرها قبل ذلك بسنين نيابة عن عمه جمال الدين بن يوسف بن طولون الصالحي[٢٣].

---

(٢٠) موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن يونس السعدي الخزرجي ابنُ أبي أُصيبعة(ت٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٦٧١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء؛ وانظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٣٨٧.

(٢١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص٢٥٧؛ وانظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٣٧.

(٢٢) شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون (ت٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)، متعة الأذهان من التمتع بالأقران، ٢ مجلد، تحقيق: صلاح الدين خليل الشيباني، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م، ج١، ص٤٩٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، متعة الأذهان.

(٢٣) ابن طولون، الفلك المشحون، ص ٦٥.

- خزانة ابن الأنماطي الشافعي:

وهو إسماعيل بن عبدالله بن المحسن المعروف بابن الأنماطي (ت٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)، مصري الأصل، سمع من شيوخ مصر في صباه، ثم تحول إلى دمشق، وسمع من علمائها كعبد الصمد الحَرَستاني والكنديّ.

حَجَّ ابن الأنماطي، ثم قدم إلى بغداد وواسط، فحصّل مادة علمية غزيرة إبان إقامته القصيرة في العراق، "وكتب بخطه كثيراً، وكان يكتب سريعاً، وينقل صحيحاً، ويقرأ صحيحاً... وكان له همّة وافرة، وحرص شديد على الفوائد، وجِدٍ واجتهاد في طلب الحديث، مع معرفة بالحديث كاملة"[٢٤].

وفوق ذلك، فإن ابن الأنماطي عُرف بسرعة القلم، وجودة الخط، وسخاء النفس، وبذل الكتب للقراء، والحذق بقراءة الحديث، وتحصيل الكتب الكثيرة، وقد أثنى عليه عمر بن الصّلاح في معرفة الحديث[٢٥].

وقد جاءت الإشارة إلى خزانة كتبه غامضة عند أبي شامة المقدسي الذي يقول: "وكانت كتبه تكون في البيت بالكُلاسة الذي (كذا) كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين قبله، ثم انتقل منه لمّا أريد إسكان الشيخ عبد الصمد الدكاكي الزاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن"[٢٦].

ويمكن أن يُفهم من كلام أبي شامة المقدسي الذي كان معاصراً للأنماطي، أن البيت المُشار إليه كان من أوقاف المسجد، وربما كانت كتب ابن الأنماطي محبوسة به، ثم أُخرج من البيت المذكور لإحلال الدكاكي مكانه.

ومما يُؤسف عليه أن أبا شامة لم يحدد مصير هذه الكتب، فهل بقيت في مكانها؟ أم أنها جمعت إلى الخزائن الكثيرة المرصودة داخل الجامع الأموي؟ أم عاثت بها الأيدي العابثة؟ إلى غير ذلك من الآفات والكوارث التي أبادت كثيراً من الخزائن الموقوفة، ولا سيما أن دمشق كانت مهددة بالحرق من الفرنج[٢٧]

---

(٢٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٩، ص١٤٧.

(٢٥) انظر: أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين، ص١٣١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٤٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٦.

(٢٦) أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص١٣١. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٦.

(٢٧) انظر: الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك(ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، مقامة رشف الرحيق في وصف الحريق، دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٩-٢٦، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، مقامة رشف الرحيق؛ سمير الدروبي، ابن طولون الصالحي وفن المقامات، جامعة مؤتة، الأردن،

- الخزانة الفاضلية:

ونسبتها إلى عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)، والقاضي الفاضل غني عن التعريف فهو الرجل الكبير، الوزير الخطير للملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، وهو العقل المدبر لدولة بني أيوب، وهو صاحب الآيات والبدائع في الترسل والإنشاء، وكفاه فخراً وشرفاً أن صلاح الدين قال في حقه: "فَتحتُ الساحلَ بقلم القاضي الفاضل".

وكان الفاضل كاتباً شاعراً، عالماً فقهياً، وجَمَّاعة للكتب، حيث وصلت مكتبته مائة إلى ألف مجلدة[٢٨].

والقاضي الفاضل فاضل كاسمه، لم يجعل هذه الكتب مخزونة في قصره، ولم يقصر نفعها على ذاته أو من يلوذ به ويصل إليه، بل جعل جُلَّها وقفاً في المدرسة الفاضلية في القاهرة[٢٩].

ووقف الفاضل-دام فضله- شيئاً من خزانة كتبه الهائلة في دار الحديث الفاضلية في الكُلاسة الملاصقة للجامع الأموي من جهة الشمال، وكانت الكُلاسة من زيادات القاضي الفاضل في الجامع الأموي، وكان في دار الحديث الفاضلية في الجامع خزانة كتب موقوفة تُعرف بخزانة الفاضلية[٣٠].

- خزانة الأشرف ابن القاضي الفاضل:

وهو أحمد بن عبدالرحيم ابن القاضي الفاضل (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، سمع من ابن عساكر وابن الأثير والعماد الأصفهاني، وسمع من علماء بغداد، وجدَّ في طلب علم الحديث، فحصّلَ كثيراً من أصوله، وكان وزيراً للملك الكامل الأيوبي، ثم ترفّع عن الوزارة بعد موته، وكان محباً للمُحدِّثين محسناً إليهم[٣١].

ذكر أبو شامة المقدسي أن ابن القاضي الفاضل في آخر شعبان من سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م

ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٧٠- ٧٤، وسيشار إليه فيما بعد:الدروبي، ابن طولون الصالحي وفن المقامات.

(٢٨) انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٨٩-٩٣.

(٢٩) انظر: تقي الدين ابو العباس احمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط المقريزية، ٢مجلد، طبعة جديدة بالأوفست، دار صادر، بيروت، د.ت، مج ٢، ص٣٦٦، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، المواعظ والاعتبار.

(٣٠) انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج ١، ص٨٩-٩٥.

(٣١) انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات،ج ٧، ص ٥٧.

قد حوّط "درابزيناً شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق، وجعل داخله مكاناً يُقرأ فيه القرآن والسنة، ووقَفَ خَزانةَ كتب في المقصورة التي تليها التي أنشأها والده، ثم خَرِبَ ذلك جميعه، وأُضيف إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية، وبقي ذلك يقرأ فيه الحديث، وفيه خزائن الكتب"(٣٢).

ويستدل من النص السابق أن السلطان الملك الأشرف الأيوبي قد بنى تربته بجوار الكلاسة الملاصقة لجدار الجامع الأموي من جهة الشمال، وأن هذه التربة قد أقيمت على أجزاء من المكان الذي حوّط عليه ابن القاضي الفاضل درابزيناته(٣٣)، ولكنّ ذلك لم يلغ مدرسة الحديث والقرآن وخزانة الكتب التي أنشأها، بل إنها أضيفت إلى جامع بني أمية، وبقيت ناشطة في جهودها التعليمية.

- خزانة اليلداني:

وهو تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، وصفه ابن كثير بأنه كان "شيخاً مُشْتَغلاً بالحديث سماعاً وكتابة وإسماعاً... وأكثر كتبه ومجاميعه التي بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية من الكلاسة"(٣٤).

ويبدو أن اليلداني هو أول من درّس في دار الحديث الفاضلية(٣٥)، لذلك فإنه قد جعل كتبه مُحبْسَة في هذه الخزانة.

- الخزانة الأشرفية:

وتنسب للسلطان الملك الأشرف أبي الفتح مظفر الدين موسى الأيوبي، من شجعان بني أيوب، ملك دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وقد أخذها من الناصر داود.

---

(٣٢) أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٥٩.

(٣٣) انظر: الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ج ٢، ص١٢٥-١٢٧. والدرابزينات مفردها الدَّرْبزين، وهي لفظة فارية من أصل يوناني، وتأتي بمعنى الحاجز، ويكون حول الشرفات وبجانب السلالم في الأبنية ليمسك به الصاعد والنازل كيلا يقع على الأرض، وما زالت مستخدمة في اللهجة العامية في بلاد الشام. انظر: روكس بن زائد العزيزي(ت١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية، وزارة الثقافة، الأردن، ط٢، ٢٠٠٤م، ج١، ص٣٥٠، وسيشار إليه فيما بعد: روكس العزيزي، قاموس العادات؛ محمد احمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، وسيشار إليه فيما بعد: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية.

(٣٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩٧.

(٣٥) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٩٣.

وكان الأشرف عادلاً في الدمشقيين مُحسناً إليهم، وأجاز الشُّعراء الجوائز السنية، له أوقاف كثيرة بدمشق، وعمّر داراً للحديث تحت القلعة، وبنى تربته بجوار الكلاسة، ومرّ بنا أنها توسعت على حساب وقف الأشرف بن القاضي الفاضل.

وذكر الصفدي أن الملك الأشرف موسى وضع في تربته: "الكتب النفيسة المليحة، من كل نسخة عدة نسخ"(٣٦).

ويبدو أن خزانة الأشرف قد بقيت في تربته إلى أيام ابن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، حيث يذكر في ترجمته للفقيه الشّافعي الشاعر المعروف بالبهاء السنجاري (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م): "وشعره كثير في أيدي الناس، يوجد قصائد ومقاطيع، ولم أقف له على ديوان، ولم أدر هل دُوّن شعره أم لا، ثم وجدت له في خزانة كتب التربة الأشرفية بدمشق ديواناً في مجلد كبير"(٣٧).

ويُلاحظ أن النعيمي قد أشار في ترجمته لعلي بن محمد بن محمد الدمشقي صدر الدين الأدمي الحنفي (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، أنه كان بيده من الوظائف: "تدريس الخاتونية البرانية، والقصاعين، والشلبية، وخزانة كتب الأشرفية بالجامع"(٣٨)، مما يدل على أن خزانة كتب التربة الأشرفية قد نُقلت إلى داخل جامع بني أمية.

وفوق ذلك، فإن تولي صدر الدين الأدمي نظر هذه الخزانة يدل على أهميتها؛ لأن الأدمي كان من كبار الإداريين والعلماء في الدولة المملوكية، فهو كما وصفه ابن حجر العسقلاني: "اشتغل بالأدب، ونظر في الفقه، وكتب الخط الحسن، وناب في الحُكم، وولّي كتابه السرّ، ونظر الجيش بدمشق... وجُمِعَ له القضاءُ والحِسْبةُ في دولة المؤيد..."(٣٩).

- خزانة الفخر ابن المالكي الشافعي:

وهو محمد بن عمر بن عبد الكريم فخر الدين الحميري الشافعي المعروف بابن الفخر

---

(٣٦) انظر: أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٥٩؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، م٢، ص١٢٧.

(٣٧) ابو العباس شمس الدين بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ مجلدات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ج١، ص٢١٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(٣٨) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٥٠٧.

(٣٩) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، إنباء الغُمر بأنباء العُمر، ٣ مجلدات، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج٣، ص ٢٧-٢٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر.

المالكي، توفي في سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) سمع الحديث من الخشوعي والقاسم بن عساكر وغيرهم.

وقد صفه الصفدي بقوله: "كتب الأجزاء والطباق، وخطه مليح دقيق معلّق، وكان له بيت في المنارة الشرقية، وخزانة كتب تجاه محراب الصّحابة، وكان قد ولي إمامة الكلاسة بعد الشيخ تاج الدين"(٤٠).

- خزانة حسن بن محمد الطحان (ت٧٤٧هـ/١٣٤٦م):

وابن الطحان شيرازي الأصل، ثم سكن دمشق، وكان رجلاً تاجراً في بداية أمره، ثم ترك التجارة، وطلب الحديث النبوي الشريف، فأصبح من المسندين بدمشق.

وقال عنه ابن حجر: "وكان عنده عن أبي بكر محمد بن علي بن النشبي كتاب "العلم" لأبي خيثمة... والثاني والثالث من "فضائل رمضان" لعبد العزيز الكتاني"(٤١).

وابن الطحان من شيوخ الذهبي، وقد عمل ميعاداً في الجامع الأموي أي كما وصفه تلميذه الذهبي: "وله كرسي وقف تحت النسر"(٤٢)، وأضاف ابن حجر العسقلاني بأنه "وقف عليه كتباً"(٤٣).

- خزانة كتب المالكية:

ذكر ابن فضل الله العمري أن المالكية في زمانه وهو القرن الثامن الهجري، كانوا يصلون بمحراب الصحابة الذي يقع إلى الشرق من مقصورة الخطابة في الجامع، مما يدل على حضور علمي للمالكية في جامع دمشق، ولكنني لم أجد إشارة إلى خزانة كتب تخصهم سوى ما ذكره ابن طولون الصالحي في ترجمته لصالح بن سلامة التونسي المتوفى بدمشق سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م، يقول: "تصدر لإقراء المالكية بالكلاسة، فحصل به النفع للفقراء، وكان

(٤٠) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٦١.

(٤١) شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ج، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م، ج٢، ص ١١٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة.

(٤٢) الذهبي، معجم الشيوخ، ج١، ص٢١٣.

(٤٣) وانظر: ابن رافع السلامي، تقي الدين أبو المعالي محمد (ت٧٧٤هـ/ ١٢٧٥م)، الوفيات، ٢ مجلد، تحقيق: صالح مهدي عباس وبشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج١، ص ٤٧١- ٤٧٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن رافع السلامي، الوفيات؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص١١٨؛ ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ٧٠ .

السبب في وضع كتب المالكية في مشهد شيخ الإسلام بالجامع الأموي"[٤٤].

ويمكن أن يفهم من النص السابق أن كتباً للمالكية كانت مبعثرة في خزائن الجامع، ثم جمعت في مشهد عروة، وهو المسمى أيضاً بمشهد شيخ الإسلام[٤٥]، لما يوفره لها من صون وحفظ.

- خزانة زين العابدين ابن العجمي:

وابن العجمي، بغدادي الأصل، واشتغل بتبريز، ثم تصوف على الطريقة النقشبندية، قدم إلى دمشق وعلّم فيها، توفي بطاعون سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م، وقف كتبه على نفسه، ثم على الشافعية، وقد "شرط النظر لأعلمهم، واستقرارها بمقصورة الأموي"[٤٦]. والمقصود بذلك مقصورة الخطابة في الجامع.

وعلاوة على خزائن الكتب الموقوفة في جامع دمشق، فإنه قد وجدت أوقاف أخرى لقراءة المصاحف في الجامع، منها:

- وقف الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن الحنا:

حيث رتب في سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م "مصحفاً يقرأ فيه بعد صلاة الصبح تحت قبة النسر، وأجرى على القارئ فيه كل شهر شيئاً معلوماً"[٤٧].

- وقف السلطان المملوكي المؤيد شيخ (ت ٨٢٤هـ/١٤٢١م):

فقد وقف مصحفاً مقابل مقصورة الجامع الأموي[٤٨]، ويذكر ابن طولون الصالحي الدمشقي أنه قد تولى وظيفة "قراءة المصحف تحت قبة النسر بالجامع الأموي وقف السلطان المؤيد شيخ"[٤٩] وذلك في سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م.

---

(٤٤) ابن طولون، متعة الأذهان، ج ١، ص ٣٨٢.

(٤٥) انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٥٤٨.

(٤٦) ابن طولون، حوادث دمشق اليومية، ص ٢٦٤.

(٤٧) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٤٠٩.

(٤٨) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص٣٩٢.

(٤٩) ابن طولون، الفلك المشحون، ص ٦٢.

- وقف النائب سودون بن عبد الرحمن:

إذ وقف في سنة ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م، مصحفاً كبيراً بخط موسى الجحيني الذي كان شيخ الكتاب بدمشق (ت٨٤٤هـ / ١٤٤٠م)، وقد وضع هذا المصحف على كرسي مقابل باب المقصورة الشمالي[٥٠].

وفوق هذه المصاحف الموقوفة، فإن عدداً من الأسباع قد وقف في الجامع الأموي، والمقصود بذلك قراءة القرآن في سبعة أيام، وقد بلغ عدد هذه الأسباع الموقوفة في نهاية العصر المملوكي خمسة وعشرين سُبعاً، منها سُبع التاج الكندي بمقصورة الخضر، وسُبع القاضي الفاضل، وسُبع المالكية، وسُبع الحنابلة.

ويتضح من العرض السابق أن خزائن الكتب الموقوفة في جامع بني أمية كانت كثيرة وعظيمة، ويبدو أن ما أغفل ذكره من الكتب الموقوفة كان كثيراً؛ لأن المؤرخين يُوثِّقون عادة ما له شهرة وكثرة، ويتجاوزون ما كان قليلاً إما لألفهم به لكثرته، وإما لعدم الاحتفال أو العلم به.

ويدل على كثرة هذه الكمية الموقوفة ما أشار إليه النعيمي: "وفي الأيام الرُّكنية الظاهرية أخرجت بأمره الصناديق والخزائن، وفُكت المقاصير، وكانت قريباً من ثلاثمائة خزانة ومقصورة"[٥١].

وبناء على ما تسعفنا به المصادر المتعلقة بتاريخ دمشق، وما وقف في مسجدها الجامع المعمور من كنوز علمية، فإننا نخرج بالملاحظات التالية حول هذه الظاهرة الحميدة في تاريخ الأمة الإسلامية:

أولاً: إن هذا العمل الجليل المتمثل في وقف خزائن الكتب كان ظاهرة واضحة في المجتمع الدمشقي، حيث يشترك في هذا العمل الخيِّر السلاطين والأمراء والوزراء، والنواب والأدباء والعلماء، والتُّجار ورجال الدولة وطلاب العلم، وعامة من تألف منهم المجتمع الدمشقي، ومن وفد عليه من علماء وطلاب ومهاجرين.

ثانياً: إن ازدهار ظاهرة وقف الكتب في جامع دمشق ومدارسها وخوانقها وتربها يُعد من أهم الظواهر العلمية في العصور: النوري والأيوبي والمملوكي، أي إن هذه الحالة قد ازدهرت من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجري.

---

(٥٠) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص٣٩٢.

(٥١) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص٤٠٨.

ثالثاً: يلاحظ أن أصحاب المذاهب الإسلامية السُّنية، قد رسَّخوا وجودهم العلمي داخل مسجد بني أمية، حيث وجد الإربلي (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م) في جامع بني أمية، ثلاث مدارس للشافعية هي: الغزالية والقوصية والكلاسة، ومدرستين للحنابلة، وهما: حلقة الأوزاعي، وحلقة المحراب، ومدرسة للحنفية تعرف بزاوية الحلبيين، ومدرسة للمالكية تسمى حلقة السفينة[٥٢]، وكل مذهب من هذه المذاهب له خزائنه الموقوفة التي تُرفد عادة من قبل علماء كل مذهب وطلابه.

رابعاً: إن وجود هذه الكمية الضخمة من الكتب الموقوفة في جامع بني أمية، قد أدى إلى انتفاع طلاب العلم والعلماء وعامة القراء بها، ويسَّر لهم الوصول إليها في أغلب الأوقات وحين الحاجة إليها، مما أدى إلى إذكاء الروح العلمية، وشجع لديهم الرغبة الجامحة في مواصلة البحث والطلب والقدوم إلى دمشق طلباً للعلم، وبخاصة في تلك الأزمان التي كانت فيه الكتب مخطوطة وغالية الأثمان، لا سيما الأصول الصحيحة، والنسخ المقابلة، والكتب النادرة.

خامساً: تجلى النشاط العلمي في جامع دمشق في قراءة المصحف الشريف التي لم تنقطع منه، وفي كثرة الحلقات العلمية التي يتصدر لها كبار العلماء، وفي قراءة المواعيد، وفي المناظرات العلمية، والخطب الدينية.

واللافت للنظر أن أعداد الحاضرين والمتلقين في هذه الحلق والمجالس العلمية كان كبيراً، فالسُّبع الكبير يحضره ثلاثمائة وأربعة وخمسون نفراً، وسُبع الكوثرية فيه أربعمائة وعشرون نفراً، وسبع المتلقين من الصغار فيه ثلاثمائة وثمانية وسبعون نفراً[٥٣].

سادساً: أصبح جامع دمشق مركزاً لتعليم القرآن، والقراءات القرآنية، والخط العربي، حيث توفر هذا النوع من التعليم لطلابه من مختلف المستويات، ووقفت على ذلك الجرايات المعلومة، حيث يجتمع طلاب العلم صغاراً وكباراً، ويلقنون القرآن، ويعلمون الخط بطريقة جعلت الرحّالة ابن جبير الأندلسي مندهشاً من دقتها

---

(٥٢) انظر: محمد أحمد دهمان، في رحاب دمشق، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٧٤-٧٦، وسيشار إليه فيما بعد: دهمان، في رحاب دمشق.

(٥٣) انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٤١٠-٤١٢؛ وانظر: أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، عرفّ التعريف في المكتبات، دراسة وتحقيق: سمير الدروبي، دار ابن الجوزي، وزارة الثقافة، عمان، ط١، ١٤١٩هـ/٢٠٠٨م، ص٣٣، وسيشار إليه فيما بعد: العمري، التعريب بالمصطلح الشريف.

وحسن عائدتها على المتعلمين[٥٤].

وقد تصدر لتعليم القراءات القرآنية في جامع دمشق علماء كبار أمثال: علم الدين السخاوي المقرئ المفسر النحوي شيخ الإقراء بدمشق (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وكانت له "حلقة إقراء بالجامع، فكان يُقرئ عند المكان [المعروف][٥٥] بقبر يحيى بن زكريا"[٥٦]، وخَلَفَه في الإقراء بجامع دمشق أبو بكر عمر بن مشيع (ت٧١٣هـ/١٢١٦م)، وأبو بكر بن أبي شامة الجعبري (ت٧١٣هـ/١٢١٦م) وغيرهم[٥٧].

سابعاً: إن جامع بني أمية قد احتل مكانة شامخة في تعليم اللغة العربية، وقد نهض بهذا العمل الجليل نحويون ولغويون ما زالت أسماؤهم مدوية، وشهرتهم ذائعة في تاريخ العربية، فمنهم علي بن الحسن بن الحسن المعروف بجمال الأئمة (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، وقد كانت له "حلقة بجامع دمشق للإقراء والفقه والنحو"[٥٨]، ومنهم البدوي الشيخ جمال الدين الحميري (ت٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، كان "يَحلُّ القصيد حلاً حسناً، ويفهم العربية... وله حلقة على باب المنارة الغربية بالجامع"[٥٩].

أما العلماء الذي حلّوا برحاب الشام فمنهم: أبو بكر بن محمد المرسي الذي وفد على دمشق في سنة ٦٨١هـ/١٢٢١م، "وتصدر لتعليم النحو عند قبر زكريا عليه السلام بالجامع... ولم يكن من ذلك الوقت أحد يجاريه، لا في القراءات ولا في النحو"[٦٠].

أما أكثر النحويين الذين علّموا النحو بجامع دمشق فهو عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب النحوي (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، وهو صاحب "الكافية في النحو" و"الإيضاح في شرح المفصل"، وقد قدم دمشق، "ودرّس بجامعها في زاوية المالكية، وأكب

---

(٥٤) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، الرحلة، تاريخ ومكان النشر غير منكورين، ص ١٩٠-١٦١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن جبير، الرحلة.

(٥٥) ما بين المعقفين زيادة تقديرية من الباحث، وبها يستقيم السياق

(٥٦) شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ٢ ج، تحقيق: بشار عواد وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط١ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٤م، ج٢، ص٦٣١-٦٣٥، وسيشار إليه فيما بعد: الذهبي، معرفة القراء والكبار.

(٥٧) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص٧٢٤-٧٢٦.

(٥٨) المصدر السابق نفسه، ج٢، ص٥٢٤.

(٥٩) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص٧٢١.

(٦٠) المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص ٧٤١.

الفضلاء على الأخذ عنه، وكان الأغلب عليه النحو"[٦١].

ويُعد محمد بن عبد الله بن مالك النحوي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، وهو صاحب "الألفية" المشهورة في النحو العربي، من أعظم النحويين الذين تصدّروا لتدريس النحو واللغة بدمشق، يقول السيوطي: "أقام بدمشق مدّة يصنّف ويشتغل، وتصدر بالتربة العادلية وبالجامع المعمور، وتخرج به جماعة كثيرة"[٦٢].

ثامناً: نال الحديث النبوي الشريف اهتماماً كبيراً من علماء الحديث بدمشق، وقد تصدى لرواية الحديث كبار المحدثين بها، وقد حفظ لنا القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) أسماء جملة من الكتب، والمسانيد والصحاح، والأجزاء الحديثة التي رواها بجامع دمشق عندما وفد إلى دمشق طالباً للعلم.

ويذكر التجيبي أنه قد قرأ على ابن عساكر (ت٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م): "موطأ مالك، رواية أبي المصعب أحمد بن أبي بكر القاسم... قرأت جميعه بمدينة دمشق، حرسها الله تعالى، وبالحائط الشمالي من الجامع الأموي... على الشيخ الجليل... المعروف بابن عساكر... وهذا الإسناد أيضاً إسناد جليل في غاية العلو، وليس يوجد اليوم على وجه الأرض من عنده إسناد إلى الإمام مالك –رحمه الله تعالى– أعلى من هذا، لا في "الموطأ" ولا في "منثور الحديث"[٦٣].

وقد تعددت قراءات التجيبي وسماعاته وإجازاته بدمشق، فقد قرأ "مسند أبي عوانة" على الحافظ المزي بكلاسة الجامع الأموي، وسمع "كتاب الأربعين حديثاً" لـ عبدالكريم بن هوازن القرشي بالحائط الشمالي من الجامع الأموي على المسند أبي الفضل بن هبة الله العساكري.

وسمع التجيبي "جزءاً عالياً" فيه أحاديث أبي الجهم الباهلي في الجامع الأموي، وسمع "الجزء السادس عشر من فوائد النسيب، على الشرف أبي الفضل بن عساكر بجامع

---

(٦١) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ٢ مجلد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ج٢، ص١٣٤، وسيشار إليه فيما بعد: السيوطي، بغية الوعاة.

(٦٢) المصدر السابق نفسه، ج١، ص١٣٠.

(٦٣) القاسم بن يوسف التجيبي (ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، برنامج التجيبي، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس، ١٩٨١م، ص٦٣–٦٤، وسيشار إليه فيما بعد: التجيبي، برنامج التجيبي.

دمشق... إلخ"، المسموعات الكثيرة التي ظفر بها التجيبي بجامع دمشق(٦٤).

تاسعاً: يلمح مما تمدنا به المصادر المختلفة، أن جامع بني أمية قد أصبح في القرون: السادس والسابع والثامن والتاسع الهجري مركزاً علمياً ضخماً تدرس فيه علوم: القرآن والتفسير، والقراءات والفقه، والحديث والنحو واللغة جنباً إلى جنب، وقد نهض بهذه المهام التعليمية علماء دمشقيون وشاميون في المقام الأول.

وكان المجال مفتوحاً لكل العلماء الوافدين على دمشق من الأندلس والمغرب والعراق وجزيرة العرب ومصر، والهند وبلاد الروم وبلاد العجم الذين شاركوا في التعليم، وإذكاء الروح العلمية في هذا الصرح العلمي العريق(٦٥).

وفوق ذلك، فإن تعدد خزائن الكتب الموقوفة في الجامع، وتنوع موضوعاتها: تفسيراً وحديثاً وفقهاً، وأدباً ولغة ونحواً، وما تهيأ للطلاب والعلماء في الجامع من زوايا ومقاصير، جعل منه مكاناً مناسباً لنسخ الكتب ومقابلتها، وما يتبع ذلك من درسٍ علمي، يقول ابن جبير الأندلسي: "وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب، يتخذها الطلبة للنسخ والدرس، والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة(٦٦).

والخلاصة أن جامع بني أمية قد أدى في تلك العصور دوراً علمياً جليلاً امتد أثره إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي من الهند شرقاً إلى الأندلس غرباً، بما تهيَّأ له من علماء أعلام ما زالت آثارهم منهلاً عذباً، ومورداً سائغاً للباحثين، أمثال: ابن عساكر وابن مالك النحوي، وأبي شامة المقدسي، وابن تيمية الحراني، والبرزالي والذهبي، والعمري، والصفدي، وابن كثير، وابن قاضي شهبة، وابن المبرد، والنعيمي، وابن طولون وغيرهم العشرات.

وبناءً على ما تقدم عرضه بعد تقصيه وتتبعه في المصادر الأصلية، فإنني أرفض رأي العلبي الذي أعطى مسجد بني أمية دوراً إقليمياً محصوراً في نيابة دمشق، يقول: "ولقد مارس الأزهر، دوراً أكثر أهمية من الأموي في تأثيره في الشرق الإسلامي... ولم يتح ذلك كله للجامع الأموي الذي كان أثره محصوراً في دمشق ونيابتها(٦٧).

---

(٦٤) المصدر السابق نفسه، ص ٧٢، ١٢٣، ١٥٩، ١٨٢، ١٩٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٨، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٥١، ٢٧٤.

(٦٥) انظر: أحمد أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٣-٢٥، وسيشار إليه فيما بعد: بدوي، الحياة العقلية.

(٦٦) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٦-١٨٧.

(٦٧) أكرم حسن العلمي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة، دمشق، ط١، ١٩٨٢م/١٤٠٢م، ص ١٦٥، وسيشار إليه فيما بعد: العلمي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.

قلت: في رأي العلبي السابق مغالطة كبيرة، لما جاء في مصادر العصور: النوري والأيوبي والمملوكي، بل إنه قد يتفوق جامع بني أمية على الجامع الأزهر في دوره العلمي، وذلك لما فيه من أكابر العلماء وخزائن الكتب الموقوفة في هذه العصور، ولذا فإنه من الإنصاف أن يطلق على الجامع الأموي اسم أقدم جامعة إسلامية، حيث تم بناؤه قبل الأزهر بقرنين تقريباً، على الرغم مما تعرض له هذا الجامع التاريخي، من إهمال العباسيين، وتهميش الدولة العبيدية بل تدميرها لهذا الصرح الإسلامي العظيم، لأسباب يعرفها الدارسون، ثم تخريب التتار المتوحشين وإهمال الأتراك العثمانين فيما بعد.

أوَقافُ المماليك ببِلاد الشَّام
على مُنْشَآتهم في القاهرة من خِلالِ خِطَط المقريزي

أيمن فؤاد سيّد*

لا يخفى على المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية المعلومات المهمة التي يوفرها لنا كتاب ((المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)) للمقريزي المعروف بكتاب (الخطط)، عن القصور والجوامع والمدارس والخوانق والدور والحمَّامات والقياسر والخانات والوكالات التي وجدت في عاصمة مصر (القاهرة والفسطاط) خلال تسعة قرون، أي حتى أواسط القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

ولا ترجع أهمية هذه المعلومات إلى قيمة المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها المقريزي وإنَّما كذلك إلى اطِّلاعه على العَديد من ((كُتُب الأمْلاك القديمة))[1] أو حُجَج الوَقْف ووثائقه.

فلم يكن من الممكن لبعض المنشآت كالمدارس والخوانق والمارستان، على سبيل المثال، أن يستمر نشاطها بدون الأوقاف. وكانت القاهرة في حقيقة الأمر في العصر المملوكي أشبه بمدينة جامعية فعلى طول القصبة – وعلى الأخص في منطقة بين القصرين – كانت توجد سلسلة من المدارس: دار الحديث الكاملية (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، والمدارس الصَّالحية (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، والمدرسة الظَّاهرية بيبرس (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م -٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م)، ومدرسة المنصور قلاوون (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م - ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، والمدرسة الناصرية محمد بن قلاوون (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م - ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م)، والمدرسة الظَّاهرية برقوق (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م - ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، والمدرسة الأشرفية برسباي (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) وإلى الجنوب قليلا كانت توجد آخر مدارس دولة المماليك الشراكسة مدرسة الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م-٩١٠هـ/ ١٥٠٥م) وإلى جوار باب زويلة مدرسة المؤيد شيخ المحمودي (٨١٨هـ/ ١٤١٥م - ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) .

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي وخبير المخطوطات، جمهورية مصر العربية.

(١) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ٥ مج، حققه أيمن فؤاد سيد، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٣م – ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ٢: ٤٦١ ؛ ٣: ٣٩، ١٢٥، ٢٦٢، ٣٣٤، ٣٨١، ٤: ٦٥٦، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، المواعظ والاعتبار.

وكانت توجد كذلك على جانبي القصبة في شوارع موازية لها عددٌ كبير من المدارس والخوانق: خانقاه بيبرس الجاشنكير (٧٠٦هـ/١٣٠٦م - ٧٠٩هـ/١٣١٠م) والمدرسة القراسنقرية (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) وجامع سابق الدِّين مِثْقال (٧٦٣هـ/١٣٦١م)، ومدرسة جمال الدين الأُسْتادار (٨١١هـ/١٤٠٨م) وجامع أبي بكر بن مُزْهِر (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) بحارة برجوان.

وقد لَفَتَ هذا الأمر انْتِباه العلاَّمة عبد الرحمن بن خَلْدُون في ((المُقَدِّمة)) و((التعريف))، يقول في ((المُقَدِّمَة)) وهو يذكر تراجع دور مراكز العلم القديمة في بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة أن المماليك استكثروا من بناء المدارس والزَّوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة... فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلِّمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها))[٢].

وأكدّ ذلك في ((التعريف)) يقول في وصف المماليك باعتنائهم ((بإنشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لإقامة رسوم الفقراء ... فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم ومتدربي الفقراء ... وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة))[٣].

فقد كانت الغايةُ من هذه الأوقاف العناية بمباني المدارس والخَوَانِق والمارِسْتان وتمكينها من أداء وظيفتها عن طريق توفير مَوارد لصِيانَة المبنى والعناية به ودَفْع رواتب القائمين عليه من القَوَمَة والفَرَّاشين والمُزَمِّلين والمُؤَذِّنين، وكذلك القُرَّاء والمُدَرِّسين والمُعيدين والعُرَفاء وخُزَّان الكتب والصَّرْف على جامَكِيَّة الطلاب والمُدَرِّسين من العَيْن: السكر والزيت واللحم والخبز.

وإذا كان المقريزي قد تمكن من الاطلاع على العديد من ((كتب الأملاك القديمة))، وعلى الأخص فيما يخص الفترة الفاطمية وأشار إليها، فإنَّه بحكم عمله في ديوان الإنشاء أتيح له دون شك الاطلاع على العديد من الوقفيات المملوكية الصادرة في القرنين السابع والثامن

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن حسن بن عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، المقدمة، ٣ مج، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٩م، ٣: ١٠٢٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن خلدون، المقدمة.

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن عبد الرحمن بن خلدون(ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م): التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥١، ٢٧٩، وسيشار إليه فيما بعد: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون.

للهجرة / الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. وإذا كان قد أشار إلى الأماكن التي وقفها سلاطين وأمراء المماليك في مصر على منشآتهم، فإنه لا يشير كثيرًا في المقابل إلى الأوقاف التي وقفوها في بلاد الشَّام على منشآتهم القاهرية، ومعروف أن دولة المماليك كانت تمدّ نفوذها على الديار المصرية والديار الشامية والأراضي المقدسة بالحجاز.

وتنحصر المنشآتُ التي أنشأها سلاطين وأمراء المماليك في القاهرة ووقفوا عليها أوقافًا مغلة بالبلاد الشامية في المنشآت الآتية:

- جامع آقسُنْقُر قرب قلعة الجبل فيما بين باب الوزير والتَّبَّانة ويرجع تأريخ إنشائه إلى سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م - ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م وهو مسجل بالآثار برقم ١٢٣. قال: ((جعل عليه ضَيْعَة من قرى حلب تُغِلّ في السنة مائة وخمسين ألف درهم فضة، عنها نحو سبعة آلاف دينار)) إلاَّ أنَّه أضاف ((ولمَّا حَدَثَت الفتنُ ببلاد الشَّام وخرجَت النُّوَّابُ عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق [أي في سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م] امتنع حضور فعل وقف هذا الجامع لكونه في بلاد حلب . فتعطَّل الجامع من أرباب وظائفه إلاَّ الأذان والصلاة وإقامة الخطبة في الجُمَع والأعياد))[٤] .

أي أنَّ الذي تَعَطَّل فعلاً من نشاط المنشأة هو الدرس ومكتب الأيتام والسبيل نتيجةً لعدم ورود ريع الوقف المخصص له من حلب ، الأمر الذي يؤكد أن ريع الأوقاف كان المصدر المالي الأساسي والوحيد لغالبية مدارس ومكاتب الأيتام في العصر المملوكي.

- المدرسة الجمالية بجوار دَرْب راشد من القاهرة على باب الزقاق المعروف قديمًا بدرب سيف الدولة نادِر قبالة دار الأمير مُغْلطاي الجمالي ، ويرجع تأريخ إنشائها إلى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م وهي مسجلة بالآثار برقم ٢٦ . قال : ((وكان شأن هذه المدرسة كبيرًا يسكنها أكابر فقهاء الحنفية ، وتعدّ من أجَلّ مدارس القاهرة، ولها عِدَّة أوقاف بالقاهرة وظواهرها وفي البلاد الشَّامية))[٥].

- المدرسَةَ النَّاصرية بين القصرين ، وهي التي أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون شرقي قُبَّة والده المنصور قلاوون سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ومسجلة بالآثار برقم ٤٤. قال: ((ووقف على هذه المدرسة قيسارية أمير علي بخط الشرابشيين من القاهرة والرَّبْع الذي يعلوها ، وكان يعرف بالدَّهيشة [قريبًا من باب زَويلَة ووقف عليها أيضًا حوانيت

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار مج٤، ص ٢٤٠.

(٥) المصدر السابق نفسه، مج٤، ص ٥٧٥، ٥٧٦.

بخط باب الزهومة من القاهرة ودار الطَّعْم خارج مدينة دمشق))[٦].

- جامع السُّلْطان حسن المعروف بمدرسة السلطان حسن . تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل (٧٥٧هـ / ١٣٥٧م - ٧٦٤هـ / ١٣٦٤م) ومسجل بالآثار برقم ١٣٣ . يقول المقريزي: ((وكان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافًا عظيمة جدًّا فلم يترك منها إلاَّ شيءٌ يسير ، وأقطع أكثر البلاد التي وُقِفَت عليه بديار مصر والشام لجماعةٍ من الأمراء وغيرهم))[٧] .

- وجامع مدرسة السلطان حسن هو أكبر مدرسة أنشئت في العصر المملوكي، وكان مُتَحَصَّل وَقْفِها في كل سنة ينيف على مُتَحَصَّل مملكة ضخمة[٨] .

ومن حسن الحظ فقد وَصَلَ إلينا كتاب وَقْف السلطان الملك الناصر حسن على مصالح القبة والمسجد والمدارس ومكتب السبيل التي أنشأها بالقاهرة[٩]. ويقدم لنا كتاب الوقف وصفاً تفصيليًا للأماكن التي وقفها السلطان الناصر حسن سواء بالديار المصرية أو الشامية على مصالح المنشأة ، تقول الوَقفية:

((وَقَفَ وحَبْسَ وسَبَّل وأبَّدَ وتَصَدَّق بجميع ما يأتي ذكره وبيانه فيه مما هو جارٍ في ملكه ويده الشريفة وحوزه وتصرفه وبعضه معروف بإنشائه وعمارته ، فمن ذلك...)) وتجدد الوقفية وصف النواحي والحِصَص الشائعة من القرى المذكورة بالديار المصرية. ثم ينتقل إلى وصف النَّواحي والحِصص الشَّائِعَة بالمملكة الدمشقية والمملكة الحلبية والمملكة الحموية .

ومن بين الأراضي الموقوفة بالمملكة الحلبية يُشير كتاب الوقف إلى:

- جميع الحِصَّة التي مبلغها النصف اثنتا عشر سهمًا ومن أصل أربعة وعشرين سهمًا شائعًا من جميع المدينة المعروفة بأنطاكية والأراضي الكائنة بداخلها وبظاهرها.

---

(٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار؛ تقي الدين أبو العباس احمد بن علي بن عبد القادر المقريزي(٨٤٥هـ/١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك، مج٤، ص٥٣٠، ، ، ٤ مج، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٢، ١: ٩٥١-٩٥٢، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي ،السلوك .

(٧) المصدر السابق نفسه، مجلد ٢، ص٢٧٤.

(٨) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بول رافيس، المطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٤م، ص٣١.

(٩) كتاب وقف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون على مدرسته بالرميلة، حققته وعلقت عليه هويدا الحارثي، النشرات الإسلامية ج ٤٥، بيروت ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، وسيشار إليه فيما بعد: وقف السلطان الناصر.

وكذلك القرية المعروفة بالقوعة والقرية المعروفة بأقميناس من عمل سَرْمين .

أما المملكة الحموية فيشير كتاب الوقف إلى القرية المعروفة بكفر بهمة .

كذلك أشار كتاب الوقف إلى قرى وأراضٍ في البقاع البعلبكي وفي عمل نابلس وعمل بَيْسان بالغور الغربي من جند دمشق المحروسة(١٠).

وترجع أهمة نشر النصوص الكاملة لكتب الوقف المتعَلِّقة بالمنشآت الدينية وذات الطابع الاجتماعي ، إلى أنَّها توفر لنا مادَّةً أصيلة تسمح لنا باستكمال الأوصاف التي تقدمها كتب الخطط والرحلات للعديد من المنشآت.

وعادةً ما أجد الباحثين يهتمون عند نشر كتب الوقف بنشر الجزء المتعلِّق بوَصْف المُنْشأة ومَصارِف الوقف ويتجاهلون نشر الجزء المتعلِّق بتعريف الأراضي والأماكن والحِصَص الموقوفة على المنشأة أو ما يطلق عليه موارد الصرف، وهو القسم الذي يحدد لنا في كتاب الوقف وصف الأماكن أو الأراضي الزراعية أو الحصص المحبوسة عن التداول بأي نوع من أنواع التَّصَرُّف الأمر الذي يجعل هذه الأموال الموقوفة بمنأى عن حركة التداول المالية العامة؛ وهو الأصل في طبيعة الوقف.

وعلى ذلك فإن وثائق الوقف المملوكية المنشورة بالكامل لا تزيد على خمس حجج، أقدمها في تأريخ النشر: حجة وقف الأشرف خليل بن قلاوون التي نشرها M. Moberg سنة ١٩١٨م، وحجَّة وقف السلطان قايتباي التي نشرها M. Mayer في لندن سنة ١٩٣٨م، وحجة وقف الأشرف برسباي التي نشرها أحمد دراج في دمشق سنة ١٩٦٣م، ووثيقة وقف جمال الدين يوسف الأستادار التي نشرها محمد عبد الستار عثمان في القاهرة سنة ١٩٨٣م، وكتاب وقف السلطان الناصر حسن على مدرسته بالرميلة التي نشرها هويدا الحارثي في بيروت سنة ٢٠٠١م.

أما بقية حجج الأوقاف المنشورة، فأسقطت من الوثيقة الأقسام المتعلقة بموارد الوقف، وهي التي كان من شأنها أن تحدِّد لنا الأماكن والضَّيَاع الموقوفة وتحديد مواضعها سواء من الديار المصرية أو الشامية.

---

(١٠) كتاب وقف السلطان الناصر حسن ٨٦، ٩٣، ١٢٨، ١٣٠.

الأوقاف التنكزية في دمشق

اكتمال إسماعيل*

تعد دراسة الأوقاف بشكل عام، والمملوكي بشكل خاص من أمتع الدراسات التاريخية وأكثرها تعقيداً كون الباحث بالكاد يستطيع الحصول على وثيقة أو مخطوطة تخص تلك الأوقاف وذلك بسبب قلة أو ندرة وجودها ومرد ذلك إلى الحروب التي أدت إلى سرقة أو إتلاف بعض أو معظم تلك الوثائق، أو بسبب نقلها إلى مناطق أخرى.

وتمشياً مع تشجيع فروع التاريخ الحضاري ومحاولات نبش كنوز التراث العربي عامة، والإسلامي خاصة، وإظهار الوّجه الحقيقي لهذا التراث الذي يجسد ماضي الأمة وحاضرها، لقي موضوع الأوقاف الاهتمام الكبير من عدد كبير من الباحثين. ذلك أن أهمية الموضوع كونه يجسد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لا بل حتى السياسية لمعظم جماهير العامة كونه مرتبطاً بالحياة الاجتماعية والعلمية من مدارس، ومساجد، وأربطة، وزوايا، وخانقاوات وغيرها إلى جانب طرق التدريس أو العيش فيها.

وما دام الحديث يتناول الأوقاف فقد تحتم تسليط الضوء على شخصية مهمة من شخصيات العصر المملوكي، هذه الشخصية شبهت بشخصية جعفر البرمكي في الدولة العباسية إنه الأمير والوالي سيف الدين تنكز.

لقد شهد العصر المملوكي اضطراباً سياسياً وأمنياً كبيراً قابله ازدهار فكري وديني واضح، ذلك أن ساحات بلاد الشام شهدت اجتياحاً مغولياً مدمراً، كما كانت قد شهدت احتلالاً صليبياً مبكراً، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ترافق حكم المماليك بكثرة الفتن والدسائس والمؤامرات التي حيكت فيما بينهم من أمراء ونواب متنازعين على السلطة.

في البدء، قام المماليك بإصلاحات إدارية، حيث قسموا بلاد الشام إلى عدة وحدات إدارية صغيرة، ومملكة ونيابة، وكانوا يديرونها من القاهرة بواسطة نواب لهم نائب السلطنة، وتحاشياً لتمركز السلطة في أيدي هؤلاء النواب، فقد عينوا في تلك المدن حاكمين أحدهما مدني مقره القلعة، والآخر عسكري مقره دار العدل أو السعادة[1]، التي تقع غرب المدينة.

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، الجمهورية العربية السورية.

(١) زاك دوروتيه، دمشق وتطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية، نقله من الألمانية قاسم طوير، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٥م، ص ٤٢، وسيشار إليه فيما بعد: دوروتيه، دمشق.

وكانت كل من مدينتي دمشق وحلب الأكثر صراعاً بين النواب والسلطان أو بين نائبي السلطنة.

ودفع الغزو المغولي السلطان المملوكي إلى الاهتمام ببلاد الشام وإيلاء نوابها أهمية كبيرة، ولما كانت دمشق من أكبر النيابات فقد شهدت تبدلاً كبيراً في عدد الولاة الذين حكموها، واهتم بعض هؤلاء الولاة بنيابة دمشق سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وجعلوها تتفوق أحياناً على نيابة حلب، ومن أشهر هؤلاء الولاة سيف الدين تنكز أو دنكز الذي يعني البحر(٢).

وقد أفاضت المصادر بالحديث عن تنكز وأعماله ومدة حكمه وأوصافه كالصفدي، والمقريزي، والعسقلاني، وابن كثير، وابن طولون، وكثيرين ومرد ذلك لأهمية الأعمال التي أنجزها وكثرتها وعلاقته مع السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون.

كان تنكز قد اشتراه الأمير حسام الدين لاجين الذي ظل عنده حتى قُتل، فأصبح من خاصكية السلطان الناصر محمد بن قلاوون، لكن الصفدي أكد أنه كان أولاً من مماليك الأشرف ثم آل إلى الناصر محمد(٣)، وقد شهد مع السلطان محمد وقعات ضد المغول وأهمها الخازندار وشقحب(٤).

وعينه الناصر سنة (٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، نائباً على دمشق، وقد تمكن خلال مدة حكمه التي اختلفت المصادر في تحديها بين ٢٥ سنة إلى ٢٦، و٢٧، و٢٨ من إعادة الهدوء إلى المدينة وإزالة آثار الحرب عنها وإنجاز وترميم ما يقارب الأربعين منشأة، كما عُهد إليه بقيادة الجيوش المملوكية باتجاه الحدود الشمالية وخاصة صوب ملطية وقد قيل عنه: " ... ولم يكن أحد من الأمراء ولا من أرباب الجاه يقدر يظلم أحداً ذمياً أو غيره خوفاً من بطشه وشدة إيقاعه، ولم يزل في ارتقاء وعلوّ درجة يتضاعف إقطاعه وإنعامه وعوائده من الخيل

(٢) أكرم حسن العلبي، خطط دمشق، دمشق، دار الطباعة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٢١٦، وسيشار إليه فيما بعد: العلبي، خطط.

(٣) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر، بيروت، دار الفكر، مكتب البحوث والدراسات، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص ٥٣١، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، أعيان.
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، ٣٠ج،اعتنى به أيدمر ثابت ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٦م، وسيشار إليه فيما بعد:الصفدي، الوافي.

(٤) الصفدي، الوافي، ج٧، ص ٢٨٠؛ عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، ١٩٤٨م، ج١، ص١٢٤، وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس؛ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، دمشق، ١٩٨٦م، ص ٦٦، وسيشار إليه فيما بعد: بدران، منادمة الأطلال.

والقماش والطيور والجوارح، حتى كُتِب له: "أعز الله أنصار المقر الكريم العالي الأميري"، وفي الألقاب: "الأتابكي الزاهدي العابدي"، وفي النعوت: "معز الإسلام والمسلمين سيد الأمراء في العالمين"(٥).

وقد قال الصفدي: "وهذا لم نعهده يكتب عن سلطان لنائب ولا غير نائب على اختلاف الوظائف والمناصب، وكان السلطان شيئاً في الغالب حتى يسير إليه ويستشيره فيه، وقلما كتب إلى السلطان في شيء فرده، ومهما قرره من إمرة ونيابة ووظيفة وقضاء وإقطاع وغير ذلك، تَردُ التواقيع السلطانية بإمضائها"(٦).

وزاد المقريزي على أعماله بأنه قال: "تتبع المدارس والمساجد والأوقاف فعمرها جميعها ومنع مستحقيها من تناول ريعها حتى كملت عمارتها، وجدد عدة أماكن قد دثرت أوقافه، وأعاد فيها وظائف العبادات ... وجددً عمارة الجامع الأموي، وعمّر أوقافه"، ثم قال: "اتخذ الأملاك وأخذ عدة أوقاف، من أولاد الملوك حتى كانت غلة أملاكه كل سنة مائة ألف درهم"(٧).

ولم تقتصر أعماله على المنشآت الدينية أو الوقفية بل جدد القنوات بدمشق، ووسع الطرقات وأصلح الرصفات، وقاد الجيوش نحو ملطية وفتحها سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، وعمر قلعة جعبر التي تعرضت للخراب زمن هولاكو، وذلك سنتي ٧٣٥ و٧٣٦هـ/ ١٣٣٤-١٣٣٥م، عندما أخذ عمالاً وصناعاً من حلب إلى جعبر للعمل بها، كما أنه فرض على نائب حلب أن يُخرج من كل قرية نصف أهلها، وضريبة على الأسواق، فنفذ النائب طلبه وجمع ٢٠,٠٠٠ عامل. لكن عمارة هذه القلعة كانت وبالاً على تنكز وسبباً من أسباب القبض عليه

---

(٥) الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ٤٢٠؛ أعيان، ج١، ص ٥٣٣؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، تحفة ذوي الألباب، ٢مج، تحقيق : احسان خلوصي، وزهير الصمام، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، مج٢، ص ٢٣٢- ٢٣٣، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، تحفة ذوي الألباب؛ بدران، منادمة الأطلال، ص ٦٦- ٦٧، وهناك اختلاف عنه في الدارس للنعيمي ببعض الكلمات. للإطلاع ينظر: النعيمي: الدارس، ج١، ص ١٢٥.

(٦) الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ٤٢٢؛ أعيان، ج١، ص ٥٣٢، تحفة، ج٢، ص ٢٣٢؛ الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج١٤، ص ٧٣، وسيشار إليه فيما بعد: ابن كثير، البداية والنهاية؛ محمد أحمد دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ص ١٥٨، ١٦٠- ١٦١، وسيشار إليه فيما بعد: دهمان، ولاة.

(٧) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة، مصر، ط٢، ١٣٧٦هـ/ ١٩٦١م، ج٢، ق٢، ص ٥١٠- ٥١٢، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك، وأورد في الحاشية (٣)، ص ٤٧٤، أنه ربما يكون قصد أولاد الملوك المتوفين.

لأن الناصر محمد استشعر خطرها بكونها ستصبح ملجأ لتنكز إذا عصى على السلطان، كما أنها قريبة من بلاد التتار(٨).

ونتيجة لمحبة الناصر محمد لتنكز فقد تزوج من ابنته، وزوج ابنتيه لولدي تنكز فأكرمه السلطان إكراماً يفوق الحد وزاد بأن سأله إن كان يبغي شيئاً أيضاً ليلبيه له قبل سفره لكن تنكز قَبَّلَ الأرض وقال:

"والله يا خوند ما بقي في نفسي شيء أطلبه إلا أن أموت في أيامك، فقال السلطان: لا، إن شاء الله تعيش أنت وأكون أنا فداؤك، أو أكون بعدك بقليل، فقبل تنكز الأرض وأنصرف(٩).

وباعتبار الصفدي كان صديقه الحميم نقل وقائع حياته بتفاصيل أوسع عندما أورد على لسان الحاجب قرمشي نقلاً عن السلطان قوله:

"أنا أحاول - أي السلطان - من الناس أمراً وما يفهمونه عني وناموس الملك يمنعني أن أقوله بلساني وهو أني لا أقضي لأحد حاجة إلا على لسانه، أو بشفاعته ودعا له بطول العمر، قال: فبلغت ذلك للأمير، فقال بل أموت أنا في حياة مولانا السلطان قال: فلما أنهيت ذلك إلى السلطان قال: يا قرمشي قل له لا أنت إذا عشت بعدي نفعتي في أولادي وحريمي وأهلي، وأنت إذا مت إيش أعمل أنا مع أولادك أكثر مما يكونوا أمراء، وها هم الآن أمراء في حياتك أو كما قال"(١٠).

ومع تأكيد معظم الباحثين على عدله وحسن سيرته إلا أنهم أظهروا بعض مثالبه، وهيأنّه كان يضخم الأمور فقد ذكر الصفدي:

"وكان ما له غرض غير الحق والعمل به ونصرة الشرع، خلا أنه كان به سوداء يتخيل بها الأمر فاسداً، ويبني عليه، فهلك بذلك أناس، ولا يقدر أحد من مهابته يوضح له الصواب، ولا يقول له الحق فيما يفعله. وكان إذا غضب لا سبيل له الرضى ولا العفو وإذا بطش، بطش بطش الجبارين، ويكون الذنب يسيراً نزراً، فلا يزال يكبر ويزيده ويوسعه إلى أن يخرج منه عن الحد، ورأيت من سعادته أشياء منها: إذا غضب على أحد في الغالب لا يزال في خمول وتعاسه إلى أن يموت"(١١).

---

(٨) الصفدي، أعيان، ج١، ص ٥٣٢؛ دهمان، ولاة، ص ١٥٨، ١٦٠- ١٦١.

(٩) دهمان، ولاة، ص ١٥٧.

(١٠) الصفدي، عيان، ج١، ص ٥٣٢؛ الوافي، ج١٠، ص ٤٢١.

(١١) الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ٤٢٢؛ أعيان، ج١، ص ٥٣٣.

ما ورد سالفاً يدل على تناقض الآراء حوله بين مثنٍ عليه بإحسانه وعدله، وناقد له لسطوته وإقدامه على سفك الدماء أو بين حيادي قال بأنه إذا قيس بأمراء عصره فإنه أعدلهم، أما إذا قيس بعدل نور الدين أو صلاح الدين، فليس منه ولا قلامة ظفر"[١٢].

ومع اهتمام السلطان الناصر محمد بالوالي تنكز وفي ذروة سلطته غضب عليه الناصر محمد واحتاط على أمواله، وأمر بالقبض عليه، ثم استدعاه إلى الإسكندرية سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، حيث حبسه مدة دون الشهر ثم قتله في السنة نفسها ويقال أنه قُتلَ بالسم عن بضع وستين سنة، وبعد وفاة الناصر أعاد حفيده جثته إلى دمشق ودفنه في تربته، بعدما جدد جامعه في حكر السماق وأكمله[١٣].

قال الصفدي بعد وفاته:

كذا تسرى الخطوب إلى الكرام ... وتسعى تحت أذيال الظلام
وتغتال الحوادث كل ليث ... هزبرٍ عن فريسته محام[١٤]

وفي نقل رفاة تنكز إلى دمشق قيل:

إلى دمشق نقلوا تنكزاً ... فيا لها من آية ظاهرة
في جنة الدنيا له جثةٌ ... ونفسه في جنة الآخرة

وقيل أيضاً:

في نقل تنكز سر ... أراده الله ربه
أتى به نحو أرض ... يحبها ويحبه
أعاد الله شخصك بعد دهر ... إلى بلد وليت فلم تخنها
أقمت بها تدبرها زماناً ... وتأمر في رعاياها وتنهى
فلا هذا الدخول دخلت فيها ... ولا ذاك الخروج خرجت منها[١٥]

---

(١٢) دهمان، ولاة، ص ١٦٧.

(١٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ١٨٧- ١٨٨؛ شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م)، ص٤١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، إعلام الورى؛ عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي الشافعي(ت ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م)، مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات مديرية الآثار القديمة العامة، دمشق(١٣٦٦هـ/١٩٤٧م) ص ٢٢- ١٨٩؛ وسيشار إليه فيما بعد: العلموي، مختصر؛ بدران، منادمة، ص ٦٧- ٣٣٠.

(١٤) الصفدي، أعيان، ج١، ص ٥٣٩- ٥٤١؛ دهمان، ولاة، ص ١٦٤.

(١٥) الصفدي، أعيان، ج١، ص ٥٤١؛ الوافي، ج١٠، ص ٤٢٣؛ تحفة ذوي الألباب، ج٢، ص ٢٤٣.

وتضاربت الآراء حول أسباب مقتله بين عدم قبول شفعة السلطان النصر في جوبان أحد مماليك تنكز المسجون بالكرك، وبين تدخله بشؤون السلطان الخاصة، وسماع الناصر بتمرد تنكز ضده والالتجاء إلى قلعة جعبر(١٦).

وقد خلد تنكز أعماله بكثرة الأوقاف على البيمارستانات والجوامع والمدارس، والحمامات وغيرها.

ويقصد بالأوقاف الأراضي والمنشآت التي كان المسلمون يخصصونها لأغراض دينية، أو للمجاهدين، أو لليتامى، أو لبناء المعالم الحضارية كالحصون وغيرها، إضافة إلى المعاهد الدينية كالزوايا والأربطة وغيرها من المنافع العامة.

وكانت الأوقاف في العصر المملوكي على نوعين: خاصة يوقفها الأمراء والأغنياء، ورسمية توقف من قبل الدولة متمثلة بالسلطان والنواب لتصرف على بعض المنشآت الدينية والاجتماعية العامة، فالأوقاف كانت مصدراً لتمويل الحركة العلمية، وكانت مصدر الإنفاق على الحملات العسكرية الموكل إليها رد الغزاة عن البلاد، وكان الوقف يشتمل على ثلاثة أقسام: وقف الذرية، ووقف الخير، والوقف الثالث نوع مشترك تخصص فيه الأملاك للورثة، وبعدهم لوجوه الخير(١٧).

ولم يكن تخصيص الأوقاف حكراً على المسلمين فقط، بل كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أوقاف كثيرة(١٨).

وكان للأوقاف قيّم يسمى شاد الأوقاف، وقد اختلفت رتبته بين مدينة وأخرى، ففي دمشق كانت عادتها أمرة عشرة، وربما طبلخاناه، بينما كان في مدينة حلب تقدمة ألف وطبلخاناه، وكان متوليها يعين من الأبواب السلطانية، وبذلك تكون رتبة شد الأوقاف في حلب أعلى من دمشق.

وكان لشاد الأوقاف مجموعة من المساعدين كالمشارفين أو الشهود، وأصحاب الديوان أو المستوفين إلى جانب مجموعة من النظار الذين تطاول بعضهم وأكل أموال الأوقاف(١٩).

---

(١٦) دهمان، ولاة، ص ١٦٤.

(١٧) يوسف درويش غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة – عمان، ١٩٨٢م، ص ١٠٧، وسيشار إليه فيما بعد: غوانمة، نيابة القدس.

(١٨) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٨م، ج٣، ص ٥٦، وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، المنهل الصافي.

(١٩) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد

وبالنسبة لتنكز فلم تقتصر منشآته الوقفية على دمشق فقط، بل شملت مناطق الشام الجنوبية وفلسطين، فقد كان له مرستان وخان بصفد، وجامع بنابلس وعجلون، ودار حديث بالقدس، وخانقاه ومدرسة بالقدس أيضاً ورباط وسوق موقوف على المسجد الأقصى، وسور وحمامان أحدهما بباب القطانين، والمعروف بالحمام الجديد(٢٠)، حيث قيل إنها: "كانت أحوج شيء إليه لأنه لم يكن بها حمامات مرضية"(٢١).

وكان لدمشق النصيب الأكبر من الأوقاف التنكزية، وخاصة الجامع المعروف باسمه في حكر السماق خارج السور إلى جانب التربة والحمام الملحقة بالجامع، يليها دار القرآن والحديث، ودار الذهب، وتربة زوجته جانب الخواصين، وقد شمل اهتمام تنكز جميع المرافق العامة من مساجد ومدارس وطرقات وقنوات وغيرها(٢٢).

ويعد جامع تنكز أول منشأة وقفية كبيرة، وقد اختير له موقع في دمشق على نهر بانياس ظاهر باب النصر في حكر السماق(٢٣).

ويقال بأنه بدء العمل به سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، ويقال ٧١٤هـ/ ١٣١٤م، وقد تردد

عبد الهادي شعيرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م، ج٣٠، ص ٤٩، وسيشار إليه فيما بعد: النويري، نهاية الأرب؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٣١٦؛ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ١٤ج، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٩٢هـ/ ١٩١٤م، ج٤، ص ١٨٦- ٢١٨، وسيشار إليه فيما بعد: القلشندي، صبح الأعشى؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٤١؛ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، أنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ج٢، ص ٨٣، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر العسقلاني، أنباء؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص ٢٦٩.

(٢٠) الصفدي، الوافي، ج١٠، ص ٤٣٢؛ أعيان العصر، ج١، ص ٥٣٣؛ تحفة، ٢/ ٢٣٩؛ ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ١٨٧؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص ٣٠٢؛ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف العمري العليمي(ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزأن، تحقيق: محمود عودة الكعابنه، إشراف: محمود علي عطا الله، بدران، مكتبة دنديس، ط١، ١٩٩٩م، ص ٧٨، وسيشار إليه فيما بعد: العليمي، الأنس الجليل، بدران، منادمة الأطلال، ص ٦٧؛ علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٥٢٢، وسيشار إليه فيما بعد: علي السيد، القدس.

(٢١) الحافظ شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤ج، تحقيق: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص ٣١٠-٣١١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة.

(٢٢) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ٨١، ٨٨، ٩٩، ١٤٤؛ بدارن، منادمة الأطلال، ص ٣٣٠؛ دورتيه: دمشق ص ٤٣.

(٢٣) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ٨١؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص ١٨٤؛ العلبي، خطط، ص ٣١٦؛ عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دار البشائر، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٩٥، وسيشار إليه فيما بعد: الريحاوي، العمارة العربية.

القضاة والعلماء في تحرير قبلته، وقام الشيخ ابن تيمية بتحرير قبلته[٢٤].

ويقال تكامل بنيان المسجد سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٧م، ومعنى ذلك أنه لم يستغرق أكثر من سبعة عشر شهراً، بعدها أقيمت فيه صلاة الجمعة على يد خطيبه نجم الدين معلي بن داود بن يحيى الحنفي المعروف بالفقجازي[٢٥].

وعمد تنكز إلى تولية خطابته إلى قاضي القضاة صدر الدين بن الكشك؛ ولذلك قصة تقول إنه بينما كان تنكز يتمشى في صحن الجامع وقد أعجبه قال: "والله صحن مليح فاغتنهما حاسد بني الكشك فقال: يا مولانا صحيح مليح لغير الكشك ففطن تنكز لمراده وضحك وولاّه الخطابة"[٢٦].

تميز المسجد بمئذنته الرائعة المضلعة التي تعد من أقدم المآذن المملوكية في دمشق[٢٧]، وقد استمر وجود هذا الجامع لمدة زمنية متأخرة، وقد طرأ عليه الترميم والإصلاحات سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م، وعلى يد حفيد تنكز الأمير صلاح الدين بن محمد بن تنكز واستغرق عمله سبعة شهور[٢٨]، وقد قام بنقل رفاه جده إليه، واستمر وجود هذا الجامع مدداً طويلة وما زال، وقد ذكره ابن عبد الهادي كما تقدم القول:

"للجامع اليوم جبهة حجرية طويلة، فيها أربعة أبواب، اثنان منها يؤديان إلى القبلة واثنان يؤديان إلى الصحن، وبين الباب الأول للآتي من شارع جمال باشا والباب الثاني مزولة رخامية ... وليس في القبلية زخارف إلا في المحراب الحجري الجميل، ولكنها مشوهة بالدهان، والمنبر من الحجر أيضاً وفوق موقف الخطيب قبة صغيرة من الحجر الجميل إلى جانبيها عمودان من الرخام الأسود المعرق، وللقبلية ثمانية أبواب ضخمة تؤدي إلى الصحن وفي هذا الصحن بركة عظيمة إلى جانبيها يجري نهر بانياس وفي الجهتين الشرقية والغربية غرف أرضية وعلوية، وفي الجهة الشمالية تقوم المأذنة العالية البديعة الصنع

(٢٤) العلبي، خطط، ص ٣١٦.

(٢٥) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ٨٨؛ جمال الدين يوسف بن الحسن بن احمد بن عبد الهادي، الملقب بابن عبد الهادي (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق: محمد طلس، المعهد الإفرنسي بدمشق، مجموعة النصوص الشرقية، بيروت، ١٩٤٣م، ج٣، ص ٢٠٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد.

(٢٦) العلموي، مختصر تنبيه، ص ٢٨٨.

(٢٧) قتيبة الشهابي، احمد الإيبش، معالم دمشق التاريخية دراسة تاريخية ولغوية عن أحيائها ومواقعها القديمة، تراثها وأصولها واشتقاق أسمائها، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م، ص ١١٤، وسيشار إليه فيما بعد: الشهابي، معالم دمشق.

(٢٨) العلبي، خطط، ص ٣١٦- ٣١٧.

والزخرفة وقد جددتها دائرة الأوقاف الإسلامية بمعرفة مصلحة الآثار ... وهذه المأذنة من أروع المآذن بناءً وأكثرها اتقاناً على سذاجة زخارفها وقد تمت إعادة تجديدها سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م"[٢٩].

أما ابن بدران فقد ذكر نقلاً عن التقي البديري حسن بن المزلق في نزهة الأنام أن فيه: "عشرون شباكاً على خط الاستواء، تشرف على الأنهار، ومرجة الميدان وما حوى، وبوسط صحنه يمر نهر بانياس، يتوضأ فيه الناس، وبه ناعورتان تملأن وتفرغان إلى حوضين بهما سائر الأشجار والرياحين والأزهار وبينهما بركة مربعة، بها كأس في غاية التدوير، يجري الماء إليها من النواعير، فهو منتزه يقصد وللمصلي معبد"[٣٠].

وأقام تنكز أمام جامعه حماماً، أكراه كل يوم بأربعين درهماً لحسنه وكثرة ضوئه ورخامه[٣١].

كما أن المسجد تعرض في القرنين الأخيرين إلى تطورات غريبة كان لها أكبر الأكثر عليه، كما أحرق في عدوان ٢٩ أيار ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م، فجدد ووضع له المهندس الفرنسي ايكوشار تصميماً جديداً[٣٢].

كما أصبحت المنطقة أمام الجامع ثكنة عسكرية، وقد اتُخذت مقراً للجيش العربي السوري بداية عصر الاستقلال، كما أصبح الجامع مقراً لقيادة الجيش، لذلك لما تعرض للقصف شهد الشيخ أحمد دهمان ترميمه.

لذلك يعد ما كتبه الشيخ أحمد دهمان مصدراً مهماً لتلك المدة باعتباره ذكر أن دائرة الأوقاف الإسلامية قامت بهدم الحرم واتخاذه حوانيت تجارية على الرغم من أنه مسجل بأنه بناء أثري، وأهم ما يحويه من قطع أثرية هي:

١. منارته الجميلة وهي أقدم منارة مملوكي بدمشق.
٢. محراب الحرم المزين بالفسيفساء.
٣. محراب مدفن تنكز الموجود تحت القبة.
٤. شعار تنكز (كأس) مصمم على طرفي المحراب.
٥. واجهة ذات حجارة سوداء وصفراء.

(٢٩) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٢٠٢، وربما يكون سنة تجديد المئذنة هو ما كتبه المحقق وليس ابن عبد الهادي.

(٣٠) بدران، منادمة الأطلال، ص ٦٨.

(٣١) ابن كثير، البداية، ج ١٤، ص ٩٩.

(٣٢) العلبي، خطط دمشق، ص ٣١٧.

٦. بابان جميلان ومقرنصان.
٧. قبة تنكز المدفون تحتها.
٨. أعمدة في أروقة باحتها من الحجر الكرانيت.
٩. مرسوم مملوكي على أحد الشبابيك القبلية في الحرم[٣٣].

ولدى مراجعة وثائق مديرية الآثار بدمشق تبين أنه لم يبق من الجامع الأثري القديم سوى واجهة المدخلين الرئيسين اللذين يطلان على شارع النصر والتربة أي ضريح الأمير تنكز والمئذنة.

وللجامع مدخلان متناظران تماماً يقعان إلى جانبي المحلات التجارية التي تقع أسفل واجهة الجامع الحديث. والمدخل عبارة عن فجوة يعلوها مقرنص، يوجد ضمن الفجوة باب ضخم خشبي، أما المئذنة فتقع في الجهة الشمالية لجامع تنكز وهي ذات مقطع مربع بارتفاع سبعة مداميك ذات سطح خشن غير منتظمة تقريباً[٣٤].

ومن المؤسف له أنني لم أحد أي نص أو وثيقة تسجل أو تثبت وقفية المسجد مع أنه ورد في كل المصادر بأن أوقافه كانت كثيرة وعلى الرغم من البحث المتواصل والمستمر لم أعثر على أي إثبات حتى أن مديرية الوثائق والآثار أمدتني بجميع ما لديها. غير أن الوثائق بخصوص وقفيات تنكز ليست موجودة لديها بل وجدتُ بعض الكتابات على بقايا المسجد ذكرت في المصادر فهذا مرسوم صدر سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، على عتبة النافذة الشرقية في الواجهة الجنوبية – الطريق العام – خمسة أسطر بالخط النسخي المملوكي ١٦٨-١٦٧:

١. بسم الله الرحمن الرحيم، لما كان بتاريخ عاشر جمادى الأولى من سنة تسع (و) ستين وسبعمائة ورد مرسوم الأمر المطاع.
٢. السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه وأدام اقتداره تاريخه، مستهل المحرم منها على مولانا بلك / عنها / الأمر / كافل الممالك / .
٣. الشريفة بالشام المحروس السيفي منجك أعز الله أنصاره بإبطال ما أحدث على مستحكرين أرض وقف المدرسة المسمارية وأن لا يؤخذ منهم.
٤. غير ما جرت به العوائد وتشهد به الجرائد والوصولات التي بأيديهم من قديم الزمان وأن لا يحدث عليها حادث مثيل لذلك المشار إليه.

(٣٣) دهمان، ولاة، ص ١٧١– ١٧٢.
(٣٤) وثائق المديرية العامة للآثار والمتاحف، رقم التسجيل ٣٢ / رقمه ٥١٩ ت ١٣ / ٧ / ١٩٤٨م.

٥. أحسن الله إليه ورسم بنقشه في هذا المكان وذلك بوضع مخطوط القضاة الأربع بذلك وملعون بن ملعون من يبطل ذلك. إن هذا المرسوم صدر بعد وفاة تنكز بتسع وعشرين سنة، فلا ندري أكان هذا الوقف موجوداً على زمنه أم استجد بعده؟

ولم تكن دار الحديث والقرآن التنكزية بأقل أهمية من الجامع وهي التي تم البدء بإنشائها عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، وتقع شرقي حمام نور الدين الشهيد باتجاه دار الذهب وراء سوق البزوريين المعروف قديماً بسوق القمح.

وكانت هذه الدار حماماً يعرف باسم حمام سويد فهدمه تنكز وجعله دار حديث وقرآن[٣٥]، وتصحف اسمها لدى ابن كثير المطبوع بأنها دار الحديث السكرية والأصح أنه التنكزية ويقال بأنها افتتحت سنة (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)[٣٦].

وهذه المدرسة اشتهرت فيما بعد باسم المدرسة الكاملية، وهي ذات باب مقرنص جميل، كتب على عتبته ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة وأوقفها على الفقهاء المشتغلين بالقرآن العظيم والفقهاء المستمعين للحديث النبوي المقر الأشرف السيفي تنكز الناصري كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس وذلك سنة ٧٣٩هـ". بمباشرة العبد الفقير أيد مر المعيني[٣٧].

وقد قرر بهذه الدار أو المدرسة ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية وجامكية كل شهر سبعة دراهم ونصف رطل خبز، وثلاثون نفراً يقرؤون القرآن الكريم، لكل عشرة منهم شيخ، وقرر للشيخ ثلاثون رطل خبز، ورتب لها إمام وقارئ حديث ونواب، ولقارئ الحديث عشرون درهماً وثماني أواق خبز، وجاءت في غاية الحسن ووقف عليها عدة أماكن[٣٨] أما نص الوقفية فهو:

"سوق القشاشين باب الفرج طوله عشرون ذراعاً شرقاً وغرباً سماع في كتاب الوقف، وبندر زبدين، وحمام بحمص وهو الحمام القديم، ووقف عليها حصصاً في قرايا أخر ولكنه تغلب ما عدا القشاشين، وبندر زيدين، وحمام حمص"[٣٩]. وقد وردت:

---

(٣٥) ابن كثير، البداية، ج ١٤، ص ١٣٣؛ العلموي، مختصر تنبيه، ص٦٤؛ بدران، منادمة الأطلال.

(٣٦) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ١٨٤؛ الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص ١٩٣.

(٣٧) دهمان، ولاة، ص ١٧٢.

(٣٨) ابن كثير، البداية، ج ١٤، ص ١٨٤؛ العلبي، خطط، ص٦٢؛ دورتيه، دمشق، ص ٤٣؛ الأصح، زبدين، قرية في غوطة دمشق؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٢٦- ١٢٧، حاشية (١)، ص ١٢٧.

(٣٩) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ١٨٤.

"في سوق القشاشين ثمانية عشر حانوتاً في خارجه، وفي داخله تسعة عشر حانوتاً، وبحارة القصر طبقتان واصطبل وبستان يعرف ببستان البندر، وبها مشيخة للإقرار باسم البرهان الأربدي ومصرفها مشيخة القرآن، والإمامة مائة وعشرون درهماً، وثلاث مشيخات للحديث لكل واحد منها خمسة عشر درهماً في الشهر، وللمشتغلين بالقرآن العظيم، اثنا عشر لكل واحد منهم سبعة ونصف في الشهر أيضاً، وللمعاونين وهم خمسة ولكل واحدٍ منهم سبعة ونصف في شهر أيضاً، ولكاتب الغيبة عشرة وللمؤذن والبواب والقوام أربعون، ولصحابه الديوان أربعون، وللمشارف مثلها، وللعامل ثلاثون وللجابي خمسون، ولمن يشاهد عمارة الوقف خمسة وعشرون، ومشهد العمارة كذلك، وللمعمارية خمسة عشر، ولنيابة النظر أربعون، وللناظر مائة، هذا كله في الشهر"(٤٠).

وظهرت بعض الفروق في نص الوقفية لدى النعيمي عندما قال:

"وبحارة القصر طبقتان واصطبل، والخراجي بزبين بستان يعرف بالبندر، وبها مشيخة الأمراء باسم البرهان الإربدي والإمامة في الشهر مائة وعشرون، وثلاث مشيخات للحديث الأولى باسم البرهان التقي شهره خمسة عشر، والثانية باسم أولاد الشيخ شهره كذلك، والثالثة باسم الشمس الأرموي شهره كذلك ... والمستمعون عدة خمسة لكل واحد في الشهر كذلك ... ومشد العمارة كذلك"(٤١).

ولدى التعمق والتمحيص في هذه الوقفية تتجلى عدة أمور منها اهتمام الأوقاف بالعلم والعلماء معاً، حيث يظهر مقدار النفقات على تعليم الطلاب، ويظهر أيضاً الاختلاف بين رواتب العلماء أو الموظفين بين وقفية وأخرى، وهذا يدل على وجود فرق في المستوى المعيشي للطلاب والمشايخ الذين يعتمون على جميع المنشآت الموقوفة.

وأخيراً ظلت هذه الدار تؤدي مهمتها العلمية فيما بعد، ووصفت بأنها غنية جداً بزخارفها ومحرابها الجميل وحجارتها الضخمة(٤٢).

وتعرضت أوقاف هذه الدار فيما بعد للعبث من قبل نظارتها فتداركها آل الخطيب وفتحوا بابها للصلاة فعلم الناس أنها مدرسة(٤٣)، وقد ذكر الشيخ عبد القار بدران أنه لم توجد أوقافها إلا في القراطيس(٤٤).

(٤٠) بدران، منادمة الأطلال، ص ٦٤- ٦٥.

(٤١) النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٢٦- ١٢٧.

(٤٢) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٢١٥.

(٤٣) العلبي، خطط، ص ٦٢؛ بدران، منادمة الأطلال، ص ٦٥.

(٤٤) بدران، منادمة الأطلال، ص ٦٥.

وهذه المدرسة لا تزال موجودة تحتفظ بأكثر تخطيطها مسجلة مع الآثار القديمة[٤٥]. بينما أكدت وثائق مديرية الآثار بأنه لم يبق منها سوى الواجهة الحجرية والباب ذي المقرنصات الرائعة وهما محفوظان بشكل جيد[٤٦].

وانضم إلى منشآت تنكز السالفة الذكر دار الفلوس أو دار الذهب التي اشتراها عند سفره إلى مصر حيث أورد ابن كثير: "وكان قد نقل تنكز أمواله وحواصله من دار الذهب داخل الفراديس إلى الدار التي أنشأها وتعرف بدار الفلوس فسميت بدار الذهب[٤٧].

وكانت بالقرب من البزوريين والجوزية شرقيها، وقد عمّرها وسمّاها دار الذهب ورتب فيها المشايخ والطلبة ووقف عليها الأوقاف، وكان قد هدم حمام سويد تلقاءها[٤٨]، وللأسف لم أجد ذكراً لأوقافها في أي وثيقة أو مصدر تاريخي، وثمة بناءين آخرين بقيا من أيامه هما تربته وتربة زوجته ست تنكز، أما تربته فكانت جوار خانقاه عصمة الدين خاتون[٤٩].

وأوردت وثائق مديرية الآثار بأن التربة من الداخل عبارة عن فراغ مربع يعلوه رقبتان وقبة، الرقبة الأولى بارتفاع كبير وهي ذات مقطع مثمن، أما الرقبة الثانية فهي بارتفاع أقل من الرقبة الأولى تقريباً نصفها، ولا يُعلم إذا كان قد بقي منها شيء أو اندثرت لأن الوثائق لا تشير إلى ذلك.

أما تربة زوجته، فهي في أول زقاق المحكمة لصيق مدرسة نور الدين الشهيد من الجهة القبلية، وقد كُتب على عتبة بابها ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بإنشاء هذه التربة المباركة المقر الشريفي العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين تنكز نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروس وكان الفراغ في شهر ذي الحجة سنة ثلاثين وسبعمائة[٥٠].

وكانت زوجته ستيتة بنت سيف الدين كوكباي أنشآت رباطاً يضم التربة التي دُفنت فيها لاحقاً، وكان الرباط مخصصاً للنساء، ويضم تربة ومسجداً للأيتام، ويقع في باب الخواصين، وأفردت له براً وصدقات وصلاة وقراء، وعندما توفيت سنة ٧٣٠هـ / ١٩٢٩م،

(٤٥) دهمان، ولاة، ص ١٧٢.

(٤٦) وثائق الآثار، رقم الوثيقة ٧٩.

(٤٧) ابن كثير، البداية، ج ١٤، ص ١٤٠.

(٤٨) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٨٨.

(٤٩) العلموي، مختصر تنبيه، ص ١٨٩؛ دورتيه، دمشق، ص ٤٣.

(٥٠) دهمان، ولاة، ص ١٧٤.

دفنت في تربتها[٥١]، وذكر بأن باب التربة ذو زخارف مقرنصة بديعة، وفي القبتين زخارف جميلة وعلى الباب يُرى (رنك) / شعار تنكز وهو الكأس ذو الساق[٥٢].

صفوة القول: إن المنشآت الوقفية كانت صورة تعكس مستوى صاحبها السياسي أو الديني أو العلمي أو الاجتماعي أو غيره، وهي قد ساهمت بشكل أو بآخر في نهضة المجتمع على الصعد كافة، فقد ارتقت بالوعي العام وجعلت المجتمع وحدة متكاملة متكاتفة ضد الغزو والاحتلال وشجعت الأكثرية من العامة والخاصة على نهل الثقافة الدينية وغيرها.

(٥١) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص ١٥١؛ العلموي، مختصر تنبيه، ص ٤١١؛ ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٢٤٨.

(٥٢) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ٢٤٨.

معطيات عن الأوقاف والحياة العلمية في دمشق وجوارها في أواخر العصر المملوكي: يوميات المؤرخ الدمشقي ابن طوق أنموذجاً

عليان عبد الفتاح الجالودي*

المقدمة:

حفل العصر المملوكي الثاني بجملة من التطورات السياسية والاقتصادية المهمة التي أثرت على مجريات الأحداث في السلطنة المملوكية عموماً ومدينة دمشق على وجه الخصوص. وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين شهدت بلاد الشام أحداثاً سياسية جساماً: أهمها بروز الأخطار الخارجية المتمثلة بالتهديد العثماني والصفوي على حدودها الشمالية، والشمالية الشرقية، إضافة إلى تهديد الجماعات الصليبية في جزر البحر الأبيض المتوسط للسواحل الشامية. وتراجع الاقتصاد المملوكي بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن طريق البحر الأحمر(١)، وتقلص التبادل التجاري بين مصر وبلاد الشام(٢)، وما رافق ذلك من آثار سلبية على الاقتصاد

---

* قسم التاريخ، جامعة آل البيت.

(١) شرف الدين موسى بن يوسف الأنصاري (ت بعد ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م)، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، تحقيق: عدنان إبراهيم، ٢ج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩١م. مقدمة المحقق، ص ٩٤ وما بعدها. وسيشار إليه فيما بعد: الأنصاري، نزهة الخاطر. عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر، ط٢، ١٩٦٨، ص ٢٣-٢٤. وسيشار إليه فيما بعد: رافق، بلاد الشام ومصر. وللمزيد:
Taha Thalji Tarawneh. the Province of Damascus During the Second Mamluk Period (784-1382- 922/1516). publications of Academic Research Deanship .Mu'tah University. 1994. pp. 107-134

ولمزيد من التفاصيل انظر: نقولا زيادة ، دمشق في عهد المماليك والعثمانيين، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤م، وسيشار إليه فيما بعد: زيادة، دمشق؛ أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م-٩٢٢هـ/١٥١٦م)، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٢م، وسيشار إليه فيما بعد: العلبي، دمشق.

(٢) أشتور، ج.، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبله، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٤٢٤-٤٢٥. وسيشار إليه فيما بعد: اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. بارتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، تعريب خالد عيسى، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص ١٣٩-١٤٢. وسيشار إليه فيما بعد: شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي.

والمجتمع الشامي. تتمثل بتراجع هيبة السلطنة المملوكية ومؤسساتها السياسية والإدارية وتأثر البلاد الشامية عموماً ودمشق خصوصاً بموجات الجفاف والغلاء وتدهور قيمة النقد، وانتشار الأوبئة والطواعين، وتدهور الإنتاج الزراعي والحرفي[٣]، وانتشار مظاهر الفساد المتمثلة بتذبذب قيمة النقد، وانتشار العملة المزيفة (الزغل)، وتفشي ظاهرة البذل والبرطلة[٤]، وشراء الوظائف، والصراع بين شرائح العلماء على الاستحواذ على الوظائف الدينية والعلمية لما تدره الأوقاف المخصصة لها من واردات مالية ضخمة، عدا اعتداءات السلاطين ونوابهم وأمراء المماليك على التجار والعامة، ومصادرة الممتلكات الخاصة والأوقاف، وانتشار الفتن التي يقوم بها العشير من عرب وتركمان، وانقسام أهل المحلات والقرى المحيطة بدمشق إلى عصبيات متنافرة، وما يرافق ذلك من اعتداءات الزعر واللصوص[٥] بحيث شكلت السمة العامة في دمشق والنيابات الشامية عموماً في أخريات العهد المملوكي.

---

(٣) حول ذلك انظر: إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ط١، ١٩٩٨م، ص ٧٠-٩٤. وسيشار إليه فيما بعد : عباس، تاريخ بلاد الشام. العلبي، دمشق بين عصري المماليك والعثمانيين، ص ٢١٣-٢٢١.

(٤) انظر نماذج لذلك لدى: محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج١، ق٢، حوادث السنوات (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م - ٨١٥هـ/ ١٤١٢م) الناشر: فرانزشتاينر، فسبادن، شتوتغارد، ١٩٧٤م، ج١، ق٢، ص٦٢٩، ٦٣٠، ٦٦٦، ٦٨٥-٦٨٦، ٦٨٩-٦٩١، ٦٩٥-٦٩٧، ٧١٣، ٧٦٦-٧٦٨، ٧٧٧، ٧٩٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن إياس، بدائع الزهور. شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي، (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، نقد الطالب إلى زغل المناصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان وخالد دهمان، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص ٤٥-٤٧. وسيشار إليه فيما بعد : ابن طولون ، نقد الطالب. حياة ناصر الحجي، الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة المماليك (٨١٥هـ/ ١٤١٢م -٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج٩، ع ٩٦، الكويت، ١٩٨٩م، ص١١ وما يليها. وسيشار إليه فيما بعد: الحجي، الأوضاع السياسية والاقتصادية ولتفاصيل أوفى حول المجاعات والأوبئة وغلاء الأسعار وتذبذب قيمة النقد انظر: شهاب الدين أحمد بن محمد بن طوق، (ت ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)، التعليق، ٣ ج، تحقيق جعفر المهاجر، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، مطبعة الألف باء دمشق، ج١، ٢٠٠٢، ج٢، ٢٠٠٢م، ج٣، ٢٠٠٤م، ص ٢٤، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ١٥٧، ١٥٩، ٢٣٤-٢٣٦، ٢٥١-٢٥٢، ٧١٦، ٩٥٨، ٩٢٨، ٨١٨٩. وسيشار إليه فيما بعد: ابن طوق، التعليق.

(٥) عباس، بلاد الشام في عصر المماليك، ص ١١٢-١١٤، ولمزيد من التفاصيل حول الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر المملوكي، انظر: إبراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مطبعة الجمهورية، دمشق، ط١، ١٩٩٣م، ص ١٠٥ وما بعدها، وسيشار إليه فيما بعد: زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام.

اليوميات:

تتمتع يوميات المؤرخ الشامي شهاب الدين أحمد بن محمد الشهير بابن طوق الدمشقي (ت ٩١٥هـ/١٥٠٩م) بأهمية كبيرة باعتبارها وثيقة معاصرة للتأريخ للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمدينة دمشق وجوارها في أخريات العهد المملوكي، فهي تغطي السنوات (٨ شوال ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، وحتى جمادى الآخرة سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) وابن طوق كما يظهر من يومياته ينتمي إلى الشرائح الدنيا من فئة العلماء فلم يكن فقيهاً ولا عالماً، وكان أشبه ما يكون بشاهد وكاتب وموثق عقود وخبير زراعي بسبب خلفيته الفلاحية لدى شريحة كبار العلماء والقضاة، وهو أشبه ما يكون بوكيل عند شيخه تقي الدين أبي بكر عبد الله بن قاضي عجلون (٨٤١هـ/١٤٣٧م - ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) أكبر فقهاء الشافعية في دمشق شأناً في زمانه[٦].

وتعد اليوميات وثيقة معاصرة على قدر كبير من الأهمية تعطي صورة - ولو لم تكن عميقة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها بلاد الشام في تلك الفترة[٧]، وتنفرد اليوميات هذه عن غيرها من المصادر والحوليات الدمشقية بإيراد تفاصيل حول جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة دمشق وجوارها نادراً ما نجدها في غيرها من المصادر المعاصرة خصوصاً موضوعات الأوقاف والزراعة وأنظمة الري، وأساليب الاستثمار الزراعي، والطقس، والعادات الاجتماعية السائدة إضافة إلى الحراك الاجتماعي، وعلاقات الفئات الاجتماعية مع بعضها بعضاً، وعلاقتها مع ممثلي السلطة المملوكية، وانعكاس الأحداث السياسية على واقع الحياة اليومية لهذه الفئات.

تحتل الأوقاف حيزاً مهماً في هذه اليوميات، سواء من حيث أنواعها، والشرائح المستفيدة منها، وانفرادها بالإشارة إلى أوقاف جديدة لم تشر لها المصادر الأخرى، كما تمدنا بمادة مهمة - لا نجد ما يضاهيها في المصادر الأخرى - عن كيفية إدارة الأوقاف، وإشراف الدولة عليها، وأساليب الانتفاع بها، وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الدمشقي، كما تسمح لنا بتكوين صورة للشرائح الاجتماعية المنتفعة من الأوقاف من نظار ومتولين.

---

(٦) ابن طوق، التعليق، ج١، (مقدمة المحقق)، ص ٨-١١.

(٧) حول رؤيته السياسية ونقده لسلاطين وعلماء عصره، انظر: التعليق، ص ١٠١، ١٠٢، ١٤٨، ٣١٣، ٤٢٥، ٧٦٨، ٨٤٥، ٨٩٢، ٩٣٧-٩٣٨.

أنواع الأوقاف:

تحتل الأوقاف المخصصة للمدارس المقام الأول بين أنواع الأوقاف التي أمكن رصدها في اليوميات، إذ أمكن رصد سبع عشرة مدرسة موقوف عليها أراضٍ وعقارات في مدينة دمشق وجوارها، إضافة إلى عشرات المدارس التي ورد ذكرها في اليوميات دون الإشارة لأوقافها(٨).

ومن المدارس التي أشير لأوقافها المدرسة الآمدية، وهي معطلة خلال فترة الدراسة(٩)، وموقوف عليها بستان بأرض مرج الدحداح(١٠)، والمدرسة البادرائية(١١)، وموقوف عليها مزرعة وحقول(١٢)، ومدرسة بلبان، وموقوف عليها حمام بدر الدين(١٣)، ومدرسة تنم، وعليها حكر أرض بقرية المنيحة(١٤)، والمدرسة الثابتية، وعليها طبقات حكر(١٥)، والمدرسة الحلبية(١٦)، وعليها وقف بقرية القابون الفوقاني(١٧)، والمدرسة الخاتونية الواقعة خارج دمشق بجوار جامع تنكز(١٨)، والمدرسة الركنية الشافعية(١٩)، الموقوف عليها خان جلبان

---

(٨) ابن طوق، التعليق، ص ٣٠، ٣٢، ٥٣، ٦٥، ٦٧، ٨٢، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨، ١١٢، ١١٩، ١٤٠، ١٦٧، ١٩٣، ٢١٢، ٢٧٤، ٢٩٦، ٣١٦، ٣٢٩، ٣٣٨، ٤٠٧، ٥٣٦، ٥٣٩، ٦٧٧، ٧٥٦، ٧٦٢، ٨١٤، ٩٠٥، ٩١٦، ٩٩٩، ١٠١٨، ١٠٦٢، ١١٤٦، ١١٤٨، ١١٧٩، ١١٨٨، ١١٩١-١١٩٢، ١٣٨٦، ١٣٩٣، ١٤١٦، ١٤٨٨.

(٩) ابن طوق، التعليق، ص ٥٣٦، وانظر حولها : عبد القادر بن محمد النعيمي، (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) الدارس في تاريخ المدارس ، ٢ج، تحقيق جعفر الحسيني، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٨م ج١، ص ٤٧٧، وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

(١٠) محله في مدينة دمشق خارج باب الفرايس. ابن طوق، التعليق، ص ٥٣٦.

(١١) وهي من مدارس الشافعية في دمشق، تنسب لبانيها علم الدين ابن عبد الله البادرائي الفرضي، وتقع داخل باب الفرايس. انظر: النعيمي، الدارس، ص ١٥٤. محمد بن عيسى ابن كنان، (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، ٢ج، تحقيق: حكمت سليمان، ، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص ١٥٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن كنان، المواكب الإسلامية.

(١٢) ابن طوق، التعليق، ص ٧٤٦.

(١٣) نفس المصدر، ص ٣٤١، وسيشار إليه فيما بعد: ن. م .

(١٤) ن.م، ص ١٤٩، وهي قرية من قرى شرق الغوطة تعرف اليوم بالمليحة. المحقق، ص ١٤٩.

(١٥) ن.م، ص ١٠٢.

(١٦) وهي من المدارس الدارسة وتقع بمحلة السبعة أنابيب شمال باب توما. النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٣٢.

(١٧) ابن طوق، التعليق، ص ٤٩٠. وهناك قريتان باسم القابون الفوقاني، والتحتاني، أصبحتا الآن جزء من مدينة دمشق. المحقق، ص ١٠٧.

(١٨) وهي المدرسة الخاتونية البرانية وتقع في مدينة دمشق جوار جامع تنكز. النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٤٣.

(١٩) ابن طوق، التعليق، ص ١٢٦٨.

في مدينة دمشق، وأرض في قرية جرود[٢٠]، والمدرسة السمصياتية[٢١]، وعليها محاكرة أرض، وبستان الأعاجم في قرية جرمانا[٢٢]، والمدرسة الشامية الجوانية[٢٣]، وعليها وقف أرض بقرية جرمانا[٢٤]، والمدرسة الشجرية، ولها وقف باسم وقف الشجرية[٢٥]، والمدرسة الشركسية، الموقوف عليها قرية بيت سوا في الغوطة[٢٦]، والمدرسة الطواويسية، الموقوف عليها عمارة بالشرف الأعلى، وغراس[٢٧]، والمدرسة الغزالية[٢٨]، وعليها حكر أرض[٢٩]، ومدرسة القصاعيين[٣٠]، وعليها وقف في قرية الرحيبة وقرية جرود[٣١]، والمدرسة القيمرية البرانية[٣٢]، وموقوف عليها قرية بزينون في الغوطة[٣٣]، إضافة إلى وقف أرض في قرية عربيل

---

(٢٠) وهناك مدرستان باسم الركنية، إحداها الركنية الجوانية الشافعية، وتقع في حي العمارة في مرج الدحداح، والثانية باسم الركنية البرانية، وتقع شرق الصالحية، وهي موقوفة على الأحناف. أنشأهما الأمير ركن الدين منكورس الفلكي سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م. النعيمي الدارس، ج١، ص ٢٥٤-٤٦٥. شمس الدين محمد بن علي بن طولون، (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ٢ج، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط١، ١٩٨٠م، ج١، ص ٩٥-٩٦، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، القلائد الجوهرية.

(٢١) ابن طوق، التعليق، ص ٤٠، ١٥٦، ١٥٧، ٤٦٥، ٤٨٠. وجرود قرية في سفوح جبال القلمون شمالي مدينة دمشق، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي، (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ج، دار صادر، بيروت، د.ت ، ج٢، ص ١٣٥، وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم البلدان.

(٢٢) وهي من أشهر خوانق الصوفية في دمشق أنشئت سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م على يد محمد بن يحيى السمصياتي، وشيخها هو شيخ الخوانق في دمشق ويلقب بشيخ الشيوخ. أكرم العلبي، خطط دمشق، دار الطباع للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٩م، ص ٣٩٨-٣٩٩. وسيشار إليه فيما بعد : العلبي، خطط دمشق.

(٢٣) ابن طوق، التعليق، ص ٢٤٠، ٨٣٦.

(٢٤) تقع قبلي المارستان النوري في دمشق، وأنشأتها ست الشام خاتون بنت أيوب سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. النعيمي، الدارس، ج١، ص ٢٢٧.

(٢٥) ابن طوق، التعليق، ص٥٨٦.

(٢٦) ن.م، ص١١٤٥.

(٢٧) ن.م، ص٤٤٧.

(٢٨) تقع في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموي، وتعرف بالزاوية الغزالية نسبة للإمام أبو حامد الغزالي. النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤١٣-٤١٤.

(٢٩) ابن طوق، التعليق، ص ٩٣٢، ١٠٦٠.

(٣٠) وهي مدرسة منسوبة إلى حارة القصاعين، النعيمي، الدارس، ج١، ص ٥٦٥.

(٣١) ابن طوق، التعليق، ص ٥٣٥.

(٣٢) هناك مدرستان باسم القيمرية، إحداهما القيمرية الصغرى بالقباقبية العتيقة وهي للشافعية، والقيمرية الكبرى للحنفية جنوبي الصالحية. النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٤٦.

(٣٣) ابن طوق، التعليق، ص ٧٤٧.

من الغوطة شربها من نهر ثورة على مدرسة مجهولة لم يتبين اسمها في اليوميات[٣٤].

وتأتي الأوقاف المخصصة للجوامع والمساجد والمقامات في المقام الثاني في اليوميات وأمكن رصد أوقاف مخصصة للجامع الأموي في مدينة دمشق، من بينها خان جلبان[٣٥]، واسطبل[٣٦]، وبستان[٣٧]. ووقف الأتابكي محاكرة الجامع الأموي[٣٨]، وقيسارية وقف على المؤذنين بالجامع الأموي[٣٩]، وهناك أوقاف على جامع يلبغا[٤٠]، الموقوف عليه جملة من الأسواق من بينها سوق البرادعية، وسوق الحدادين، وسوق القزازين، وسوق الشيخي[٤١]، وهناك قطعة أرض بزقاق حكرمالك الواقعة خارج باب توما، وقف على جامع السقيفة، أجرت للبناء والغراس البعلي[٤٢].

ومن بين المساجد التي يشار لأوقافها مسجد أبي صالح، الموقف عليه أرض مشجرة أوقفها المرحوم بدر الدين ابن قاضي أذرعات[٤٣]، ومسجد القصب المحروق، وعليه وقف محاكرة مشترك مع الجامع الأموي[٤٤]، ومحاكرة على مسجد برأس عين بعلبك[٤٥].

ومن بين المقامات التي يشار لوجود أوقاف مخصصة لها مقام سيدنا إلياس الموقوف عليه حصة من قرية ترحيم عين حموس في البقاع[٤٦].

وأما الزوايا والخانقاوات التي تورد اليوميات إشارة لأوقاف مخصصة لها، فهناك زاوية المغاربة وخان السبيل، التي أوصى لها شمس الدين محمد بن وطيه السكري

---

(٣٤) ابن طوق، التعليق، ص ٢٧٦.

(٣٥) ن.م، ص ٢٨٧.

(٣٦) ن.م، ص ٣٢٦.

(٣٧) ن.م، ص ٩٦.

(٣٨) ن.م، ص ٧٤٢، ١٤٩٥.

(٣٩) وهو أشهر مساجد دمشق الجامعة بعد الجامع الأموي بناه نائب الشام سيف الدين يلبغا اليحياوي، ويقع في الشمال الغربي من قلعة دمشق في منطقة سوق الخيل. النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٤٢٣. عبد القادر بدران، (ت ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المجمع العلمي للتأليف والدراسات والترجمة، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٩١. وسيشار إليه فيما بعد: بدران، منادمة الأطلال.

(٤٠) ابن طوق، التعليق، ص ٢٨٤.

(٤١) ويقع في محلة باب توما. ابن طوق، التعليق، ص ٦١.

(٤٢) ابن طوق، التعليق، ص ٦١٠.

(٤٣) ن.م، ص ٦١٠.

(٤٤) ن.م، ص ٩١٦.

(٤٥) ن.م، ٦٩٠.

(٤٦) ابن طوق، التعليق، ص ٩٠١.

بثلثي ماله[٤٧]، والزاوية بالصالحية الموقوف عليها جزء من القاموس بخط ابن الكركي المحدث[٤٨]، والخانقاه الخاتونية بجوار جامع تنكز[٤٩]، والشرابخانه الموقوف عليها طاحون باسم طاحون الرهبان[٥٠].

ومن بين أوقاف المارستان النوري[٥١] التي تشير لها اليوميات قرية المعظمية[٥٢]، وقرية القطيفة[٥٣]، وأرض حاملة لغراس بقرية حلحال[٥٤]، وسوق في مدينة دمشق يسمى بسوق المارستان[٥٥].

ومن بين الأوقاف المخصصة للإنفاق على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة بستان سراقة بمرج الدحداح[٥٦]، وبيت برأس العلبيين، كان يسكنه أستاذ الذخيرة تمرباي الكمالي[٥٧]، وبيت في دمشق[٥٨]، ولهذا الوقف عامل باسم عامل وقف الحرمين[٥٩]، وكان ريع هذا الوقف يسلم لناظر الحرم المكي، وناظر الحرم النبوي لإنفاقه على الجهات المخصصة لها[٦٠].

وهناك أوقاف على الشرفاء، يتولى نظارتها ابن عجلان نقيب الأشراف[٦١]، في قرية الدولعية[٦٢]، ووجدت أوقاف للسجون في دمشق[٦٣]، وأوقاف على الأسرى، وهو على ما

---

(٤٧) ن.م، ص ٧٩٢.

(٤٨) ن.م، ص ٣٣٧.

(٤٩) ن.م، ص ٩٣٩.

(٥٠) ن.م، ص ١٣٨٢.

(٥١) بناه السلطان نور الدين محمود زنكي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. وهو حالياً متحف للطب والعلوم عند العرب. انظر: العلبي، خطط دمشق، ص٢٦٠-٢٦٣.

(٥٢) ابن طوق، التعليق، ص ٨٢٥، ١٢٢١، ١٤٣٧.

(٥٣) ن.م، ص ٧٦، ٨٢٥.

(٥٤) ن.م، ص ١٠٥١.

(٥٥) ن.م، ص ٨٦٤.

(٥٦) ن.م، ص ١٥٨.

(٥٧) ن.م، ص ١٠٤٨.

(٥٨) ن.م، ص ٢٩٥.

(٥٩) ن.م، ص ٤٠٥.

(٦٠) ابن طوق، التعليق ، ص ١٠٥٥.

(٦١) ن.م، ص ٣٤١.

(٦٢) ن.م، ص ١٠٠٧.

(٦٣) ن.م، ص ١٠٠، ٣٨٥، ١٢١٢، ١٢١٣.

يظهر امتداد لوقف الأسرى الذي أوقفه السلطان الشهيد نور الدين زنكي[٦٤]، ومن بين تلك الأوقاف حصة من أرض مرج الشامي، وطاحون المعلقة، وحصة أرض في بعلبك[٦٥]، ونصف الحوانيت وقف المالكي بحافة الخندق تجاه حكر السماق[٦٦]،عدا ثمن محصول الفلفل الذي يباع في أسواق مدينة دمشق لصالح وقف الأسرى[٦٧]. ويظهر أن هناك جهات كثيرة تابعة لهذا الوقف كانت معطلة في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[٦٨].

وكان النظر على هذا الوقف والتكلم فيه للحاجب[٦٩]، وخصص جزء من ريعه لفكاك أسرى المسلمين الذين يقعون بيد الفرنج في جزيرة رودس، ففي ١١ شعبان ٨٨٦هـ / ١٤٨١م أوعز السلطان المملوكي بدفع (١٢٢٦) أشرفية من جهة وقف الأسرى في دمشق للمعلم نقولا، فدية لإطلاق سرح ثلاثة وعشرين نفراً من المسلمين[٧٠].

وكان للفقراء نصيب من الأوقاف. فتشير اليوميات لوقف الفقراء، كان نظره للقاضي الشافعي[٧١]، ويشار لأرض موقوفة على الفقراء في قرية عربيل[٧٢]، وبحارة قناة البريدي داخل مدينة دمشق[٧٣]، ويشار لوقف باسم وقف الخبز في قلعة دمشق[٧٤]، ومما يلفت النظر الإشارة إلى وقف المطبخ بباب البريد، وموقوف عليه عدة بساتين من أراضي قرية جوبر ودير السروري خصص ريعها للإنفاق على هذا المطبخ، وله ناظر اسمه الشيخ فرج يقوم بتأجير عقارات الوقف، ففي سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م استأجرها نظام الدين عمر بن الزيربطانة لمدة أربع سنوات، مقابل أجرة سنوية مقدارها (١١٠٠) درهم[٧٥]، كما أوصت

(٦٤) ن.م، ص ٨٣-٨٤.
(٦٥) ن.م، ص ١٢٧-١٢٨.
(٦٦) ن.م، ص ٤٠٣.
(٦٧) ن.م، ص ٩٩.
(٦٨) ن.م، ص ١٤٩٤، ١٥٠٣.
(٦٩) ن.م، ص ١٤٥٨.
(٧٠) ن.م، ص ٨٣-٨٤.
(٧١) ن.م، ص ١٢٣٩.
(٧٢) ن.م، ص ٧٠٦.
(٧٣) ابن طوق، التعليق ، ص ١٢٣٩.
(٧٤) ن.م، ص ١٢٠٦.
(٧٥) ابن طوق، التعليق، ص ٥٨٥. وانظر عن أوقاف دمشق في القرن السادس عشر، محمد الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٩٢-١٢٩، وسيشار إليه فيما بعد: الأرناؤوط، دور الوقف.

امرأة سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م، بثلث مالها لمطبخ باب البريد[٧٦].

ويعد وقف شهاب الدين ابن المزلق من أكثر الأوقاف التي يشار لها في اليوميات بحكم العلاقة الوثيقة بين صاحب اليوميات وناظر هذا الوقف الشيخ زين الدين خضر الحسباني[٧٧].

وتتوزع الأراضي والمزارع التابعة لهذا الوقف بين العديد من القرى كقرية الحديثة[٧٨]، وبستان الرقام من أراضي قرية جوبر[٧٩]، وبستان فياض والمزرعة الكائنة في قرية القابون الفوقاني المغروسة بالأشجار المثمرة[٨٠]، وبستان النصراني، وبستان الخيمي في قرية عربيل[٨١]، ومزرعة الفندق والأرض المعروفة بالمزركيل[٨٢]، والحضنين من قرية قبر سيدنا الياس ومزرعة عين حموس في البقاع العزيزي[٨٣].

كما يشار إلى حواصل موقوفة تابعة لهذا الوقف داخل باب الجابية[٨٤] وزاوية في مدينة دمشق[٨٥].

ومن الأوقاف الأخرى التي يشار لها وقف كوثر الفامي وزوجته، والمتضمن قراءة ما تيسر من القرآن الكريم، والموقوف عليهما حانوتان وعلوهما بسطة في العنابة الشرقية، ومحلة خارج باب توما إلى الشمال الشرقي من دمشق[٨٦]، ووقف الدمرداش، والمتضمن وقف طبقة وأسفلها اصطبل صغير بزقاق الدباس، ووقف خبز على الوقف، رطل كل يوم خميس[٨٧]، ووقف الدولعي الذي يبدو أنه وقف خاص بالحنابلة في دمشق[٨٨]، ووقف الشاد المغربل ووقف والي سلمية الموقوف عليه حمام بمدينة دمشق باسم حمام إسرايل[٨٩].

(٧٦) ابن طوق، التعليق، ص ٣٧٨.
(٧٧) ن.م، ص ١١٨.
(٧٨) ن.م، ص ١١٨، ٧٤٣، ٧٥٣، ٩١٧، ٩١٨.
(٧٩) ن.م، ص ٣٠١.
(٨٠) ن.م، ص ٤٧٢، ٦٢٣، ٦٣٧-٦٣٨، ٦٢٨، ٨٦٢.
(٨١) ن.م، ص ١١٩، ٨٧٨.
(٨٢) ن.م، ص ١٠٦٣.
(٨٣) ن.م، ص ١١٧٩.
(٨٤) ابن طوق، التعليق، ص ٩٢٧.
(٨٥) ن.م، ص ١٧٨.
(٨٦) ابن طوق، ص ١٢٤.
(٨٧) ن. م، ص ٣٥٠.
(٨٨) ن.م، ص ١٥٣.
(٨٩) ن.م، ص ١٩٦، ٣٢٥.

ومن الأوقاف التي يشار لها وقف الطرحا، الموقوف عليه بستان الدكاش[٩٠]، وجميع أرض البستان من أراضي قرية بيت لهيا[٩١]، ووقف أم الخير المخصص لقراءة الحديث الشريف[٩٢]، ووقف أمين الدولة حولب الزنجيلي، المخصص ريعه لقراءة سورة الكهف عن روح الواقف[٩٣]، ووقف ابن العجمي في قرية جرما[٩٤]، ووقف أم الديماس وحجنا[٩٥]، ووقف الجاموس[٩٦]، ووقف الطوسي المتضمن طبقة في دمشق باسم طبقة الرمثاوي[٩٧]، ووقف القاضي محب الدين ابن قاضي عجلون، الموقوف عليه أرض داخل مدينة دمشق بالقرب من المدرسة القيمرية وحارة الكنيسة مزروعة بالأشجار المثمرة[٩٨]، ووقف الرجيحي داخل مدينة دمشق[٩٩]، ووقف المالكية في قرية القرعون في سهل البقاع، التي تقع تحت حماية الحاجب[١٠٠]، وأوقاف الذخيرة السلطانية الناظر عليها تمربغا القجماسي[١٠١]، ووقف بردي[١٠٢]، ووقف عبد الهادي [عبد القادر] الأرموي، أو عبد الصاحب الأرموي[١٠٣]، ووقف أيبك النجيبي وزوجته كمسر في قرى الديماس وحجنا واللقيثا ودير ابن بدير[١٠٤]. ووقف الشيخ بركات[١٠٥]، ووقف منكورس[١٠٦]، ووقف سلمان الموقوف عليه حوانيت بجوار الخان داخل مدينة دمشق[١٠٧]، ووقف السقيفة الموقوف عليه أرض زراعية بقرية

---

(٩٠) ن.م، ص ٣٥٨.
(٩١) ن.م، ص ١٠٠٢، ١٠٥٥.
(٩٢) ن.م، ص ٤١٤.
(٩٣) ن.م، ص ٢٠٤.
(٩٤) ن.م، ص ٥٨٢.
(٩٥) ن.م، ص ١٠٤٨.
(٩٦) ن.م، ص ٦٧١.
(٩٧) ن.م، ص ٦٨١.
(٩٨) ابن طوق، التعليق، ص ٦٣٧.
(٩٩) ن.م، ص ١٠٦٠.
(١٠٠) ن.م، ص ٦٥٩-٦٦٠.
(١٠١) ن.م ، ص ١٤٤٠، ١٥٠٩ .
(١٠٢) ن.م، ص ١٤٦٣.
(١٠٣) ن.م، ص ١١٤٠، ١٤١٦، ١٢٥٤.
(١٠٤) ن.م، ص ١١٨٤، ١١٩٢، ١٢٢٤.
(١٠٥) ن.م، ص ١٣٨٦.
(١٠٦) ن.م، ص ١٢٤٧.
(١٠٧) ن.م، ص ١٣٨٨.

برزه من الغوطة[١٠٨]، ووقف السبع النوري الموقوف عليه أرض في حوران[١٠٩].

الإشراف على الأوقاف ورقابة الدولة:

وأمكن من خلال اليوميات رصد أسماء جملة من النظار والمتولين للأوقاف الخيرية في مدينة دمشق، وجلّ أسماء أولئك النظار تنتمي إلى شريحة العلماء من بينهم الشيخ زين الدين خضر الحسباني المتكلم على وقف شهاب الدين ابن المزلق[١١٠]، وتاج الدين الصلتي الناظر على طاحونة الكنيسة خارج باب توما[١١١]، وشرف الدين يونس وابن أخيه موفق الدين محمد ناظراً الخانقاه الخاتونية[١١٢]. وبرهان الدين الصلتي ناظر المدرسة البادرائية[١١٣]، ونقيب الأشراف ابن عجلان الناظر على أوقاف الشرفا[١١٤]، وتقي الدين ابن قاضي عجلون ناظر وقف المدرسة الركنية ووقف الأسرى[١١٥]، والقاضي شهاب الدين أحمد البقاعي الحنفي ناظر وقف الحرمين[١١٦].

وإلى جانب أهل القلم نلاحظ وجود نظار من أهل السيف من المماليك كناظر الجيش قجماس الكمالي الناظر والمتكلم على المدرسة الشامية الجوانية[١١٧]، ومدارس العزيزية، والأتابكية، والحلبية[١١٨]، كما تولى نظر المدرسة الناصرية البرانية والجوانية، ونظر جامع تنكز وتربة تنكز ونصف نظر الفارسية[١١٩]. وأناب الكافل في نظر جامع يلبغا بردبك الدودار[١٢٠]. كما تولى نائب الشام نظر المدرسة المارداينة[١٢١].

---

(١٠٨) ن.م، ص ١٢٦٤.

(١٠٩) ن.م، ص ١٤٧٥-١٤٧٦.

(١١٠) ن.م، ص ١١٨، ٢٤٥.

(١١١) ن.م، ص ١٤٠.

(١١٢) ن.م، ص ٩٣٩.

(١١٣) ن.م، ص ١٤٠.

(١١٤) ابن طوق، التعليق، ص ٩٣٩.

(١١٥) علاء الدين علي بن يوسف بن احمد البصروي، (٩٠٥هـ/١٤٩٩م) تاريخ البصروي، تحقيق: أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٦٢، ٧٨، وسيشار إليه فيما بعد: البصروي، تاريخ.

(١١٦) ن.م، ص ١٠٠.

(١١٧) ابن طوق، التعليق، ص ٢٠٥، ٢٠٧.

(١١٨) ن.م، ص ١١٠٩.

(١١٩) البصروي، تاريخ، ص ٩٢.

(١٢٠) ابن طوق، التعليق، ص ١٢٨٥.

(١٢١) ن.م، ص ١٤١٦.

ويتولى الناظر عدداً من المسؤوليات تجاه الوقف في مقدمتها توزيع عوائد الأوقاف بين مستحقيها، وفقاً لشروط الواقف على الجهات المستفيدة من الوقف، ومتابعة عمارة الوقف وصيانته[١٢٢]، ويظهر أن أعمال العمارة يقوم بها النظار والمتولون تحت إشراف الدودار[١٢٣]، ففي سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م، تكاملت عمارة سوق السلطان والخان وحمام الحموي، وسعى حاجب الحجاب في عمارة جامع الجوزه بعد تعرضه للحريق، وزيد فيه زيادة وعمل شبابيك من جهة القبلة، وباب من الجهة الشرقية[١٢٤]، وفتح قاضي القضاة الشافعي المسجد الذي جدده قبال بيت السيد كمال الدين ابن الحصني، وعمل فيه مرتفقاً لإقراء أولاده[١٢٥]، كما أُنجز بناء الجامع الجديد على حافة نهر يزيد، والذي كان بالأصل تربة الست خاتون بنت معين الدين أنر[١٢٦].

واهتمت الإدارة المملوكية بفرض رقابتها على الأوقاف، فتشير اليوميات إلى تقييد للأوقاف[١٢٧]، ومرجعية الأوقاف وما يطرأ عليها من تغيير في النظارة والتولية يكتب به إلى مقر السلطنة في القاهرة، لاستحصال الموافقة، ويرسل السلطان من لدنه بشكل دوري أحد الأمراء الخاصكية ليقوم بالكشف على الأوقاف، وكان مرسومه يقرأ في الجامع الأموي، ويرافقه في عملية الكشف قضاة المذاهب الأربعة[١٢٨] وأركان الدولة، ونظار ومباشرو الأوقاف سواء كانت أوقاف الجوامع والمساجد أو المدارس[١٢٩]، ويلتزم نظار ومباشرو الأوقاف بإعداد قوائم بالإيرادات والمصروفات للأوقاف بشكل دوري لتعرض عليه[١٣٠]، وتقابل هذه الجرائد[١٣١]، فمثلاً أعدّ كاتب اليوميات سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، أربع قوائم بوقف الأسرى: العامرة والمعطلة والجوامك والأحكار، ومثل ذلك حمام الكمالي ثلاثة قوائم[١٣٢].

ويترتب في كثير من الأحيان على جولات الكشف تلك الترسيم على النظار ومباشري

---

(١٢٢) ن.م، ص ٨٩، ٨٩٩، ٩٩١، ١١٥١، ١٢١٢، ١٢١٤. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ١٦، ١٧.

(١٢٣) ن.م، ص ٦٣٠.

(١٢٤) ن.م، ص ٩٩١، ١٤٨٦.

(١٢٥) ابن طوق، التعليق، ص ١٣٠٩.

(١٢٦) ن.م، ص ١٣٢٧. ابن طولون، القلائد الجوهرية، ص ٥٥.

(١٢٧) ابن طوق، التعليق، ص ٧٢٤.

(١٢٨) ن.م، ص ٧١٤، ٤١٦. البصروي، تاريخ، ص ١٢٠، ١٨١، ١٦٣.

(١٢٩) ابن طوق، التعليق، ص ٧١٤.

(١٣٠) ابن طوق، التعليق، ص ٧٩٩، ٤٥٩. البصروي، تاريخ، ص ٢٠٠.

(١٣١) ن.م، ص ٣٦٧.

(١٣٢) ن.م، ص ١٤٩٤.

الأوقاف، وغالباً ما تكون عملية الترسيم صدى لشكوى رسمية ترفع على هؤلاء النظار إلى السلطان ويرسل من طرفه للتحقيق فيها، وحفلت اليوميات بالكثير من الإشارات لحالات الترسيم تلك[١٣٣]، ففي سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، رسم على الشيخ زين الدين بن العلاف، وشهاب الدين العنبري بسبب وقف الخبز في القلعة بشكاية جماعة من المدنيين (أهل المدينة المنورة) ، وحصل الصلح للمدنيين بمبلغ (٩٦٠) درهماً[١٣٤]، وفي سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م رسم على القاضي الحنفي عماد الدين الناصري وجماعته "لما نهي عنه ما يفعله من أكل مال الأوقاف وبيع الأوقاف في غير وجهها، وكثرة المفاسد التي ببابه" ووضعوا في سجن القلعة[١٣٥].

ومن النظار والمتولين من لا يُقْتَصر على وضعه في الترسيم، وإنما يتعرض للضرب، وتوضع رقاب من يثبت عليه التلاعب أو الاختلاس بمال الأوقاف في الجنازير ويسفر إلى مدينة القاهرة[١٣٦].

ويلاحظ من الإشارات المتوافرة بين أيدينا أن الرقابة لا تعدو أن تكون رقابة صورية، وعمليات الكشف التي تقوم بها السلطة المملوكية على الأوقاف لا تعدو أن تكون محاولات من قبل السلاطين للاعتداء على أموال الأوقاف، وابتزاز النظار والمباشرين، وغالباً ما يترتب عليها الاستيلاء على أموال الأوقاف لصالح خزينة السلطان أو لإرضاء الخاصكي المكلف بعملية الكشف[١٣٧]، وكانت الدولة في كثير من الأحيان تلجأ لحل أزمتها المالية بفرض المصادرات على أموال الأوقاف، وهذا ما ظهر بشكل جلي خلال فترة الدراسة عندما استغلت الدولة صراعها مع العثمانيين وحلفائهم بفرض المزيد من المصادرات والرسوم على أهالي بلاد الشام، وهو ما لم تسلم منه المؤسسات الوقفية، والتي أشارت له اليوميات باسم مال الأوقاف، مما أثار غضب العلماء والعامة والشرائح المستفيدة من ريع المؤسسات الوقفية، ففي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م، قطعت أرزاق كثير من مدرسي ومؤذني ومباشري جهات الجامع الأموي[١٣٨]، مما أثار غضب المؤذنين الذين توقفوا عن التسبيح على العادة بعد

---

(١٣٣) ن.م، ص ١٢٠٠، ١٣٨٦.

(١٣٤) ن.م، ص ١٢٠٦. البصروي، تاريخ، ص ٨٠، ١١١، ١١٧، ٢٤١.

(١٣٥) البصروي، تاريخ، ص ١٠٦.

(١٣٦) ابن طوق، التعليق، ص ١٣١٧، ١٣١٩.

(١٣٧) ن.م، ص ٧١٦، ٨٣١، ١٢٠٠، ١٣٨٤، البصروي، تاريخ، ص ١٢٠، ١٦١، ٢١٩.

(١٣٨) ابن طوق، التعليق، ص ٧٩٩، ٨٣١، ٦٢٩.

الصلاة[١٣٩]. وفي سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، قام الغوغاء على الخاصكي بسبب مال الأوقاف، وكبر الناس في مئذنة الجامع الأموي[١٤٠].

وترصد اليوميات وجوهاً كثيرة من الفساد الذي طال المؤسسات الوقفية في أخريات العصر المملوكي، تتمثل بتوريث الوظائف للأبناء والأقارب للإفادة من عوائد الأوقاف[١٤١]، واختلاس أموالها[١٤٢] بتزوير وثائق الوقف[١٤٣]، والاستيلاء عليها وبيعها والاستيلاء على أموالها[١٤٤]، وعدم التزام أرباب الوظائف الدينية والتدريسية بوظائفهم لقاء ما يحصلون عليه من مخصصات، وتعيين نواباً ينوبون عنهم في مباشرة هذه الوظائف[١٤٥]، والصراع بين النظار والقضاة والمستفيدين من هذه الوظائف على المخصصات[١٤٦]، ففي سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، اشتكى أبو الخير المالكي على القاضي المالكي بدار النيابة، أنه يأكل وقف المالكية ولا يصلهم شيء، علماً بأن وقفهم يدر عشرة آلاف دينار سنوياً[١٤٧]، وفي سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، اشتكى مستحقو أوقاف المارستان النوري من أجل معاليمهم وجراياتهم[١٤٨]، ويعلق المؤرخ البصروي بقوله: "إن فائض أوقاف المارستان في سبع سنين عشرون ألف دينار أكلها مباشريه"[١٤٩].

ومن الأمثلة على المؤسسات الخيرية التي خربت وتعطلت أوقافها جامع الطواشي في مدينة دمشق خارج باب النصر، والذي كان إيراد أوقافه فوق الألف درهم شهرياً وأصبح الآن (أي سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م) أربع مئة درهم شهرياً، وكان الواقف قد قرر في وقفه مؤذنين وإماماً وخطيباً وبواباً وقيماً وجابياً وناظراً وساعياً ، وقراءة سبع من المصحف الشريف، واستماع صحيح البخاري وقراءته[١٥٠].

---

(١٣٩) ن.م، ص ٦٣٣، ٨٣٤، البصروي، تاريخ، ص ١٢٠، ٢١٨-٢١٩.

(١٤٠) ابن طوق، التعليق، ص ١٥٠٢.

(١٤١) ابن طوق، التعليق، ص ١٦٥، البصروي، تاريخ ، ص ٢٠٩.

(١٤٢) البصروي، تاريخ، ص ٢٠٠.

(١٤٣) ابن طوق، التعليق، ص ١٩٦، ٣٩٧، ٩٢٩.

(١٤٤) ابن طوق، التعليق، ص ١٩٧، البصروي، تاريخ، ص ١٣٥، ١٦٨، ١٨٠، ٢١٦.

(١٤٥) ابن طوق، التعليق، ص ١٩٧، ٥٨٥، ٨٦٩، ٧٤٢، ٨٣٦، ٨٧٩، ١٠٤٦، ١١٤٨، ١٣٧٩، ١٤١٦.

(١٤٦) ن.م، ص ١٩٧.

(١٤٧) ن.م، ص ٥٨٥، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٤١٦.

(١٤٨) ن.م، ص ٦٢٩، ٦٩٠.

(١٤٩) البصروي، تاريخ، ص ٢٤١.

(١٥٠) ن. م، ص ٢٥، ٢٦، ١٣٥.

ومن ظواهر الفساد التي أشارت لها اليوميات، ظاهرة بيع الأوقاف واستبدالها بحجة خرابها وتعطلها وتناقص وارداتها[١٥١]، بعد إقامة البينات والشهود على تعطيلها، وغير ذلك من مسوغات البيع عند الفقهاء وخصوصاً الأحناف منهم[١٥٢]، فمثلاً باع القاضي شهاب الدين أحمد البقاعي الحنفي الذي ولي نظاره وقف الحرمين خلال فترة مباشرته للنظاره كذا عشرين جهة من وقف الحرمين[١٥٣].

ولعبت طبقة أهل السيف في دمشق دوراً مهماً في هذا الجانب، ففي سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م قرر كافل دمشق قانصوه اليحاوي ابنه في وظيفة نظر على جهة وقف[١٥٤]، كما استولى على أوقاف المارستان النوري، وأوعز لخزنداره بالإنفاق على الضعفاء، وهو شيء قليل مما كان ينفق عليهم[١٥٥]، وأخذ في الظلم وظائف مستحقي جامع بني أمية، واستولى على ماله سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م[١٥٦].

سبل استثمار الأوقاف:

تنوعت الأوقاف في دمشق وجوارها لتشمل معظم مصادر الثروة الاقتصادية من أراضٍ زراعية ومزارع وبساتين، وعقارات وحوانيت وحمامات وطواحين وأفران ومعاصر زيت، ويعتبر الإيجار (الإجارة) من أكثر أساليب الاستثمار شيوعاً من خلال اليوميات، وهذا يعود إلى أن الأصل في الوقف هو حبس العين الموقوفة والانتفاع بريعها[١٥٧].

فمثلاً استأجر الشيخ نظام الدين عمران بن الزيربطانة من الشيخ فرج "جميع البساتين بأرض جوبر ودير السروري وقف المطبخ بباب البريد... مدة أربع سنوات الإجارة عن كل سنة (١١٠٠) فضة[١٥٨]، واستأجر الشيخ شهاب الدين بن المحوجب الشافعي الحصة في مزرعة الفيدق وقف الشهاب أحمد بن المزلق مدة أربع سنين كل سنة بمبلغ فضة

---

(١٥١) ن.م، ص ٢٥-٢٦، ١٠٠.

(١٥٢) ن.م، ص ١٨٦.

(١٥٣) ن.م، ص ١٠٠.

(١٥٤) البصروي، تاريخ ، ص ٢١٦.

(١٥٥) ن.م ، ص٢٤١.

(١٥٦) ن.م ، ص ٢١٨، ٢١٩.

(١٥٧) محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ن)، ١٩٩١م، ص ١٤٥. وسيشار إليه فيما بعد: عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية.

(١٥٨) ابن طوق، التعليق، ص ٥٨٥.

(١٥٠٠)[١٥٩].

ومن تحليل النصوص المتعلقة بعقود الإيجار التي أمكن حصرها، يلاحظ أن جل أسماء المستأجرين هم من فئة العلماء[١٦٠]، يليهم عامة الدمشقيين وفلاحو القرى المجاورة لدمشق الموقوفة أراضيها[١٦١]، ولعل هذا يعكس هيمنة شريحة العلماء على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الدمشقي.

وتتفاوت المدد الزمنية لعقود الإيجار تبعاً لأنواع العقارات المؤجرة، فالملاحظ أن الحوانيت والحمامات تؤجر بعقود إيجار يومية وسنوية، والأمثلة كثيرة من بينها تضمين حمام المرتب القريب من كنيسة النصارى من جهة الغرب داخل مدينة دمشق لثلاثة أنفار كل يوم بمبلغ فضة (٨٠) درهماً[١٦٢]، واستأجر شمس الدين محمد بن جمعة من القاضي محب الدين الأخنائي دار الطعم العتيقة بمبلغ (٦٠٠٠) درهم عن مدة الإجارة السنوية، والأجرة أربعة أقساط كل قسط بمبلغ (١٥٠٠) درهم[١٦٣].

وأما عقود إيجار الأراضي الزراعية التي تستغل في زراعة الخضار والمحاصيل الصيفية والشتوية فتتراوح بين سنتين إلى أربع سنوات، في المعدل، ويحدد عقد الإيجار المبلغ الإجمالي المترتب على المدة جميعها، وآلية الدفع، حيث يلاحظ دفع جزء من المبلغ المتفق عليه مقدماً، ثم يقسط الباقي على أقساط سنوية[١٦٤].

وتتضمن عقود الإيجار الفصل بين الزراعة الصيفية والزراعة الشتوية في الأرض، والمساقاة على الأشجار القائمة في الأرض في عقد الإيجار، فمثلاً استأجرت أم يوسف رحيمة الجرماني أرض الجنينة الكائنة داخل دمشق بالقرب من المدرسة القيمرية وحارة الكنيسة المثبوت وقفها للقاضي محب الدين ابن قاضي عجلون من سيدي كمال الدين [ابن الصلتي] مدة سنة وأربعة أشهر، الأجرة عن جميع المدة (٢٠٠) درهم، واشترط متولي الوقف بأن يتحمل المستأجر ما ينوب المأجور من عمالة ثغره، وإصلاح الباب ... وساقاه في المدة على الأشجار، وتشتمل الأرض على فواكه مختلفة رمان وأجاص ومشمش وغرس عنب وتين

---

(١٥٩) ن.م، ص ١٠٦٣.

(١٦٠) ن.م، ص ٥٨٥، ٦١٠، ٦٢٨، ٩١٨، ١٠٦٣، ١٢٧٧-١٣٧٨.

(١٦١) ن.م، ص ٥٨٦، ٦١٤، ٦٣٧، ٧٤٦، ١٠٠٢، ١٠٥٧.

(١٦٢) ابن طوق، التعليق، ص ٦٠١.

(١٦٣) ن.م، ص ٦١٤.

(١٦٤) ن.م، ص ٦٣٧، ٩١٨.

وجوز[١٦٥].

ويتكفل المستأجر بما يترتب على العقار المأجور من كلف وضرائب وخراج وعشور وعوارض أو فرايض[١٦٦]، وصيانة المأجور والقيام بأعمال الصيانة الضرورية، وما جرت العادة بصرفه كل سنة"[١٦٧].

وحفظت لنا اليوميات عقود إيجار طويلة الأجل لأراضٍ وعقارات لمدة عشرين عاماً، مثل قطعة الأرض الكائنة بزقاق حكر مالك خارج باب توما الموقوفة على جامع السقيفة التي استأجرها الشيخ أبو الفضل القدسي من الشيخ عز الدين خطيب السقيفة مدة عشرين سنة، والأجرة عن كل سنة خمسة دراهم فضة، والإجارة للبناء والغرس والبعلي[١٦٨]، واستأجر خطيب قرية عربيل أبو بكر محمد بن يحيى بن محيي الدين البقاعي الشافعي جميع قطعة الأرض الحاملة الغراس الكائنة في قرية عربيل من الغوطة وشربها من نهر ثورة مدة عشر سنين مشتملة على خمسة عقود، كل عقد سنتان، الأجرة عن كل سنة (٢٠٠) فضة شامية في أولها سلفاً وتعجيلاً[١٦٩].

وهذا النوع من عقود الإيجار طويلة الأجل يخالف ما هو متعارف عليه من عقود الإيجار، ويمكن تفسيره بحاجة هذه العقارات إلى العمارة أو الغراس بالأشجار المثمرة، والتي تحتاج لمدة زمنية طويلة حتى تعطي وارداً يفيد منه المستأجر. كما يفيد الأصل الموقوف بالعمارة، وربما يكون ذلك وجهاً من وجوه الفساد والتعاطي على الأوقاف، وهو أقرب لمفهوم الحكر[١٧٠]. وهو بمثابة عقد إيجار يقصد به استبقاء الأرض الموقوفة تحت يد المحتكر – المستأجر– مع الإذن له من ناظر الوقف أو المتولي بالبناء في هذه الأرض أو زراعتها في حال أن تكون أرضاً زراعية، وهو يختلف عن الإيجار العادي في الإذن بالبناء والزراعة، ويصبح من حق المحتكر بيع أو وقف ما بناه من عقار، ويكون البيع مقتصراً على البناء أو الغراس وليس على الأرض التي هي جارية في وقف آخر[١٧١].

وأشارت اليوميات إلى أسلوب الضمان، كأسلوب من أساليب استثمار العقارات الوقفية، ويظهر

---

(١٦٥) ن.م ، ص ٦٣٧.

(١٦٦) ن.م، ص ٧٤٦.

(١٦٧) ن.م، ص ١٠٥٣، ١٣٧٧–١٣٧٨.

(١٦٨) ابن طوق التعليق ، ص ٦١٠.

(١٦٩) ن.م، ص ١٣٧٧–١٣٧٨، ١٤٧٥– ١٤٧٦.

(١٧٠) ن.م، ، ص ٦١٠، ١٤٩٤.

(١٧١) عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية، ص ١٦٠ وما بعدها.

أن هذا الأسلوب كان شائعاً في استثمار العقارات التي تدر دخلاً يومياً مثل الطواحين والحمامات والأفران فمثلاً تضمن ثلاثة أنفار من بينهم فواز البعلي حمام المرتب القريب من كنيسة النصارى من جهة الغرب في مدينة دمشق من ناظره عيسى القاري بثمانين درهماً يومياً[١٧٢].

الأوقاف والحياة العلمية في المجتمع الدمشقي:

شكلت الأوقاف مصدر دخل جيد لفئات أهل العلم في دمشق، سواء كان ذلك من خلال التدريس والإعادة، والتولية والنظارة على المدارس، أو الإمامة في المساجد والقيام والآذان، والشهادة في بيوت القضاة، ويتضح من خلال الإشارات التي أمكن حصرها في اليوميات أن هناك تبايناً في مستوى دخل العلماء من ريع الأوقاف المخصصة للوظائف التدريسية والدينية، فكانت شريحة القضاة على ما يتضح هي الأعلى دخولاً، فقاضي القضاة الشافعية يتولى بحكم موقعه في السلم القضائي عدداً من الوظائف من بينها كتابة السر، ووكالة بيت المال، وبيده الخطابة والتدريس في الجامع الأموي، ومشيخة الشيوخ، ونظر المارستان النوري[١٧٣]، وتولى القاضي شهاب الدين بن الفرفور الشافعي إضافة لما سبق، نظر الجيش، والترجمة، ونظر القلعة[١٧٤]، عدا النظر والتدريس في الكثير من المدارس والمساجد ومشيختها، مما ترتب عليه التوسع في عدد النواب الذين ينوبون عنه في القضاء ونظر هذه الوظائف حتى وصل عددهم إلى خمسة عشر نائباً[١٧٥].

ولا تقل شريحة المفتين، ومدرسي المدارس أهمية عن شريحة القضاة، ولو أخذنا الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون شيخ كاتب اليوميات نموذجاً دالاً لاحظنا أن هناك العديد من الوظائف كانت بيده من بينها نظر مدارس الركنية الشافعية وتدريسها، وتدريس المدرسة الفلكية، والمدرسة الشامية البرانية[١٧٦]، ومدرسة الشجرية[١٧٧]، وكان معلومه سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م، من مال وقف المدرسة الشامية البرانية مبلغ (١٠٠٠٠) أشرفية[١٧٨].

وشكل الشهود شريحة أخرى من شرائح فئة العلماء، ومن الواضح أنهم يحصلون على

(١٧٢) ابن طوق، التعليق، ص ٦٠١.
(١٧٣) البصروي، تاريخ، ص ٥٧.
(١٧٤) ابن طوق، التعليق، ص ٧٤، البصروي، تاريخ، ص ٥٤.
(١٧٥) البصروي، تاريخ، ص ١١٠، ١٢٣، ١٢٨.
(١٧٦) ابن طوق، التعليق، ص ٣٠-٣١، ٩٠٤.
(١٧٧) ن.م ، ص ١٠٩٧، ١١٣١-١١٣٢.
(١٧٨) ن.م ، ص ٥٥١.

دخول مجزية سواء من مخصصاتهم من الأوقاف[١٧٩]، أو مما يتقاضونه عن شهاداتهم في القضايا إلى جانب الوظائف التي يتولونها[١٨٠]، كشرف الدين قاسم بن قراكز الحنفي أحد الرؤساء بجامع بني أمية والشهود بباب البريد[١٨١].

في حين كانت هناك شريحة من الملتحقين بهذه الطبقة لا تجد قوت يومها مثل كاتب اليوميات الذي أبدى في أكثر من موقع في اليوميات ضيق ذات اليد، وعدم مقدرته على تأمين قوت يومه[١٨٢].

وتعكس الإشارات المتوافرة حول جرايات هؤلاء وحجم تركاتهم مؤشراً دالاً على المستوى الاقتصادي والاجتماعي لفئات العلماء، ففي سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م، تسلم الشيخ شهاب الدين ابن حجي مبلغ عشرة آلاف درهم جامكية عن نصف الإعادة والمشارفة بالمدرسة البادرائية وجرايته لآخر سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م[١٨٣] وتسلم الشيخ أبو الفضل القدسي معلومه عن فقاهة المدرسة الركنية الجوانية الشافعية (٢١٦٠ درهماً)[١٨٤]، وتنازل القاضي الشافعي عن وظيفة الرياسة بالجامع الأموي مقابل (١٠٠) أشرفي[١٨٥]، وتوفي الشيخ الحريري، وترك (١٨٠٠٠) درهم ونحو (٣٠٠) أشرفي[١٨٦]، وخلف ابن قرعون الشاهد بباب العنابة عند وفاته (١٥٠٠) أشرفي غير المتاع والأثاث[١٨٧]، واشتملت محاسبة تركات ابن القطب على (٤٣٠٠) أشرفي، إضافة إلى القماش والنحاس والكتب والصيني، والمصاغ والدواب والخشب والأثاث والعقار والأرض والغراس، وريع الأوقاف والإقطاعات[١٨٨]، وبلغت تركة شيخ المغاربة في دمشق عشرين ألف دينار[١٨٩]، وعندما فتحت قاعة المتوفي شهاب الدين الصابوني، يقال إنهم وجدوا فيها نحو خمسين ألف دينار[١٩٠].

---

(١٧٩) ن.م، ص ١٥٣.
(١٨٠) ابن طوق، التعليق، ص ٨٣٥.
(١٨١) ن.م، ص ٨٥٧.
(١٨٢) ن.م، ص ٨٤٧، ١٤٨٤.
(١٨٣) ن.م، ص ١٧٧.
(١٨٤) ن.م، ص ٢٨٨.
(١٨٥) ن.م، ص١١٣٥.
(١٨٦) ن.م، ص٥٠٤.
(١٨٧) ن.م، ص٨٦١.
(١٨٨) ن.م، ص١٢٩٣.
(١٨٩) البصروي، تاريخ، ص٦٩.
(١٩٠) البصروي، تاريخ، ص٣٦.

وتتنوع الوظائف التي أمكن رصدها في اليوميات مما يتيح مجالات أوسع لمعيشة شرائح العلماء الدمشقيين سواء كانت وظائف ديوانية، أو وظائف دينية عائدة للمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة والمقامات ودور الحديث، ومن بين هذه الوظائف القضاء، ونيابة القضاء[١٩١]، ونظر الجيش[١٩٢]، ونظر القلعة، ووكالة السلطان، ووكالة بيت المال[١٩٣]، والإمضاء والعرض والتقرير، وسماع الدعوة والثبوت[١٩٤]، والترجمة[١٩٥]، ونيابة الغيبة، وإفتاء دار العدل[١٩٦]، وإمرة التركمان، وترجمان السلطان[١٩٧].

وتأتي الوظائف المتعلقة بالمدارس في مقدمة الوظائف الدينية، مثل : النظر[١٩٨] والتولية والتدريس[١٩٩]، والمشيخة[٢٠٠]، والمشارفة[٢٠١]، والفقاهة[٢٠٢]، والإعادة[٢٠٣]، والقيام والآذان والزيت والإمامة[٢٠٤]، والعمالة[٢٠٥]، ونظارة الأوقاف وكتابة الحسابات[٢٠٦].

ومن بين وظائف المساجد: النظر في المساجد[٢٠٧]، والإمامة[٢٠٨]، والخطابة[٢٠٩]، والزيارة والجباية[٢١٠]، وقراءة القرآن الكريم[٢١١]، والحديث النبوي الشريف في المساجد

---

(١٩١) ابن طوق، التعليق، ص٦٩٨، ١٠٣٤، ١١٥٦، ١٤٦٣.
(١٩٢) ن.م، ص٤٤٠، ١٤٤٤.
(١٩٣) ن.م، ص٥٤.
(١٩٤) ن.م، ص٥١، ٧٨١.
(١٩٥) ن.م، ص٤، ١٤.
(١٩٦) ن.م، ص٣٠-٣١، ١٥٠٩.
(١٩٧) ن.م، ص ١٤٤٠.
(١٩٨) ن.م، ص ٣٠-٣١، ٥٣٦، ٧٢٥، ٨٤٤.
(١٩٩) ن.م، ص٣٠-٣١، ٨٤، ٥٣٦، ٨٣٢، ٨٤٢، ٨١٩، ٩٢٨، ١١٣٢.
(٢٠٠) ن.م، ص ١٢٦٨.
(٢٠١) ن.م، ص١٧٧٠، ٥١٥.
(٢٠٢) ن.م، ص ١٥٦، ١٩٩، ٢٦٤-٢٦٥.
(٢٠٣) ن.م، ص ١٧٧، ٢٦٤-٢٦٥، ٥١٨.
(٢٠٤) ن.م، ص ١٤٠.
(٢٠٥) ن.م، ص ٢٥٢، ٨٨١.
(٢٠٦) ن.م، ص ٧٤٧.
(٢٠٧) ابن طوق، التعليق، ص ٤٢٧.
(٢٠٨) ن.م، ص ٣٦٣، ٤٢٧، ٦٣٨.
(٢٠٩) ن.م، ص ٦٣٨.
(٢١٠) ن.م، ص ١٣٤٩.
(٢١١) ابن طوق، التعليق، ص ١٢٤، ٢٢٧، ٣٥٢، ٥٨٤، ٦٦٠، ١٠٢٧.

والترب[٢١٢]. ووظائف النظر والرياسة والآذان وعمالة العمارة في الجامع الأموي[٢١٣]، ونظر ومشيخة الزوايا[٢١٤]، ونظر الحرمين، والصحابة في الحرمين، وعمالة وقف الحرمين[٢١٥]، ونظارة المارستان النوري، والنيابة فيه، وخدمته[٢١٦]، ونظر الصدقات[٢١٧]، والشهادة في القضايا[٢١٨]، ومشيخة المغاربة[٢١٩]، وخدمة الأضرحة والمقامات[٢٢٠].

وتنوع هذه الوظائف يعكس تنوعاً في إشارات اليوميات عن العوائد المالية التي يتقاضاها العلماء ما بين نظارة[٢٢١]، وتولية[٢٢٢]، ووظيفة[٢٢٣]، وراتب[٢٢٤]، ومعلوم[٢٢٥]، وجامكية[٢٢٦]، وجراية[٢٢٧]، وعمالة[٢٢٨]. ولم يلحظ الباحث في اليوميات ما يدل على وجود محددات مالية للتمييز بين وظيفة وأخرى من هذه الوظائف، ولا يعدو الأمر أكثر من أن يكون تداخلاً بين المسميات الرسمية، وبين المسميات الدارجة في العامية الدمشقية، كون كاتب اليوميات ينتمي إلى البيئة الدمشقية.

وتمدنا الإشارات المتوفرة حول الوظائف بدلالات مهمة أولها: غزارة الأوقاف المسبلة على المؤسسات والمنافع العامة في المجتمع الدمشقي في أواخر العهد المملوكي، ودور هذه الأوقاف في إدامة عمل المؤسسات الخدمية، وفي مقدمتها المؤسسات الدينية والتعليمية، مما وفر بالتالي أسباب المعيشة لشريحة مهمة من شرائح المجتمع. وثانيهما: إن هذه الوظائف لم

---

(٢١٢) ن.م، ص ٣٥، ١٩٧، ٢٠٤، ٤١٤، ٩٥٨.
(٢١٣) ن.م، ص ٥٥٢، ٧٥٤، ٨٣٥، ١١٣٥.
(٢١٤) ن.م، ص٢٤١، ٤٥٥، ٢٢٦.
(٢١٥) ن.م، ص ٢٦٦، ٤٠٥، ٧٧٧، ٨٣٢.
(٢١٦) ن.م، ص ٣٨١، ٤٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠.
(٢١٧) ن.م، ص ٣٦٦.
(٢١٨) ن.م، ص ١٥٣، ٨٥٧، ٨٦١، ١٣٧٩.
(٢١٩) ن.م، ص ٣٦٦.
(٢٢٠) ن.م، ص ١٥٣، ٨٥٧، ٨٦١.
(٢٢١) ن.م، ص ٣٠-٣١.
(٢٢٢) ن.م، ص ٨٤، ٧٨١.
(٢٢٣) ن.م، ص ١٢٤، ١٩٧، ٢٠٤، ٢٢٧، ٣٥٥، ٣٦٦.
(٢٢٤) ن.م، ص ١٥٣.
(٢٢٥) ن.م، ص ١٧٨، ١٩٦، ٢٦٤-٢٦٥، ٤١٤، ٨٨١، ٤٩٠.
(٢٢٦) ن.م، ص ١٣٧.
(٢٢٧) ن.م، ص ١٧٧.
(٢٢٨) ن.م، ص ٥٥٢.

يقتصر الإشراف عليها والإفادة منها على شريحة أهل القلم بل طالت أهل السيف كذلك.

ومع أن من المنتظر أن يكون الإشراف والنظر لشريحة أهل القلم والمعممين، إلا أننا نجد أن كثيراً من هذه الوظائف يتولى الإشراف عليها أهل السيف، خصوصاً ما يتعلق منها بأوقاف السلاطين وأمراء المماليك، مثل وكالة السلطان ونظر القلعة، ووكالة بيت المال، ونظر الجيش[٢٢٩]، ووقف الأسرى، وأمرة التركمان، ونيابة الغيبة، وأوقاف الذخيرة في الشام[٢٣٠]، ومع هذا تولى بعضهم الإشراف والنظارة على أوقاف من المنتظر أن يكون الإشراف عليها لأهل القلم، مما يشعر بحالة من الفوضى في إدارة هذه الوظائف في أخريات العصر المملوكي، فمثلاً تولى نائب الغيبة التكلم في أوقاف الحنفية في دمشق، من بينها نظر المدرسة الناصرية البرانية والجوانية، ونظر جامع وتربة تنكز ونصف نظر المدرسة الفارسية[٢٣١]، وحاز الكافل قانصوه اليحاوي ظلماً وظائف مستحقي جامع بني أمية[٢٣٢]، كما استولى على أوقاف المارستان النوري[٢٣٣].

ولعل الظاهرة الأبرز التي تلحظ في اليوميات هي ظاهرة التنازل عن الوظائف بين أهل القلم في دمشق في هذه الفترة، ومن خلال تحليل هذه الإشارات لاحظ الباحث أن النزولات تلك مرتبطة بالأوضاع المعيشية للعلماء، والحاجة الماسة للمال، فقسم من هذه النزولات هي عبارة عن نزولات مقابل سداد ديون والتزامات مالية مترتبة على أصحابها، أو ضمانات لاقتراض تعود لأصحابها بعد سداد الالتزامات المترتبة عليهم[٢٣٤].

وغالبية هذه النزولات تتم بين شرائح العلماء[٢٣٥]، وهناك نزولات بالتبادل[٢٣٦]، ونزولات لأمراء مماليك[٢٣٧]، ونزولات لمصلحة الورثة، فمثلاً نزل الشيخ زين الدين خضر الحسباني عن جميع وظائفه لأولاده، ما خلا حصته في وظيفة الحرمين الشريفين وحصة عن نصف وظيفة الصدقات[٢٣٨]، ونزل الشيخ محب الدين لولده عبد الوهاب الرضيع، وأوصى له

(٢٢٩) ابن طوق، التعليق، ص ٥١، ٥٤، ٨٤٢، ١٤٥٨.

(٢٣٠) ن.م، ص ١٤٤٠، ١٥٠٦، ١٥٠٩.

(٢٣١) البصروي، تاريخ، ص ١٩٢.

(٢٣٢) ن.م، ص ٢١٨- ٢١٩.

(٢٣٣) ن.م، ص ٢٤٣.

(٢٣٤) ابن طوق، التعليق، ص ٣٠-٣١، ٨٤، ١٩٩، ٢٢٦، ٤٢٧، ٦٣٨، ٨٩٩- ٩٠٠، ١١٠٠، ١١٣٥.

(٢٣٥) ن.م، ص ٣٠-٣١، ٣٥، ٢٢٦، ٤٢٧، ٢٥٢، ٥٨٤، ٨٢٥، ٨٤٤، ٨٨١، ٩٠٤، ١٠٨٦، ١١٠٠.

(٢٣٦) ن.م، ص١١٣١-١١٣٢، ١١٣٥، ١٢٦٨.

(٢٣٧) ابن طوق ، التعليق، ص ٣٦٥.

(٢٣٨) ن.م، ص ١١١٨.

عن عشر وظائف[٢٣٩]، وأشهد شمس الدين محمد بن الدارميني صاحب اليوميات بأنه نزل لولده الصغير وولد آخر له عن وظيفتي قراءة ما تيسر من كتاب الله بينهما بالسوية[٢٤٠].

والملاحظ في حال التنازلات للأولاد القصر، أنه يعين ناظر أو وكيل من بين فئة العلماء، ينزل له عن الوظائف كوصي يتولى كفالتهم[٢٤١]، والإنفاق عليهم من عوائد هذه الوظائف حتى يصلوا إلى سن الرشد[٢٤٢].

ولم يقتصر النظر على فئة العلماء، وإنما يلاحظ تعيين نظّار من أهل السيف، وذلك لضمان حماية حقوق الورثة في هذه الوظائف، وضمان عدم الاعتداء عليها فمثلاً نزل عز الدين ابن الحمراء عن وظائفه لأجل ابنه الصغير، وجعل سودون الطويل أحد الأمراء الأولوف بدمشق ناظراً[٢٤٣].

صورة العلماء في اليوميات:

يتمتع علماء الشافعية والأحناف بمكانة مهمة بين علماء المذاهب الأخرى، ويتضح من الإشارات ارتباط أسماء الكثير من علمائهم في الوظائف الدينية[٢٤٤]، أكثر مما ترد الإشارة للحنابلة والمالكية، ويلاحظ انتشار المذهب المالكي في دمشق بين المغاربة بصورة رئيسة[٢٤٥]. وأما الإشارات للحنابلة فهي قليلة، كالشيخ تقي الدين البقاعي الحنبلي، الذي يصفه كاتب اليوميات بأنه من غلاة طلبتهم[٢٤٦].

وهناك وجود محدد للشيعة في مدينة دمشق، ووردت حولهم بعض الإشارات في معرض محاولتهم بناء مسجد[٢٤٧]، غير أنهم لم يكونوا طائفة ذات تأثير كبير في دمشق بالرغم من وجود تجار متنفذين بينهم[٢٤٨].

ويتضح ارتباط فئة من العلماء بالسلطة، خصوصاً ممن يتولون منهم وظائف سلطانية

---

(٢٣٩) ن.م، ص٣٣٦، ٤٩٨، ١٠١٤.
(٢٤٠) ن.م، ص ٦١٤.
(٢٤١) ن.م، ص ١٠٢٣، ١٣٤٩.
(٢٤٢) ن.م، ص ٨٤، ٣٦٦، ٦١٤.
(٢٤٣) ن.م، ص ٨٤١-٨٤٢.
(٢٤٤) ابن طوق، التعليق، ص ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ٢٦٤- ٢٦٥، ٢٨٨، ٥٥١، ٨٦١، ١١١٧، ١٢٩١.
(٢٤٥) ن.م، ص ١٨١، ١٢٩٩.
(٢٤٦) ن.م، ص ١٧٤.
(٢٤٧) ن.م، ص ٥٠١، ٥١٠، ٥١٦، ٥٢٣.
(٢٤٨) ن.م، ص ٩٤٨.

كما يسميهم كاتب اليوميات[٢٤٩]، أو ممن دخل في المظالم وأمور السلطنة ضمن فئة العوانية[٢٥٠]، ومخالطة الأتراك[٢٥١]، والتردد على السلطان[٢٥٢].

ويتضح أن الكثير من علماء هذا العصر لا يلتزمون بحضور الدروس، نظير ما هو مقرر لهم من جرايات وأوقاف ومعاليم، ففي سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م، قرىء درسان فقط في المدرسة الشامية البرانية، وحضر جماعة قليلون، لما أشيع أن في هذه السنة إن التفرقة لا تحصل[٢٥٣]. ومن العلماء من ينيب عنه في الحضور مما استدعى من بعض النظار أن يغوشوا على من لا يحضر". ويصروا على عدم تفريق مخصصاتهم، وعدم قبول الإنابة[٢٥٤].

ويظهر أن هناك مبالغ مالية تدفع كحوافز تشجيعية لقاء حضور الدروس تسمى "الجعالة" يتقاضاها العلماء، ويبدو أن بعضهم لا يحضر إلا في مواعيد توزيعها مما حدا النظار أن يعيدوا النظر في مواعيد توزيعها، ليضمن التزامهم بالحضور[٢٥٥]، ومن الحوافز الأخرى توزيع الفواكه والحلوى[٢٥٦]، التي توزع في المدارس بعد انتهاء الدروس.

وإزاء هذه الصورة، هناك صورة أخرى للعلماء ممن هم خارج السلطة، خصوصاً جماعات المتصوفة، والفقراء الذين يتحاشون الاختلاط بالسلطة تحرزاً على دينهم، منهم من اعتزل الوظائف العامة، وزهد في الدنيا ويأكل من قوت يده، مثل الشيخ شهاب الدين (؟)، الذي لم يقبل هدية من أحد، وأرسل إلى بعض الكبار أن لا يرسلوا له شيئاً، فإنه عاهد أن لا يقبل لأحد شيئا[٢٥٧]، والشيخ سعد الحوراني من فقراء جامع العداس، كان رجلاً مباركاً متسبباً يعمل السنبوسك والبسيس[٢٥٨]، والشيخ عبد اللطيف الحمصي الذي كان متقللاً في الدنيا، ويلبس الخلق من الثياب، وكان نازلاً في المدرسة السمصاتية، وملازماً على الصلاة في أوقاتها في الجامع الأموي[٢٥٩].

---

(٢٤٩) ن.م، ص ١٣٨١.

(٢٥٠) ن.م، ص ١٠٣٧-١٠٣٨.

(٢٥١) البصروي، تاريخ، ص ٥٧-٥٨.

(٢٥٢) ن.م، ص ٥٨، ٧٧-٧٨، ١١٦، ٢٠٧، ٢١٩.

(٢٥٣) ن.م، ص ١٨٠.

(٢٥٤) ابن طوق، التعليق، ص ١١٦٦.

(٢٥٥) ن.م، ص ١٣٩٨.

(٢٥٦) ن.م، ص ٥٧، ١٦٣، ٥٣٩، ٩١٩، ٩٢٣.

(٢٥٧) ن.م، ص ٧١٠.

(٢٥٨) ن.م، ص ٩٤٥.

(٢٥٩) ن.م، ص١٠٢٩، وانظر نماذج أخرى في التعليق، ص٤٦، ١٠٩٢، ١١٤١، والبصروي، تاريخ، ص١٢، ٤١-٤٢،

ولعل أبرز الصور إشراقاً في حياة علماء دمشق خلال فترة الدراسة صورة الشيخ مبارك القابوني وجماعته من الفقراء الذين مارسوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوسع أبوابه خلال فترة الدراسة، وتصدى هؤلاء لمظاهر الفساد والمتمثلة بخانات الخمور، وبيوت الخواطئ والمغاني وشرب الحشيشة وغيرها من المفاسد التي راجت بسبب تفسخ السلطة في أواخر العصر المملوكي، وتشجيع أمراء المماليك في دمشق ورعايتهم إياها(٢٦٠).

ولم تقتصر مواجهة السلطة على الفقراء والصوفية، بل قاد العلماء العامة في التصدي للظلم وفرض الضرائب الجائرة، والاحتكار وغلاء الأسعار، بوسائل متعددة منها التكبير في المساجد، ورفع الأعلام على المآذن، والاجتماع في المساجد خصوصاً في الجامع الأموي، وحمل المصاحف والاستغاثة والتهليل والتكبير، ورفع عرائض الاحتجاج، وإغلاق المساجد والمدارس، والتوقف عن الفتوى والتدريس(٢٦١).

وكان لبعض العلماء خصوصاً الشيخ تقي الدين أبو بكر بن عبد الله بن قاضي عجلون (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٤م) دور مهم – كما تصوره اليوميات – كحلقة وصل بين السلطة المملوكية في دمشق والأهالي وساهم في حل الكثير من المشكلات، وإطلاق سراح المسجونين والمرسم عليهم(٢٦٢).

وإزاء هذه الصورة الإيجابية تقدم لنا اليوميات صورة سلبية لبعض النماذج من بين أهل القلم تتمثل بانتشار الفساد والرشوة(٢٦٣)، والبذل والبرطلة(٢٦٤)، والصراع على الوظائف، وأكل مال الأوقاف(٢٦٥)، وشرب الحشيش، والخمور(٢٦٦)، واللواط(٢٦٧)، والاجتماع بالمرد والنساء(٢٦٨)، والاتصال بالعوانية وأعوان الظلمة من قبل بعض المتعممين(٢٦٩)، "فمنهم

٥٩، ١٥١.

(٢٦٠) ابن طوق، التعليق، ص١٦-٣٧، ٣٧٦، ٤٣١، ٨٥٩، ١٠١١، وحول نشاط الشيخ مبارك وصدامه مع السلطة انظر الصفحات: ١١١٢، ١١١٤، ١١١٥، ١١٢٩، ١١٤١، ١١٤٦، ١١٥٧، ١١٦٧، ١١٧٣-١١٧٤، ١١٧٩، ١١٩٧، ١٢٨٨، ١٢٩٩.

(٢٦١) ابن طوق، التعليق، ص ٦٢، ٨٢، ١٢٠، ١٢١، ٥٩٨، ٦٢٧، ٦٧١، ٧١٢، ٧١٩، ٧٢٦، ١٠٤١، ١١٤١.

(٢٦٢) ن.م، ص ٥٠، ٥١، ٦٣، ١٤١، ١٦٤، ١٨٣، ٢٧٥، ٦٧٢، ٦٧٣، ١٠١١.

(٢٦٣) ن.م، ص ٦٩٠، ٧١٤، ١٥١٤، ١٥٠١، ١٥١٤.

(٢٦٤) ن.م، ص ٨١٤، ١٢٩٩، ١٣٨٧.

(٢٦٥) ن.م، ص ٦٢٩، ٨٨٧، ١٣٩٤، ١٤٦٣.

(٢٦٦) ن.م، ص ١١٠٣.

(٢٦٧) ن.م، ص ٣١٢، ٦٩٠، ٧٩٩، ٨٩٣، ١٠٥٤.

(٢٦٨) ن.م، ص ٥٠٣، ٧٩١.

(٢٦٩) ن.م، ص ١١٨٠.

من كان كثير الموافقة في مظالم العباد، خصوصاً إذا حضر خاصكي في الأوقاف، فيسعى في إهلاك الناس، ومن أرضاه يدافع عنه ولو كان مرتكباً للعظائم في الوقف الذي تحت يده، والذي لا يرضيه يسعى في تسليط الظلمة عليه، ولو كان الوقف الذي في يديه في نهاية العمارة والصرف على المستحقين[٢٧٠].

وتعكس اليوميات حراكاً علمياً كبيراً بين مدينة دمشق وغيرها من المدن، ويتمثل هذا الحراك بظاهرة توافد العلماء والمتصوفة إلى دمشق من القاهرة[٢٧١]، والقدس الشريف[٢٧٢]، وغزة[٢٧٣]، ومدينة نابلس[٢٧٤]، وحماة[٢٧٥]، وبعلبك[٢٧٦]، ومكة المكرمة[٢٧٧]، والمدينة المنورة، وبلاد المغرب[٢٧٨]، ويقيم هؤلاء في مدارسها وزواياها، وخانقاواتها، ويشاطرون علماءها في الدرس والتدريس.

ومن مظاهر التواصل بين علماء دمشق وخارجها تتبع الدمشقيين لأخبار العلماء ومن يتوفى منهم، فكان علماء دمشق وأهلها يؤدون صلاة الغائب في الجامع الأموي عليهم، ومن بين هؤلاء العلماء الشيخ المقرىء علاء الدين بن القاسم من مدينة الخليل[٢٧٩]، والشيخ عثمان الكردي الشافعي عالم حلب[٢٨٠]، والقاضي الحنبلي أبو البقاء بن الحيعان الذي توفي في القاهرة، وشمس الدين السخاوي المؤرخ الذي توفي بمكة المكرمة[٢٨١].

وتعد ظاهرة المجاورة من الظواهر المميزة للمجتمع الدمشقي، سواء مجاورة الدمشقيين رجالاً ونساءً في الحرمين الشريفين في الحجاز[٢٨٢]، ومجاورتهم في دمشق نفسها، فيشير كاتب اليوميات إلى جارهم المجاور في المارستان النوري[٢٨٣]، كما تشير إلى وجود مجاورين

(٢٧٠) البصروي، تاريخ، ص ٢١٩.
(٢٧١) ابن طوق، التعليق، ص ٤٤، ٥٤٥، ١٣٩٩.
(٢٧٢) ن.م، ص ٤٠٧، ٩٨٢، ١٢١٩، ١٣٦٨.
(٢٧٣) ن.م، ص٤٦٣.
(٢٧٤) ن.م، ص٤٦٣.
(٢٧٥) ن.م، ص٨١١، ١٢١١.
(٢٧٦) ن.م، ص٧٤٦.
(٢٧٧) ن.م، ص١٢٠٣، ١٢٣٥.
(٢٧٨) ن.م، ص٢١١.
(٢٧٩) ن.م، ص١٠١٥.
(٢٨٠) ن.م، ص١١٧٨.
(٢٨١) ن.م، ص١٥٠٨.
(٢٨٢) ابن طوق، التعليق، ص٦٨٠، ٦٨١، ٦١٨، ٩١٨، ١١٥٩.
(٢٨٣) ن.م، ص١٢٥١.

من خارج دمشق مثل عدد من فقراء الهنود مجاورين في الجامع الأموي[٢٨٤].

ورافق انهيار الوجود العربي الإسلامي في الأندلس هجرات كثيرة لعلمائها باتجاه المغرب والمشرق، ولا شك أن قسماً منهم وفد إلى دمشق سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م، كما يذكر كاتب اليوميات "من بلاد الأندلس التي أخذها الكفار"[٢٨٥]. وواضح أن هؤلاء العلماء الوافدين سرعان ما استوعبهم المجتمع الدمشقي، حتى إن أحدهم وهو شمس الدين أبو يوسف المغربي الأندلسي أصبح قاضي قضاة المالكية في دمشق سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م[٢٨٦].

وتمدنا اليوميات ببعض التفاصيل حول الإجازات العلمية، ونوعية العلوم التي ينبغي على المتعلم اجتيازها، والمتمثلة بعرض عدد من الكتب من بينها المنهاج في الفقه، وجمع الجوامع في أصول الفقه، والجزرية والشاطبية في التجويد والقراءات، وألفية ابن مالك في النحو، وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان، وعمدة الأحكام في الأحاديث، وتصريف العربي وايساغوجي في المنطق[٢٨٧].

ويتولى الشيخ اختبار الطالب في عدة مواقع، بعد ذلك يجيز عرضه، وتفرق العربونة (الحلوى)[٢٨٨]، ويتم هذا إما في بيت الشيخ، أو في المدارس أو الجوامع والمساجد.

وإلى جانب الإجازات العلمية هناك إجازات في التصوف تمنح من لدن شيوخ وأصحاب الطرق الصوفية، يعرض فيها المريد مروياته من صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسيرة النبوية[٢٨٩]، وسنده في الحديث المتسلسل، وبعد ذلك يُجاز ويُلبّس الخرقة المباركة[٢٩٠]، ويُجَلّس على السجادة[٢٩١].

---

(٢٨٤) ن.م، ص١٠٥٤.

(٢٨٥) ن.م، ص ١٠٩٢.

(٢٨٦) ابن طوق، التعليق، ص ١٣٣٧.

(٢٨٧) ن.م، ص ٩٢٦، ٥٣٣، ٧٥٦، ١١٠٥، ١٤٢٩.

(٢٨٨) ن.م، ص ١٠٧.

(٢٨٩) ابن طوق، التعليق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢٩٠) ن.م، ص ٢٢٨-٢٢٩، ٤٩٦٠- ٤٩٧٠.

(٢٩١) ن.م، ص ١٤٢.

واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي المتأخر (٨٠١هـ/١٣٩٨م - ٩١٥هـ/١٥٠٩م) كتب التراجم واليوميات مصدراً

هند أبو الشعر*

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة قراءة واقع الأوقاف في نيابة دمشق[١] في أواخر العهد المملوكي، استناداً إلى كتب التراجم واليوميات والمذكرات والمصادر الموازية، وجاء اختيار المرحلة الزمنية مدروساً منذ منتصف القرن الثامن الهجري وحتى منتصف القرن التاسع الهجري / منتصف القرن الرابع عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين، ذلك أن هذه المرحلة شهدت سقوط دولة المماليك الأولى، وقيام دولة المماليك الثانية، في مرحلة كانت القوة العثمانية تتحفّز على حدود الدولة المملوكية شمالاً لاجتياحها على محوريّ بلاد الشام ومصر، وهذا يعني اضطراب الأوضاع وتعدد القوى، وبالتالي اضطراب حال الأوقاف بالتأكيد.

كما أن اختيارنا لنيابة دمشق، يستند إلى دور هذه النيابة في دولتي المماليك الأولى والثانية، واستقطابها للقوى الفاعلة، ومجاورتها للقوة العثمانية المتاخمة لنيابة حلب، فدمشق في تلك المرحلة كانت مركز القوة التي تستند إليها دولة المماليك في أيامها الأخيرة، للحفاظ على حدود الدولة وكيانها، وتشير دراسة وضع نيابة دمشق في هذه المرحلة بالذات، إلى فساد الإدارة المملوكية، وحتمية انهيارها أمام القوة العثمانية الطامعة بالامتداد نحو مركز شرايين التجارة العالمية في كل من مصر وبلاد الشام، وإلى السيطرة على الحجاز واكتساب القوة المعنوية، بالسيطرة على الأراضي المقدسة في كل من الحجاز وفلسطين.

هذا من حيث محوري الزمان والمكان، أما الدافع المباشر لتحديد محاور الورقة، فيعود

---

* قسم التاريخ، جامعة آل البيت، المملكة الأردنية الهاشمية.

(١) انظر بشأن النيابات والأعمال في دولة المماليك الأولى وصف مدينة دمشق: القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٤١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (ج١-ج١٤)، تعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، سنة ١٩٨٧م، انظر: ج٤، ص٩٢- ص٩٣، وسيشار إليه فيما بعد: القلقشندي، صبح الأعشى.

إلى طبيعة المصادر المحفزة للدراسة، فقد توافر لنا الاطلاع على مصدرين مباشرين لنيابة دمشق في هذه المرحلة، كشفا واقع ودقائق الحياة الدمشقية اليومية، وأبرزا علاقة القوى المحيطة بالسلطة، ويمكن من خلالهما متابعة صورة الأوقاف في نيابة دمشق بالتفاصيل الحقيقية التي تغفلها عادة المصادر التقليدية والرسمية؛ والكتاب الأول نيل على تاريخ ابن كثير[٢] وهو لشهاب الدين أحمد بن حجي الحسباني (٧٥١-٨١٦هـ/ ١٣٥٠-١٤١٣م)[٣]، والثاني يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق (٨٣٤-٩١٥هـ/ ١٤٣٠-١٥٠٩م) المعروف بالتعليق[٤]، وهما مصدرنا المباشر لهذه القراءة، فضلاً عن توافر مجموعة متميزة من المصادر الرديفة، والتي تلقي الضوء على الإطار التاريخي بتفاصيله السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية والدينية والاجتماعية، وهذا الكم الممتاز من المصادر، يعطي الدارس فرصة النظرة الشمولية، لفهم التفاصيل الدقيقة التي يقدمها ابن حجي وابن طوق.

إضاءة على مصادر المرحلة الرديفة للكتابين:

لا يمكن قراءة تاريخ ابن حجي ويوميات ابن طوق بمعزل عن مجموعة من المصادر الموازية، التي ترفد مادة المصدرين السابقين، وعلى رأسها كتب ابن طولون[٥]، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، وكتاب قضاة دمشق المعروف بالثغر البسام في ذكر منْ ولي قضاء الشام[٦]، وكتاب أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى[٧].

---

(٢) الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصروي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية (ج١- ج١٤) ط.أولى، سنة ١٩٦٦م.

(٣) رسالة ماجستير غير منشورة، تحقيق ودراسة عمر علي نياب الشامي، جامعة اليرموك، الأردن، سنة ١٩٩٩م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجي، تاريخ.

(٤) من منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، (مجلد١- مجلد٣) تحقيق جعفر المهاجر، مج١، سنة ٢٠٠٠م، مج ثانٍ، سنة ٢٠٠٢م، مج ٣، سنة ٢٠٠٤م، وينتظر صدور المجلد الرابع قريباً، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طوق، التعليق.

(٥) شمس الدين محمد بن علي بن طولون (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى (ج١- ج٢) القاهرة، سنة ١٩٦٢م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان.

(٦) شمس الدين محمد بن علي بن طولون، (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، قضاة دمشق المعروف بالثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، سنة ١٩٥٦م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، الثغر البسام.

(٧) شمس الدين محمد بن علي بن طولون، (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، أعلام الورى بمن ولى نائباً عن الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق سنة ١٩٦٤م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، أعلام الورى.

ويبدو للدارس بوضوح أن جزءاً كبيراً من يوميات ابن طوق المتوفى سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م يرد في كتابي ابن طولون؛ مفاكهة الخلان وقضاة دمشق، ويبدو أن ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م ربما يكون قد اطلع على يوميات ابن طوق التي وثقت القيود اليومية والمعاملات في دمشق، بصفته مسجلاً للعقود، وشاهداً على ما يبرمه شيخ الإسلام تقي الدين أبو بكر بن عبد الله بن قاضي عجلون (٨٤١-٩٢٨هـ / ١٤٣٣-١٥٢١م) [٨]، وهو شافعي المذهب، لازمه ابن طوق، والتزم به حسبما يشير دائماً في يومياته، ومع إيرادنا لهذه الملحوظة، إلا أننا نرى أن دارس يوميات ابن طوق، لا بد وأن يقرنها بكتب ابن طولون للمقارنة والتحليل، وتحديداً كتاب قضاة دمشق، الذي يساعدنا في التعرف إلى أصول القضاة وأحوالهم ومراسيم تعيينهم وعزلهم من قضاة المذاهب الأربعة (الشافعي والحنبلي والمالكي والحنفي) ويطرح بذلك علاقة نواب السلطنة بدمشق بالقضاة على المذاهب الأربعة، ويطرح بالتأكيد واقع الأوقاف في نيابة دمشق حسبما يراه قضاة كل مذهب، وهذا يعني أن على دارس الأوقاف دراسة القضاء أولاً.

ومن المصادر التي يجب أن تصاحب قراءة ابن طوق وابن حجي، كتاب ابن شاهين الظاهري، المعروف بـ: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك[٩]، ويمتاز ابن شاهين بتوثيقه للأحداث من خلال السجلات والوثائق التي تعامل معها، باعتباره من أصحاب المناصب الرفيعة في أكثر من موقع من سلطنة المماليك، فضلاً عن كشفه للعلاقة بين القضاة من المذاهب الأربعة وبين نائب السلطنة بدمشق، كما أن قراءة الحياة التعليمية وعلاقتها بالوقف، يعيدنا بقوة إلى كتاب النعيمي، (الدارس في تاريخ المدارس)، الذي يضم مادة ممتازة لمدارس دمشق[١٠]، وهو مصدر لا غنى عنه لدراسة واقع المدارس وعلاقتها بالأوقاف.

ولا يمكن تجاوز كتاب القلقشندي المميز، (صبح الأعشى في صنع الإنشا)، فالقلقشندي من أفضل من تناول الإدارة والقضاء والحسبة في هذه المرحلة، حتى إن الدارس يستطيع معرفة أسماء خطباء الجامع الأموي بدمشق أيام الجمعة، ومتابعة تقليد السلطان المملوكي بالقاهرة للقضاة لهذه المهمة، بمرسوم يقرأ عادة على الحضور باحتفال رسمي، لذا فإن

(٨) مقدمة يوميات ابن طوق، محقق الكتاب الشيخ جعفر المهاجر، مج ١، ص٩.

(٩) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى به بولس راويس، دار العرب البستاني، القاهرة ، ط٢، سنة ١٩٨٨م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شاهين، زبدة كشف.

(١٠) عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م)، الدارس في تاريخ المدارس (ج١-ج٢) أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٠م، وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

من أهم ما أورده القلقشندي مراسيم تعيين أو عزل القضاة، ولمعلوماته مصداقية خاصة بسبب توليه لمهام ديوان الإنشاء سنة ٧١١هـ/١٣٨٨م.

يبدو إذن أننا نتحدث عن عصر غنيّ بالمصنفين الموثوقين والمصنفات التي تضيء لنا المعلومات التي نعود إليها لنؤكدها أو نفسرها، ومنهم ابن فضل الله العمري[١١] والحافظ ابن حجر العسقلاني[١٢] والسخاوي[١٣] وابن قاضي شهبة[١٤]، وأبي الفدا[١٥] وغيرهم، ومن هنا، فإننا نستطيع الاطمئنان إلى أن ما تورده كتب اليوميات خاضع للتفحص والتحليل والتفسير من خلال هذه المصادر ومصنفات العصر.

تختلف مسيرة ابن حجي وابن طوق، وبالتالي يختلف تصنيفهما ومصادرهما، فابن حجي يتمتع بمكانة علمية مرموقة، وينسب إلى أسرة دمشقية، اشتهر منها العديد من الفقهاء والدارسين، وقد تلقى تعليماً دينياً وفقهياً، وتعود أصول عائلته إلى قرية حسبان بالأردن جنوبي سورية[١٦] وقد قدم جدهم من حسبان، وعرف في دمشق بأنه أحد فقهائها في عصره[١٧]، أما ابن حجي فقد تلقى تعليمه بإشراف والده، وسمع عن العديد من المصنفين على المذهب الشافعي ثم على المذهب المالكي، وارتحل إلى القدس طلباً للعلم، ثم إلى حلب ومصر وغزة والمدينة المنورة ومكة المكرمة[١٨]، ولابن حجي مكانة علمية تذكرها مصادر

---

(١١) شهاب الدين أبو العباس احمد بن يحيى ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، سنة ١٨٩٤م، وهو ممن تولى ديوان الإنشاء، وكانت عائلته أيضاً تتولى هذه المهمة بالتوارث، وعمل بالقضاء، وأورد المراسلات والألقاب والنظم الإدارية المعتمدة في أيامه، وسيشار إليه فيما بعد: ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح.

(١٢) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٧م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، الدرر، (ج١- ج٤).

(١٣) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (ج١- ج١٢)، دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت. ن)، وسيشار إليه فيما بعد: السخاوي، الضوء اللامع.

(١٤) تقي الدين ابو بكر احمد بن قاضي شهبه الأسدي الدمشقي (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبه (ج١- ج٢) تحقيق عدنان دوريش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن قاضي شهبه، تاريخ.

(١٥) الإمام عماد الدين إسماعيل بن خليفة بن عبد العال، أبو الفدا الحسباني (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م).

(١٦) عرف عن حسبان القريبة من عمان، والتي كانت تتبع لنيابة البلقاء، تخريجها للعديد من العلماء في عهد المماليك.

(١٧) ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٥.

(١٨) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٣، ص١٣٨، وابن حجي، تاريخ، ص٣١٠.

المرحلة، فقد ألف العديد من المصنفات وأهمها كتاب الدارس في أخبار المدارس[١٩] إلا أنه احترق عندما احتل تيمورلنك دمشق وأحرقها سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م[٢٠]، أما أشهرها فكتاب التاريخ، وهو نيل على تاريخ ابن كثير، الذي نعتمده مصدراً لدراسة الأوقاف وواقعها في دمشق، وقد أشار إليه بعض المصنفين باعتباره (الحافظ)[٢١] وأكدوا مكانته في الأوساط الفقهية والتعليمية بدمشق[٢٢]. وتولى التدريس في العديد من مدارس دمشق وهي الأتابكيه[٢٣] والأمينية[٢٤] والدماغية[٢٥] والرواحية[٢٦] والشامية البرانية[٢٧] والظبيانية[٢٨] ومدارس أخرى. ويبدو أن عائلة ابن حجي شهدت العديد من الشخصيات الدينية والاعتبارية في دمشق منهم قاضي القضاة بهاء الدين ابن حجي[٢٩] ووالده قاضي القضاة نجم الدين ابن حجي[٣٠].

تقلد ابن حجي مشيخة الشيوخ مرتين[٣١] في دلالة واضحة على مكانته الاعتبارية والفكرية، وتولى القضاء مرتين[٣٢] والإفتاء[٣٣] ونظر الحرمين الشريفين[٣٤] ونيابة الحكم[٣٥]، وتؤكد هذه المسيرة التي رصدتها مصادر المرحلة على المكانة الكبيرة لابن حجي، وبالتالي فإن ثقتنا بمادته التي يوردها في تاريخه على نيل ابن كثير كبيرة، باعتباره

(١٩) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٤، ص١٣، النعيمي، الدارس، ج١، ص١٠٥.
(٢٠) ابن طولون، قلائد العقيان في أنباء الزمان، ج١، ص١٨٠.
(٢١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٢، ص٤١٧.
(٢٢) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، أنباء الغمر بأبناء العمر، (ج١- ج٩)، نشر وتحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر، أبناء الغمر، انظر: ج٧، ص١٢٢، ص١٢٣.
(٢٣) النعيمي، الدارس، ج١، ص٩٦.
(٢٤) نفس المصدر، ج١، ص١٣٢، ص١٣٣، وسيشار إليه فيما بعد: ن.م .
(٢٥) ن.م، ج١، ص١٧٧.
(٢٦) ن.م. ج١، ص١٩٩.
(٢٧) ن.م. ج١، ص٢٢٧.
(٢٨) ن.م. ج١، ص٢٥٦- ص٢٥٧.
(٢٩) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص١٢٨.
(٣٠) ن.م. ج١، ص١٢٨.
(٣١) ابن حجر، أبناء الغمر، ج٥، ص٥، وص١٤٩، وانظر: ابن حجي، تاريخ، ص٣٦٣.
(٣٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٣، ص٣٩١، وص٥٥٥.
(٣٣) ن.م، ج٣، ص١٦٢.
(٣٤) ابن حجر، أبناء الغمر، ج٥، ص٨٣، وقد صرح بهذا في تاريخه، تاريخ، ص٣١٠.
(٣٥) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٣، ص٣٨٠.

من المصادر الموثوقة لقراءة صورة الوقف في دمشق في أيامه، خاصة وأنه تولى مشيخة الشيوخ، وهي وظيفة تعطي لصاحبها مهمة الإشراف على جميع الخوانق وعلى الفقرا بدمشق[٣٦] وأول من تولاها شيخ الخانقاه السمسياطية بدمشق، وكان قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة أول من جمع له القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م[٣٧] وأيضاً القاضي نجم الدين أحمد بن صصري سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م[٣٨].

أما أحمد بن طوق فيواجه الدارس المحقق ابتداء مسألة تصنيف هذا المصدر، ومدى صدقية اليوميات والمذكرات واعتمادها في الدراسات التاريخية المنهجية، مقارنة بكتب التاريخ التقليدية التي اعتدنا على منهجيتها، وهذه اليوميات تمتاز بإيراد الجوانب اليومية البسيطة، التي تغفلها كتب التاريخ الرسمية والتقليدية، وهي من الميزات التي تسمح للدارس بالغوص في التفاصيل الدقيقة للحياة الاجتماعية، إلا أننا نتحفظ على إطلاق حكم عام على كل (كتب اليوميات والمذكرات) فإن كنا نقبل بها مصدراً، إلا أننا نطالب منْ يستخدمها بتحديد هوية صاحبها وموقعه وصدقيته، ونقف من أحكامه موقف المحاكمة والتروي والتدقيق، فقراءة اليوميات والمذكرات تفترض معرفتنا التامة بموقع صاحبها وأهوائه، ويجب استخدامها جنباً إلى جنب مع المصادر الموازية بكافة أنواعها للمقارنة والتفحص، وهذا يعني أنها تقدم الرأي الشعبي الذي تغيبه المصادر الرسمية التي تكتب التاريخ في ظل الدولة، أو تكتب وظل السلطة ماثل أمامها، في حين أن كاتب اليوميات والمذكرات لا يتحفظ عادة، ويكتب مشاعره باطمئنان، ويترجم أحاسيه التي تمثل طبقته ومنهجه وثقافته وعصره، وابن طوق شخصية عادية في ثقافته، عاش في أواخر أيام الدولة المملوكية، ويرى محقق الكتاب أن ابن طوق لم يكن معدوداً من جملة الفقهاء الرسميين، وأنه كان (فلاحاً على هامش الفقهاء) ويقيم بجوار (مسجد القصب) قرب مدرسته، ويؤكد المحقق أن ابن طوق حصّل (شيئاً من التعليم) وأصبح شاهداً، ورأى أن عمله أشبه ما يكون بمسجل العقود أو كاتب العدل اليوم، فالشاهد يثبت ويسجل ما يجري عند القاضي ليكتسب الصفة الإجرائية النهائية، وقد أورد ابن طوق في يومياته نصوصاً أمينة لعقود مما كان يسجله[٣٩]،

(٣٦) الخانقاه، كلمة فارسية تعني البيت، وقد بدأت الخوانق في القرن ٤هـ/ ١٠م، ويختلي فيها الصوفي للعبادة، انظر بخصوصها: القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص٣٩.

(٣٧) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٧ (لم تجتمع هذه المناصب قبله لغيره، الخطابة والقضاء ومشيخة الشيوخ).

(٣٨) ابن طولون، قضاة دمشق، ص٨٤- ص٨٥.

(٣٩) مقدمة المجلد الأول، ص٩، الشيخ جعفر المهاجر.

ومع ذلك، فإن قراءتنا المتمعنة لليوميات تشير إلى دقة الرجل وأمانته، فقد حرص عادة على تحديد مصدر معلوماته وصورتها، كأن يقول[٤٠]: وذكر[٤١] أو وفيه أشيع[٤٢] أو جاء الخبر[٤٣] أو وفيه سمعت[٤٤] أو نودي[٤٥] أو وفيه سمع[٤٦] أو قيل[٤٧] وأحياناً كان ابن طوق يحدد أسماء الرواة ويشير إلى مصدره، كأن يقول: أخبر بذلك ابن حجي[٤٨] أو ورد خبر من القدس الشريف[٤٩] أو شاع الخبر وشاعت الأخبار[٥٠]، وكان أحياناً يصحح الأخبار التي يوردها عندما يتحقق من عدم صحتها فيقول: (ولم يصح الخبر)[٥١]. وبصورة عامة، فإن ابن طوق لم يذكر مصادره، لأنه لم يكن يكتب (تاريخاً) بالمعايير المعروفة، وإنما كان يدون مذكراته ويومياته، لكن الأمر المدهش هو مقدرته العجيبة على جمع المعلومات على المستويين الرسمي والشعبي، وهي مسألة تثير التساؤل، فكيف كان يعرف كل ما يجري في القلعة أو لدى النائب أو الحاجب أو الدوادار...؟ وكيف وصلته تفاصيل الرسائل التي كانت تصل إلى النائب من السلطان...؟ وكيف كان يتابع أخبار العثمانيين على الحدود الشمالية؟ فضلاً عن تفاصيل الحياة اليومية في الحارات والمرافق الكثيرة في دمشق وأنحائها وجوارها، ويرى محقق الكتاب أن ابن طوق جاء (بعمل هجين) أي أنه كان يسجل الحوادث والوفيات كما يفعل المؤرخين عادة، لكنه كان يدون يومياته في الوقت نفسه[٥٢] وكان يقوم بعمل المؤرخ المحترف في مطلع كل سنة هجرية (فيذكر سلطان الوقت ونائب الشام وكبار رجال إدارتها والقضاة ونوابهم في مصر والشام) لكنه مع ذلك كتب يومياته على الأيام بدقة وحرص، وكان عمله متواصلاً، فإنه إن لم يجد ما يسجله من أحداث في أحد الأيام، سجل ذلك بقوله:

(٤٠) نظراً لاتساع صفحات المجلدات الثلاث، سنأخذ الأمثلة فقط من المجلد الأول نموذجاً لمنهجه.

(٤١) مج١، ص٢٤، ص٣٣، ص٤٣، ص٤٦، ص٧٠، ص٧٢.

(٤٢) ن.م. ص٢٦، ص٣٣، ص٦٤.

(٤٣) ن.م. ص٢٦، ص٥٥، ص٦١ (وصل الخبر).

(٤٤) ن.م. ص٢٦، ص٢٨، ص٢٩، ص٣٠، ص٣١، ص٣٥، ص٤٠، ص٤١، ص٤٥، ص٥١، ص٥٩، ص٦٩، ص٧٤، ص٧٧، ص٧٩، ص٨٤.

(٤٥) ن.م. ص٢٧، ص٣٢.

(٤٦) ن.م. ص٢٨.

(٤٧) ن.م. ص٥٤.

(٤٨) ن.م. ص٥٤.

(٤٩) ن.م. ص٥٤، ص٥٦.

(٥٠) ن.م. ص٦٠، ص٦٣، ص٧٢.

(٥١) ن.م. ص٦٣.

(٥٢) ن.م. ص١١، مقدمة، المهاجر.

(لم يكن فيه ما يكتب)[٥٣] دليل التزامه بعمله وإحساسه بالمسؤلية التي تفرضها عليه مهمة توثيقه للعقود والبيوعات والشهادة التي ترتبط بشيخه تقي الدين ابن قاضي عجلون.

الأوقاف في دمشق عند ابن حجي:

أثارت قضايا الأوقاف من توريث الوقف أو المناقلة فيه خلافات بين السلطة والقضاة، ويبدو أن تشدّد القاضي الشافعي بمسائل الوقف، أدى إلى تغيير حقيقي اتخذه السلطان بيبرس (٦٦٣هـ/ ١٢٤٦م) في عهد الدولة المملوكية الأولى، تذكر مصادر المرحلة أن السلطان بيبرس أخذ مبادرة جريئة بتعيين قضاة من المذاهب الثلاث الأخرى، عندما شكت إليه بنات أحد الذوات من البيت الأيوبي، بأنهم اشتروا بيت قاضي القضاة بدر الدين السنجاوي أثناء حياته، إلا أن ورثة القاضي احتجوا عند مماته بأن الدار موقوفة، وهذا يعني أنه لا يجوز بيعها، وعندما تم رفع القضية إلى القاضي الشافعي قال للسلطان: (يا مولانا، إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة) فقال السلطان: فإذا لم يكن مع الورثة شيء؟ قال القاضي: يرجع الوقف إلى أصله، ولا يستعاد ثمنه[٥٤]، فغضب السلطان من تشددّه وأشرك القضاة على المذاهب الأربعة بمجلس النائب، وكان كل قاضٍ يختار مدرسة تابعة لمذهبه يدُرّس فيها، للنظر بالخصومات وإبرام العقود، ويتبع عادة لكل مدرسة شهود يلتزمون بالشهادة عند القاضي[٥٥].

ويبدو أن إشراك المذاهب الأربعة بمجلس النائب، أدى إلى ظهور خلافات في الأحكام بمسائل الوقف[٥٦]، يذكر ابن كثير أن القضاة على المذاهب الشافعية والحنفية والمالكية اجتمعوا سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، وطلبوا من قاضي القضاة الحنبلي أن يتكلم بأمر دار المعتمد المجاورة لمدرسة الشيخ ابن عمر، وكان القاضي الحنبلي قد حكم (بنقض وقفها) وهدم بابها، وإضافتها إلى دار القرآن فورد من السلطان مرسوم عطّل مرسومه، واشتد الخلاف بين قاضي القضاة الحنبلي والشافعي في هذه المسألة[٥٧].

---

(٥٣) ن.م. ص١١.

(٥٤) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) السلوك لمعرفة دول الملوك (ج١-ج٢) تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج٣- ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٢م، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك، انظر: ج١، ق٢، ص٥٣٨.

(٥٥) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٤٧، وج١٣، ص٢٥٢، وابن طولون، قضاة دمشق، ص٩٠- ص١١٠.

(٥٦) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٨، ص٢٣٩، ص٢٥٤، ص٣١٦، ص٣١٨.

(٥٧) ن.م، ج١٤، ص٢٣٩.

وتذكر مصادر المرحلة أيضاً أن خلافاً نشب بين القضاة على المذاهب الأربعة بعد ذلك بخمسة أعوام (٧٥٧هـ/١٣٥٦م) عندما أصدر ابن قاضي الجبل الحنبلي، حكماً يوافق فيه على (المناقلة في قرار دار الأمير سيف الدين طيدمر الإسماعيلي حاجب الحجاب إلى أرض أخرى يجعلها وقفاً على ما كانت قرار داره عليه) [٥٨] وقد خالفه بذلك قضاة المذاهب الثلاث المالكي والشافعي والحنفي، ويشير ابن كثير إلى أن هذه الحادثة أثارت خلافات كثيرة (فعقدت المجالس وتطاول الكلام) وأكدّ ابن كثير أن الخلافات حول موضوع المناقلة انصبت على ضرورته أو عدمها، وإن كان جوازه في حال تحقيق المصلحة والمنفعة، ويبدو أن مانقله ابن كثير لا يرقى إليه الشك، لأنه كان من بين حضور المجلس (كنت ممن طُلب إلى هذا المجلس فحضرته فيمن حضر) [٥٩] وأكد أن المجلس شهد خلافات واضحة وعداوات لاحقة بين القاضي المالكي والحنبلي من جهة، والشافعي من جهة أخرى، ومن يطلّع على مصادر المرحلة، يثبت لديه الأهمية الكبيرة التي أولتها لنصوص الأوقاف.

يذكر القلقشندي نص ما كان يكتب في أوائل كتب الأوقاف، لتأكيد التصرف، وطريقة حفظها، ويؤكد أنه كان يتم التصديق على هذه الكتب من قبل القضاة الأربعة[٦٠]، لضمان مواقفهم وتأكيد مصداقية الكتاب.

تشير مثل هذه الحوادث إلى خلافات المذاهب أحياناً حول الأوقاف في عصر ابن حجي، ويبدو اهتمامه بوضع الوقف في دمشق كبيراً، ففي كتابه (الدارس في المدارس) اهتم بذكر ترجمة الواقف وشروطه، فضلاً عن تراجم المدرسين[٦١] وهو المنهج الذي اتبعه بعده النعيمي في كتابه المماثل، وللأسف فإن هذا الكتاب أحرق عندما احتل تيمورلنك دمشق سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، ولا بد من الإشارة باهتمام إلى أن عصر ابن حجي شهد أحداثاً خطيرة وقاسية في دمشق، فقد شهد سقوط دمشق بيد المغول، وسجل مشاهداته، كما أشتد الغزو الفرنجي على الساحل الشامي، وتزايد خطر العوام والزُعر والحرافيش والمد البدوي[٦٢]، وازدادت خلافات القيسية واليمنية وأدت إلى وقعة سقط فيها أكثر من ألف نفس، وهرب

(٥٨) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٥٤.

(٥٩) ن. م. ج١٤، ص٣١٦.

(٦٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٨٣- ص٣٨٥.

(٦١) انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص١٠٥؛ ابن طولون، قلائد العقيان، ج١، ص١٨٠.

(٦٢) أبو بكر عبد الله بن أيبك الدواداري ، (ت ٧٣٢هـ/١٢٣١م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هاني روبرت رويمر، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٠، (ج١- ج٩)، انظر، ج٩، ص١٩، وسيشار إليه فيما بعد: الدوادراي، كنز الدرر.

أهالي القرى إلى دمشق، وتركوا (الزروع سائبة) [٦٣]، وتذكر المصادر (تزايد الفساد باجتماع الزُعر وانضمام

العبيد والغلمان للزُعر حتى سفكت الدماء ونُهبت الحوانيت، وضعف الموالي عن دفعهم[٦٤] وذلك سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م، وقد ازدادت الأمور قسوة عندما تزايد أثر الحرافيش[٦٥]، وهم فئات من النازحين إلى دمشق من الأرياف، يتخذون الشحاذة حرفة، وكانوا عاطلين عن العمل، ويقطعون الطرق[٦٦] كما انضموا إلى جماعة الفقرا في فترات المجاعات، ومن المعروف أن مجاعة قاسية حدثت في سنوات ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م وحتى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٥م، وقد تتبع ابن بطوطة في رحلته إلى دمشق أخبار الحرافيش، وأشار إلى أعمال الفتّوة التي قاموا بها عند زيارته، ومنها نهب وشغب وسلب، حتى إنهم شاركوا في هدم الكنائس بدمشق سنة ٧٢١هـ / ١٣٢٠م[٦٧]، وكانوا بأعداد كبيرة تصل الآلاف، وتتسبب بمخاوف لأهالي دمشق. وكل هذه العوامل التي تثير القلق والمخاوف في دمشق، انعكست على حالة الأمن، حيث أشارت المصادر إلى حالات من السلب والنهب للحوانيت والقيساريات التي تضم التجار الفرنجة، وخاصة سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م[٦٨]، وهذه الأوضاع التي شهدتها نيابة دمشق في عصر ابن حجي، واستمرت حتى أيام ابن طوق، تؤشر على وضع الأوقاف التي طمعت فيها فئات متعددة، فشهدت الأوقاف حالات من التغيير والبيع والمصادرة والاعتداء، وهو ما تتبعه هذه الدراسة استناداً إلى كل من ابن حجي وابن طوق.

حرص ابن حجي على ذكر أسماء النظار على الأوقاف، من خلال تأريخه لوفيات الشيوخ

(٦٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ج١٤، ص٥٥.

(٦٤) محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد وعصام فارس الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ ، ١٩٩٥م، انظر: ج١، ص١٦، وسيشار إليه فيما بعد: السخاوي، وجيز الكلام.

(٦٥) انظر بشأن المعنى اللغوي للحرافيش، جلال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب، مج١- ١٥، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٨م، انظر: ج٢، ص٦٣، وسيشار إليه فيما بعد: ابن منظور، لسان، وتعني: المتسرعين إلى الشر.

(٦٦) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) إغاثة الأمة بكشف الغمة: نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ط٢، سنة ١٩٥٧م، ص٤٥، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، إغاثة.

(٦٧) محمد بن إبراهيم ابن بطوطة اللواتي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٩م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١- ج٢، دار الشرق العربي، بيروت، سنة ١٩٩٠م، ج٢، ص٦٥١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن بطوطة، تحفة النظار.

(٦٨) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢- ص٥١٨.

والمدرسين، وأشار إلى الأوقاف الذرّية، فقد كان الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي السلار ناظراً على وقف جدة[٦٩]، وكان أمين الدين محمد بن علي بن عطاء ناظراً على وقف جدة الصاحب شهاب الدين أحمد بن تقي الدين أحمد[٧٠] وكان أمين الدين شاهداً بحكر السماق، ومن الأوقاف الذرية التي ذكرها، وقف الشيخ علاء الدين علي بن شرف الدين محمد بن بدر الدين المعروف بابن القواس، وذلك سنة ثلاث وستين[٧١]، إلا أن أخبار الوقف الذرّي محدودة عند ابن حجي، ويبدو أنه لم يهتم كثيراً بمتابعتها، لأنه عُنى بالحديث عن القضاة والمدرسين، الذين كانوا يتولون عادة نظر وأوقاف المدارس والمرافق الأخرى.

ومما يلفت الانتباه في أخبار ابن حجي، المواقع الاعتبارية للأفراد الذين يتولون الأوقاف، ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيومي، الذي وصفه بأنه (كان شيخاً يعتقده بعض الأكابر والقضاة، وكان إليه خدمة أبي مسلم الخولاني بدارياً، ونظر بعض الأوقاف) [٧٢] وممن تولوا الأوقاف من الأعيان (السيد الشريف الصدر الأصل المسند شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى بن تميم الحسيني[٧٣]وتولى نظر المارستان النوري قديماً، وكان قائماً بوكالة بيت المال، وكان مشكوراً في مباشرته، وكان يباشر نظر الأوصياء، وكان له أملاك وثروة ومكانة، وكان نائب الشام (بيدمر) يعتني به ويقدمه) [٧٤]، ومنهم أيضاً ابن شاهين الطواشي وهو إمام دار نائب الشام تنبك، وكان حسبما وصفه ابن حجي (رجلاً جيداً، فوض إليه النائب نظر (جامع يلبغا)، فعمره وبيضّه، وأعمر قرية للوقف كانت خراباً وبذرها في نفس العام، وكان لا بأس به يحب أهل الخير) [٧٥] ومع أن سيرته كانت حسنة، إلا أنه تعرض لحادثة اتهم فيها بأموال النائب، فضربه الأمير يشبك بشيء في يده فمات من أثر الضربة، ومن الذين تولوا الأوقاف الصوفيون، يؤكد ابن حجي أن شمس الدين محمد بن بلبان المعروف بابن الصالحي، كان نزيل الخانقاه الطواويس وقد نشأ بها، كان أباه من الصوفية، وباشر فيها عمالة العزيزية[٧٦]، وكان شمس الدين يجبي

(٦٩) ابن حجي، تاريخ، ص٩٧، وانظر ترجمة ابن السلار عند: السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص١٠٥.

(٧٠) انظر ترجمة جده عند السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص١٩٦، وعند: ابن حجر، أبناء الغمر، ج٤، ص٨٦، وممن تولوا الأوقاف الذرية الأمير الكبير فرج بن منجك، ابن حجي، تاريخ، ص٣٨٦.

(٧١) ابن حجي، تاريخ، ص١٠٦، راجع بشأن ابن القواس: ابن حجر، الدرر، ج٤، ص٣١٥.

(٧٢) ابن حجي، تاريخ، ص١١١.

(٧٣) انظر: ترجمته عند السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٤٥.

(٧٤) ابن حجي، تاريخ، ص٢٢٤.

(٧٥) ن.م. ص١٥٩، وجامع يلبغا على نهر بردى يقع تحت قلعة دمشق، النعيمي، الدارس، ج٢، ص٣٢٦.

(٧٦) مدرسة العزيزية، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٩٠.

وقف بني فضل الله ويخدمهم، ومع أن سيرته حسنة، إلا أن ابن حجي يذكر بأنه تولى مشيخة الخانقاه، وتنازع مع ابن الزهري عليها، فأخذت منه (وغرّم جملة)[٧٧]، وهي ربما كانت إشارة إلى تهمة مالية.

يبدو من أخبار الوقف عند ابن حجي أن نزاعات عائلية نشبت على الأوقاف، كما حدث مع آل القلقشندي في القدس ونابلس[٧٨]، وكان بعض الذين يتولون الأوقاف (من أهل القرآن والآذان)[٧٩] مثل علاء الدين علي العداس المعروف بابن السبع، وله حانوت يبيع به العدس والعجة والسنبوسك والحنطة، وكان له ثروة زالت بفتنة السفسطية، ومثله في مسلكه ناصر الدين محمد بن خطيب المشهد، عثمان بن أبي الحسن البعْلبكي، ويعرف بابن خطيب المشهد ببعْلبك، وكان جندياً ثم حاملاً للبريد (بريدياً) ثم نائب شدّ الأوقاف، يقوم بالتحدث على أوقاف المسلمين بدمشق، وهو إمرة عشرة[٨٠] إلا أنه ترك كل ذلك وتنسك، وصار يلبس الصوف على طريقة أهل الفقراء وأقام بالمزّة في بستان.

ويلاحظ أن نظار الأوقاف كانوا يتولون أعمالاً كثيرة بجانب الإشراف على الأوقاف في دمشق، فقد كان بهاء الدين أبو بكر بن شهاب الدين أحمد بن جلال ابن طليس يباشر عمائر الجامع في الوقف، وإليه بعض الأنظار، وامامة مسجد وغير ذلك[٨١]، ومنهم مباشر الأوقاف شهاب الدين أحمد بن العرجاني[٨٢] كان عامل أوقاف السمسياطية، وله خط جيد، ويعاني المباشرات، وله وظيفة في الجامع[٨٣] وممن تولوا الأوقاف قاضي القضاة علاء الدين، حيث فوض إليه مع القضاء نظر الحرمين ونظر الغزالية والناصرية وتدريسهما، ونظر الأسوار والبيمارستان وغير ذلك[٨٤]. وكان ناصر الدين محمد بن القاضي محيي الدين عبد الملك بن شيخ الشيوخ تقي الدين عبد الكريم بن قاضي القضاة محيي الدين المعروف بابن الزكي[٨٥]، جندياً وبيده نظر العزيزية وبقية المدارس، وقد أسمعه والده من الكثيرين، وكان حسبما يصفه ابن حجي (يرجع إلى دين) وكان جمال الدين بن يعقوب العسقلاني يعمل

(٧٧) ابن حجي، تاريخ، ص١٢٧.
(٧٨) ابن حجي، تاريخ، ص١٧٠- ص١٧١.
(٧٩) ن.م. ص٣٥٤.
(٨٠) انظر بشأن هذا المنصب، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٦، وبشأن عامل البريد، ج١، ص١١٦.
(٨١) ابن حجي، تاريخ، ص١٧١.
(٨٢) انظر ترجمته عند: السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣٧٤.
(٨٣) ابن حجي، تاريخ، ص٣٢٩.
(٨٤) ن.م. ص٣٣١.
(٨٥) انظر ترجمته عند: ابن حجر، أبناء الغمر، ج٥، ص١٨٧.

مستوفياً بديوان النائب ومباشراً على أوقاف تنكز وغير ذلك من وظائف[٨٦]. كما كان ابن حجي نفسه يتولى الخطابة ونظر الحرمين والغزالية وتدريسها ومشيخة الشيوخ[٨٧] إلا أنه تركها لكاتب السر السيد علاء الدين لأنها كانت بيده قبل ابن حجي، ومما يلفت الانتباه أن ابن حجي ترك هذه الوظائف لشهاب الدين أحمد بن النقيب الحاجب، الذي أخذ إضافة إلى هذه الوظائف نصف إقطاع ابن الصارم[٨٨].

وكان السيد شهاب الدين أحمد بن حسن بن أحمد بن عدنان الشريف هو وأبوه بالصاغة يباشران نظرها، وكان والده محتسباً، كما تولى شهاب الدين وكالة بيت المال والكلام على وقف المسعودي مدة، ثم عزل من ذلك، والجدير بالذكر أن ابن حجي يصفه بأنه (كان عامياً) رغم أنه يتولى كل هذه المهام[٨٩].

ومن الذين تولوا وظائف كثيرة بالوقف شهاب الدين أحمد بن الأمين سالم وكان موقع الحاجب ومن شهود العقيبة، وكان مؤذناً بجامعها، ومع أن ابن حجي يتشكك بشهادته (ولم يكن محموداً في شهاداته) إلا أنه ترقى وصار من شهود الحكم وولى الوظائف، وصحب قاضي القضاة ابن الأخنائي، ثم ولى توقيع الحاجب، وكان بيده وظائف كثيرة (أنظاراً وإمامات ومباشرات) وقيل أنه كان إماماً لسبع مساجد وقيل بعشر، ولما توفى حاول ابن الحسباني والسيلاوي الحصول على شيء من وظائفه، فأخذ أنظاراً ومباشرات[٩٠]، ولم يكن موقع الحاجب شهاب الدين وحده الذي ترقى وحصل الوظائف وأشرف على الأوقاف وهو مجروح في شهادته، ولا يستحق ذلك، فقد تولى مبارك المصري الحسبة أكثر من مرة وأكد ابن حجي أنه (أساء في الوظيفة، ولكن كان يحتمي بالنائب (كان من جهة النائب) لذلك فعندما كثر الكلام فيه عزله، لكنه عوضه بنظر الأسرى[٩١]، وبالمقابل فقد رفض بعض المشرفين على الأوقاف الوظيفة، لأن لهم ثروة، كما فعل كمال الدين محمد بن الشيخ تقي الدين عبد الرحمن، وكان رئيساً متحمساً وله ثروة، ومع أنه عين مباشراً لنظر ديوان السبع والعميان، ومسؤولاً عن الأوقاف، إلا أنه ترك الوظائف (لاستغنائه عن

---

(٨٦) ابن حجي، تاريخ، ص٣٩٢- ص٣٩٣.

(٨٧) ابن حجي، تاريخ، ص٤١٦.

(٨٨) ن.م، ص٤١٦.

(٨٩) ن.م، ص٤١٩.

(٩٠) ن.م. ص٤١٣- ص٤١٤.

(٩١) ن.م. ص٤١٠.

ذلك) [٩٢] ومن الذين أشرفوا على الأوقاف القاضي شهاب الدين بن الحسباني، (الذي تولى القضاء بمقتضى التوقيع الوارد عليه من السلطان، فقرئ توقيعه بالجامع على العادة، وفيه نصف الخطابة، ونصف نظرالحرمين وتدريس الغزالية ونظرها وتدريس الناصرية ونظرها، وفيه نظر الكاملية والصدقات، ونظر وقف ابن مرزوق) [٩٣].

أورد ابن حجي معاناة القضاة بسبب أحكامهم في قضايا الوقف، ذكر أن حاجب الحجاب ضرب صدر الدين ابن الآدمي، لأنه خالف ابن سنقر بسبب إجازته لوقف الخاتونية، وطلب إليه الحاجب أن يحلف اليمين في شيء أنكره، فخرج يحلف ثم رجع وقال خلاف ما قال، ففهم الحاجب منه الكذب وضربه[٩٤] لكن أخطر ما أورده في تاريخه شراء الوظائف ومنها القضاء، واختلاف العسكر مع القضاة واصطدامهم بالقتال[٩٥] وأكد أنه نتيجة هذا الخلاف الحاد بين الطرفين، سعى بعض القضاة للحصول على وظائفهم التي خرجت منهم، ومنهم: ابن العفيف صلاح الدين الذي توجه إلى طرابلس عندما ضاقت به الدنيا، وسعى عند نائبها فولاه قضاء الشافعية، ويعلق ابن حجي على ذلك بقوله: (وهو عارٍ عن الفضل بالكلية، وكتابته حسنة، وكان إلى قريب جندياً، ثم دخل في المديونية وولي نظر الأيتام، ثم أخرج منه لسوء تصرفه) ويتشكك ابن حجي بمعرفته، ويقول: (وليت شعري بماذا يحكم وبأي مستند حُكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون) [٩٦].

أورد ابن حجي ملحوظات تؤكد استيلاء كبار الشخصيات وخاصة القضاة على الأوقاف، فقد وصل كتاب من السلطان بالقبض على ابن الأخنائي[٩٧] والكشف عليه (لما نسب إليه من الاستيلاء على أوقاف الناس وأملاكهم، وما أخذه من أموال الأوقاف والصدقات والحكام وغير ذلك من أمور... وأن ينادى عليه، فرُسم عليه بعد عصر يومئذ، ونودي عليه من الغد في أرحاب البلد، وجاء الناس يشتكون عليه أفواجاً أفواجاً بسبب استيلائه على أراضيهم)[٩٨] وقد تابع ابن حجي محاكمة ابن الأخنائي بالصالحية وشرقي البلد والنواحي، حيث عقد له مجلس عند النائب بحضور القضاة، وكان ابن حجي حاضراً

(٩٢) ن.م. ص٤٩٠.
(٩٣) ابن حجي، تاريخ، ص٥١٩.
(٩٤) ن.م ، ص١٦٩.
(٩٥) ن.م، ص١٢٠.
(٩٦) ن.م، ص١٢٠.
(٩٧) انظر كيف اتهم ابن الأخنائي بالفساد وإضافة وظائف لنفسه، ابن حجي، تاريخ، ص٥٦٦.
(٩٨) ن.م ، ص٢٩٦– ص٢٩٧.

بطلب من النائب، وسمع دعاوى كثيرة، فطلب ابن الأخنائي إقامة البينة، فقرأ كاتب السر في المجلس كتاب السلطان، إلا أن ابن حجي لم يتابع تفاصيل أحداث المجلس أو نتائجه، ويبدو لاحقاً أن النائب كتب إلى السلطان في أمر ابن الأخنائي، فوصل في الشهر التالي كتاب (طيب خاطر ابن الأخنائي) [٩٩].

وممن تصرف بالأوقاف أيضاً قاضي الحنابلة شمس الدين محمد بن أحمد بن محمود النابلسي، وكان أول أمره خياطاً بنابلس ثم اشتغل بالعلم، وقرأ على الشيخ شمس الدين بن عبد القادر[١٠٠] العربية، وجلس بعدها مع الشهود في المدرسة الجوزية، يشهد على القضاة، ويشير ابن حجي إلى أنه (لم يزل يترقى في المعرفة، واشتهر عند الناس ثم صار عين الشهود وعارفهم) حتى سعى في القضاء، ونافس القاضي علاء الدين بن منجا فتولى مكانه، واستمر القضاء بينه وبينه (يعزل هذا ويولى هذا) حتى جاء تيمورلنك ودخل دمشق فوقف النابلسي مع تيمورلنك في أمور منكرة، ونسب إليه أشياء قبيحة في إيذاء الناس وأخذ أموالهم، وباع كثيراً من الأوقاف بدمشق، ويعلق ابن حجي عليه قائلاً: قيل إنه ما أبيع في الإسلام من الأوقاف قدر ما أبيع في أيامه) ووصفه أخيراً بأنه كان بالجملة من قضاة السوء[١٠١].

ولم يقتصر الاستيلاء على الأوقاف وبيعها على الشخصيات المتنفذة، بل إن العامة فعلت ذلك، يشير ابن حجي إلى أن مرسوماً وصل من السلطان بمنع العمارة في ظاهر البلد، وبأن منْ عمّر شيئاً أُحرق، وأن العمار إنما يكون داخل البلد والسبب في هذا المرسوم (أن الناس بالغوا في العمار خارج البلد، وأكثروا طلباً للآخرة واستولوا لذلك على أوقاف كثيرة فعمرت[١٠٢].

ومن مظاهر الفساد الإداري التي انعكست على الأوقاف، شراء منصب القضاء، يذكر ابن حجي أن ذهاب علاء الدين بن أبي البقاء إلى الديار المصرية جعل القاضي التاج محمد وهو ابن القاضي شهاب الدين بن الحسباني عندما علم بالأمر يستولي على وخليفته (بادر بإذن والده إلى التوجه لدار السعادة، وكتب خطه بألف وخمسمائة دينار، يعجل منها خمسمائة ويؤخر الباقي، فوافقوه على ذلك، وأخذ في تحصيل ذلك) ويشير ابن حجي إلى

(٩٩) ن.م، ص٣٠٤.

(١٠٠) والشيخ شمس الدين بن محمد بن عبد القادر الجعفري النابلسي، (ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م، انظر: ابن حجر، أبناء الغمر، ج٣، ص٢٧٢.

(١٠١) ابن حجي، تاريخ، ص٣٢٧- ص٣٢٨.

(١٠٢) ابن حجي، تاريخ، ص٢٩٥، ويمكن مقارنة هذه الظاهرة مع ما أورده ابن حجر، أبناء الغمر، ج٥، ص٥.

أسلوب ابن القاضي في التحصيل وذلك من خلال مباشري الأوقاف، حيث أرسل إلى كل مباشر وقف، وطلب منه على حسب ما يقدر عليه، وأنه (أظهر ذلك في قالب إلزامهم بإقامة الحساب، فمنهم من يعطيه ما طلب، ومنهم من يصالح على البعض، ومنهم من ينجو ولا يعطي). ويؤكد ابن حجي أن القضية فشت في المدينة من إحضار المباشرين بالرسل، وظهرت الشفاعة وتنوع الأمر في تحصيل ذلك على وجوه قبيحة منكرة)[١٠٣]. ويبدو أن إجراء لاحقاً كشف فساد ابن القاضي التاج محمد بن الحسباني، إذ وصل مرسوم بتوقيع ابن العباس، ويؤكد ابن حجي أنه لما نزل دمشق، هرع الناس للسلام عليه، وأظهروا الاستبشار بشدة لبغضهم لولاية ابن الحسباني بسبب ابنه الذي آذى الناس، وصادر مباشري الأوقاف، ويبدو أنه سجن بعض المباشرين في السجن، وأن هذا الأمر دفع القاضي الجديد ابن العباس عند السلام على النائب للاحتجاج إذ إنه (لكم النائب على عمامته) مبدياً استياءه من سجن مباشري الأوقاف[١٠٤].

ويبدو من تاريخ ابن حجي، أن بيع الأوقاف تزايد (بعد الفتنة) أي بعد قدوم تيمورلنك إلى دمشق، ومنها أرض بيعت من وقف ابن أبي الطيب[١٠٥]، اشتراها ابن البانياسي من أحد ورثة ابن أبي الطيب وهو أحمد بن أبي الطيب، إلا أن عملية البيع تمت بالإكراه، وبعد وفاة ابن البانياسي وتسوية ميراثه، باعها القاضي ابن عباس بيعاً حكمياً، وفاء لدين محمد بن جعفر الشريف علي ابن البانياسي، إلا أن أحد الورثة وهو أبن الكمال (متزوج من بعض المستحقين) ادعى بأنها وقف، وعقد لذلك مجلس بمشهد عثمان حضره ابن حجي وكان النائب غائباً، وقد أناب عنه يشبك الساقي (نائب الغيبة)[١٠٦] ولم ينته الأمر في المجلس، وترافع أصحاب القضية عند القاضي المالكي، الذي أقام البينة على الوقفية في محضر (كتب وثبت عند غيره وحكم باستمرار الوقفية، وأن البيوع السابقة باطلة...) ويؤكد ابن حجي أن القضية تشعبت، واشتد النكير في ذلك، وبان في المجلس تخبيط المالكي وفساد ما اعتمده[١٠٧].

ومن الأمور اللافتة للنظر لدى ابن حجي، متابعته لأثر (الفتنة) أي احتلال دمشق وإحراقها زمن قدوم تيمورلنك، حيث استغل البعض اضطراب الأوضاع واستولوا على

(١٠٣) ابن حجي، تاريخ، ص٥٢٩.

(١٠٤) ابن حجي، تاريخ، ص٥٣٢، وانظر كيف حصل الأموال من مستأجري حوانيت وقف الحرمين، ن.م. ص ٥٥٨.

(١٠٥) انظر ترجمة أبي الطيب عند: ابن حجر، الدرر، ج٣، ص١١٣.

(١٠٦) انظر ترجمته عند: السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٧٦.

(١٠٧) ابن حجي، تاريخ، ص٥٤٥.

الأوقاف، أو باعوها أو صادروها، لكنه بالمقابل أشار إلى أن البعض ممن كانوا يتولون الأوقاف تأذوا، ومنهم زين الدين عمر بن الشيخ علاء الدين بن الشاطر وكان (مستوفى للأوقاف) فقد ضعف عن النهوض لما احترق البلد بسبب ما خالطه من العقوبة فمات من شدة الأذى، ويصفه ابن حجي بأنه (كان شيخاً لا بأس به، ساكناً عارفاً بصفة الحساب) [١٠٨]، ومنهم أيضاً الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الله بن عثمان بن سكر التيجاني البعلبكي الحنبلي، (وكان من أهل العلم، وسمع وروى وجمع وألف كتباً في الجهاد، وكانت إليه مباشرة بعض الأوقاف، وكان يكتب خطاً حسناً وعبارته جيدة في التصنيف) [١٠٩].

وقد شهد ابن حجي بحسن سيرة القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي بدر الدين محمد البالسي الأصل الدمشقي المعروف بابن أبي الجواشي، والذي تزوج بنت القاضي بهاء الدين أبي البقاء، وكان يتولى نظر الأيتام وعمل نائباً في الحكم للقاضي الحنفي قبل (الفتنة) أي قبل قدوم تيمورلنك، ثم أصبح قاضياً زمن قدوم تيمورلنك، ويؤكد ابن حجي بأنه في عمله (باشر مباشرة حسنة بالنسبة لمن تقدمه) وأنه ظل فقيراً[١١٠] وهذا يعني أنه لم يمارس حالات الفساد المعروفة آنذاك، ومنها إقطاع الأوقاف، وقد عرف هذا عن مباشر نظر الجيش ابن الشهاب محمود (الذي أقطع الأوقاف لنفسه ولغيره، وكان يحصل الذهب في المصالحة عن نفسه وعن غيره، وأنه اتسع في ذلك اتساعاً زائداً) [١١١] وكان أسلوبه في ذلك كتابة القصص بما يعينه في ذلك، ورغم ثبوت هذا الكم الهائل من الفساد عليه، إلا أن طائفة من كبار الأمراء تشفعوا فيه عندما قبض عليه وسجنه الدوادار الباي اينال[١١٢]، ويبدو أن الشفاعة فيه لم تنجح، لأن الأمير نوروز ردهم بسبب ما ثبت عليه من ذنوب.

أرخ ابن حجي لبعض الأحداث الخطيرة والتي شهدها لمصادرة الأوقاف، ومنها اتفاق القضاة والسلطة المملوكية على الأهالي لإقطاع الأوقاف والأملاك بحجة عمارة القلعة، يقول أنه عندما بدأوا بعمارة القلعة، وأخذوا بنقل الحجارة من الخندق، وعمل فيه الأتراك والعوام، وتزاحموا في سبيل ذلك، ووقف النائب بنفسه ومعه القضاة، فرضوا على الأراضي أموالاً كثيرة، فشق ذلك على الناس، لذلك قاموا بإقطاع الأوقاف والأملاك، وتسلط الناس في السعي بنيل الوظائف من أصحابها، وكان تأثير هذه الحالة على أهالي

(١٠٨) ن.م، ص٢٤٥.
(١٠٩) ن.م. ص٢٥٢.
(١١٠) ابن حجي، تاريخ. ص٥٦٧.
(١١١) ن.م. ص٥٧٦.
(١١٢) ن.م. ص٥٧٧.

القرى والأرياف من (أصحاب البساتين كبيراً، حيث فرض عليهم الذهب لعمارة القلعة، وأخذت الأوقاف وأقطعت، وتزايد الظلم على الناس[١١٣]، ويؤكد أن المصادرات والظلم تضاعف على الناس، وطال التجار المسافرين إلى القاهرة، ومنعوا من السفر، وطلب منهم المال، وبسبب هذه الممارسات أشار ابن حجي إلى أن (الناس شبهوا هذه الأمور بالأمور التي صدرت في أيام تيمورلنك وجعلوا هذه أبشع)[١١٤]، ويبدو أن احتجاج بعض القضاة أفقدهم وظائفهم، ومنهم القاضي الحنفي ابن الآدمي[١١٥] حيث قبض عليه، وخلع على ابن القطب بقضاء الحنفية عوضاً عنه.

ومن الأحداث التي تؤكد اتفاق السلطة المملوكية مع بعض القضاة على مصادرة الأوقاف، ما ذكره ابن حجي من اجتماع القضاة بالجامع (لغرض ما) حيث (وضع على القرى والمزارع بظاهر دمشق حسبما وقع اتفاقهم مع الدولة على ذلك[١١٦] لأنهم كتبوا جميع ذلك على أن يقطعوه وقفاً وملكاً خارجاً عما هو مقطع، واستعدوا لذلك وشهدوه، ثم دسوا إلى القضاة من يعلمهم بذلك) ويؤكد ابن حجي أنه وقاضي والقضاة والشيخ شهاب الدين بن الحسباني اتفقوا على الاجتماع مع النائب واستنكار هذا الأمر، (ملاطفته في تركه) لكنه فوجئ بوجود اتفاق مع الاستاددار على وزن ألفي دينار أو ألف وخمسمائة، مع علم النائب بالأمر وسكوته عليه، وتم لهم ذلك، وخاصة على الأوقاف، ويشير ابن حجي إلى سكوت الناس (توالت هذه المصائب على الناس، لكنهم اضطروا إلى هذه المسالة خوفاً على الغلة لا تؤخذ بالإقطاع لا سيما والشعير قد حصد...) أما القضاة، فإنهم فوضوا الاستخلاص إلى الوزير الذي أخذ في طلب الناس)[١١٧] وهي إشارات ثمينة أوردها ابن حجي، تشير إلى الفساد الإداري الذي انعكس على واقع الأوقاف، وأدى إلى بيع الوقف أو مصادرته والتصرف به.

وأخيراً، فقد أورد ابن حجي ملحوظات تشير إلى الأساليب التي لجأ إليها الأهالي للتحايل على الدولة بوقف أموالهم التي تخضع للمصادرة، ومنها ما حدث للشيخ الفقيه علاء الدين علي بن عبد الرحمن أحمد البيرودي الشافعي نزيل الشامية البرانية، وهو بلا وارث وله أموال، وقد صحب أمواله إلى الحجاز وتوفى هناك (حيث احتاطت الدولة على بيته لما بلغهم

(١١٣) ابن حجي، تاريخ، ص٥٧٠، ص٥٧١، ص٥٧٢، وانظر بشأن عمارة القلعة: ابن حجر، أبناء الغمر، ج٦، ص٨.

(١١٤) ابن حجي، تاريخ، ص٥٧٣.

(١١٥) انظر ترجمته عند: السخاوي، الضوء اللامع، ج٩، ص٣٩- ص٤٠.

(١١٦) لاحظ كيف يستخدم عبارة (الدولة).

(١١٧) ابن حجي، تاريخ، ص٤٧٠- ص٤٧١.

نبأ وفاته) واستولى أمير الحج على ما بيده (على عادة ما أحدث في هذه الأيام) وكان هو قد أوصى بوقف أمواله على فقراء الحرمين ووقف أملاكه بدمشق على عمارة بركة تبوك على طريق الحج[١١٨]، وكان وارثه الوحيد ابن عمه، الذي لم يتمكن من الحصول على ذهبه المودع (لم تمكنه الدولة من أخذه وأخذوه ظلماً) ولم يعط غير عشرين درهماً[١١٩].

ومن الأساليب الأخرى التي مارسها الأهالي من أصحاب الثروة، للتهرب من سطوة الدولة، قضاء أيامهم الأخيرة بالمارستان، لتكون تركتهم وقفاً عليه، فقد توفى الشيخ الفقيه العالم المدرس جمال الدين عبد الله بن بدر الدين محمد بن الهمذاني الحنفي مدرس الجوهرية، وكان له ملك وثروة، ولم يخلف سوى زوجة وبنت، وزوجته كانت عتيقته (فلما اشتد به الضعف، توجه إلى المارستان فمات به، ليكون ما بقى من التركة لجهة المارستان) [١٢٠] ويبدو أن الأوقاف على المارستان كانت كبيرة، وأن مهمة (نظر المارستان) صعبة، وذلك بسبب تصرفات المباشرين، لذا فلما تولى الاستاددار نظر المارستان عوضاً عن الأمير تنكزبغا، (جد في استدعاء المباشرين وفي طلب رقاع الحساب) [١٢١]. ويبدو أن لذلك علاقة بتفويض أمور المارستان بدل مباشرة الوظيفة، ويبدو ذلك من تفويض أمور النظر بأوقاف المارستان الدقاقي من ناظره ابن سويد ركن الدين، إلى القاضي الحنفي ابن القطب: وكان من جملة وقف المارستان حصة بحمام النحاس، فلما تولى القاضي أوقاف المارستان (قبل الوقعة) أي قبل قدوم تيمورلنك، وجد محلة الحمام خراباً، ووجد الناس قد نهبت القدور من الحمام، فقام ببيع باقي القدور بثمن بخس، وعندما انتقل نظر الوقف إلى غيره وعزل ابن القطب (صار الناس يطعنون على ابن القطب ببيع القدور، وقضى عليه بتغريمه القدور وإلزامه بثمنها) [١٢٢] ولا بد من الإشارة قبل الانتقال إلى دراسة واقع الأوقاف لدى ابن طوق إلى ابن حجي أورد إشارات لأوقاف الخليل عليه السلام، وبيّن بأن (راتب الخليل)[١٢٣] قد قطع من مدة، ولذلك فإن نائب دمشق (رسم بمائة غرارة تحمل إليه ما بين قمح وشعير

---

(١١٨) ن. م ، ص٥٩٣- ص٥٩٤.

(١١٩) ن.م. ص٦٠٤.

(١٢٠) ابن حجي ، تاريخ، ص٦٢١.

(١٢١) ن.م. ص٦٢١.

(١٢٢) ن.م. ص٦٢٨.

(١٢٣) راتب الخليل منصوص عليه في إشارات كثيرة لدى مصادر المرحلة، مثل: المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ص١٣.

يطبخ منه جشيشة[١٢٤] وتخبز خبزاً إلى أخر العام حتى مجئ الغلة[١٢٥]. وهذا يعني أن الأوقاف التي كانت مخصصة على الخليل، لم تكن تصل بشكل دوري حسب الأصول بسبب اضطراب الأوضاع في دمشق.

وختاماً، نورد نموذجاً للأوقاف التي أشار ابن حجي إلى نصوصها في محاولة لتأكيد مواصفات الوقفيات آنذاك، فقد أورد في ختام تاريخه أن نائب دمشق (وقف جميع أملاكه على ذُريته وجهات معينة من ذلك، فقراء الحجاز الذين لا مرتب لهم في ديوان وقف الحرمين، يرسل إلى كل بلد من البلدين الشريفين، مائة قميص في كم كل قميص مربوط عشرة دراهم، وعلى من يطوف عنه بمكة كل يوم، وعلى عشرة أيتام في كل بلد، وشيخ يقرئهم، وقراء الجامع الأموي، وغير ذلك) [١٢٦] وهذا النص لوقفية النائب ثمين، لأنه النص الوحيد الذي يصلنا لدى ابن حجي، وعلى كل، فإن ما أورده ابن حجي يقدم صورة واقعية مأمونة لواقع الأوقاف في دمشق في عصره، وهو عصر مضطرب، شهد صراع السلطة بين المماليك أنفسهم، وبين الموظفين وبين القضاة والمدرسين، وهو عصر ثورات العربان وافتقاد الأمن، وعصر غزو المغول للدولة سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، وغزو الفرنجة لسواحل بلاد الشام، ومع ذلك فقد شهد هذا العصر العديد من المصنفين والإعلام الذين يمكن الركون إليهم لتأكيد معلومات ابن حجي الثمينة حقاً.

واقع الأوقاف في دمشق كما وردت عند ابن طوق:

يتميز ابن طوق بإيراد واقع حال الأوقاف بالتفصيل، وبذكره للعقود والمتكلمين وأساليب التعامل مع الوقف وارتباط الأوقاف بالمدارس والمساجد ووقف الأسرى والحرمين الشريفين، والمرافق الموقوفة على المدارس والمساجد تحديداً، فضلاً عن متابعته (للقرضيات) وهي الأموال الخاصة بوقفيات من خارج دمشق، والمتخلفة من مواسم سابقة[١٢٧]. وطرق تعامل السلطة في القاهرة معها، وابتداء فإن مرحلة يوميات ابن طوق تبدأ سنة ٨٨٥هـ، وتنتهي سنة ٩٠٥هـ / ١٤٨٠- ١٥٠٩م وتكمل تاريخ ابن حجي الذي اقتصر على سنوات ٨٠١- ٨١٠هـ،

(١٢٤) جشيشة، أي ما يطبخ بمطبخ الخليل من قمح يوزع يومياً على المقيمين وأبناء السبيل، وهو حساء بهريسة القمح واللحم، انظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط.١، ١٩٩٠م، ص٧٥، وسيشار إليه فيما بعد: دهمان، معجم.

(١٢٥) ابن حجي، تاريخ، ص٥١٥.

(١٢٦) ابن حجي، تاريخ، ص٤٧١- ص٤٧٢.

(١٢٧) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص٣٣.

ويفصل بينهما خمسة وسبعين عاماً، ومن هنا تأتي أهمية هذه اليوميات، والتي يحتاج قارئها إلى صبر وأناة لمتابعة ملحوظاته في موضوع الوقف، لاستخلاصها من بين مئات الأحداث المتشابكة في كل مناحي حياة نيابة دمشق، وحلب والمركز في القاهرة، ويمكن للدارس أن يستخلص صورة حية ومباشرة لوضع الوقف في نيابة دمشق.

أنواع الوقف:

اهتم ابن طوق بتتبع أوقاف المدارس، وأعطى لشيخه تقي الدين بن قاضي عجلون أولوية خاصة، وهذا يعني أنه تابع موضوع الوقف لدى الشافعية ومنها المدرسة الشامية البرانية، حيث كان ناظراً على أوقافها بعد أن نزل عنها المقرئ الصلاحي ابن العدوي[١٢٨]، في حين نزل هو عن نصف نظر المدرسة الركنية الشافعية ونصف تدريسها، ونصف تدريس الفلكية، وذلك مقابل دراهم (مستجدة) وزن كل درهم منها ربع درهم بالصنج الجديد، وزنة كل أشرفي ذهبي منها اثنا عشر درهماً ونصف درهم. وثبت قاضي القضاة نجم الدين الحنبلي هذا النزول بالشامية والركنية، وكان خان جلبان وقفاً على المدرسة الركنية[١٢٩]، ويؤجر كل سنة بمبلغ ٧٠٠ فضة، ويسمح للمستأجر بالاستدانة (لكونه رجلاً جيداً، وله مدة في الخان) وكان الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون ناظر الأوقاف، يقوم بتأجير خان جلبان. ومن أوقاف المدرسة أيضاً فرن بجوار حمام سامي[١٣٠]. على أن يقوم المستأجر بدفع الأجرة مطلع كل شهر. ومن أوقاف المدارس أرض بقرية المنيحة[١٣١] وقف على مدرسة تربة تنم[١٣٢] وعمارة بالشرف الأعلى وغراس وقف على المدرسة الطواويسية[١٣٣]، وقطعة أرض في قرية جرود وقف للمدرسة الركنية الشافعية أيضاً[١٣٤]. ويشير ابن طوق إلى أن بيده شخصياً وقفاً للمدرسة البادرائية، والمدرسة الدولعية، وقد دفع في شهر حزيران سنة ٨٨٧هـ عن هذا الوقف للشيخ شمس الدين الخطيب أشرفية وفضة ٣٨٠[١٣٥].

---

(١٢٨) ن.م، مج ١، ص٣٠.

(١٢٩) ابن طوق ، التعليق، ص٤٠، ص١٥٦، ص١٥٧، ص١٧١، ص٤٦٥.

(١٣٠) انظر بخصوص الحمام: النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٠٥.

(١٣١) قرية بغوطة دمشق في الجهة الشرقية.

(١٣٢) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص١٤٩.

(١٣٣) ن.م ، مج١، ص٤٤٧.

(١٣٤) ن.م. ص٤٦٥.

(١٣٥) ن.م. ص١٦٧.

ومما يلفت انتباهنا في أخبار الوقف التي أوردها ابن طوق الحالات التالية:

أولاً: وقف الأسرى

وذلك في أخباره لشهر أيار سنة ٨٨٦هـ، حيث أشار إلى أن الناس بدأت بجمع دراهم من النحاس للأسرى القادمين من (انطرسوس) وهم من أسرى الفرنج (من قبل طرابلس) [١٣٦]، وكانت بداية جمع الدراهم من الجامع الأموي، ثم امتدت إلى المدارس البادرائية ثم القيمرية، وأشار ابن طوق إلى أن (استخراج الدراهم كان من أهل الخير للأسرى) [١٣٧] واستمر جمع الدراهم من ٦ / ٥ / ٨٨٦هـ وحتى ١٨ / ٦ / ٨٨٦هـ، حيث سافر الأسرى، ويقول ابن طوق بأنهم (سافروا مصحوبين بالسلامة مخفورين مسلحين، ومعهم الشيخ عبد الرحمن الحمصاني والأمير ازبك الظاهري) [١٣٨] ومن الأمور اللافتة للنظر مساهمات الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون، حيث (طلع إلى الصالحية، لاستخراج ما يرزق الأسرى بها) [١٣٩] ولا يرتبط رزق الأسرى بحادثة الأسر، بل أن الوقف كان معروفاً ويرتبط حسبما يبدو بتحصيله من ميراث المتوفين، يذكر ابن طوق أن الشيخ زين الدين بن العلاف (أودع عنده فضة جدداً وعتقاً، وأفلورين مبلغ ٦٠٠، من جهة ورثة قاضي القضاة جمال الدين الباعوني لوقف الأسرى لأخر سنة ٨٨٣هـ، ليعرض به الحاج علي بن سبيل مما له من جهة وقف الأسرى، والحجة المكتتبة على زين الدين من ثمن (فلفل الأسرى) قبل تاريخه، وذكر أن ابن سبيل تبرع به للأسرى الواردين من انطلسوس، وأشار ابن طوق أنه كتب وصلاً للشيخ زين الدين بن العلاف بأنها عنده على سبيل الإيداع، وأنه عندما يحضر ابن سبيل، فإنه سيقوم بتنزيلها من الحجة[١٤٠]، ويبدو أن الوديعة طالت، فقد كان تاريخها يوم ٢٩ / ١٠ / ٨٨٦م، لذا فقد أذن شيخه أن يدفع من (ثمن فلفل الأسرى) ٦٠٠ درهم، للمدرسة الأتابكية، وباقي الوديعة للتاجر زين الدين عبد القادر.

وكان من ضمن وقف الأسرى (حصة من أول أمام المرج الشامي النصف والربع، ونظر الحصة من الغياض الحور والصفصاف القائم بالجانبين) ويؤكد ابن طوق أن ذلك ثابت على قاضي القضاة بهاء الدين ابن حجي الشافعي بطريق مشروع، كذلك الحال مع

(١٣٦) ن.م، ص٦٥.
(١٣٧) ن.م. ص٦٦.
(١٣٨) ن.م. ص٧٤.
(١٣٩) ابن طوق، التعليق، ص٦٨.
(١٤٠) ن.م. مج١، ص٩٩.

(وقف بني الورد) ببعلبك، ففيه نحو الثلث لحجة وقف الأسرى لأخر سنة ٨٨٦هـ، بثلاث سنين أو أربع[١٤١].

خدم (وقف الأسرى) حالات الأسر التي كانت تتم بحق المغاربة، ففي ١٧ / ٨ / ٨٨٧هـ، أشار ابن طوق إلى أن الناس بدأت (استخراج درهم المغاربة الأسرى) وكان ذلك بالمدرسة البادرائية، ثم بالقيمرية، ثم بالجامع الأموي، إلا أن الأيام الواقعة ما بين ١٩ / ٨ وحتى ٩ / ٩ / ٨٨٧هـ ظل جمع درهم المغاربة الأسرى من مدارس البادرائية والقميرية إلى أن سافر الأسرى إلى طرابلس، وقد جبى لهم من المسلمين، وقبضوا ذهباً أشرفية ومناصرة (أي ذهب منصوري بقيمة دينار لكل منصوري)، وقبضوا أيضاً فضة جدداً وعتقاً، فضلاً عن إقامتهم في القيمرية، وكانت قيمة الفضة ٩٦٢١، وقد أشهد عليهم بقبضها[١٤٢]، وسافروا قبيل العصر ومعهم زين الدين الحمصاني، وهو كما يبدو قريب الشيخ عبد الرحمن الحمصاني الذي سافر مع الأسرى السابقين.

ويبدو أن جماعات الأسرى كانت تتتابع على دمشق، فقد أشار ابن طوق إلى قدوم جماعة من الأسرى يوم الخميس ٣٠ / ١٠ / ٨٨٧هـ، ومعهم نصرانيان، وأحدهما سلمون من قبرص واثنان من أرمينيا، وعددهم عشرة أنفار، فأرسلهم النائب إلى الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون[١٤٣]، وقد جبى لهم نحو مائتين وعشرين أشرفياً[١٤٤]، وعادوا مع النصراني سلمون، الذي يبدو أن له علاقة مباشرة وصفقات تجارية مع السلطان المملوكي نفسه[١٤٥].

علينا أن نميز في هذه الإشارات بين أمرين؛ التبرعات للأسرى التي كانت تتم بشكل مفاجئ عند قدومهم، ووقف الأسرى الذين يتم التبرع له بجزء من الميراث، وكان الأسرى عادة من المغاربة، تأسرهم قوى أفرنجية ويقيمون في قبرص.

ثانياً: الأوقاف الذرية: (وقف الخواجا الشهابي أحمد بن المزلق نموذجاً)

وهي كثيرة، وكان المتكلمون عليها إما من أبناء الواقف أو من القضاة، وقد حظى وقف

(١٤١) ن.م، مج١، ص١٢٧.

(١٤٢) ن.م. مج١، ص١٨١ -١٩١.

(١٤٣) ابن طوق، التعليق. مج١، ص٢٠٤.

(١٤٤) ن.م، مج١، ص٢١٣.

(١٤٥) يشير ابن طوق إلى أن على سلمون أموالاً قرضاً للسلطان، وهي إشارة إلى مساهمات سلاطين المماليك بالتجارة.

الخواجا الشهاب ابن المزلق باهتمام خاص لدى بن طوق، لأنه صحب (المتكلم الجديد على الوقف) الشيخ زين الدين خضر الحسباني ابتداء بتاريخ ٢٣ / ١٢ / ٨٨٦هـ[١٤٦] وكان لعز الدين إسماعيل بن الشيخ برهان الدين القرا (من معلوم الزاوية) ١٤٠ فضة من وقف ابن المزلق[١٤٧]، ويبدو أن المتكلم الجديد على الوقف الشيخ زين الدين خضر الحسباني تعرض للمساءلة من قبل ورثة ابن المزلق، وجرت محاسبة أدت إلى سجنه، يذكر ابن طوق أن الحسباني (حبس بسبب مال ألزم به، وذلك بحبس باب البريد[١٤٨]، ويؤكد ابن طوق أنه حبس (على سبيل الظلم) [١٤٩] ويشير إلى أن الحسباني أرسل إليه وهو في السجن، وأخبره بأن (ابن مزلق وكل شخصاً يدعي بأنه أخذ مال الوقف لمدة سبع سنين) والمدعي هو زوج ابنة الواقف، وقايضه عن كل سنة ١٠,٠٠٠، وعندما أكد له الحسباني أنه لم يكن متكلماً على الوقف إلا لمدة ثلاث سنوات، سجنه بعد أن جعله يحلف في الجامع الأموي، وكتب عليه كتاباً وقال له: (أين الثلاثين ألفاً الفايضة؟ اعمل الحساب أصلاً وخصماً) ويبدو أن الحسباني طلب من ابن طوق أن يستدين له مائة أشرفي (ولو بفائدة) ليخرج من السجن، وكلف الحسباني ابن طوق بعمل الحسابات، يقول في ذلك (كتبت محاسبة وقف الشهابي ابن المزلق خلال سنة ٨٨٦هـ وحتى آخر سنة ٨٨٥ مبيضة وأرسلتها للشيخ الحسباني، ومعها محاسبة تشتمل على مقبوضه ومصروفه، وتأخر له بأخرها ٣٥٣٠)[١٥٠] وذلك في ٢٤ / ١ / ٨٩٠م، واشتملت المحاسبة الأملاك وقسمتها لمستحقيها، وبستان الصيرفي وقسمته لمستحقيه، وما على الجهات من الأجور والأحكار وإخراج الفرائض والمرتبات وبيت لهيا وسيدي سعد رضى الله عنه)[١٥١] واستدان الشيخ زين الدين خضر ليوفى مال الوقف وخرج من السجن[١٥٢]، واستكمل حصة الحرمين الشريفين من وقف ابن المزلق[١٥٣].

ترد مادة كبيرة من يوميات ابن طوق لمتابعة الحسباني لوقف الخواجا شهاب الدين

---

(١٤٦) ابن طوق، التعليق، مج١ ، ص١١٨.
(١٤٧) ن.م. مج١، ص١٧٧.
(١٤٨) ن.م، مج١، ص٤٣٤.
(١٤٩) ن.م. مج١، ص٤٣٥.
(١٥٠) ابن طوق، التعليق، مج١، ص٤٣٨.
(١٥١) ن.م ، مج١، ص٤٤٠، وهي جملة وقف ابن المزلق.
(١٥٢) ن.م، مج١، ص٤٤٢.
(١٥٣) ن.م، مج١، ص٤٣٤.

ابن المزلق، ومنها مزرعة بالقابون وقد ادعى المستأجرين (بحكر كبير نحو الألف كل سنة وهي كل سنة بمبلغ ٨٠)[١٥٤]، حيث ذهب الحسباني لحل المشكلة، في حين سلم الحسباني مبلغ ٢٠٠٠ فضة عتق معاملة دمشق المحروسة إلى عتيقة المزلقي الشهاب وهي حبشية، لتسلمها (للست المصونة سارة بنت شهاب ابن المزلق) من حصتها في وقف ابنها المرحوم الشهاب ابن المزلق، وعلق ابن طوق على ذلك (وعليها الخروج من تبعة ذلك بالطريقة الشرعية)[١٥٥] ومن معاملات وقف ابن المزلق، وقف المزرعة الكبيرة بقابون الفلاحين على المسجد بقابون الفلاحين[١٥٦] وأيضاً من بستان فياض، وكان المتكلم على الوقف يصطحب ابن طوق ليسجل ويشهد على تسليم الأموال. أو على تأجير المرافق. ومنها الاتفاق يوم ١ / ١٢ / ٨٨٨هـ، بين الحسباني، وبين تقي الدين ابن الزبرطانة (بأن يفلح بستان الرقام من أراضي جوبر، وقف الخواجكي الشهاب ابن المزلق، وله من الثمرة الربع على العادة، والنصف على الأرض، بأن يفلحه ويزرعه، وعلى جهة الوقف الخراج والقدوم، ونصف العشر على الفلاح تقي الدين)[١٥٧]، وهذه المعاملة نموذج ممتاز لما تحتويه يوميات ابن طوق من توثيق للعقود والإجارة والمتابعة، مما يوثق لليوميات في دمشق وجوارها، ويلقى الضوء على أساليب التعامل مع الأوقاف وضبطها وتوثيقها.

ويمكن من خلال متابعة ما أورده ابن طوق لأوقاف ابن المزلق، معرفة حجم الأوقاف؛ فقد ذكر في القابون التحتاني مزرعة وبستان فياض وبستان الدكاش وهي كلها (وقف الطرحا)[١٥٨] وبستان أمير آخور جلبان وذلك في ٢٠ / ٤ / ٨٨٩هـ، حيث (أكل مع الحسباني من المزرعة مشمش عربيلي)، وأكد أن موسم المشمش كان ممتازاً، وتكشف يوميات ابن طوق أصناف المزروعات والأشجار في أراضي الوقف المستأجرة، وعلاقات الفلاحين وأساليب البيع والقسمة، ففي مزرعة القابون اشترى جماعة من الشاغور المشمش بحضور الفلاح المستأجر للمزرعة، وبيع الإنتاج بـ ٣٥٠٠، وخص الوقف النص والربع ٢٦٥٠، واشترى أهل الشاغور أيضاً الزيتون والرمان وغيرها، وكانت حصة الوقف ٥٣٠٠[١٥٩] أما بالمزرعة

---

(١٥٤) ن.م، مج١، ص٥٤٣.

(١٥٥) ن.م، مج١، ص٢٤٥.

(١٥٦) ن.م. مج١، ص٢٤٥.

(١٥٧) ن.م. مج١، ص٣٠١.

(١٥٨) ابن طوق، التعليق، مج١، ص٣٥٨.

(١٥٩) ن.م، مج٢، ص٦١٧.

الكبيرة فقد بلغ محصول البيع ٢٧٠٠ حالة[١٦٠]، في حين كان منتوج المزرعة من الخيار والبصل ببستان فياض ٥٠، وحصة الوقف النص[١٦١]. ومما يلفت انتباهنا حصة الوقف من الحطب والخشب، وذلك من (الغيضة) أو من قطع أشجار الحور والصفصاف أو من قطع الأشجار الموقوفة المعمرة، ففي مزرعة بقرية دقانية بالغوطة، تم قطع ثماني لوزات، نصفها للوقف، وقد سجل على المشتري السعر بـ ٤ بعد الكلفة[١٦٢]. أما الغيضة من وقف ابن المزلق فكانت في قرية الحديثة[١٦٣]، ويتم قطع أشجار الحور والصفصاف منها.

وتبين يوميات ابن طوق أسلوب البيع في المزارع، وذلك بحضور الدلالين والمشترين[١٦٤]، كما أنها تسمح للقارئ بتتبع حجم الوقف ومواقعه، فقد كان وقف ابن المزلق موزعاً على القابون التحتاني والحديثة وعربيل[١٦٥] وصحنايا[١٦٦] وعين ثرما[١٦٧] والجعيدية[١٦٨] ومزرعة الفنيدق[١٦٩] فضلاً عن قاعة موقوفة بدمشق[١٧٠] وقرية برزه[١٧١] وبستان الكايلي[١٧٢] وبستان الدكاش، وفياض.

تفصل يوميات ابن طوق أسلوب التعامل مع الفلاحين الذين يستأجرون مزارع الوقف، كاستخدام الدلالين، وعند قسمة القمح مثلاً، كان يتم التعامل (بالكيل المصري) [١٧٣] وهي ملاحظة على جانب كبير من الأهمية، ويتم توزيع الحاصل على الجهات التالية: العرب للخفارة، والرجاد والنساف والشاوي والمذري وحماية البيدر، والتبانة، وهي خطوات مهمة جداً، تشير إلى (دور البدو) في الحراسة، وهي ملحوظة لها أهمية خاصة في هذه المرحلة، تبين علاقة البدو بالفلاحين، وكذلك فإن حالة من التخصص في حمل القمح من البيدر بعد

(١٦٠) ن.م، مج٢، ص٦١٨.
(١٦١) ن.م. مج ٢، ص٦٢٨.
(١٦٢) ن.م. مج ٢، ص٦٣٠.
(١٦٣) ن.م، مج ٢، ص٧٥٣، ومج ٣، ص١٢٦١.
(١٦٤) ن.م، مج ٢، ص٨٥٠.
(١٦٥) ن.م. مج ٢، ص٨٧٧.
(١٦٦) ن.م. مج ٢، ص٨٩٥.
(١٦٧) ن.م. مج ٢، ص٩٦٨.
(١٦٨) ن.م. مج ٢، ص٩٨١.
(١٦٩) ن.م. مج ٢، ص١٠٦٣.
(١٧٠) ابن طوق، التعليق، مج ٢، ص١٠٥٧.
(١٧١) ن.م. مج ٣، ص١١٣٣، ص١٢٦٤.
(١٧٢) ن.م. مج ٣، ص١١١٨، ص١١١٩، ص١١٣٩.
(١٧٣) ن.م. مج ٣، ص١١٣٩.

حراسته، وفصل القمح عن القصل والتبن، وتحويل بعضه إلى قمح مشوي (الشاوي) أو الفريكة، وتذريته عن التبن، وتكشف اليوميات أيضاً استخدام التبن في دمشق (لأجل تطيين البيت والبحرة والقاعة)، وبعد كل هذه الإجراءات يتم قسمة ما يخص الوقف بعد حساب الكيالة والشهادة[١٧٤].

ومن الأوقاف الذرية المذكورة أيضاً وقف كوثر الفامي وزوجته الموقوف عليهما حانوتان وعلوهما وبسطه بالعنابة الشرقية، لقراءة ما تيسر من كتاب الله تعالى[١٧٥] ووقف بني الورد[١٧٦] ووقف ابن الشارد المغربل[١٧٧] ووقف شمس الدين محمد أبي الدقيق الحمصي[١٧٨] على خان ميسلون، ووقف ابن العجمي بدمشق وأملاكه في (جرمانا) [١٧٩] ووقف النجيبي[١٨٠] وهو أيبك النجيبي وزوجته الست كمسر في الديماس، وصحنايا واللقيشا ودير ابن بدير، ووقف عبد القادر الأرموي[١٨١] ووقف ابن منصور وهو قاعة تحت الساباط قرب حمام منصور[١٨٢] ووقف عبد الصاحب الأرموي[١٨٣]، ووقف الشيخ بركات[١٨٤] ووقف سلمان[١٨٥] ونرى أن ما أوردناه عن وقف الشهاب ابن المزلق أعطى صورة تفصيلية للتعامل مع هذه الأوقاف، ويبدو أنها كانت تخضع للرقابة والمتابعة، ولم يكن هناك اعتداء أو مصادرة مباشرة على الأوقاف الذرية بسبب متابعة الورثة ووجود مستندات ووثائق مدونة.

ثالثاً: أوقاف أخرى

أورد ابن طوق في يومياته إشارات إلى أوقاف كثيرة، منها وقف الأسرى، ووقف المارستان

---

(١٧٤) ن.م، مج ٣، ص١١٣٩.
(١٧٥) ن.م. مج ١، ص١٢٤.
(١٧٦) ن.م. مج ١، ص١٢٧.
(١٧٧) ن.م. مج ١٣، ص١٩٦.
(١٧٨) ن.م. مج ١، ص١٦٨، وص١٩٥.
(١٧٩) ن.م. مج ٢، ص٥٨٥.
(١٨٠) ن.م. مج ٣، ص١١٨٤، ص١١٩٢.
(١٨١) ن.م. مج ٣، ص١٢٥٤.
(١٨٢) ن.م. مج ٣، ص١٢٦٠.
(١٨٣) ابن طوق، التعليق، مج ٣، ص١٤١٦.
(١٨٤) ن.م. مج ٣، ص١٣٨٦.
(١٨٥) ن.م. مج ٣، ص١٣٨٨.

النوري[١٨٦] وغالبيته في قرية القطيفة والمعظمية ووقف البريد[١٨٧] أي السجن، ووقف جامع يلبغا وهو سوق الشيخي[١٨٨] وأوقاف الجامع الأموي ومنها الإسطبل[١٨٩] والبستان في دمشق[١٩٠] ووقف مطبخ باب البريد[١٩١] ووقف الطرحا[١٩٢] ووقف الخبز في القلعة[١٩٣] ووقف الحبس وهو على الأغلب وقف البريد[١٩٤] ووقف الرباط[١٩٥] ووقف الشرابخاناه[١٩٦] ووقف بردي[١٩٧] إضافة إلى أوقاف المدارس، وهي الشامية البرانية[١٩٨] والركنية الشافعية[١٩٩] والدولعيه[٢٠٠] ووقف تربة مدرسة تنم[٢٠١] والبابرائية[٢٠٢] والطواويسية[٢٠٣] والبلبانية[٢٠٤] والبهائية[٢٠٥] والمدرسة الشجرية[٢٠٦] والمدرسة الشركسية[٢٠٧] وبالطبع فإن أهم هذه الأوقاف وقف الحرمين الشريفين[٢٠٨] إلا أن الإشارات إليه في يوميات ابن طوق

(١٨٦) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص٧٦، مج٢، ص٨٢٥، مج ٣، ص١٢٢١.
(١٨٧) ن.م. مج ١، ص٤٧٣.
(١٨٨) ن.م. مج ١، ص٢٨٤.
(١٨٩) ن.م. مج ١، ص٢٨٧.
(١٩٠) ن.م. مج ١، ص٣٢٦.
(١٩١) ن.م. مج ١، ص٣٧٨، مج ٣، ص١٣٥٧.
(١٩٢) لم نصل إلى تعريف لهذا الوقف في دمشق، انظر: مج٢، ص١٠٠٢، ص١٠٥١، ومج ٢، ص١٠٥٥.
(١٩٣) ن.م. مج ٣، ص١٢٠٦.
(١٩٤) ن.م. مج ٣، ص١٢١٣.
(١٩٥) ن.م. مج ٣، ص١٢٧٥.
(١٩٦) ن.م. مج ٣، ص١٣٨٢.
(١٩٧) ن.م. مج ٣، ص١٤٦٣.
(١٩٨) ن.م. مج ١، ص٣٠.
(١٩٩) ن.م. مج ١، ص٤٠، ص١٥٦، ص١٥٧، ص٤٦٥.
(٢٠٠) ن.م. مج ١، ص١٥٣، ص١٦٧.
(٢٠١) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص١٤٩.
(٢٠٢) ن.م. مج ١، ص١٦٧.
(٢٠٣) ن.م. مج ١، ص٤٤٧.
(٢٠٤) ن.م. مج ١، ص٥٣٦، ص٣٣٨.
(٢٠٥) ن.م. مج ١، ص٥٥.
(٢٠٦) ن.م. مج ٣، ص١١٥١.
(٢٠٧) ن.م، مج ٣، ص١١٤٥.
(٢٠٨) ن.م. مج ١، ص٢٣٠، ص٤٣٤، ص٤٠٥، ص٢٩٥.

محدودة، كما ذكرت اليوميات أوقاف المالكية[٢٠٩] ووقف الأمراء[٢١٠] ووقف الأشراف[٢١١] ووقف الفقرا[٢١٢] ووقف الكتب[٢١٣] ووقف المؤذنين[٢١٤].

وكل هذا التفاصيل التي لا يمكننا تتبعها في هذه الورقة، تعطي تصوراً دقيقاً لحجم الأوقاف وتنوعها، وتوزع المرافق على ريف دمشق ونيابة دمشق بشكل عام.

رابعاً: قضايا الوقف والدلالات

تشير يوميات ابن طوق إلى الصراعات الكبيرة التي نشبت على الأوقاف بين الفئات المختلفة، فقد طرح في أكثر من موضع خلافات المغاربة على وقف المالكية، ففي ١٦ / ١٠ / ٨٨٩هـ، أرخ ابن طوق الخلاف الناشب بين القاضي المالكي شهاب الدين المريني المالكي وبين القاضي كمال الدين ابن الناسخ المالكي، الذي طالب بأن (يعطيه شيئاً من وقف المالكية) فأرسل إليه مع ابن طوق ١٠٠ فضة، فلما أعطاه إياها، رماها على الأرض وقال لابن طوق، ردها إليه، وأشار أن لوقف المالكية نصف الحوانيت بحافة الخندق تجاه حكر السماق وهي شراكة للأسرى (أي وقف الأسرى)[٢١٥].

ويبدو أن خلافات أخرى اتسعت بين القاضي المالكي وأصحابه في دمشق، فقد حدث أن أبا الخير شكا وهو مالكي المذهب إلى النائب في دمشق على القاضي المالكي (بأنه يأكل وقف المالكية ولا يعطينا شيئاً، ووقفهم يعمل بالسنة بعشرة آلاف دينار) ولكن احتجاج أبو الخير قوبل بالاستهجان، وكاد النائب أن يضربه لولا أن تشفعوا فيه، فسجنه بعد أن طلب منه أن يقبل يد القاضي[٢١٦]. وتكررت هذه الاعتراضات، وكان على رأسها اعتراض الشيخ علي المكناسي المدرس بالجامع، حيث واجه القاضي المالكي بالجامع وقال له: (يا حشاش يا آكال الحرام) فأرسل القاضي المالكي بفتوى إلى القاضي الشافعي تقي الدين ابن قاضي عجلون[٢١٧]، وشكا عليه، في حين ذهب الشيخ المكناسي إلى النائب، وتواجه مع

(٢٠٩) ن.م. مج ١، ص٤٠٣، مج ٢، ص٦٢٩، ص٧٥٩، وص٧٦٠.
(٢١٠) ن.م. مج ٢، ص٩٠٥- ص٩٠٦.
(٢١١) ن.م. مج ٢، ص١٠٠٧.
(٢١٢) ن.م. مج ٢، ص٦٩١.
(٢١٣) ن.م. مج ١، ص٢٢٠.
(٢١٤) ن.م. مج ٢، ص٧٤٢.
(٢١٥) ن.م. مج ١، ص٤٠٣.
(٢١٦) ابن طوق، التعليق، مج ٢، ص٦٢٩.
(٢١٧) ن.م، مج ٢، ص٦٩٠.

القاضي المالكي عند النائب ومع القاضي حساب الوقف (والفايض له عليه لآخر سبعة آلاف درهم) وأخرج القاضي المالكي خطاً للشيخ تقي الدين في فتواه، فقام النائب بعقاب الشيخ المكناسي، وطلب منه أن يُقبّل يد القاضي المالكي، الذي أسقط حقه لأجل (ملك الأمرا) لكنه لم يسقط الحق الشرعي[٢١٨].

وتشير يوميات ابن طوق إلى إمكانية الاستدانة من مال الوقف، فقد أقرض المتكلم على وقف ابن المزلق للشيخ القاضي تقي الدين ابن قاضي عجلون ٣٠ أشرفيه ليسدد ما عليه من ديون[٢١٩] كما كان يتم تقسيط أجرة المرافق المؤجرة من أموال الوقف، في حال الثقة بأصحابها بموافقة الناظر على الوقف[٢٢٠] وكل هذه الإشارات تحمل دلالات لا بد من دراستها.

الأوقاف والسلطة:

تابعت السلطة موضوع الأوقاف باهتمام واضح، ولم يتم التهاون في القضايا التي كانت تعرف باسم (القرضيات) أي أموال الوقف التي تحصلت من أعوام سابقة خارج دمشق، وكان يتم تحصيلها وإرسالها إلى القاهرة في مدة معلومة، وقد أشار ابن طوق في يومياته إلى هذه القرضيات، ففي يوم الخميس الموافق ٢ / ١٢ / ٨٨٥هـ- ١٤٨٠م، سافر ناظر الجيش بصحبة القرضيات ومعه محب الدين ابن الفرفور، لتحصيلها من القدس الشريف ونابلس والرملة والعودة بها إلى القاهرة[٢٢١]، ويبدو أن ابن طوق تابع وصول القرضيات، وأشار إلى أن (الكوكاجي) سافر بالقرضيات إلى القاهرة في ٢٦ / ١٢ / ٨٨٧هـ[٢٢٢]، ويبدو أن ناظر الجيش هو المخول عادة بجمع القرضيات، فقد كانت تجمع لناظر الجيش وتنضاف إليه القرضيات[٢٢٣].

إلا أن أهم ما أورده ابن طوق في يومياته، مخاوف الناس من قدوم (الخاصكي)[٢٢٤] الذي

(٢١٨) ن.م. مج ٢، ص٦٩١.

(٢١٩) ن.م. مج ١، ص٣٩٧.

(٢٢٠) ن.م. مج ١، ص٤٠.

(٢٢١) ن.م. مج ١، ص٣٣، ص١١٢.

(٢٢٢) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص٢٢١.

(٢٢٣) ن.م. مج ١، ص٣١٢.

(٢٢٤) وهو من المماليك السلطانية، يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغاراً، وجعلهم من حرسه الخاصة، وهم يدخلون على السلطان في خلوته ويعملون بخدمة الاسطبل والقصر، ويتميزون عن غيرهم بحمل السيوف وبلبساهم المطرز المزركش، وعادة ما يتوجهون في مهمات شريفة، دهمان، معجم الألفاظ، ص٦٦.

يأتي من القاهرة لمتابعة الأوقاف، ففي ١١ / ٩ / ٨٩٢هـ، جاء خاصكي إلى دمشق (وقرئ مرسومة بالكشف على أوقاف الجوامع والمساجد والمدارس وغيرها، وكلفته كبيرة) [٢٢٥] وما أورده ابن طوق يعكس المخاوف الشعبية، (فالكلفة الكبيرة) تتوزع على الأهالي، لذلك اجتمع القضاة الثلاثة وغيرهم بالمدرسة البادرائية، عقب صلاة الجمعة (بسبب ما يؤخذ للخاصكي- من المال بالأوقاف) [٢٢٦]، ويبدو أنه سافر في نفس المهمة إلى (الديار الشمالية) أي إلى نيابة حلب قبل وصوله إلى دمشق[٢٢٧]، وحدث أن توفى جاني بك الأينالي أحد الأمراء بالقاهرة الذي أرسله السلطان سفيراً إلى ابن عثمان (فأرسل الخاصكي إلى الفقهاء لمعالجة موضوع ما تبقى على ورثة جاني بك في كشف الأوقاف وذكر بأنه نحو ستمائة دينار، فرضوها على كل شخص شيئاً، وأرسلوا نقباء، والناس في أمر مريج)[٢٢٨] إلا أن ابن طوق لا يتابع ذلك بالتفصيل.

وفي قدوم الخاصكي مؤشر على حدث كبير، فقد كان (الترك وبنو عمامه) يستقبلونه في الاسطبل، وعند ركوبه إلى القلعة يقرأ المرسوم مرة أخرى بعد أن يقرأ في الجامع الأموي، ويبين واقع مهمته وهي متابعة الأوقاف، ففي زيارته لدمشق في ٥ / ٩ / ٨٩١م، (أرسل الخاصكي خلف الوكيل إلى عنده بالبيت بعد عشاء الآخرة ماشياً، وقرأ عليه مرسوماً آخر بأنه تهاون في مباشرته، ولم يثمر لهم شيئاً، وله نحو عشر سنين، وأن يخدمنا كل سنة بمبلغ ٢٠٠٠ دينار، فإن وزن فذاك، وألا يسافر مع الخاصكي إذا توجه، ووجه مرسوم آخر إلى ابن صبيح المشرقي بأن يزن خمسة وتسفير ٢٠٠، وكان عزمنا قتله أو إعدامه، ولكن رأفنا ورحمنا) ورد الوكيل للقلعة، وأودع المشرقي بالحبس) [٢٢٩].

وتتابعت أخبار قدوم الخاصكي على الأوقاف، ومنها قدوم خاصكي إلى غزة للإشراف على زيتون الوقف[٢٣٠]، وعندما قدم إلى دمشق (أخذ يدور على المدارس وغيرها لمدة ثلاثة أيام)[٢٣١] وقد حاول القضاة الشافعي والحنبلي والحاجب وفقيه الجند مقابلة الخاصكي

---

(٢٢٥) ابن طوق، التعليق، مج ٢، ص٧١٥.
(٢٢٦) ن.م. مج ٢، ص٧١٦.
(٢٢٧) ن.م. مج ٢، ص٧٢٨.
(٢٢٨) ن.م. مج ٢، ص٧٣٣.
(٢٢٩) ن.م. مج ٢، ص٥٩١.
(٢٣٠) ابن طوق، التعليق، مج ٣، ص١١٥٧.
(٢٣١) ن.م. مج ٣، ص١١٦٤.

(الذي جاء على الأوقاف) واستقبلوه عندما جاء من (البلاد الشمالية) أي من حلب[٢٣٢]، وقد تابع السلطان أوضاع الأوقاف بإرسال خاصكي مرة أخرى في شهر تشرين الأول سنة ٩٠٢م، إذ إن الخاصكي طلب القضاة إلى بيته الذي نزله وهو بيت جانم أمير كبير بالحضرة (بسبب الأوقاف) وعقب ابن طوق بقوله (والناس في أمر مريج ويلطف الله) [٢٣٣] وتابع أخبار الخاصكي وتخوف الناس مما سيفرضه من مال الوقف، حيث أشار إلى أن قضية الأوقاف (انفصلت على خمسة آلاف دينار بإشارة القاضي الحنفي والحنبلي) [٢٣٤]، ويبدو أن هذا الأمر أثار الناس، إذ (قامت الغوغا على الخاصكي) وكبر الناس في مأذنة الجامع، وجاءوا إلى عند القاضي الشافعي تقي الدين ابن قاضي عجلون) وطالبوه بأن يرسلوا المرسوم ليكاتبوا السلطان ويراجعوه[٢٣٥]. واستمر ابن طوق بتتبع ردود فعل الناس بسبب ما يؤخذ من مال الأوقاف، ومحاولات أصحاب القرار مثل كاتب السر، والأشراف والمهمندار (ورفع الأوراق للأبواب الشريفة) [٢٣٦]، ومع ذلك فقد بدأ جمع الأموال من الناس[٢٣٧]، ولا يمكننا متابعة الأحداث بسبب توقف اليوميات[٢٣٨].

كتب الأوقاف:

أورد ابن طوق نماذج لكتب الوقف في عصره، وهي كتب كان يوثقها، وخاصة عند المواريث ذكر أن خطيب قرية جرود كتب شهادته قبل وفاته، وهي بخط ابن طوق، حيث دبّر عبده[٢٣٩] (وأوقف على قراءة ما تيسر من كتاب الله تعالى في أي مكان تيسر، وأن يقرر مولانا السيد في ذلك لمن يشاء، ويكون هو الناظر، ويصرف لسجن باب البريد كل سنة فضة ١٠٠، وأقر ذلك بالشهادات) [٢٤٠] إلا أن الواقف عاد عن وصيته (رجع عنها) فحدد الثلث وجعل الغراس بالقطعة الأرض التي تجاه داره، وقف على القراءة، والمائة على السجن)[٢٤١].

(٢٣٢) ن.م. مج ٣، ص١١٩٧.
(٢٣٣) ن.م. مجلد٣، ص١٤٩٦.
(٢٣٤) ن.م. مج ٣، ص١٤٩٨.
(٢٣٥) ن.م. مج ٣، ص١٥٠٢.
(٢٣٦) ن.م. مج ٣، ص١٥٠٢.
(٢٣٧) ن.م. مج ٣، ص١٥٠٥.
(٢٣٨) لم يصدر بعد المج الرابع من اليوميات التي يقوم الشيخ جعفر المهاجر بتحقيقه.
(٢٣٩) أي حرر عبده واعتقه.
(٢٤٠) ابن طوق، التعليق، مج ١، ص٣٨٤.
(٢٤١) ن.م. مج ١، ص٣٨٥.

وفي وقفية أخرى، أوصت أم علاء الدين بفرش زوج بسط في المدرسة الأخنائية... وثلاثمائة درهم خرج عليها... وباقي الثلث يكون لمطبخ باب البريد ومصالحه، ويتولى ذلك زوجها والمتولي على المطبخ مجتمعين[٢٤٢]، وورد في وقفية أخرى (مكتوب رق وقفيتي) على قناة البريدي، وهي (حالة للفقرا) بحارة القناة، وأن لم يوجدوا فعلى الفقرا بالمدينة أي بدمشق[٢٤٣].

ومن نماذج كتب الوقف ما كتبه وشهد عليه ابن طوق (على الست الكبيرة وبنت الحظيري زوجة محمد أبو السيوري، على أن البستان الذي بدرب الصالحية تجاه قبور الشهدا، وبستان الأسرى، يقسم بينهما بالسوية نصفين، وقف عليهما بمفردهما، ثم من بعدهما على أولادهما، ثم على أولاد أولادهما، ثم على أولاد أولادهما، ثم على نسلهما وعقبهما، ومن توفى منهما من غير ولد ولا نسل ولا عقب، عاد نصيبه على الآخرين، والنظر على الست الكبيرة على المكان المذكور وثم بعدها على الأرشد الأرشد من ذريتهما) [٢٤٤] ومن هذه النماذج ما أورده ابن طوق، على تصادق شهاب الدين أحمد بن الحوراني وابن عمه ابن الموقت.. أن يكون لشهاب الدين عشرة أسهم ولابن الموقت أربعة عشر سهماً عليهما ثم على من بعدهما، على أولادهما وأبنائهما وأعقابهما، ثم بعد ذلك للحرمين الشريفين، فإن تعذر.. على الساكن بدمشق المحروسة)[٢٤٥].

(٢٤٢) ن.م. مج ١، ص٣٧٨.
(٢٤٣) ن.م. مج ٣، ص١٢٣٩.
(٢٤٤) ن.م. مج ٣، ص١٢٤٢.
(٢٤٥) ن.م. مج ٣، ص١٣٢٣.

الوقفيات الحجرية في حلب

طارق محمد جلال الدين عبد الحميد*

نظام الوقف من النظم الإسلامية التي قام عليها العماد الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي منذ نشأة الدولة الإسلامية وحتى إلغاء الأوقاف في العصر الحديث[1]، وتمدنا الوقفيات بالكثير من المعلومات التاريخية ومعلومات عن مظاهرالحياة والمجتمع وخاصة في العصرين المملوكي البحري والجركسي، نظراً لكثرة الوقفيات المكتشفة من هذه الفترة[2] وقد جرى العرف أن يتم كتابة الوقفيات في صورة مخطوطات على ورق حسب

---

* باحث، جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية.

(١) انظر: أحمد بن صالح عبد السلام، "تاريخ الوقف عند المسلمين وغيرهم"، بحوث ندوة الوقف في الشريعة الإسلامية ومجالاته:
http://www.al-slam.com/arb/NawaInfo.asp?f=nadwa.htm book 28. doc., p.p 573-577.
وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: عبد السلام، تاريخ الوقف، أيضاً انظر: محمد أبو زهرة، محاضرات في الوقف، مطبعة أحمد على مخيمر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٩-١٠، وسيُشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو زهرة، الوقف؛ رضوان السيد، "فلسفة الوقف في الشريعة الإسلامية"، نظام الوقف والمجتمع المدني في الوطن العربي- بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية والأمانة العامة للأوقاف بدولة الكويت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢م، ٤٣-٤٦، وسيُشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: رضوان السيد، فلسفة الوقف. وقد بدأت الصدقات منذ عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما قام الكثير من الصحابة بالوقف، وتم إنشاء ديوان مستقل أي إدارة خاصة للأوقاف أو الأحباس لأول مرة في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وفي عهد العباسيين أنشئ ديواناً للوقف سمي ديوان البر، وكانت الأوقاف على نطاق ضيق في العصر الإخشيدي ثم الفاطمي، ثم انتشرت في العصرين الأيوبي والمملوكي خاصة بعد السماح بوقف الأراضي الزراعية، فتم تكوين ثلاثة دواوين: ديوان لأحباس المساجد والزوايا، وديوان الأوقاف الحكمية التي حبست على الحرمين وفداء أسرى المسلمين، وديوان للأحباس الأهلية التي حبست على النواحي التي يريدها الواقف.

(٢) انظر: محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م -٩٢٣هـ/١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٢-٤، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أمين، الأوقاف، الذي قدر عدد وثائق الوقف المعروفة من العصر المملوكي بحوالي ثمانمائة وثيقة، يقع أكثر من نصفها في أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة، فضلاً عن مائتي وثيقة بدار الوثائق المصرية بالقاهرة فضلا عن أماكن أخرى، وكلها مخطوطات ورقية.

نوعه وطريقة صناعته في العهد الذي دونت فيه الوقفية[٣]، ولكن أثناء دراستي لقلعة حلب[٤]، لفت نظري وجود نقشين أثريين أحدهما من أواخر العصر النوري[٥] والآخر من العصر المملوكي[٦] يشير كل منهما إلى وقف للصرف على المقام المسمى مقام إبراهيم السفلي أو

(٣) سنذكر مثالاً واحداً كحالة نمطية متكررة، مخطوطة وثيقة وقف السلطان الغوري رقم ٨٨٣ أوقاف طولها الإجمالي ١١م و٩٤,٣ سم على ٢٣ درجاً، ورقها من نوع ورق يرجح أنه كان كثير التداول في العصر المملوكي، عرف بالورق الحموي من صنع الشام. انظر عبد اللطيف إبراهيم، "التوثيقات الشرعية والاشهادات في ظهر وثيقة الغوري"، مجلة كلية الآداب، ١ / ١٩ مايو ١٩٥٧م، ٢٩٤-٢٩٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: عبد اللطيف، التوثيقات الشرعية.

(٤) قلعة حلب ذات تاريخ قديم ومن أجلِ وأعظمِ القلاع في الشام، والحديث عن حلب وقلعتها وعمارتها خارج نطاق هذا البحث، وسأكتفي بذكر بعض المراجع الأساسية التي يمكن الرجوع إليها مثل: عز الدين أبو عبد الله محمد بن على بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٦٢م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، وهو المرجع الأساسي عن حلب وقلعتها وتاريخها في الحقبة الأيوبية؛ شوقي شعث، قلعة حلب، دراسة في تاريخ القلعة وآثارها، دار القلم العربي، حلب ١٩٩٦م، ج١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: شعث، قلعة حلب؛ محمد نادر العطار، قلعة حلب نموذج متكامل من العمارة الحربية الإسلامية، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٣م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العطار، قلعة حلب؛ محمد أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥٦م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: طلس، الآثار الإسلامية؛ كامل بن حسين الغزي (ت١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م) ، نهر الذهب في تاريخ حلب، مطبعة الصباح، دمشق ١٩٩٣م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الغزي، نهر الذهب. وكذلك المرجع الأساسي عن نقوش حلب السابق الإشارة إليه:

Ernest Herzfeld. Inscriptions et Monument d'Alep. Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Le Caire 1955. Deuxieme Partie : Syrie du Nord Herzfeld. Inscriptions. d'Alep.

فضلاً عن دراسة ياسر طابا الممتازة.

Yasser Tabbaa. Constructions of Power and Piety in Medieval Aleppo. University Park 1997.

وسيشار إليه فيما بعد: Tabbaa .Constructions .

وبالقلعة أعمال عديدة من عصور مختلفة، ويعتقد أن مكان القلعة كان هو التل الذي اتخذه إبراهيم الخليل مقاما له. وتوجد بالقلعة عدة منشآت عسكرية ودينية ومنها مقام إبراهيم "السفلي" ومقام إبراهيم "الأعلى" (حسب ما سمي في ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج١، ص٣٩، ويعرف أيضاً بالمقام العلوي أو الجامع العلوي، وهو جامع القلعة).

(٥) صورة رقم ١، وقفية رقم ٢ في الجدول رقم ٣، انظر:

Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1: 129.

كتابة رقم ٦٣، وسيتم التعليق عليها لاحقاً.

(٦) صورة رقم ٢ ، وقفية رقم ١٤ في الجدول رقم ٣ وكذلك:

Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1:131.

المقام الصغير. وهذان النقشان الحجريان يختلفان عن باقي النقوش الأثرية[٧] في قلعة حلب في كون كل منهما يشير إلى وقف للإنفاق على المقام المذكور، ويكّون كل منهما وقفية كاملة الأركان، ولا يمكن اعتبار أي منهما كنص تأسيس. فهل هذه الحالة لوقفيتين منقوشتين على الحجر في عصرين مختلفين للانفاق على نفس المبنى هي حالة فردية خاصة بهذه القلعة، وهذا المقام في حلب؟ بالقليل من البحث وجدت أن هناك نماذج عديدة في حلب لنصوص وقفيات أخرى كتبت على الحجر في صورة نقش أثري على المبنى الموقوف عليه، وهذه النصوص الوقفية يمكن أن نسميها الأوقاف "الحجرية"، إن صح هذا التعبير، لتفرقتها عن مثيلاتها المخطوطة على الورق. لم تحظ هذه الوقفيات بدراسة كاملة منفصلة، وإن كان تم صنفت على أنها نوع من أنواع الكتابات العربية الأثرية ضمن النصوص التأسيسية أو النصوص التي تؤرخ للعمل الصالح الذي يهبه منشئ الاثر، وسميت "بنص أوقاف"[٨]، كما اقترحت تسمية أخرى لها وهي "النقوش الوقفية"[٩] باعتبار أن هذا المصطلح الأخير أشمل وأعم لكافة النقوش على أي مادة سواء كانت حجراً أو خشباً أو رخاماً أو غير ذلك، ولكنني فضلت لغرض هذا البحث أن أستخدم لفظ "الوقفيات الحجرية"، للإشارة إلى أي

كتابة رقم ٦٦، وسيتم التعليق عليها لاحقاً.

(٧) اعتمدت على:

Ernest Herzfeld. Inscriptions.1: 77-141.

وخاصة الكتابات أرقام ٣١-٧٤، ٢٣٣، ٢٣٨، عن قلعة حلب، سيُشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:
Herzfeld. Inscriptions d'Alep.

كأحد المراجع الأساسية عن حلب ونقوشها الأثرية.

(٨) أي "Acte de Wakf"، كما تم تصنيف مثل هذه الكتابات في أحد المراجع الأساسية لدراسة الكتابات الإسلامية وهو:

Repertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe.L'institut Français d'Archeologie Orientale. Le Caire 1931.Vol: 1-16.

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Repertoire . والذي تم فيه تصنيف الكتابات الأثرية العربية إلى: نص أوقاف، نص تأسيس لمبنى، نص ترميم لمبنى، نصوص جنائزية على شواهد القبور، نص باسم السلطان، نص به دعوة، نص توقيع لصانع العمل، نصوص على منقولات (المصنوعات النحاسية والزجاج والنسيج والمنتجات الخشبية وغيرها).

(٩) محمد حمزة إسماعيل الحداد، النقوش الآثارية مصدراً للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، المجلد الأول، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ١٨، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحداد، النقوش الآثارية، وقد صنف الكتابات الآثارية (ص ١٦-٢١) إلى: النقوش الصخرية، النقوش الشاهدية، نقوس الإنشاء والتعمير، النقوش الإعلامية، نقوش الصوي أو الأميال، نقوش المراسيم، النقوش الوقفية، نقوش السكة، نقوش الفنون التطبيقية.

وقفية غير مخطوطة على الورق المتعارف عليه، ولكن محفورة كجزء من النقوش الكتابية في المبنى، سواء كانت على لوحة خاصة بها أو على حائط أو على عتب باب أو شباك أو في مدخل أو غير ذلك من مكونات المبنى المعمارية. ترجع أهمية هذه الوقفيات الحجرية إلى أن جزءاً منها أوقف في عصور يندر أن نجد لها مثيلاً في الوقفيات المخطوطة مما يجعل من وقفياتها الحجرية المرجع الوحيد لها، كما أن دراسة هذه الوقفيات الحجرية في دراسة مقارنة مع مثيلاتها الورقية المخطوطة يساعد على أخذ فكرة أشمل عن المجتمع الإسلامي، فضلاً عن تأكيد ما جاء في المصادر من تواريخ وأحداث. سوف يكتفي هذا البحث بدراسة الوقفيات الحجرية الموجودة في حلب كمثال للوقفيات الحجرية في بلاد الشام[١٠]، حيث إن مجموعة الوقفيات الحلبية هي ثاني أكبر مجموعة بعد مجموعة الوقفيات الحجرية في دمشق.

متى يصبح النص التأسيسي أو الكتابة الأثرية المحفورة وقفية؟ وهل يمكن اعتبار الوقفية المحفورة على الحجر وثيقة وقف كاملة الشروط والأركان، أم أنها مجرد نص تأسيسي لغرض دعائي لنيل الثواب؟ من البديهي أنه لكي يصبح النص المحفور وقفية يجب أن يحتوي النص على أركان ما يشكل وقفية[١١]، أي واقف وموقوف وموقوف عليه والصيغة التي تنص على الوقف لحبس الموقوف في سبيل الله. فإذا نظرنا إلى الوقفيات الحجرية التي قمت برصدها والمعروفة لنا فإننا نجد أنها كلها وقفيات اكتملت أركانها الشرعية، وبالتالي فهي ليست لمجرد غرض دعائي لنيل الثواب ولكن في رأيي أن المقصود منها فعلاً الحبس والوقف، وكونها موضوعة على المباني فذلك بغرض الإشهار والإعلان عن الوقف. ويمكننا هنا أن نضيف إلى استخدامات الكتابات الأثرية على المباني[١٢] سبباً جديداً هو استخدام

(١٠) سوف نستخدم لفظ بلاد الشام أو الشام أو البلاد الشامية ليشمل سورية الكبرى أي الشام وساحل البحر الأبيض المتوسط وحلب ولبنان والأراضي المقدسة في فلسطين.

(١١) مناقشة الشروط الفقهية للوقف وأركانه وشروطه ومصارفه وغير ذلك من نقاط الدراسة في موضوع الأوقاف خارج نطاق هذا البحث، ولكن الجدير بالذكر أن المذاهب الأربعة تجيز الوقف مع تفصيل في ذلك وخلاف ولكن انفرد أبو حنيفة في "عدم لزوم الأوقاف وإبطالها بعد وفاة الواقف. (أبو زهرة، الوقف، ١١)، ولكي يكون الوقف صحيحاً فإن أركان الوقف عند الحنفية هي الصيغة فقط ، التي تستلزم وجود واقف وموقوف وموقوف عليه، وعند باقي الفقهاء أركان الوقف أربعة وهي واقف وموقوف وموقوف عليه والصيغة، وكانت أكثر الأوقاف تسير بمقتضى المقرر في المذهبين الشافعي والحنفي اللذين يقرران أن الوقف يجب أن يكون أبدياً. عن تأبيد الوقف والفروق في المذاهب. انظر: أبو زهرة، الوقف، ١٧، ٧٤-٨٢.

(١٢) توجد دراسة مهمة للأستاذ أوليج جرابار Oleg Grabar اقترح فيها الأسباب التي تستخدم فيها الكتابة على المباني في العمارة الإسلامية مع إعطاء سبعة نماذج لهذه الاستخدامات، انظر:
Oleg Grabar "Graffiti of Proclamations: Why write on Buildings", Essays in Honor Of Laila Ali Ibrahim, ed. Doris Behrens-Abouseif, The American University in

المبنى نفسه كوسيلة إشهار وإعلان دائمة للكافة، إما عن مراسيم[١٣] أو في الحالة التي ندرسها إشهاد وإشهار على وقفية[١٤]، لضمان أن يكون صرفها في مصارفها، ولا يغتصب أحد موقوفاتها بعد إشهارها، ولكي ينال الواقف دعاء واستحسان من يقرأ الوقفية على الصدقة الجارية التي أنشأها، وكذلك هي ضمان ضد سرقة أو حرق أو تدمير الوقفية إذا كانت مخطوطة، فكونها من الحجر وجزء من المبنى يعطيها صفة الأبدية المطلوبة، وكذلك تفادي أن تمتد إليها "أيدي الأهواء بالسرقة أو الحريق أو التزييف أو تتعرض إلى الضياع والتلف بفعل الزمن"[١٥]. ويلاحظ أنه توجد لدينا نقوش على منقولات (مثل المصابيح والشمعدانات) موقوفة لمبني معين، ولكن لا يمكن اعتبار هذه الكتابات وقفيات نظراً لعدم اكتمال أركان الوقفية فيها، ويكون النقش في هذه الحالة مجرد نص لتسجيل تبعية المنقول للمبنى الموقوف[١٦].

الوقفيات الحجرية في العالم الإسلامي

الوقفيات الحجرية لم تقتصر فقط على حلب أو البلاد الشامية، فنحن نجد[١٧] هذه الوقفيات منتشرة في كافة أرجاء العالم الإسلامي، ولكن بنسب متفاوتة. وقد قمت بحصر الوقفيات الحجرية المعروفة فيما وجدته في المراجع فحصرت مائة وخمساً وثلاثين وقفية

Cairo Press. Cairo 2000. pp. 69-76.

سيُشار إليه عند وروده فيما بعد: Grabar. Why Write

وقد لخص الأسباب التي من أجلها يتم وضع الكتابات على المباني وحصرها في خمسة أسباب: التعريف بالمبنى، التعريف بالمنشئ، التعريف بوظيفة المبني، الكتابات الرمزية ذات الدلالات الدينية، وأخيراً استخدام الكتابة كوسيلة زخرفية.

(١٣) توجد نماذج عديدة لمراسيم أو قرارات سلطانية لرفع المظالم أو غير ذلك على المباني نذكر منها مثلاً في قلعة حلب النص الخاص بتمرباي الأشرفي بتاريخ ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م. انظر:
Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1: 384.
نقش رقم ٢٣٨، وأيضاً النقش رقم ٥٢، ١٠٤:١-١٠٧، بتاريخ ٩١٤هـ/ ١٥٠٩م، الخاص برسم السلطان الغوري وهناك العديد من النماذج الأخرى، في حلب وكذلك في أماكن أخرى كثيرة، وهي تستدعي دراسة منفصلة. انظر أيضاً الحداد: النقوش الآثارية، ١٨، حيث سماها "نقوش المراسيم".

(١٤) "إعلام كافة الناس الذين يرتادون هذه العمائر بصورة منتظمة بمضمون هذه النصوص، وبالتالي يصعب العبث بها بعد أن ذاع أمرها وانتشر بين هؤلاء الناس"، الحداد ، النقوش الآثارية، ١٩.

(١٥) الحداد، النقوش الآثارية، ١٩.

(١٦) مثل نقش على شمعدان السلطان المملوكي حسام الدين لاجين بتاريخ ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م. انظر: الحداد، الكتابات الآثارية، لوحة رقم ٢٧.

(١٧) انظر: Repertoire ، الأجزاء من ١-١٦وهي حتى سنة ٧٦٢هـ/ ١٢٦١م.

حجرية موزعة على أقطار مختلفة من العالم الإسلامي وذلك حتى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١م. ففضلاً عن البلاد الشامية التي توجد بها النسبة الكبرى (٦٦٪) توجد نماذج قليلة من القاهرة[١٨]، ومكة[١٩]، ومن المغرب[٢٠]، خاصة فاس[٢١]، ومن ألميريا في أسبانيا[٢٢]، ومن إيران في قزوين[٢٣]، ونايين وناتانز[٢٤]، و من قونيا[٢٥]، وإرزورم[٢٦]، في آسيا الصغري (تركيا الآن)، وبلاد أخرى، أي أنها منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي، ولكن بنسب متفاوتة مع اختلاف في درجة الاختصار والمحتوى حسب المنطقة والمبنى ومكونات الوقفية. الجدول التالي يوضح توزيع الوقفيات الحجرية المعروفة لنا على الأقطار الإسلامية حتى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١م:

جدول رقم ١
توزيع الوقفيات الحجرية في العالم الإسلامي حتى سنة ٧٦٢/١٣٦١

البلد	العدد	٪
البلاد الشامية (حلب والشام والأراضي المقدسة ولبنان)	٨٩	٦٥,٩٪
آسيا الصغري (تركيا)	١٩	١٤,١٪
المغرب	١٢	٨,٩٪

(١٨) بالرغم من أن أول وقفية حجرية كانت من القاهرة كما سيأتي نكره إلا أن عدد الوقفيات الحجرية من القاهرة قليل نسبياً، فمثلاً انظر Repertoire، ١٤:٢٧ النقش رقم ٥٢٤٢ في خانقاه بيبرس بتاريخ ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م، في الأغلب، وأيضاً: ١٤:٣٩ النقش ٥٢٥٩ في مسجد علم الدين سنجر من سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م. وهذا الموضوع يستدعي دراسة منفصلة نظرا لكثرة عدد النقوش الكتابية على العمائر المعروفة لنا من القاهرة.

(١٩) انظر: Repertoire, 8: 120-121 ، نقش حجري مؤرخ سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م.

(٢٠) تعرف في المغرب باسم "الحوالات الحبسية." انظر الحداد، النقوش الآثارية، ١٨.

(٢١) انظر: Repertoire, 4: 157 ، النقش رقم ٥٤٤١ وغيرها.

(٢٢) انظر: Repertoire, 8: 112-113 ، نقش حجري مؤرخ سنة ٥١٠هـ/١١١٦م.

(٢٣) انظر: Repertoire, 8: 107-111، نقشان أرقام ٢٩٦٦، ٢٩٦٧.

(٢٤) انظر: Repertoire, 14: 16، النقش رقم ٥٢٢٤.

(٢٥) انظر: Repertoire، ضريح صدر الدين القونياوي، نقش رقم ٤٦٩٤، وهو يتضمن وقفاً على "دار الكتب التي فيها مع كتب موقوفة عليها" والتي تبين أن الوقفيات الحجرية شملت كافة مصارف الأوقاف المعروفة حتى المكتبات.

(٢٦) انظر: Repertoire, 14: 49، نقش رقم ٥٢٧٧.

مصر	٤	٪٣,٠
العراق	٤	٪٣,٠
إيران	٤	٪٣,٠
الأراضي الحجازية (مكة)	٢	٪١,٥
الهند	١	٪٠,٧
المجموع	١٣٥	

أي أن النسبة الكبرى من هذه الوقفيات الحجرية نجدها في البلاد الشامية.

ويمثل الجدول التالي توزيع الوقفيات الشامية حسب المدينة حتى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م.

جدول رقم ٢

توزيع الوقفيات الحجرية في المدن الشامية حتى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م

المدينة	عدد الوقفيات الحجرية	النسبة المئوية
دمشق	٥١	٪٥٧,٣
حلب	١٣	٪١٤,٦
القدس	٦	٪٦,٧
حصن الأكراد	٦	٪٦,٧
الخليل	٣	٪٣,٤
طرابلس	٢	٪٢,٢
حماه	١	٪١,١
بني نعيم	١	٪١,١
حمص	١	٪١,١

بعلبك	١	٪١,١
بصري	١	٪١,١
ربوة	١	٪١,١
صفد	١	٪١,١
معرة النعمان	١	٪١,١
المجموع	٨٩	

وبدراسة هذا الجدول نجد أن دمشق تحظى بأكبر عدد من هذه الوقفيات[٢٧]، تليها حلب، ثم عدة أمثلة من مناطق أخرى من الشام مثل القدس[٢٨]، وحصن الأكراد[٢٩]، وحماة[٣٠]، وحمص[٣١]، والخليل[٣٢]، ومدن أخرى.

أما عن تواريخ هذه الوقفيات الشامية فتوجد وقفيتان من العصر الفاطمي، وثلاث من العصر النوري، وثمان وأربعون وقفية من العصر الأيوبي، ثم أخيراً ستة وثلاثون وقفية من عصر المماليك البحرية حتى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦١م[٣٣]، أي أننا نرى ازدياداً كبيراً في عدد الوقفيات الحجرية بدءاً من العصر الأيوبي، وهو يتطابق مع ما نعرفه عن تاريخ الأوقاف[٣٤].

---

(٢٧) بعض النماذج من دمشق مثل النقوش أرقام : ٣٨٨٩، ٣٤٤٩، ٣٥٩٦،٣٤٦٦، ٣٩١٤، ٥٤٧٣، ٥٥٤٧.

(٢٨) انظر مثلاً: Repertoire, 10:151-152، نقش رقم ٣٨١٧.

(٢٩) انظر: (Repertoire, 14: 137-139)، نقوش أرقام ٥٤١٣، ٥٤١٤، ٥٤١٥، ٥٤١٢.

(٣٠) انظر: (Repertoire, 14:102)، المدرسة العصرونية، نقش رقم ٥٣٥٩ وكذلك ١٤:١٩٤، النقش رقم ٥٤٨٧ وغير ذلك.

(٣١) انظر: (Repertoire, 12:128)، نقش رقم ٤٥٩٣.

(٣٢) انظر: (Repertoire, 12: 256)، نقش ٤٧٨٧.

(٣٣) لم تتح لي المراجع أو الوقت لحصر وقفيات أواخر عصر المماليك البحرية وعصر المماليك الجراكسة في الشام وباقي العالم الإسلامي وإن كنت حصرتها في حالة الوقفيات الحجرية في حلب.

(٣٤) حدثت هذه الزيادة نتيجة إباحة وقف الأراضي الزراعية في العصر الأيوبي بعد منع هذا الوقف في العصر الفاطمي. كانت الأوقاف أولاً في الدور والرباع ولم يعرف وقف أرض زراعية في مصر أو الشام قبل الإخشيديين (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م -٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، انظر أبو زهرة، الوقف، ١٠، وانظر كذلك: (Repertoire, 5: 9)، نقش رقم ١٦٢٠، وكذلك انظر تقي الدين أبا العباس أحمد بن على المقريزي،(٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٢ ج، دار صادر، بيروت بدون تاريخ، ج٢، ص ٢٩٥، وسيشار

وقد وجدت أن أقدم الوقفيات الحجرية هو نص التأسيس للبئر المعروفة ببئر الوطاويط في القاهرة، حيث يسجل هذا النص قيام جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات في ٣٥٥هـ / ٩٦٦م، بوقف البئر و"السبع سقايات" التي يمدها البئر بالمياه، وقد اندثر للأسف هذا النقش الحجري[٣٥]، وأقدم الوقفيات الحجرية في الشام وقفية على مشهد النبي لوط في بني نعيم قرب الخليل[٣٦]، بتاريخ ٤٠٠هـ / ١٠١٠م)[٣٧]، من العصر الفاطمي، تليها وقفية أخرى مسجلة على لوح حجري في منطقة "ربوة" قرب دمشق بتاريخ ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م[٣٨]، وأقدم الوقفيات الدمشقية وقفية السيدة صفوة الملك والدة الملك دقاق بن تاج الدولة في قبتها في المدرسة الظاهرية في دمشق والمؤرخة في ٥٠٤هـ / ١١١٠م[٣٩]، وتظهر لنا أهمية دراسة هذه الوقفيات الحجرية في كونها وقفيات من عهود يندر أن نجد لها وقفيات مخطوطة من نفس الفترة.

الوقفيات الحجرية في حلب

عندما ننظر إلى الوقفيات الحجرية في حلب حتى العصر العثماني نجد أنه توجد لدينا مجموعة لا بأس بها من هذه الوقفيات (٢١ وقفية)، وقد قمت بتلخيصها في الجدول التالي: رقم٣.

إليه فيما بعد: المقريزي، الخطط، الذي يشير إلى "حبس أبو بكر محمد بن على المارداني بركة الحبش وسيوط وغيرهما على الحرمين وجهت بر وحبس غيره أيضاً." وذلك راجع إلى أن الأرض الزراعية كلها كانت ملكاً لبيت المال نظراً لأنها فتحت عنوة "ويد الزراع عليها ليست يد ملك بل يد استئجار وما يصل إلى الحاكم من خراج إنما هو أجرة" (انظر أبو زهرة، الوقف، ص١٦، وأيضاً انظر: أمين، الأوقاف، ص ٢٩٩)، ثم أوقف ثانية حبس الأراضي الزراعية في عهد الفاطميين (أمين، الأوقاف، ص ٥٩-٦٠) ثم أبيح وقف الأراضي الزراعية في عهد الأيوبيين والمماليك (أبو زهرة، الوقف، ١٧).

(٣٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٣٥ ، الذي يعطي النص كاملاً.

(٣٦) تقع بلدة بني نعيم إلى الشرق من مدينة الخليل وتبعد عنها ٨ كم. انظر:
http://www.palestine-info.info/arabic/landhistory/geo/alkhaleel.htm

(٣٧) انظر: (Repertoire, 6: 79)، نقش رقم ٢١٤٨.

(٣٨) انظر: (Repertoire, 7: 101)، نقش رقم ٢٥٦٠.

(٣٩) انظر: (Repertoire, 5: 8.)، نقش رقم ٢٩٤٢.

الجدول رقم (٣)
الأوقاف المنقوشة على الحجر على أبنية في حلب

الرقم	التاريخ	الواقف	الموقوف	الموقوف عليه	مكان النقش
١.	٥٦٤هـ/ ١١٦٩م	محمد بن عبد الملك بن محمد في عهد العادل محمود بن زنكي(٤٠)	المدرسة المقدمية	خان التتن المعروف باسم المدرسة المقدمية	مدخل المدرسة.
٢.	٥٧٥هـ/ ١١٧٩م في الأغلب	شاذبخت(٤١)	قرية نوائل	مسجد مقام إبراهيم السفلي في قلعة حلب	مقام إبراهيم.
٣.	٥٨٩هـ/ ١١٩٣م	شاذبخت(٤٢)	المدرسة الشاذبختية	المدرسة ودارسو المذهب الحنفي.	مدخل المدرسة.
٤.	بدون تاريخ بين ١١٨٦-١٢١٦م	السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازي(٤٣)	ثلاثون حانوتا	الرباط وتربة الشيخ علي الهراوي.	عتب في الجزء الخلفي من التربة جهة الشمال.

(٤٠) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 233

كتابة رقم ١١١. "هذا ما أوقفه تقرباً إلى الله تعالى في أيام الملك العادل محمود بن زنكي بن آقسنقر عز نصره / الفقير إلى رحمة الله محمد بن عبد الملك بن محمد بي / سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، فرحم الله من قراه ودعا بالمغفرة / على أصحاب الإمام الأعظم سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه."

(٤١) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 129

كتابة رقم ٦٣. "ما وقف العبد الفقير إلى رحمة الله شاذبخت المالكي / العادلي /على المسجد المقام بالقلعة / المنصورة / القرية المعروفة بنوائل وقفاً محبساً مؤبداً / فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه / على الذين يبدلونه إن الله سميع".

(٤٢) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 256

كتابة رقم ١٢٢. "بسمله ... وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام / الأعظم سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه في أيام / الملك الظاهر غازي بن يوسف عز نصره العبد الفقير إلى رحمة / ربه شاذبخت عتيق الملك العادل محمود بن زنكي في سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م".

(٤٣) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 266

كتابة رقم ١٢٧. "بسملة....وقف على هذا الرباط وعلى التربة اللصيقة ومن يكون بها / مولانا الملك الظاهر غياث الدنيا والدين سيد الملوك والسلاطين / (الله..) ثلاثين حانوتاً من السوق السلطاني و..؟ عمرة العبد الفقير إلى رحمة / ..."

٥.	٦٢٠هـ/١٢٢٣م	أبو سعيد طغرل بن عبد الله الملكي الظاهري(٤٤).	المدرسة الظاهرية	المدرسة الظاهرية	مدخل المدرسة.
٦.	٦٢٠هـ/١٢٢٣م	أبو سعيد طغرل بن عبد الله الملكي الظاهري(٤٥)	المدرسة	المدرسة الأتابكية، للحنفية	مدخل المدرسة.
٧.	٦٣٦هـ/١٢٤٠م	النقيب محمد بك الملكي العزيزي الناصري(٤٦).	غير محدد، نص في غير موضعه	نقش في غير موضعه الأصلي، غير معروف	عتب في غير موضعه.
٨.	٦٤٠هـ/١٢٤٢م	عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي(٤٧)	القنطرة	مصالح الجب.	المدرسة الشرفية

(٤٤) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 279-280

كتابة رقم ١٤٩. ويشير أيضا إلى "كتاب الوقف" مما يدل على أن هناك وقفية منفصلة للمكان. "بسمله ... هذا دار حديث أنشئها لقُراة الحديث وإقرائه وحفظه / وسماعه وتلقين القرآن العظيم وإقامة الصلوات الخمس في الجمعة على ما شرطه في كتاب الوقف / في أيام السلطان الملك العزيز وأخيه الملك الصالح وأتابكهما الملك الرحيم الزاهد العابد / طغرل بن عبد الله عتيق والدهما السلطان الملك الظاهر غازي بن يوسف تغمده الله / برحمته وكنلك يفعل بوالده الملك الناصر متولي دولتهم يوسف بن رافع بن تميم من فضائل / نعمته في مدة وقع .....؟ في شهر ربيع الآخر ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، تقبل الله منهما ورضي عنهما." بالرغم من عدم وجود صيغة يفهم منها الوقف لهذا النص وبالتالي لم تكتمل له أركان الوقفية إلا أنه تم إدراجه ضمن الوقفيات الحجرية نظراً لأنه يشير إلى شروط حسب كتاب الوقف فلذا يمكن اعتباره ملخصاً للوقفية.

(٤٥) انظر:

. Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 286

كتابة رقم ١٥٣. يشير النص إلى بعض الشروط المطلوبة ويشير أيضاً إلى "كتاب الوقف" مما يدل على أن هناك وقفية منفصلة للمكان. "هذا ما تقدم / بإنشائه العبد الفقير إلى رحمة الله وكرمه / الشاكر لما أفاض عليه من جملة نعمه أبو سعيد طغرل بن / عبد الله الملكي الظاهري تقبل الله منه وأثابه مسجدا لله تعالى / تقام فيه الصلوات الخمس في أوقاتها ويسكنه المدرس والفقهاء الحنفية على / ما شرطه في كتاب الوقف وإن قدر الله وفاته خارج مدينة حلب فيدفن فيه في الموضع المعد له / وتلازمه القراءة من القرآن العظيم على ما شرطه فلا يحل لأحد يغيره عما وضع له ومن بدله بعد ما ؟ / سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ونلك في شهور سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م".

(٤٦) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 308-309

كتابة رقم ١٦٤. "هذا ما أوقفه العبد الفقير إلى رحمة ربه / ... فه العبد الفقير إلى رحمة ربه النقيب محمد بك / الملكي العزيزي الناصري / .... أبي الثنا..... / ..... أبي الثنا ابن صدقة في سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٥م."

(٤٧) انظر: (Repertoire, 11: 139)، نقش ٤٢٠٩. "وقف هذه القنطرة عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي على مصالح الجب في شهر ربيع الأول سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م."

٩.	٦٥٠هـ/١٢٥٢م	علاء الدين سعيد طاي بغا الظاهري[٤٨]	خانقاة طاي بغا	الصوفية	مدخل خانقاة طاي بغا
١٠.	٦٥٠هـ/١٢٥٢م	علاء الدين سعيد طاي بغا الظاهري[٤٩].	خانقاة طاي بغا	خانقاة طاي بغا	أحد الحجرات في خانقاة طاي بغا
١١.	٦٥٦هـ/١٢٥٨م	فاطمة بنت الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكربن أيوب[٥٠].	الخانقاه وكفر تعال من جبل سمعان	الفقيرات المقيمات بالخانقاه.	خانقاة فاطمة خاتون
١٢.	٧٥٠هـ/١٣٤٩م	عيسى بن موسي[٥١]	جامع البختي	جامع البختي.	جامع البختي
١٣.	٧٥٤هـ/١٣٥٣م	غير منكور[٥٢]	خمس دكاكين في سوق خان التتن	جامع الخواجا.	جامع الخواجا
١٤.	٨١١هـ/١٤٠٨م	زين الدين محمد بن الشحنة[٥٣]	نصف فدان بقرية أورم الكبري	مسجد ومقام إبراهيم السفلي في قلعة حلب	مقام إبراهيم السفلي في قلعة حلب.

(٤٨) انظر: (Repertoire, 11: 235)، نقش ٤٣٥٣. "وقف هذا الرباط في أيام الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي علاء الدين أبو سعيد طاي بغا الظاهري على الصوفية المستعربة المقيمين بها من أهل الدين والصلاح والسنة والجماعة في شهر رجب سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م."

(٤٩) انظر: (Repertoire, 11: 235)، نقش ٤٣٥٤. "هذا ما وقفه علاء الدين طيبغا على الخانكاه".

(٥٠) انظر: (Repertoire, 12: 21)، نقش ٤٤٢٨. "وقفت هذه الخانقاه فاطمة بنت الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على الفقيرات المقيمات بها وإظهار الصلوات الخمس بها والمبيت بها وأوقفت عليها كفر تعال من جبل سمعان بنظر إدريس بن محمد".

(٥١) انظر: (Repertoire, 16: 87)، نقش ٦١٢٣. "ما أوقفه العبد الفقير إلى رحمة ربه عيسى بن موسى رحمه الله."

(٥٢) انظر: (Repertoire, 16: 133)، نقش ٦١٩٩. "قد وقف لهذا الجامع خمس دكاكين واقعة في سوق الهواء المشهور بسوق خان التتن."

(٥٣) انظر:

Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 131.

كتابة رقم ٦٦، "وقف العبد الفقير إلى الله تعالي شيخ الإسلام زين / الدين محمد ابن الشحنة الحنفي عامله الله بلطفه نصف فدان / بقرية أورم الكبرا من جبل سمعان على فرش وتنوير ومصالح / مقام الخليل بقلعة حلب بتاريخ جماد الأول سنة ٨١١هـ/ ١٢١٤م."

١٥.	٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م	أحمد بن السفاح الشافعي(٥٤)	وقف المبنى على أنه جامع ومدرسة	المدرسة السفاحية	مدخل المدرسة السفاحية.
١٦.	٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م	السيفي قصروه كافل المملكة الحلبية في عهد السلطان الأشرف خليل(٥٥).	الضريح	ضريح السيفي قصروه.	الواجهة الجنوبية للضريح.
١٧.	٨٨١هـ/ ١٤٧٦م	عثمان بن غلبك الحنفي(٥٦)	التربة	تربة غلبك.	نص التأسيس للتربة.
١٨.	٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م	الحاج محمد بن أحمد بن نصر(٥٧)	نصف منزل	يفترض أنه لجامع زكي خارج باب النصر.	في فناء جامع زكي.
١٩.	٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م	حمزة باك الإستاهي(٥٨)	غير واضح	مصالح الفقراء في منطقة أغلوبك.	جامع أغلوبك، عتب شباك.

(٥٤) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 368

كتابة رقم ٢١٩. "بسملة...أنشا هذا المكان المبارك وأوقفه جامعا ومدرسة وشرط إمامها وخطيبها شافعي المذهب الفقير إلى الله أحمد بن السفاح الشافعي في شهور سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م".

(٥٥) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep., 1 372

كتابة رقم ٢٢٣. "بسملة..أنشأ هذا المكان المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه المقر الأشرف العالي الملوي المالكي المخدومي ركن الإسلام والمسلمين كنز الفقرة والمساكين زعيم جيوش الموحدين سيف أمير المؤمنين السيفي قصروه مولانا ملك الأمراء كافل المملكة الشريفة الحلبية المحروسة أعز الله أنصاره وجعل الوقف على هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله تعالى نصف قرية الياروقية جوار المكان المبارك ومن الجبون كل يوم ثلاثة دراهم من ثمن الملح تقبله الله تعالى منه بتاريخ سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) من الهجرة النبوية علا صاحبها أفضل الصلاة والسلام صللا الله عليه."

(٥٦) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1 385

كتابة رقم ٢٢٩. "بسملة...أنشأ هذه التربة المباركة المقر العزي / عثمان بن غلبك الحنفي أعز الله نصره ووقفها مدفنا له ولذريته وأقاربهم وأزواجهم وعتقائهم / وذريتهم وكان الفراغ في سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م."

(٥٧) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1:375

كتابة رقم ٢٧٣، هذا الوقف من العصر العثماني، وهي الوقفية الحجرية الوحيدة في حلب التي وجدنا أسماء الشهود مذكورة بها.

(٥٨) انظر:

.Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 411

كتابة رقم ٢٨١. هذا الوقف من العصر العثماني.

٢٠.	دون تاريخ	غير معروف[٥٩]	منزل	فقراء المغاربة المجاورين لمقام سيدي غوث.	النقش غير موجود حالياً[٦٠].
٢١.	دون تاريخ	المعلم جمال الدين[٦١]	النص غير مكتمل "طبقة"	في الأغلب جامع القيقان	الواجهة الغربية لجامع القيقان

(٥٩) انظر:

Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 272.

كتابة رقم ١٤٤.

(٦٠) وقد اختفت الكتابة على سنة ١٩٠٨م، علماً بأنها كانت موجودة في ١٨٩٥م ، انظر:

Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 272.

(٦١) انظر:

Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 408.

كتابة رقم ٢٧٧.

يبين لنا هذا الجدول أن أقدم هذه الوقفيات الحجرية الحلبية يعود إلى عصر العادل محمود بن زنكي (٥٦٤هـ/١١٦٩م)[٦٢]، كما توجد عشر وقفيات حجرية من العصر الأيوبي، ووقفيتان من عصر المماليك البحرية، أربع من عصر المماليك الجراكسة، وإثنتان من العصر العثماني قبل نهاية القرن السادس عشر الميلادي، ويمكننا أن نقول أنه تمت كتابتهما كنوع من سريان نفس عادة كتابة الوقفيات على الحجر من عصر المماليك، كما توجد وقفيتان غير معروف تاريخهما.

وهذه الوقفيات تنوعت في الموقوف عليه، فإثنتين أوقفتا للفقراء، وأربع لجوامع، وثلاث لخانقاوات، وثلاث لأضرحة، وخمس لمدارس، واثنتان لمقام إبراهيم في قلعة حلب، واثنتان ناقصتا التفاصيل. كما نلاحظ قلة عدد الوقفيات الحجرية من عصر المماليك البحرية، كما أنه لا توجد وقفيات حجرية في حلب لأمراء من المماليك البحرية. عدا ذلك يمكننا القول إن الوقفيات الحجرية في حلب لها نفس الصفات الإحصائية للوقفيات الحجرية في الشام من ناحية كثرة عدد الوقفيات الحجرية في العصر الأيوبي مقارنة بباقي العصور.

ونلاحظ عند دراستنا لنصوص هذه الوقفيات الحجرية أن معظمها ينص باختصار على الوقف ويصف الموقوف وإسم الواقف وبعض التفاصيل لأوجه الصرف على الموقوف عليه. كما توجد لدينا نماذج لوقفيات هي نصوص تأسيسة للمبنى، أي تؤدي وظيفة مزدوجة: وظيفة تسجيل النص التأسيسي للمبنى الموقوف ووظيفة الوقفية، أي أن النص التأسيسي للمبنى إن اكتملت له أركان الوقفية وهي الصيغة للوقف، وبها اسم الواقف والموقوف والموقوف عليه أصبح أيضاً وقفية صحيحة الأركان[٦٣]، ولو لم يقابلها "كتاب وقف" على ما تعارف عليه الناس (أي وقفية مخطوطة ورقية).

كما توجد في حلب وقفيات حجرية يمكن اعتبارها اختصاراً يشير إلى وقفية مخطوطة أخرى خاصة بالمبنى تذكر في النص الحجري، مثل وقفيتا أبو سعيد طغرل أتابك الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب[٦٤]، اللتان نص فيهما على إيجاد التفصيل في كتاب وقف المدرسة، أي أن عندنا لنفس المبنى الوقفية العادية المتعارف عليها ووقفية حجرية تكون في هذه الحالة بمثابة ملخص للوقفية الكاملة ودليل عليها بجانب

(٦٢) رقم (١) في الجدول رقم ٣ ، انظر:
Herzfeld, Inscriptions d'Alep, 1: 233.
كتابة رقم ١١١.

(٦٣) انظر المناقشة حول أركان الوقفية بأعلى.

(٦٤) رقمي ٥ و٦، في الجدول رقم ٣.

كونها بغرض النص على تأسيس المبنى. ويلاحظ وجود وقفيات حجرية من أقطار إسلامية أخرى[٦٥]، بها نفس هذا التفصيل، تماماً مثل الوقفيات الحلبية.

ومعظم أصحاب الأوقاف الحجرية في حلب من الأمراء، كما يدلنا الجدول رقم ٣، ولكن لدينا عدة وقفيات لافراد من الشعب[٦٦]، ولا توجد لدينا سوى وقفية واحدة لسيدة، وهي وقفية السيدة فاطمة خاتون بنت الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر، وقد وقفتها على رباط للسيدات الفقيرات، واللاتي كن يقمن فيها[٦٧]، وقد تنوعت الأصول الموقوفة في الوقفيات الحجرية الحلبية، إذ نجد الأراضي الزراعية[٦٨]، والدكاكين[٦٩]، والمنازل[٧٠]، ووقفاً لنقود من ثمن بيع الملح[٧١].

أما عن مصارف الأوقاف الحجرية في حلب فقد تنوعت من الوقف على المساجد والمدارس والأضرحة كما توجد وقفيات للصرف على الفقراء، إحداها للصرف تحديداً على الفقراء المغاربة المجاورين لضريح سيدي غوث[٧٢]، كما يوجد وقفية أخرى للصرف على الفقراء في منطقة أغلو بك[٧٣]، أما عن دعم المذاهب الفقهية، فتوجد لدينا وقفيتان لدعم المذهب الحنفي تحديداً حيث نصت على: الصرف على دارسي المذهب الحنفي فقط، وهي وقفية شاذبخت[٧٤] على المدرسة الشاذبختية، ووقفية أبي سعيد طغرل على المدرسة الأتابكية[٧٥]، وتوجد لدينا وقفية واحدة اشترطت أن يكون إمام وخطيب المدرسة شافعي المذهب وهي وقفية المدرسة السفاحية[٧٦]. كما اشتملت بعض الوقفيات الحجرية على تفاصيل أخرى غير الأركان الأساسية، فبعضها تضمن اسم الناظر على الوقف، ولدينا مثال واحد فقط

---

(٦٥) انظر:

Repertoire 14:196-170.

نقش رقم ٤٦٩٤، ضريح صدر الدين القونياوي، المشار إليه سابقاً.

(٦٦) مثل أصحاب الوقفيات أرقام ٨ و١٢ و١٤ و١٨ و٢١ في الجدول رقم ٣.

(٦٧) انظر وقفية رقم ١١ في الجدول رقم ٣.

(٦٨) الوقفيات أرقام ٢ و١١ و١٤ في الجدول رقم ٣.

(٦٩) الوقفيات أرقام ٤ و١٣ و١٤ في الجدول رقم ٣.

(٧٠) الوقفيات أرقام ١٨ و٢٠ و٢١ في الجدول رقم ٣.

(٧١) وقفية السيفي قصروه وهي الوقفية رقم ١٦ في الجدول رقم ٣.

(٧٢) الوقفية رقم ٢٠ في الجدول رقم ٣.

(٧٣) الوقفية رقم ١٩ في الجدول رقم ٣.

(٧٤) الوقفية رقم ٣ من الجدول رقم ٣.

(٧٥) الوقفية رقم ٦ من الجدول رقم ٣.

(٧٦) الوقفية رقم ١٥ في الجدول رقم ٣. انظر أيضاً طلس، الآثار الإسلامية، ص ١١٧-١١٨.

من حلب وهي وقفية فاطمة خاتون المشار إليها أعلاه[٧٧]، كما توجد لدينا وقفية حجرية حلبية واحدة ذكر بها أسماء الشهود وهي وقفية الحاج محمد بن أحمد بن نصربتاريخ ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م[٧٨].

وهناك سمة عامة لمعظم الوقفيات الحجرية الحلبية وهي الاختصار في المحتوي، مثل وقفية المدرسة السفاحية[٧٩] المؤرخة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م، (صورة رقم ٤)، وتوجد لدينا نماذج لوقفيات حجرية من أقطار إسلامية أخرى لا تعرف هذا الاختصار، لدرجة أن هذه الوقفيات تماثل في الطول ومقدار التفاصيل المدرجة بعض الوقفيات المخطوطة على الورق. من نماذج هذه الوقفيات الطويلة الوقفيتان المكتوبتان في المسجد الجامع في قزوين في إيران، فهما تختلفان عن الوقفيات الحجرية الحلبية في كون كل منهما وقفية غير مختصرة ومليئة بالكثير من التفاصيل، الأولى مكتوبة على كتابة شريطية زخرفية داخل الجامع تحت القبة[٨٠] والوقفية الثانية بنفس المبنى كتابة شريطية حائطية تبدأ من جهة المحراب على دائر الحوائط وتسجل لوقف بمكة المكرمة[٨١]. كما اختصت بعض الوقفيات الحجرية المعروفة لنا من فاس بالمغرب أنها وقفيات طويلة ومفصلة ومتعددة الأصول الموقوفة، وهناك عدة أمثلة لذلك مثل الوقفية من سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م، في مدرسة دار المخازن في فاس التي كتبت على لوحة من الرخام في أربعة وثلاثين سطراً[٨٢]، والوقفية الحجرية في مدرسة الصهريج في فاس من سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م، المكونة من إثنين وعشرين سطراً على لوحة من الأونيكس مقاس ٦٢×١٠٠ سم[٨٣] وكذلك الوقفية الحجرية في مدرسة العطارين في

---

(٧٧) وقفية رقم ١١ في الجدول رقم ٣. انظر أيضاً نماذج أخرى: (Repertoire. 11: 249)، النقش رقم ٤٣٨٠، كمثال آخر.

(٧٨) وقفية رقم ١٨ في الجدول رقم ٣.

(٧٩) الوقفية رقم ٩ في الجدول رقم ٣.

(٨٠) انظر Repertoire، ١٠٧-١١١: ٨، نقشان أرقام ٢٩٦٦، ٢٩٦٧، وتم دراستهما في:
Janine Sourdel-Thoumine. "Inscriptions Seljoukides et Salles á Couple de Qazwin en Iran" . Revue de Etudes Islamiques. 42-1974. 3-43.

وسوف يشار إليه فيما بعد:
Sourdel-Thomine . Inscriptions Seljoukides.

ونكرتا كذلك في: Grabar . Why Write 69.

(٨١) رقم ٢٩٦٧ في Repertoire، والنص المسمى "Inscription no. 3" في:
Sourdel-Thomine . Inscriptions Seljoukides 23-27.

(٨٢) انظر: (Repertoire. 14: 157)، النقش رقم ٥٤٤١.

(٨٣) انظر: (Repertoire. 14: 186)، النقش رقم ٥٤٨٠.

فاس المكتوبة على لوح من الرخام ٣٧×٨٩سم على إثنين وثلاثين سطراً[٨٤]. ومن الأمثلة الأخرى الجديرة بالذكر وقفية المدرسة المرجانية في بغداد المكتوبة على حوائط قاعة الصلاة في ستة أجزاء[٨٥]، وتعد من الوقفيات الحجرية الطويلة.

مثل هذه الوقفيات الحجرية بهذه التفاصيل والطول وبهذا العدد من الأسطر نماذج غير مألوفة في ما رأيته من الوقفيات الحجرية في الشام عموماً، وفي حلب خاصة التي اتسم معظمها نسبياً بالاختصار، فأكبرها يصل إلى تسعة[٨٦] أسطر، مع الأخذ في الاعتبار أن عدد الأسطر يتناسب مع المسطح المخصص لها وحجم الحروف المستخدمة، وإن كان بعضها يعامل على أنه نص تأسيسي بخط كبير، ويأخذ مكاناً بارزاً، مثل وقفية شهاب الدين طغرل من حلب (انظر صورة رقم ٣)[٨٧] السابق ذكرها، وهي إن كانت مختصرة، وتخلو من التفاصيل مثل الوقفيات السابق ذكرها، نظراً لوجود وقفية مخطوطة للمبنى كما ذكرنا من قبل، إلا أنها تغطي ثلاثة جوانب من المدخل الرئيسي للمدرسة السلطانية على خمسة أسطر بطول ثمانية أمتار كاملة، وكذلك وقفية السيفي قصروه[٨٨] فطولها أكثر من ثلاثة أمتار على ثلاثة أسطر (٣,٦٥ × ٠,٤٥م). ولا توجد لدينا في حلب نماذج لوقفيات مفصلة ومتعددة الأملاك الموقوفة مثل وقفيات فاس وقزوين وبغداد، ولكن توجد لدينا نماذج نادرة من ناحية طول الوقفية وكثرة التفاصيل في مناطق أخرى من الشام مثل الوقفية الحجرية في مدخل ضريح السلطان بيبرس في دمشق[٨٩]، ونموذج نادر آخرهو وقفية أقطرق الحاجب

---

(٨٤) انظر: (Repertoire. 14: 204)، النقش رقم ٥٥٠٠.

(٨٥) انظر: (Repertoire. 16: 186)، النقش رقم ٦٢٨٣ فضلاً عن وجود وقفيات حجرية أخرى في نفس المبنى. وانظر: (Repertoire. 16: 194)، النقش رقم ٦٢٨٤، وص ١٩٥، النقش رقم ٦٢٨٥، وانظر أيضاً:
M. Louis Massignon. Mission En Mesopotamie (1907-1908). Tome Second. Epigraphie et Topographie Historique. Mémoires Publies par les Membres de l'Institu Français d'Archéologie Orientale du Caire. 31. Le Caire. 1912 . 1-31. Pl. IV-XI.

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Massignon. Mission .

كما يوجد نص وقفي قصير للحوانيت الموقوفة عليها انظر: (Repertoire. 16: 196)، النقش رقم ٦٢٨٦، وكذلك نص وقفي آخر في خان أورتمه في بغداد الذي أوقف أيضا لنفس المدرسة انظر:: Repertoire. 16: 220، النقش رقم ٦٣٢٩.

(٨٦) وقفية أبو سعيد طغرل رقم ٦ في ملحق رقم ١.

(٨٧) الوقفية رقم ٥ في ملحق ١.

(٨٨) الوقفية رقم ١٠ في الجدول ١.

(٨٩) انظر: (Repertoire. 12: 229)، النقش رقم ٤٧٤٣.

بتاريخ ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، على تربته ومسجده المعروف بجامع السقرقية في طرابلس[٩٠] التي تعتبر نموذجاً غير مألوف في الشام من ناحية الطول وتنوع الموقوف، ولكنها أيضاً ليست بطول وقفيات فاس أو قزوين أو بغداد السابق ذكرها.

أما الوقفيتان الحجريتان في قلعة حلب[٩١] الموجودتان في مقام إبراهيم السفلي[٩٢] والمشار إليهما سابقاً، فهما وإن كانتا داخل قلعة عسكرية إلا أن مصارفهما مصارف دينية غير عسكرية. الوقفية الأولى من أواخر العصر الزنكي عندما قام شاذبخت[٩٣] بوقف قرية نوائل على نفس المقام في القلعة، وسجل لها وقفية على الحجر (صورة رقم ١)[٩٤] ويرجح أن يكون التاريخ ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، كما يدلنا النقش الحجري الموجود في نفس المقام[٩٥]

---

(٩٠) انظر: (Repertoire. 16: 215)، نقش رقم ٦٣٢٤، فضلاً عن أنه من النقوش الوقفية الطويلة هذا النص أيضاً: هو من النصوص القليلة التي تعطي تاريخ نقش الوقفية الحجرية ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م، وكذلك تاريخ كتاب الوقف ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م. لابد لنا أن نضيف أنه في طرابلس أيضاً توجد وقفية أطول منها وهي وقفية المدرسة الخاتونية المؤرخة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م، التي تعتبر "أطول الوقفيات على مساجد طرابلس". انظر بحث عمر عبد السلام تدمري، "الأوقاف الإسلامية في طرابلس الشام من وثائق الأرشيف العثماني وأهميتها في رصد حركة العمران"، بحث لم ينشر بعد قدم في هذا المؤتمر القيم: المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح العربي الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين ١٧-٢١ شعبان ١٤٢٧هـ / ١٠-١٤ أيلول ٢٠٠٦م، ٢٤-٢٥. علماً بأن هذه الوقفية خارج النطاق التاريخي للوقفيات التي حصرتها خارج حلب فيما توفر لي من مراجع (حتى ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م).

(٩١) انظر فيما سبق عن قلعة حلب.

(٩٢) مقام إبراهيم السفلي يتألف من رواق للقبلة وأمامه صحن مكشوف في وسطه بئر وفي ضلعه الغربي ثلاث حجرات (انظر شعث، قلعة حلب، ٧٢-٧٥ ويدعوه المسجد الصغير). وقد "كان به صخرة لطيفة تزار، ويقال أن إبراهيم الخليل (عليه السلام) كان يجلس عليها أيضا ولم يحقق من أنشا هذا المقام" (انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ص٤٠) ولكن لدينا نقش أثري:

Herzfeld. Inscriptions. d'Alep. 1:119.

كتابة رقم ٦٠. يشير إلى قيام نور الدين محمود بن زنكي بتجديده وزخرفته في سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م، كما أوقف عليه أوقافا (ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ص٤٠).

(٩٣) سمي نفسه بعبد الملك الصالح نور الدين أبو الفتح إسماعيل بن العادل نور الدين محمود الذي تولي بعد وفاة والده في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، ولم يبلغ الحلم وتولي تربيته مقدم العسكر شمس الدين بن المقدم. انظر: شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن إسماعيل الدمشقي ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، الشهير بأبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ج ، دار الجيل، بيروت بدون تاريخ،ج١، ص٢٣٠. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: أبو شامة، الروضتين.

(٩٤) وقفية رقم ٢ في الجدول رقم ٣، انظر:

Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1: 129.

كتابة رقم ٦٣ .

(٩٥) "أمر بعمارته الملك الصالح نور الدين أبو الفتح إسماعيل بن محمود بن زنكي بن أقسنقور ناصر أمير المؤمنين

والوقفية الأخرى[٩٦]، (صورة رقم ٢)، وهي عبارة عن لوح حجري مؤرخ سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م، على يسار الداخل إلى رواق قبلة المقام، وصاحب الوقف هو زين الدين محمد بن الشحنة قاضي قضاة حلب، وهو والد مؤرخ حلب المعروف محمد بن محمد بن الشحنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م - ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)[٩٧]. والوقفيتان للصرف على المقام ومصالحه وفرشه وإنارته، أي أن ما وقف للصرف ليس من أجل الصرف على القلعة نفسها أو من أجل غرض عسكري آخر أومن أجل نيل الثواب من الصرف على المجاهدين، ولكن من أجل غرض ديني بحت من أجل مسجد تصادف وجوده داخل القلعة.

ومن نماذج الوقفيات الحجرية الشامية المماثلة لهاتين الوقفيتين، أي رصد وقف لغرض ديني بجانب قلعة حربية عدة وقفيات من العصر المملوكي البحري عند حصن الأكراد قرب طرطوس[٩٨]، حيث سجل وجود عدة وقفيات حجرية في القرية التابعة له، فنجد أولاً وقفية

بتولي العبد شانبخت في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م". يلاحظ أن الكتابة منقوشة على لوحة ٨٢×٥٠ سم نقلت من مكانها الأصلي، ووضعت على السور الخارجي المجدد للمقام. انظر:

Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1: 128.

كتابة رقم ٦٢.

(٩٦) انظر:

Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1:131.

كتابة رقم ٦٦، مقاس ٨٠ سم× ٤٧ سم مكتوب على أربعة اسطر من الخط النسخ المملوكي.

(٩٧) صاحب كتاب "الدر المنتخب في تأريخ حلب" وعدة مؤلفات أخري. والشحنة بكسر الشين اسم للمرابطين من الجنود والنسبة إليه شحني وشحنية واشتقاقها من شحنت البلد بالجند أي ملأته بها. اسمه محمد بن محمد بن محمود بن الشهاب غازي بن أيوب بن حسام الدين محمود أبن الخنلو بن عبد الله وقد سافر مع والده إلى مصر ليدرس على يد عمه أبي البشرى عبد الرحمن الذي كان من مؤدبيه، وقد تلقب بعدة ألقاب وكنى منها: محب الدين وأبو الفضل، وشمس الدين، وأشتهر بلقب ابن الشحنة نسبةً إلى جده حسام الدين محمود، وقد تولي مهنة التدريس في عدد من مدارس حلب وتولى قضاء العسكر في حلب، ثم تولى بعدها قضاء حلب على المذهب الحنفي جامعاً بينها وبين وظيفة كاتب السر، كما تولى النظر في جيش حلب وقلعتها بجانب الاشراف على الجامع النوري وقد دفن في نواحي تربة الظاهر برقوق في القاهرة عن عمر ناهز خمسةً وثمانين عاماً. انظر محاضرة علاء أبو الحسن إسماعيل العلاق، مركز أحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، القاضي ابن الشحنة الحلبي في:

http://www.aleppo-cic.sy/acic/magz/modules/AMS/article.php?storyid=85

وقد قام بوقف قرية أورم الكبرى، وهي قرية معروفة قرب حلب. انظر:

Herzfeld. Inscriptions d'Alep. 1:131.

(٩٨) المعروف أن هذا الحصن استولي عليه الصليبيون ثم أصبح من معاقلهم القوية، ولم يتم الاستيلاء عليه إلا في عهد الظاهر بيبرس في ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، بعد حصار وقتال لمدة شهر ونصف، ثم تم الاهتمام به وبعمارته وإعادة تحصينه عدة مرات في الدولة المملوكية. الحديث عن هذا الحصن خارج نطاق بحثنا الحالي ولكن انظر: محمد على السوقي، سورية - قلعة الحصن تاريخياً-أثرياً-سياحياً، دمشق ١٩٩٩م، وأيضاً مصطفى طلاس،

حجرية في "الجامع الكبير"[٩٩] بتاريخ ٧١٩هـ / ١٣١٩م، على الحائط تسجل قيام بكتمر بن عبد الله الأشرفي نائب السلطنة في حصن الأكراد بإنشاء "هذه الزاوية"[١٠٠] ووقفها على الفقراء والمساكين، وأوقف عليها أراضي زراعية وعدة حوانيت[١٠١]. وهناك تكملة لهذه الوقفية على عتب شباك[١٠٢]، وبنفس التاريخ وفي نفس المبنى هناك وقفية حجرية أخرى على عتب تسجل لإنشاء ووقف "هذا المكتب المبارك" على تعليم عشرة أيتام ووقف على ذلك أرض "حسبما شرح في كتاب الوقف"[١٠٣]، وهناك أيضاً في أحد المنازل في قرية حصن الأكراد عدة وقفيات حجرية أخرى موقوفة على بيمارستان إنشاء بكتمر بن عبد الله الأشرفي نائب السلطنة الذي أوقفه على مرضي المسلمين "المقيمين والواردين"[١٠٤]، ولنفس البيمارستان

ومحمد وليد جلاد، قلعة الحصن – حصن الأكراد، دار طلاس، دمشق ١٩٩٠م، وأيضاً انظر:
Benjamin Michaudel. "Le Crac de Chevalier. quintessence de l'architecture militaire mamelouke". Annales Islamologique. 38-2004.

وانظر أيضاً:
Max Van Berchem(314/921). Edmond Fatio. Voyage En Syrie. Tome Premier. L'Institut Français d'Archeologie Orientale. Le Caire 1914. 135-164.

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Van Berchem. Voyage

والجدير بالذكر أن النقوش الآتي بيانها لم تذكر في هذا المراجع، وهذه النقوش كانت موجودة في القرية لصيقة الحصن والتابعة له ومسماة باسمه، فيشير فان برشم (Van Berchem. Voyage) في ص ١٣٥، إلى أن منازل القرية كانت ممتدة حتى أصبحت جزءاً من الحصن وذلك عند زيارته في ربيع ١٨٩٥م، وانظر أيضاً:
Max Van Berchem. (314/921). Dexiume Partie. Syrie. Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicum. L'Institut Français d'Archeologie Orientale.Le Caire. 12. 1909. 25-36

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: Van Berchem . MCIA 2 ، والذي يذكر هذه الوقفيات الحجرية ضمن باقي النقوش التي رصدها.

(٩٩) هو الجامع المشار إليه في Van Berchem. Voyage ، ١٦٣، رسم رقم ٨٨، ويشير إلى أنه كان كنيسة وحوله السلطان بيبرس إلى مسجد، ويقع فيما سمي بـ: "حارة السراية"، في قرية قلعة الحصن. أما (Repertoire. 14:137)، فيشير إلى مكان النقش رقم 541 على أنه في "الجامع الكبير". انظر أيضاً:
Van Berchem. 25-27 . MCIA 2

(١٠٠) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٧م، ١٦٩، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: عاشور، عهد سلاطين المماليك، الذي يشير على أن ألفاظ الخانقاه والرباط والزاوية قد تشابهت على المعاصرين في العصر المملوكي "ولم يستطيعوا التفرقة بين هذه الألفاظ الثلاثة".

(١٠١) انظر: (Repertoire. 14:137-138)، نقش رقم ٥٤١٣.

(١٠٢) انظر: (Repertoire. 14:139)، نقش رقم ٥٤١٥.

(١٠٣) انظر: (Repertoire. 14:139)، نقش رقم ٥٤١٢.

(١٠٤) انظر: (Repertoire. 14: 139)، نقش رقم ٥٤١٤.

قامت السيدة مريم زوجة ابن المسروري بوقف ١٤ سهماً من أحد البساتين وحانوتين[١٠٥]، ويلاحظ أن كافة هذه الوقفيات لم تسجل أي مصرف على غرض عسكري حتى ما وقفه نائب السلطنة وصاحب الحصن نفسه، فضلا عن أن كافة النقوش الموجودة في الحصن لا توجد بها إشارة إلى أوقاف عليه[١٠٦].

من المناقشة السابقة يمكننا أن نستخلص أن الوقفيات الحجرية هي من الوقفيات التي لم تاخذ نصيبها من الدراسة، وانها كانت وسيلة لإشهار الوقف بدأت أولا في مصر ثم انتشرت في بلاد الشام، وخاصة في دمشق وحلب، وقد زادت زيادة كبيرة بدءاً من العصر الأيوبي وذلك كنوع من إشهار الوقف وحفظاً له من الاستيلاء أو الضياع أو التدمير، وقد انتقلت هذه الوقفيات الحجرية إلى بعض الأقطار الإسلامية الأخرى، ولكن تظل الشام تحظى بأكبر عدد من هذه الوقفيات الحجرية التي يتصف معظمها بالاختصار والقصر، كما يوجد منها ما يشير إلى كتاب وقف مفصل. تشكل هذه الوقفيات الحجرية توثيقاً مهماً لتاريخ المباني الموقوفة في الشام ورصداً للتفاعل الاجتماعي لأصحاب الأوقاف، وهي وسيلة مهمة لتأكيد الأحداث التاريخية وتاريخ تطورالأوقاف حسب ما رويت في المصادر. ولكي تكتمل دراسة هذا الموضوع فإنه يجب أولا إضافة أي وقفيات أخرى لم يتم توثيقها من قبل، ثم دراسة الوقفيات الشامية الأخرى وخاصة تلك الموجودة في دمشق صاحبة النصيب الأكبر من الوقفيات، كما يتعين مضاهاة كل هذه الوقفيات الحجرية بمثيلاتها الورقية لنفس المبنى إن وجدت.

---

(١٠٥) انظر: (Repertoire. 14: 141)، نقش رقم ٥٤١٧.

(١٠٦) انظر:

Van Berchem . MCIA 2. 14- 25.

للكتابات الأخرى في الحصن. أمثلة الصرف على غرض غير عسكري في قلعة حربية لم تقتصر على الوقفيات الحجرية في الشام، ففي الوقفية الورقية الخاصة بالسلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م)، على مدرسته عند باب زويلة بالقاهرة (انظر وقفية السلطان المؤيد شيخ على المدرسة عند باب زويلة، المؤرخة ١ رجب ٨٣٠هـ، صورة في مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، رقم: (DT96.M215X 1909)، هناك إشارة وحيدة عن صرف على مؤدب للأيتام، حيث يزيد من اختصاصات هذا المؤدب بإضافة مسؤولية الإشراف والصرف على تعليم "خمسة عشرة يتيماً ومؤدباً لهم بعلم المؤدب المذكور"، وذلك بقلعة القاهرة "المحروسة"، وهذا مصرف غير عسكري، وإن كان جزءا من المصارف المتعارف عليها في الوقفيات عموماً، ولكن اللافت للنظر هو النص على تعليم أيتام في قلعة القاهرة، وليس الإنفاق على أي مطلب عسكري فيها، وهذا مماثل لحالة لوقفية ابن الشحنة في حلب ووقفية شاذبخت.

صورة رقم ١

وقفية شاذبخت في قلعة حلب، بتاريخ ٥٧٥هـ / ١١٧٩م في الأغلب

صورة رقم ٢

وقفية ابن الشحنة في قلعة حلب بتاريخ ٨١١هـ / ١٤٠٨م

صورة رقم ٣

وقفية أبو سعيد طغرل بن عبد الله الملكي الظاهري، المدرسة السلطانية ٦٢٠هـ/١٢٢٣م

صورة رقم ٤

وقفية المدرسة السفاحية ٨٢٨هـ/١٤٢٥م

كتاب وقف فاطمة خاتون
دراسة تحليلية

غيداء عادل خزنة كاتبي*

أعطى نظامُ الوقفِ دعماً مادياً للمجتمعات، شمل النواحي الاجتماعيةَ والثقافيةَ والصحيةَ.

والوقفُ عامةً، نوع من أنواع التصرف في الملك الشخصي، يحوله الواقف إلى مال شبه عام، وهو لغة الحبس والمنع[1]، أي حبس عين الوقف، سواء كانت عقاراً أي أرضاً، وهذا هو

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، الأردن.

(١) الخصاف، أحمد بن عمرو (ت٢٦١هـ/ ٨٤٧م) كتاب أحكام الوقف، مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٩٠٤م، ص١٩- ٣٣، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الخصاف، أحكام الوقف. المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان (ت٨٥٥هـ/ ١٤٨٠م): الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، جمعه وحقّقه محمد حامد الفقي، ط١، القاهرة، مطبعة السنّة المحمدية، ١٣٧٤- ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٥- ١٩٥٨م، (١٢) جزءاً، ج٧ص٣، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: المرداوي، الانصاف. الحجاوي، موسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم (ت٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م)، مختصر المقنع، الرياض، المؤسسة السعيدية، القاهرة، مطابع الدجوي، ١٩٨١، ص١١٢- ١١٣، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد:- الحجاوي، مختصر. الهيثمي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي (ت٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م):- تحفة المحتاج بشرح المنهاج، مصر، المطبعة الوهبية بباب الشعرية، ١٢٨٢هـ/ ١٦٨٥م، (٤) أجزاء، ج٢ص٣١٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الهيثمي، تحفة. الشربيني، محمد بن أحمد (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م):- مُغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، (على متن المنهاج لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٣٣م (٤) أجزاء، ج٢ص٢٧٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: بالشربيني، مُغني. وانظر: التهانوي، الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي (ت١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م)، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت، مكتبة خيّاط، ١٩٦٦م، ج٦ص٤٩٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: التهانوي، كشاف. الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م):- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ط١، السعودية، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، (٩) أجزاء، ج٦ص١٢٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الشوكاني، نيل. الكتاني، محمد بن عبد الحي (ت١٩٦٢م)، نظام الحكومة النبوية "المسمى التراتيب الإدارية"، نشر حسن جعنا، بيروت، جزءان، ج١ص٤٠١، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الكتاني، التراتيب.

الأصل في الوقف[٢]، أو منشآت عقارية، وتسبيل[٣] المنفعة، أي صرفها لجهات الوقف[٤]، فيخصص ريعها لأعمال البر والخير، أو للإنفاق على الواقف ثم على أولاده وفقاً لشروط الواقف نفسه[٥].

ومع أنّ بدايات الوقف جاءت مبكرة، مع بدايات الدولة الإسلامية، حيث كان للصحابة أوقافٌ عديدة[٦]، إلاّ أنّ التوسع الأكبر للوقف كان في أيام المماليك[٧]، إذ وجدوا

(٢) المرغيناني، برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل (ت٥٩٣هـ/ ١١٩٦م): الهداية، شرح بداية المبتدي (وكلاهما للمؤلف)، مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت، (٤) أجزاء، ج٢/ ص٢٥٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: المرغيناني، الهداية، الشربيني، مُغني، ج٢ص٣٧٧- ٣٧٨.

(٣) التسبيل، السبل، السبيل، الطريق وما وضح منه، وسبّل ضيعته: جعلها في سبيل الله، وفي حديث وقف عمر: احبس أصلها وسبّل ثمرتها أي اجعلها وقفاً وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥م، (١٥) جزءاً، مادة سبل، ج١١ص٣٢٠. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: ابن منظور، لسان.

(٤) الخصاف:- أحكام الوقف، ص٣٨- ٥٤، ٩١- ١٠٣، ١٠٤- ١٢٤. الحجاوي، مختصر، ص١١٢- ١١٤. ابن النجار، محمد بن أحمد بن عبد العزيز (ت٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م): منتهى الإرادات في جمع المقنع من التنقيح وزيادات، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، القاهرة، دار العروبة ودار الجيل للطباعة، ١٩٦٢م، جزءان، ج٢ص٣. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد:- ابن النجار، منتهى. الكوهجي، عبد الله بن الشيخ حسن الحسن (كان حياً عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، زاد المحتاج بشرح المنهاج، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ط١، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٢م، الأجزاء ١-٤، ج٢/ ص٤١٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الكوهجي، زاد.

(٥) عليش، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد (ت١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م): فتحُ العليّ المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، مصر، مطبعة مصطفى البابي، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، جزءان، ج٢، ص٢٤١، ٢٤٨، ٢٥٧- ٢٦٠. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: عليش، فتح.

(٦) ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن القرشي البغدادي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م):- صفوة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي، ط٢، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، (٤) أجزاء، ج١ص٤٧٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: ابن الجوزي، صفوة. ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن محمد (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، المغني في شرح الخرقي، بعناية جماعة من العلماء، مصر، مطبعة المنار، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، طبعة بالأوفست، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج٦ص١٨٥، ٢٣٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: ابن قدامة، المغني.

(٧) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٣، ق١، ٢، تحقيق يحيى عبادة، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨م. ج٥، تاريخ لبنان وفلسطين والأردن، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٦٢م.
تاريخ لبنان، ص٢٣٧- ٢٣٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: ابن شداد، الأعلاق. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الآفاق الجديدة،

في نظام الوقف طريقاً للمحافظة على أملاكهم، وتأمين مورد مالي دائم لهم ولأولادهم يُنص عليه صراحة في وثيقة الوقف[٨].

ويظهر من المعلومات الخاصة بالوقف آنذاك، أنّ الأوقاف توزعت بين أنواع الوقف المعروفة، سواء وقف خيري أو وقف أهلي أو وقف مشترك (خيري- أهلي) إلى جانب الوقف المخصص للإنفاق على الأماكن الدينية[٩].

وتمثل الوقفية الواردة بعنوان: " كتاب وقف فاطمة خاتون" وتاريخها ٩١٠هـ / ١٥١٦م[١٠]، وهي صورة عن النسخة المحفوظة بدائرة الأوقاف الإسلامية بدمشق[١١]، والتي أوقفتها "ذات الستر الرفيع، والحجاب المنيع، زين الخواتين،... الست المخدرة المحجبة الكبرى، والسيدة المكرمة المحترمة العظمى، المصون حجابها عن العيون "فاطمة خاتون" بنت ركن السلطنة... "محمد بك" ابن ذي المقام الشريف، السلطان الملك الأشرف "قانصوه الغوري" بوكالة شرعية[١٢] إلى زوجها صاحب السيف والقلم... ناظورة ديوان الوزارة، عين أعيان السيادة والإمارة، مؤسس مباني الدولة السلطانية، أمير الأمراء "مصطفى باشا الوزير"، تمثل نموذجاً كاملاً وواضحاً لنوعية الوقفيات المشتركة (خيري- أهلي)، بل كانت الأكثر توضيحاً وتفصيلاً في هذا الإطار، حدد وكيل الواقفة مصادر الوقفية بدقة، وهي (أراضٍ ومنشآت عقارية) ووجوه الإنفاق فيها.

ولعل عمل جداول بمصادر الوقف، كما وردت في كتاب الوقفية، قد تكون مفيدة لتوضيح نوع الوقف، طبيعته، وحدوده.

د.ت، (٨) أجزاء، ج٥ص٣٥٠. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: ابن العماد، شذرات.

(٨) عبد العزيز الدوري، دور الوقف في التنمية، مجلة المستقبل العربي، العدد (٢٢١، تموز / يوليو) ١٩٩٧م، ٧ ١٩٩٧، ص٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الدوري، دور الوقف.

(٩) محمد عيسى صالحية، سجل أراضي فلسطين العربية: صفد، نابلس، غزة وقضاء الرملة، دفتر رقم ٣١٢، تاريخه ٩٦٤هـ، ط١، عمان ١٩٩٩م، ص٧٠. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد صالحية، سجل.

(١٠) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٣٥.

(١١) حكمت المحكمة الشرعية بدمشق بصحتها ووجوب العمل بمضمونها بموجب إعلام شرعي مؤرخ في (٥) شعبان ١٣٤٠هـ / ٢ نيسان ١٩٢٢م، سجل (٧)، صحيفة (١٦٥)، عدد ١٤٠٤، ومصدق من محكمة التمييز العليا في (١٣) رمضان ١٣٤١هـ / ٢٩ نيسان ١٩٢٣م.

(١٢) جواز الوكالة في الوقف: انظر السرخسي، شمس الدين محمد بن سهل (ت٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) كتاب شرح السير الكبير لمحمد بن حسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجد، وعبد العزيز أحمد، منشورات معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية، ١٩٧١م، (٦) أجزاء، ج٥ص٢١٢١- ٢١٢٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد : السرخسي، شرح السير. الخصاف، أحكام الوقف، ص٢٠١- ٢٠٤.

ويتضمن الجدول رقم (١) الوقفيات التي انتقلت إلى ملك الموكلة (فاطمة خاتون) من جدها، بمقتضى استبدال شرعي ثابت[١٣]، مرتبة على الألوية، كما يلي:

(١٣) عن الاستبدال في الوقف: انظر: الخصاف، أحكام الوقف، ص٢٥. الكبيسي، محمد عبيد الله عبد الله، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٧م، ج٢ص٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الكبيسي، أحكام الوقف. أبو العينين، بدران، أحكام الوصايا والأوقاف، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٧٧م، ص٣٠٣- ٣٠٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: أبو العينين، أحكام الوصايا. أحمد إبراهيم بيك، كتاب الوقف وبيان أحكامه، مكتبة عبد الله وهبة، مصر، ١٩٤٣، ص١٢١- ١٢٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: أحمد إبراهيم، كتاب الوقف.

جدول رقم (١)

اللواء	الناحية	القرية / المزرعة	ما اشتملت عليه القرية	حدود القرية	منشآت عقارية أخرى داخل القرية
أ- اللجون[١٤]		قرية جنين[١٥]	تشتمل على "معتمل ومعطل، سهل ووعر، أقاصي وداني، وصير[١٦] وبيادر[١٧]، ودمنة[١٨] عامرة برسم سكن فلاحيها. وعين ماء يسقي ما تحكم عليه من أراضيها"[١٩].	"حدودها أربعة: من الشرق ناحية غاية الجرن الخرنوبة[٢٠] ويمتد شمالاً إلى السدرة، إلى مسيل الماء الشتوي الجاري من ناحية بيت قان. ومن الغرب: إلى الطريق السلطانية وغاية أرض خرنوبة، ومن الشمال: الأسلول[٢١] المتصل بالمسيل المزبور الفاصل بين أراضي جنين وأراضي خرنوبة، يمتد مغرباً إلى الدرب السلطاني الجاري من الحلمة إلى وادي دون"[٢٢].	جميع الحمام الكائن في قرية جنين. ويشتمل على ما يلي: "مسلخ بمساطب مستديرة به لوضع الثياب عليها وأرضيّة وبركة للماء، ووسطاني وبيت حرارة بأجرنة، وخلاوي وقدر نحاس لتسخين الماء، يعلوه مستوقد باقميم الحمام المذكور..."[٢٣].

(١٤) اللجون: تقع بين حيفا وجنين، تبعد عن حيفا ٣٤كم، وتبعد عن جنين ١٨كم، واللجون مجموعة من أربعة أقسام صغيرة على مقربة من بعضها بعضاً. انظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، منشورات دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٣م، ج١، ق١ / ٢١٢. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الدباغ، بلادنا فلسطين. آمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣، ص٢٤٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: آمنة، موسوعة.

(١٥) جنين: مدينة فلسطينية تقع شمال فلسطين يحدها من الشمال بيسان والناصرة وحيفا، ومن الشرق بيسان ونابلس، ومن الجنوب نابلس وطولكرم، ومن الغرب حيفا وطولكرم، تشمل مدينة

اللجون		قرية جنين			جميع الدكاكين في القرية المذكورة (جنين) وعددها: "عشرون دكاناً، ويشتمل كل منها على داخل وفناء وأغلاق وحقوق شرعية..."[٢٨].
ب- صفد[٢٤]	الجيرة[٢٥]	قرية خرفيش[٢٦]	"وتشتمل على أراضي معتمل ومعطّل، سهل ووعر، وأداني (هكذا) وبيادر، وغاياتي (هكذا) مصايف ومشاتي، ودمنة عامرة برسم سكنى فلاحيها".	حدودها أربعة: "من القبلة: مرزرعة الحصون، ومن الشرق: أراضي القباطية، ومن الشمال أرض القرشلية، ومن الغرب وادي الحبس[٢٧].	

جنين اليوم على سبعين قرية صغيرة وكبيرة. انظر:- البخيت، محمد عدنان، الحمود، نوفان، رجا، دفتر مفصل لواء اللجون (طابو / دفتر ١٨١)، عمان، ١٩٨٩م، ص١٤، ٤٦ وسيشار إليه عند وروده فيما بعد:- البخيت / الحمود، دفتر مُفصل. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣ / ٩-١١.

(١٦) الصِّيرُ: الماء يحضره الناس. وصيرة وجمعها صير: حظيرة تتخذ للدواب من الحجارة وأغصان الشجر. انظر ابن منظور، لسان العرب، ج٤ ص٤٧٧، ٤٧٩.

(١٧) بيادر: الموقع الذي يداس فيه الطعام (الحبوب)، ابن منظور، لسان العرب، ج٤ ص٥٠.

(١٨) دمنة: وهي الأرض القريبة من الدار والتي ينبت فيها الكلأ يُرى له غُضارة وهو وبيء المرعى. ابن منظور، لسان العرب، ج١٣ ص١٥٨.

(١٩) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٤.

(٢٠) ن.م. ص٤

(٢١) الأسلول: وادواسع، وقيل موضع فيه شجر. ابن منظور، لسان العرب، ج١١ ص٣٤٠، ٣٤١.

(٢٢) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٤.

(٢٣) ن.م. ص٥.

(٢٤) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٥.

صفد	الجيرة	جميع قرية السيارة[٢٩]	نظير ما اشتملت عليه قرية خرفيش[٣٠].	حدودها أربعة: "من القبلة أراضي المنصورة، ومن الشرق الشريعة[٣١]، ومن الشمال: حجر الحمل، وادي رد (هكذا)، ومن الغرب: أراضي اللوزية والأجرار[٣٢]... وتمام المرج[٣٣] الذي به الأجران والصليب"[٣٤].	

(٢٥) صفد:- مدينة فلسطينية تقع شمال فلسطين تبلغ مساحتها ١٤٢٩ دونماً، وترتفع ٨٣٨ متراً عن سطح البحر، وتبعد عن مدينة القدس ١٩٩ كم عن طريق كفر طابور، و ٢٠٨ كم عن طريق طبريا. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ ص١٥٧ - ١٥٨. وفاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة ٩٥١ - ٩٧٣هـ / ١٥٤٤ - ١٥٦٦م، ص٣٦٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: بيات، بلاد الشام.

(٢٦) ناحية الجيرة: اشتملت على ولاية صفد، والنصف الشرقي من ولاية الشاغور، الطراونة، مملكة صفد، ص١٣٧.

(٢٧) خرفيش:- ولعلها حرفيش:- وهي قرية من قرى صفد، وتقع إلى الشمال الغربي منها. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ص١٥٨. ٢٠٠. محمد إبشرلي ونميله، أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الإسلامية، إستانبول، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص٧٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: إبشرلي، أوقاف وأملاك، (وقد وردت عنده بلفظ "عرفيش ودفيش"). آمنة، موسوعة، ج٢ ص٥٢٣

(٢٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٥.

(٢٩) السيارة: قرية من قرى وادي الأردن إلى الجنوب من جسر يعقوب. انظر: الطراونة، مملكة صفد، ص٩٢.

(٣٠) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٦.

(٣١) الشريعة: هو نهر الشريعة وينبع من جبل الشيخ الغربي والجنوبي، ويصب في بحيرة الحولة. انظر عنه: عبد القادر، حسن، جغرافية فلسطين، جامعة القدس المفتوحة، ط١، ١٩٩٥م، ص٤١ - ٤٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد:- عبد القادر، جغرافية فلسطين.

خمار، قسطنطين، موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٩، ص١١، ٢٢، ٢٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: خمار، موسوعة فلسطين.

هدسون، جيمس، جغرافية فلسطين المحتلة (١٩٤٨ - ١٩٦٧م)، الناشر مركز الأبحاث، بيروت ١٩٦٩م، ص٤٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: هدسون، جغرافية فلسطين. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ق١ ص٦٣ - ٦٦. الطراونة، مملكة صفد، ص٧٩.

صفد	الجيرة	جميع مزرعة المنصورة[٣٥]	مشتملة على أراضي معتملة ومعطلة، سهل ووعر، وحقوق شرعية[٣٦].	حدودها أربعة: "من القبلة: مشرع ماء العين والجرن الذي ثنه السوادية، ومن الشرق الشريعة ومن الشمال: أراضي السيارة ومن الغرب قوبا والصليب"[٣٧].	

(٣٢) اللوزية: وردت باللويزية، وهي قرية من قرى ولاية شقيف في ظاهر كفر رمان الشمالي الشرقي. انظر: آمنة، موسوعة، ج٢، ص٣٨. الطراونة، مملكة صفد، ص١٠٨.

(٣٣) المرج: بالفتح ثم السكون والجيم، هي الأرض الواسعة وفيها نبت كثير، تمرج فيه الدواب (أي تذهب وتجيء)، والمرج أيضاً المكان المعشب الندي نو الخضرة الدائمة، ومنها مرج بني عامر الفلسطيني الذي يفصل جبال الجليل عن جبال نابلس وجبل الكرمل. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ق١ ص٥٠ – ٥٢. الطراونة، مملكة صفد، ص٧٧. هدسون، جغرافية فلسطين، ص٢٠.

(٣٤) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٦.

(٣٥) المنصورة: قرية فلسطينية من قرى صفد، تبعد عن ساحل البحر ١٠ كم إلى الجنوب من صور، تقع على نهر بانياس بالقرب من الحدود السورية، ترتفع عن سطح البحر مائة متر. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦ / ص٤٩ – ١٥٠. الطراونة، مملكة صفد، ص١٣٧.

(٣٦) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٦.

(٣٧) ن.م. ص٦.

صفد	الجيرة	جميع مزرعة الحسينية[٣٨].	نظير ما اشتملت عليه مزرعة المنصورة[٣٩]	حدودها أربعة: "من القبلة الدرب السلطاني السالك إلى سيدي وقّاص رضي الله عنه، ويمتد شرقاً إلى مسيل ماء	

(٣٨) الحسينية: قرية فلسطينية صغيرة من قرى صفد، تقع إلى الشمال الشرقي منها، إلى الشرق من قرية كفر حارس، ترتفع عن سطح البحر ١٤٥ متراً. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦ / ص١٤٩ - ١٥٠. الطراونة، مملكة صفد، ص١٠٤، ١٠٥، ١١٨. آمنة، موسوعة، ج٢ / ٥٣٦.
Hutteroth. W-A. Abdulfattah. k. Historical Geography of palestine. Transjordan and Southern Syrian the Late 6th Century. Erlangen 1977. p.178. Hutteroth وسيشار إليه عند وروده فيما بعد:

(٣٩) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٦.

صفد	الجيرة	جميع مزرعة الحسينية		بين قرية كفرا[٤٠] والحسينية ثم يمتد إلى الرجم ثم إلى عامود أبيض عال بواسطة الجرن، ومن الشرق: السدرة الفاصلة بين كفرا والحسينية والتليل[٤١]، ثم يمتد إلى عامود أسود هو جنب السدرة، ومن الشمال: يمتد من السدرة إلى العامود الأبيض الكدّان، ثم يمتد شمالاً إلى غيلانة بجانب الوادي ممتد إلى الرجم الكبير الذي بين التليل وبين الحسينية، ثم يمتد مشرفاً إلى الغيلانة التي بين الميعصرة[٤٢] والتليل والحسينية، ثم يأخذ شمالاً إلى معاوطات. ومن الغرب: المجرورة[٤٣]، ثم يأخذ مغرباً إلى جهة القبلة واصلاً إلى الجرن الأبيض الفاصل بين القرية وبين الحسينية، ثم يمتد إلى المجرورة التي هي شمالي الدرب السالك الآخذ إلى المسيل"[٤٤].	

(٤٠) كفرا:- قرية فلسطينية تقع شمال بيسان بين الطيبة وكوكب الهوى، ترتفع ١٧٥ متراً عن سطح البحر. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٦ ص٥١٢.

(٤١) تليل:- قرية من قرى صفد، تقع على الساحل الشمالي الشرقي لبحيرة الحولة. انظر:- الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ق١ ص١٥٨، ج٦ / ١٦٧. الطراونة، مملكة صفد، ص٩١..Hutteroth p: 178

صفد	تبنين[٤٥] وبشارة[٤٦]	جميع قرية عيناتا[٤٧]	"نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم نكرها"[٤٨].	"حدّها من القبلة: مقلب الماء الفاصل بين قريتي عيناتا وقرية بيت حسل[٤٩] الآخذ إلى بيت الميدان استواء، ثم يمتد شمالاً إلى مفرق الطرق الأربعة السالكة إلى القدس[٥٠] الشريف. ومن الشرق: الجبل المعروف بالوسطاني[٥١] ثم يمتد إلى اليوم ويعرف بثغر جون، ثم يأخذ من مشاريق حاتوب مزار آخذاً شمالاً إلى مجرى الماء النازل الفاصل بين النقعة. ومن الشمال: الدرب السالك إلى روبة ويمتد إلى الوادي الآخذ مغرباً إلى كفرين[٥٢]، ثم يمتد إلى حلة فصوص. ثم يأخذ مغرباً إلى رباع الملوك ثم إلى جبل مزرعة، ومن الغرب: السكة السلطانية الآخذ إلى بيت أبي جليل وكفرميل[٥٣] وبين أبي طالب"[٥٤].	

(٤٢) المعيصرة: قرية فلسطينية من قرى صفد، تقع على الشاطىء الجنوبي الغربي لبحيرة الحولة. انظر: الطراونة، مملكة صفد، ص٩٤.

(٤٣) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٧.

(٤٤) ن.م. ص٧.

(٤٥) تبنين:- تقع شمال بلدة بنت جبيل على بعد ١٢ كم منها في لبنان الجنوبي، ترتفع نحو ٨٦٠ متراً عن سطح البحر، وتبعد عن صور ٢٠ كم إلى الشرق. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ق١ ص٥٦٧، ج٥ ص١٢٢، ج٦ ص٢٠. الطراونة، مملكة صفد، ص٩٥-٩٦ (وعنده ترتفع تبنين ألف متر عن سطح البحر).

صفد	تبنين وبشارة	جميع مزرعة صردا وأراضيها[٥٥]	"نظير ما اشتملت عليه المزارع المتقدم ذكرها"[٥٦]	"حدها من القبلة: الدرب البانياسي الفاصل بين قريتي ممصيا وصردا المذكورة، ويمتد مشرقاً إلى أصول نظم (بطم)، وسلسلة حجارة رومانية يفصل بين قريتي لوزنة وصردا، ومن الشرق: النهر الفرعوني، ومن الشمال: سلسلة حجارة رومانية متصلة بوادي سنون يفصل بين أراضي قرية الدوير وصردا، ويمتد مغرباً إلى جهة الشمال بين منه وصردا، ومن الغرب: الدرب السالك الآخذ في وسط أراضي رصفة يفصل بينهما سلسلة"[٥٧].	

(٤٦) بشارة:- منطقة في شمال فلسطين وجنوب لبنان، استقلت مدة تحت حكم ظاهر عمر ١٧٥٠ - ١٧٧٤ م. انظر: محمد محمد حسن شرّاب، معجم بلدان فلسطين، الأهلية للنشر، عمان، ١٩٩٦م، ص١٥٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: محمد شراب، معجم بلدان.

(٤٧) عيناتا: قرية فلسطينية تتبع صفد، تقع إلى الشمال الشرقي من بنت جبيل بنحو ٢كم. انظر: الطراونة، مملكة صفد، ص٩٩. إبشرلي، أوقاف، ص٧٣. الدومنكي، أ.س. مرمرجي، بلدانية فلسطين العربية، مطبعة جان دارك، بيروت، ١٩٤٨م، ص٤٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الدومنكي، بلدانية فلسطين، Hutteroth;p.179

(٤٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٧.

(٤٩) بيت حسل: قرية من قرى صفد تبعد عنها ٧ كم إلى الشمال الشرقي منها. انظر: عيد حجاج، كل مكان وأثر في فلسطين، الناشر مركز الدراسات العبرية، الجامعة الأردنية، عمان، ط١، ١٩٩٠م، ج١ / ٢٣٨؛ وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: عيد حجاج، كل مكان وأثر.

(٥٠) القدس الشريف: العاصمة السياسية والدينية لفلسطين، لها أهمية دينية عند المسلمين واليهود والمسيحيين، تقع في منتصف جبال القدس على ارتفاع ثمانمائة متر عن سطح البحر المتوسط وحوالي ١١٥٠ م عن سطح البحر الميت. انظر: خمار، قسطنطين، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى عام ١٩٤٨م، المؤسسة العربية للدراسات،

صفد	تبنين وبشارة	جميع مزرعة حورتا[٥٨] وأراضيها	نظير ما اشملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: مشرع الماء الفاصل بينها وبين التل إلى وادي اللوز، ومن الشرق: أراضي صردا، ومن الشمال: العين عند العليقة من المرج، ومن الغرب: الدرب السالك الآخذ إلى جسر خردلا .	

بيروت، ١٩٨٠م، ص٦٢، ٦٩، ٧١، ١٩١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: خمار، أسماء الأماكن. عيد حجاج، كل مكان وأثر، ج١ / ٣٦٦ وما بعدها. محمد شرّاب، معجم بلدان، ص٩٦ وما بعدها. عمر ديارنة وهنا شرّاب، مدن وقرى فلسطين، دار اليراع للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٤م، ج١ / ١-٥٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: عمر ديارنة، مدن وقرى، محمود برهوم ومحمد خروب، قاموس القرى الفلسطينية إبان الانتداب البريطاني، عمان، ط١، ١٩٩٠م، ص١٠ وما بعدها، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: برهوم، قاموس القرى.

(٥١) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٧.

(٥٢) كفرين: من قرى فلسطين، تقع في قضاء حيفا إلى الجنوب الشرقي منها، وترتفع ٢٥٠ م عن سطح البحر. انظر: خمار، أسماء الأماكن، ص٢٠٧. محمد شرّاب، معجم بلدان، ص٦٣١.

(٥٣) كفرميل: قرية فلسطينية من قرى قضاء بيسان. انظر: خمار، أسماء الأماكن، ص٢٠٦.

(٥٤) كتاب فاطمة خاتون، ص٧.

(٥٥) ن.م. ص٧.

(٥٦) ن.م. ص٧.

(٥٧) ن.م. ص٨.

(٥٨) حورتا: قرية فلسطينية من قرى صفد. انظر: خمار، أسماء الأماكن، ص٨١ ووردت عنده بـ(حورة).

(٥٩) انظر توثيق (٣٢) من البحث، ص٨.

(٦٠) المرج الفوقاني: جزء من المرج الفلسطيني ويشمل مرج جبل الكرمل وسهل عكا. انظر: عيد حجاج، كل مكان وأثر، ج٢ / ٦٣٣. خمار، موسوعة فلسطين، ص١٢٩ - ١٣٠.

(٦١) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٨.

(٦٢) عكا: مدينة فلسطينية تقع على ساحل البحر المتوسط إلى الشمال من مدينة حيفا على خط ٣٣E شمال خط الاستواء، وإلى الجنوب منها خليج عكا، وتمتد من شمال حيفا إلى رأس الناقورة. انظر: آمنة، موسوعة، ج٢ / ٦٢٨. محمد شرّاب، معجم بلدان، ص٥٣٩ وما بعدها.

صفد	تبنين وبشارة	جميع مزرعة قربا وأراضيها	نظير ما اشتملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أراضي اللوزية[٥٩]، ومن الشرق أراضي حورتا والمرج الفوقاني[٦٠] ومن الغرب: باب المضيق بغرة بيت صفر"[٦١].	
صفد	عكا[٦٢]	جميع قرية بِروة[٦٣]	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة أراضي تل كيسان[٦٤] مع العواميد الحجارة، ومن الشرق: أراضي المغير مع الدرب الفوقاني، ومن الشمال: الخرنوبة والجرد، ومن الغرب، قطعة السلطان وعواميد الصلبان"[٦٥] .	

(٦٣) قرية بروة: قرية فلسطينية من قرى عكا إلى الشرق منها بـ٨كم. انظر: آمنة، موسوعة، ص٦٤٨. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ق١ ص١٤٦. الطراونة، مملكة صفد، Hutteroth, p; .113 190. محمد شراب، معجم بلدان، ص١٥٦.

(٦٤) تل كيسان. قرية صغيرة فلسطينية من قرى عكا. انظر: عمر ديارنة، مدن وقرى، ج٤ / ١٠٦. محمد شراب، معجم بلدان، ص٢٢٧.

(٦٥) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٩.

(٦٦) طبرية: مدينة فلسطينية تقع في الجليل الأسفل تقع على خط ٥٧٤٥ وخط عرض ٣٢ في القسم الأوسط من نهر الأردن، وتقع على البحيرة المعروفة باسمها، وتنحصر بين الجبل والبحيرة في طريق الغور الغربي من جهة الشمال، وهي بمنتصف المسافة بين دمشق والقدس، تنخفض عن مستوى البحر ٢٠٩ م. انظر: آمنة، موسوعة، ج٢ ص٥٤٢-٥٤٣. عيد حجاج، كل مكان وأثر، ج١ ص٣٣٦. محمد شرّاب، معجم بلدان، ٤٩٨ وما بعدها. الدومنكي، بلدانية فلسطين، ص١٤٣-١٤٧.

(٦٧) قيراط: معناه قسم من أربعة وعشرين قسماً، وقد تكون للمكاييل أو الأرض أو قسمة المتحصل بحيث يكون كامل القسوم (٢٤) سهماً وقيراط يعني سهم واحد. انظر: فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠، ص٤٤، ٦٨، ٩٨، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: فالترهنتس، المكاييل والأوزان.

صفد	طبرية[٦٦]	جميع الحصة الشائعة وقدرها النصف أي (١٢) قيراطاً[٦٧] من أصل (٢٤) قيراطاً من قرية مجيدل[٦٨].	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها.	"حدها من القبلة: قصعة حجر يلي طربنا ثم يمتد شمالاً إلى أراضي حنجار ويمتد إلى مسيل الماء الذي من الشرق عين حمامة، ثم يمتد شمالاً إلى المصلا وبيت صليب قطعة الحديد، ومن الشرق: يمتد شمالاً إلى القصعة التي تلي يافا وإلى الغر، ثم يمتد مغرباً إلى النخلة، ثم يتخذ إلى مسيل الماء ويليه قطعتان من حجر، ثم يمتد العمدان مغرباً إلى الدرب السالك، ويمتد إلى الدرب المعروف بأوفانية الذي يتصل بالجون وعيون المرجان، ومن الشمال: سلول والبلاط والصخر الذي يأخذ بين خسفين وبين المجيدل، ثم يمتد	

(٦٨) مجيدل: قرية من قرى الناصرة، تبعد عنها ٨كم إلى الغرب منها، وتبعد ٣١ كم عن حيفا. انظر: الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١ / ق١ ص١٧٤. الطراونة، مملكة صفد، ١٢٨. إبشرلي، أوقاف، ص٧٥. خمار، أسماء الأماكن، ص٢١٣. محمد شرّاب، معجم بلدان، ص٦٥٠.

(٦٩) أراضي طربنا: هي الآن قرية في الأراضي السورية، تتبع محافظة السويداء، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، (٥) أجزاء، ط١، مركز الدراسات العسكرية، ١٩٩٢م، ج٤، ص١٩٣. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: المعجم الجغرافي السوري.

(٧٠) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٩.

(٧١) قرية أكسال: قرية من قرى الأردن بينها وبين طبريا خمسة فراسخ من جهة الرملة ونهر أبي فطرس. انظر: الدومنكي، بلدانية فلسطين. ص١٣، طه الطراونة، مملكة صفد، ص١٢٠، وعنده: أكسال قرية من قرى طبريا تبعد عنها (١٥) ميلاً، وتقع إلى الجنوب الشرقي من الناصرة. محمد إبشرلي، أوقاف، ص٧٤. خمار، أسماء الأماكن، ص٢٥. محمود برهوم، موسوعة القرى،

صفد	طبرية			مشرقاً من البلاط إلى الخرنوب والقصعات الثلاثة التي بها، ثم إلى السلول وإلى الدرب السالك. ومن الغرب: يمتد إلى عين سدود ثم إلى وادي ثم يمتد قبلة إلى أراضي طربنا[٦٩] التي من غربي الماء إلى السدود"[٧٠].	
صفد	طبرية	جميع قرية اكسال[٧١]	المشتملة على جميع ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أراضي قرية سل[٧٢]. من الشرق: أراضي قرية دبور[٧٣]، ومن الشمال: أراضي قرية الناصرة[٧٤]، ومن الغرب: الطريق"[٧٥].	

ص١٢٣.

(٧٢) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٩.

(٧٣) قرية الدبور: قرية من قرى أريحا في الغور الأوسط. انظر: خمار، أسماء الأماكن، ص٩٢.

(٧٤) الناصرة: تقع في شمال فلسطين داخل الجليل الأدنى، وترتفع ٤٠٠م عن سطح البحر و ٣٠٠م عن سهل مرج بن عامر، تحيط بها جبال الجليل الأدنى ومنها جبل طابور، وجبل النبي سعين وجبل الرّحى وجبل الشيخ. انظر: محمد شراب، معجم البلدان، ص٧٠٢ وما بعدها. محمود برهوم، موسوعة القرى، ص١٢٣.

(٧٥) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٠.

(٧٦) دمشق: انظر عنها: المعجم الجغرافي السوري، ج٣ ص٣٥٠ وما بعدها. كمال موريس شربل، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٣٢ وما بعدها. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: بشربل، الموسوعة الجغرافية

(٧٧) إقليم الشومر: انظر: Bakhit. M.A. The Ottoman Province of Damascus. p.79.

(٧٨) قرية زيرية: قرية سورية تقع على جبال اللانقية تتبع ناحية تالين، منطقة بانياس محافظة طرطوس، تشرف شمالاً على وادي أوشع. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٣، ص٥٥٠.

(٧٩) البوتيرة: قرية من قرى الجزيرة العليا تتبع ناحية اليعربية. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٢ ص٣٧٧.

(٨٠) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٠.

دمشق[٧٦]	إقليم الشومر[٧٧]	جميع قرية زريرية[٧٨]	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: البوتيرة[٧٩]، ومن الشرق: مغارة حمزة، ومن الشمال: مجرى الماء، ومن الغرب مغارة الماء"[٨٠]	
دمشق	إقليم الشومر	جميع قرية أرزي[٨١]	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: النهر الجاري، ومن الشرق: البير والتلنير، ومن الشمال: البير والعين، ومن الغرب: الطاحون المعروفة بهارون[٨٢] والرصيف الممتد إلى وادي المطرية"[٨٣].	
دمشق	إقليم الشومر	"جميع الحصة الشائعة وقدرها الثمن (ثلاثة قراريط) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً، من جميع المزرعة وأراضيها المعروفة بمزرعة يهودية"[٨٤].	نظير ما اشتملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: نهر القاسمية ومن الشرق: أراضي الجزيرة وأراضي أزرية، ومن الشمال: أراضي خربة المطيرية[٨٥]، ومن الغرب: البحر"[٨٦].	

(٨١) قرية أرزي: قرية سورية غرب بلدة القحطانية على بعد ٢٠كم، يزرع فيها القمح والشعير والعدس بعلاً، والقطن والخضر وكروم العنب سقياً. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٢ ص٧١. وانظر: محمد الأرناؤوط، دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠، ص١٣٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: الأرناؤوط، الوقف.

(٨٢) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٠. قارن: الأرناؤوط، وقف ص١٣٥.

(٨٣) وادي المطرية: هو وادي يقع جنوب مدينة الحسكة، أقيمت عليه قرية المطرية. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٥ ص٢٨٩ – ٢٩٠.

(٨٤) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٠.

دمشق	إقليم التفاح[٨٧]	جميع الحصة الشائعة وقدرها الثمن (ثلاثة قراريط) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع المزرعة وأراضيها المعروفة بمزرعة (قندفانة) [٨٨].	نظير ما اشتملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: الماء النازل من العارية، ومن الشرق: أراضي العزبة، ومن الشمال: أراضي الحارة، ومن الغرب: الدرب إلى صيدا"[٨٩].	
دمشق	إقليم الخرنوب[٩٠]	جميع قرية باسايا[٩١]	نظير ما اشملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"وحدها من القبلة: الحجر الكبير المثقوب، ومن الشرق: الحجر الأحدب.ومن الشمال: جرن فلو المقتد، ومن الغرب مقلب السوادي (السواقي)" [٩٢].	

(٨٥) قرية المطيرية: خربة أثرية تقع في منطقة دوما في محافظة ريف دمشق على حدود البادية السورية. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٢٥٥.

(٨٦) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٠.

(٨٧) Bakhit. M. A. The Ottoman Province of Damascus, p: 78..

(٨٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٠.

(٨٩) صيدا: قرية في حوران، تقع في أرض خصبة وسط نقرة حوران، قليلة التضاريس شرقاً، تلالية متموجة غرباً، على بعد ١٢ كم إلى الشرق من درعا. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص١٦٥. أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج٣ص٨٤٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: أبو عبيد، معجم.

(٩٠) Bakhit. M.A. The Ottoman Province of Damascus, p: 77

(٩١) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١١.

(٩٢) ن.م. ص١١.

دمشق	إقليم الخرنوب	"جميع الحصة الشائعة وقدرها (ستة قراريط ونصف قيراط) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع القرية وأراضيها المعروفة بقرية جور"(٩٣).	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"وحدها من القبلة: النهر الشارد، ومن الشرق: مجرى الماء الممتد إلى الرصيف، ومن الشمال: عين المغيرة مع الصلبان المنقورة في الحجر الأصم، ومن الغرب: البلاطة المذكورة، وعين المعلق إلى انتهاء الساقية"(٩٤).	
دمشق	إقليم الخرنوب	"جميع الحصة الشائعة وقدرها (اثنا عشر قيراطاً) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع المزرعة وأراضيها المعروفة بمزرعة الفخارة"(٩٥).	نظير ما اشملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"وحدها من القبلة: أراضي اشخير، ومن الشرق: كنلك أراضي شخير وتمام الساقية، ومن الشمال: أراضي ماجين، ومن الغرب أراضي اشحين"(٩٦).	

(٩٣) وقرية جور قرية (مزرعة) تتبع قرية أبو الشاعيب تبعد عنها ٥٠٠م إلى الجنوب الشرقي منها، و١١كم غرب مدينة تلكلخ. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٧١٩.

(٩٤) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١١.

(٩٥) الفخارة: قرية من قرى الجزيرة العليا تتبع ناحية تل حميس، منطقة القامشلي، وقد وردت بـ(الفخارية). المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٤٦٣.

(٩٦) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٢

دمشق	إقليم الخرنوب	جميع الحصة الشائعة وقدرها الثلث (ثمانية قراريط) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع المزرعة وأراضيها المعروفة بمزرعة حاكمية.	نظير ما اشتملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: قلاع البير، ومن الشرق: الدرب السالك، ومن الشمال: أراضي عانوت إلى البويدر، ومن الغرب: عين الحاكم"(٩٧).	
دمشق	إقليم الخرنوب	"جميع الحصة الشائعة وقدرها السدس (أربعة قراريط) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع القرية وأراضيها المعروفة بقرية (حصروت)" .	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: الطريق السالك، ومن الشرق: كفر بنا، ومن الشمال: مجرى ماء، ومن الغرب قنطرة العتيقة"(٩٨).	

(٩٧) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٢.

(٩٨) ن.م. ص١٢.

دمشق	إقليم الخرنوب	"جميع الحصة الشائعة وقدرها النصف (اثنا عشر قيراطاً) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع القرية وأراضيها المعروفة بقرية (معنية)[٩٩].	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: وادي سبلين، ومن الشرق: تل الهوا[١٠٠]، ومن الشمال: وادي عين الأسد[١٠١]، ومن الغرب: الوادي"[١٠٢].	

(٩٩) كتاب وقف فاطمة خاتون ص١٢، ١٣.

(١٠٠) تل الهوا: قرية في سهل حلب الوسطى، تتبع ناحية الراعي في منطقة الباب في محافظة حلب، تقع في أرض سهلية عند الحافة الجنوبية الشرقية لجبال بركانية، المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٥٦٩.

(١٠١) وادي عين الأسد أو (وادي العين)، وادسيلي في بادية الشام ناحية التبني، منطقة مركز محافظة دير الزور، يبدأ من الزاوية الشمالية الشرقية لجبل البشرى ويتجه نحو الشمال الشرقي لينتهي في وادي الفرات عند قرية الطريف على ارتفاع ٢١٠ م انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص٤٧٤.

(١٠٢) الوادي: ورد في المعجم السوري ثلاث قرى باسم الوادي، واحدة في ناحية القسطل في محافظة اللاذقية، وواحدة في هضبة حلب، وواحدة وسط كتلة البابر تتبع ناحية ربيعة في محافظة اللاذقية، ج٥ص٤٦٩- ٤٧٠.

دمشق	حمارة[١٠٣]	"جميع الحصة الشائعة وقدرها (اثنا عشر قيراطاً) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع القرى وأراضيها المعروفة بقرية (المجدل)"[١٠٤].	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها بكاملها من القبلة: أراضي الصعيدة[١٠٥] (السعيدة) يفصل بينهما الدرب السلطاني، ومن الشرق: الجبل وتمامة الوادي، ومن الشمال: أراضي عين الجسر يفصل بينهما الطريق السالك، ومن الغرب: نهر الخالد وتمامة الصعيدة (السعيدة)".	

(١٠٣) حمارة: قرية في الجزيرة العليا تتبع ناحية القحطانية في منطقة القامشلي، محافظة الحسكة، تقع في أرض سهلة يمر من غربها وادي الجرّاح على بعد ٢٤ كم إلى الجنوب الغربي من بلدة القحطانية، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص١١٨.

(١٠٤) المجدل: قرية في الجزء الغربي من هضبة حماة، تتبع ناحية مركز ومنطقة محردة في محافظة حماة، تقع على مرتفع كلسي ينحدر شمالاً ليتصل بسهول محردة، تبعد عن محردة ٥ كم باتجاه الجنوب الشرقي. انظر: المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص١٥٦. محمد عدنان البخيت، دفتر مفصل خاص أمير لواء الشام، عمان، ١٩٨٩م، ص٤٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: البخيت، دفتر لواء الشام. خمار، أسماء الأماكن، ص٢١٣. ومجدل: أيضاً قرية في فلسطين إلى الشمال الغربي من طبريا. انظر عمر دبارنة، مدن وقرى، ج٤ص١٣٥.

(١٠٥) السعيدة: قرية في الجزيرة السفلى، تقع على الضفة الشرقية لنهر الخابور، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٦٢٦.

دمشق	الغوطة[١٠٦]	"جميع الحصة الشائعة وقدرها النصف (اثنا عشر قيراطاً) من أصل أربعة وعشرين قيراطاً من جميع القرية وأراضيها المعروفة بقرية (كفر مديرة)" [١٠٧].	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها كاملها من القبلة: ينتهي إلى أراضي قرية عربيل[١٠٨] يفصل بينهما نهر الشميس[١٠٩]، ومن الشرق: أراضي قرية بيت سوا[١١٠] وتمامه أراضي قرية داعية[١١١]، ومن الشمال: أراضي قرية داريا الصغرى[١١٢] ومسرابا[١١٣]، ومن الغرب: قرية حرستا[١١٤] الزيتون وتمام الحد أراضي قرية عربيل"[١١٥].	

(١٠٦) انظر: Bakhit. M.A. The Ottoman province of Damascus, p: 48.

(١٠٧) كفر مديرة: قرية تقع في غوطة دمشق تتبع ناحية حرستا في محافظة ريف دمشق، تقع في أرض سهلية تكثر فيها الآبار والسواقي المتفرعة من نهر بردى، المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص ١٨٧.

(١٠٨) قرية عربيل (عربين) بلدة في غوطة دمشق، مركز ناحية، تتبع منطقة مركز محافظة ريف دمشق، تقع في أرض سهلية ضمن أراضي الغوطة الشرقية ذات الانحدار التدريجي نحو الشرق وهي إلى الشمال من مدينة دمشق على بعد ٦كم، المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٢٨١.

(١٠٩) نهر الشميس: نهر صغير يقع في محافظة حمص بالقرب من قرية الشميسة، المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٤٩ – ٥٠.

(١١٠) قرية بيت سوا: قرية في غوطة دمشق تقع إلى الشرق من بلدة عربين على بعد ٢كم وعن مسرابا حوالي ١،٥ كم. المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٤٠٧.

(١١١) قرية داعية: وردت في المعجم الجغرافي السوري بقرية داعي، وهي قرية تتبع محافظة حلب، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٤٤٤ – ٤٤٥.

(١١٢) قرية داريا: تقع في محافظة ريف دمشق، في أرض سهلية فسيحة تحيط بها الجبال من الشمال الغربي والجنوب، كانت تقسم إلى داريا الصغرى وداريا الكبرى، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٢٩٩ – ٣٠٠.

(١١٣) مسرابا: قرية في غوطة دمشق تتبع ناحية حرستا في منطقة دوما في محافظة ريف دمشق، تقع في أرض سهلية، تكثر فيها الآبار والسواقي المتفرعة عن نهر بردى، المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص٢٤٠.

(١١٤) حرستا: تقع في القسم الشمالي من الغوطة الشرقية، تتبع ناحية دوما في محافظة ريف دمشق، وتبعد (٧) كم شمال شرق مدينة دمشق. المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٤٢.

(١١٥) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٣.

جدول رقم (٢)

ويتضمن الجدول رقم (٢) الوقفيات التي انتقلت إلى ملك الموكلة بالإرث الشرعي عن والدها عن والده، من غير شريك لها فيه، مرتبة على الألوية:

اللواء	الناحية	القرية / المزرعة	نظير ما اشتملت عليه القرية / المزرعة	حدود القرية / المزرعة
دمشق	داراني[١١٦]	"جميع الحصة الشائعة وقدرها فدانان[١١٧]، من جملة أفدنة القرية وأراضيها المعروفة بقرية (داريا الكبرى)".		شهرة هذه القرية "تغني عن وصفها وتحديدها"[١١٨].

(١١٦) انظر: Bakhit. M.A. The Ottoman Province of Damascus. P: 44.

(١١٧) الفدان: مقياس المساحة المصري، وكان يساوي حتى عام ١٨٣٠م، ٢٣٣٣ قصبة مربعة، وبعد عام ١٨٣٠ أصبح يساوي ٨٣٣، ٤٢٠٠ متر مربع. فالترهنتس، المكاييل والأوزان، ص٩٨.

(١١٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٤.

حماة[١١٩]	بارين[١٢٠]	جميع قرية تل الذهب[١٢١]	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حد كاملها من القبلة: الطريق العام الآخذ من حماة إلى طرابلوس[١٢٢]، ومن الشرق: أراضي قرية حرينا يفصل بينهما رسم عتيق، وينتهي إلى عامود حجر أسود، وإلى أرض مزرعة سلب، وتمامه طريق آخذ من تل ذهب إلى قرية شحمة[١٢٣]. ومن الشمال: مزرعة دعنان يفصل بينهما النهر الشتوي، ومن الغرب أرض مزرعة قرمص[١٢٤]، يفصل بينهما سلسلة رومية وصير خربة قديمة، وتمامه سكر النهر العتيق الآخذ إلى طاحونة كفرلاها وينتهي إلى أرض مزرعة الخربة إلى قلع الأبيض والجبل"[١٢٥].

(١١٩) حماة: مدينة في وادي العاصي الأوسط، وهي مركز محافظة حماة، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص١٢٥ وما بعدها.

(١٢٠) بارين: مدينة سورية تقع بين حماة وحلب من جهة الغرب، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٧٧م، (٥) أجزاء، ج١ص٣٢٠. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: بياقوت الحموي، معجم البلدان.

(١٢١) تل الذهب: قرية في مرتفعات سلمية، يمر في منتصفها وادي المشيرفة. المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٥١١. عبد الودود محمد برغوت، لواء حماة في القرن السادس عشر، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس ص٨٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد: برغوت، لواء حماة.

(١٢٢) طرابلس: مدينة تقع الآن في لبنان، تبعد عن بيروت نحو ٨٣كم، تقع على شاطىء البحر المتوسط شمالي بيروت، شربل، الموسوعة الجغرافية، ص٣٤٧ وما بعدها.

(١٢٣) قرية شحمة: قرية في جنوبي حوران، تتبع ناحية مزيريب في منطقة محافظة درعا، تبعد عن بلدة مزيريب ٨كم جنوباً، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٢٣٥.

(١٢٤) قرمص: قرية تقع على السفوح الشرقية لجبل الحلو، وإلى الشرق من بلدة عوج على بعد ٥كم بلواء حماة. المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٥٤٠.

(١٢٥) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٥.

حماة	بارين	جميع الحصة الشائعة وقدرها (ثمانية عشر فداناً) من واحد وعشرين فداناً، من جميع قرية بورص[١٢٦]	نظير ما اشتلمت عليه القرى المتقدم ذكرها	"وحدها من القبلة أراضي موسى[١٢٧] الحولة، يفصل بينهما سلسلة رومية قبلي رام الماء العتيق. ومن الشرق: أرض قرية دير مقسمين يفصل بينهما الرجم الكبير الرومي. ومن الشمال: أراضي قرية دير مقسمين، ومن الغرب: أراضي مزرعة شقر وأراضي قرية تقدين[١٢٨]، يفصل بينهما رأس الجبل وتمامه رصيف رومي آخذ من قرية تقدين إلى قرية موسى الحولة.

(١٢٦) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٥.

(١٢٧) ن.م. ص١٥، قرية موسى الحولة: قرية في هضبة حماة تتبع ناحية حربنفسة، في منطقة مركز محافظة حماة، تقع على الطرف الشمالي لمنخفض تمر به بعض السيلات التي تنتهي إلى بحيرة سد الرستن، تبعد عن بلدة حر ٧كم باتجاه الشمال الغربي، المعجم الجغرافي السوري، ج٥ ص٣٧٢.

(١٢٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٥.

حماة	بارين	مزرعة تل مطامير[١٢٩]	نظير ما اشتملت عليه المزارع المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أراضي قرية كفرلاها[١٣٠]، يفصل بينهما سلسلة البيدر[١٣١]، ومن الشرق: طريق عام آخذ إلى طرابلوس، ومن الشمال كذلك طريق عام آخذ إلى طرابلوس، ومن الغرب: الرصيف الآخذ من مسياط إلى حمص"[١٣٢].
حماة	بارين	مزرعة سقيلب (٠) [١٣٣]	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أراضي مزرعة عزربا، يفصل بينهما جب يعرف بجب العرب، ومن الشرق: أرض قرية كفرلاها، وتمامه الرصيف الآخذ من مصيات إلى حمص. ومن الشمال: النهر الشتوي، ومن الغرب: أرض قرية الطيبة وينتهي إلى أرض قرية مرعين[١٣٤]، يفصل بينهما رجم مسمى برجم حرينا، وإلى الحجر الأبيض وتمامه مصطبة تعرف بمصطبة الإمارة"[١٣٥].

(١٢٩) ن.م، ص١٥.

(١٣٠) قرية كفرلاها: قرية في وعر حمص. المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص٦٢.

(١٣١) سلسلة البيدر: قرية في وادي الفرات تتبع ناحية الكرامة ومركز منطقة محافظة الرقة، المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٤٢٣.

(١٣٢) حمص: مدينة كبيرة في القسم الأوسط الغربي من القطر العربي السوري، وهي مركز محافظة حمص، تقع على طرفي نهر العاصي الأوسط، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص١٤٤.

(١٣٣) سقيلبية: ناحية في سهل الغاب تتبع منطقة الغاب بلواء حماة، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٦٣٣.

حماة	بارين	جميع قرية حربنفسا[١٣٦]	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أرض قرية كيسين[١٣٧] يفصل بينها الرجم الكبير الرومي وتمامه أرض مزرعة الدرهمية[١٣٨]،
				يفصل بينهما الرجم الكبير والجزيرة. ومن الشرق: أرض مزرعة تابوس، يفصل بينهما حجر كبير وسلسلة رومية، وتمامه أرض قرية دير مرامر [١٣٩]، يفصل بينهما الطريق العام الآخذ إلى طرابلس، ومن الغرب: أرض مزرعة مرحفية[١٤٠]، يفصل بينهما سلسلة رومية، وتمامه أرض كيسين".

(١٣٤) مرعين: ووردت في المعجم الجغرافي السوري (مرعيان)، وهي قرية في جبل الزاوية في محافظة إدلب، تقع فوق مرتفع كلسي يطل غرباً على وادي ذي قاع عريض، ج٥ص٢٠٥.

(١٣٥) المصطبة: قرية في جنوبي جبال اللاذقية تتبع ناحية حمين في محافظة طرطوس، المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص٢٧٩.

(١٣٦) قرية حربنفسا: بلدة في حوض العاصي، مركز ناحية تتبع منطقة مركز محافظة حماة، تقع على الطرف الشمالي لبحيرة سد الرستن، تبعد ٣٢كم جنوب غرب مدينة حماة، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٤٠. قارن: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢ص٢٣٦.

(١٣٧) قرية كيسين: قرية في حوض العاصي الأوسط، تتبع ناحية قرى مركز الرستن في محافظة حمص، تقع إلى الغرب من مجرى العاصي وجنوب بحيرة المواشي التي يشكلها سد الرستن، المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص١٠٤.

(١٣٨) مزرعة الدرهمية: مزرعة في هضبة البهلولية تتبع قرية الرفيعة في ناحية البهلولية مركز محافظة اللاذقية، تبعد عن البهلولية ٦كم، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٣٣١.

(١٣٩) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٦.

حماة		جميع الزور المعروف بـ(زور[١٤١] العكاري)	"مشتمل على عشرة بساتين مع جميع الغراس القائمة أصولـه بأرض الزور المذكور، ومع جميع عمارة الناعورتي	"حد جميع الزور المذكور من القبلـة: الطريق السالك وتمامـه قطعـة أرض عـدي، ومن الشـرق: النهر
			المذكور، ومع جميع عمارة الناعورتين الراكبتين على نهر العاصي[١٤٢] لمعدتين لسقي أراضي البساتين المذكورة، يغرف الماء من نهر العاصي إلى البساتين المذكورة"[١٤٣].	العاصي، ومن الشمال: كذلك، ومن الغرب طريق سالك"[١٤٤].

(١٤٠) مزرعة مرعفية: وردت في المعجم السوري بـ(مرحمية)، وهي مزرعة (قرية) في محافظة حلب تقع في الطرف الغربي لجبل الأحمص، المعجم الجغرافي السوري، ج٥ص٢٠٠.

(١٤١) الزورا ابتداء هو قطعة من الأرض محصورة ما بين سرير النهر والمرتفعات المتاخمة لها. برغوت، لواء حماة، ص٩١. أمّا مدينة الزور فهي في وادي الفرات، وهي مركز محافظة دير الزور، تقع في موقع اقتراب الحافة الصخرية للوادي (جبال الولي) من مجرى النهر، حيث يتفرع نهر الفرات إلى فرعين مشكل جزيرة نهرية (حويقة) يقوم عليها الآن جزء من المدينة، تقع إلى الشمال الشرقي من دمشق على بعد ٤٥٠كم، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٣٩٧.

(١٤٢) نهر العاصي: أهم أنهار بلاد الشام التي تنبع وتصب فيها، يجري غربي القطر العربي السوري ضمن ثلاث محافظات: حمص، وحماة، وإدلب، فلواء الإسكندرونة. أمّا تسميته فتعود إلى جريانه من الجنوب إلى الشمال مخالفاً بذلك اتجاه معظم أنهار القطر، ينبع من الجزء الشمالي لهضبة بعلبك في لبنان من عدّة ينابيع أهمها الهرمل ومغارة الراهب، يدخل الأراضي السورية في محافظة حمص وتصب فيه مياه عين التنور ويكوّن بعدها بحيرة قطينة وراء سد حديث أقيم عام ١٩٣٦م. وبعد اجتيازه هضبة حمص- حماة يدخل أراضي محافظة إدلب، وهنا ينتهي مجراه الأوسط، ثم يجري ضمن واديه الأدنى، حيث يجري في أراضي لواء الإسكندرونة لينتهي في خليج السويدية على المتوسط، المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٢٤٢ وما بعدها.

(١٤٣) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٧.

(١٤٤) ن.م. ص١٧.

(١٤٥) ن.م. ص١٧.

حماة		(قطعة الأرض العدية) الملاصقة إلى زور العكاري		"حدها من القبلة: طريق سالك، ومن الشرق ومن الشمال: كذلك ومن الغرب كذلك"(١٤٥).
حمص		جميع الحصة الشائعة وقدرها (النصف) من جميع قرية قصير زفرون(١٤٦)	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أرض مزرعة تل أحمر(١٤٧)، ومن الشرق: أرض مزرعة قصير، ومن الشمال: أرض مزرعة القبارية(١٤٨)، ومن الغرب:

(١٤٦) قرية قصير: بلدة في هضبة حمص الجنوبية الغربية، المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٥٧٢.

(١٤٧) تل احمر: قرية في سهول حلب الغربية في محافظة حلب تقع في أرض سهلية تنحدر ببطء نحو الجنوب، وتبعد ١ كم عن الحدود التركية، المعجم الجغرافي السوري، ج٢ص٤٦٧.

(١٤٨) القبارية (القبارة): مزرعة تقع في قرية الهويا في جبل العرب في محافظة السويداء، المعجم الجغرافي السوري، ج٤ص٥٠٩.

جدول رقم (٣)

ويتضمن جدول رقم (٣) ملكيات أخرى "لفاطمة خاتون" تملكتها بتبايع شرعي.

اللواء	الناحية	القرية / المزرعة	نظير ما اشتملت عليه القرية / المزرعة	حدود القرية / المزرعة
				أرض مزرعة جسيما، يفصل بينهما ساقية الماء الوسطى بين الحديـدة وبين القصير، وينتهي إلى أرض قرية الزراعة(١٤٩)، وتمامه الطريق العام الآخذ من حمص إلى بعلبك"(١٥٠).
نابلس	بني صعب(١٥١)	الحصة الشائعة وقدرها (النصف كاملاً) من جميع قرية (بيت جفا)(١٥٢)	نظير ما اشتملت عليه القرى المتقدم ذكرها	"حدها من القبلة: أرض صر(١٥٣)، ومن الشرق: كفر جمال(١٥٤)، ومن الشمال: كفر عبوس(١٥٥)، ومن الغرب: أراضي خوش"(١٥٦).

(١٤٩) قرية الزراعة: قرية تقع في جبل الأحمص في محافظة حلب، المعجم الجغرافي السوري، ج٣ص٥٤٥.

(١٥٠) بعلبك: مدينة لبنانية تقع في منطقة البقاع، تحيط بها من الشرق ومن الغرب سلسلتا جبال لبنان الشرقية والغربية، وهي مركز لقضاء بعلبك، شربل، الموسوعة الجغرافية، ص١١١ وما بعدها.

(١٥١) بني صعب: قضاء أحدثه العثمانيون عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، وجعلوا طولكرم عاصمة له، وقد بقي هذا الاسم يطلق على طولكرم حتى وقت متأخر، وقسم إلى مجموعات قروية، ومنها مجموعة قرى بني صعب أو الصعيبات، محمد شرّاب، معجم بلدان، ص Hutteroth, p 170 :١٣٩-١٤١، غنايم، زهير، وزميله، ولاية بيروت، ج١، لواء نابلس، ص١٩٣.

(١٥٢) بيت جفا: قرية من قرى نابلس تبعد عنها ٦كم، خمار، أسماء الأماكن، ص٤٦.

(١٥٣) أرض صرّ: هي الأرض ذات النبات الذي يضربه البرد فيحسنه، ابن منظور، لسان العرب، ج٢ص٤٢٨.

(١٥٤) كفر جمال: قرية عربية من قرى طولكرم تبعد عنها ١٠كم إلى الجنوب منها. انظر: خمار، أسماء الأماكن، ص٢٠٥. عمر ديارنة، مدن وقرى، ج٣ص١٤٣. عيد حجاج، كل مكان، ج١ص٤١٢.

(١٥٥) كفر عبوس: هي كفر عبوش، وهي قرية من قرى نابلس تقع شمال طريق نابلس- قلقيلية، تبعد عن نابلس ١٥كم إلى الغرب منها. انظر: خمار، أسماء الأماكن، ٢٠٥ وما بعدها. عمر ديارنة، مدن وقرى، ج٣ص١٤١. عيد حجاج، كل مكان وأثر، ج١ص٤٢٧.

	جميع بستان الفاخورة[١٥٧]	مشتمل على أشجار فواكه مختلفة الجنس، مع تحديد مواعيد السقي لها	"حد ذلك من القبلة: ينتهي إلى ملك عرس الدين خليل بن جبريل، ومن الشرق ينتهي إلى البيمارستان وطاحونة القيصرية، ومن الشمال: ينتهي إلى الدرب السالك، ومن الغرب: كذلك"[١٥٨].

(١٥٦) الأرض الخوش: هي الأرض ذات الزرع الأصفر الهزيل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١ ص٩١٩.

(١٥٧) بستان الفاخورة: أشجار مختلفة كانت تزرع في محلة الجوزة بين حارة القصبة وحارة القيسارية. صالحية، سجل، ج١ ص٢٠٧.

(١٥٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٨.

جدول رقم (٤)

ويتضمن جدول رقم (٤) منشآت عقارية ألحقها وكيل الواقفة بالوقفية، بالوكالة عن موكلته فاطمة خاتون، وهي كالتالي:

المنشآت العقارية	ما اشتملت عليه المنشآت	حدود المنشآت
(أ) "جميع المكان الكائن باطن دمشق... داخل باب كيسان والشرقي، بالقرب من بستان القط من التلة تابع محلة الجامع الجديد وحارة اليهود"(١٥٩).	"... ساحة سماوية كبيرة بها بيوت سفلية، محيطة البناء بها من جهاتها الأربع، لكل بيت منهامنافع ومرافق وطرق يتوصل إليه منها بالساحة المذكورة. وبئري ماء معينين، وثمان مرتفقات متلاصقات البناء بوسط الساحة المذكورة "ولكل بيت" فيها باب وشباك بواجهة حجارة بيض مربعة البناء، يفتح أبوابها إلى الساحة المذكورة، بحق ذلك من الماء المستمد جريانه من نهر القنوات إلى طالع الثلاج، بحارة الخراب(١٦٠)	حد ذلك جميعه من القبلة: الطريق وفيه البابين للبيتين المذكورين، وباب المسلخ المذكور. ومن الشرق: الطريق الآخذ من القبلة في التلة التي هي شمالي بستان القط وغيره إلى أن ينتهي إلى قطعة أرض لطيفة قسيم ذلك. ومن الشمال: البيوت بيد مستحقيها، ومن الغرب: الدخلة غير النافذة وفيها باب الساحة وباب الفرن المذكور وتمامه الطريق، وإليه يفتح أعلا من الحانوت المذكور(١٦١).

(١٥٩) كتاب وقف فاطمة خاتون ص٢٨.

(١٦٠) ن.م. ص٢٨.

(١٦١) ن.م. ص٢٩.

	بالقرب من ذلك الذي سيجدد جراره وإيصال الماء فيه إلى المكان المذكور ومرافقه. جميع أرض الدار الكبيرة الغربية من ذلك. كامل الفرن والدكان والمسلخ بالجهة القبلية والغربية من المكان المذكور، مع وصف كامل لهم. وجميع البيتين القبليين من ذلك كله وهما: شرقي يعلوه طبقة علوية، والبيت الثاني غربي، ولكل بيت منافع ومرافق وحقوق شرعية، وباب مربع البناء لطيف بواجهة من الحجارة البيض المنحوتة، يفتح كل واحد منهما إلى جهة القبلة وهما متلاصقان[١٦٢].	
(ب) جميع (المكان) السفلي والعلوي ظاهر مدينة دمشق... خارج باب الجابية، في محلة باب النصر بالقرب من تربة أولاد الواقفة الموكلة[١٦٣]	× يشتمل السفلي من ذلك على مخزن يصعد منه إلى العلوي المذكور، يشتمل على مساكن بمنافع ومرافق وحقوق شرعية، ولذلك جميعه منافع ومرافق وطرق وحقوق شرعية[١٦٤].	حدود أربعة: من القبلة المكان الفاصل بينه وبين فرن منجك ومن الشرق: الطريق، ومن الغرب: الطريق وإليه أغلاق ذلك[١٦٥].

(١٦٢) كتاب وقف فاطمة خاتون ص٢٨-٢٩.

(١٦٣) كتاب وقف فاطمة خاتون ص٢٩.

(١٦٤) ن.م. ص٣٠.

(١٦٥) ن.م. ص٣٠.

تحليل وقفية فاطمة خاتون

من عناصر الوقف الرئيسية: مصادر الوقف، ووجوه إنفاقه. وفي وقفية فاطمة خاتون، تم تحديد مصادر الوقف، ووجوه إنفاقه بوضوح.

مصادر الوقف:

تتضمن الجداول الأربعة معلومات عن مصادر الوقف، ويلاحظ أنّ مصادر وقف فاطمة خاتون كانت متعددة، فشملت أراضٍ ومنشآت عقارية تمثلت في قرى ومزارع.

أمّا القرى فكان عددها (٢٢) قرية، منها (١٢) قرية موقوفة بكاملها، أمّا الباقي، وعددها (١٠) فكانت موقوفة بحصص منها. في حين كان عدد المزارع (١١) مزرعة، منها (٧) موقوفة بكاملها، و (٤) موقوفة بحصص منها.

وتمثلت المنشآت العقارية في بيوت / مساكن، غير محددة العدد، إضافة إلى منشآت أخرى محددة العدد، تمثلت في دكاكين، كان عددها (٢٠)، فإذا أضيف إليها الدكان في المكان الكائن في باطن مدينة دمشق يصبح عددها (٢١)، وحماماً واحداً، وفرن عدد (٢)، ومسلخ.

ومن ناحية أخرى، حددت الوقفية مكان الوقف تحديداً دقيقاً، فربطته باللواء ثم بالناحية / الإقليم. ويظهر من الجداول الأربعة، أنّ الوقفية توزعت على ستة ألوية هي: اللجون، صفد، دمشق، حماة، حمص، ونابلس، وإن كان أكثرها متمركزاً في ألوية صفد ودمشق وحماة. وقد صاحب هذا الإجراء إجراء آخر غاية في الأهمية ألا وهو تحديد طبيعة الأراضي الموقوفة (معتمل ومعطل، سهل ووعر، عامر وخراب) كذلك توضيح حدودها من جهاتها الأربعة (القبلة، الشمال، الشرق، والغرب).

وجوه إنفاق ريع الوقف

أولى أصحاب الوقف موضوع وجوه الإنفاق جلّ عنايتهم، فتم تحديده في بعض الوقفيات، مع أخذ شروط الواقف بعين الاعتبار. وهي ملزمة في الغالب إلاّ في حال مخالفتها للشرع أو الإضرار بمصلحة الوقف والموقوف عليه. هذا إلى جانب وقفيات لم يذكر فيها وجوه إنفاق[١٦٦].

وفي وقفية فاطمة خاتون فقد تمّ تحديد وجوه إنفاق ريع الوقف لتشمل الجوانب

(١٦٦) عبد العزيز الدوري، دور الوقف، ص١١.

التالية:

- الإنفاق على إدارة الوقف.
- الإنفاق على وجوه الخير.
- الإنفاق على نفس الواقفة طوال حياتها ثم لأولادها من بعدها.

وقد خصصت الوقفيات الواردة في جدول (١) وجدول (٢) للصرف منها على الجوانب الثلاثة كما يلي:

- الإنفاق على إدارة الوقف:

- يصرف لمتولي الوقف[١٦٧] عشرون درهماً يومياً لقاء عنايته بالوقف ورعايته.
- يصرف لكاتب الوقف ستة دراهم يومياً[١٦٨].
- يصرف للجابي، أربعة دراهم يومياً.

أي ما مجموعه ١٠٨٠ درهماً سنوياً[١٦٩].

- الإنفاق على وجوه الخير: رتب للجامع في جنين مجموعة من الوظائف سواء كانت دينية أم خدمية، يجري على أصحابها رواتب كالتالي:

- خطيب الجامع ضمن شروط صاحبة الوقف، وله أربعة دراهم. وقد يتولى رئاسة الحفاظ القارئين ورئاسة القراء، مقابل درهم[١٧٠].
- إمامان ينتظم بهما أمر الجماعة، ويراقبان الصلوات الخمس في أوقاتها. لكل واحد منهم درهم.
- رئيس الحفاظ وله درهم.
- رئيس القراء وله درهم.
- مؤذنان لكل واحد منهما درهمان.
- أربعة من الحفاظ يقرؤن يوم الجمعة عشراً من الأعشار قبل الصلاة، ولكل واحدمنهم درهم في اليوم.
- عشرة من القرّاء لقراءة عشرة أجزاء من القرآن الكريم، لكل واحد منهم درهم

---

(١٦٧) متولي أوقاف فاطمة خاتون هو حسين بن عبد الله. كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٢٥.

(١٦٨) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص١٩.

(١٦٩) ن.م. ص٢٠.

(١٧٠) ن. م. ص٢٠.

واحد.

- قارىء سورة (عم) بعد العصر، وسورة النصر، وله درهم واحد.
- رجل صالح مستقيم، يفرّق الأجزاء في الجامع، ويجمعها بعد القراءة، وله درهم في اليوم.
- قيم الجامع وله ثلاثة دراهم.
- بوّاب الجامع وشعّاله، وله ثلاثة دراهم.
- بواب الحوش والمرتفقات بأسرها، وله ثلاثة دراهم[١٧١].

أي ما مجموعه ٦٨٠، ١٣ درهماً سنوياً.

ورتب للعمارة، التكية العامرة في جنين والتي فيها القوام والخدام، وظائف إدارية وخدمية، تجري عليهم رواتب كالتالي:

- شيخ العمارة، وينظر في أمر الطعام، وله ثلاثة دراهم.
- وكيل خرج العمارة، وله ثلاثة دراهم يومياً.
- كيلا دار[١٧٢] وله ثلاثة دراهم.
- حافظ الأنبار، وله ثلاثة دراهم.
- طباخ أستاذ، وله أربعة دراهم.
- تلميذ طباخ وله درهم واحد.
- دقاق الحنطة ومنقي الأرز، وله ثلاثة دراهم يومياً.
- رجل بناء لترميم الأبنية وطرق الماء والعمائر بالتكية العامرة والجامع في جنين. وله ثلاثة دراهم يومياً.
- تخصيص خمسة دراهم لثمن شمعتين وحصير وزيت وقناديل لأجل الجامع وحجرات المسافرين، ومجموع ذلك كله ١٠٠٨٠ درهماً سنوياً [١٧٣].

وقد تم ضبط الوظائف وأربابها بمتابعة حثيثة من متولي الوقف، وهذا هو شرط الواقف[١٧٤].

وشرط وكيل الواقفة، مخصصات عينية تصرف على العمارة كالتالي:

---

(١٧١) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص ٢٠- ٢٢.

(١٧٢) كيلادار: حافظ المؤونة

(١٧٣) ن. م. ص ٢٤.

(١٧٤) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٢٢- ٢٣ .

- خمسة وعشرون طاس من المرق المعروف عند الناس بالشوربا فيها من اللحم: ثلاثة أرطال[١٧٥] لحم ضأن. ومن الأرز، رطلان، أو من الحنطة، رطل، حسب شروط الواقف. وتقدم على العشاء يومياً، للفقراء العاجرين والمحتاجين، وللطارئين على العمارة من الآفاق.
- للخبز، سبعة أمنان[١٧٦] من الدقيق، ويجعل رغفاناً، ثم يعطى رغيف واحد للفقير.
- للحطب، حطب الطعام، خمسة وعشرون مناً.
- من الملح، ربع من.
- من الحمص، من واحد يومياً[١٧٧].

• الإنفاق على نفس الواقفة:

- اشترطت وقفية فاطمة خاتون، إنّ ما فضل من ريع الوقف، يصرف لها بمفردها لا يشاركها فيه مشارك مدة حياتها، ومن بعدها لأولادها الذكور والإناث غير المتزوجات، على الفريضة الشرعية "للذكر مثل حظ الأنثيين"[١٧٨]. فإنّ تزوجن سقط استحقاقهن وعادت حصتهن لإخوتهن[١٧٩] ثم من بعدهم لأولادهم وأولاد أولادهم وأعقابهم على الفريضة الشرعية "للذكر مثل حظ الأنثيين"، فإذا تزوجت إحداهن بأجنبي خارج عن ذرية الواقفة فلا استحقاق لها ولا لأولادها. ويعتبر في الاستحقاق، القرابة إلى الموكلة الواقفة وزوجها، من جهة الآباء لا من جهة الأمهات. فإذا انقرضوا بأجمعهم يصرف الفاضل لمن يوجد من ذريتهم من أولاد الإناث وإن كان آباؤهم من الأجانب. وفي حال انقراض نسل الواقفة، فلا يبقى لها أولاد ولا ذريّة ولا نسل، فعند ذلك يصرف فاضل الوقف على تلاوة أجزاء من القرآن الكريم في تربة أولاد الواقفة الكائنة في ظاهر دمشق الشام خارج باب الجابية، عن روح الواقفة وزوجها وأولادهما ونسلهما وذريتهما من غير تعيين،

---

(١٧٥) الرطل: هناك اختلاف بين الرطل القدسي والدمشقي، أو رطل الرملة وعكا، مثلاً رطل القدس يساوي ٨٠٠ درهم= ٢,٥ كغم، في الرملة ٧٤٣ درهماً= ٣٢١، ٢كغم. دمشق: رطل دمشق ٦٠٠ درهم= ٨٥، ١ كغم. انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان، ص٣٣ .

(١٧٦) المن: يساوي شرعاً رطلين، كل رطل ١٣٠ درهماً. انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان، ص٣٦، ٤٥.

(١٧٧) كتاب فاطمة خاتون، ص٢٥ .

(١٧٨) النساء / آية ١١

(١٧٩) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٢٥- ٢٦. قارن: الشوكاني، نيل، ج٦ص١٣٨- ١٤٠ .

فإن لم يبق أحد منهم، صرف لتلاوة الأجزاء بتربة أولاد الواقفة[١٨٠].

ومن جهة أخرى، فقد خصص ريع الوقفيات الواردة في جدول رقم (٣) للصرف منها على تربة أولاد الواقفة كما يلي:

- يخصص عشرة أنفار لقراءة عشرة أجزاء كاملة من كلام الله، بعد صلاة الصبح تحت قبّة ضريحي أولاد الواقفة، حتى يختموا القرآن في ثلاثة أيام، ويصرف لهم خمسة عشر درهماً ونصف درهم يومياً.
- قناديل وحصيرة للتربة المذكورة، وخصص لها درهم في اليوم.
- تخصيص المكان السفلي والعلوي، ليسكن خادم التربة من أجل العناية بها[١٨١].

وبذلك يكون مجموع نفقاتها هو (٥٧٦٠) درهماً سنوياً.

وقد تضمنت هذه الوقفية إشارة إلى محاولة الرجوع عنها، من قبل وكيل الواقفة، على اعتبار أنّ الوقف كالعارية، يتصدق الواقف بمنفعتها ويستردها متى أراد ذلك[١٨٢]. ولما كانت هذه الإشارة مألوفة لدى العديد من الوقفيات، فيبدو أنها كانت إحدى السبل للتأكيد على صحة الوقفية ولزومه[١٨٣]، بمعنى أنها لا تباع ولا تملك ولا توهب ولا تورث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة عدد من الشهود يتقدمهم أحمد بك كتخداي دفتر الشام[١٨٤].

---

(١٨٠) كتاب وقف فاطمة خاتون، ص٢٦- ٢٨ .

(١٨١) ن. م. ص ٣٠-٣١ .

(١٨٢) ن.م، ص٣١- ٣٤ .

(١٨٣) عن موضوع لزوم الوقف انظر: السرخسي، شرح السير، ج٥ص٢١٠٩، الكبيسي، أحكام الوقف، ج١ص١٩٨- ٢٠٠، أبو العينين، أحكام الوصايا، ص٢٦٤- ٢٧٠، ٣٠١- ٢٠٢ .

(١٨٤) كتخداي: رئيس الهرم الإداري في المجموعات المختلفة، عسكرية مهنية اجتماعية، بيات، بلاد الشام، ج١ص٣٨٥. وانظر: الصالحي، محمد بن كنان (ت١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) يوميات شامية، صفحات نادرة من تاريخ دمشق في العهد العثماني، ١١١- ١١٥٣هـ/ ١٦٩٩- ١٧٠٤م، تحقيق أكرم حسن العلبي، دار الطباع للطباعة والنشر، د.ت، ص٥٨٨ .

وقف المرأة في لواء دمشق
في القرن العاشرالهجري/ السادس عشر الميلادي

أسماء رمضان الشيخ خليل*

مقدمة:

تعبر هذه الدراسة عن أوقاف النساء المتبقية حتى القرن (١٠هـ/ ١٦م) في لواء دمشق، وستكون أساساً لدراسة تطور الأوقاف في العهد العثماني، كما تعرض هذه الدراسة الصورة الحقيقية لمشاركة المرأة الحضارية الإنسانية في تلك الحقبة، وتحاول أن تبين العوامل المؤثرة في اتجاهات المرأة نحو الوقف، وفي شروطه وستنهج الدراسة الأسلوب التحليلي لوقف المرأة وستطرح تساؤلات عدة، حول ذلك.

تعد دفاتر الأوقاف الموجودة في دار الوثائق التابعة لرئاسة الوزارة في أستانبول من أهم المصادر العلمية والتاريخية، إذ تقدم الصورة الحقيقية لمشاركة المرأة في الأوقاف، ويعود السبب في ذلك إلى الفترة الواسعة التي تغطيها دفاتر الأوقاف، التي تمّ تحريرها أو إعادة تحريرها مع بدايات العهد العثماني، ومن الخطأ اعتبار أن كل ما ورد في دفاتر الأوقاف، يعود إلى الفترة العثمانية، إذ لم يتجاوز دور العثمانيين فيها تدوين هذه الأوقاف، والتي يعود تاريخها إلى ثلاثة قرون سبقت دخول العثمانيين، وعلى الرغم من أن عنوان هذه الدراسة يحمل عنوان: "المرأة والوقف في القرن (١٠هـ/ ١٦م)، إلا إن التحديد الزمني لا يصف الأوقاف في تلك الفترة الزمنية للسبب السالف الذكر.

لقد قامت الدراسة بإلقاء الضوء على وقف المرأة في لواء دمشق في القرن (١٠هـ/ ١٦م)، كما أرفقت الدراسة جداول إحصائية تضمنت وقف المرأة ضمن الفترة التاريخية المدروسة.

دراسة تحليلة للمصادر:

تتبعت الباحثة وقف النساء من خلال استقراء أربعة دفاتر للأوقاف هي: الدفتر ٣٩٣

---

* باحثة ، الأردن.

وتعود للفترة (٩٧٤هـ/١٥٦٦م)[١]، والدفتر ٦٠٢ ويعود للفترة (٩٩٠/١٥٨٢م)[٢]، والدفتر ٦٥٦ ويعود للفترة (١٠٠٤هـ-١٥٩٥م)[٣]. وهذه الدفاتر موجودة في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول والدفتر ٥٨١ ويعود للفترة (١٠٠٥ هـ/١٥٩٦م)[٤]، والدفتر موجود في أرشيف القيود القديمة في دائرة إدارة سجلات الأراضي العثمانية بأنقرة، والهدف من تعدد المصادر في الدراسة، المقارنة بين عدد الأوقاف المسجلة في هذه الدفاتر، وتتبع طريقة العثمانيين عند تسجيل الوقف، ومدى الدقة في ذلك. ومن الواضح أن هذه الدفاتر كتبت بالاعتماد على دفاتر سابقة للعهد العثماني والدليل أنها أرخت بسنوات تعود للعهد العثماني أو بنسبتها إلى عهد احد السلاطين العثمانيين، والطريقة المستخدمة في تمييز الأوقاف حسب العهود التاريخية هي التاريخ الزمني المذكور في نص الوقفية، فيذكر التاريخ بعد عرض نص الوقفية كما أوقفها الواقف، وفي بعضها يذكر تاريخ الوقفية عند وقفها، ثم تاريخ تسجيل الوقفية عند تحريرها، والذي قد يعود للعصر المملوكي أو العثماني، وأخيراً يتم تعداد مصادر الوقف، ونصوص الوقفيات جاءت باللغة العربية. كما هو واضح في صور الوقفيات المرفقة، من الدفتر ٦٠٢، والدفتر ٣٩٣، والدفتر ٦٥٦، والدفتر ١٠٣٤[٥].

---

(١) انظر:
.Tapu Defteri. No 393(vakif)Istanbul. year ca:1566 Başbakanlik arşivi Istanbul)
دفتر طابو (وقف). وسيشار إليه فيما بعد: (T. D. 393).

(٢) انظر:
.Tapu Defteri. No 602. (vakif) year ca:1582.. Başbakanlik arşivi Istanbul
وسيشار إليه فيما بعد: (T. D.602).

(٣) انظر:
.Tapu Defteri No 656 (vakif ve mufesil) year ca:1595 A.D.. Başbakanlik arşivi Istanbul

(٤) انظر:
.Tapu Defteri No 581. (vakif) year ca:1596 A.D Tapu ve Kadastro umum müdürlüğü. Ankara
وسيشار إليه فيما بعد: (T.K.Ankara ،581)

(٥) انظر: .Tapu Defteri. Istanbul. No.. 602. p 73

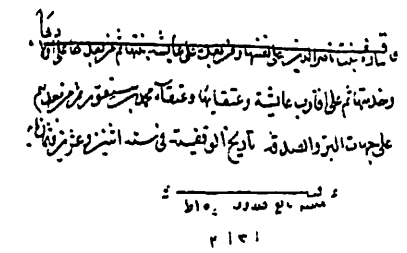

الدفتر ٦٠٢ / ص٧٣

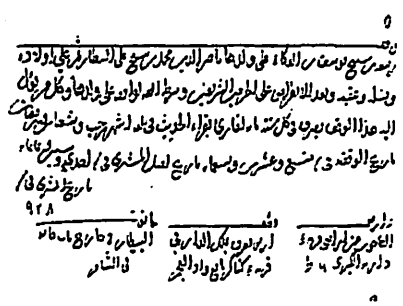

الدفتر ٣٩٣ / ص ٣

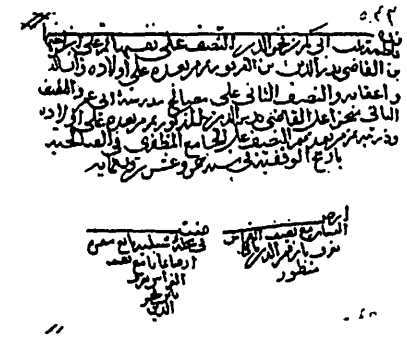

الدفتر ٦٥٦ / ص ١٨٩

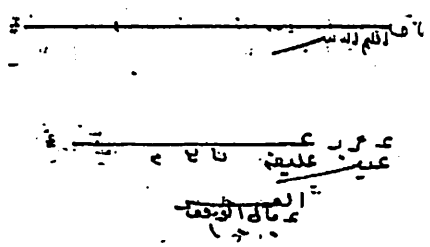

الدفتر ١٠٣٤ / ص ٤٢ دفتر اجمال

وغاية تسجيل الأوقاف في دفاتر الأراضي يعود لسببين: الأول من أجل التحديد مصادر الدخل الضريبي لمنطقة جغرافية محددة، والثاني هو تسجيل الأوقاف لحصر عددها ومناطقها في حدود الدولة العثمانية لتسطيع الدولة تحديد وضعها المالي في كيفية توزيع تلك العوائد على المستحقين.

تنوعت طرق كتابة الأوقاف في دفاتر الأراضي، فإن كانت للغايات الضريبية فإن الوقفية تسجل ضمن الوحدة الإدارية التي تقع ضمنها فتحدد إن كانت الوحدة الادارية قرية أو مدينة ثم تحدد الناحية واللواء، ثم تذكر مخصصات الوقف. وتحدد باختصار الجهات المستفيدة من هذه المخصصات، والأهم في مثل هذا النوع من التسجيل هو إحصاء المخصصات الموقوفة.

الطريقة الثانية: هي الاسهاب في ذكر نص الوقفية وغاية الوقف والجهات المستفيدة منها بالترتيب وحصص كل منها وكيفية الإنفاق، وذلك بتحديد الكم المالي وبتحديد الزمن

وتحديد الموظفين والمسؤولين عن الوقفية وتحديد مهامهم ومخصاصتهم المالية. فتظهر في هذا النوع الصورة التي يريدها الواقف للوقفية التي يخصصها أي أنه يحدد المدخلات للوقفية والعمليات التي تعمل على تنفيذ الصورة التي يريد والمخرجات للوقف، وهي الأطراف المستفيدة. والنماذج المرفقة أعلاه لوقفيات ثلاث هي من دفاتر أوقاف الشام، ويلاحظ أن الطريقة في التسجيل واحدة وهي الإسهاب في عرض الوقفية – وهذا هو النوع المستخدم في الدراسة – في حين يلاحظ الاختلاف في طريقة التسجيل في الدفتر ١٠٣٤ وهي من دفاتر الإجمال[٦]، ويظهر في النموذج أن ما يهم عند التسجيل، هو تسجيل المقدار الضريبي في القرية على أرض الوقف فيها دون ذكر صاحب الوقف.

وكان تسجيل الأوقاف يتم لدى القاضي[٧]، وبحضور الكاتب وعدد من الشهود الذين سموا بشهود الحال ويزيد عددهم عن أربعة وهم موظفون رسميون.

أما الطريقة التي اتبعت في الدراسة للإستفادة من هذه الوقفيات فكانت تقوم على عدة أسس:

أولاً: تحديد أصحاب الوقف والمكانة الاجتماعية التي كانت لكل واحدة من الواقفات إذ ساعدت دفاتر التحرير في التعرف على أصحاب الأوقاف بمختلف مراتبهم السياسية والدينية والوظيفية والاجتماعية، وقد أمكن ذلك من خلال الألقاب، أو الكنى التي حملتها الواقفة. وتصنيفها ضمن جداول وذلك بتتبع الكنية واللقب ثم تتبع علاقة صاحبات الوقف من النساء مع أخريات إن كانت علاقة قرابة نسب وغيرها، وقد أعطى هذا الأمر صورة أوضح في فهم ماهية الوقف.

ثانياً: تحليل نص الوقفية بتحديد أغراضها وتصنيفها ضمن الأوقاف الخيرية أو الذرية.

ثالثاً: تتبع درجات النسب التي قامت عليها الأوقاف الذرية ثم الخيرية الذرية للتعرف على الاتجاه الفكري العام في تحديد هدف الواقف من الوقف إن كان لغايات المنفعة العامة للمسلمين أو للتهرب من الضرائب المفروضة على الأملاك التي تحولت بمعظمها لأوقاف.

رابعاً: تصنيف الأوقاف على أساس الاعتبار الزمني للوقفيات إلى أوقاف أيوبية مملوكية أو عثمانية، وصنفت الأوقاف ضمن جداول زمنية حسب العصور، وتم بيان عدد

---

(٦) انظر: Tapu Defteri.Istanbul. No 1034.

(٧) للتوسع في هذا الموضوع، انظر: أسماء رمضان خليل، ريف لواء دمشق في القرن ١٠ هـ/١٦م، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤م، ص ١٦٢، وسيشار إليه فيما بعد: أسماء خليل، ريف دمشق.

الأوقاف في كل عصر من تلك العصور.

ومن هنا فإن المنهجية المستخدمة في الدراسة تقوم على تجزء الوقفية إلى أجزاء حسب الأغراض وترتيبها في جداول. ثم إيجاد قواسم قد تختلف أو تتفق مع باقي الوقفيات حسب الأغراض المصنفة.

التحديد الجغرافي الإداري لمنطقة الدراسة:

يضم لواء دمشق ثماني وعشرين ناحية[٨]، ظهرت مندمجة مع ناحية أخرى كما هو واضح وهي: الغوطة والمرج، وجبة العسال وقارا، وبعلبك، والمزة وشوف الحرادين، وكرك نوح، وحمارة وشوف البياض، وصيدا، ووادي التيم والحولة، والزبداني، ووادي بردا، والداراني، والبلان، وشعرا وإقليم الزبيب، وحوران، وشوف ابن معن، وغرب بيروت، جرد بيروت، والمتن والهوا، وبيروت، وكسروان، أي أن النواحي انتشرت في سوريا ولبنان وفلسطين[٩]. إلا أن مناطق العين الموقوف الذي امتلكتها الواقفات تعدت لواء الشام إلى ألوية أخرى في ولاية الشام، أما الوقفيات المذكورة في الدراسة فقد سجلت في لواء دمشق، حيث كانت مناطق إقامة الواقفات.

وقد تنوعت طبيعة المناطق التضاريسية في منطقة لواء دمشق من سهول وهضاب وجبال، وشكلت السهول مساحة واسعة فسهل البقاع في المنطقة اللبنانية يمتد بين بعلبك وحمص ودمشق ويقع بين سلسلة لبنان الشرقية والغربية[١٠]، وقد دخلت ضمن هذه البقعة نواحي شوف البياض والحرادين، والعرقوب، والزبداني، وبردا، ووادي التيم، وحمارة والحولة.

---

(٨) قمت باعتماد المنطقة الواحدة كناحية كما وردت في غالبية دفاتر الطابو دون اعتبار الاندماج الإداري أساساً للتعداد كما وردت في الدفتر ٩٩٨.

(٩) انظر:

Tapu Defteri. No 998. (vakif). Istanbul. year ca 932A.H\1525A.D.. Başbakanlik .Arşivi Istanbul. p. 286-290

وانظر أيضاً: خليل ساحلي أوغلو، تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، إرسيكا، ص٨١. وللتوسع حول الموضوع، انظر:

M. A. Bakhit. The Ottman Province Of Damascus in The Sixteenth Century. .BEIRUT. 1982. pp. 36-89

(١٠) رجاء دويدري، جغرافية سوريا والوطن العربي/دراسة في الوضع الطبيعي والكيان البشري والبناء الاقتصادي، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤٥؛ وسيشار إليه فيما بعد: دويدري، جغرافية سوريا

ويشمل حوض دمشق مساحة واسعة جنوب مرتفعات القلمون شرق سلسلة جبال لبنان الشرقية، وتمتد الغوطة على هيئة قوس شرق مدينة دمشق. وتختلف طبيعة المناطق التي تقع بمحاذاة دمشق فبعضها جبلي كالمزة، أما الحد الجنوبي لدمشق فأحيط به البحيرات كالهيجانة والأعوج وهذه الحدود ضمت المرج والغوطة ويخترق بردى الغوطة من الوسط إلى الجنوب مما يؤدي إلى تقسيمها إلى ثلاث مناطق لاختلاف مصدر سقي كل منطقة[١١].

ويمتد عدد من نواحي دمشق على تضاريس جبلية تعرف باسم سلسلة جبال لبنان الشرقية وتبدأ هذه السلسلة من بعد مدينة حمص، وتبدأ السلاسل الجبلية الأولى بسلسلة جبال القلمون[١٢]، وتقوم عليها ناحية قارا، والقلمون، ووجبة العسال. وفي الجزء الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية المعروف باسم جبل حرمون وتقوم فيه بعض قرى الزبداني وتقوم فيه ناحية وادي البلان وعلى المنحدر الغربي لجبل حرمون قام إقليم الزبيب. ويتصل جبل قاسيون من جهته الغربية بالقسم الشمالي من سلسلة جبال لبنان الشرقية، وتقوم على منحدر جبل قاسيون عدد من قرى غوطة دمشق.

وفي منطقة بركانية واسعة قام فيها جبل العرب وهضبة الجولان، وفي جبل العرب قامت ناحية حوران[١٣]. وفي هضبةالجولان وهي هضبة سهلية بازلتية قامت ناحية شعرا.

لقد اختلف على عدد وقف المرأة خلال الفترات الإسلامية المختلفة، والجدول التالي يبين عدد وقفيات النساء، كما هو مسجل في دفاتر الأوقاف التي اعتمدت عليها الدراسة، وذكرت الدفاتر بالترتيب الزمني لكتابتها: (٣٩٣، ٦٠٢، ٦٥٦، ٥٨١)، ويظهر في الجدول أرقام الدفاتر والفترة الزمنية التي يعود اليها، وفي أعلى الجدول تظهر القرون الهجرية وعدد أوقاف النساء التي سجلت في كل قرن.

---

(١١) صفوح خير، غوطة دمشق، دراسة في الجغرافية الزراعية، مديرية الترجمة، دمشق، ١٩٦٦م، ص ٤١، وسيشار إليه فيما بعد: خير، غوطة دمشق ؛ أحمد وصفي زكريا، الريف السوري: محافظة دمشق، دار مطبعة البيان، دمشق، ١٩٥٥م، ص ١٦٥، وسيشار إليه فيما بعد: زكريا، الريف السوري؛ الفارس دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م – ١١١٢هـ/ ١٧٠١م، من مذكرات الرحالة الفرنسي، الفارس دارفيو، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م، ص ١٢١، وسيشار إليه فيما بعد: دارفيو، وصف دمشق.

(١٢) صفوح خير، الغوطة، ص ٤١؛ رجاء دويدري، جغرافية سوريا، ص ٤٥.

(١٣) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، ٢ج، المطبعة العمومية، دمشق، ١٩٥٧م، ص ٥٥٠، وسيشار إليه فيما بعد: زكريا، الريف السوري، دويدري، جغرافية سورية، ص ٤٦ .

الجدول رقم (١)

رقم الدفتر	السنة التي كتب فيها الدفتر	٢٠٠هـ/ ٨١٥م	٥٠٠هـ/ ١١٠٦م	٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م	٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م	٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م	٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م	
							قبل سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٧م	بعد سنة ٩٢٤هـ/ ١٥١٧م
٣٩٣	٩٧٤هـ/١٥٦٦م السلطان لقانوني	١	١	٥	٤	٣٥	١١	١٩
٦٠٢	٩٩٠هـ/١٥٨٢م السلطان مراد		٢	٨	٦	٧٢	٢٢	٢٢
٦٥٦	١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م السلطان مراد		-	٣	٢	٣٠	١١	٢٦
٥٨١	١٠٠٥هـ\ ١٥٩٦م			١	٢	١٧	٤	١٨

يلاحظ من خلال الإحصائيات الواردة لأوقاف النساء في الدفاتر المشار إليها في الجدول "١" أن القرن (٩هـ/ ١٥م) سجّل أكثر الوقفيات، وسجل الدفتر ٦٠٢ والذي يعود تحريره إلى بداية عهد السلطان مراد الكم الأكبر من الوقفيات، ويدل ذلك على أمرين الأول: دقة التسجيل بتتبع كافة الوقفيات التي لم تسجل في بداية دخول العثمانيين، وذلك من خلال الإعتماد على دفاتر التسجيل القديمة من العهد المملوكي. والأمر الثاني: هو زيادة عدد الأملاك الموقوفة. في حين سُجّلت وقفيات أقل في الدفتر ٥٨١، يعود تحريرها إلى نهاية عهد السلطان مراد، ويبرر التراجع في عدد الوقفيات بخراب الأوقاف نتيجة الضرائب المفروضة عليها، ونستطيع تبرير قلة عدد الوقفيات المسجلة في الدفتر ٣٩٣ القانون الذي أصدره العثمانيون والذي يفرض إحضار عقود الأراضي الموقوفة، وخاصة مستندات الأوقاف الأهلية ليتم إعادة تسجيلها[١٤]. رغم ملاحظة التوازن في عدد الوقفيات بين الدفترين ٣٩٣ الذي يعود لبدايات فترة حكم السلطان سليمان، والدفتر ٦٥٦ الذي يعود لبدايات حكم السلطان مراد إذ إن التسجيل في بدايات عهد السلطان مراد اعتمدت على الدفاتر التي كانت ايام السلطان سليمان القانوني.

(١٤) شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي (٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢ج، تحقيق: محمد مصطفى، قسمان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٤. ج٢، ص ٢٧. وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان.

كما يلاحظ التراجع في عدد الوقفيات المسجلة في القرن (١٠هـ/١٦م)، حتى ولو تمّ جمع الوقفيات في الفترتين قبل دخول العثمانيين مع بدايات القرن (١٠هـ/١٦م)، وبعد دخول العثمانيين سنة (٩٢٤ هـ/١٥١٨م) كما هو واضح في الجدول، كما يلاحظ الثبات في عدد الوقفيات في الدفترين ٣٩٣ و٦٥٦ في القرن (١٠هـ/١٦م)، قبل دخول العثمانيين، في حين يلاحظ الزيادة في عدد الوقفيات المسجلة في نفس الدفترين بعد دخول العثمانيين نتيجة زيادة عدد الأملاك الموقوفة، وكان عدد الوقفيات متساوياً في الدفتر ٦٠٢ قبل دخول العثمانيين وبعده.

وتعود الزيادة في عدد الوقفيات بعد دخول العثمانيين، لأسباب تتعلق بإعادة تسجيل الوقفيات المسجلة في عهود سابقة فكثير من الوقفيات المسجلة في دفاتر الأوقاف والطابو (الأراضي) يذكر لها تاريخان؛ الأول: هو التاريخ القديم ويكتب بدفتر الطابو "بتاريخ الوقفية"، ويذكر التاريخ الجديد لتسجيل الوقفية ويعرف باسم "تاريخ تسجيل الوقفية" أو "تاريخ الشراء"، فمثلاً وقفية ست مرزاق خاتون بنت عبد الله تعود لسنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م) إلا أن إعادة تسجيل الوقفية يعود لسنة (٨٤٧هـ/١٤٤١م)، ووقفية فاطمة بنت جمال الدين بن عبد الله القرشي كان تاريخ الوقفية (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) في حين أن تاريخ سجل الوقفية سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)،[١٥] ووقفية ربيعة بنت شيخ يوسف الدكاني إذ أن تاريخ الشراء (٩٢٨هـ/١٥٢١م)، وتاريخ سجل الوقفية (٩٢٩هـ/١٥٢٢م) ووقفية أصيل خاتون بنت الأمير جانم تاريخ الوقفية (٨٩٩هـ/١٤٩٣م)، كان تاريخ السجل (٩٣١هـ/١٥٢٤م)، ويلاحظ بأن تاريخ الوقفية في أغلب الوقفيات يعود للعهد المملوكي. وأن كثيراً من الوقفيات المسجلة لا يعود تاريخ تسجيلها إلى تاريخ بدء العمل بالوقفية، وإنما إلى تاريخ إعادة تقييدها بالدفتر، إذ يثبت الدفتر أمر استمرار الوقفية، وأنها لم تُدَرس عند التسجيل الجديد.

كما يثبت أمر التغيرات التي تحصل على الوقفية من إنقراض الذُرّية إن كان وقفاً أهلياً، لتؤول لأغراض الخير الأخرى التي حددها الواقف. وبتتبع سجلات المحاكم الشرعية لوحظ عدم ورود بعض وقفيات النساء في دفاتر الأوقاف العثمانية التي كتبت في بداية الفترة العثمانية، ومن الأمثلة على ذلك وقفية صالحة خاتون ابنة الأمير صلاح الدين بهلوان بن الأمير شمس الدين الآمدي وتاريخ الوقفية (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)[١٦] وتم التعرف على الوقفية

---

(١٥) انظر:
.T. D. 393, Istanbul, p.132

(١٦) وقفية صالحة خاتون، (مخطوطة غير مرقمة)، في مركز الوثائق التاريخية في دمشق. وسيشار إليه فيما بعد: وقفية صالحة خاتون.

من خلال سجلات المحاكم الشرعية بدمشق وأعيد تسجيلها لدى قاضي ناحية قارا[١٧] سنة (١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م) في سجلات المحاكم الشرعية في دمشق، وقد ظهر تسجيلها في دفاتر الأوقاف العثمانية في الدفتر ٥٨١[١٨]، الذي يعود لنهاية حكم السلطان مراد. وإن كان تاريخ الوقفية يعود لفترة حكم السلطان مراد فقد وصلتنا من تلك الفترة مجموعة من الدفاتر وعدم ورود هذه الوقفيات فيها، يعني عدم الدقة أثناء التسجيل أو اختلاف أسلوب التسجيل لاحقاً.

أنواع الوقفيات:

تعددت أغراض الوقف التي أوقفتها النساء في القرن (١٠هـ/١٦م)، وشاع فيها الوقف لأغراض أهلية وأخرى خيرية، والجدول التالي يوضح أغراض الوقف، كما يوضح عدد الوقفيات لكل غرض، وقد تم تتبعها من خلال ثلاثة دفاتر وقف، هي: الدفاتر ٣٩٣، ويعود لفترة حكم السلطان القانوني، والدفتر ٦٠٢ ويعود لفترة حكم السلطان مراد، والدفتر ٦٥٦ ويعود لفترة حكم السلطان مراد .

(١٧) قارا: في هضبة القلمون منطقة النبك، إلى الشرق من جبال لبنان الشرقية حيث تقوم فيها قمم عاليه، محافظة ريف دمشق. المعجم الجغرافي للقطر السوري، ٥ج، مصطفى طلاس وآخرون، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ط١، ١٩٩٠م، ج٤، ص٥٠١؛ وسيشار إليه فيما بعد: طلاس، المعجم الجغرافي السوري.

(١٨) انظر:

.T.K.. Ankara. 581. p.105

مزار																															مزار
ملابس أيتام																															ملابس أيتام
رباط																															رباط
مؤذن																															مؤذن
صعاليك																															صعاليك
اجذما																															اجذما
أعلي																															أعلي
عتاء																															عتاء
قراءة																															قراءة
بروصدة																															بروصدة
شيوخ																															شيوخ
خانقاه																															خانقاه
مطبخ																															مطبخ
فقهاء																															فقهاء
فقراء																															فقراء
حرمين																															حرمين
تربة																															تربة
بيمارستان																															بيمارستان
ليتام																															ليتام
مسجد																															مسجد
مدرسة																															مدرسة
زاوية																															زاوية
الدافتر/ السنة	٦٦٦	قبل ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤		خيري/ أعلي		أعلي		خيري	بعد ٩٢٤هـ/ ١٥١٧م	خيري/ أعلي	أعلي	خيري	٦٦٦	٨٠٠/ ١٣٩٧م	خيري/ أعلي		٦٦٦	خيري		خيري/ أعلي	٧٠٠ /١٣٠٠م	٦٦٦	خيري	أعلي	خيري/ أعلي	٦٠٠ /١٢٠٣م		خيري	الدافتر/ السنة		خيري/ أعلي		أعلي	خيري

												مزار													
												ملابس أيتام													
												رباط													
												مؤذن													
												صعاليك													
												اجنا													
												أهلي													
								٩																	
												عتقاء													
	-								-			قراءة													
								-	٩			بروصدقة													
												شيوخ												-	
												خانقاه													
									-			مطبخ													
												فقهاء													
									-			فقراء													
									-			حرمين													
								-	-			تربة													
								-	-			بيمارستان													
									-			أيتام													
					٩				-			مسجد													
	-				-				-			مدرسة													
									-			زاوية													
أهلي	خيري / أهلي	٩٠٠ /١٤٩٤م	خيري	أهلي	خيري / أهلي	٧٠٠/ ١٣٠٠	خيري	أهلي	خيري / أهلي	٨٠٠/ ١٣٩٧	خيري	الدفتر / السنة	أهلي	خيري / أهلي	بعد ٩٢١/ ١٥١٣م	خيري	أهلي	خيري / أهلي	قبل ٩٢٤هـ/ ١٥١٧م	٩٠٠	٣٩٢	خيري	أهلي	خيري / أهلي	٥٠٠ /١١٠٦م

الدفتر / السنة	خيري / أهلي	أهلي	خيري	بعد ٩٢٤ / ١٥١٨م	خيري / أهلي	قبل ٩٢٤ / ١٥١٨م	٦٠٢	٩٠٠ / ١١٠٦	خيري
مزار									
ملاجئ أيتام									
رباط									
مؤذن									
مسطبة									
اجتماع									
أهلي									
عتاقة									
قرادة									
بروصلة									
شوح									
خاطفة									
مطبخ									
فقهاء									
فقراء									
حرمين									
تربة									
بيمارستان									
أيتام									
مسجد									
مدرسة									
زاوية									
خيري / أهلي	أهلي	خيري	٨٠٠ / ١٢٩٧م	خيري / أهلي	أهلي	خيري			

						-							
						-		-					
													-
											-		
		-											
								-					
		-											
٦٠٢	٧٠٠ / ١٣٠٠م	خيري / أهلي	اهلي	خيري	٦٠٠/١٢٠٣م	خيري / أهلي	أهلي	خيري	٣٩٢	٥٠٠/١١٠٦م	خيري / أهلي	أهلي	خيري

يشير الجدول رقم (٢) إلى أنواع الأوقاف التي ظهرت في دفاتر الوقف وهي: الأوقاف الخيرية والأوقاف الأهلية، والوقف الأهلي الخيري. ويحدد الفقهاء نوع الوقف تبعاً إلى الجهة الموقف عليها أول الأمر، فالوقف الخيري هو ما جعل إبتداءً على جهة من جهات البر[١٩]، كالمدارس والبيمارستانات، فلا يعود نفع الوقف لمعين، ويوقف الوقف لقاء أجر[٢٠]، ومن أنواع الوقف الخيري كذلك ما يعرف بالوقف الحكمي، وهو الوقف المخصص للإنفاق على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، والحرمين الشريفين في القدس والخليل[٢١].

أما الوقف الأهلي فهو: ما جُعل إبتداءً على شخص سواءً أكان واحداً أو أكثر، وسواء معيناً بالاسم للأولاد والأحفاد والأنسال.

الوقف الأهلي الخيري هو ما كان بعضه أهلياً وبعضه خيرياً،[٢٢] فهو في واقع الأمر وقف أهلي باعتبار أن الجهة الأولى التي عادت لها منافع الوقف هي الجهة الأهلية، ويوضح الجدول رقم (٢) أن الوقف الأهلي الخيري، هو أكثر أنواع الأوقاف شيوعاً. أما الأوقاف التي سجلت لأغراضٍ خيرية أهلية، فقد سُجل أعلى إحصاءٍ لها في القرن(٩هـ / ١٤م)، أي قبل سيطرة العثمانيين على المنطقة .[٢٣]

إن عدد أوقاف النساء منذ بداية دخول العثمانيين إلى بلاد الشام (٩٢٤ هـ /١٥١٨م) لم يشهد زيادة في العدد. وسجلت أعلى الوقفيات في الدفتر٦٠٢، ثم الدفتر ٦٥٦ وكانت أعلى الأوقاف مرصودة بيد الوقف الأهلي، تؤول بعدها إلى الحرمين الشريفين ثم إلى المدارس.

وكان الوقف الأهلي وحده محدوداً جداً، وأكثر ما ظهر في الدفترين ٦٥٦ والدفتر ٣٩٣ في القرن (٩هـ / ١٤م).

---

(١٩) محمد أمين بن عمر بن عابدين، (ت ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م)، رد المحتار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة النعماني، ٥ج، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٣، ١٩٨٤م، ج٤، ص٣٧٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عابدين، رد المحتار.

(٢٠) رضوان السيد، " فلسفة الوقف في الشريعة الإسلامية"، مركز الدراسات، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٤٧. وسيشار إليه فيما بعد: السيد، فلسفة الوقف.

(٢١) بوران لبنيه، الخانقاوات والزاوايا الدمشقية، رسالة دكتوراه غير منشوره، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤م، ص١٥٨. وسيشار إليه فيما بعد: لبنيه، الخانقاوات والزاويا.

(٢٢) نور بنت حسن قاروت، "وظائف ناظر الوقف"، مجلة أوقاف، عدد ٥، سنة ٣، سنة ٢٠٠٣م. ص ١٤٣، وسيشار إليه فيما بعد: قاروت، "وظائف ناظر الوقف".

(٢٣) انظر الجدول رقم ٢، الدفتر ٦٠٢ إذ سُجل أعلى إحصاء للوقف الخيري الأهلي.

وفيما يلي قراءة عامة لما يمدنا به الجدول رقم٢، وقد اعتمدت في هذه القراءة على ما ورد في دفاتر الأوقاف. إلا أن تتبع أوقاف النساء في هذه الفترة يفضي إلى عدد من الملاحظات:

تتباين درجات الوقف الأهلي من وقف لآخر حسب دفاتر الأوقاف المذكورة. ففي بعضها كان يعود الوقف على الذرية بالتعميم، وفي هذا النوع يدخل الولد وولد الولد وأولاد البنين والبنات في ذلك على حد سواء، وهذا التسلسل المتبع حسب قواعد المذهب الحنفي [٢٤] فيشمل بذلك النسل حتى الانقراض، وفي أنواع أخرى ذكر الأولاد والنسل وهنا تدخل البنات مع الذكور، وفي حالات أخرى اقتصر الوقف على الذكور من الظهور، وحرمت الإناث من الوقف[٢٥]، أي أن الوقف يعود للأولاد وأولادهم الذين ينسبون بأسمائهم للواقف، أما أولاد البنات فلا يؤول إليهم الوقف[٢٦]، فوقف صالحة خاتون بنت الأمير صلاح الدين، عاد للذكور وأولادهم أولاً، وللإناث حصة بالوجه الشرعي، وفي سنة (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م) أقام أولاد البنات دعوى قضائية لدى القاضي الشرعي في ناحية قارا، لتحصيل حقهم بالوقف المذكور، وبعودة القاضي إلى نص الوقفية وجد أن أولاد البنات لا يدخلون في الوقف، إلا بعد إنقراض الأولاد من الذكور حسب شرط الواقفة[٢٧]، وفي أوقاف أخرى يعود الوقف بعد الأولاد والنسل على الإخوة وعصبات الواقف، أما إذا كانت الواقفة دون نسل فإن الوقف للإخوة أو الأخوات، أو للزوج وأبناء الزوج.

ومن اللافت للنظر أن العتقاء تمت معاملتهم معاملة الأبناء، وجاءوا في درجة تلي الأبناء بانتفاعهم من الوقف، وفي أحيان أخرى تقدموا على أولاد الواقف[٢٨].

---

(٢٤) ابن عابدين، رد المحتار، ج٤، ص٤٩٤.

(٢٥) انظر:

.T. D. 656. Istanbul. p. 78

كما في وقفية سلمى خاتون بنت زين الدين عمر وابنتها فاطمة، 823هـ/1420م.

(٢٦) البرهان إبراهيم بن موسى بن أبي بكر الطرابلسي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م)، الإسعاف في أحكام الأوقاف، مطبعة هندية، القاهرة ، ط٢، ١٩٠٢م، ص٩٦. رسيشار إليه فيما بعد: الطرابلسي، الإسعاف؛ ابن عابدين، رد المحتار، ٤٩٤، ج٤، ص٤٩٨.

(٢٧) وقفية صالحة خاتون. غير مرقمة. T.K.Ankara .581.p 105)

(٢٨) انظر:

.T. D. 393. p. 104. Istanbul; T. D. 602. p. 67. Istanbul. T. D. 581. p. 84. Ankara

الوقف الخيري الأهلي:

وكان يُتّبع فيه ثلاثة أساليب: الأول: بعد انقراض النسل والذرية يكون الوقف لجهة وقف خيرية يحددها الواقف، والثاني يعود لعصبات الواقف[٢٩]، والثالث: يكون بتقسيم الوقف إلى حصص نصفها للذرية، ونصفها الآخر لوقف خيري يحددها الواقف، تستحقها هذه الجهة مع الذرية بعد وفاة الواقف. وفي حالات أخرى حددت مبالغ مالية لأغراض الوقف المختلفة، تدفع شهرياً أو سنوياً، أوفي العيد أو في شهر رمضان، أو في شهر رجب.

أغراض الوقف الذُري الخيري:

إن المتتبع لأغراض الأوقاف التي أوقفتها النساء في تلك الحقبة، يلاحظ أنها تنوعت بين أغراض دينية، وتعليمية، واجتماعية، وسيتم عرض هذه الأنواع من حيث مقدارها وحجمها، وتقسم أغراض الوقف الخيري إلى نوعين: حاجات وتحسينات، وقد دخلت بعض وجوه الوقف في الحاجات، وبعضها الآخر في التحسينات[٣٠]، ويأتي التمييز بين النوعين من حيث الضرورة، فالأوقاف على مرضى الجذام، وإقامة البيمارستانات يعتبر حاجة، وتعد فرض كفاية على المسلمين، أما إقامة الجسور مثلا فتدخل تحت قسم التحسينات.

وكانت الأوقاف لأغراض دينية، هي الأوسع من حيث الحجم، وتعددت وجوه الصرف عليها، فكان بعضها على قراءة القرآن وحفظه، وعلى قراءة الحديث النبوي، أو على مؤسسات دينية كالجوامع والزوايا والخانقاوات، وكان النصيب الأكبر فيها للجوامع وقراءة القرآن. وتباينت أنواع الوقف على المساجد تبعاً لإمكانات المرأة المادية، ومكانتها الاجتماعية، فوقفية أرغون خاتون، التي تعرف بالحافظية، كانت مخصصة للمسجد الموجود بالتربة المعروفة باسم الواقفة بعين الكرش مسجلة بسنة (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م). ووقفية عزيزة خاتون بنت الأمير قطب الدين، خصصت للمسجد الذي أنشأته في الصالحية [٣١] ويعود تاريخ تسجيل الوقفية إلى أوائل القرن (٧هـ/ ١٣م)، وأعيد تسجيلها في سنة (٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م) إذ تضمنت الوقفية مصاريف إنارة المسجد كل شهر خمسة أرطال

---

(٢٩) انظر:
.T. D., 393, Istanbul

(٣٠) السيد، " فلسفة الوقف"، ص٤٩

(٣١) الصالحية: قرية في مرج غوطة دمشق تتبع ناحية النشابية منطقة دوما محافظة ريف دمشق، تقع في أرض سهلية على جانبي طريق دوما النشابية إلى الجانب الشرقي من مركز المنطقة، وهي تبعد ثلاثة كم إلى الشمال الشرقي من بلدة النشابية. طلاس، المعجم الجغرافي السوري ج ٤، ص ١٠٣.

زيت، وفي شهر رمضان خمسة عشر رطلاً، وذلك لإنارة المسجد في هذا الشهر، وفي كل سنة ثمن أربعة أرطال شمع توقد بالمسجد في ليالي الرغايب[٣٢] وليلة النصف من شعبان وليلتي العيد وكامل شهر رمضان.[٣٣] وجعل للخطيب فيه راتب شهري مقداره عشرون درهماً، ولبواب المسجد عشرة دراهم، وللمؤذن فيه عشرة دراهم.

أما وقفية جلب بنت الفخري، التي يعود تاريخ تسجيلها إلى أوائل القرن (٧هـ / ١٣م)، فقد توسعت في الأغراض، لتشمل القائمين على أعمال المسجد، فصرفت لبواب المسجد خمسين درهماً عثمانياً، وللقيم عليه وللخادم ستين درهماً، وللإمام ستين درهم، وكذلك لمن يقوم بوظيفة الشاوية [٣٤] على المسجد وأوقافه ستين درهماً، إضافة لما يحتاج إليه المسجد من ثمن حصر وبسط وقناديل وسلاسل[٣٥]. ويظهر مما سبق التباين في مقادير رواتب موظفي المسجد وأعدادهم من وقفية لأخرى. ويتم تحديد ذلك تبعاً لشروط الواقفة[٣٦]. وفي وقفية أرغون خاتون أواخر القرن (٨هـ / ١٤م)، بلغ راتب الإمام كل شهر ثلاثين درهماً، وللمؤذن والقيم عشرين درهماً[٣٧]، ومن الوقفيات التي وصلتنا مع الربع الأخير من القرن السادس عشر سنة (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)، وقفية فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري (٩٥١هـ / ١٥٤٤م) على جامع بقرية جنين / لواء اللجون، إذ رصدت واحداً وخمسين درهماً للقائمين على المسجد فكان راتب خطيب الجامع أربعة دراهم كل يوم أي مايعادل مائة وعشرين درهماً شهرياً، وراتب إمامين يتناوبان على المحراب درهماً

(٣٢) ليالي الرغايب: إحياء ليالي العشر من رمضان وليلتي العيدين وليالي عشر ذي الحجة وليلة النصف من شعبان والمراد بإحياء الليل قيامه، ويكره الاجتماع على إحياء ليلة من هذه الليالي في المساجد. ابن عابدين، رد المحتار، ج٢، ص٢٥.

(٣٣) انظر:
.T. D.656. Istanbul. p. 118. 393. p.171. T. D. 602. p. 171

(٣٤) الشاوي: هذه الحرفة من الفلاحة وصاحبها يقال له شاوي، لكل قرية يوم مخصوص للاستفادة من ماء النهر بما يعرف بعدان الماء وكل قرية لأجل المحافظة على عدانها تعين جملة من الأشخاص يقال لأحدهم شاوي، بأجرة معلومة سنوياً، لأجل أن يحافظوا على حصة القرية من الماء في أيام تلك القرية وسوقه لها، ويمنعوا كل من أراد أخذ شئ من ذلك الماء. انظر: جمال الدين القاسمي، خليل العظم، ظافر القاسمي، ٢ج، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق: ظافر القاسمي، موتون باريس، ١٩٦٠م، ج٢، ص٢٤٩- ٢٥٠. وسيشار إليه فيما بعد: القاسمي والعظم، قاموس الصناعات.

(٣٥) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p.102

(٣٦) ابن عابدين، رد حاشية المختار، ج٤، ص٤٦٥.

(٣٧) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 65; T. D.. 393. Istanbul. p. 100

واحداً كل يوم؛ أي بمعدل ثلاثين درهماً شهرياً لكل منهما، وراتب مؤذنين درهمين لكل واحد منهم في درهمين كل يوم؛ أي ما يعادل ستين درهماً شهرياً لكل منهما، وراتب حفّاظ القرآن وقرائه في أوقات محددة درهماً واحداً لكل منهم، وللقائمين على خدمة المسجد من قيم وبواب وكناس ثلاثة دراهم لكل منهم كل يوم، أي ما يعادل تسعين درهماً شهرياً[٣٨]. ونلحظ في الوقفيات السابقة التباين في رواتب الإمام، والخطيب، والمؤذن، فالبرغم من أن الوقفية الأولى والثانية تعود إلى الفترة الزمنية نفسها إلا أن الفروق في رواتب الموظفين واضحة، وهذا التباين يعود إلى رغبة الواقفة ووصيتها، وتبرز وقفية فاطمة خاتون التي تعود للقرن (١٠هـ/ ١٦م)، مدى التفاوت في المبالغ التي رصدت بالوقفية مقارنة بالوقفيات التي رصدت في القرن (٨هـ/ ١٤م).

وفي وقفيات أخرى تم الاقتصار في عوائد الوقف على مؤذن الجامع أو خطيبه، وبلغ عدد الوقفيات التي كانت خصصت للمؤذنين أربع وقفيات فقط[٣٩]. وأوقفت ثلاث وقفيات لإمام الجامع، كما أوقفت وقفيات لأغراض تعليمية في المسجد؛ فأوقفت عائشة بنت عبد الله وقفية على الفقهاء بمقصورة الحنفية بالجامع الأموي[٤٠]. وأوقفت وقفيات أخرى على قرّاء يقرؤون القرآن في مسجد تعينه الواقفة؛ فجعلته ابنة شمس الدين محمد الخطيب، بقرية يلدا [٤١]على أحد المتزوجين من القراء، ومن بعده على أولاده وأنساله وأعقابه، ومن بعد الإنقراض يعود لقارئ آخر، ويستمر الوقف لقارئ بعد قارئ[٤٢].

وفي وقفيات أخرى كان الوقف يعود على الجامع ومصالح أخرى دون تحديد نسبة أو

---

(٣٨) وقفية فاطمة خاتون، خليل مردم بك ناشر، ص٢٣. وسيشار إليه فيما بعد: وقفية فاطمة خاتون.

(٣٩) ومن الأمثلة على هذه الوقفيات وقفية مصري خاتون بنت الناصر السنجاني (ت ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، وجعلت للمؤذنين بالجامع الكبير في بعلبك، ووقفية ازدان خاتون (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م). انظر:
.T. D. 656. Istanbul. p.161; T. D. 393. Istanbul. p. 63; T. D. 602. Istanbul

وسارة بنت شمس الدين بن أبي بكر الاموي ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م.
.T. D. 602. Istanbul

وارغون خاتون (الحافظية) ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م، وجعلت له ٢٠ درهماً.

(٤٠) انظر:
.T. D. 393. Istanbul. p. 11

(٤١) قرية يلدا: قرية كبيرة في منتصف الغوطة الغربية يحدها من الشمال دمشق (أراضي الشاغور) ومن الشرق بابيلا ومن الجنوب حجيرة وحوش الريحانية ومن الغرب القدم، يصل إليها قسم من نهر الشاغور المتفرع من بانياس، وفيها عيون وقنوات كقناة العصرونية والسلطاني. زكريا، الريف السوري، ص ١٧٦.

(٤٢) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 117

مبلغ مالي، وتباينت أماكن الجوامع التي جعلت لها الوقفيات، فبعضها كان في نفس دمشق إذ خصص بعض منها للأوقاف التي بالصالحية كالجامع المظفري وجامع السلطان سليم، كما خصص بعضها لبعض المحلات في دمشق كمحلة القبيبات[٤٣] ومحلة القيم. وخصص بعضها للقرى كما في وقفية عائشة خاتون وزمردة خاتون على مسجد القدم، في قرية القدم[٤٤] وهي من قرى الغوطة، وأرغون خاتون على مسجد عين الكرش في قرية عين الكرش من قرى الغوطة، ووقف حليمة على مسجد قرية يلدا، وفاطمة بنت يوسف على مسجد قرية جرمانا[٤٥].

وقد يعود الوقف على مساجد أنشأتها الواقفة كمسجد الحبيبة بنت القرشي خليل ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، والمسجد الذي أنشأته فاطمة خاتون (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)، في جنين / لواء اللجون[٤٦]. أو على مسجد أقيم عند تربة الواقفة. وكان عدد من وقفيات المساجد تنحصر على الجامع الأموي وبلغ عددها ثماني وقفيات، وأوقفت ثلاث وقفيات على الجامع الكبير في بعلبك[٤٧].

وقد حظيت قراءة القرآن، وقراءة الحديث بنصيب كبير في وقفيات النساء، وبلغ عدد الوقفيات التي أوقفت لقرّاء القرآن في المساجد ثلاثاً وعشرين وقفية، وكانت الوقفيات على القراء تقوم على نوعين؛ أما أن يخصص مقدار مالي محدد لقراء يقرؤون القرآن، أو أن يكون الوقف لهم دون تحديد مبلغ مالي.

وكانت الواقفات يحددن عدد القراء الذين يستفيدون من الوقف، ففي بعضها كان

---

(٤٣) انظر:

.T. D.. 656. Istanbul. p. 251

(٤٤) قرية القدم: قرية كبيرة من أمهات قرى الغوطة الغربية، يحدها من الشمال العاصمة (حي الميدان) ومن الشرق قرية يلدا ومن الجنوب سبينة الغربية ومن الغرب داريا، وحول القدم بساتين كثيرة فيها حقول غير مشجرة ومشجرة، وتروي بساتين القدم من ثلاثة أنهار: الأسود وقسم من الداراني وقسم من قنوات (القصيري البكجوري). زكريا، الريف السوري، ج٢، ص ١٨٥.

(٤٥) انظر:

.T. D.. 602. Istanbul. p. 123

قرية جرمانا:من قرى الغوطة الشرقية، وتقع في الشرق الجنوبي من دمشق، يحدها من الشمال الوادي الفاصل بينها وبين عين ترما ومن الشرق المليحة والبلاط ومن الجنوب عقربا ومن الغرب اراضي الشاغور، تبعد عن دمشق ستة كم، تسقى من أحد فروع نهر بردى وهو العقرباني. زكريا، الريف السوري، ج٢، ص ١٠٦.

(٤٦) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٣.

(٤٧) انظر:

.T. D.. 656. Istanbul. p. 210; T.D.. 393. Istanbul.. p.145; T.D. 602. Istanbul. p. 117

الوقف لقارئ واحد، كوقفية أصيل خاتون بنت الأمير جانم (٨٩٩هـ / ١٤٩٣م)، وبعض الوقفيات لثلاثة قراء كوقفية جار بنت عبدالله (٩٤٦هـ / ١٥٣٩م) للجامع الأموي، [٤٨]، وبعض الوقفيات كانت لقارئين [٤٩]. وقد تراوحت مقادير رواتب هؤلاء القراء بين ١٠- ١٣ درهماً شهرياً، وقد تفاوت عدد القراء الذين استفادوا من الرواتب المصروفة لهم ليصل إلى عشرة قراء؛ إذ أوقفت ست جلب بنت الفخري عثمان بن أغول بك لعشرة أنفار حافظين لكتاب الله، في كل شهر ٢٠٠ درهم عثمانية، [٥٠] وفي وقفية مصر خاتون وسفر ابنة شهاب الدين، وأم الخير الطرابلسي (٩٣٢هـ / ١٥٢٥م) كان وقفهن على السادة القراء السبعة[٥١] بالجامع الكبير الشرقي في بعلبك، دون تحديد مبلغ مالي [٥٢]، وكانت وقفية فاطمة خاتون(٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) على أربعة قراء يقرؤون القرآن في جامع جنين في أوقات محددة. وأوقفت عزيزة خاتون لستة أنفار من حفاظ كتاب الله يقرؤون كل جمعة نصف حزب. وأوقفت فاطمة خاتون لأربعة حفاظ [٥٣].

وفي حالات أخرى كان يتم تعيين السور التي ستقرأ، والوقت الذي تقرأ فيه لايام اتسمت بأهميتها الدينية، فحددتها عزيزة خاتون في وقفيتها كل يوم جمعة، وذلك بقراءة نصف حزب من القرآن واهداء ثواب ذلك للواقفة.

أما بالنسبة لقراءة الحديث فقد انحصرت بقراءة من صحيح البخاري ومسلم، كوقفية ناتارين بنت محمد (٩٣٦هـ / ١٥٢٩م)[٥٤]، وأوقفت مريم بنت تقي الدين الطوخي (٩٢٩هـ / ١٥٢٢م) لقارئ يقرأ من صحيح البخاري فقط [٥٥]، وأوقفت الحاجة مريم لقارئ

---

(٤٨) انظر
.T. D.. Istanbul. p..143

(٤٩) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 132

(٥٠) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 57

(٥١) على القراءات السبع.

(٥٢) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 124

(٥٣) انظر:
.T. D.. 656. Istanbul. p. 182; T. D. Istanbul. p. 214

(٥٤) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p.192

(٥٥) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p.147

صحيح البخاري ولقارئ صحيح مسلم. وكان تحديد رواتب شهرية أو سنوية أوحصص من الوقف للقراء سبباً في شيوع الثقافة الدينية في المجتمع الإسلامي في القرن (٩هـ / ١٥م)، إذ كان حفظ القرآن وحفظ الأحاديث وقراءتها أحد وسائل التكسب المنتظم في ذلك الوقت.

كما كان لطائفة الجذما (أي المصابين بمرض الجذام) أوقاف، وذكروا في الوقفيات باسم السادة الجذما، إذ بلغت عدد الوقفيات المرصودة لهم أربع وقفيات أوقفتها سيدات من المجتمع الدمشقي دون تحديد مكانة اجتماعية للواقفات.

وكانت الطريقة التي اتبعت في جميع الوقفيات، هي حصة من ريع الوقف للجذما، تتفاوت من واحدة لأخرى، ففي بعضها كان للجذما الربع من حصة أوقافهن، كما في وقفية كل من سكر ملك بنت عبد الله (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م)[٥٦]، ووقفية قضاة بنت شمس الدين محمد بن شرف الدين السقطي(٩١٥هـ / ١٥٠٩م)[٥٧]. وبلغت الثلث في وقفية مريم بنت تقي الدين الطوخي (٩٢٩هـ / ١٥٢٢م)[٥٨] ووصلت إلى النصف في وقفية عائشة بنت خيشب (٩٤٨هـ / ١٥٤١م)[٥٩].

وكان للفقراء نصيب وافر في وقفيات النساء، التزاماً بالتذكير الإلهي المستمر بهذه الفئة المحرومة، والوقف على الفقراء تقوم به الواقفة حسبةً لله ورجاء للثواب، وترتبط به مصالح الجماعة[٦٠] أو بعض أفرادها وفئاتها، والوقف الخيري وإن كان برجاء الثواب فإنه لم يكن خالياً من رغبات وميول شخصية للواقف، ونستدل على ذلك من أن أغلب أوقاف النساء الخيرية جاءت في المرتبة الثانية بعد الوقف على ذرية الواقفة، فحماية الأملاك من عبث الدولة دفعت البعض للوقف. وقد حددت بعض الواقفات فئة معينة من الفقراء يسكنون في مناطق عينتها الواقفة فبعضهن أوقفنَ لفقراء الحرمين الشريفين، وبلغ عدد هذه الوقفيات خمساً، والبعض للفقراء المقيمين بالمسجد الأموي أو المجاورين، وبلغ عددها ثلاث وقفيات، فالمؤسسات الدينية وجوارها كانت مركزاً لتجمع الفقراء، وبناء على تجمعات الفقراء عند

---

(٥٦) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 178

(٥٧) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p.133

(٥٨) انظر:
.T. D.602. Istanbul. p.149

(٥٩) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 127

(٦٠) السيد، فلسفة الوقف، ص٥٠.

المساجد أو التربة، توقف لهؤلاء أوقاف، ونُسِبَ الوقف إلى المكان الذي كانوا يجتمعون فيه. ومثال ذلك الوقف على الفقراء والمساكين بالمدرسة التي أنشأتها زهرا خاتون بنت سيف الدين[٦١] أو لفقراء الأربطة من الصوفية، لأن الفقر عندهم بارز، وقد اصطلح على تسميتهم بالفقراء،[٦٢] والمتأمل لهذه الوقفيات لا يجد من بينها وقفية لفقراء المسلمين عامة دون ارتباطها بمكان سوى وقفية ست نسب بنت شهاب الدين حددتها لفقراء ومساكين المسلمين عامة[٦٣]، كما انفردت كولدي خاتون الجالقي (٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) بالوقف على طائفة الخير البطالين (بدون عمل) ممن ليست لهم أقطاعات أو أجر شهري وصنفوا أنهم فقراء.

لقد تنوعت الأشكال والصور التي جاء عليها الوقف للفقراء، فنجد بعضها جاء على شكل دراهم، وفي وقفيات أخرى نجده طعاماً، وفي ثالثة لباساً، وأخرى حددت لهم حصة من إيراد الوقف ربعاً أو ثلثاً، كما في وقفية كوش بوغا وزوجته[٦٤]، ووقفية مريم بنت تقي الدين الطوخي. وبلغ عدد الوقفيات التي أوقفت الثلث من ريع الوقف ٤٠ وقفية، وتحديد حصة محددة من ريع الوقف بدلاً من مبلغ مالي يعود إلى عدم استقرار الموسم الزراعي من سنة لأخرى.

وفي الأحوال التي حددت فيها مقادير مالية للفقراء، كان أقلها ثلاث دراهم للفرد، وأكثر المبالغ التي حددتها الواقفات بلغت خمسمئة درهم صرفت في أغراض حددتها الواقفة، وفي جميع الأحوال، كان يوصى بشراء اللحم والخبز للفقراء، كما في وقفية مريم بنت تقي الدين بن الطوخي (٩٢٩هـ / ١٥٢٢م) التي حددت خمسمائة درهم يُشترى بها خبز وحلوى، تفرق على الفقراء بالجامع الاموي في كل سنة، وفي كل شهر رمضان[٦٥].

وفي الوقفيات حددت مواعيد توزيع الخبز أو غيره بليلة في الشهر أو في شهر رمضان بشكل خاص، ففي وقفية مريم السالفة الذكر أوقفت ثمن خبز (لم تحدد مقداره) يفرق على

---

(٦١) انظر: .T. D. 656. Istanbul. p. 89; T. D.. 393. Istanbul

(٦٢) ابن عابدين، رد المحتار، ج٤، ص٤٨٧

(٦٣) انظر: .T. D.. 656. Istanbul. p. 56

(٦٤) انظر: .T. D. 602. Istanbul

(٦٥) انظر: .T. D. 602. Istanbul

ثلاثة شهور، وعشر عثمانيات ثمن خبز ولحم يطبخ في ليلة نصف رمضان[٦٦]. وفي وقفية ازدان خاتون أوصت بثلاثة دراهم لشراء الخبز تفرق كل ليلة جمعة على الفقراء المجاورين للجامع الأموي [٦٧]. أي أن الواقف لم يتكفل بالفقراء طوال العام، وهذا يبرر تعدد الأوقاف لنفس الغرض لفئة واحدة في مكان واحد.

وكانت الواقفات يحددن أعداد الفقراء المستفيدين، كما يحددن المكان الذي يتجمعون فيه، الجامع الأموي أو جامع منجك؛ لأن أعداد الواردين أو المقيمين فيها من الفقراء والمساكين يمكن حصره، ولم يحدد عدد الفقراء في وقفيات أخرى، وجعلته الواقفة لكافة فقراء المسلمين أينما وجدوا كما في وقفية الخوا خاتون بنت محمد الشهير بابن الجاموس ٩٧٦هـ /١٥٦٨م، إذ أوقفت قمصان قطن خام مخيطة للفقراء والمساكين من أمة محمد حيثما وجدوا، ويظهر أن الواقفة كانت من الأشراف . [٦٨] وحددت سارة بنت إبراهيم الكاتب ريع وقفها لفقراء الحرمين فقط [٦٩]، فأوقفت لهم ٣٥٠ درهماً يشترى بها قمصان. فالسيدات الواقفات نوعّن في الموقوفات للفقراء، فكان توفيراللباس والطعام ذا أهمية في أوقاف الفقراء. كما تجاوزت السيدات الواقفات البعد المكاني لمناطق سكناهن أو مناطق أملاكهن حيث تجاوزت أوقافهن في رعاية الفقراء والمحتاجين حدود لواء دمشق.

وكان وقف الطعام هو الغالب على وقفيات الفقراء، وقد اقتصرت بعض الوقفيات على شراء الخبز أو اللحم أو الحلوى للفقراء وجمع بعضها أكثر من نوع واحد، وهناك وقفيات قامت على طهو الطعام، وكان مطبخ الدشيشة في باب البريد في دمشق من أشهر المطابخ، وكان يحدد في الوقفيات طبخ الخضراوات واللحم إضافة لتقديم الخبز. كما في وقفية كمش بوغا وزوجته[٧٠].

أما الواقفات من النساء من غير المسلمات، فإن الدارس يجد مجموعة من النساء

---

(٦٦) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 78; T. D.. 656. Istanbul. p. 95

(٦٧) انظر:
.T. D.. 393. Istanbul. p. 173

(٦٨) انظر:
.T. D.. 656. Istanbul. p.102

(٦٩) انظر:
.T. D.. 656. Istanbul. p.181

(٧٠) انظر:
.T. D.. 656. Istanbul. p. 164; T. D.. 393. Istanbul. p. 122; T. D.. 602. Istanbul p. 235

اليهوديات قد جعلن أوقافاً على فقراء اليهود وسموا بصعاليك السامرية، وبلغ عدد هذه الوقفيات ثلاثاً، حددت فيها حصة لفقراء أو صعاليك السامرية ما بين نصف وثلثين، وسدس، وكان في إحداها ما يشير إلى شراء اغنام تفرق على صعاليك السامرة[٧١]. وعوائد أوقافهن عادت ليهود السامرة الذين يقطنون في لواء دمشق ونابلس والخليل.

ولم تُذكر أية وقفية لسيدات مسيحيات في لواء دمشق، وهذا يعطي صورة عن ضعف مشاركتهن في حياة المجتمع، وترك هذا الدور للرجال دليل على سيطرته في مجتمعه.

ومن المؤسسات الدينية الأخرى التي خصصت لها النساء أوقافاً: الزوايا، والربط، والخانقاوات، والتكايا، والزاوية يؤسسها شخص ذو شأن روحي وشخصية دينية معروفة بالفضيلة، وشيخ الزاوية هو قطبها. ورواد الزاوية هم المنقطعون للعلم والزهد والعبادة، وقد بلغ عدد الوقفيات التي أوقفت على الزوايا عشر وقفيات، وكانت على الزاوية البرانية بالشاغور والزاوية الكردية ببعلبك، وزاوية ابن داوود في صالحية دمشق[٧٢]، وزاوية التوبة تحت قلعة بعلبك، ولم يظهر أي تفصيل حول أغراض الوقف بزاوية التوبة، سوى ما ظهر في وقفية ربيعة بنت محمد البعلية (٨٨٧هـ /١٤٨٢م)، وتقوم وقفيتها على زاوية التوبة تحت قلعة بعلبك، إذ يُصرف في كل سنة عشرون درهماً لشيخ الزاوية، وفي رأس كل سنة يصرف له مئة درهم، على أن يقرأ لأربعة أنفار حافظين صحيح البخاري لمدة ثلاثة أشهر، ويصرف كل شهر ٤٠ درهماً لعمل طعام، وخمسة عشر درهماً شهرياً ثمن زيت، وعشرة دراهم لشراء حصر وبسط، وخمسة وعشرون درهماً لجرف الثلج عن أسطح الزاوية[٧٣]

ويبرز الدور الاجتماعي للزاوية من خلال تقديم الطعام لمن يؤمون الزاوية من الفقراء، على أعتبار أن الذين يؤمونها منقطعين للعلم والزهد والعبادة[٧٤].

---

(٧١) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul

(٧٢) الزاوية الداودية: بناها الشيخ أبو بكر بن داوود بحدود سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م، ولم يكملها بسبب وفاته سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، وهي من أعظم زوايا الصالحية لسعتها وكثرة الأوقاف الموقوفة عليها والمرتبات السلطانية، فكانت تضم رواقاً وإيواناًأو مسجداً وخلاوي كثيرة للفقراء، وبيتاً للكتب الموقوفة عليها، وأتباعها من أتباع الطريقة القادرية. انظر: عبد القادر بن محمد النعيمي، (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) الدارس في تاريخ المدارس، ٢ج، تحقيق: جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٨م، ج٢، ص٢٠. وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس.

(٧٣) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 205

(٧٤) ابن عابدين، رد المحتار، ج٤، ص ٤٨٧.

وشاعت التكايا في العصر العثماني فأوقفت فاطمة خاتون، وزوجها مصطفى باشا (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)، الأوقاف على التكية العامرة في قرية جنين / لواء اللجون، حيث كان يطبخ فيها الطعام ويقدم للفقراء والمساكين، فخصص ما مجموعه واحد وعشرون درهماً على القائمين على إعداد الطعام وحفظه، ولمن يقوم بتنقية الحنطة والأرز، وعلى من يقوم بشراء حوائج الطعام[٧٥].

والربط: هي خانقاوات تختص بالنساء، وتقوم فيها حلقات الذكر، وقراءة الأوراد[٧٦]، وازدادت أهمية الربط من خلال الدور الاجتماعي الذي تقوم فيه لتعول الأرامل والمنقطعات بالربط أو العجايز، وبلغت عدد الوقفيات للربط خمس وقفيات، تباينت فيها أماكن هذه الربط، فاثنتان منها كانتا على أربطة الحرمين الشريفين، وواحدة على الرباط الذي على شاطئ البحر المالح، ليستفيد منه نفران يقيمان فيها[٧٧]، مما يعني أن القائمين على خدمتها هم القاطنون فيها، ويقومون على رعاية من تقطعت بهم السبل، ووقفية على رباط، في صالحية دمشق. خصصت للعجائز بما مقداره ٦٠٠ درهم كل عام، وجمعت وقفية كمش بوغا وزوجته بين الوقف على ربط الحرمين الشريفين وعلى فقراء الأربطة عامة[٧٨].

وأوقاف الربط جعلت للنساء نصيباً من أوقاف النساء؛ إذ روعيت من خلال هذه الوقفيات السيدات الأرامل والعزباوات، فسكنت المستفيدات من ريع الوقف في الرباط وفي التربة – أماكن دفن الموتى– والتي دفن فيها أصحاب السلطة أو ممن يرتبط بقرابة مع صاحبة الوقف، وبذلك كانت الربط والتربة التي أقامتها الواقفات مكان عيش لمن لا ملجأ لهن، فيكون سلوة للمقيمات فيه. فأوقفت ملكة خاتون بنت ناصر الدين (٩١٦هـ / ١٥١٠م) على نسوة لازمن التربة بسفح جبل قاسيون بشرط أن تكون النساء عزباوات[٧٩] وكانت وقفية فاطمة بنت أبي بكر بن قمر الدين على الأرامل، والوقف على مزار سيدي الشيخ رسلان

---

(٧٥) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٦.

(٧٦) يوسف كوريه، الوقف في دمشق، دراسة اقتصادية اجتماعية، من خلال وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق بين عامي (١١٦٠هـ/١٧٤٧م – ١١٨٠هـ/١٧٦٦م)، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٩١م، ص ١٤٣. وسيشار إليه فيما بعد: كوريه، الوقف في دمشق.

(٧٧) انظر:

.T. D.. 602. Istanbul. p. 128

(٧٨) انظر:

.T. D.. 393. Istanbul. p. 196

(٧٩) انظر:

.T. D.. 393. Istanbul. p. 246; T. D.. 602. Istanbul. p.156

ومصارف المزار والطعام الذي يقدم فيه كل جمعة[٨٠]، والمتأمل في وقفيات النساء الواقفات يلحظ ميلهن إلى تعزيز مبدأ التضامن الاجتماعي من خلال ما وفرنه من مناخ عيش مادي ونفسي لفئة منقطعة.

أما الخانقاوات[٨١] فكان عدد الوقفيات المرصودة عليها ثلاث وقفيات. وكانت الواقفة أحياناً من سلالة السلاطين، فأوقفت أصبهان شاه بنت قازان علي شاه (٧٧٢هـ / ١٣٧٠م)، وأوقفت زمردة خاتون بنت نور الدين الشهيد (٥٥٥ هـ / ١١٦٠م)، وخاتون بنت الملك معين الدين أُنر زوج نور الدين الشهيد (٨٧٠هـ / ١٤٦٥م). وتكفلت كل من أصبهان شاه في الخانقاه التي أنشأتها داخل المدرسة وخاتون بنت الملك معين[٨٢] على الخانقاه جوار جامع دنكز،[٨٣] بكافة مصاريف الخانقاه، وتتمثل بمصاريف شيخ الصوفية والقائمين على خدمة الخانقاه، وهم البواب، والمؤدب والفراش والطباخ إضافة لما يصرف لأنفار الصوفية، كما تكفلت الواقفات بحاجات الخانقاه للطبخ، إضافة لحصر وبسط وقناديل وزيت تستغل جميعها بالخانقاه.

واحتلت الأغراض الاجتماعية أهمية كبيرة في أوقاف النساء، إذ نظرت النساء في وقفياتهن إلى الفئات التي لا مصدر رزق لها كالأيتام والأرامل والمعوزين من الفقراء، وحظي أصحاب العاهات بحصة من أوقاف النساء.

وقد حظي الأيتام بوصفهم فئة اجتماعية باهتمام بعض الواقفات، وكانت العناية بالأيتام ترتكز بالدرجة الأولى على التعليم واللباس، وصرف مقادير من الغذاء، كإعاشة ضمن المراكز التعليمية التي ينضمون إليها، لذا فقد كان جوهر العناية بالأيتام، هو تأهيلهم

(٨٠) انظر:
.T. D.. 393. Istanbul . p. 213

(٨١) الخانقاوات: هي نوع من المعاهد الدينية الاسلامية، وهي دور عبادة وعلم تقوم بأدوار مختلفة دينية وثقافية واجتماعية كالمدارس ولكنها مدارس العامة ممن نذروا أنفسهم لحياة الزهد والتقشف. ظهرت بحدود سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م، بدأها صلاح الدين الأيوبي، وللخانقاه باب خارجي، ثم صحن ويشمل الصحن على إيوان وهو قاعة. و مجلس كبير، ويخصص للمتجردين ممن يحبسون أنفسهم في الخانقاه والزاوية وكذلك في خدمة الزوار، ورجال الصوفية، والقبة إذ تقام على رفات شخص له مكانة دينية تدعو لتخليد ذكراه، ثم الخلوه التي يختلي بها الصوفي من أجل الرياضة الروحية، والتعبد. أنظر: لبنيه، الربط والخانقاوات، ص ١٠٥.

(٨٢) خاتون بنت معين الدين أُنر، كانت زوجة نورالدين زنكي ثم تزوجها صلاح الدين الأيوبي، لها عدة منشآت في مدينة دمشق وأهمها المدرسة الخاتونية الجوانية والتربة الخاتونية إضافة للخانقاه الخاتونية. انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص١٥٢

(٨٣) الخانقاه الخاتونية: شرقي جامع تنكز تنسب إلى خاتون بنت معين الدين أُنر زوجة نورالدين زنكي.وكان لها شيوخاً من الصوفية، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص١٤٥.

ليصبحوا قادرين على تحمل مسؤولياتهم عند الكبر.

تفاوت عدد الأوقاف في الدفاتر التي تم الاعتماد عليها من ثلاث إلى خمس وقفيات. والجدول التالي، يوضح عدد الوقفيات المرصودة للأيتام، على أغراض الطعام، أو على توفير اللباس لهم. استناداً إلى دفاتر الأوقاف الواردة في الجدول الآتي:

الجدول رقم (٣)

رقم الدفتر / السنة	عدد الوقفيات للأيتام بكافة الأغراض	عدد الوقفيات للالبسة فقط
٣٩٣ (٩٧٤هـ / ١٥٦٦)	٣	-
٦٠٢ (٩٩٠هـ / ١٥٨٢م)	٢	٣
٦٥٦(١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥)	١	٢

يوضح الجدول (رقم ٣) نوعين من الأغراض على وقف الأيتام، هي الطعام واللباس، كما يوضح تراجع عدد الوقفيات مع نهايات القرن (١٠هـ / ١٦م) كما يظهر في الدفتر ٦٥٦ (١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م)، والمدقق في الجدول السابق يلاحظ تراجعاً في كمية الوقف، ولا تتوافر معلومات عن سبب التراجع إن كان يعود إلى عدم الدقة في التسجيل أو إلى خراب الوقف.

وكانت بعض أوقاف الأيتام تخصص للتعليم، كما في وقفية مايا خاتون في مدرسة أسد الدين شيركوه؛ إذ أوقفت لعشرين يتيماً، أو في المساجد، كما في وقفية فاطمة بنت عبد الله سنة (٨١٨هـ / ١٤١٥م) وكانت لخمسة أيتام في مسجد قناة الداوود في محلة الشويكة[٨٤]. وبعضها للأيتام المقيمين بالحرمين الشريفين، كما في وقفية فاطمة بنت أبي بكر قمر الدين دون تحديد عدد هؤلاء الأيتام[٨٥].

وقد شملت مصاريف وقف الأيتام تكاليف المؤدب، أو الشيخ الذي يقوم بتعليم الأيتام، أو تحديد مبلغ مالي يصرف للأيتام الموقوف لهم، كما في وقفية ست جلب بنت الفخري عثمان (٦١٩هـ / ١٢٢٢م) حيث صرفت لعشرة أيتام ٦٠ درهماً.

وأوقفت مايا خاتون، على عشرين يتيماً لكل منهم ١٠ دراهم، وهي من أكبر الوقفيات التي وردت، إذ تكفلت بطعام الأيتام، وتنوع الطعام المقدم ليشمل نصف رطل خبز لكل يتيم،

(٨٤) انظر:

.T. D., 656, Istanbul, p. 243; T. D., 393, Istanbul, p. 181

(٨٥) انظر:

.T. D., 393, Istanbul, p. 174

و١٢ أوقية لحم لكل يتيم في شهر رمضان، إضافة للباس الشتوي والصيفي ففي كل فصل يعطى طاقية وجبّة، وثلاثة قمصان، وكوفيتين وسروال ودراعة[٨٦] ومداسين[٨٧].

وتفاوت المقدار الذي يعطى لمؤدبي هؤلاء الأيتام، ففي وقفية مايا خاتون بنت السلطان أسد الدين شيركوه (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وكانت على ٢٠ يتيماً، يصرف لمؤدبهم في كل شهر عشرون درهماً، أي درهمان عن كل يتيم، وفي وقفية أصبهان شاه بنت قازان (٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) كانت حصة المعلم كل شهر ٥ دراهم وعدد الأيتام خمسة، أي أن حصة المعلم والشيخ عن كل يتيم في الحالتين السابقتين درهم واحد. وفي وقفية ست جلب بنت الغزي (٦١٩هـ/١٢٢٢م) كانت حصة مؤدبهم وشيخهم ٥٠ درهما عن كل شهرٍ، وكان عدد الأيتام عشرة، وجعلت لهم ستين درهماً، وبهذا تكون حصة كل يتيم ستة دراهم، وحصة المؤدب والشيخ عن كل يتيم خمسة دراهم[٨٨].

تعددت مراكز التعليم التي دعمتها الواقفات، فهناك المدارس والكتاتيب، فأوقفت وقفيات على مدارس أنشأتها الواقفات، أو على مدارس أنشأها اباؤهن أو أجدادهن، كوقفية أم الحسن خديجة محمد اليونيني فكانت وقفيتها على مدرسة جدها[٨٩]،ووقفية سنية خاتون بنت عريب دنكيز بوغا، وكانت على المدرسة التي أنشأها جدها بمحلة الجسر الأبيض،[٩٠] في الصالحية، ووقف لعايشة أم الخواجا برهان الدين على المدرسة التي أنشأها والدها برهاني إبراهيم في محلة الجسر الأبيض في الصالحية[٩١]، ووقف ناتارين بنت محمد الرابع، على مدرسة جدها برهان الدين، في الجسر الأبيض في الصالحية[٩٢]، ومن المدارس التي أنشأتها

(٨٦) الدِّراعة: ضرب من الثياب التي تلبس، وقيل جبة مشقوقة المُقدم. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) ، لسان العرب، ١٥ج، دار صادر بيروت، د.ت ، ج٢، ص ٨٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن منظور، لسان العرب.

(٨٧) انظر: .T. D.. 602. Istanbul. p. 121

(٨٨) انظر: .T. D.. 602. Istanbul. p.179

(٨٩) انظر: .T. D.. 393. Istanbul. p. 95

(٩٠) انظر: .T. D.. 656. Istanbul. p. 85; T. D.. 393. Istanbul. p. 72

(٩١) انظر: .T. D.. 393. Istanbul. p. 90

(٩٢) انظر: .T. D. 656. Istanbul. p. 86

واقفات مدرسة زهره خاتون بنت السلطان سيف الدين أبي بكر بن أبي أيوب بن شادي[٩٣]، ومدرسة أصبهان شاه بنت قازان شاه على المدرسة التي أنشأتها في القدس الشريف، بباب الحديد جوار المسجد الأقصى الشريف، وتاريخ الوقفية سنة (٧٧٢ هـ / ١٢٧٠م).

ومن المدارس الأخرى التي كان لها نصيب من وقفيات النساء، من غير المدارس التي أنشأها أقارب الواقفات، المدرسة المارداني[٩٤] والمدرسة الكاملية، والمدرسة الجمالية[٩٥] في الصالحية، والمدرسة الترابية المعروفة بالحصن.

وقد قسمت أصبهان شاه بنت قازان شاه حصصاً من أوقافها على مصالح المدرسة، فخصصت لبواب المدرسة ١٥ درهماً، ويصرف لعشرة أنفار مشتغلين بالعلم الشريف أي (العلوم الدينية) على مذهب الأمام أبي حنيفة النعمان، ومن جملتهم معيد ومدرس حيث يصرف للمدرس ٣٠ درهماً وللمعيد عشرون درهماً ولكل واحد من الطلبة ١٨ درهماً، واشترطت الواقفة حضورهم باكراً إلى المدرسة[٩٦]. ونلحظ هنا أن مقدار المصروف المخصص للطلبة والمدرس في المدرسة يزيد عن الضعف عما هو مخصص للطلبة في الكتاب.

والحصص التي أوقفتها عزيزة خاتون بنت قطب الدين غازي على المدرسة المارادانية، فهي أن يصرف لرجل من أهل العلم حنفي المذهب يقوم بتدريس العلم في المدرسة المذكورة في كل يوم ما فضل من الوقف بعد مصالح الجامع، كما يصرف له كل يوم رطل واحد من الخبز ويصرف له ٣٠ مثقالاً[٩٧] من الفضة شهرياً. ولكل نفر من المتفقهين بالمدرسة خمسة

---

(٩٣) انظر:

.T. D.656, Istanbul, p. 156, T. D. 602

المدرسة الأسدية: بالشرف القبلي ظاهر دمشق، وهي مطلة على الميدان الأخضر، وهي على الشافعية والحنفية، أنشأها أسد الدين شيركوه، ٥٦٤هـ/١١٦٨م، وهو من الأكراد، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص١٥٢.

(٩٤) المدرسة المارداني: على حافة نهر ثورا الصيق الجسر الأبيض بالصالحية، أنشأتها عزيزة الدين خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين، ووهي زوجة السلطان الملك المعظم سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، ووقفها سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، وقطب الدين مودود أتابك زنكي أخو نورالدين والدها. انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٩٢.

(٩٥) المدرسة الجمالية، أوقفها الأمير جمال الدين يوسف بسفح جبل قاسيون، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص٤٨٨

(٩٦) انظر:

.T. D., 393, Istanbul, p. 78

(٩٧) مثقال الفضة في بلاد الشام في العصور الوسطى يساوي ١٦/١ من الدرهم. انظر: هنتس فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٠م، ص ١٠، وسيشار إليه فيما بعد: فالتر، المكاييل والأوزان.

مثاقيل فضة شهرياً[٩٨].

وتباينت حصص الفقهاء في مدرسة أسد الدين شيركوه بوقفية ابنته مايا خاتون حسب درجاتهم، إذ ميزت الوقفية ثلاث طبقات للفقهاء؛ وهي الطبقة العليا، وصرف ٢٠ درهماً شهرياً لكل واحدة، ورطل خبز يومياً، والطبقة الوسطى وصرف ١٥ درهماً لكل واحد منهم شهرياً، ورطل خبز يومياً، وطبقة المبتدئين: صرف ١٠ دراهم لكل واحد منهم شهرياً بالإضافة إلى ثلاثة أرطال من الخبز يومياً، وللإمام الذي على المذهب الشافعي خصص له ٢٠ درهماً شهرياً ورطل خبز كل يوم[٩٩].

ودعمت الواقفات الكتاتيب، فصرفت عزيزة المارداني لرجل يدرس في المكتب يدرس الناس عشرة مثاقيل من الفضة شهرياً [١٠٠].

واحتل العتقاء والعتيقات مكانة عند الواقفات في الفترة الزمنية التي استهدفتها الدراسة وكانت منزلتهم بالنسبة للواقفات تأتي بعد منزلة الأبناء في مقدار الأوقاف التي أوقفت لهم، فجعلته أم خاتون بنت السلطان أسدالدين شيركوه على أولادها ثم عتقائها، وفي أحيان اخرى كانت لهم المكانة الأولى قبل ذرية الواقفة.وقد أوضحت لنا إحدى الوقفيات الواردة في دفتر التحرير، المناطق التي جاء منها العتقاء، وذلك في وقفية ست جلب بنت الفخري عثمان بن أغول (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) فجعلت وقفها على العتقاء، وصرفت في كل شهر عشرين درهماً للبيض، وعشرة دراهم للسود الأحباش الذكور والاناث، وهنا ميزت الواقفة المقدار الذي سيستفيد منه العتقاء لكل واحد منهم عشرة دراهم، مقارنة بالبيض الذين ارتفع مقدار وقفهم إلى عشرين درهماً[١٠١].

كما عين للمعتقات من كبار السن أوقافاً، وبنظرة فاحصة لمكانة الواقفات اللواتي أوقفن أوقافاً للعتقاء أو المعتقات، فكنّ أماً من بنات السلاطين أو من بنات أصحاب السلطة من أعتاب السلطنة السابقة للدولة العثمانية، وكانت جميع الواقفات ممن أوقفن أوقافاً للعتقاء من غير العرب. كما في وقفية زهرا خاتون بنت السلطان سيف الدين أبي بكر، التي كان

(٩٨) انظر: .T. D. 656. Istanbul. p. 104; T. D. 393. Istanbul. p.173

(٩٩) انظر: .T. D. 393. Istanbul. p. 124

(١٠٠) انظر: .T. D. 393. Istanbul. p. 94

(١٠١) انظر: .T. D. 602. Istanbul. p. 101

وقفها على عتقائها وعتقاء أبيها. [١٠٢] وأوقفت ست جلب بنت الفخري عثمان بن أغول بك على عتقائها وعتقاء زوجها ابن أجالي [١٠٣].

وقد شمل الوقف العتيق وذريته وأنساله، واشترط في كثير من الوقفيات أن يؤول الوقف إلى ذرية أولاد العتقاء بعد انقراض أولاد الواقفة وعتقائها، كما في وقفية عايشة بنت الياس وابنتها سوندك (٨٦٤ هـ/ ١٤٥٩م) فكان وقفهن من بعد الأبناء على عتقاء الواقفتين ثم على أنسالهم وأعقابهم[١٠٤]، وعند الفقهاء فان الوقف على العتقاء يؤول إلى أبنائهم من بعدهم وإن لم يعين الواقف[١٠٥] وبلغ عدد الأوقاف التي كانت للعتقاء عشر وقفيات.

وفي إحدى الوقفيات كانت المعتقة هي صاحبة الوقف، وأوقفت الأوقاف لأولاد معتقها، وسجلت في السجل باسم أم الخواجا برهان الدين (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م)، وعاد أولاً على من يوجد من أولاد معتقها ثم على أولادهم وأنسالهم، [١٠٦] وكذلك أوقفت سكر ملك بنت عبد الله وابنتها خديجة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) بعد نفسها، على معتقها عبد القادر بن تاج الدين عبد الوهاب الديوان ونسله [١٠٧] وهذا الوقف المتبادل بين المُعتقين والعتقاء دليل على عمق العلاقة بين الطرفين.

توزعت الوقفيات على المعتقات حسبما سجلت في سجل التحرير في القرن (٧هـ/ ١٣م) (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م - ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)، فبلغ عددها أربع وقفيات، وبلغت القرن الثامن الهجري (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م - ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م) وقفيتين، وفي القرن (٩هـ/ ١٤م) ست وقفيات، وفي القرن (١٠هـ/ ١٦م) ما بين (٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م - ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، أي في الفترة قبل دخول العثمانيين، ثلاث وقفيات فقط، وسجلت وقفية واحدة للعتقاء في العهد

---

(١٠٢) انظر:
.T. D. 393. Istanbul. p. 136

(١٠٣) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 183

(١٠٤) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 46

(١٠٥) الطرابلسي، الأسعاف، ص ١٣٠؛ أبو بكر أحمد بن عمر الشيباني الخصاف، (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، أحكام الأوقاف، الناشر: ديوان عموم الأوقاف المصرية، مصر، ط٢، ١٩٠٤م، ص١١٥. وسيشار إليه فيما بعد: الخصاف، أحكام الأوقاف.

(١٠٦) انظر:
.T. D.393. Istanbul. p. 173

(١٠٧) انظر:
.T. D.602. Istanbul. p. 233

العثماني.

وأوقفت زهرا خاتون على كبيرات السن من النسوة المُعتَقات الساكنات بالقاعة الحرمية، وتميز وقفهن عن باقي أشكال أوقاف العتقاء بكونه وقفاً عينياً حيث صرف كل يوم رطل خبز، وفي كل شهر ٥ أرطال زيت، تسرج به القاعة الحرمية وتوابعها[١٠٨]. كما يصرف مئة درهم لكل واحدة من النسوة المعتقات بالقائمة أما باقي الوقفيات فكان يعود للمعتقات دون تحديد حصة.

وأوقفت وقفيات عامة على أغراض عامة كفكاك الأسرى، والمحابيس والبيمارستان، وسبل الماء، إلا أن هذا النوع من الأوقاف العامة كان محدوداً لم يتجاوز وقفية واحدة لكل منها.

وكان الوقف على فكاك الأسرى من أيدي الكفار من قبل سيدتين، الأولى هي صالحة خاتون ابنة الأمير صلاح الدين(٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، وجعلته على فكاك الأسرى المسلمين المأسورين في أيدي الكفار[١٠٩]، والثانية زوجة أو ابنة لأحد كبار الموظفين بالدولة وهي ست مرزان خاتون بنت عبد الله زوجة حسام الدين (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م).[١١٠]

كما كان للعسكر الطواشية (بالعهد المملوكي) حظ من أوقاف الواقفات، فأوقفت لهم أرغون خاتون (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)[١١١]، أما الوقف الذي أوقف على محابيس الشام، فقد اوقفته سيدات لم يلحظ لهن مكانة في المجتمع الدمشقي، فأوقفته زينب بنت سراج الدين حجر السلاوي (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)[١١٢]، وزينب بنت الصابوني (٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م) وكان الوقف في الوقفيتين محدداً بالخبز، وحددته احداهما لليلة الجمعة، والواضح من أسماء الواقفات أنهن من أهل الشام.

أما نصيب المؤسسات الخدماتية العامة التي يستفيد منها عامة الشعب من الوقفيات فتمثلت في الوقفيات التي على البيمارستان وسبيل الماء، وكان هذا النوع من الأوقاف

---

(١٠٨) انظر:
.T. D.602. Istanbul. p. 126

(١٠٩) وقفية صالحة خاتون، غير مرقمة. T.K.Ankara .581.p 105

(١١٠) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p.104

(١١١) انظر:
.T. D. 393. Istanbul. p. 207; T. D.602. Istanbul. p. 94

(١١٢) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 119

في أوقاف النساء هو الأقل، فلم يتجاوز عدد الأوقاف على البيمارستانات ثلاث وقفيات، وقفيتان منهما على البيمارستان النوري[١١٣]، بدمشق، والقيمري بصالحية دمشق[١١٤]. فاوقفته كل من ست الأول ملكة خاتون بنت الأمير قماسي (٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، ثم كرنلدي خاتون بنت بيبرس الجالقي (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)، وكانت الواقفات من بنات أو زوجات كبار الموظفين في العهد المملوكي[١١٥]، وعلى وقف القيمرية وأوقفته زينب بنت شمس الدين محمد المعروفة بابنة الزردكاش.

وكذا كان الحال في الأوقاف على سبل الماء، إذ لم تتجاوز أربع وقفيات أقدمها وقفية صالحة خاتون بنت الأمير صلاح الدين بن بهلوان (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) وقام الوقف على إقامة سبيل ماءٍ عذب للشرب في قرية دير عطية – قارا إذا ما تعطل صرف ريع الوقف على فكاك الأسرى مدة سنتين.[١١٦] ووقفية أوقفتها أصيل خاتون بنت الأمير جانم (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م) [١١٧] وواضح من تاريخ الوقفية أنها تعود إلى نهاية العهد المملوكي، وأما الوقفية الثالثة فهي وإن سجلت في سنة (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) إلا أن الواضح أن صاحبة الوقفية كانت من عائلات العهد المملوكي المرموقة، وسجلت باسم مريم بنت الصارمي ابراهيم بن أكرم. والوقفية الرابعة لفاطمة خاتون، تعود للربع الأخير من القرن (١٠هـ/١٦م)، وزوج الواقفة أحد موظفي الدولة العثمانية والواقفة ابنة السلطان الغوري وسبيل الماء في قرية جنين / لواء اللجون، والسبيل يزود الجامع والتكية العامرة بالماء.[١١٨] وفي إحدى الوقفيات التي تعود للقرن (٨هـ/ ١٤م) كما في وقفية صالحة خاتون بنت الأمير صلاح الدين بن بهلوان (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) ظهرت الرغبة من قبل الواقفة في إعمار قرى، وكان

(١١٣) البيمارستان النوري: الكبير بناه الملك العادل نورالدين محمود زنكي بدمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، واشترط أن يخصص للفقراء والمساكين، ولكنه إذا وجد فيه دواء ليس موجوداً في البلاد فلا يمنع عن الأغنياء، وكانت العادة في البيمارستان النوري أنه بعد أن يعود الطبيب مرضاه الخاصين بعد الظهر كان يرجع إلى البيمارستان ليعطي دروسه لبضع ساعات، وأوقف نورالدين على هذا البيمارستان محلة من الكتب الطبية. حنيفة الخطيب، "الطب عند العرب"، مجلة أوقاف، عدد ٦، سنة ٣، ٢٠٠٤م، ص ١٣٩.

(١١٤) انظر:

.T. D. 656. Istanbul. p.120; T. D. 393. Istanbul. p.180

(١١٥) انظر:

.T. D. 602. Istanbul. p. 242

(١١٦) وقفية صالحة خاتون، غير مرقمة. T.K. 581. Ankara . p. 105

(١١٧) انظر:

.T. D.. 602.. Istanbul. p. 128

(١١٨) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٧.

إصلاح الأراضي المرصودة للوقف شرط على ناظر الوقف وذلك بإصلاح أراضٍ في قرية دير عطية ـ قارا وذلك بإيصال الماء إلى أراضيها وقنواتها (١١٩).

مكانة النساء الواقفات

إن تقديم عرض. وصفي دقيق لمكانة السيدات الواقفات من الصعوبة بمكان، وذلك لعدم توفر معلومات تامة عن نسب الواقفة، ومن هنا تنحصر القدرة على تصنيف الواقفات بالاعتماد على الألقاب التي حملتها الواقفة، واسم العائلة الذي تحمله إن كان معروفاً ومشهوراً، أو إعتماداً على الكنية التي يحملها والدها إن كان اسمه قد اتبع بصفته الوظيفية.

كانت أصول السيدات الواقفات في لواء دمشق من العرب، ومن غير العرب، وكانت غير العربيات من بنات أو زوجات السلاطين قبل العهد العثماني، كبنات سلاطين الدولة الأيوبية وزوجات الموظفين العسكريين والإداريين في عهد الدولة المملوكية، أو جواري ممن تزوجن بأصحاب المكانة في العهد المملوكي. وحملنَ لقب الخاتون، ولم يمنح نفس اللقب للسيدات العربيات.

وتم التعرف على السيدات العربيات اللواتي أوقفن أوقافاً اعتماداً على إسم العائلة وليس اسم السيدة، إذ حملت بعض السيدات المعتقات أسماءً، كأسماء السيدات العربيات، مثل فاطمة وخديجة وحبيبة، ويستدل على مكانة السيدات العربيات منهن من خلال النسبة إلى مكان السكن أو المولد، أما السيدات العربيات فقد كنّ من بنات القضاة أو من الاغنياء والتي أوقفت أكثر من عين واحدة.

يوضح الجدول التالي عدد السيدات الواقفات من أصول غير عربية، واصول عربية، حسب مكانتهن الاجتماعية، كما يوضح الجدول عدد السيدات الواقفات حسب السنوات، للسيدات العربيات وغير العربيات، وتم تصنيفهن حسب المكانة الاجتماعية، والمستوى المعيشي:

الجدول رقم (٤)

(١١٩) وقفية صالحة خاتون، غير مرقمة. T. K. Ankara. 581.p 105

رقم الدفتر	الأصول العرقية	ق٦هـ (٥٠٠-٥٩٩هـ/ ١١٠٦-١٢٠٢م)			ق٧هـ/ ١٣م (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م)			٧٠٠-٧٩٩هـ ١٣٠١-١٣٩٦م			٨٠٠-٨٢٤هـ/ ١٣٩٧-١٤٢١م			بعد ٩٢٥هـ/ ١٥١٨م		
		بنات لسماب السلطة	أغنياء	أحوال عادية	بنات لسماب السلطة	أغنياء	أحوال عادية	بنات لسماب السلطة	أغنياء	أحوال عادية	بنات لسماب السلطة	أغنياء	أحوال عادية	بنات لسماب السلطة	أغنياء	أحوال عادية
٢٩٢	ليست عربية	١			٢	١	١	١	٢	١	٨	٢	٢	١		
	عربية										٤	٩	٣			
	معتقات															
٦٠٢	ليست عربية	١			٥			٥			٢١	١٤	٢	٣		
	عربية					١			١	١	٦	٣٥	٩	١	١٠	٣
	معتقات															
٦٩٦	ليست عربية	١			٣			٣			١٠	٤		٩	١	
	عربية	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١		٤	٣٠	٣	٢	٧	١
	معتقات											١		١		
٨٩١	ليست عربية				١			١			٧	٥		١٣		
	عربية										٢	١١		٥		
	معتقات															

بدراسة تحليلية للجدول رقم (٤) يلاحظ أن المحاور الأساسية للتصنيف هي سيدات عربيات، وغير عربيات، ومعتقات وتصنيف هذين الأصلين العرقيين إلى من ينتسبن للأشراف أو ممن كن من الأغنياء، أو للعتيقات اللواتي كن إئماءً وحررن.

كما يوضح أن السيدات المرتبطات بالسلطة ممن كان لهن أوقاف هُنَّ السيدات غير العربيات، ثلاث منهن من العائلة الأيوبية، وعدد أكبر في العهد المملوكي وفي العهد العثماني بلغت وقفيات بنات أصحاب السلطة خمس وقفيات. حظيت السيدات العربيات بالنصيب الأكبر من وقفيات النساء ذوات المال، وقد اعتبرت الباحثة أن كل سيدة أوقفت وقفاً هي من الميسورات للسبب المذكور أعلاه. كما أوضح الجدول أن أغلب وقفيات النساء العربيات تعود إلى العهد المملوكي وخاصة عهد المماليك البرجية (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م - ٩٢٣هـ/

١٥١٧م)، والواقفات صنفن من الأغنياء، وهذا يعني اتجاه عام في فترة الحكم المملوكي لوقف الأملاك لحمايتها من الضرائب العالية التي فرضت في هذه الفترة، وقد كانت نوعية الأراضي الموقوفة في الغالب أراضي وبيوتاً ودكاكين، زاد عددها على عين واحد لكل واقفة، ويلاحظ إرتفاع وقفيات السيدات العربيات مقارنة بغير العربيات في القرن (٩هـ / ١٥م) . حتى دخول العثمانيين، في حين أن الوقفيات المسجلة في القرن (٨هـ / ١٤م)، و(٧هـ / ١٣م) و(٦هـ / ١٢م) كانت محدودة، أي أن دور النساء في الوقف أصبح أكثر فاعلية منذ القرن التاسع الهجري.

يلاحظ أن عدد الوقفيات المنشأة من قبل سيدات غير عربيات زادت في القرن (١٠هـ / ١٦م) الهجري وكانت غالبيتهن إما زوجة أو ابنة لأحد كبار الموظفين في ولاية دمشق، مثل وقفية الست فاطمة بنت سنان آغا الإنكشاري بالشام (٩٩٨هـ / ١٥٨٩م)[١٢٠]، ووقفية أم مناي بنت سيدي منصور بن القاضي برهان الدين بن محب الدين (٩٧١هـ / ١٥٦٣م)، ووقفية باي خاتون بنت ناصر الدين إيكموش (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)، وإما أن تكون الواقفة ابنة سلطان أو أمير مثل وقفية أم خاتون بنت السلطان أسد الدين شيركوه (٩٥٥هـ / ١٥٤٨م)[١٢١]، ووقفية فاطمة خاتون بنت فخر الأمراء الكرام فايق بك، ووقفية فاطمة خاتون بنت السلطان قانصوه الغوري (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)[١٢٢]. ويعود ذلك إلى أن الأفراد المسيطرين على السلطة هم موظفو الدولة الذين حصلوا على إيرادات عالية من إقطاعاتهم ثم أوقفوا هذه الاملاك وبتحوليها إلى أوقاف حموها من فرض الضرائب العالية عليها[١٢٣].

كما لوحظ أن نوعية الموقوف من قبل النساء اللواتي ينتمين لأصحاب السلطة وكبار الموظفين هي طواحين، وحمامات، وقرى كاملة، وأراضٍ. زاد عدد العين الموقوف عند بعضهن على عشر.

لوحظ من وقفيات النساء العربيات، نسبة بعضهن إلى قرى، أو ذكر القرية التي تسكنها

---

(١٢٠) انظر:
.T. D. 581. Ankara. p.126

(١٢١) انظر:
.T. D.. 581. Ankara. p. 143

(١٢٢) انظر:
.T. D.. 581. Ankara. p. 201

(١٢٣) للتوسع حول هذا الموضوع انظر: أسماء رمضان خليل، ريف لواء دمشق في القرن ١٠هـ/ ١٦م، ص ١٠٨، وص١٣٢.

الواقفة، ومن القرى التي ذكرت في هذه الوقفيات بابيلا[١٢٤] وجرمانا، وكفررمان، وحسبان والبقاع، وهذا يؤكد مشاركة ميسورات الحال اللواتي يقطن بالريف بأوقاف عدة.

المشاركة في الوقف:

كانت المشاركة بالوقف مع طرف آخر، هي أحد أشكال الوقف التي شاعت في وقفيات، السيدات الواقفات، ولم تخرج أنماط المشاركة عن العائلة، فالمشاركة قد تجمع أختين، أو أماً وابنتها، أو أختاً وأخاها وأقلها شيوعاً الوقف الذي يميز بين الزوج والزوجة، ومن أشكال المشاركة التي ظهرت كذلك، المشاركة بالوقف بين السيدة وعتيقتها.

وبلغ عدد الوقفيات التي تشاركت فيها الأم والابنة أربع وقفيات وارتبط تاريخ هذه الوقفيات جميعاً بالقرن (٩هـ / ١٥م). وأسباب المشاركة مع الابنة تعود إلى أن تكون الابنة هي وحيدة أمها ولا أخوة لها، ويعودالوقف لابنة الواقفة ثم لذريتها كما في وقفية كل من سلمى خاتون ابنة زين الدين عمر، وابنتها فاطمة بنت شمس الدين محمد الفراء من قرية جرمانة، التي جعلت الوقف على نفسها ثم من بعدها على ما عساه يحدث لها من الأولاد وذريتهم الذكور والإناث على السواء، وهذه أحد الأمثلة على توقف ذرية الواقفتين، مما استدعى هذا الشكل من الوقف إذ تستطيع الواقفة الأم بهذه الحال ضمان عدم مشاركة الأقارب لابنتها في الميراث المتروك، ليظل حصراً لها من خلال الوقف، وقد شاع هذا النمط لدى العرب وغير العرب من السيدات الواقفات.

وبلغ عدد الوقفيات التي كانت المشاركة فيها بين الاخوة ست وقفيات، وبين الأخ واخته أربع وقفيات، واحدة فيها كانت لسيدة ذات أصول عربية تعود لأواخر القرن (٩هـ / ١٥م) وثلاث لسيدتين من أصول غير عربية تعود لأوائل القرن (١٠هـ / ١٦م)، وعادت للذرية من بعد الواقفين. وفي وقف العلائي وأخته سارة، ولد البقوي أبو بكر التركماني (٩٣٨هـ / ١٥٣١م)، لم يكن للواقفين المتشاركين ذرية[١٢٥].

وبلغ عدد الوقفيات بين اختين وقفيتين، وكانت لغيرالعربيات، ووقفيتان سجلت

---

(١٢٤) بابيلا: من أراضي غوطة دمشق، القسم الشرقي من ناحية داريا، يحدها شمالاً أراضي حي الشاغور من دمشق، وشرقاً بيت سحم وعقربا وجنوباً قبر الست وغرباً يلدا، تبعد عن العاصمة دمشق نحو خمسة كم، يمر من وسط القرية جدول صغير يسمى (قناة البلد)، أراضي القرية مستوية سهلة، عديمة الأحجار تزرع سقياً وبعضها بعل على ماء المطر. زكريا، الريف السوري، ج٢، ص ١٦٧-١٦٨.

(١٢٥) انظر:

.T. D.. 656. Istanbul. p. 162

فيهما المشاركة بين الزوج والزوجة تعود لكمش بوغا وزوجته آق ملك بنت عبد الله ويعود الوقف لأولادهم من بعدهم[١٢٦]. ووقفية فاطمة خاتون وزوجها مصطفى باشا الوزير سنة (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ولم تكن الواقفتان من أصول عربية، وتعود الوقفية الأولى للقرن ٩هـ / ١٥م، والثانية تعود للقرن العاشر الهجري.

والوقفية الوحيدة المسجلة بين سيدة وعتيقتها هي وقفية أزدان بنت شرف يحيي ابنة إبراهيم سعد الدين وعتيقتها نبوية (٩٨٠هـ / ١٥٧٢م)[١٢٧]، على نفسيهما ثم من بعد كل واحدة منهما على أولادها ونسلها وتعود الوقفية إلى بدايات دخول العثمانيين.

نظارة الوقف

في الروايات القليلة التي تذكر حول نظارة الوقف، ظهر لدينا شكلان للنظارة؛ الأول أن تكون صاحبة الوقف هي الناظرة عليه، والثاني أن تقوم صاحبة الوقف بتعيين آخر للقيام بوظيفة النظارة. ولدى الفقهاء إن كان الواقف من أهل الوقف، لا يشترط فيه العلم كي تجب له النظارة، وشرط العلم لازم إن كان الناظر من غير أهل الوقف[١٢٨].

وقد بلغ عدد الوقفيات التي كانت صاحبة الوقف هي الناظرة عليه ست وقفيات، تنوعت فيها مراتب السيدات الواقفات، ففي ثلاث وقفيات منها كانت زوجة أو أماً أو ابنة من بنات سلاطين الدولة الأيوبية، وفي وقفية أخرى كانت لإحدى بنات السلاطين في العهد المملوكي وهي فاطمة خاتون بنت السلطان محمد بك ابن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري، كما كانت زوجة ناظر ديوان الوزارة مصطفى باشا الوزير في عهد الدولة العثمانية[١٢٩]. أما الوقفيات الثلاثة الأخريات فقد تولت نظارتها ثلاث واقفات لم يكُنّ عربيات، ومنها وقفية حبيبة الملك بنت زين الدين صدر بن أبي بكر وجعلته من بعدها للأرشد من الموقوف لهم من الذرية، وأرغون خاتون تعرف بالحافظية وجعلته من بعد وفاتها للطواشي حسام الدين ثم لحاكم المسلمين . وفي وقفية حبيبة بنت القرشي خليل، جعلت النظارة لنفسها. وجعلته فاطمة خاتون من بعدها للأكبر من أولادها وذريتهم، واشترطت الواقفة أن تعطى النظارة

---

(١٢٦) انظر: .T. D., 393, p. 257

(١٢٧) انظر: .T. D. 393, Istanbul, p. 39

(١٢٨) قاروت، "ناظر الأوقاف"، ص١٤٩

(١٢٩) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٠.

لمن هو من أهل الواقفة من أولادها الذكور ومن يصلح من عتقائها وعتقاء زوجها، ولا يخرج عنهم إلى الأجانب إلا إذا لم يوجد الشخص المناسب[١٣٠].

وفي ثلاث وقفيات أخرى أسندت النظارة لها على أساس القرابة، فأسندت مايا خاتون بنت سلطان أسد الدين شيركوه النظر[١٣١] لزهرة خاتون، ومن بعدها للمدرس، ثم إلى حاكم المسلمين بدمشق. [١٣٢] وجعلت ست جلب بنت الفخري عثمان (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م)، النظارة للقاضي ولي الدين بن فرفور [١٣٣]، وجعلت خاتون بنت الملك معين الدين زوجة نور الدين الشهيد النظارة على خانقاه الصوفية لشيخ الصوفية[١٣٤].

وفي الوقفيات الأخرى لم يُستدل على ناظر الوقف لعدم وروده في نص الوقفية،[١٣٥] ونظارة الوقف إذا ما أسندت لغير الواقف، فهو وكيل الواقف في حياته وبعد موته، ومهمة ناظر الوقف[١٣٦]. تم تحديدها في الوقفيات المذكورة، وهي عمارة الوقف أو إصلاحه والقيام على خدمته، وتأجير ما يجب تأجيره، وصرف أموال الوقف في الأغراض المحددة، وتولية القائمين على الوقف وعزلهم.

تباينت أجور الناظر من وقفية لأخرى، فقد جعلتها عزيزة خاتون بنت الأمير قطب الدين صاحب ماردين (٦١٠هـ/ ١٢١٣م) ٣٠ مثقالاً من الفضة كل شهر، مع عُشر المتحصل عليه كل سنة.[١٣٧] وجعلت أرغون خاتون الحافظية للناظر، ٣٠ درهماً كل شهر، وجعلت ست جلب

---

(١٣٠) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٣.

(١٣١) انظر:
.T. D.. 656. Istanbul. p. 147

(١٣٢) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul p. 168

(١٣٣) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p. 251

(١٣٤) انظر:
.T. D.. 602. Istanbul. p.144

(١٣٥) ابن عابدين، حاشية رد المحتار، ج ٤، ص٤٨٩.

(١٣٦) الطرابلسي، الأسعاف في أحكام الأوقاف، ص ٤٩؛ نجم الدين ابراهيم بن علي بن احمد الطرسوسي، (ت ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك وضمنه كتاب النور اللامع فيما يعمل به في الجامع، تحقيق: عبد الكريم مطيع الحمدان، دار الحق، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ١٦٨، وسيشار إليه فيما بعد: الطرسوسي، تحفة الترك. وانظر وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٧.

(١٣٧) انظر:
.T. D.. 393. Istanbul. p.157

بنت الفخري عثمان للناظر ٢٠٠ درهم كل شهر، نظراً لتوليته على المسجد.[١٣٨] وجعلت خاتون زوج نور الدين شهيد لشيخ الصوفية ما يصرف لباقي الصوفية في الخانقاه، من اللحم، والخبز والزيت والصابون، ويصرف له زيادة على أجره الشهري لمباشرته النظر ٣٠ درهماً كل شهر[١٣٩]. وجعلت فاطمة خاتون بنت السلطان الغوري (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) أجر المتولي عشرين درهماً في كل يوم[١٤٠]. وفي وقفية صالحة خاتون جعلت الواقفة العشر من ريع الوقف للناظر[١٤١].

وفي أكثر من وقفية توسعت صلاحيات الناظر، ففي وقفية عزيزة خاتون على المدرسة، جعلت للناظر أن يحدد عدد المتفقهين الذين سيوزع عليهم المال، فله أن يقلص عدد المتفقهين أو يزيدهم.[١٤٢] وتركت ست جلب بنت الفخري عثمان للقاضي ولي الدين بن الفرفور الناظر على وقفها، أن يحدد المقدار الذي يصرف لإضاءة التربة والمسجد إضافة إلى ثمن الحصر والبسط، ولم تحدد له مبالغ معينة على ذلك، وما بقي تحت يد الناظر من بعد ذلك يصرفه في وجوه الخير[١٤٣].

ونلحظ أن الواقفات يوكلن أمر وقفهن من بعدهن إما للأرشد من الذرية، أو القاضي أو حاكم المسلمين أو لمن عرف بصلته بأحد المؤسسات الدينية كالخانقاة أو المدرسة ولم يظهر لدينا اتجاه في وقف النساء نحو الإخوة أو الأب أو الزوج.

درجات الذرية التي استفادت من وقفيات النساء:

إن التوسع في درجة القرابة لم يكن واضحاً في وقفيات النساء في هذه الدراسة، والتسلسل الذي شاع في وقفيات النساء هو أن تبدأ الواقفة بنفسها، ثم أولادها وذريتهم

---

(١٣٨) تختلف وظيفة الواقف تبعاً لاختلاف نوع الوقف فناظر الوقف على المسجد فانه ينصب من يقوم بوظائفه من إمام ومؤذن وقيم وغيرهم ويختار أفضل من يجد من العلمين إن كان الوقف مدرسة وأكفأ من يجد من الأطباء إن كان الوقف بيمارستانا. قاروت، وظائف ناظر الوقف، ص١٧١.

(١٣٩) انظر:
.T. D., 602, Istanbul, p. 87

(١٤٠) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢٣.

(١٤١) وقفية صالحة خاتون، غير مرقمة. (T.K. Ankara ,581.p. 105

(١٤٢) انظر:
.T. D., 393, Istanbul, p. 67

(١٤٣) انظر:
.T. D.602, Istanbul, p. 238

وانسالهم حتى الانقراض. وبلغ عدد هذه الوقفيات التي حررت بهذا الشكل اثنتين وسبعين وقفية، وفي الوقفيات التي كان عدد الذرية فيها ولد ونريته، كان يعود الوقف بعد إنقراض نسله إلى أقرب طبقات الواقفة، كما في وقفية هدية بنت أحمد وجعلته على ولدها ونسله ثم للأقرب من طبقات الواقفة[١٤٤]، وكذا وقف فاطمة بنت علي (٩٣١ / ١٥٢٤م)[١٤٥]، وبلغ عدد هذه الوقفيات التي آلت لعصبات الواقفة من بعد الذرية أربع وقفيات، وفي إحدى الوقفيات وهي وقفية سعد الملوك بنت زين الدين (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، ولها ولد واحد، عاد الوقف من بعد ولدها الوحيد ونسله إلى أعمام الواقفة وذريتهم ونسلهم، ثم إلى من يحصل من عصبات الواقفة،[١٤٦] وهذا يعني أن الواقفات كن يسعين إلى استغلال مال الوقف ضمن العصبات إذ انقرضت الذرية، ولم يكن هذا هو الاتجاه العام عند جميع الواقفات بل كان هناك اتجاه أخر، تمثل بالوقف على جهات عدة كما تم توضيحه سابقاً.

وفي أحيان أخرى كان الإبتداء بالولد أو الابنة ثم الذرية والنسل حتى الانقراض، وبلغ عددها ثلاثاً وعشرين وقفية وفي إحدى الوقفيات جعلت الوقفية على ابنة أخت الواقفة بعد ولدها.

وفي الحالات التي لم يكن للواقفة ذرية يعود الوقف إلى الأخوات، وبلغ عددهن ثلاث وقفيات، كما هو الحال في وقفية حليمة بنت إبراهيم، حيث آل الوقف بعد نسلها إلى أختيها[١٤٧].

وقد يعود للإخوة، وبلغ عدد الوقفيات التي آلت للإخوة ست وقفيات، وقد أوقفت أحدى الواقفات الوقف لنفسها ولأمها الثمن، وبقية الموقوف لأخوتها الأربعة، وهما أخان وأختان. [١٤٨] وواضح أن اتجاه الواقفة حكمه عدم وجود نرية، ولكن يتضح أن الواقفات يضعن الأخوات والإخوان في نفس المنزلة دون تفاوت، وفي وقفية عايشة خاتون بنت حسام

---

(١٤٤) انظر:
.T. D.602. Istanbul. p. 248

(١٤٥) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p.156

(١٤٦) انظر:
.T. D.602. Istanbul. p. 207

(١٤٧) انظر:
.T. D. 602. Istanbul. p. 106

(١٤٨) انظر:
.T. D.. 656. Istanbul. p. 87; T. D.. 393. Istanbul. p. 67

خليفة (١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م)، جعلت الوقفية لأمها بعد موتها، ومن بعد وفاة والدتها جعلته لصهرها، ومن بعده لأولاده وأنساله وأعقابه.[١٤٩]

وفي حالات أخرى عاد الوقف لأبناء الأخت أو أبناء الأخ، وكانت وقفية واحدة، أما لبنات الأخت فكان عددها ثلاث وقفيات، وكانت الواقفات في هذه الحالة بدون أولاد كما في وقف ناتارين (٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م) أو كان لها ولد واحد، كما في وقفية قضاء بنت شمس الدين السقطي (٩١٩هـ/ ١٥١٣م)، فجعلته بعد ابنها على أولاد أخيها الثلاثة[١٥٠].

وحاجة الناس إلى الوقف الأهلي وبخاصة في أواخر عهود الدولة الإسلامية؛ هي الاعتداء من جانب السلطان والقضاة على تركات الصغار، فكان الأهل يلجأون إلى الوقف على ذريتهم، حتى لا تستطيع السلطات التدخل، وقد كان ذلك نوع من الصون للملكية الخاصة، ومنعاً لتشرذم التركة في الجيلين اللاحقين على المورث[١٥١].

وفي حالات قليلة عاد الوقف للزوج، وبلغ عددها ست وقفيات، وفي الأحوال التي كانت فيها الواقفة هي الزوجة الثانية مع انعدام ذريتها، كان الوقف يعود للزوج وأبناء الزوج من زوجة أخرى من غير الواقفة، وبلغ عددها وقفيتين، فاعتبرت مريم بنت شهاب الدين ابنتي زوجها في مكانة بناتها، إذ لا يؤول الوقف لهن، ولكن يشاركن بناتها في الوقف بنفس المقدار.

وفي أحوال عدة حين يوجد عتقاء للواقفة كان يؤول الوقف إليهن، وفي وقفية تعود لسنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، آل الوقف لعتقاء بنات الواقفة من بعد بناتها، [١٥٢]، وفي وقفية أخرى قدمت الواقفة العتقاء على الإخوة، كما في وقفية أم خاتون بنت سلطان أسد الدين شيركوه (٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م) حيث جعلته لعتقائها بعد أولادها، وبعد تعذر جهات الخير يعود لإخوتها، ووضعت بعض الواقفات الأخت بالرضاعة في منزلة الأخوة، ففاطمة المشهور والدها بالطويل (٩١٧هـ/ ١٥١١م)، يعود وقفها لفاطمة نفسها وأولادها وذريتها وعقبها، وعند الانقراض على أخت الواقفة الرضيع سوية بين المذكورين[١٥٣].

(١٤٩) انظر:
.T. K.Ankara.,581, p125

(١٥٠) انظر:
.T. D., 602, Istanbul, p. 118; T. D., 393, Istanbul, p. 153

(١٥١) السيد، فلسفة الوقف، ص٤٧.

(١٥٢) انظر:
.T. K. Ankara,581, p. 76

(١٥٣) انظر:

وفي وقفيات أخرى اشترطت الواقفة أن يعود الوقف للذكور دون الإناث، كما في وقفية سلمى خاتون بنت زين الدين عمرو، وابنتها فاطمة (٨٢٢هـ/ ١٤٢٠م)[١٥٤]، وكذلك اشترطت فاطمة بنت كمال الدين للذكور دون الإناث، وبعد إنقراض أنسالهم يعود لمن يوجد من أولاد الإناث، وفي إحدى الوقفيات جعلت الواقفة الوقف يعود إلى إبنتها من بعد ولدها، ولم يتجاوز التمييز بين الذكور والإناث سوى الافادة من مال الوقف، ومثل هذا الاتجاه المحدود يؤكد إحترام أهل تلك الفترة للمرأة وإعطأها حقها، بل أوقفت وقفيات بكاملها لبنات الواقفة دون الذكور، وهذا يعني تعاطفاً مع الفتيات، فالمرأة مالت نحو المرأة في وقفيتها، فمايا خاتون ذهب وقفها لأختها زهرا خاتون، وجعلتها ناظرة للوقف من بعدها، ونظارة المرأة للوقف انتشرت في الطبقة العليا بالمجتمع، وأنها حظيت بالقبول في المجتمع.

أثر الخصوبة على الوقف :

إن العلاقة بين الخصوبة -أي عدد الأولاد- والوقف علاقة وثيقة، فالملاحظ أن الأوقاف ترتبط في أسبابها إما بكثرة الأولاد فلا يرغب الواقف في أن تتشتت التركة بعد وفاته، أو بانعدام الأولاد فيسعى الواقف إلى كسب آخرته باعتبار أن الوقف صدقة جارية.

وقد ارتأت الباحثة أن تقوم بتحليل أوضاع الخصوبة للواقفات كأساس في تحليل الأسباب التي دعت للوقف في تلك فترة الدراسة، وقد تم تتبع الوقفيات في كل من الدفاتر الثلاث المذكورة سابقا كلٌ على حدة:

(الجدول رقم ٥)

رقم الدفتر	العدد الكلي للوقفيات	الذرية	لم تسجل ذرية	ولد واحد	ولدان	ثلاث أولاد	ابنة	ابنتان	لمن سيحدث من الأولاد	ثلاث بنات
٣٩٣	٦٠	٢٠	١٧	٦	٢	٢	٤	٢	٤	٢
٦٥٦	٧٩	٢٥	٢٤	٨	٢	٣	٦	٣	٣	٢
٦٠٢	٩٩	٢٢	٤٥	١٠	٤	٣	٤	٢	٣	٥

.T. D. 602. Istanbul. p.125

(١٥٤) انظر:

.T. D.. 656. Istanbul. p. 11

نلحظ من الجدول السابق، ارتفاع عدد السيدات اللواتي لم يسجل لهن أولاد، كما نلحظ ارتفاع عدد الواقفات اللواتي انخفض مستوى الخصوبة عندهن فلم يتجاوز الولد أو الولدين أو الابنتين أو الثلاث، وهناك سيدات لا يوجد لهن ذرية عند وقف الوقفية، ويتأملن بذرية في المستقبل بعد وقفهن للوقفية.

كما نلحظ من خلال الجدول رقم (٥) إرتفاع مستوى الخصوبة عند ربع عدد الواقفات، فكانت الوقفيات تعود بأغلبها للذرية التي لم يحدد عددها، ونلاحظ أنها متوازنة في الدفاتر الثلاثة.

نخلص مما سبق إلى أن انعدام الذرية وقلتها، أثرت في اتجاه الواقفات في الوقفيات التي ظهرت في القرن (١٠هـ /١٦م)، وقد أرادت الواقفات ممن كانت ذريتهن قليلة، أن يحافظن على الإرث حتى لا يخرج لآخرين من الأقرباء، ويشاركون الأولاد. وترى جيربر آن H·Gerber، أن أهم الأسباب التي دفعت المرأة للوقف أن لا يتم الاعتداء على أموالها من أهل الزوج [١٥٥]، وفي حال إنعدام الأولاد، أرادت الواقفات أن يجري وقفهن صدقة من بعدهن يكسبن بها أخرتهن. وعند الفقهاء إذا لم يكن للواقفة ولد ولا نسل وتنتظر أن يحدث لها نسل ولم يحدث، وماتت الواقفة، فإن غلة الوقف تؤول إلى المساكين. [١٥٦]

العلاقة بين مكانة الواقفات والعين الموقوفة:

إن المعلومات التي زودتنا بها دفاتر الأوقاف الثلاث، تؤكد أن لا صلة بين مكانة الواقفة ومقدار العين الموقوفة، [١٥٧] إذ يمكننا تصنيف ثلاث طبقات للواقفات الأولى بنات السلاطين وأصحاب السلطة، الثانية بنات الموظفين والقضاة، والثالثة النساء الميسورات، ولم تكن لأسرهن أية صفة رسمية.

فلو أردنا أن نقدم مثالاً على ذلك، نرى أن زهرة خاتون بنت السلطان سيف الدين ووقفيتها من أكبر الوقفيات، كانت لجهة العلماء والفقهاء وغيرها من جهات البر، إلا أن

(١٥٥) انظر:
The Waqf Inistitution in Early Ottoman Edirne." In studies in Islamic So-" ciety. edited by Gabriel R Warburg and Gad Gilbar. Haifa University Press. .1948. p. 105

(١٥٦) الخصاف، ديوان عموم الأوقاف المصرية، ص ١٣٦.

(١٥٧) تتباين أثر المكانة الاجتماعية والاقتصادية في الكم الموقوف من منطقة لأخرى من ولايات الدولة العثمانية، آخذين التركيبة السكانية بعين الاعتبار. انظر حول هذا الموضوع: محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٤٠.

ما أوقفته على المدرسة التي أنشأتها – وكان على الفقهاء في المدرسة – ولم يتجاوز مزرعة تبلغ مساحتها ٨ قراريط في حوران[١٥٨]. في حين أوقفت أم خاتون بنت سلطان أسد الدين شيركوه، على العلماء والفقهاء والأئمة في المدرسة وغيرها من الأغراض، قرية رامة / غور عجلون ومزارعها ومعصرتها، كما أوقفت عليها قرية كامد / شوف البياض بتمامها، وقرية حلبة / المرج بكاملها. وكذلك نرى أن أصيل خاتون بنت الأمير جانم، أوقفت وقفاً لقراءة القرآن وللفقراء والمساكين، وعلى سبيل ماء وغيرها من التفاصيل التي تضمنتها الوقفية، وكان للعين الموقوفة بستان وأرض وغراس في الغوطة، وحصة من إيراد مصبغة[١٥٩].

أما وقفية صالحة خاتون التي كان وقفها أهلياً لابنها ونسله، وبعد انقراض الذرية عاد الوقف على فكاك الأسرى، فقد أوقفت أراضي قرية دير عطية / قارا والطاحونتين اللتين بها[١٦٠]، والحالة الأخرى كانت وقفية فاطمة خاتون ابنة السلطان الغوري، إذ شملت أرض الوقف قرى عدة في لواء دمشق في الغوطة وحمارة وإقليم الخرنوب، كما ضمت ألوية أخرى في ولاية الشام وهي لواء اللجون، ولواء صفد ولواء نابلس. وانتفع من العين مسجد وتكية في القرية[١٦١].

في حين أن ازدان بنت شرفي بمباس بن إبراهيم بن سعدالدين وعتيقتها نبوية، وكانت الوقفية أهلية وبعد الانقراض تعود إلى حرم الخليل والفقراء، وقد وصل عدد ما أوقف من العين تسعاً وخمسين عيناً، شملت البساتين والغراس والجنينة وقطع الأراضي ودوراً، وحقولاً، وتركزت جميع العين الموقوفة في أراضي الغوطة. ومقدار العين الموقوفة على الوقف بكثرتها أو قلتها تعود لسببين؛ الأول يرتبط بضعف النسل للواقفة، والثاني يرتبط برغبة الواقفة في حماية أملاكها من اعتداء الدولة عليها وحمايتها من الضرائب.

وهناك ميسورات الحال ممن تعددت في أوقافهن كم العين الموقوف، وعند بعضهن لم تزد على عين واحدة، فخديجة خاتون بنت محمد الحريري كان العين من وقفها حصة من حاصل القرية، وواضح أنها زوجة أحد الموظفين العسكريين، ليكون لها حاصل من القرية. وعادت غلة الوقف لأولادها. وأوقفت فاطمة بنت جمال الدين عبدالله القرشي أربعة

---

(١٥٨) انظر:

.T. D. 393. Istanbul. p. 129

(١٥٩) انظر:

.T. D.. 602. Istanbul. p.152

(١٦٠) وقفية صالحة خاتون، غير مرقمة. T.K.Ankara .581.p 105

(١٦١) وقفية فاطمة خاتون، ص ٢١– ٢٣.

أشكال من العين لوقفها الذي كان خيرياً / أهلياً.

والأمثلة السابقة الذكر تثبت أنه لم تكن هناك أية علاقة بين مكانة الواقفة وكم العين الموقوف.

توزعت العين الموقوفة على عدة مناطق، إلا أن الكم الأكبر من الوقفيات تركز في غوطة دمشق وأقاليمها المختلفة[١٦٢]، وكانت بعض الوقفيات في البقاع. ولأخريات كانت عين وقفياتهن في ألوية الشام الأخرى كنابلس وصيدا وإقليم الخرنوب وحوران والجيدور.

تركز الأستثمار لتمويل الوقف في الريف، ليشمل القرى بما تمثله من تنوع اقتصادي من قطع أراضٍ، ومزارع وطواحين وحقول، وبساتين وغراس وكروم، وجنائن، ومعاصر الزيت، ويمكن القول بإن تركز عين الوقف في الريف، ساهم في إحياء القرى وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها، فوقفية فاطمة خاتون، استثمرت أراضي قرية جنين للصرف على أغراض الوقف المقامة فيها، كما استثمرت قرى وأراضي عدة، مما ساهم بتوفير فرص للعمل واستمرار استثمار أرض الوقف بتأجيرها، كما عززت الاستقرار السكاني فيها، والهجرة إلى تلك القرى، وهذا يعني أن الواقف يسعى إلى استمرار إحيائها للصرف على أغراض الوقف وعدم خرابها، كما أن أغراض الوقف المختلفة ساهمت في إحياء تلك القرى، فتوجه إليها حفظة القرآن وغيرهم ممن يمتلكون تعليماً دينياً، كما ساهم الأمر في استثمار المناطق التي قامت فيها الأوقاف من قبل أصحاب السلطة فتحولت تلك المناطق إلى نقاط حيوية.

شملت الأوقاف النشاطات الاقتصادية في المدينة كالخانات والقيساريات، والدكاكين والحمامات، والدور، والمصابغ والحوانيت، والعمارات، فقد أوقفت الست فاطمة بنت سنان آغا (٩٩٨هـ / ١٥٨٩م) قيسارية بأرض ظاهر دمشق، وأوقفت المرحومة فاطمة بنت فخر الأمراء الكرام فايق (٩٧٢هـ / ١٥٦٤م)، دكاكين بعدد ١٦ باباً، وحوانيت قرب دار البطيخ، وأوقفت عطا ملك دكاكين خارج باب، وأوقفت ملك بنت المرحوم بدر الدين (٩٨٦هـ / ١٥٧٨م) خان في باطن دمشق، وأوقفت عمارة وبايكة[١٦٣]، وثمانية حوانيت متلاصقة في أرض الغوطة، وأوقفت فاطمة خاتون (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م)، دكاكين قامت بإنشائها في قرية

(١٦٢) أسماء خليل، ريف دمشق، ص ٧٤.

(١٦٣) البايكة: اسم لبائع المقتاتات من قمح ونرة وشعير في مخزن كبير يسمى في اصطلاح أهل الشام بايكة، والبايكة في لغة أهل الشام، اسم للناقة السمينة، وكأن هذا الجمل سمي بذلك لبروك البوائك فيه فإن هذه الحبوب لا تجلب إلا عليها. القاسمي، قاموس الصناعات، ج١، ص ٥٥.

جنين وعددها ٢٠ دكاناً، إلا أن معدل إستثمار النساء لأغراض الوقف في المدينة لم يتجاوز ٣٪ من مجموع وقفيات النساء التي توافرت لدينا، مقارنة بما تم استثماره لهذه الأغراض في الريف، والتي تابعتها النساء من خلال نظارتها لوقفها أو من خلال المتولي للوقف، كما ساهمت النساء بذلك مساهمة فاعلة في أحياء الريف، ومراعاة شؤون سكانه، بتوفير الأعمال ودعم الفئات المحتاجة فيه.

أهم نتائج الدراسة:

- إن فئات النساء اللواتي أوقفن أوقافاً قد تنوعت مراتبهن الاجتماعية، مما يؤكد أن الأوقاف كانت مسؤولية عامة ولم ترتبط بفئة أهل السلطة فقط.
- أن الغايات التي دفعت السيدات الواقفات للوقف، قد تنوعت على النحو الآتي:

أ. السعى إلى الحفاظ على الأملاك مع تعدد الذرية، لحمايتها من التقسيم، ولتخفيف الضرائب عن الأملاك.

ب. انعدام الذرية ورغبة الواقفات في كسب الآخرة والثواب. إلا أن الأسباب الاجتماعية للوقف غلبت على الأسباب الدينية.

- لوحظ من الدراسة أسهام الأوقاف في تحقيق حاجات مختلفة للناس، كما أسهمت في نفس الوقت بإيجاد اتجاه ديني عام، باعتبار أن المؤسسات الدينية كان لها الحظوة الكبرى في عدد الأوقاف الموقوفة لها.
- إن المرأة كان لها دور فاعل في الوقف إلى درجة تساوت فيها مع الرجال في المجتمع الدمشقي، وكان لها معاييرها التي دفعتها للوقف، والتي عكست جانباً من وضع وثقافة المرأة في المجتمع في تلك الفترات.
- لاحظنا ظهور العتقاء بشكل بارز في المجتمع الدمشقي كفئة مستفيدة من الوقف أو كواقفين، وهذا يدل على عمق وجودهم ودورهم في ذلك المجتمع.
- عدم ملاحظة أي تغير في أغراض وقف النساء، كما لم نلحظ إضافة معينة خلال الفترة المدروسة وهذا مؤشر واضح على عدم التغير في ثقافة المجتمع.
- إن منافع أوقاف المرأة قد انعكست بشكل واضح على النواحي الاجتماعية والتعليمية بشكل رئيسي.

المهايأة ووقف المياه في دمشق حسب دفاتر التحرير ذوات الأرقام ١٠٤، ٦٠٢، ٣٩٣

محمد عيسى صالحية*

رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الناس مشتركون في ثلاثة، الماء والكلأ والنار[١]. فلا يجوز لأحد حجزها ولا للإمام إقطاعها، ولا يملك الماء إلا بقدر القبض عليه في الأوعية المنزلية أي، التحكم فيه بالحبس للاستعمال الشخصي، وفيما عدا ذلك من أوجه التحكم كالمهايأة لتكثيف جمعه أو العمل على الزيادة في سرعة جريانه أو منع تسربه إلى باطن الأرض، فإنه لا يخول سوى حق الانتفاع، ويخرج الماء من نطاق الملكية إلى مجال التصرف وفق المبدأ الشرعي: اشتراك الناس في المنافع المنجزة عن الماء دون الملك[٢].

وقد فَصَّل الفقه الإسلامي أوضاع ملكية المياه وحق الانتفاع، وشمل حق إرواء العطش وحق الري، وشكلت الأحكام الفقهية المرتبطة بالمياه والإعمار الفلاحي للأرض ما عُرِف بقانون المياه، وهو ما يدل على مدى تقدم الحس الحضاري والمدني عند المجتمعات الإسلامية، وقدرتهم على فصل منازعاتهم ومعاملاتهم وشراكتهم وقسمتهم للمياه والانتفاع بها، وكذلك يبرز مقدار تقدمهم في تنظيم التهيئة في المجالين الريفي والحضري .

واطلع الباحث إضافة ما أوردته كتب الفقه المعتمدة على أعمال اتصلت بكيفية الاستفادة والانتفاع من المياه بأنواعها، مياه الأمطار الجارية والكائنة في المسطحات المائية الكبرى، كالبحار والأنهار والثلوج أو الوديان والقني والغدران والمقاسم والمزازات والمصارف

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن.

(١) احمد بن محمد بن حنبل(ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، المسند، ٢٠ج، شرحه وصنع فهارسه: احمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ج٥، ص٣٦٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حنبل، المسند؛ رواية الماء والكلأ والحطب؛ الحافظ ابو عبدالله محمد بن يزيد القزويني(ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)، سنن ابن ماجة، ٦ج، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص١٠٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن ماجة، سنن؛ أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي(ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، سنن أبي داود، ١٥ج، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج٣، ص٤٨٤، وسيشار إليه فيما بعد: أبو داوود، سنن

(٢) أبو العباس احمد بن محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي(ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، كتاب القسمة وأصول الأرضين، تحقيق وتعليق محمد صالح ناصر والشيخ بكير بن محمد الشيخ بلحاج، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٦٥ ، وسيشار إليه فيما بعد: الفرسطاني النفوسي، كتاب القسمة.

والسواقي وكذا المياه الراكدة في الآبار والعيون والمواجل والأحواض ومياه الجباب والصهاريج وفي الآبار الجوفية، ومن هذه الأعمال:

- الفرسطاني النفوسي، أحمد بن محمد بن بكر، أبو العباس، ت ٥٠٤هـ / ١١١٠م.
كتاب القسمة وأصول الأرضين، تحقيق وتعليق محمد صالح ناصر والشيخ باكير بن محمد الشيخ بلحاج، سلطنة عمان، مكتبة الضامري، ١٤١٤هـ / ١٩٩٢م، وقد درس الكتاب دراسة تحليلية كل من ؛ الهادي بن وزدو وأحمد محمود محمد حسن، ونشر في تونس، مركز النشر الجامعي، سنة ١٩٩٩م، وجاءت الدراسة بعنوان " قانون المياه والتهيئة المائية بجنوب افريقية في العصر الوسيط ".
- يحيى بن محمد بن محمد الرعيني، ت ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م .
كتاب شرح ألفاظ الواقفين والقسمة على المستحقين، تقديم وتحقيق جمعة محمود الزريقي، ليبيا، طرابلس، كلية الدعوة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- الضجاعي الحكمي، موسى بن أحمد، كمال الدين، ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م .
الأقوال الصريحة الواضحة فيما أحدث في وادي زبيد من المظالم القبيحة، رسالة مخطوطة محفوظة في المكتبة الغربية - بجامع صنعاء الكبير تحت رقم ٣٤ مجاميع .
- الوضاحي، محمد بن زياد الوضاحي الشرعبي، ت ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م .
كف الطغام عما أحدث في وادي زبيد من البلايا العظام، رسالة مخطوطة محفوظة في المكتبة الغربية – بجامع زبيد الكبير تحت رقم ٣٤ مجامع، وأخرى في مكتبة خاصة بمدينة زبيد.
- العطار الدمشقي، محمد حسين، ت ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م.
علم المياه الجارية في مدينة دمشق أو " رسالة في علم المياه "، تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، مطبعة خالد بن الوليد، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

هذا بالإضافة إلى:

- قانون محكمة المياه في بلنسية بالأندلس التي أنشأها عبد الرحمن الناصر سنة٣١٨هـ / ٩٣٠م، وهي خاصة بفصل قضايا الري في إقليم بلنسية، وكان عبد الرحمن الناصر قد أحدث وظيفة "وكالة الساقية".
- الوثيقة المحفوظة بأرشيف مملكة بلنسية والمكتوبة على الرق، وهي عبارة عن حكم حرره قاضي شقنطة Sagonte سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م، واتصلت بحل نزاع وقع بين قريتين بسبب تغيير في مجرى ساقية الري.

- قانون المياه الصادر عام ١٢٨٣هـ/١٨٨٦م، الخاص بمحكمة المياه في بلنسية[٣].
- علي بن عبد الكافي السبكي، الكلام على أنهار دمشق، فتاوي السبكي، الجزء الثاني.

إن النظر في المصادر الفقهية للمذاهب السنية (الشافعية والمالكية والحنبلية والحنفية)، والمصادر الفقهية الشيعية (الزيدية والجعفرية الإثنا عشرية)، والمصادر الفقهية الإباضية يبين مدى العناية التي أولاها علماء وفقهاء الأمة الإسلامية لقضايا المياه وقسمتها وحقوق الري، باعتبار المياه مصدراً أساسياً للحياة والإعمار الحضري والريفي، وبالتالي، الانتفاع بالمياه من مصادرها المختلفة[٤].

ولقد حظيت مدينة دمشق عبر عصورها التاريخية بتنظيم دقيق لتوزيع المياه سواء في داخل المدينة أو ظاهرها وريفها سواء في الاستعمالات المنزلية أو ري الحقول والبساتين والأراضي. فكان الاهتمام بمشاريع المياه وإنشاء الشبكات المائية وبالتالي المهايأة المائية واستغلال المقومات الطبيعية في مجالات تجميع المياه والمساقي والتحكم في مياه الأنهار والسيول بقصد الإعمار والتخزين وصرف الفائض واستغلال الآبار الجوفية والينابيع والأودية الجارية، وإقامة المصارف المائية والجسور والقنوات وغيرها من وسائل المهايأة المائية.

أورد ياقوت الحموي في معجمه:

"ومن خصائص دمشق التي لم أرَ في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فقَلَّ أن تَمُرّ بحائط إلا والماءُ يخرج منه في أنبوب على حوض يُشرب منه ويستقي الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسحُّ في ميْضَأة"[٥].

---

(٣) للاطلاع على القانونين ووثيقة الرق، انظر: سيمون حايك، محكمة المياه في بلنسية، بحث نشر ضمن كتاب الندوة الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، أيار ١٩٨٥م، تحت عنوان " إسهامات العرب في علم المياه والري"، ١٩٣-٢١٤، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، وسيشار إليه فيما بعد: حايك، محكمة المياه.

(٤) الهادي بن وزدو، محمد حسن ، احمد ميمو: قانون المياه والتهيئة المائية بجنوب أفريقيا في العصر الوسيط من خلال كتاب القسمة وأصول الأرضيين لأبي العباس احمد بن محمد بن بكر الفرسطاني النفوسي(ت٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩م، ص ٢٠-٢١، وسيشار إليه فيما بعد: ابن وزدو: قانون المياه.

(٥) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، ج٢، ص ٤٦٥، وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم البلدان.

ويورد كل من شيخ الربوة وأبي البقاء البدري، وابن عبد الرزاق الدمشقي، وابن طولون الصالحي، وابن كنان، وعبد القادر بدران، ومحمد كرد علي وغيرهم أوصافاً لما كانت تنعم به مدينة دمشق من وفرة في المياه، بحيث تركت آثاراً واضحة على نمط الحياة لمجتمع المدينة، ووصفت غوطة دمشق بأنها إحدى جنان الدنيا الأربع(٦). وتعددت في دمشق المتنزهات والحمامات وأينعت بساتينها وكرومها وجنيناتها وحقولها وحواكيرها وسهولها بثمار الفواكه من مشمش وخوخ وإجاص وقراصا، ولوز وجوز وفستق وصنوبر وعنب ورمان، وموز وتين وتوت وتفاح وكمثرى، وسفرجل وأترج وأصناف الرياحين والأزهار والورود، وكل مغروس ومزروع من النباتات والأشجار والأعشاب، فتغنى الشعراء والنُظَّام بمحاسنها وحدائق أنعامها، وتغزلوا بمفاتن جمالها ولذة مشمومها ومأكولها ومشروبها ومطعومها.

تلك الجنة العدنية هي هبة نهر بردى وفروعه، فدمشق وجوارها تتغذى من نبع بردى وعين الفيجة، حيث يرفد نهر بردى في سهل الزبداني عدة سيول وأودية، ويسقي العديد من القرى حتى يصل إلى أراضي دمر فالشادوران إلى الربوة، وتتوزع مياه بردى بين قرية الهامة وموقع الربوة إلى ستة فروع هي، نهر يزيد والمزاوي والداراني وثورا وقنوات وباناس، فيدخل مدينة دمشق ومحلاتها وقلعتها ثم يتوزع في أنهر الداعياني (العقرباني، المجدول)، والمليحي والزبديني والزابون والبالاني، والجسريني والملك (السلطان) ونهر بيت نائم والشيباني والحرستاني والحرزماني، وفي أرض المرج ترفده ينابيع عين حاروش

(٦) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري(ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، عناية A.F. Mehren، ط ليبزج ١٩٢٣م، وسيشار إليه فيما بعد: شيخ الربوة ، نخبة الدهر؛ تقي الدين أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري، (٨٩٤هـ/١٤٨٨م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، مصر،١٣٤١هـ/١٩٢٢م، وسيشار إليه فيما بعد: ابو البقاء البدري، نزهة الأنام؛ شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ٢ج، تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٤١٠هـ/١٩٨٠م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، القلائد الجوهرية؛ ابن عبد الرزاق عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي(ت ١٠٢٨هـ/١٦٢٨م)، حدائق الأنعام في فضائل الشام، تحقيق يوسف بديوي، دار الضياء، دمشق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبد الرزاق الدمشقي، حدائق الأنعام؛ محمد بن عيسى ابن كنان (ت١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، مديرية الآثار العامة، دمشق، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن كنان، المروج السندسية؛ عبد القادر بدران(١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) ، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ،دمشق،د.ت، وسيشار إليه فيما بعد: بدران، منادمة الأطلال؛ محمد كرد علي، غوطة ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، دمشق، وسيشار إليه فيما بعد: كرد علي، غوطة دمشق.

وقناة الأشعري وعين القلايا ومقسم الغيلاني ومقسم البحيراني والعبيداني والعتيباني[٧].

وقد برع الدمشقيون في توزيع مياه تلك الفروع إلى الدور والقصور والمساجد والحمامات والمرافق العامة الأخرى في قنوات ومسارب عديدة، فحفروا الصخور ومروا الأقنية، وجروا المياه إلى مبتغاهم، واستخدموا طريقة الجريان الحر بتأثير النقالة، فقد اعتمد مبدا إنشاء الشبكة على حفظ الماء بأعلى منسوب ممكن لتأمين جريانه الحر إلى المناطق المنخفضة، فلا حاجة للروافع كالنواعير والدواليب المائية.

وكانت فروع الشبكة المائية، كما يلي:

- شبكة ري الغوطة الشمالية، ويرويها نهرا يزيد وثورا، ولما كانت واقعة في الأعلى، فإن ما يفيض يعود إلى نهر بردى كما أن بردى يروي أيضاً مناطق على الضفة اليسرى بما يسمح به منسوب الماء فيه[٨].
- شبكة ري الأراضي على الضفة اليمنى، تروي أشجار السهول الجنوبية الغربية على امتداد بردى بقناة المزة ونهر الداراني.
- شبكة توزيع المياه ضمن المدينة، وهي تستمد المياه من نهر القنوات وباناس، وتؤمن احتياجات المنازل والحمامات والمساجد والأسبلة وغيرها، كما يروي قسم منها السهول المتاخمة للمدينة.
- شبكة ري الغوطة الجنوبية، حيث يتفرع من بردى نهر العقرباني والمليحة والدايمياني والملك[٩].

كان هذا التمهيد ضرورياً لفهم ودراسة المبادئ الفنية الأساسية التي قام عليها توزيع المياه في مدينة دمشق وجوارها من خلال حجج الوقفيات التي سجلت في دفاتر التحرير،

---

(٧) مصطفى طلاس، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ٥مج، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ، مج١، ص ٢٧٦-٢٧٩ ، وسيشار إليه فيما بعد: طلاس، المعجم الجغرافي؛ بدران، منادمة الأطلال ص٣٩٥؛ محمد حسين العطار الدمشقي، علم المياه الجارية في مدينة دمشق (أو رسالة في علم المياه). تحقيق وتقديم أحمد غسان سبان، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٦-١٦ وسيشار إليه فيما بعد: العطار، علم المياه؛ كرد علي، غوطة دمشق، ١١٤ .

(٨) محمود فيصل الرفاعي، دور العرب المسلمين في تقدم علوم المياه والري بحث: لندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، (١٠-١٤ ديسمبر ١٩٨٣م) طبع في كتاب، تحت عنوان " إسهامات العرب في علم المياه و الري"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، (٥-٣٩)، وسيشار إليه فيما بعد: الرفاعي، دور العرب والمسلمين.

R.Tresse. L Irrigation dans Le Gouta de Damas. Rev. Is. Paris. 1932.

(٩) الرفاعي، دور العرب والمسلمين، ١١ - ١٢ .

والإحصاء التالية:

١. دفتر أوقاف مدينة دمشق، تاريخه ٩٥٤هـ/١٥٤٧م، وفيه أوقاف وأملاك مدينة دمشق، محفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء استانبول، رقمه ٣٩٣، والباحث يعمل على نشره.

٢. دفتر أوقاف لواء الشام وتاريخه ٩٩٠هـ/١٥٨٢م، وفيه (أوقاف وأملاك الشام وصيدا والقدس والخليل وغزة والرملة وصفد ونابلس، محفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء استانبول، رقمه ٦٠٢.

٣. دفتر تحرير إيراد ومصاريف وقف جامع شريف أموي درشام شريف، تاريخه ١١٩هـ/١٧٠٧م، محفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء استانبول، رقمه ٥٩١ (١٠٤).

ومع إدراكنا لعدم إعطاء الدفاتر وحدها صورة كاملة لكيفية ري دمشق والغوطة والقرى المجاورة، فإن الحجيات الواردة في الدفاتر، وقفية كانت أو ملكية تشكل مادة مهمة لنظم دراستنا عن المهايأة المائية في المدينة وظاهرها، والوقفيات والملكيات الواردة هي:

١. وقف: بيمارستان نور الدين الشهيد في الشام.

- فتاح الماء نهر عقربا، عدادين ٧ [١٠]. (دفتر ١٠٤ / ٨٧، ودفتر ٣٩٣، حجة رقم٤).

٢. وقف السلطان الملك الظاهر بيبرس: على جامعه الكائن بقصبة قارا، تاريخ محضر الوقفية سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م.

- عدانان من عشرين عداناً من ماء قارا [١١].

- عدان ماء من عشرة عداناً من بركة القطرانية بغير أرض (دفتر ١٠٤، حجة ٦٢، ص١٢١).

٣. وقف المرحوم حضرة لالا مصطفى باشا: على عمارته العامرة، وجامع الشريف في قرية القنيطرة [١٢]، وعلى البركة والسبيل وقراءة القرآن الكريم بالمدينة المنورة .

---

(١٠) تحليل نوعية المهايأة والتعريف بالواقفين والمصطلحات ستأتي في مكانها من الدراسة، تاريخ محضر الوقفية من الوقفية ما اتصل بالمياه دون المصادر أو الأقلام الأخرى.

(١١) قارة: قرية في هضبة القلمون تتبع ناحية دير عطية، منطقة النبك، محافظة ريف دمشق إلى الشمال من دير عطية بمسافة ٦كم، المنزل الأول من حمص إلى دمشق، وجامع قارا، هو الجامع الكائن في القرية، كان معبداً وثنياً فحوله الظاهر بيبرس إلى جامع. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٩٥، طلاس، المعجم الجغرافي، مج٤، ص ٥٠١ .

(١٢) القنيطرة: تبعد عن دمشق ٦٧كم (معروفة)، طلاس، المعجم الجغرافي، ج٤، ص ٦١٨.

- ناحية جبة العسال[١٣] في إقليم البلان [١٤] در لواء شام شريف، عدان الماء تماماً. (دفتر ١٠٤، حجة رقم ٦٨٣، ص ١٢٩).

٤. وقف: المرحوم الشيخ الصالح سعد الدين والشيخ بدر الدين، أبي محمد، الحسين بن مولانا سعد الدين الجباوي، تاريخها ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م.

- جميع عدان الماء المعروف بالمصاوة من مزاز بيت قوفا[١٥] بحقه من الماء من نهر عقربا في كل يوم واحد وعشرون يوماً، على نوب أهله. (دفتر ١٠٤، حجة رقم ٤٨١، ص ١٠٧).

٥. وقف: بدر الدين بن محمود بن مبارك شاه العجمي، تاريخه ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م.

- ذري وبعد الانقراض على الأربطة بمكة المكرمة والمدينة المنورة.
- قطعة أرض تعرف بظهر الحمار، تابع شاغور[١٦]، والغراس تماماً. وغراس أرض وقف الحرمين الشريفين وشربهما من الماء من نهر ابن حية[١٧] من عدان السلطان في كل أسبوع ليلاً ونهاراً على بعد أهله المتعارف بينهم. (دفتر ١٠٤، حجة رقم ٦٤٧، ص١٢٤).
- جنينة تُعرف بالشحرور تابع شاغور تماماً، وشربها من نهر ابن حية في كل يوم من ثمانية أيام، ساعة وثلثا ساعة نهاراً، على بعد أهله المتعارف بينهم. (دفتر١٠٤، حجة رقم ٦٤٧، ص ١٢٤).

٦. وقف: المرحوم فروج بيك بن عبد الله من المتصرفة بالباب العالي، الذي ملكه بموجب حجة التبايع المؤرخ في ٢٢ ذي الحجة سنة ٩٨٤هـ/ ١٢ آذار ١٥٧٧م، وقد انتقل بالوفاة إلى ورثته.

---

(١٣) الجبة: قرية في القلمون، تتبع ناحية عسال الورد، انظر: طلاس، المعجم الجغرافي، مج ٢، ص ٦٣٤.

(١٤) إقليم البلان: منطقة طبيعية في السفح الشرقي لجبل الشيخ (حرمون) تشمل ناحيتي قرى مركز قطنا وبيت جن، وسميت بالبلان، نسبة إلى نبات البلان الذي ينمو في المنطقة بكثرة ويستعمل في المواقد وعمل المكانس، ولفظ الإقليم يونانية مشتملة على عدة مدن وقرى ومنها إقليم الخروب وإقليم التفاح في لبنان الشرقي والغربي وإقليم خولان وإقليم باناس وإقليم داعية وإقليم بيت الأبار، محمد كرد علي، غوطة دمشق، ١٤٥، طلاس، المعجم الجغرافي، مج ٢، ص ٣٥٧.

(١٥) بيت قوفا: قرية قبلي جرمانا من ناحية الغوطة، انظر: كرد علي، غوطة دمشق، ص ٢٢٤ .

(١٦) الشاغور: أحد أحياء دمشق القديمة يقع جنوب الشارع المستقيم أو شارع مدحت باشا .

(١٧) في تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ورد فندق ابن حية، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق، قسمان، تحقيق سكينة الشهابي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٩٢م، ق١، ص ١٢٤ ، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عساكر ، تاريخ دمشق.

- غراس قائمة أصوله بأرض المنيحة[١٨]، يعرف بالقاطوع بالقرب من ضريح سيدي سعد بن عبادة[١٩] تابع ناحية المرج[٢٠]، ط من ٢٤، مشتمل على جوز ولوز، ٥ ط من ٢٤ ط. شرب ذلك من نهر الشق، نصف عدان من كل خمسة عشر يوماً مرة ليلاً ومرة نهاراً.
- قطعة أرض تعرف بابن عباد من أراضي المنيحة، تابع المرج، ١٠ط من ٢٤ط، شرب ذلك من نهر الغرب، نهار الأحد من كل خمسة عشر يوماً. (دفتر١٠٤، حجة رقم١١٢، ص١٦٤).

٧. وقف: الياس واسكندر كتخديان عيسى باشا ميرميران شام، دار السلام سابقاً، بموجب كتابي وقف: تاريخ وقفية إلياس كتخدا المشار إليه ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، وتاريخ وقفية اسكندر كتخدا المرقوم أعلاه في أواخر شهر شعبان المعظم ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م.

- مزرعة الرواسية، تابع أراضي بيت رانس[٢١]، وشربها من الماء من نهر القلعة، حق معلوم، فدان: ١٨ سليخاً.
- قطعة أرض: ٨ فدان سليخ المعروفة بالتحايت، تابع شاغور، وشربها من نهر باناس

---

(١٨) المنيحة (المليحة)، قرية في غوطة دمشق، على الجانب الأيمن لنهر بردى، شرق مدينة دمشق بمسافة ٧كم. محمد كرد علي، غوطة دمشق، ٢٤ ؛ المعجم الجغرافي، مج ٥، ص ٣٤٤ .

(١٩) سعد بن عبادة الخزرجي الصحابي الأنصاري، سيد الخزرج، شهد بيعة العقبة، وكان أحد النقباء بها، وشهد بدراً والمشاهد، وجاء على الشام بعد وفاة النبي، ومات في خلافة أبي بكر، ت سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م؛ انظر: عثمان بن احمد السويدي الدمشقي، المعروف بابن الحوراني (١١١٧هـ/ ١٧٠٥م)، الإشارات إلى أماكن الزيارات، المسمى: زيارات الشام، تحقيق: بسام عبد الوهاب، منشورات مكتبة الغزال، دمشق، ط١، ١٩٨١م، ص١٣٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن الحوراني، الاشارات؛ نور الدين محمود بن محمد العدوي، (ت ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م)، الزيارات الدمشقية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٦م ،ص ١٣، وسيشار إليه فيما بعد: العدوي، الزيارات ؛ ابن عبد الرزاق الدمشقي، حدائق الأنعام، ص ١٤٥-١٤٦؛ شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ١٠ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ج ٣، ص٤١٥، وفيه أنه دفن بحوران، وسيشار إليه فيما بعد: ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب.

(٢٠) المرج: المرج الأخضر، المرج، الواقعة في مبدأ ساحة دمشق وتنتهي في مبدأ وادي اختناق الربوة. ، حسن زكي الصواف: دمشق أقدم عاصمة في العالم، دار قتيبة، دمشق، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٥٩-١٦١، وسيشار إليه فيما بعد: الصواف، دمشق.

(٢١) بيت رانس: من قرى الغوطة، كانت عامرة في القرن التاسع الهجري، بها قناة تمر بأرض الشاغور. جمال الدين يوسف بن حسن بن احمد الدمشقي (ت ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجلد الأول، والمجلدة الثانية، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٥م، ص١٣٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ٢٢٣.

في كل سبعة وعشرين يوماً: عشر ساعات.

- مزرعة أرضاً وبعض غراسها، تابع أراضي بيت رانس، وشربها من الماء من نهر القلعة وقناة بيت رانس والقاطوعية[٢٢]، فدان: ١٢ سليخاً.
- جميع البستان أرضاً وغراساً قديماً وجديداً، خارج باب الشرقي[٢٣]، وأرض فذايا[٢٤]، وشربها من الماء من نهر الشيبة، حق معلوم مع سكة الحمام يعرف ببستان السكة. (دفتر١٠٤، حجة رقم ٦٨٥، ص١٤٢).

٨. وقف: جمال الدين، يوسف بن عبدالله الحموي الأمياتي، بموجب الحجة المعين فيها تاريخه إنه مؤرخ في ١٦ شعبان ٩٥٠هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٥٤٣م، وتاريخ الحجة المزبورة في أواسط ذي الحجة ٩٩٨هـ/ تشرين الأول ١٥٩٠م. متصلة بمولانا أحمد بن عبد الرحيم الحنفي، نائب الشرع، بمقتضى الشهادة المسطرة في ظهرها في غرة شعبان ١٠٠٢هـ/ نيسان ١٥٩٤م.

- غراس وبناء سفلي وعلوي قائم بأرض البستان المعروف بالكركة من أراضي أرزة[٢٥] تابع عين الكرش[٢٦] من جملة بساتين وأراضٍ تصل إلى الصالحية. وشرب ذلك من الماء من ماصية أمير المؤمنين، تماماً. (دفتر١٠٤، حجة رقم ٧٩٣، ص ١٤٥).

---

(٢٢) القلعة: هي قلعة دمشق، بناها تاج الدين تتش سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، أفرد لها شمس الدين محمد بن علي بن طولون(ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، رسائل تاريخية، المعزة فيما قيل في المزة، الشمعة المضيئة فيما قيل في أخبار القلعة الدمشقية، مكتبة القدسي والبديرى، مطبعة الترقي، دمشق، ، ١٩٤٨م، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، رسائل تاريخية؛ ابن عبد الهادي، رسائل، ص ٣١.

(٢٣) الباب الشرقي: سمي بذلك لأنه شرقي البلد، بني أيام الرومان، يتألف من ثلاثة أبواب، كبير في الوسط وبابان صغيران على جانبيه، عز الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق)، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٧م، ج٢، ص٢٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة؛ الصواف، دمشق، ٢٦٠ ؛ محمد بن عيسى بن كنان، (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، قسمان ، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ق١، ص٢٠٩، وسيشار إليه فيما بعد: ابن كنان، المواكب الاسلامية.

(٢٤) فذايا: قرية داثرة من قرى الغوطة، جنوبي مقبرة اليهود. انظر: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص١٠٦ ؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص٢٣٩.

(٢٥) أرزة: مكانها اليوم حي الشهداء في طريق الصالحية، متصلة بسويقة صاروجا، تمتد إلى عقبة جوزة الحدباء، كانت عامرة في القرن العاشر الهجري. انظر: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ١١٨ (حاشية ٥) ؛ ابن طولون ، القلائد الجوهرية، ج ١، ص ٥٨ ؛ كرد علي، الغوطة، ص ٢٢١ .

(٢٦) عين الكرش: تحت نهر ثورا، يجتمع عليها ماء حتى يصير ماؤها يقال له نهر عين الكرش. انظر: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج ١،ص ٣٦٨-٣٦٩.

٩. وقف: شرف الدين عيسى بن عبدالله القاري، تاريخ ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م.

- أرض مزاز الكوكشة تابع عين ترما[٢٧]، قدره ذراع وربع وثلاث فروض في الحجر الأسود، لها حق ماء، قدره تسع وعشرون إصبعاً من ذراع القاسمي. (دفتر ١٠٤، حجة رقم ١، ص ٣٨).

١٠. وقف: مسجد الشام الكائن باطن دمشق بمحلة القطانين[٢٨] بسوق جُقمق[٢٩]، بموجب محاسبة قاضي الشام.

- حكر، فائض المسجد المذكور (دفتر ١٠٤، ص ٣٨).

١١. وقف: المدرسة الخاتونية العصمية في الشام المحروس، بموجب دفتر محاسبات.

- فائض الماء في مزرعة خاتونية[٣٠] الواصل من نهر الشريف إلى قرية سقبا[٣١]. (٣٩٣ حجة ٦٠١، ص١١٧ ؛ ١٠٤ حجة ١٣٤، ص ٥٤).

١٢. وقف: تربة قانصوه اليحياوي، خارج باب الجابية[٣٢]، بموجب ناظر الأوقاف وحجة الوقف تاريخ الوقفية في سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م.

- حكر الماء، داخل التربة المزبورة في يد علاء الدين في سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م.

---

(٢٧) عين ثرما (ترما): قرية في غوطة دمشق الشرقية، تبعد عن دمشق حوالي ٢كم إلى الشرق، تتبع ناحية كفر بطنا، ريف دمشق. جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، غدق الأفكار في نكر الأفكار، ضمن كتاب رسائل دمشقية، تحقيق: ختمي صلاح محمد، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٨م،ص ٣٢، وسيشار إليه فيما بعد: ابن عبد الهادي، غدق الأفكار؛ طلاس، المعجم الجغرافي، مج٤، ص٣٣ .

(٢٨) محلة القطانين: هي سوق القطن، تحت سوق جُقمق، لا زال موجوداً، ابن عبد الهادي، رسائل تاريخية دمشقية، ص ٧٧.

(٢٩) سوق جُقمق: غرب التكية السليمانية، يباع فيه الثياب والبز، ونسب إلى بانيه. ابن عبد الهادي، رسائل دمشقية، ٧٧؛ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي(ت ٩٢٧هـ/ ١٢٥٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، ٢ج، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، ١٩٨٨م، ج٢، ص٢٢٧ ، وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس؛ ابن كنان، المروج السندسية، ص٣٣؛ شمس الدين محمد بن علي ابن طولون الصالحي(٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢ق، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية للتأليف والأنباء والترجمة، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٢م، ج١، ص ٤١ - ٦٨٠ ، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان .

(٣٠) المزرعة الخاتونية: عند قرية البلاط تابع المرج، والبلاط: قرية في الغوطة الشرقية، تتبع ناحية المليحة، ريف دمشق على الضفة اليمنى لنهر بردى، تبعد ٨كم إلى الشرق من مدينة دمشق. انظر: محمد كرد علي، غوطة دمشق،ص ٢٢؛ طلاس، المعجم الجغرافي، مج٢، ص ٣٥٣ .

(٣١) سقبا: من قرى الغوطة في قسمها الشرقي، تبعد عن دمشق ٥كم، يرويها نهر الداعياني. انظر: ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص٣٢ ؛ طلاس المعجم الجغرافي، مج٣، ص ٦٣٢ .

(٣٢) باب الجابية: غرب البلد، منسوب إلى قرية الجابية، قرب جامع السنانية. انظر: ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق١، ص ٢٠٨ ؛ بدران، منادمة الأطلال، ص ٤٠ .

(١٠٤ حجة رقم ٤٩١، ص١٠٩).

١٣. وقف: علاء الدين علي بن البانياسي، تاريخه ٨٦٢هـ، نري وبعد الانقراض على مدرسة أبي عمر والبيمارستان القيمري مناصفة، وقد انقرضت الذرية سنة ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م.

- مجرى الماء خارج باب الصغير[٣٣] جوار سور المدينة، يعرف بمزاز القلعة، وبحقه لهذه الحصة من الماء من تعمقة القلعة. نصف ثمن عدان، في كل أسبوع من عدان، الخميس وليلة الجمعة مرة ليلاً ومرة نهاراً. (دفتر ٦٠٢، ص٢٢٥).

١٤. وقف: علاء الدين، علي بن محيي الدين يحيى بن فضل الله العمري، تاريخ الوقفية بموجب السجل ٨٦٣هـ، تاريخ سجل الوقفية ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م.

- مجرى الماء من نهر الأنباط الذي ابتداؤه من الجانب القبلي من سوق القلعة — القلعة دمشق وانتهاؤه خندق القلعة المحيط بسور البلد تجاه باب الكيسان[٣٤]. (دفتر ٣٩٣، حجة رقم ٩٦٧، دفتر ١٠٤ حجة رقم ١٩٣، ص٥٩) .

١٥. وقف: خواجه زين الدين عبد القادر بن شهاب الدين العنبري، الذي ألحقه بوقفه المذكور أعلاه، وشروطه مسطورة في كتاب الوقف الأول، تاريخ كتاب الوقفية الملحقة في سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م.

- جميع مجرى الماء الكائن بقرية المزة[٣٥] تجاه طاحون أولاد العلم من مزاز الميلقوم (الميلقون) المستمد ماؤه من نهر الداراني من الحجر الشرقي لصيق البيدرمريان من جهة الشرق .
- جميع الحصة وقدرها أربع ساعات ونصف ساعة من كامل مجري الماء المذكور أعلاه وتسعة قرارايط ونصف قيراط من جميع البستان الكائن بقرية كفر سوسية[٣٦] المعروف بدفوف البيوت التحتاني. (١٠٤ حجة رقم ١٢٣، ص٥٧) .

(٣٣) باب الصغير: باب المدينة الجنوبي، أصغر أبواب دمشق حين بنيت، ما زال قائماً في مصلبة الشاغور. انظر: ابن طولون، الشمعة المضيئة،ص ٩؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق١، ص ٢٠٨ .

(٣٤) باب كيسان: جنوب شرق الباب الصغير، هو الباب الذي أقيمت عليه كنيسة بولص فيما بعد إلى الشرق من باب الجابية، منسوب إلى كيسان مولى بشر بن عبادة بن قرطي الكلبي. انظر: ابن طولون، الشمعة المضيئة، ص١٠؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق١، ص ٢٠٩.

(٣٥) المزة: قرية من قرى الغوطة، تبعد عن دمشق ٣كم مما يلي الربوة، كثيرة البساتين. انظر: ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص ٢٥؛ محمد كرد علي، الغوطة، ص ٢٤ ؛ ابن طولون الصالحي، المعزة فيما قيل في المزة، ص٢ .

(٣٦) كفر سوسية: من كبريات قرى الغوطة الجنوبية، تقع في قلبها، أضيفت إلى دمشق كأنها من أحيائها. انظر: ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص٣١ ؛ محمد كرد علي، الغوطة، ص٢٤ ؛ طلاس المعجم الجغرافي، مج٥، ص٤٥.

١٦. وقف: محمد بن محمد بن قاضي كفركنة، تاريخ ٤ محرم سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م.
- جميع مجرى الماء ومبلغه نصف حجر من نهر أبي عيار في نهار السبت.
- نهر الماء المعروف بنهر الأشعار المستمد من نهر القنوات. (١٠٤ / ٤١).

١٧. وقف: المرحوم الشيخ الصالح، سعد الدين، أبو عبدالله، محمد بن مولانا الشيخ بدر الدين حسين الجباوي، تاريخ ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م.
- مجرى الماء المستمد ماؤه من مزاز بن عبد من أصل نصف حجر من أصل أربعة أحجار في كل واحد وعشرين يوماً في كل شهر، ويوم ختام كل شهر، ٦ط. (١٠٤ حجة رقم ٣٩٥، ص٩٧).

١٨. وقف: الخواجة شمس الدين محمد بن المرحوم الخواجا شمس الدين محمد الشهير بابن سوال، وبابن دعُمش من السادة التجاريد بدمشق المحروسة الذي أوقفه على نفسه وبالوكالة الشرعية من الخواجة علاء الدين علي بن شهاب الدين أحمد بن سودون الدمشقي، نزيل مكة المكرمة سوية بينهما نصفين، وقف نري، فإذا انقرضوا يكون على مصالح الحرمين، تاريخ الوقفية ٢ جمادى الآخرة ٩٧٥هـ / ٤ كانون الثاني ١٥٦٧م.
- مجرى الماء المعروف بمزاز مسجد القدم[٣٧] بحقه من الماء الواصل إليهم من نهر القصر اليكجوري في نهار الثلاثاء مرة نهاراً، ٤ط. (دفتر ١٠٤ حجة رقم ٧٩٩، ص١٤٦).

١٩. وقف: خواجة شمس الدين محمد بن المرحوم القاضي زين الدين عمر بن سراج الدين البعلي الكناني، وهو الذي أنشأه على نفسه، ثم نري، ثم بعد الانقراض على الحرمين. مكة والمدينة، تاريخ الوقفية ٩٨٩هـ / ١٥٨١م.
- مجرى الماء الكائن باطن دمشق المحروسة بمحلة الهواوينة[٣٨]، تحمل من الماء من نهر باناس، من الطالع لصيق حمام القطن[٣٩]، وقدره إصبعان في الكف الحجر. (١٠٤ حجة رقم ٧٢٩، ص١٣٧).

٢٠. وقف: الخواجة شمس الدين محمد بن الخواجة زين الدين عبد القادر بن الشهابي أحمد العنبري. تاريخ الوقفية ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م.

---

(٣٧) القدم: تعتبر من أحياء دمشق، جنوب شرق، بها مسجد مشهور، قيل ينسب إلى قدم الرسول صلى الله عليه وسلم. انظر: محمد كرد علي، غوطة دمشق، ص٢٤١ ؛ طلاس، المعجم الجغرافي، مج٤، ص٥٢٤ .

(٣٨) كذا وردت في الأصل .

(٣٩) يبدو أنه كان قائماً في سوق القطن .

- مجرى الماء بقرية برزة [٤٠] وبحقه من الماء ساعة واحدة، تماماً.
- مجرى الماء بالقرية المزبورة وبحصة من الماء نصف ساعة. (دفتر ١٠٤ حجة رقم ١٥١، ص ٥٨-٥٩).

٢١. وقف: قطب الدين خضيري على مدرسته، تاريخ الوقفية ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م.
- الماء من الطالع المعروف بحروزة، ١٢ إصبعاً.
- الماء من الطالع المعروف بالزلاقة وذلك خارج ماء القعاطلة[٤١]، وماء سويقة علي بن المنيف. (دفتر ٣٩٣ حجة رقم ١٦٦ ودفتر ١٠٤ حجة رقم ٦٦٨، ص ١٢٧).

٢٢. وقف: شيخ شمس الدين، أبو عبدالله، محمد بن إبراهيم بن شهاب الدين بن حبيقة الطبيب وقف ذري، وبعد الانقراض على مصالح البيمارستان النوري والحرمين والفقراء، تاريخ الوقفية ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م.
- جميع دمنة الحجر[٤٢] المبني بالكلس والحجارة، الواصل إليه الماء من عين قنوات إلى تقسيم الخلخال[٤٣] وميته إلى نهر قصير اليكجوري تجاه المزرعة، وهو حجر واحد من ٢٥ حجراً في نهار الثلاثاء. (دفتر ١٠٤ حجة رقم ٤٧٢، ص ١٠٦).

٢٣. وقف: شمس الدين محمد بن حسن بن المُزلِّق، تاريخ الوقفية ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م.
- ذري، وبعد الانقراض على الدشيشة[٤٤] والحرمين.

---

(٤٠) برزة: قرية تقع شمال دمشق، تبعد عنها ٥كم، فيها مقام ومسجد إبراهيم الخليل، وهي اليوم من أحياء دمشق، تروى من نهر فيلن. انظر: ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص٣٣ ؛ محمد كرد علي، الغوطة، ص٢٢ ؛ طلاس، المعجم الجغرافي، مج٢، ص ٢٨٠ .

(٤١) القعاطلة: أي الملاح، خارج باب الشرقي، حارة القعاطلة بين الباب الشرقي وباب توما. ابن كنان، المواكب الإسلامية،ق١، ص٣٦١ ؛ محمد كرد علي، خطط دمشق، ٦مج، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م -١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مج١ ، ص٤٤٢، وسيشار إليه فيما بعد: كرد علي، خطط دمشق .

(٤٢) ورد في وقف التكية السليمية ص٢٣٠- ٢٣٢، عبارة دمنة عامرة تشتمل على أراضٍ معطلة ومعتملة وبساتين وحقول، وفي ص٢٣٥، دمنة مسكونة. انظر: جعفر الحسيني، وقف التكية السليمانية(السليمية)، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، المجلد٣١، الجزء الثاني نيسان ١٩٥٦م، ص ٢٢٣-٢٣٧ ، وسيشار إليه فيما بعد: جعفر الحسيني، وقف التكية السليمانية.

(٤٣) الخلخال: محلة ومتنزه يقع غرب الميدان الأخضر، ساحة المرجة اليوم، على نهر بردى بين نهري القنوات وباناس؛ انظر: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص١٣٣ ؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، تحفة ذوي الألباب في من حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب، قسمان، تحقيق إحسان بن سعيد خلوصي وزهير حميدان، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، القسم الأول، ص ٦٥ ، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، تحفة ذوي الألباب؛ بدران، منادمة الأطلال، ص ٣٠٩ - ٤٠١؛ محمد كرد علي، غوطة دمشق، ص ٥٨

(٤٤) الدشيشة: يقصد به مطبخ الدشيشة الكائن بباب البريد تطبخ به الدشيشة، العدس والبرغل وغيره لإطعام الفقراء

- القناة الدنكليزية [٤٥] من نهر باناس، ٦ط. (دفتر ٣٩٣ حجة رقم ٩، ص٢؛ ودفتر٦٠٢ ص١٢٢، وفيه .... من نهر باناس، ودفتر ١٠٤ حجة رقم ١١٦، ص٥١).

٢٤. وقف: مسجد النارنج[٤٦] في محلة باب المصلى بدمشق، بموجب دفتر محاسبة قاضي الشام

- محصول من نهر القليط الكبير، عداوين الماء، ٦ عدان.

(دفتر ٣٩٣ حجة رقم ٣٠١، ص٥٧؛ ودفتر ١٠٤ حجة رقم ٤٦١، ص١٠٥).

٢٥. وقف: قطب الدين، أبو شجاع خضر وابن بلبل ابن أرسلان، نري، فإذا انقرضوا، على مدرسته بحلب المعروفة بمدرسة الشيخ، تاريخ سجل الوقفية ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م.

- مزرعة جرمانا تابع مرج غوطة ط. شربها من نهر عقربا (المجدول) من المزاز المعروف بجرمانا[٤٧]، حجرين، واحد فتوحاً سرمداً، والثاني على نوب أهله بمقتضى حجة شرعية على وجه الخصم. حالياً في يد أحمد بن عبد الكريم الحكاك وفرج سويدي ومن يشركهما من أولاد المذكور. (دفتر ٣٩٣ حجة رقم ٤٣، ص٨؛ ودفتر ١٠٤ حجة رقم ٤٥٢، ص ١٠٤).

٢٦. محصول: أحجار ماء نهر كريمي وأبي عيار در قرية كفرسوسية.

- ء محصول حجر، ٣ من نهر كريمي در يد يحيى آغا في سنة: ٣٠ .

والجائعين وحتى المتصوفة .

(٤٥) في الدفتر ٣٩٣/٢ ورد "الدنكين، وفي الدفتر ١٠٤/٥١ الزبكبرية، وفي ٦٠٢/١٢٢ الدنكيزية نسبة إلى تنكز الحسامي وهو الأقرب إلى الصواب .

(٤٦) مسجد النارنج: في محلة باب المصلى من شرقيه بباب الصغير، مصلى صغير، بجانبه ضريح الشيخ النارنجي، كان محاطاً بغراس النارنج فشهر بذلك، انظر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢٣٦، وسيشار إليه فيما بعد: السخاوي، الضوء اللامع، انظر: ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص١٢٨؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص٢٦٥؛ شمس الدين محمد بن علي ابن طولون الصالحي(ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، متعة الأذهان من تمتع من الأقران، ٢مج، تحقيق: صلاح الدين، خليل الشيباني، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م، مج١، ص ٨٧-١٠٥، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، متعة الأذهان، بناه الشيخ أحمد بن عبد الرحيم، شهاب الدين بن المحوجب الموصلي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، ودفن قربه. وانظر أيضاً: نجم الدين محمد بن محمد الغزي(ت١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م) ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ٣ج، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، دار الأوقاف الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م، ج٣، ص ١٣٦ ، وسيشار إليه فيما بعد: الغزي، الكواكب السائرة .

(٤٧) جرمانا: بلدة في غوطة دمشق، مركز ناحية، ريف دمشق، تقع جنوب شرق مدينة دمشق، تبعد عنها ٤كم، تروى من نهر العقرباني. انظر: محمد كرد علي، الغوطة، ص٢٣ ؛ طلاس، المعجم الجغرافي، مج٢، ص٦٥٧.

- ء محصول حجر واحد ونصف در ورثة ترجمان زادة في سنة: ١٥
- ء محصول حجر واحد من نهر كريمي در ورثة أبو نارا في سنة: ١٠
- ء محصول نصف حجر من نهر كريمي در ورثة محمود مؤذن في سنة: ٥
- ء محصول حجر واحد در ورثة ابن عجامة من نهر ركيمي في سنة: ١٠
- ء محصول واحد من نهر كريمي در ورثة محمد أفندي اسطواني في سنة: ١٠
- ء محصول نصف حجر، در يد أولاد عفيف في سنة: ٥
- ء محصول نصف حجر، در يد حاج محمد عثمان في سنة: ٥
- ء محصول نصف حجر، در يد مصطفى نوارسي في سنة: ٥
- ء محصول حجر واحد من أبي عيار داخل بستان شموليات في سنة: ١٠
- ء محصول حجر واحد داخل بستان حوافير وبستان روا عن أبي عيار في سنة: ١٠
- ء محصول حجر واحد در يد محب الله بن عبد العال عن أبي عيار في سنة: ١٠ (دفتر ١٠٤، ص٣٢)

٢٧. محصول: ربع ماء كوكشة در يد مزبوريني في سنة: ١٢٠ (دفتر ١٠٤، ص٣٢) .

٢٨. إثنا عشر حجراً من نهر كفر سوسية في يوم الخميس والجمعة والسبت في كل يوم أربعة أحجار في سنة: ١٩٠٠[٤٨]. (دفتر ١٠٤، ص ٢٤).

الملكيات:

والملكيات الأربع الواردة في الدفاتر، فيها حق تملك مياه أو حقوق ارتفاق لمبيع أو شراء وهي:

١- ملك: محمد جلبي، ناظر الأموال، تاريخ الملكية في سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م، تاريخ الباقي في سنة ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م.
   - عن مجرى الماء، خارج باب الصغير، نصف ثمن سبع من سبعة أسباع. (دفتر رقم ٣٩٣ حجة رقم ١٢٥، ص٢٠٦).

٢- ملك: فروج بيك، ملكه بموجب التبايع المؤرخة في ١٣ ذي الحجة ٩٨٥هـ / ٢١ شباط ١٥٧٨م، وقد انتقل بالوفاة وصار في ملك ورثته بالطريق الشرعي.
   - مزرعة بأراضي المنيحة من غوطة دمشق تعرف بالقاطوع وأبي عياد، ٣ط

(٤٨) هذه العائدات من تأجير المياه من نهر كفر سوسية بمقادير أحجارها، هي من أوقاف الجامع الأموي .

من ٢٤ط وشرب ذلك من نهر السلطان (الملك)[٤٩] حق شرعي.
(دفتر ١٠٤ حجة رقم١١٣، ص١٦٤).

٣- ملك: المعلم الحاج محمد بن المرحوم الحاج ناصر بن قطلبك من قرية القابون الفوقاني[٥٠]، ما هو فانتقل إليه بالابتياع الشرعي من فاطمة بنت زين الدين عمر المشهور جدها بابن الأمشاطي المنتقل إليها سابقاً من ولدها، بموجب حجة شرعية شاهد بذلك صادرة من دمشق المحمية في ٢١ صفر ٩٩٣هـ/ ٢٢ شباط ١٥٨٥م.

- قرية نشابية[٥١]، تابع المرج الشمالي من لواء دمشق، فدان ونصف فدان من أصل ستة عشر فداناً. وشرب كامل ذلك من الماء من نهر بردى. (دفتر ١٠٤ حجة رقم ١٦٦، ص ٦٨).

٤- ملك: الحاج عثمان النوري من أهالي قرية دوية الذي أنشأه بإذن شرعي له في ذلك من قبل عبد الكريم أفندي المتولي السابق على أوقاف العمارة السليمانية، الذي من جملتها القرية المذكورة، وصرف عليه مبلغاً، وصار بذلك في ملكه، حسبما يشهد بذلك الحجة الشرعية المؤرخة في ١٥ شعبان ١٠٠٢هـ/ ٦ أيار ١٥٩٤م.

- قناة مسجد قرية دوية المزبورة المعروفة ببني النوري، وعليها لجهة وقف العمارة كرة في كل سنة أربعون عثمانياً. (دفتر ١٠٤ حجة رقم ١٦٧، ص ١٦٨).

من خلال دراسة تلك الوقفيات والملكيات وتفسير المصطلحات الواردة فيها، نسجل الملاحظات التالية:

الواقفون:

تعود الوقفيات إلى العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية، أكثرها ذري وبعضها خيري، اثنتان أيوبيتان وخمس مملوكيات وثلاث عشرة عثمانية، والملكيات أربع، واحدة مملوكية وثلاث عثمانية. ووقفيتان لم يذكر تاريخهما، إضافة إلى ثلاث حجج ضمت عوائد أحجار مياه قد أجرت لمصالح الجامع الأموي في دمشق.

---

(٤٩) نهر السلطان (الملك): ينفصل عن بردى قرب جسر الغيضة، غيضة السلطان، يسقي قسماً من أراضي المحمدية.

(٥٠) القابون الفوقاني: هي أرض مزرعة العمادية، فيها بيوت قليلة، والقابون الفوقاني هي القرية الأصلية. انظر: محمد كرد علي، غوطة دمشق، ص٢٤١.

(٥١) نشابية: قرية في مرج غوطة دمشق، تتبع منطقة دوما، ريف دمشق، جنوب شرق دوما بمسافة ١٤كم، تبعد عن دمشق ١٩كم شرقاً. انظر: طلاس، المعجم الجغرافي، مج ٥، ص ٤١٥ .

ويلاحظ أن معظم الواقفين كانوا من علية القوم، فئة الحكام أو الولاة أو الرؤساء ممن يتمتعون بنفوذ سياسي وعسكري كبير، أو من فئة الشيوخ والعلماء وخاصة شيوخ الصوفية من ذوي الحظوة عند الحكام والأمراء وعامة الناس أو من فئة كبار التجار ملكوا ثروات كبيرة. وكانوا على صلة بأصحاب النفوذ السياسي والعسكري وكذلك الملاك.

فمن الواقفين نور الدين الشهيد، الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الأيوبي الذي ملك دمشق سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٤م، وتوفي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، والذي عرف بورعه وتقواه، بنى المدارس والجوامع والخانات والطرق والبيمارستانات، ومنها بيمارستانه الكبير، البيمارستان النوري الكبير الذي كان قائماً حتى سنة ١٢١٧هـ / ١٨٩١م، ومن ثم حول إلى المدرسة التجارية الرسمية سنة ١٩٣٧م .

أوقف نور الدين الشهيد على بيمارستانه فتاح (واحد نهر عقربا: ٧عداوين) [٥٢]. وخاتون بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين الشهيد توفيت ٥٨١هـ / ١١٨٥م، المنسوب إليها المدرسة الخاتونية العصمية الكائنة داخل مدينة دمشق، بمحلة حجر الذهب، قرب الحمام السركسي والمعروف بحي سيدي محمود والتي اكتمل بناؤها سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م، ومن ثم أوقفها أخوها سعد الدين، وصاحبة المدرسة تزوجها السلطان صلاح الدين يوسف سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م، بعد وفاة زوجها نور الدين الشهيد، وكان لها أمر نافذ ومعروف وصدقات جارية، بنت مدرسة ورباطاً خارج باب النصر على نهر باناس في أول الشرف القبلي، فقد أوقفت فائض الماء من مزرعتها، والماء يصل إلى المزرعة من نهر الشريف ويروي قرية سُقبا [٥٣].

---

(٥٢) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي(ت ٨٧٤هـ / ١٤٦١م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية،القاهرة، ١٢ج، ١٩٢٩-١٩٧٤م، ج٦، ص ١٧٤، وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة؛ بدران، منادمة الأطلال، ص٢٥٩.

(٥٣) عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق)، ٣ج، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٢٧٥هـ / ١٩٥٧م، ج٢، ص٢٠٥ ، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ؛ سبط ابن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، مرآة الزمان، حيدر اباد، المطبعة العثمانية، د.ت ج٨، ص ٧٥٦؛ شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي(ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م)، الشهير بأبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ج، نشره محمود حلمي أحمد، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٨م، ج٢، ص ٦١ ، وسيشار إليه فيما بعد: أبو شامة، الروضتين؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي(ت٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠م، ج٤، ص٢٤٥، وسيشار إليه فيما بعد: الذهبي، العبر؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص٥٠٧ .

والواقفون من ذوي النفوذ الأعلام في دولة المماليك، الملك الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، والذي اعتلى سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٨م[٥٤].

وقانصوه اليحياوي الظاهري ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، نائب الشام (كافل دمشق)، وذلك سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، عتيق الملك الظاهر جُقمق، صاحب التربة خارج باب الجابية، والذي عرف بظلمه وتعدي جماعته على أهالي دمشق، وحاز هو وجماعته أموالاً كثيرة [٥٥].

وقطب الدين الخيضري، ومحمد بن محمد بن عبدالله بن خيضر، ت ٨٩٤هـ/١٥٨٥م، صاحب دار القرآن الخيضرية بدمشق، شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين، والذي بلغ من رفعة الشأن في الدولة مكاناً قلما بلغه غيره. وله عدة مؤلفات، وكان من جملة أوقافه على المدرسة أصابع من مياه طالع حزورة وطالع الزلاقة[٥٦]، بلغت ١٢ إصبعاً من الأول و١٤ إصبعاً من الثاني[٥٧].

ومن أثرياء التجار محمد بن حسن المُزَلّق، وكان من أسرة عرفت بالتجارة، تسير تجارته في البلدان، كوّن ثروة كبيرة وحاز أموالاً طائلة، فرئيس التجار في دمشق، محمد بن علي بن أبي بكر المعروف بابن المُزلّق ت ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، من أسلافه، أنشأ في طريق مصر – الشام، خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر يعقوب والمنُية وعيون التجار، وله مآثر بطريق الحجاز وأوقافه كثيرة، وكان يكاتب الملوك وكلمته نافذة عندهم. ومحمد بن حسن بن المُزلّق كان ناظر الجيش بدمشق، ت ٨٧٨هـ/١٤٧٣م، وشمس الدين بن المُزلّق، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، هو الآخر صاحب ثروة طائلة، لكنه كان مشغولاً بمكاسبه وأرباحه،

(٥٤) محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات، ٥ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م، ج١، ص٨٥ ، وسيشار إليه فيما بعد: ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات؛ ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٤؛ أبو العباس تقي الدين احمد بن علي المقريزي(٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢ج في 3ق، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦– ١٩٥٨م، ج١، ص٤٣٦ ، وسيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك.

(٥٥) علاء الدين علي بن يوسف البصروي، (ت٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، تاريخ البصروي ، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م – ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، تحقيق أكرم حسن العلبي، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٢١٨ ؛ شمس الدين محمد بن علي ابن طولون الصالحي (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق، تحقيق محمد بن أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٩٢ ، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، أعلام الورى.

(٥٦) الزلاقة: بنواحي الباب الصغير، والطريق الواقعة شمالي الباب الصغير. انظر: ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص ٤٤؛ ابن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية، ج١، ص ٣٤٤ .

(٥٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص١١٧ ؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص ٧ .

وحسن بن المُزلّق، من أهل العلم والديانة.

فأسرة المُزلّق لهم شهرة في العلم والتجارة والعسكرية، وذوي نفوذ وجاه[٥٨]، ومن الواقفين كبير تجار دمشق الكارمي، شرف الدين عيسى بن عبدالله القاري، ت ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م، والذي كان يعمل في تجارة الكارم، البهار والفلفل والأحجار الكريمة وغيرها، شريكاً للسلطان الأشرف قايتباي، وشهر أمر تجارته في بلدان الهند وشرق إفريقيا، وقد عُرف بإحسانه إلى الفقراء وحجج وقفياته في دفاتر التحرير كثيرة [٥٩].

ومن العثمانيين الواقفين:

لالا مصطفى باشا، الوزير الأعظم، والذي تولى دمشق بين السنوات ٩٧١-٩٧٤هـ/ ١٥٦٣-١٥٦٦م وكان صاحب خيرات وحسنات، عمّر تكية وخاناً وسبيلاً وحماماً[٦٠] وإلياس واسكندر كتخديان أمير الأمراء عيسى باشا، والكتخدا لقب يطلق على من يعمل نائباً أو قائماً بالأعمال، ويشرف على أعمال رجال الدولة، ومصدر نفوذهما يعود إلى وليّ نعمتهما عيسى باشا بن إبراهيم باشا الرومي الحنفي، ت بدمشق ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م. وكان قد ترقى في المناصب من التدريس إلى التوقيع بالديوان السلطاني، ثم تولى الإمارة في حلب وفي دمشق لأكثر من مرة، وكان يحب المطالعة وشُهِرَ بعدله وإحسانه، وله اعتقاد في صوفية الشيخ عمر الأسكاف العقيبي[٦١].

وفروج بيك بن عبدالله من المتفرقة بالباب العالي الذي يسمونه بمتفرقة خونكار، وهذه الرتبة من أعلى الرتب في القصر السلطاني، وكان عدد هؤلاء لا يتجاوز الأربعين، ويصحبون السلطان، ويختارون من أولاد الأمراء والوزراء وكبار الأعيان، وكانوا مرشحين ليصبحوا وزراء، وقد زاد عددهم في القرن السادس عشر الميلادي حتى أصبح عددهم ٦٣٠ فرداً، ولهم مكانة مرموقة[٦٢].

(٥٨) البصروي، تاريخ، ص٦٢-٦٣، ص٢٠٧ ؛ بدران، منادمة الأطلال، ص٧٩، ص٣٥٢ ؛ محمد أديب آل تقي الدين الحصني، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٥٨٦ ، وسيشار إليه فيما بعد: الحصني، منتخبات التواريخ.

(٥٩) البصروي، تاريخ، ص١٤٢ ؛ ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، ق١، ص١٠٩، ص١٣٢-١٣٣ .

(٦٠) محمد بن جمعة المقار الحنفي(ت١١٥٥هـ/ ١٧٤٣م)، الباشات والقضاة في دمشق، نشره صلاح الدين المنجد تحت عنوان، ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق، ١٩٤٩م، ص٦ ، ص ١٥ ، وسيشار إليه فيما بعد: المقار، الباشات والقضاة.

(٦١) الغزي، الكواكب السائرة، ج٢، ص٢٣٥-٢٣٦ ؛ المقار، الباشات والقضاة، ص ٩، ص ١٣ .

(٦٢) سهيل محمد صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة بركات عبد الرزاق، الرياض،

ومن كبار التجار (الخواجات)، محمد بن محمد الشهير بابن سوال وبابن دغمس، وهو من السادة التجاريد أي الذين يرأسون الحملات العسكرية (التجاريد)، لقتال المتمردين العصاة، أو الكفار الذين يعتدون على ديار الإسلام.

والخواجة محمد بن عمر بن سراج الدين البعلي الكناني، من ذرية شيخ الإسلام، سراج الدين البلقيني الكناني الشافعي، ت ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، والذي تولى قضاء دمشق وصار مكانه في مجلس السلطان فوق قضاة القضاة [٦٣].

والخواجة (التاجر) عبد القادر بن أحمد العنبري وابنه محمد، كانوا من رؤساء التجار بدمشق، وله اختلاط بالحكام وغيرهم من رجال الدولة، وعبد القادر نفسه كان يحب أهل العلم والحديث، وكان يلازم درس شمس الدين بن طولون، وقد سجلت له في دفتر تحرير رقم ١٠٤ أكثر من عشر وقفيات [٦٤].

ومن الوقفيات العثمانية الأخرى، وقفية الشيخ الحسين الجباوي وأولاده سعد الدين وبدر الدين وهم من كبار شيوخ الصوفية في دمشق، من ذرية الشيخ الصوفي الجباوي الدمشقي القبيباتي الشهير بان سعد الدين ت ٩٦٣هـ/١٥٥٥م، وشيخ بني سعد الدين في دمشق، للناس فيه اعتقاد، وقد مدحه أحدهم بقصيدة منها:

شيخ الشيوخ ومَنْ تسمى أحداً وسما على العُبَّاد والصلحاء

في سائر الأقطار شـــاع صيتــه بمكارم جلت عن الإحصـــاء

ومنهم، حسن بن محمد بن محمد بن سعيد السعدي ت ٩٨٨هـ/١٥٨٠م، وصف بالشيخ المربي المزازي الشاغوري الشافعي المذهب، قال سعد الدين الجباوي أسرة حظيت بمكانة دينية صوفية عالية في دمشق، وكان لها نفوذ وكلمة مسموعة عند الولاة العثمانيين [٦٥].

١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٠٠ ، وسيشار إليه فيما بعد: صابان، المعجم الموسوعي.

(٦٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٨٥ ؛ شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي(٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، قضاة دمشق (الثغر البسام في نكر من ولي قضاء الشام)، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٦٥م، ص ١٠٩-١١٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، قضاة دمشق؛ أبو الفلاح عبد الحي بن احمد بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب، ١٠ج، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٧٠م، ج٧، ص٥١ ، وسيشار إليه فيما بعد: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب؛ الحصني، منتخبات التواريخ، ص ٥٤٨ .

(٦٤) الوقفيات من حجة رقم ١٤٣ إلى حجة رقم ١٥١، كانت مصادرها الوقفية أكثر من مصدر أو قلم. وانظر أيضاً: الغزي، الكواكب السائرة، ج٣، ص ١٧٠ .

(٦٥) الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص١٨٥، ج٣، ص٥٦، ص١٣٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٣٣٤ .

أما الوقفيات الأخرى فتعود إلى مسجد النارنج الكائن بالباب الصغير والذي يعرف بمسجد الحجر قبلي جامع مصلى العيدين[٦٦]، ومسجد الشام الكائن باطن دمشق بمحلة القطانين بسوق جُقمق[٦٧].

وفيما عدا ذلك فالوقفيات تعود إلى أفراد توطنوا مدينة دمشق أو من أهلها، منهم يوسف بن عبدالله الحموي الأمياتي، ومحمد بن محمد بن قاضي كفركنة، وعلي بن يحيى بن فضل الله العمري، ومحمد بن إبراهيم بن شهاب الدين بن حبيقة الطبيب.

- الإشهادات التوثيقية في الحجج الوقفية والملكيات:

جاء الإشهاد التوثيقي لبعض حجج الوقف المائية بعبارة: " بحقه من الماء، على نوب أهله " أو "لها حق ماء قدره"، أو بعبارة: " وبحقه لهذه الحصة من الماء"، أو " بحقه من الماء الواصل إليهم من ... الخ، أو " على بعد أهله المتعارف بينهم ".

والمهايأة بالنوب أو على بعد أهله المتعارف بينهم تعني بأن يجعل المآخذ أو الشرج العليا فصولاً معلومة، ولأهل الوسطى والسفلى كذلك، للأولين أياماً وللآخرين أياماً على ما اعتادوه وهو رضىً ومسامحة بين ذوي العلاقة فيما بينهم منذ أزمان طويلة [٦٨].

وأحياناً يكون الإشهاد التوثيقي مقراً ومصدقاً من الحاكم الشرعي أو نائبه أو بموجب حجة تبايع ووقف [٦٩]. فقد صدرت حجة وقف يوسف بن عبدالله الحموي من القاضي نائب الشرع أحمد بن عبد الرحيم الحنفي، والذي أثبت أسماء الشهود على ظاهرها وتاريخ شهاداتهم. وقد كان الإشهاد مستنداً إلى دفتر ناظر الوقف وحجة الوقف أو بموجب دفتر محاسبة قاضي الشام[٧٠].

وفي شهادة توثيقية لملكية واحدة اتصلت بالحاج عثمان النوري من أهل قرية دويه الذي أنشأه بإذن شرعي من عبد الكريم أفندي، المتولي السابق على أوقاف العمارة السليمانية

(٦٦) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ٢٢٨ ؛ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، البداية والنهاية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م -١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، ج١٤، ص ٨٥؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص ٢٦٥ .

(٦٧) لم يذكر عند ابن عبد الهادي ولا ابن طولون ولا النعيمي الدمشقي.

(٦٨) انظر الحجيات في الدفتر ١٠٤ حجة رقم ٤٨١، ص١٠٧، حجة رقم ١، ص٣٨ ؛ وحجة رقم ١٥١، ص٥٨-٥٩؛ وحجة رقم ٧٩٩، ص١٤٦ ؛ والدفتر ٦٠٢، ص٢٢٥، والدفتر ١٠٤، حجة رقم ٦٤٧، ص١٢٤.

(٦٩) الدفتر ١٠٤ حجة رقم ٧٩٣، ص١٤٥، ودفتر ١٠٤ حجة رقم ١١٢، ص١٦٤، حجة رقم ١١٣، ونفس الصفحة، وحجة رقم ١٦٦، ص١٦٨ .

(٧٠) الدفتر ١٠٤ حجة رقم ٤٩١، ص١٠٩ ؛ وحجة رقم ٤٦١، ص١٠٥، ودفتر ٣٩٣ حجة رقم ٣٠١، ص ٥٧.

(التكية) وأنفق عليها مبلغاً من المال، وصارت بذلك في ملكه حسبما يشهد بذلك الحجة الشرعية المؤرخة في ١٥ شعبان ١٠٠٢هـ/ ٦ أيار ١٥٩٤[٧١].

إن المقاربة الفقهية التي اعتمدت في التطبيق العملي، استندت إلى ما كانت عليه العادة المستمرة والقاعدة المستقرة الجارية من السنين المتقادمة والأعوام المتطاولة، سواء عند التصرف بالمياه أو قسمتها أو عند إقامة المهايأة المائية وإصلاحها، وعند عدم توفر العادة والقاعدة للقياس عليها والأخذ بها أو استحالة إثباتها يتم اللجوء إلى الاتفاق الجماعي، وإذا لم يحصل فيكون الرجوع للقاضي لاستصدار ما يلزم من الأحكام[٧٢].

وفي حجة واحد تملك بموجبها الحاج عثمان النوري قناة مسجد دوية بموجب الإذن الممنوح له من المتولي عبد الكريم أفندي المشار إليه سابقاً. فيبدو أن هذه الملكية قد تم اللجوء فيها إلى ما عرف "بالمخارج في الحيل" أو الحيل الشرعية، وهو باب أتى به أحد كبار فقهاء المذهب الحنفي، محمد بن حسن الشيباني ت ١٨٩هـ/ ٨٠٤م، في حين أن الشافعية والشيعة لا يقرون هذا المبدأ وخاصة في مسائل المياه.

فقد أورد تاج الدين السبكي:

وقد جرت عادة أناس في الشام أن يشتري بعضهم قدراً معلوماً من ماء نهر ثورا أو باناس مثلاً ويتحيل لصحته بأن يورد العقد على مقره بماله فيه من حق الماء، وهو كذا إصبعاً ثم يسوقه ويحمله على مياه الناس، برضا طائفة يسيرة منهم، وكان الشيخ الإمام رحمه الله يشدد النكير في هذا، وله فيه تصنيف سماه " الكلام على أنهار دمشق "، والحاصل أن الخلق في أنهار دمشق سواء، يقدم الأعلى منهم فالأعلى، ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره ولا يفيد رضا قوم ولا كلهم إلا أنهم لا يملكون إلا الانتفاع، ولا رضا أهل الشام بجملتهم لأن رضاهم لا يكون رضا من بعدهم ممن يحدث من الخلق [٧٣].

وفي فتوى للعلامة الأمير الصنعاني، محمد بن إسماعيل ت ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م، أفتى بعدم شرعية تملك الإمام المهدي العباس للغيلين (الأنهر)، الأسود والبرمكي الكائنين في ضواحي صنعاء، شعوب والصافية وبئر العزب بدعوى أنه أعاد استخراج وفتح الغيلين

(٧١) دفتر ١٠٤، ملكية رقم ١٦٨، ص١٦٧.

(٧٢) الفرسطاني النفوسي، قانون المياه، ص١٦٨.

(٧٣) تاج الدين عبد الوهاب السبكي، (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٦٦، وسيشار إليه فيما بعد: السبكي، معيد النعم.

والقنوات من ماله الخاص، وعوض بيت المال بمبلغ من المال، وقد نبه ابن الأمير الصنعاني إلى أن فعل الإمام خارج عن القواعد الشرعية وحذره من مغبة ذلك، لأن الغيلين وقف، وهما ملك لجماعة المسلمين، وقد تورط في شراء الأوقاف وأخرجها من الوقفية إلى الملكية والمناقلة والمعاوضة بين بعض ماله [٧٤].

فالأنهار ومجاريها العامة ليست مملوكة، وإنما هي مباحة لا يجوز لأحد تملكها لأنها وقف على جميع المسلمين ولا تملك لا بالبيع ولا بالإحياء ولا بغيره، وكذلك حافاتها[٧٥].

وعلى الجانب الآخر فمن أجل فض المنازعات والمخاصمات بين الناس في الشام على المياه والأراضي، وفي شأن زيادة الأعمار والتحضر فقد عمل سلاطين بني أمية منذ البداية على توثيق حقوق الأفراد من المياه الواصلة على أراضيهم وبساتينهم وجنيناتهم، فقد كتب سليمان بن عبد الملك وثيقة على ذمي تفيد بثبوت حقه في قناته المستمدة من نهر يزيد، وجاء في الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كتبه سليمان بن عبد الملك، أمير المؤمنين لجرجه بن مقرا، بثبات قناته في نهر يزيد إلى نيره بما قامت له البينة .

واشهد بذلك عبد العزيز بن عبد الرحمن اليحصبي وعبدالله بن الحسين بن المبارك الهمذاني وزيد بن أسلم بن عبدالله القرشي وعبد الرحمن بن عبد الملك من أهل الغوطة ومحمد بن عبد الرحمن بن الفضل بن العباس الهاشمي .

وكتب شهادته بأمر سليمان بن عبد الملك بما في الكتاب، يوم الخميس في شهر رمضان سنة ثمان وتسعين.

وكتب سليمان بن عبد الملك بخطه، واشهد الله على نفسه وكفى الله شهيدا [٧٦].

وأورد ابن طولون الصالحي وثيقة تتصل بالسقي من نهر ثورا، وقد قسم الري فيها إلى اثنتين وأربعين مسكبة[٧٧]، وفيه أربع عشرة ماصية.

قلت (أي ابن طولون الصالحي):

---

(٧٤) محمد بن محمد الصنعاني (ت: ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م)، نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف إلى ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣١٠ ، وسيشار إليه فيما بعد: الصنعاني، نشر العرف.

(٧٥) تقي الدين ابو الحسن علي بن عبد الكافي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، فتاوي السبكي، ٢ج، في ١مج، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٣٧م، ج٢، ص ١٠١، وسيشار إليه فيما بعد: السبكي، فتاوى.

(٧٦) ابن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية، ج٢، ص ٣٦٣؛ الحصني، منتخبات، ص١٠٩٦.

(٧٧) مسكبة: وحدة مساحة لقطعة أرض، عادة تعادل ٢٥م٢ .

ثبت لدى قاضي القضاة صدر الدين، أبو العباس أحمد بن قاضي القضاة شمس الدين أبي البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن يحيى بن محمد الشافعي [٧٨]، الحاكم كان بدمشق يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة جميع ما تضمنه المحضر الذي من مضمونه، وشهد في المحضر أربعة شهود:

عبد الله بن حموية، وسليمان بن داود بن عمر بن خطيب بيت الأبار، ومحمد بن خميس بن محمد وإبراهيم بن سلاقة بن عيسى الشافعي،

إن العادة المستمرة والقاعدة المستقرة الجارية في عدادين نهر ثورا من أهل الأماكن الآتي ذكرها

من كورة غوطة دمشق من السنين المتقادمة والأعوام المتطاولة :

- أن لأهل قريتي دومه وحرستا الزيتون بينهما نصفان ثمانية عدادين في ثمانية أيام متوالية، ثم يتلوها .
- لأهل قرية عربيل وقرية كفر مديرة وقرية مسرابا، الوقف على البيمارستان النوري ولداريا الصغيرة ولثلاث مزارع من قرية حرستا الزيتون تعرف إحداهن بعذرون والأخرى بسطرا والأخرى بأنطايا، أربعة عدادين من هذه الأماكن المؤخر ذكرها من وقت طلوع العصر إلى طلوع الشمس ما خلا ماصيتي أمير المؤمنين وقناة السبيل المعروفة بالزنبية [٧٩] والماصية الخامسة [٨٠] المعروفة بدار الضيافة، وسهرها من الربوة إلى أن تنتهي إلى مقسم الثلث الذي منه هذه العدادين الأربعة.

وإن هذه العادة لم يغيرها مغير ولا أوالها مزيل من السنين المتقادمة إلى الآن، وكتبوا شهاداتهم في الثامن من شعبان من سنة سبع وأربعين وستمائة هجرية، وقد اتصل بحكام الشريعة المطهرة حاكماً بعد حاكم بالطريق الشرعي إلى أن اتصل بالشهادة على الخط، وحكم بثبوت الصحة فيه شيخنا قاضي القضاة نجم الدين عمر بن إبراهيم بن مفلح

---

(٧٨) أحمد بن يحيى بن عبدالله بن الحسن الدمشقي الشافعي، (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٨م)، ناب عن أبيه وولي وكالة بيت المال ودرّس بالمدرسة الإقبالية والجاروفية وولي القضاء مدة، توفي ببعلبك. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٢٤؛ ابن طولون الصالحي، قضاة دمشق، ص٧٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٩١؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ص٢٣٤ .

(٧٩) كانت لا تسد في أيام العدادين المذكورة .

(٨٠) انظر، ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج١، ص ٣٦٩ .

الحنبلي[٨١]، في ثالث ذي الحجة سنة إحدى وتسعماية [٨٢].

وعلاوة على ذلك ترد عبارة " وشرب ذلك من" وهي قاعدة فقهية تعني حق الارتفاق بالانتفاع، وهو نوع من الحقوق الواقعة على الماء (حصة من الماء) وقد تباع أو تؤجر أو توهب[٨٣] .

التهيئة المائية:

اللافت للنظر ورود العديد من المصطلحات الخاصة بتوزيع المياه وقسمتها بين أهل القرى والبلدان والغوطة في دمشق وظاهرها، وهذه المصطلحات ما هي إلا بعض النماذج التي أبدع المهندسون الدمشقيون في عملها بهدف الوصول بالمياه إلى أصحاب الحقوق فيها، ومن ثم حسم المنازعات والمخاصمات، ومن هذه المصطلحات:

فتاح الماء من نهر عقربا، الطالع المعروف بحروزة، الطالع المعروف بالزلاقة، الطالع لصيق حمام القطن، عدان الماء بقرية قارا ومزرعة تعنايا، وعدان جبة العسال، وعدان المصاوة، ومزاز بيت قوفا من نهر عقربا ومزاز الكوكشة (تابع عين ترما) ومزاز قلعة دمشق. ومزاز الميلقون المستمد ماؤه من نهر الداراني من الحجر الشرقي، ومزاز ابن عبد، ومزاز مسجد القدم. وكذلك مصطلح مجرى الماء خارج باب الصغير ونهر الأنباط، ونهر أبي عيار، ومجرى نهر الأشعار (الأشعري) المستمد من نهر القنوات، ومجرى ماء مسجد القدم، ومجرى قرية برزة والقناة الدنكيزية، وقناة مسجد دويه، ودمنة الحجر المبني بالحجر والكلس، وتقسيم الخلخال، وماصية أمير المؤمنين.

فالتهيئة المائية وقف ما هو وارد في الدفاتر تمثلت في إقامة الفتاحات، المآخذ أو الشُرج والطوالع والمقاسم والمواصي والمزازات وشق القنوات والأنهر وبناء الدمن. وتحفل الحجج الوقفية بذكر الأنهر، وفيما عدا الأنهار الرئيسية المعروفة بردى وفروعه يرد نهر ابن حية ونهر القلعة ونهر لبيب الباناسي، ونهر الشيبة ونهر السلطان (الملك)، ونهر الشريف ونهر الأنباط، ونهر أبي عيار، ونهر الأشعار، ونهر القصير، ونهر كفر سوسية

(٨١) نجم الدين عمر بن إبراهيم بن مفلح الحنبلي، (ت ٩١٩هـ/ ١٥١٣م)، ولي القضاء بعد وفاة والده سنة (٨٨٤هـ/ ١٤٦٩م)، عزل وأعيد إلى القضاء غير مرة، حدّث بدار الحديث الأشرفية ودرّس بمدرسة أبي عمر والجامع الأموي، أفتى، كان عنده سياسة وحشمة ومعرفة بالقضاء. انظر: ابن طولون الصالحي، قضاة دمشق (الثغر البسام)، ص ٣٠٣ – ٣٠٥ ؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص ٩٢ .

(٨٢) ابن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية، ج١، ص ٣٦٨ – ٣٦٩ .

(٨٣) انظر الوقفيات: ٥، ٦، ٧، ٨، من البحث والملكية ٢ من البحث أيضاً .

ونهر القليط.

وكما هو معروف فإن الأنهر الشامية القديمة إضافة إلى نهر بردى وفروعه يزيد وثورا وقنوات وباناس والداراني والعقرباني (المجدول) وداعية، يضاف إليها نهر حروش الذي ينبع من أراضي بزينة من عين حروش ونهر الزابول (الزابون) والذي ينبع من عين السويسي ونهر الأعوج الذي يخرج من السفح الجنوبي الشرقي لجبل حرمون (الشيخ) من عدة ينابيع حول عرنة وينتهي إلى قرية الهيجانة[٨٤]، ومعنى ذلك أن أنهاراً قد شقت وأجري الماء فيها.

ويطلق الشاميون على كل قناة يجري فيها الماء مكشوفة نهراً إذا كان كبيراً وساقية إذا كان صغيراً، أما إن حفرت تحت الأرض ومغطاة فهي قناة.

نقرأ في حوادث شوال من سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، خبر جريان الماء بالنهر الكريمي الذي اشتراه القاضي كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله المسلماني ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، وكيل الخاص السلطاني بالبلاد جميعها بخمسة وأربعين ألفاً، وأجراه في جدول إلى جامعه الكائن بالقبيبان بالقابون، فعاش به الناس، ونصبت عليه الأشجار والبساتين، وعمل حوضاً كبيراً تجاه الجامع بها لغرب، ليشرب منه الناس والدواب [٨٥].

وفي أحداث رجب ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، " في هذه الأيام اشتريت الحصّة الماء التي كانت مختصة ببيت قاضي القضاة بهاء الدين، أبي البقاء محمد بن قاضي القضاة نجم الدين بن حجي الذي كان لصيق المدرسة الظاهرية بالمنيع وفكّ، فلما اشتريت نزلت على نهر قنيّة ثم على نهر الكريمي، ثم إلى الماء الآتي على القبة البيضاء، ثم جددت له قصاطل وأتى به إلى زاوية الشيخ عبد الكريم ابن الموصلي ثم أخذت منه حصة وجعل به قناة قرب الزاوية المذكورة [٨٦].

وللحقيقة والبيان، فمنذ القدم قسم لكل نهر جملة من القرى، ولكل قرية أيام مخصوصة، فقرى الغوطة جعلت أقاليم، ولكل إقليم نهر يشرب منه ويسقى مزروعاته والأقاليم هي:

إقليم بيت لهيا، يشرب من نهر ثورا [٨٧]، وخصص له من القرى جوبر وزملكا وحزة

(٨٤) ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص٣٢-٣٣ .

(٨٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ٨٨ ؛ ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص ١٤٤ .

(٨٦) ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، ق١، ص ٣٧٥ .

(٨٧) نهر ثورا: من أكبر أنهار دمشق، أصله من بردى، مقسمة في الشانورات قبل الربوة، عليه بيوت وحمامات، وعليه النيرب وأرض جنوب بالصالحية وبنيت أبيات وقسم من جوبر وغالبية قرى الغوطة، يتفرع من الجهة اليسرى عند جسر الخشب الواقع بعد قرية دمر ويشترك مع نهر يزيد في ري القسم الجنوبي لقاسيون. انظر: ابن عبد

وعربيل وكفر مديرة ومسرابا وحرستا الزيتون ودوما ودمر.

وإقليم داعية الذي يصله الماء من نهر الداعياني، اختصت به قرى عين ثرما، وكفر بطنا، جسرين افتريس، وسُقبا، وبيت سوا [٨٨].

وإقليم بيت الأبار الذي يرتوي من نهر العقرباني، خصصت له قرى جرمانا والمنيحة وبيت سحم وعقربا والبلاط ودير بحدل وزبدين وحديثة الجُرش[٨٩].

وإقليم باناس لما يشرب من نهر باناس، وقد ألحقت به قرى بيبلا ويلدا وقبر الست وحجيرة والبويضة، وقد تفنن المهندسون في جعله بعد خروجه من الشاغور ليحمل كافة قاذورات وأوساخ مدينة دمشق في نهر أطلق عليه نهر القليط، ويلقيها على بساتين الشاغور قبلي دمشق لتكون سماداً للأشجار والأرض [٩٠].

كما أجريت المياه في قنوات ومسارب عديدة حتى كان في دمشق وظاهر أكثر من ١٥٤ قناة [٩١]، وبدت كأن مدينة أخرى قائمة تحت الأرض تصرف المياه في جداول ومسارب وقنوات.

وعلى الجانب الآخر، فقد هندست شبكة المياه التي غذت دمشق وظاهرها على شكل المروحة، وهم بهذا ضاعفوا المساحة المسقية التي على يمين بردى، وسهلوا عوامل اتساع المدينة، فالقنوات كانت متقاربة وموازية بعضها بعضاً، وحفروا لحف الجبل بحسابات هندسية دقيقة، ونقروا الصخور لأجل قطع الطيات؛ ليكون تدفق المياه عمودياً فوق السهول، ومن ثم يجري الماء. ويبقى على أعلى مستوى ممكن لأجل حمله على السيلان فوق البقاع الواطئة [٩٢].

وكما هو معلوم، المدينة نفسها ترتوي من نهري باناس والقنوات المتفرعين من نهر بردى من جهته اليمنى، الأول يخرج من خائق الربوة فيساير الحافات الجلبية التي تطل على المزة، ثم ينحدر إلى الأسفل ويسقي التكية السليمية وفروع تسقي جامع المولوية

الهادي، غدق الأفكار، ص٢.

(٨٨) ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص٣٢ ؛ محمد كرد علي، غوطة دمشق، ص١١٥ .

(٨٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ق١، ص ١٧٥ ؛ ابن عبد الهادي، غدق الأفكار، ص٣٣؛ محمد كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٠٣ ؛ يشكل نهر العقرباني الخندق الشمالي لقلعة دمشق وسورها ويمر بباب الفرج والعمارة وباب السلام وباب توما ثم ينقسم عند جسر المطير إلى أربعة فروع. انظر أيضاً، طلاس، المعجم الجغرافي، مج١، ص ٧٨.

(٩٠) محمد كرد علي، الغوطة، ص١١٥- ١١٧ .

(٩١) ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ق٢،ص ٦٥٤ ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (دمشق)، ج١، ص ١٩- ٢٠ .

(٩٢) العطار، علم المياه الجارية، ص ١٥ – ١٦ .

وجامع تنكز ودار الحكومة، ثم تجتمع المياه في طوالع تنطلق إلى حمام القرماني في السوق العتيق حيث يختلط بمياه ثورا ماراً إلى السنجقدار، ويتفرع إلى فرع الطوير إلى المدرسة العصرونية وينتهي عند باب توما.

وفرع إلى القلعة ماراً بالعصرونية وباب البريد والسبع طوالع والنوفرة والقيمرية وينتهي عند باب توما، وثالث نحو الشاغور على باب الصغير والميدان والآخر إلى بساتين الشاغور والباب الشرقي ثم خارج المدينة حاملاً الأوساخ والقانورات مشكلاً نهر القليط أو النهر الأبيض كما أسلفنا (٩٣).

أما نهر قنوات، فإنه يتفرع عند متنزه الشاذورات، ما بين القصر والربوة، وفروعه أهم الفروع التي تزود مدينة دمشق بالمياه، حيث يسمح تخطيطه بوصول المياه إلى أكثر أقسام المدينة من أعلى التل الواقع إلى الجنوب من مجرى نهر بردى – المزة، حيث مقسم الخلخال، ويتفرع إلى خمسة فروع تروي كفر سوسية والقدم وجنوب دمشق، وباب السُريجة وقبر عاتكة وباب المصلى والميدان، ثم في قسم آخر منه تجري قنوات جوفية في مقاسم تجتمع مياهها في طوالع توزع المياه على الدور والحدائق والجوامع وغير ذلك، وطوالعه تصل إلى أكثر من ٩٠ طالعاً (٩٤).

ومياه العيون هي الأخرى نظمت بنظام دقيق كالأنهار، بحيث تأخذ كل أرض حقها وتوزع على أصحابها توزيعاً متفقاً عليه.

مقومات المهايأة المائية:

تقوم مقومات التهيئة المائية على التحكم بمياه نهر بردى وفروعه وعين الفيجة ومياه العيون والآبار بقصد الفلاحة والإعمار، وصرف المياه الزائدة عن الحاجة واستغلال المياه الجوفية، والمحافظة على الكفاءة التجمعية للمياه وإقامة الجسور والسدود مع مراعاة قوانين حركة المياه وإقامة الحواجز الحجرية والتحكم في التدفق السائل للماء، وإنشاء المقاسم التي تمكن من تقسيم الجريان السطحي إلى عدة مخارج بحيث يتحول اتجاه الجريان ومقداره بحسب سعة المقسم وإعدادها، بحيث يكون عدد المقاسم بحسب التفريعات المراد إحداثها ليتناسب اتساعها والدفق المقسم على أن تكون بنفس الأسلوب، أكان ذلك المنسوب على ارتفاع سطح النهر أم أعلى منه أم أخفض، وغالباً ما يفضل أن يكون المقسم عند أقرب

(٩٣) العطار، علم المياه الجارية، ص ١٣ – ١٤ .

(٩٤) المرجع السابق، ص ١٢ .

نقطة من مكان التفريع حفاظاً على عدم ضياع المياه بسبب التسرب الجوفي أو التبخر، ويتفادى التغيرات الموسمية والتغيرات الحادثة أثناء الجفاف أو فترات الفيضان[٩٥].

إن تفسير إقامة المقاسم في مواقعها ونظامها وتخطيط الأقنية واتجاهاتها، إنما يقتضي دراسة الأصول الديموغرافية للذين توطنوا في دمشق وغوطتها، وتملكوا بساتينها وأراضيها خلال العهود المختلفة.

توزيع حق المياه في دمشق يعبر عنه بالعدان Irrigation time ويعني الدور وهو الزمن المخصص لسقاية البستان أو المزرعة أو لسقاية القرية، ويكون العدان بالساعة أو كسورها أو اليوم وكسوره، ويكون أسبوعياً أو أكثر من أسبوع، كل واحد وعشرين يوماً أو أقل أو أكثر ليلاً ونهاراً، وساعة الماء هي مدة مرور الماء ضمن نهر أو ساقية مدة ساعة أو هي صيغة وحدة لبيع حصة أو حق في الماء ولا يعني كمية الماء خلال ساعة زمنية بل تختلف حسب الزمان والمكان[٩٦]. وليس هناك نسبة ثابتة لمصطلح العدان كما في القيراط أو ط من ٢٤، فقد تكون الحصة من عدان الماء تماماً أو عدانين من عشرين عدان أو من عشرة عدادين أو نصف عدان أو ثمن، وكل ذلك بحسب حقوق المشتركين في مياه مصدر أو مقر المياه، وتكون التهيئة لمائية لقسمة المياه بسيطة إذا كانت لري السهول الواسعة أو البساتين الكبيرة الكائنة على النهر أو قريبة منه، فغالباً ما تحفر القنوات وترتب لها المآخذ أو الشرج باستعمال حجر بازلتي فيه ثقب دائري، يثبت الحجر على أحد طرفي القناة وفق منسوب معين، ويحدد هذا المأخذ كمية المياه التي تسيل عبره من القناة [٩٧].

وأحياناً تحدد كميات المياه الساقية للأرض والسهول بالأحجار والأزمان، والحجر هو وحدة تدفق المياه لازمت البغل الذي يسوق دولاب الماء، والكلمة مشتقة من الحجر الذي يوضع لتوازن الدولاب وتساوي عشر مغارف (١٢٠ لتراً) في الثانية. والحجر يبلغ طوله شبر ونصف الشبر، وفيه ثقب يكون شبراً في أقل من شبر وقد استخدمت آلات خاصة لأحكام نحته وتسويته وفق مناسيب الحقوق[٩٨].

وعلى الجانب الآخر، فقد ارتقت التهيئة المائية عند الدمشقيين إلى حد الإبداع، وذلك عند حفر القنوات الجوفية الجارية تحت الأرض لإيصال المياه إلى البساتين والحدائق والجنينات

(٩٥) الهادي بن وزدو، قانون المياه، ص ٢٠٣ .

(٩٦) العطار، علم المياه الجارية، ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(٩٧) العطار، علم المياه الجارية، ص ١٤٢– ١٤٤ ؛ الرفاعي، دور العرب في تقدم علوم المياه والري، ص٢١ .

(٩٨) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (لبنان، الأردن، فلسطين)، ج٢،ص٢٧ ؛ محمد عيسى صالحية، علم الرياقة عند العرب، منشورات جامعة الكويت، الكويت، ، ١٩٨٤م، ص٥١، وسيشار إليه فيما بعد: صالحية، علم الرياقة .

والكروم والجوامع والمساجد والتكايا والخانقاوات والزوايا والرباطات والحمامات والمدارس والترب والدور والمنازل والدكاكين والأسواق والبيمارستانات وغيرها من المرافق العامة وقد تمثلت التقنية العالية ببناء وإقامة المقاسم والمطالع والقساطل والمزازات والمواصي والدمن والسدود والسبع والكفوف والفروض والمساكب وغيرها.

فالمياه تصل إلى مقاسمها في الطوالع بواسطة القساطل conduits، والقسطل أنبوب أو أسطوانة من الفخار المشوي بقطر يتراوح بين ١٥-٣٠سم وبطول ٢٠-٢٥سم، ويكون قطر أحد الأطراف أكبر من الطرف الآخر ليسهل تداخلها، وتمد على طبقة أساس ويجري تدليكها، ويجعل بين كل قسطلين مادة لزجة تسمى اللاقونة joint filler، تحضر من الكلس غير المطفأ والزيت والقطن بنسب ثابتة، وتغطى بمزيج من الغضار والكلس والرمال، ويبنى حولها بناء سمكه ٣٠-٥٠سم، وتمتد هذه القساطل من مقاسم المياه إلى الموزعات الموجودة في الأحياء، ومن الطوالع إلى البيوت[٩٩]، وقد تصنع القساطل من التراب الأحمر، والقساطل أنواع منها ما يعرف بالزمر وهو أصغرها والسركسي والإيراني والسبيلي والمجير والزنجاري وهو أكبرها. وفي نهاية قسطل الماء الذي يصب على البحرة أو الفستقية، السبع وهو بمثابة الصنوبر أو الحنفية، وهو على شكل فم السبع أو الطير المفترس، وهو مثمن الشكل مغلق من سبع جهات والثامن تمر منه المياه[١٠٠].

أما الطالع Pressure breaker:

فهو بناء مربع تقريبا يتراوح ضلعه ما بين ٥٠-٢٥٠سم، ويكون إما على سطح أو مكان مرتفع قد يصل إلى المتر، وهو يتلقى الماء من قساطل التغذية يوزع مياهها ضمنه إلى عدة فروع وفق حصص المنتفعين فيه إلى بيوتهم، ويمكن أن يوصل بطوالع أخرى إلى شبكة صغيرة، وللطالع بحرة مستطيلة الشكل غالبا ما تكون من حجر واحد عمقها ١٠سم وفي وسطها فوهة قطرها ١٠٠سم أو ٢٥٠سم، حيث تخرج المياه من فتحات يزيد عرضها أو ينقص بحسب الكميات المراد تصريفها، ويصب الماء عبر هذه الفتحات في فوهات متصلة بقساطل التصريف إلى الطوالع الأخرى، والطوالع أنواع، منها: الطالع الرئيسي Main breaker، وهو متصل بالأقنية الرئيسية موقعة على مفترق الطرق أو الحارات ويغطي الطوالع الأخرى، والطالع

(٩٩) العطار، علم المياه الجارية، ص ١٤٢-١٤٣.

(١٠٠) المرجع السابق، ص١٨٦. ولعل اسمه أخذ أيضاً من الطهارة لأنه يعطي الماء النظيف فهو من التسبيع أي التنظيف المأخوذ من الغسل سبع مرات، الحد الشرعي للنظافة.

R. Presse. L Irrigation dans Le Gout de Damas. Rev. Et. Is. Paris. 1932.

نقلاً عن محمد كرد علي، الغوطة، ص١٩١.

الفرعي secondary breaker، وهو موزع منزلي ملتصق بجدار المنزل على شكل قمة يغطيها باب ينفتح كأبواب الخزان.

والطالع الموزع يتألف من قسمين أحدهما يضم نهاية السيفون المتصل بالقساطل المتفرعة من القناة الماخوذة من النهر، والثاني يضم مجموعة التقسيمات التي تذهب عبرها المياه إلى الحمامات أو غيرها، وهذا القسم عبارة عن بلاطة من الحجر الأسود مثقوبة من وسطها، تؤدي إلى النازل بالسيفون المذكور، وتوصف بأنها منشأة تخفيف ضغط وتوزيع[١٠١].

وقد جاء في حجة وقفية الخواجة شمس الدين محمد بن القاضي عمر بن سراج الدين البعلي الكنائي.

مجرى الماء في محلة الهواونية تحمل الماء من نهر باناس من الطالع لصيق حمام القطن وقدره إصبعان في الكف الحجر، والكف الحجر هو صخرة صغيرة يخرج منها الماء ضمن تقسيمات توزعه على أصحاب الحقوق بحصص معلومة مقدرة بدقة[١٠٢].

والمقاسم الكبيرة تعرف بالطوالع، وهي تفرعات الأنهار مثل مقسم الخلخال ومقسم الزين ومقسم زقاق الحلبوني ومأخذها من نهر قنوات.

ومقاسم المزاوي ومقسم المرجانة ومقسم الشيخ قاسم والجندي والرحيبي الآخذة من قناة المزاوي وفوهة المزاوي مسكورة بكباشات خشبية، وهي ركائز خشبية مغروزة في قاع النهر لحجز مياهه أو تحويل مجراه أو فصل قناته من نهر آخر أو تفريغ جزء من نهر أو جدول أو أغصان أشجار وحشيش الخز وبعض أشجار كبيرة وفوقه البلان، حيث يرشح إلى النهر وتزيد كمية المياه إلى الفرع[١٠٣].

وأما المزاز Distributor-Diviser، ومنه أنواع:

المزاز الكبير، وهو المكان الذي ينقسم فيه ماء النهر إلى فروع عديدة يملكها أصحاب حقوق عديدون ويقام من حجارة ضخمة توضع وسط مجرى النهر وعلى صف واحد مستقيم وفوقها أحجار أقل ضخامة متباعدة ذات مسافة قياسية ينفق عليها المنتفعون، تتناسب والمقطع المبلول مع التدفق المطلوب، وفي الشاغور مزاز كبير[١٠٤].

والمزاز الحقلي Field-Distributor، وهو منشأ ثانوي للتوزيع المنتظم في المراوي

---

(١٠١) الرفاعي، دور العرب، ص٢٠ .

(١٠٢) المرجع السابق، ص٢٠ .

(١٠٣) العطار، علم المياه الجارية، ص١٢، ص١٩٤ .

(١٠٤) النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٤٢١ ؛ الرفاعي، دور العرب والمسلمين، ص ١٩.

الحقلية، ينتظر أصحاب الحقوق دورهم في تلقي الماء منه وفق برنامج متفق عليه شفاها، أو بحجج مكتوبة[١٠٥]. وفي دمشق محلة تسمى بمحلة المزاز في الشاغور[١٠٦].

وفي الغوطة مزاز القصير تابع كفر سوسية[١٠٧]. وفي عين ثرما مزاز الكوكشة، ومزاز المصاوة في قرية بيت قوقا على نهر عقربا، ومزاز القلعة بدمشق، ومزاز الميلقون من نهر الداراني من الحجر الشرقي، وعند القدم مزاز مسجد القدم، وللمزازات مقاسات تقدر بالذراع والفروض في الأحجار والأصابع، والطوالع تقدر أحيانا بالأصابع، والفرض Bifurcation Orifice مأخذ مكون من فتحة دائرية تتغذى تحت الضغط لتوزيع الماء إلى الفروع، والأحجار قد تعرف إما بألوانها أو مكانها، الحجر الشرقي، الحجر الغربي، والحجر الأسود.

والماصية، قناة أو مأخذ تخرج من النهر لتوزيع المياه على الأحياء ومنها تأخذ الطوالع والقساطل وأخذها للماء دون انقطاع، ومن المواصي التي ذكرت في الحجيات الوقفية، ماصية أمير المؤمنين المنشأة على نهر ثورا قرب حديقة أبي العلاء أعلى شارع أبي رمانة[١٠٨]، وفي دمشق العديد من المواصي، ماصية أخرى ؛ أمير المؤمنين المأمون التي توزع المياه على الأحياء القديمة في جادة عطا الأيوبي، والماصية الخامسة المعروفة بدار الضيافة. ولا زالت على نهر ثورا ماصية الأنصار، وماصية العمري، وماصية الشباك، وماصية السبع قاعات، وماصية الكزبري، وعلى نهر يزيد ماصية أبي العلاء، وماصية الرشيد[١٠٩].

ومن المهايأت التي أحدثها الدمشقيون ما يعرف بالبسطة والمسكور، وهي نقاط تفرع نهر ما عن بردى والبسط offtake، Head work، من حجارة منحوتة مستقر على عرض مأخذ قناة، يثبت منسوب الحافة فيه بما يتناسب مع التدفق المطلوب تفريعه، يتم تحديد مقطع المأخذ ببناء جانبيه بشكل متين، وهو مرادف للمزاز إلا أن المزاز يستعمل عندما تكون الحجارة متقاربة والبسط للحجارة المتباعدة، أي أن المزاز تكون تدفقاته المفرعة صغيرة والبسط عندما تكون التدفقات الموزعة كبيرة[١١٠]، أما المسكور أي المقطوع أو المغلق فهو بسطة، ولكنه من كباشات فروع الشجر وبلان وخز تسمح بمرور المياه رشحاً، وتزيد في نسبة المياه للفرع.

(١٠٥) الرفاعي، دور العرب والمسلمين، ص١٩ .

(١٠٦) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد، ص١٠٤، ص٢٥٣ ؛ ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق١، ص ٢١٩ .

(١٠٧) دفتر ٣٩٣، ص٢ ؛ ودفتر ٦٠٢، وثيقة ١٩٦ .

(١٠٨) العطار، علم المياه الجارية، ص١٠١ .

(١٠٩) العطار، علم المياه الجارية، ص١٨٦ .

(١١٠) الرفاعي، دور العرب والمسلمين، ص٢٠ .

وورد مصطلح فريد في الحجيات الوقفية:

دمنة الحجر المبني بالكلس والحجارة الواصل إليه من يمين قنوات إلى تقسيم الخلخال... الخ[١١١]، ومن معاني الدمنة: بقية الماء في الحوض والدمنة المذكورة تنقل المياه من عين قنوات إلي تقسيم الخلخال، المحلة الواقعة غرب الميدان الأخضر (ساحة المرج اليوم) بين نهري قنوات وباناس، وتصل مياهه إلى نهر القصير في الغوطة ومزازها. وقد ورد في وقفية التكية السليمانية "دمنة عامرة، ودمنة مسكونة"[١١٢] ومن الإبداعات الدمشقية في المهايأة تصريف فائض المياه بعد استعمالها في النظافة وخاصة الوضوء والاستحمام والطهارة ضمن قنوات تجمعها في النهر الأبيض أو القليط وتستعمل للري والسماد، وبذلك تتخلص المدينة من الأوساخ والقاذورات والنفايات.

ومن أجل الحفاظ على حقوق المنتفعين بالمياه ومراقبة وصوله بدقة فقد تعين عدد من العاملين يقال للواحد منهم الشاوي (القنواتي) مهمته الحفاظ على توزيع المياه بالأيام المختصة لكل صاحب حق، يسوق المياه ويمنع كل من أراد أخذ شيء منها أو التعدي على حصص الآخرين، ويحافظ على طوالع الماء وسير الدمنة نظيفة من الأوساخ وورق الشجر، حتى لا يدخل القساطل ويفسدها، ويسلكها بقصبة طويلة، وكثير من الدمن قد تكون قديمة، فيضع قصاصات جلود في فم الطالع مكان انحدار الماء، وتسير المياه في مجراها ولا يضيع الماء منها. وللشاوي مهارة في سحب الماء من الأنهر والطوالع وحياض الدور وحتى في تغيير مجرى المياه من منزل إلى منزل آخر من ممر جديد[١١٣].

ولحرفة الشاوي مكانة عند الشاميين، وقد ينسب إليها مثل محمد بن أبي بكر الشاوي بنهر بردى، وشرف الدين موسى بن الشاوي التركماني، وقد أفرد للشاوي مبلغ مالي في بعض الوقفيات، فشاوي قناة السبيل التي أنشأها الشهابي أحمد بن القاضي أبي الوفا المستوفي، تاريخها ٨٥٣هـ، خصص له ستة دراهم، وفي وقفية خليل التبريزي تاريخها ٨٤٣هـ، للشاوي على انسياق الماء في كل شهر عشرة دراهم. وفي وقفية أحمد بن علم الدين سليمان وللشاوي خمسة عشر درهما[١١٤].

---

(١١١) دفتر ١٠٤ حجة رقم ٤٧٢، ص ١٠٦.

(١١٢) الحسني وقف التكية السليمانية، ص٢٢٣-٢٢٧.

(١١٣) محمد سعيد القاسمي ، جمال الدين القاسمي ، خليل العظم، قاموس الصناعات الدمشقية، تحقيق ظافر القاسمي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٣٦٥ – ٣٦٦ ، وسيشار إليه القاسمي، قاموس الصناعات.

(١١٤) دفتر ٦٠٢، ص٢٤١، ١٠٥، ١٢٢، ١١٤، ١٨٢.

إن الإبداع الشامي في التهيأة المائية قد بلغ درجة عالية من التقدم والرقي، واستجاب لاحتياجات المجتمع الاجتماعية والاقتصادية، وظلت دمشق وما زالت جنة عدن الخضراء الغناء والروضة الفيحاء، تغنى بها الشعراء وتفنن النظام في وصف محاسنها.

إنها أنشودة الأمة الخالدة على مدى العصور والأزمان.

الأوقاف على الأيتام ومكاتبهم في دمشق وبعض المدن الشامية حسب دفتر الطابو رقم (٦٠٢) تاريخه(٩٩٠هـ/١٥٨٢م) المحفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء في إستانبول

محمود محمد هملان الجبارات*

مقدمة

بدأت فكرة محاولة دراسة الأوقاف على الأيتام ومكاتبهم في دمشق وبعض المدن الشامية؛ من خلال دفتر الطابو رقم (٦٠٢) المؤرخ في عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م (دفتر طابو نوعه أوقاف ومالية يتضمن بصورة مفصلة أوقاف الشام، وأملاكها، وصيدا، والقدس، والخليل، ونابلس. وهو محفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء باستامبول)؛ وذلك من خلال نقاش مع أستاذنا الدكتور محمد عيسى صالحية، وبعد الاطلاع على الدفتر الذي توجد صورة عنه في مكتب العامرة، وتمكن الباحث من الإفادة من هذا الدفتر، وجرت قراءة الخط بمساعدة الأستاذ الفاضل، فله الشكر أجزله وأوفره.كما أنني أود أن أسجل شكري لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت على دعوته للمشاركة في هذا المؤتمر العتيد، خاصة أن الأستاذ محمد عدنان البخيت يمثل مدرسة تأريخية متميزة.

وتهيأ للباحث الاطلاع على الوقفيات بنصوصها الأصلية، وقد بلغت خمساً وعشرين وقفية؛ ثم جرى نسخها ودراستها وتحقيقها؛ في محاولة لاستجلاء جوانب متصلة بهذه الوقفيات وواقفيها وأماكنها. وجرى رصد ذلك في جدولين؛ الأول : عن الوقفيات وتضمن تاريخ الوقفية والمكتب أو المدرسة التي تتبع إليها، وعدد الأيتام المستفيدين منها، ومخصصات كل يتيم شهرياً من النقود، ومخصصات المؤدب النقدية، وطعام الأيتام، والطعام المقدم للمؤدب، ثم لوازم الأيتام. أما الجدول الثاني فتضمن معلومات عن الواقف، ونوع الوقف ومصدره ومذهب الواقف وشروطه.

وعمل الباحث على دراسة هذه الوقفيات دراسة تحليلية، مقسماً الوقفيات حسب تاريخها في السجل إلى وقفيات الفترة المملوكية الأولى ووقفيات الفترة المملوكية الثانية ثم وقفيات الفترة العثمانية الأولى، ونشر الباحث الوقفيات المتعلقة بالأيتام حسب نصوصها الأصلية، وحققها تعميماً للفائدة.

* كلية عمان الجامعية للعلوم المالية والادارية، جامعة البلقاء التطبيقية، عمان.

- دراسة تحليلية للوقفيات

برزت ملاحظات مهمة في هذه الدراسة عن الأوقاف على الأيتام، منها : أن هذه الوقفيات ازدادت بصورة ملحوظة خلال الفترة المملوكية الثانية (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م- ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) حيث بلغت الزيادة اثنتين وعشرين وقفية؛ فيما كانت منذ منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وحتى نهاية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي وقفيتين فقط، فيما ازدادت وقفيتين خلال أوائل العهد العثماني (٩٢٢هـ/١٥١٦م - ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م).

ولوحظ أن الواقفين، على العموم، لم يحددوا مذهب المدرسين أو الشيوخ والمؤدبين للأيتام في وقفياتهم؛ كما أنهم لم يحددوا مذهب الأيتام المستفيدين من هذه الوقفيات، وأن عناية خاصة بتدريس الأيتام القرآن الكريم وتحفيظه إضافة إلى حفظ ملخصات عن الفقه الإسلامي، و تحفيز الأيتام مادياً جرى التركيز عليها وعلى الاهتمام بملابس الأيتام، ومشاركتهم فرحة الأعياد والمناسبات الدينية بدت واضحة أيضاً من خلال هذه الوقفيات.

كما لوحظ أن محاولات جرت لنقض الوقف على الأيتام لم يحالفها الحظ في النجاح، وأن بعض الوقفيات استمرت قائمة نحو أربعة قرون، وأن هذه الوقفيات شملت أوقافاً خيرية وأخرى ذرية، وجرت خدمة الأيتام من خلال مكاتب مستقلة خاصة بالأيتام أو مكاتب تابعة لمدارس أو جوامع أو خانقاوات أو مساجد وترب.

كما تجدر الإشارة إلى أن جميع الواقفين على الأيتام لم يذكروا في وقفياتهم شيئاً عن تأمين صحي أو طبي للأيتام، ولم يذكروا شيئاً عن تكاليف علاجهم.

بلغ عدد الوقفيات التي تضمنت وقفاً على الأيتام في الدفتر (٦٠٢) خمساً وعشرين وقفية. ومن هذه الوقفيات ثلاث عشرة وقفية ذرية خيرية منها عشر وقفيات ذرية خيرية مباشرة، بمعنى أن الأصل في وقفها ذري خيري، ويستأنف الانفاق منها على الوقف الخيري مباشرة، وثلاث وقفيات ذرية خيرية غير مباشرة بمعنى أن الأصل في وقفها ذري، ولكنها تتحول بعد انقراض الذرية أو الأشخاص الموقوفة عليهم إلى وقف ذري خيري، ولذلك فهي وقف ذري خيري ولكنه غير مباشر، واثنتا عشرة وقفية ذرية غير مباشرة، أي تتحول الوقفية الذرية إلى خيرية بعد انقراض الذرية.

وقد جرى ترتيبها من قبل الباحث حسب أقدمية تاريخ كل وقفية، وابتدأت الوقفية الأولى في (العام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، فيما انتهت هذه الوقفيات بالوقفية المؤرخة في (العام ٩٣٣هـ/١٥٢٧م)؛ وجرت محاولة الترجمة للواقفين؛ وتمكن الباحث من العثور على

تراجم شخصية لثمانية عشر واقفاً، فيما لم يتمكن من العثور على سبعة تراجم أخرى، غير أن اثنين من هؤلاء الواقفين وجدنا ترجمة لآبائهم، وتبين أنهما كانا من أبناء شخصيات سياسية وإدارية معروفة.

وكانت وقفيتان من هذه الوقفيات تعود بداية وقفها إلى الفترة المملوكية الأولى (المماليك البحرية) (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م – ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) منها واحدة خصصت لأيتام من أولاد الأجناد. فيما كانت اثنتا وعشرون وقفية تعود بداية وقفها للفترة المملوكية الثانية (المماليك البرجية) (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م – ٩٢٣هـ/١٥١٧م) ومن هذه الوقفيات وقفيتان لواقف واحد. وعدلت شروط وقفية واحدة في اوائل العهد العثماني.

ويلاحظ أن هذه الوقفيات قد استمرت منذ منتصف القرن السابع الهجري (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى النصف الأول من القرن العاشر الهجري أوائل الربع الثاني من القرن السادس عشر الميلادي (٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م)؛ وذلك رغم أن محاولتين على الأقل جرتا لنقض الوقف[1] أو إلغائه أو مصادرته قام بها متنفذون سياسيون ضد معارضيهم، محاولين غسل كتب الوقف(إلغاء كتب الوقف بإتلافها عن طريق غسلها) أو هدم مباني الوقف (انظر الوقفية السابعة للأمير جقماق المؤيدي (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) والهامش (٣٢) عن محاولة الأمير مامامش المؤيدي (ت : ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م) استقطاع وقف جقمق وغسل كتاب الوقف، والوقفية السادسة عشرة للأمير يلبغا المؤرخة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) ومحاولة الأمير نجم الدين الزيبق للحوطة (أي مصادرة) على أموال الأمير يلبغا، ومحاولة الأمير محمد بن منجك إزالة قبة جامع يلبغا (٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م).

إلا أن الدفتر- وهو إحصائي – أثبت أن هذه الأوقاف استمرت كما هي واحتفظت بأماكنها واستمراريتها منذ الفترة المملوكية الأولى وحتى أوائل العهد العثماني، رغم تبدل الأوضاع السياسية والاقتصادية والعمرانية.

وقد شملت هذه الوقفيات منطقة واسعة تقع بين غربي بيروت، والبقاع، وصيدا وأطراف مدينة دمشق التي كانت مركزها. وأن الواقفين لم يشترطوا في الأيتام أن يكونوا من مذهب معين؛ كما أن ثلاثة فقط من الواقفين وقفاً نرياً ذكروا أن أوقافهم على الأيتام

---

(١) النقض: لغة افساد ما أبرمته من عقد أو بناء أو غيره، ومنه يقال: نقضت ما أبرمته: إذا أبطلته، فالنقض ضد الإبرام، ولا يخرج استعمال الفقهاء لهذا اللفظ عن المعنى اللغوي؛ انظر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسوعة الفقهية، (٤١ جزءً) دون تحقيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، مج٤١، ص ١٤٩-١٥٠، وسيشار إليه فيما بعد: وزارة الأوقاف، الموسوعة.

من المسلمين، فيما لم يشر بقية الواقفين إلى ذلك نصاً. كما أن الواقفين لم يشترطوا تدريس مواد فقهية معينة أو منهج من مذهب فقهي معين؛ إلا أن أحد الواقفين اشترط أن يُدرَّس الفقه على أي من المذاهب الأربعة. وأن غالبية الواقفين لم يشترطوا أية شروط لمذهب المؤدب أو الشيخ أو مقرئ الأيتام، وأن واحداً من الواقفين فقط اشترط أن يكون شيخ الأيتام من أهل السنة والجماعة.

وأشارت الدراسة التحليلية للوقفيات، من خلال التراجم المتوافرة، أن مذاهب الواقفين ممن توفرت لهم تراجم كانت : ثلاثة من المذهب الشافعي، واثنين من المذهب الحنفي، واثنين من المذهب السنة والجماعة؛ لم نستطع إيجاد تفسير تاريخي للمصطلح، وربما يشير إلى اتجاه سني عام، واثنين من الصوفية، وواحد من الحنابلة؛ فيما تبين أن الباقين وهم أربعة عشر واقفاً غير واضحي المذهب.

وقد لوحظ أنه بالمقابل اشترط سبعة عشر واقفاً أن يستفيد الأيتام من وقفياتهم في أماكن معينة: جامع، ومسجد، وخانقاه، ومكتب، وتربة، ومدرسة، وبيت، أو سكان منطقة معينة. وقد قدمت الخدمات للأيتام من خلال سبعة مكاتب منفردة (مستقلة للأيتام) وخمسة مكاتب تابعة لمدارس، وجامعين، وخانقاوين، ومسجد واحد، وتربة واحدة، فيما لم يحدد سبعة من الواقفين مكان تقديم هذه الخدمة؛ وإن كان بعضهم أشار إلى تقديمها ضمن أحياء (الصالحية) أو سكان منطقة معينة (صيدا)، أو لأيتام محددين (أولاد الأجناد)، أو بقيت عامة لأولاد المسلمين.

وبالنظر إلى ما تم تأمينه للأيتام من خلال هذه الوقفيات التي بلغ عدد المستفيدين منها على الإجمال (٣٣٠) يتيماً بصورة دورية ومستمرة، تضمنت تقديم مصروف نقدي للأيتام في عشرين وقفية كانت قد بدأت منذ العام (٨١٢هـ / ١٤١٠م) وبمعدل عشرة دراهم شهرياً ثم ازدادت في الوقفية الحادية والعشرين (٨٨١هـ / ١٤٧٦م) إلى الضعف حيث بلغت عشرين درهماً.

وقدمت للأيتام ملابس صيفية وشتوية في كل موسم على حدة، من خلال عشر وقفيات؛ فيما قدمت لوازم القراءة والكتابة للأيتام في ست وقفيات، وقدمت ثلاث وقفيات مخصصات محدَّدة في الأعياد الدينية والمناسبات منها مصروف نقدي، ولحوم، وحلوى، وملابس، فيما قَدمت ثلاث وقفيات مكافآت مالية للأيتام وشيخهم ومقرئيهم على حفظ القرآن الكريم، وملخصات من الفقه، فيما قدمت وقفيتان منامة للأيتام.

وقد اشترط بعض الواقفين على ناظر الوقف أن يستبدل الأيتام الذين يتمون الحفظ بغيرهم، واشترط آخر أن يستبدل من يبلغ من الأيتام بمن لم يبلغ الحلم. فيما اشترط أحدهم أن يستبدل اليتيم الذي يقعد في المكتب ثلاث سنوات دون أن يحفظ القرآن الكريم.

كما لوحظ أن عشرين من الواقفين خصصوا مبلغاً مالياً محدداً للمؤدب كل شهر بدأ بعشرين درهماً عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) وتضاعف عام (٨١٢هـ/ ١٤١٠م) ثم زِيد إلى ستين درهماً عام (٨١٧هـ/ ١٤١٤م) ثم تراجع في وقفيات عام (٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م) إلى خمسين ثم إلى أربعين درهماً ليرتفع ثانية عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) إلى مائة درهم.

وخصص تسعة من الواقفين مخصصات محددة من الطعام للمؤدب، فيما اعتبر ثمانية واقفين أن طعام المؤدب ضمن طعام الأيتام. ولم يخصص سبعة واقفين أية مخصصات طعام للمؤدب، منهم ستة خصصوا مبالغ مالية محددة شهرياً للمؤدب.

وتبين أن اثني عشر واقفاً كانوا من رجالات الدولة (نائب سلطنة، وأمير، ووالي، واستادار، وداودار، وحاجب، وناظر أوقاف) كما أن اثنين منهم من أبناء القيادات السياسية والإدارية (ابنة السلطان أسد الدين شيركوه، وابن عمر المدود نائب ولاية القاهرة – ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) وثلاثة منهم من أكابر التجار، وسيدتان، وقاضيان، وعالم وخطيب.

وأن اثنين من الأمراء الواقفين كانا مولعين بالصيد والجوارح والفروسية، فيما اتهم أمير واحد من الواقفين (جقماق قتل ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) بأنه " كان شديداً على الناس، ظلوماً غشوماً، متطلعاً لأموال الناس " انظر الوقفية السابعة والهامش (٣٤).

وتبيّن ان خمسة من الاماكن التي كان عليها أوقاف للأيتام لا تزال موجودة حتى الآن ووردت إشارات لهذه الممتلكات في كتاب قتيبة الشهابي[٢]، على أنها لا تزال موجودة وصور لوحاتها؛ وصور عن هذه اللوحات ضمن ملاحق البحث؛ فيما لم نجد أية إشارة إلى الممتلكات التي كانت موقوفة على هذه الأوقاف او الى مصير هذه الأوقاف.

وفيما يلي نصوص الوقفيات، كما وردت في الدفتر محققة من قبلي على أنني لم أنشر كامل الوقفيات بنصوصها الأصلية؛ لأن ذلك يخرج عن أهداف البحث؛ وإنما اجتزأت ما يتصل بالأيتام في هذه الوقفيات آملاً أن يساهم نشرها أيضاً في إلقاء مزيد من الضوء على

(٢) قتيبة الشهابي، النقوش الكتابية في أوابد دمشق، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٧م، انظر: الصفحات ٣٥٧، ٣٧٤. وسيشار إليه لاحقاً: الشهابي، النقوش الكتابية.

هذا النوع من الأوقاف.

أولاً: جدول تحليل الوقفيات

الرقم المتسلسل	تاريخ الوقفية	المكتب / المدرسة	عدد الأيتام	مخصصات كل يتيم شهرياً نقداً	مخصصات المؤدب / المعلم نقداً شهرياً	الطعام للأيتام	الطعام للمؤدب	اللوازم للأيتام
١	٦٥٥هـ / ١٢٥٧م	مكتب المدرسة الخاتونية	٢٠	لا يوجد	عشرون درهماً	نصف رطل من الخبز كل شهر، وفي كل يوم من شهر رمضان أوقيتان من اللحم أو قيمتهما	رطل خبز يومياً	في فصل الشتاء وفي فصل الصيف طاقية وجبة وثلاثة قمصان وكوفيتان وسروال ومداسين وبراعة.
٢	٧٠٨هـ / ١٣٠٨م	على الفقراء الأيتام من (أولاد الأجناد)		لا يوجد	عشرون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
٣	٨٠٦هـ / ١٤٠٤م			لا يوجد	عشرون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
٤	٨١٢هـ / ١٤١٠م	مكتب لتعليم الأيتام (في الطبقة الملاصقة للتربة).	١٠	عشرة دراهم وخمسون لن يبلغ	أربعون درهماً	ربع درهم خبز يومياً وفي رجب ثمن حلوى درهمان ونصف وفي عيد الفطر خمسة دراهم ونحر رأسين من الغنم للأيتام في عيد الأضحى.	نصف درهم خبز وخمسة دراهم ثمن حلوى في رجب وعشرة دراهم في عيد الفطر، ورأس غنم بقيمة ثلاثين درهماً تُعطى له.	كل شهر أربعة دراهم ثمن أدوات وألواح وأقلام وغيره، وفي فصل الصيف كل سنة ملوطة قطنية وقميص وسروال ومنديل ومتاع وفي فصل الشتاء فروة (١٥ درهم).

٥	٨١٧هـ / ١٤١٤م	بيت برسم الأيتام قرب المدرسة المروانية	١٥	عشرة دراهم	ستون درهماً	خمسون درهماً كل سنة يشتري بها خبزاً، ويفرق على الأيتام والفقراء وشيخهم بالاضافة إلى اللحم المقرر للجميع .	مع الأيتام	مقرهم بالمكتب في أعلى المدرسة .
٦	٨١٧هـ / ١٤١٤م	أيتام المسلمين في صيدا	١٠	غير محدد	غير محدد	غير محدد	غير محدد	غير محدد
٧	٨٢٤هـ / ١٤٢١م	مسجد وتربة وخانقاه في ملة البطاقيين جوار الجامع الأموي / دمشق	١٥	خمسة عشر درهماً	ستون درهماً	رطل من الحلوى شهرياً، ورطل من الصابون شهرياً، وثلث رطل خبز لكل يتيم يومياً، وثلث رطل من الحلوى لكل يتيم يومياً، وكل يوم درهم وكل عيد درهم، ويشترى للجميع في موسم رجب وشعبان عشرة أرطال من الحلوى وخمسة أرطال من الخبز وتفرق على الأيتام وشيخهم .	نصف رطل خبز يومياً، وسدس رطل لحم يومياً، ومن الطعام نصيب	كل فصل شتاء قميص، وجبة، وفروة، وطاقية، ومشايه وكل فصل صيف قميص ووجبة مصرية وطاقية ومشاية.
٨	٨٣٢هـ / ١٤٢٩م	مكتب سوق القطافين بالصالحية / دمشق.	٢٠	ربع درهم يومياً	درهم ونصف يومياً	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
٩	٨٣٠هـ / ١٤٢٧م	الجامع محلة جسر الفجل في ميدان الحصا وتحويل الطبقة الراكبة على الطريق إلى مكتب للأيتام .	١٠	ثمانية دراهم شهرياً	ستون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	خمسة دراهم شهرياً ثمن حبر وألواح وأقلام للجميع .

١٠	٨٣٦هـ / ١٤٣٣م	مكتب تابع للمدرسة ودار القرآن	١٠	عشرة دراهم	ستون درهماً	نصف رطل حلوى في موسم رجب وثمن بقرة في عيد الأضحى تذبح ويفرق لحمها على أرباب الوظائف .	لا يوجد	وكل عيد فطر قميص، وملوطة خياطي، وطاقية، ومداس، ومنديل أزرق، ومن بلغ من الأيتام الصغار عيّن له الناظر عشرين درهماً عند صرفهم، ولكل يتيم ومؤدبهم في أول فصل الشتاء فروة حمراء
١١	٨٤٣هـ / ١٤٣٩م	غير محدد	١٠	عشرة دراهم	خمسة وأربعون درهماً	في أيام الرغائب خمسة أرطال حلوى جوزية للشيخ والأيتام .	حلوى مع الأيتام	قميص، وملوطة صالحي، ومنديل، وطاقية، ونعل، وإذا ختم القرآن صرف له (٣٠) درهماً، وقرر عوضهم .
١٢	٨٥٩هـ / ١٤٥٥م	الزاوية الحصينية	١٠	عشرة دراهم	أربعون درهماً	لا يرجد	لا يوجد	ثمن قميص وقبع وسرموجه في يوم عيد الفطر، ويوم الأضحى في كل سنة .
١٣	٨٦١هـ / ١٤٥٧م	مكتب بالمدرسة التي بالقنوات	١٠	عشرة دراهم	ثمانون درهماً	يفرق على الأيتام العشرة وشيخهم في كل رجب وشعبان ثمن خمسة أرطال حلوى جوزية وغيره ورطلان من الجردق ودرهمان لكل يتيم في الموسم .	مع الأيتام	قميص قطن وجبة قطنية وطرح مطل وطاقية ومنديل ومتاع كل عيد، مع درهمي فضة .

١٤	٨٦١هـ / ١٤٥٧م - ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م انقراض الذرية	المبتدين بقراءة القرآن في المدرسة القرمشية بسويقة ساروجه والأيتام بها	١٠	غير محدد	غير محدد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
١٥	٨٦٢هـ / ١٤٥٨م	المكتب على ظهر بوابة زقاق المقدمية.	١٠	عشرة دراهم	ستون درهماً	يفرق على الأيتام العشرة وشيخهم في كل رجب وشعبان ثمن خمسة أرطال حلوى جوزية وغيره ورطلان من الجردق ودرهمان لكل يتيم في الرسم .	مع الأيتام وكسوة مثلهم في أول الشتاء .	وأول الشتاء: فروة، وقميص، وطاقية صوف، اوضانه / كندره، ونعل. ومن حفظ القرآن في الجامع الأموي في مدة شهر أو أقل في مجالس متعددة صرف له عند الختم واهداء الثواب للواقف وأموات المسلمين مئة درهم ومن حفظ مختصراً من مختصرات الفقه في أي المذاهب الأربعة،وعرض ذلك على المشايخ صرف له مئة درهم.

١٦	٨٥٧هـ / ١٤٥٣م	جامع ومكتب يلبغا	٤٠	عشرة دراهم	ستون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	كل سنة للأيتام ومعلمهم (٦٠) ألف درهم ثمن حصر وبسط وقناديل وسلاسل وزجاج وثمن زيت وشمع، شراء ولوازمهم من ألواح وأدوات وأقلام وحصر للمكتب وكسوة للأيتام ومعلمهم على ما يراه الناظر .
١٧	٨٧٢هـ / ١٤٦٨م	مكتب على السبيل شرق الجامع الصابوني	١٠	عشرة دراهم	خمسون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	ثمن كسوة الأيتام العشرة وكسوة لعشرة فقراء ٨٠٠ درهم
١٨	٨٧٢هـ / ١٤٦٨م	خانقاه بالشرف الأعلى الشمالي المعروف بإنشائه " الخانقاه اليونسية "	١٠	عشرة دراهم	أربعون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	خمسة دراهم ثمن أقلام وألواح
١٩	٨٧٣هـ / ١٤٦٩م	أيتام المسلمين .	٣٠	غير محدد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
٢٠	٨٧٣هـ / ١٤٦٩م	غير محدد	٣٠	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	يوزع على الأيتام ثلاثون قميصاً من الكتان تفرق في عيد الفطر سنوياً

٢١	٨٨١هـ / ١٤٧٦م	مسجد العفيف بالصالحية / دمشق	١٠	عشرون درهماً	ستون درهماً	حلوى ولحوم أضحية	لا يوجد	يصرف للأيتام قمصان وقراء والحلوى ولحوم الأضحية.
٢٢	٨٩٥هـ / ١٤٩٠م	تربة اليغموري خارج باب الصغير في جوار جامع الجراح	١٠	ثلاثة دراهم يومياً لعشرة أيتام تفرق بالتساوي	درهم ونصف يومياً	رطل خبز ونصف رطل حلوى كل يوم من صلاة الغائب في كل عيد أضحى رأس بقر بمئة وخمسين درهماً توزع عليهم	رطل خبز ونصف رطل حلوى كل يوم من صلاة الرغائب ويشاركهم في رأس البقر في عيد الأضحى	لكل منهم في أول الصيف ثلاثون درهماً يشترى بها قميص وملوطة، ولكل منهم سنوياً قبع ومشاية بعشرة دراهم وللفقيه كذلك .
٢٣	٩١٦هـ / ١٥١٠م	غير محدد من المسلمين	١٠	ستة دراهم	خمسون درهماً	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد
٢٤	٩٢٢هـ / ١٥١٦م	مكتب المدرسة السيباثية خارج باب الجابية	٢٠	خمسة عشر درهماً	مئة درهم	حاجات الأيتام من ضمن مصالح المسجد .	لا يوجد	مصاريف وملابس وحاجات من ضمن مصالح المسجد
٢٥	٩١٨هـ / ١٥١٢م	الأيتام في صيدا	غير محدد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد

ثانياً : جدول تحليل للواقفين

الرقم المتسلسل	الواقف	نوع الوقف	مصادره	المذهب	شروطه
١	ماما خاتون بنت السلطان أسد الدين شيركوه	خيري مباشر	حمام و إحدى عشرة قرية	حنفية المذهب	جزء من وقفية
٢	جمال الدين آقوش بن عبد الله الطشلاقي (ت: ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) أشار دار الملك الصالح ... وتول نيابة دمشق تسعة أعوام ... من أكابر الأمراء (لم يخلف ولداً) .	ذري غير مباشر بعد الانقراض	مزرعة، وقرية	شافعي المذهب (وقف داره مدرسة للشافعية)	على الفقراء الأياتام من أولاد الأجناد
٣	شمس الدين محمد بن علي بن محمد مزلق (ت : ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) من أكابر تجار دمشق .	ذري غير مباشر بعد الانقراض	أراض	غير واضح.	الأيتام ومكتبهم بقرب تربة الواقف جوار مسجد الزيادة خارج باب الجابية.
٤	فارس بن عبد الله (الدوادار التنمي) (ت : ٨١٠هـ/١٤٠٧م) نائب دمشق له أوقاف أخرى على الفقهاء ومقرئين ومدرسين ومدارس .	خيري غير مباشر	دكان وقرية (صحنايا) اشتراها (٨٠٨هـ)	الواقف من المذهب الحنبلي.	الطبقة الملاصقة للتربة والمدرسة الفارسية غربي الجوزية الحنبلية .
٥	برهان الدين الزيني مباركشاه بن عبد الله الاسعردي (ت : ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م) من أكابر تجار دمشق، وفي البلدان عمر المدرسة الاسعردية على الجسر الأبيض خلف ولدين شابين وزوجة ووالدة.	خيري غير مباشر	طاحون، وغراس، وبيت، وثلاثة دكاكين، وثلاثة بساتين، وخمس أراض، وقرية.	غير واضح.	بيته في الصالحية خصصه للأيتام وشيخهم على أن يكون مقراً لهم.
٦	العمادي اسماعيل بن الزيني عمر بن دوغان .	ذري / بعد الانقراض	غراس بستان في أرض مزرعة الكنيسة من صيدا بنهر الأولة (الأولي) .	غير واضح.	عشرة أيتام من المسلمين وجهات البر والصدقة في صيدا.

٧	الأمير جقمق المؤيدي الدودار سيف الدين (ت : ٨٢٤هـ/١٤٢١م) (نائب دمشق ٨٢٢هـ/١٤١٩م)	خيري مباشر	دكانان، طبقتان، وأرضين، وخان، وقطعة، وحكر، وحنفيتان	لم في الوقفية، نكر النعيمي أنه أوقف أوقافاً على خانقاه للصوفية	لا يوجد.
٨	يحيى وشقيقه أحمد ولدا ناصر الدياني	ذري بعد وفاة والدة الواقفين.	مزرعتان وبستان	غير واضح.	الوقف للأيتام الذين يقرأون بالمكتب بسوق القطانين في الصالحية، ولم يبلغوا الحلم، يصرف بعد مصروف الأيتام ومعلمهم لوالدة الواقفين ثم بعد الانقراض يصرف على أيتام وشيخهم بجامع المظفري بصالحية دمشق .
٩	محمد ولد الصارمي إبراهيم بن منجك اليوسفي الناصري (ت : ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م) كان ناظراً للأوقاف بدمشق سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.	خيري مباشر	مزرعتان وثلاثة بساتين، وقريتان وأرض ودكانان وحانوت وحمام .	نكر النعيمي أنه يميل إلى الشافعية.	من حفظ القرآن الكريم من الأيتام في مدة اقامته في المكتب صرف له عند صرفه خمسون درهماً، واستبدل الناظر عوضه، وتحويل الطبقة الراكبة على الطريق إلى مكتب للأيتام.
١٠	عمر بن الشرفي موسى التون بغا القرمشي.	خيري مباشر	ثلاث قطع أراضي أجزاء من أربعة قرى، فرنين، عمارة،حصص مختلفة من محلات ودكاكين وغيضات ومزارع.	غير واضح	امن بلغ من الأيتام الصغار صرف له الناظر عشرين درهماً عند صرفه.

١١	الأمير غرس الدين خليل التيروزي الدساري (ت : ٨١٨هـ / ١٤١٥م) صاحب الحجاب بدمشق.	خيري مباشر	ثلاثة بيوت وحكاكين، وخان معصره، وخمس غراس، وجنينه، وثلاث أراضي، وست قرى، ومزرعتان، وبستانان، وحمام، وواسطبل.	غير واضح.	الأيتام الصبيان الصغار ؛ إذا ختم القرآن أحدهم صرف له ثلاثون درهماً وقرر عوضه.
١٢	سودون بن الناصري الشهير بالداويدار السيفي تانبك الحسيني (ت:٨٢٤هـ / ١٤٢١م) ودفن في مقبرة الصوفية.	نري غير مباشر بعد الانقراض	ثلاث قرى، مزرعتين، بستان، قيسارية وخان.	اشترط الواقف في الشيخ أن يكون من أهل السنة والجماعة .	إذا قعد اليتيم ثلاث سنوات ولم يحفظ القرآن استبدل بغيره، وإذا حفظ اليتيم القرآن عليه أن يقرأ الأيتام في جامع بطبك الكبير وإذا بلغ اليتيم يستبدل، وإذا نقص محصول القرية (مجدلون) وزع عليهم وإذا زاد يشترى منه في كل سنة لكل يتيم قميص وقبع وسرموجه (كندره) في يوم عيد الفطر وعيد الأضحى من كل سنة .
١٣	شادي بك بن الجلباني أتابك دمشق وصاحب المدرسة التي بالقنوات (ت : ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م)	خيري مباشر	قريتان، وبيت، ومزرعة، وبستانان، ومرتب، وغراس، وكرم، وتسع أراض وحصة .	غير واضح.	يصرف كل جمعة سبعة عشر رطلاً من الحنطة على باب المدرسة للأيتام والفقراء

١٤	الشهابي أحمد العلمي سليمان (ت : ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م)	ذري بعد الانقراض/ غير مباشر، انقرضت الذرية (٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م)	ثماني قرى	غير واضح.	للمبتدئين بقراءة القرآن بالمدرسة القرمشية والأيتام بها .
١٥	ناصر الدين محمد بن يوسف بن المستوفي	خيري مباشر	قرية كفرية تابع بقاع ٣ ط و ٤/ ١ ط، ٤٢٢	شجع المذاهب الأربعة	الوقف يشمل عشرة أيتام ومؤذنين ومكتبهم. يصرف لشيخ الأيتام في أول الشتوية مثل ما يصرف للأيتام (فروة، وقميص، وطاقية صوف، أوضانة ونعل. ويصرف للشيخ عند حفظ أي يتيم القرآن لديه لقاء تعبه وسهره معه ماية درهم. ويصرف للشيخ مائة درهم إذا حفظ اليتيم بعد حفظ القرآن مختصراً من مختصرات الفقه على المذاهب الأربعة. يصرف للشيخ الذي يسمع عرض اليتيم حفظ القرآن خمسون درهماً. يباشر الناظر عمارة الوقف والجامع تحت القلعة ومازاد يخرج منه في كل سنة للجامع والمرتبين ومصاريفه والأيتام ومعلمهم في كل سنة (٦٠) ألف درهم ثمن حصر وبسط.

١٦	الأمير يلبغا بن عبد الله السالمي الظاهري (ت : ٨١١هـ/١٤٠٨م) تولى الاستدارية الكبرى والإشارة ولازم الاشتغال بالعلم؛ وكان يبالغ في حب ابن العربي وغيره من أهل طريقتهم، ولا يؤذي من ينكر عليه.	خيري مباشر	حمام، ودكان، ومزرعة، وقريتان، وقيسارية، وخان فتاح، المقيم جوار حمام يلبغا.	لم ينكر، نكرابن العماد الحنبلي أنه صوفي يحب ابن عربي .	على الإمام والخطيب والمؤذنين والفراشين والقومة أن يقوموا على المسجد والطهارة على ما يراه الناظر .
١٧	شهاب الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن الصابوني البكري (ت : ٨٦٣هـ/١٤٥٨م)	عند النعيمي أنه ذري (غير مباشر) لنفسه ثم لذريته ثم نصف لحاجب دمشق التصرف فيه ونصف للإمام	وثلاثة خانات، وتسع دكاكين، وعشرة أراض، وداران، وعمارة، وقاعة، وأحد عشر بستاناً، وثلاث جنينات، وست قرى، وبيت ومعصرة.	لم يذكره في الوقفية، ذكر النعيمي أن الواقف اشترط في خطيب المسجد الصابوني أن يكون شافعي المذهب والإمام من الطائفة المباركة الجبرتية وحنفياً وأن الفقراء العشرة أضاف لما يكون	لا يوجد شروط
١٨	الأمير يونس الشرقي دوادار الظاهر برقوق (ت: ٨٦٥هـ/١٤٦١م)	خيري مباشر	بستان، وحمام،وأرض	يميل إلى الحنفي والصوفية، أن يكون الشيخ والصوفيه حنفية افاقية، والإمام حنفي	ذكر النعيمي أن الواقف قد اشترط أن يكون الشيخ والصوفية حنفية افاقية والإمام حنفي.

١٩	القاضي برهان الدين ابراهيم بن محمد بن محمد بن مفلح الحنبلي الكفل حارسي، إمام، عالم، خطيب، مقرىء (ت : ٨٧٦هـ / ١٤٧٢م)	على (زوجته) ذري غير مباشر بعد الانقراض	غير محدد	غير واضح	لأيتام المسلمين، يصرف لهم مخصصات زوجته بعد وفاتها (٣٠٠ درهم)
٢٠	الناصري محمد بن الزيني عمر بن المدود .	ذري مباشر	قرية قنيطرة تابع قورنة من بقاع ١٠ ط، ١٩٠٨ م	غير واضح	لا يوجد
٢١	الناصري محمد بن الزيني عمر بن المدود .	ذري غير مباشر بعد الانقراض	مزرعة كفر ريس، ومزرعة ميمونية، وطي بيت زقاق القلانسي المعروف بالواقف في الصالحيه.	غير واضح	بعد إيفاء شروط الواقف على سكان الصالحية، ويكون المؤدب والأيتام في مسجد العفيف.
٢٢	الشهابي أحمد بن الناصري محمد اليغموري (ت : ٨١١هـ / ١٤٠٨م)	ثلثه ذري غير مباشر	مزرعة ديرونية، تابع مرج أرض الحقبقية تابع وادي التحتاني.	غير واضح	يصرف على الأيتام والمؤدب من الثلث الثاني من الإيرادات الصرف النقدي على الأيتام ومؤدبهم يومياً، صرف الخبز والحلوى بعد صلاة الرغائب، الصرف للأيتام من أولاد المسلمين (المقررين) بالتربة التي أنشأها الواقف.
٢٣	ست جلب بنت الفخري عثمان بن أغول بك (ت : ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م)	خيري مباشر	دكاكين في سوق الصابون في نفس حلب قرب الجامع الكبير ١٢ط ٢٣ باب ومقعدان، وقرية كفر منين النصارى ٨ط .	غير واضح	تاريخ الوقفية (٩١٦هـ / ١٥١٠م) شرطت لنفسها عام (٩٣٣هـ / ١٥٢٧م) الادخال والإخراج والتغيير والتبديل وأشهدت عليه.

٢٤	سيباي، نائب الشام، كان أمير السلاح بمصر (ت: ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م).	خيري مباشر	خمس دكاكين وخمس خانات وثلاثة طواحين، وتسع عشرة أرضاً، وحمام، وثلاث قرى، وخمس غراس، ومزارع وبستان واحد وحوش وفرن.	غير واضح	الوقف على الأيتام بالمكتب والمدرسة في جامع سيباي خارج باب الجابية والقراءة بالمكتب.
٢٥	زين الدين عبد اللطيف بن شمس الدين محمد	وقف ذري غير مباشر (بعد الانقراض)	قرية ومزرعة	غير واضح	على الأيتام بصيدا.

الوقفيات في الفترة المملوكية الأولى:

- الوقفية الأولى[٣]

وقف ماما خاتون بنت السلطان أسد الدين شيركوه[٤]... (الأيتام عشرون في مكتب المدرسة الخاتونية[٥]). ولمؤدب الأيتام في كل شهر عشرون درهماً ورطل خبز، وللأيتام

(٣) دفتر طابو رقم(٦٠٢)، أوقاف ومالية، محفوظ في الأرشيف العثماني، رئاسة الوزراء – استامبول، توجد صورة عنه بمكتبة محمد عيسى صالحية؛ انظر: ص ١٧٤ من هذا الدفتر؛ وسيشار إليه فيما بعد: دفتر رقم (٦٠٢).

(٤) لم أجد لها ترجمة، لكنها ابنة السلطان أسد الدين شيركوه (ت٥٩٤هـ/ ١١٥٤م) الذي له رباط قبالة داره بدرب زرعة، وعمتها ست الشام خاتون أخت السلاطين أولاد نجم الدين أيوب بن شاذي (ت: في ذي القعدة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م) وهي واقفة المدرستين (الشامية البرانية والشامية الجوانية)، ودفنت في البرانية، ولها بر وصدقات وأموال وخدم: انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٧٣هـ/ ١٣٧٢م – ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) سير أعلام النبلاء ٢٥ جزءاً، حققه: صلاح الدين المنجد، إبراهيم الابياري، ومحمد سعد طلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م. ج١٦، ص ١٠٧. وسيشار إليه فيما بعد: الذهبي، سير أعلام، وعن المدرستين انظر: عبد القادر بن محمد النعيمي (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م –٩٢٧هـ/ ١٥٢١م) الدارس في تاريخ المدارس، في جزأين، تحقيق: جعفر الحسني، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٨م، ج١، ص٢٠٨ وص٢٢٧. وسيشار إليه فيما بعد: النعيمي، الدارس، وعن رباط أسد الدين شيركوه، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٩٤.

(٥) المدرسة الخاتونية: أنشأتها خاتون بنت معين الدين أنر (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) زوجة نور الدين محمود زنكي، وتنسب إليها، وقفها عليها أخوها سعد الدين ثم من بعدها على عقبها ونسلها، وماتت ولم تعقب، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص ٢٠٨.

العشرين كل واحد نصف رطل خبز يومياً، وفي كل سنة لكل يتيم في فصل الشتاء والصيف طاقية[٦]، وجبة[٧]، وثلاث قمصان[٨]، وكوفيتان[٩] وسروال[١٠] ومداسان[١١]. ودراعة[١٢].

وفي كل يوم من شهر رمضان أوقيتا لحم أو قيمتها.

- تاريخ الوقفية (٦٥٥هـ/١٢٥٧م).

- مصادرها: حمام واحد و قريتان.

- الوقفية الثانية[١٣]

وقف جمال الدين أقوش بن عبد الله الطشلاقي[١٤] (بعد الانقراض غيرالمباشر) على

---

(٦) طاقية: لباس الرأس وجمعها طواقٍ، كانت تشبه الكوفية، لبسها الصبيان والرجال، ولبسها العسكر خلال عهد السلاطين الجراكسة، وهي شبيهة بالطربوش لدى البدو، انظر: رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧١م، ص٢٣٣ – ص ٢٣٥. سيشار إليه لاحقاً: دوزي، المعجم.

(٧) الجبة: رداء ثان مفتوح يلبسه الرجال والنساء، يكون أقصر قليلاً من الجهة الأمامية عن الخلفية، مصنوع من الجوخ الأحمر أو الأزرق أو السنجابي، وتبطن في الشتاء ببطانة من الفرو، انظر: دوزي، المعجم، ص٩١– ص٩٨.

(٨) أحدها قميص: يلبس فوق السروال، يصنع من التيل أو القطن أو الشاش أو الحرير، أو الحرير والقطن المخططين وجميعها بيضاء اللون، له كمان واسعان يهبطان إلى المعصم، ويتدلى القميص إلى منتصف= الساقين، كانت في هذه الفترة تصنع في بلاد الشام من القطن، انظر: دوزي، المعجم، ص٣٠٠ – ص ٣٠٢.

(٩) واحدتها كوفية وجمعها كوافٍ: منديل مربع الشكل يلبس فوق الرأس، وله من الطول ذراع ومثله من العرض، وهو من ألوان مختلفة، وأشيع شكل منها مؤلف من القطن، وهو لباس سكان المدن، ويلبسه الرجال بوجه خاص، وكان سلاطين المماليك يلبسونها في مصر، انظر: دوزي المعجم، ص ٣١٥.

(١٠) سروال جمعها سراويل، يرتديها الرجال في الصيف، وهي من القطن واسعة وبيضاء، وتتدلى حتى الكعب، وقد شاعت في الأقطار العربية الشرقية خلال هذه الفترة؛ انظر: دوزي، المعجم، ص١٦٨ – ص ١٧٤.

(١١) مداس: كلمة مرادفة لكلمة نعل، نوع من الأحذية وبحسب دوزي تعني الصندل، انظر: دوزي، المعجم، ص ١٥٣.

(١٢) دراعة: لباس من الصوف مفتوحة من الجهة الأمامية ومزررة بأزرار وعرى، انظر: دوزي، المعجم، ص ١٤٦ – ص١٤٨.

(١٣) دفتر رقم(٦٠٢)، ص ٨٩.

(١٤) جمال الدين أقوش الصالحي النجمي (ت ٥ ربيع الآخر ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) إستادار الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل، أعتقه وجعله من أكابر الأمراء، وولي أيضاً للملك الظاهر الاستدارية ثم نيابة دمشق تسعة أعوام، وعزل بعز الدين ايدمر، ثم بقي في القاهرة مدة بطالاً، ولحقه فالج قبل موته بأربع سنين، وكان محباً للعلماء، كثير الصدقة، لديه فضيلة وخيرة، عاش بضعاً وستين سنة، وله بدمشق خانقاه وخان ومدرسة – المدرسة النجيبية – ولم يخلف ولداً. قال النعيمي: داره جعلت مدرسة للشافعية (المدرسة النجيبية) وقفها وبلها إقامتنا، كان محباً للعلماء محسناً إليهم، حسن الاعتقاد شافعي المذهب، متغالياً في السنة ومحبة الصحابة وكره الروافض. انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٥٨– ص ٣٥٩.

الفقراء

الأيتام من أولاد الأجناد[١٥].

- تاريخ الوقفية ٧٠٨هـ/١٣٠٨م.

- مصادر الوقفية:

× مزرعة جديدة يابوس تابع حماره[١٦] من البقاع[١٧]، ١٨ط، ٣٠٠٠.

× قرية كفر سيوان تابع جبل من بيروت، ٧٥٠٠.

الوقفيات التي بدأت خلال الفترة المملوكية الثانية:

- الوقفية الثالثة[١٨]

وقف شمس الدين محمد علي بن محمد المزلق[١٩]، (بعد الانقراض)، على الأيتام والمكتب

---

(١٥) الأجناد جمع جندي وهو من يقوم على الحراسة والاشتراك في إدارة الثغور، انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ٢ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٥، ج١، ص ٢٦. وسيشار إليه فيما بعد: الباشا، الفنون الإسلامية، وهي فئة من محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهي أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت في العصور الحديثة ومرتباتها من ديوان الجيش؛ انظر: G.Demombynes: La Syria a L Époque de mamlouks p.XXX et seg. Paris. 1922، = نقلاً عن: محمد البقلي، ١٩٨٣م، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، ص ١٥ – ص ١٦. وسيشار إليها لاحقاً: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

(١٦) قرية حماره بالمرج الشمالي درست، انظر، النعيمي، الدارس، ج١، ص ٣٩٩.

(١٧) البقاع: ويعرف أيضاً بمدخل حماه أو الطريق إلى حماه، ينصل بين جبلين: جبل لبنان الغربي ولبنان الشرقي، انظر: أنيس فريحة (١٩٠٢م- ١٩٩٢م) معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها: دراسة لغوية. مكتبة لبنان، بيروت، ط٤، ١٩٩٦، ص ٢٨، ويفهم من نصوص النعيمي أن المقصود البقاع اللبناني الحالي انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٥، ٥٤، ١٨٩، ٣٥٨، ٤٢٩، و ج٢ ص ١١١، ٢٤٨، ٣٠٠.

(١٨) دفتر رقم (٢٠٦)، ص ١٩٠.

(١٩) الخواجا الكبير شمس الدين محمد بن علي بن أبي بكر بن محمد الحلبي ثم الدمشقي، ويعرف بابن المزلق (ت ٨٤٨هـ/١٤٤٥م) كان ذا ثروة كبيرة ومآثر حسنة بالشام وغيرها، انظر: أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن العماد العسكري الحنبلي (١٠٣٢هـ/١٦٢٣م- ١٠٨٩هـ/- ١٦٧٨م) شذرات الذهب في أخبار من الذهب، ٩ أجزاء، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٧، ص ٣٩٩. وسيشار إليه فيما بعد: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب.

وذكر النعيمي: " أنه من أكبر تجار دمشق، وله المتاجر السائرة في البلدان، قد أعطاه الله المال والبنين "، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٥١وهو رأس الخواجية تاجر الخاص الشريف (٧٥٤هـ/١٣٥٣م- ٨٤٨هـ/١٤٤٤) وكان أبوه لباناً عند جامع يلبغا ثم دخل في البحر... فانفتحت الدنيا عليه، وعمر أملاكاً كبيرة، صاحب مآثر حسنة بدرب الحجاز، ووقف على سكان الحرمين الشريفين الأوقاف الكثيرة الحسنة، وعين للحجرة الشريفة الشمع والزيت في كل عام،... يكاتب ملوك الأطراف ويقضون حوائجه ويهابيهم وكلمته نافذة عندهم،...

بقرب تربة الواقف[٢٠] جوار مسجد الزيادة خارج باب الجابية.

- تاريخها: ٨٠٦هـ / ١٤٠٤م.
- مصادرها: أراض.

- الوقفية الرابعة[٢١]

وقف فارس بن عبد الله القيمري[٢٢]... أن الطبقة الملاصقة للتربة[٢٣] وقف مكتب لتعليم الأيتام... في كل شهر ماية درهم لعشرة أيتام، لكل منهم عشرة دراهم، وفي كل يوم لكل واحد ربع درهم خبز، ومن بلغ صرف له خمسون درهماً ؛ واستبدل مكانه ولشيخ الأيتام في كل شهر أربعون درهماً، ومن الخبز كل يوم نصف درهم، وفي كل شهر أربعة دراهم لثمن أدوات وألواح وأقلام وغيره،ولكل يتيم في فصل الصيف في كل سنة ملوطة قطنية[٢٤] وقميص وسروال ومنديل ومتاع[٢٥]. وفي أول فصل الشتاء لكل يتيم فروة[٢٦] بخمسة عشر درهماً، ولكل يتيم في موسم رجب لثمن الحلوى درهمان ونصف، ولمعلمهم خمسة دراهم، ولكل يتيم في عيد الفطر خمسة دراهم، ولمعلمهم عشرة دراهم. ويشترى في عيد الأضحى ثلاثة رؤوس

كان بخيلاً على نفسه، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٢٩٠ – ص ٢٩١.

(٢٠) المقصود التربة المزلقية: أنشأها الواقف نفسه شمس الدين بن مزلق، " بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى الصابونية، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٢٩٠ – ص ٢٩١.

(٢١) دفتر (٦٠٢)، ص١٧٧. (وقف غير مباشر)

(٢٢) الأمير سيف الدين فارس الداودار التنمي (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م) داودار تنم، نائب دمشق، أوقف المدرسة الفارسية والتربة بها سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) في وقفة الجديدة، واقف قرية صحنايا (على بعد عشرة كيلومترات جنوبي دمشق) كان اشتراها سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٦م) أوقفها على مدرسين وعشرة فقهاء، وعشرة مقرية، ويقرئ خمسة عشر يتيماً؛ إذا حفظ أحدهم القرآن يخرج ويقرر غيره،... ويقرأ عليها أنواع العلوم من المذاهب الأربعة، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٢٦ – ص ٤٢٧.

(٢٣) تقع التربة غربي الجوزية الحنبلية، تجاه الخارج من باب الزيادة، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٢٦.

(٢٤) ملوطة قطنية: جمعها ملاليط، لباس فوقاني واسع يلبس فوق الفرجية، تصنع عادة من الجوخ أو الحرير، وكان لباس المماليك التحتاني: مرلوطة، وكان له كمان مفرطان في السعة، انظر: دوزي، المعجم، ص٣٣٢–ص ٣٣٤، ويبدو أن الواقف أضاف قطنية ليحدد نوعها لكي لا تشترى من الجوخ أو الحرير.

(٢٥) متاع: يبدو أن له علاقة بما وصلت به المرأة، بعد الطلاق من نحو قميص وإزار وملحفة، وهو من متعة المرأة. انظر: رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، تقديم: محمود فهمي حجازي، راجع المادة المغربية عبد الهادي التازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ص٤٦١، سيشار إليه لاحقاً: رجب عبد الجواد، المعجم العربي.

(٢٦) فروة: كلمة فارسية معربة معناها الإزار، اللباس، ولا بد أن يكون عليها وبر أو صوف، ومنها أنواع كثيرة: انظر: رجب عبد الجواد، المعجم العربي، ص٣٥٦.

غنم بتسعين درهماً، يعطى لمعلم الأيتام واحد، وينحر اثنان، ويقسم على الأيتام العشرة.

- تاريخ الوقفية: ٨١٢هـ / ١٤١٠م.

- مصادرها: دكان، وقرية.

- الوقفية الخامسة[٢٧] (٢٥)

وقف برهان الدين المزيني مباركشاه بن عبد الهادي الاسعردي[٢٨]... خصص بيتاً من داره الكائنة في الجسر الأبيض[٢٩] في الصالحية تجاه المدرسة المردانية[٣٠] بيتاً برسم الأيتام وشيخهم يصرف إلى خمسة عشر يتيماً من أيتام المسلمين، ويكون مقرهم بالمكتب الذي علو مدرسته[٣١]، في كل شهر مائة وخمسون درهماً يشترى بها خبزاً يفرق على الأيتام والفقراء وشيخهم، بالإضافة إلى ما قرر للجميع من لحم وغيرها.

- تاريخ الوقفية: ٨١٧هـ / ١٤١٤م.

- مصادرها سبعة عشر هي: طاحون، وغراس، وبيت، وحصة، وثلاثة دكاكين، وثلاثة بساتين، خمس أراض، وقريتان.

- الوقفية السادسة[٣٢]

وقف العمادي إسماعيل بن الزيني عمر بن دوغان (ذري ؛ وبعد الانقراض)... وقفاً على عشرة أيتام من المسلمين وجهات البر والصدقة في صيدا[٣٣].

---

(٢٧) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٠٠. (جزء من وقفية)

(٢٨) برهان الدين إبراهيم بن مبارك شاه الاسعردي (ت: في رجب ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م) كان من أكبر التجار بدمشق، له المتاجر السائرة في البلدان، قد أعطاه الله المال والبنين، وكان عنده كرم وإحسان للفقراء وعمر المدرسة المشهورة على الجسر الأبيض. وتأنق في بنائها وعمل فيها تربة، ورتب بها فقراء ومقرئة يقرؤون القرآن، دفن بتربته وهو في عشر الستين، خلف زوجة ووالدة، وزوجته بنت الخواجا شمس الدين بن مزلق، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٥٠ – ص ١٥١.

(٢٩) جسر يعرف اليوم بجسر الصالحية على نهر ثورا قرب المدرسة المردانية، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص ٩، وهامش (٤)، والمصدر نفسه ج١، ص ١٥٠.

(٣٠) المردانية: على حافة نهر ثورا بمضيق الجسر الأبيض بالصالحية، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٥٩٢.

(٣١) المدرسة الاسعردية: فرغ من عمارتها في ذي الحجة سنة سبع عشرة وثمانمئة هجرية، ومات وهي في عناية الحسن، ورتب بها وظائف كثيرة، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٥٠ – ص ١٥١.

(٣٢) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٢٤٥.

(٣٣) صيْداء: بالفتح ثم السكون، والدال المهملة، وأهله يقصرونه؛ مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور وبينهما ستة فراسخ، انظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي

- تاريخ الوقفية ٨١٧هـ / ١٤١٤م.
- مصادرها: غراس البستان في أرض مزرعة الكنيسة ن صيدا بنهر الأوله (الأولي).

- الوقفية السابعة[٣٤]

وقف الأمير جقماق المؤيدي[٣٥]... مسجد[٣٦] وتربة[٣٧] وخانقاه[٣٨] في محلة البطاقيين جوار الجامع الأموي، لكل واحد من الأيتام الخمسة عشر في كل شهر خمسة عشر درهماً، ولشيخهم ستون درهماً... وفي كل شهر من الحلوى رطل ومن الصابون رطل ولكل واحد من الأيتام في كل يوم من الخبز ثلث رطل، ومن الحلوى ثلث رطل، ومن الطعام نصيب... وأن يشترى في كل فصل شتاء لكل يتيم قميص وجبة وفروة وطاقية ومشاية، ولكل يتيم في كل يوم درهم، وفي كل يوم عيد درهم واحد، ويشترى في كل موسم رجب وشعبان عشرة

(ت٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ أجزاء، دون تحقيق، دار صادر، بيروت،دون تاريخ، ج٣، ص٤٣٧، لبنان، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م. وسيشار إليه فيما بعد: الحموي، معجم البلدان.

(٣٤) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٨١. ذكر النعيمي أن الأمير ماماش المؤيدي (ت٨٣٠هـ / ١٤٢٧م)؛ طلب في جمادى الآخرة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م كتاب وقف جقمق وغسله وأنه استقطع وقف جقمق واستخرج منه شهرين وأرسل إلى التربة بأخذ منها البسط والقناديل ومنع الصوفية والقراء من الحضور فيها، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٩١.

(٣٥) الأمير جقمق (جقماق) المؤيدي الدوادار سيف الدين (قتل: ٨٢٤ هـ / ١٤٢١م) كان من أبناء التركمان فاتفق مع بعض التجار أن يبيعه ويقسم ثمنه بينهما ففعل. تنقل في الخدم حتى تقرر دويداراً ثانياً عند الملك المؤيد قبل سلطنته، ثم استقر دويداراً كبيراً إلى أن قرره الملك المؤيد في نيابة الشام (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) فبنى السوق المعروف بسوق جقمق، وأوقفه على المدرسة التي بناها قرب الجامع الأموي، ثم أظهر العصيان فقتل، ذكر المقريزي أنه كان سيئ السيرة شديداً في دوداريته على الناس، حصل أموالاً، وكان فاجراً ظلوماً غشوماً متطلعاً إلى أموال الناس، لا يكف عن قبيح، قتله ططر بدمشق، ودفن بمدرسته لصيق الكلاسة، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٤٨ و ٤٩٠ و ٤٩٢، وانظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص ٢٩٥.

(٣٦) ذكر النعيمي وجود مصلى فقط دون ذكر مسجد، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٩٠، فيما أشار النعيمي إلى المدرسة الجقمقية أنشأها جقمق بدمشق عند باب الجامع الأموي الشمالي، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٩٢. ولجمقق مدرسة عرفت بالجمقمقة في دمشق، حي الكلاسة؛ كتب عليها بخط الثلث النسخي المملوكي، عام ١٩٩٧م ما نصه: (أنشأ هذه الخانقاه والتربة المباركتين المقر الأشرفي العالي المولوي الكبيري العالمي العادلي المهدي العابدي الخاشعي الناسكي الزعيمي المقدمي الذخري الظهيري السيفي عز الإسلام والمسلمين ، سيد الامراء في العالمين ، سيف امير المؤمنين ، جقمق الدودار المؤيدي كافل الممالك الشامية المحروسة، ضاعف الله له الثواب، وغفر له ولوالديه ولأحبابه يوم الحساب بمباشرة الحساب السيفي قفري ورَمْش ، وذلك في شهور سنة أربع وعشرون وثمان مئة). للاطلاع على النص وصورة عنه انظر: الشهابي ، النقوش الكتابية، ص ٢٤٥ وص ١٥٣.

(٣٧) التربة: كان قد أسسها المعلم سنجر، ورتب بها جقمق ميعاداً بعد صلاة الجمعة، وأوقف عليها، ويبدو أنه دفن بها عند باب الجامع الأموي الشمالي، وجعل في قبلة التربة مكتباً للأيتام، انظر النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٩٠.

(٣٨) خانقاه: بناها جقمق للصوفية، ورتب بها شيخاً وصوفية، انظر: النعيمي، الدارس ج١، ص ٤٩٠.

أرطال من الحلوى وخمسة أرطال خبز تفرق على الأيتام وشيخهم، وفي عيد الأضحى أربعة رؤوس غنم ورأس بقر، ويفرق على أرباب الوظائف[٣٩].

- تاريخ الوقفية: ٨٢٤هـ / ١٤٢١م.

- مصادرها: دكانان طبقتان، أرضون وخان[٤٠]، وقطعت حكر[٤١]، وحنفيتا [ماء].

- الوقفية الثامنة[٤٢]

وقف يحيى وشقيقه أحمد أولاد ناصر الميداني... من الوقفية يصرف في كل يوم خمسة دراهم إلى عشرين يتيماً لم يبلغوا الحلم ؛ بينهم بالسوية، ودرهم ونصف لشيخهم في كل يوم يقرؤون في المكتب بسوق القطانين[٤٣]، بالصالحية... ويصرف بعد مصروف الأيتام ومعلمهم لوالدة الواقفين ثم بعد الانقراض يصرف على أيتام وشيخ يقريهم بجامع المظفر بصالحية دمشق.

- تاريخ الوقفية: ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م.

- مصادرها: مزرعتان وبستان.

- الوقفية التاسعة[٤٤]

وقف الناصري محمد ولد الصارمي إبراهيم بن منجك[٤٥]؛ على الجامع بمحلة جسر

---

(٣٩) أرباب الوظائف: في الفترة الأيوبية والمملوكية كان أرباب الوظائف الدينية صنفين، صنف له مجلس في الحضرة السلطانية بدار العدل الشريف، وصنف لا مجلس له، ويبدو أن المقصود الصنف الثاني، انظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٥. وربما كان المقصود هنا الأشخاص الذين يقومون بوظائف محددة للوقفية.

(٤٠) خان: ذكر النعيمي أن الخان يقع شمالي المصلى، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٩٠.

(٤١) حكر: جمعها أحكار؛ قيمة إيجارات لمساحات عقارية سكنية أو لأغراض البساتين يدفع أصحابها ضرائب سنوية، انظر: حسنين ربيع: النظم المالية، ص ٤٨، إلا أن أكثر كلام الفقهاء في شأن الحكر ينصب على الحكر في الأوقاف ولا يتعرضون للحكر في الأملاك إلا نادراً، ولذا عرّفه صاحب قانون العدل والإنصاف بأنه استبقاء الأرض الموقوفة مقررة للبناء أو الغراس أو أحدهما وجرى العرف على أن الأحكار إجارة مستمرة إلى الأبد، انظر: وزارة الأوقاف، الموسوعة الفقهية: ج١٨، ص ٥٣- ٦٤.

(٤٢) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٧٣. (جزء من الوقفية)

(٤٣) سوق القطن: بسفح قاسيون أسفل تربة البزورية، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٢٢٧.

(٤٤) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٣٤.

(٤٥) محمد بن إبراهيم بن منجك اليوسفي الناصري (٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م - ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)، كان ناظراً للأوقاف في دمشق عام (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أحد الأمراء بدمشق، كان ذا عقل تام ودين وافر، وله مآثر حسنة منها أنه عمر جامعاً لصيف تربته، وجامعاً آخر بمحلة مسجد القصب، وعمر بمدرسة أبي عمر الجانب الشرقي منها، وعمر

الفجل[٤٦] بميدان الحصى[٤٧] والطبقة الراكية على السبيل جعلها مكتباً للأيتام، وقرر عشرة أيتام صغار لكل يتيم في كل شهر ثمانية دراهم، وفي ثمن حبر وألواح وأقلام في كل شهر للجميع خمسة دراهم؛ ومن حفظ القرآن من الأيتام في مدة إقامته في المكتب صرف له عند صرفه خمسين درهماً، واستبدل الناظر عوضه، ولشيخهم ستون درهماً.

- تاريخ الوقفية: ٨٣٠هـ / ١٤٢٧م.

- مصادرها: اثنا عشر مصدراً: مزرعتان، وثلاثة بساتين، وقريتان، وأرض دكاكين، وحانوت، وحمام.

- الوقفية العاشرة[٤٨]

وقف عمر بن الشرفي موسى ألتون بغا القرمشي (أنشأ مدرسة وداراً للقرآن من الجانب القبلي والتي جعلها مسجداً)[٤٩] وجعل الواقف مكتباً وقرر فيه عشرة أيتام، وقرر لهم شيخاً معلماً لكل شهر ستين درهماً. ولكل يتيم في كل شهر عشرة دراهم، وفي كل عيد فطر: قميص وملوطة خياطي، وطاقية ومداس ومنديل أزرق، وفي موسم شهر رجب نصف

بدرب الحاج بركة تبوك، وأجرى على الفقراء والأرامل صدقات كثيرة، وكان مغرماً بالصيد والجوارح، ماهراً في ذلك، خلف مالاً كثيراً، وترك ولداً أسمر من جارية حبشية اسمه إبراهيم، إلا أنه كان مسيكاً (بخيلاً)، جمع الأموال والأملاك، عمر مدرسة مليحة بدمشق ووقف عليها الأوقاف، وكان يقع له في الرمايات مع السلاطين (للصيد)، إماماً في معرفة الصيد بالجوارح، وأنواع الصيد؛ انظر: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، عشرة أجزاء، تحقيق: محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ج٩، ص٢٠٥ - ص٢٠٧، وسيشار إليه فيما بعد: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، وانظر أيضاً النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٢٤، ٣١٢، و ج٢، ص ١٠٥ - ص ١٠٦.

(٤٦) جسر الفجل: في آخر ميدان الحصى بدمشق بها تربة منجك وجامعه، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٠٦، ص٤٤٤.

(٤٧) ميدان الحصى: هي من أحياء دمشق فيه تربة تنم الحسيني، وجسر الفجل، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٨٦ و ج٢، ص ٢٧ و ص ٥٢.

(٤٨) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٢٨.

(٤٩) جامع القرمشي: ساروجا - عبيد، يدخل إليه من حارة العبيد ودخلة الكمّار له جهة حجرية شمالية حسنة وحائط جنوبي في محراب من حجر أسود وأبيض متقن وفوقه: (الحمد لله بتاريخ مستهل شهر رمضان المعظم قدره سنة إحدى عشرة وثمانمائة أنشأ هذا المكان المبارك الجناب الزيني عمر بن الجناب الشرفي موسى داودار المقر الأشرف العالي ابتغاء وجه الله تعالى، وأوقف على المكان المذكور مصلاه ومصارفه الشرعية وعشرة أيتام و... جميع القرية الخراجية التي من عمل صيدا امعروفة بعانوث... وقفاً صحيحاً شرعياً)، وأرض المسجد مفروشة بالموزاييك، والمحراب وحائطه والبركة ترجع إلى عهد الواقف وما عدا ذلك مجدد. انظر: محمد سعد طلس، ١٩٧٥م نيل ثمار المقاصد في ذكر المساجد، المعهد الافرنسي بدمشق، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٢٤٥. سيشار إليه لاحقاً: طلس، النيل.

رطل حلوى، ومن بلغ من الأيتام الصغار عين الناظر[٥٠] له عشرين درهماً عند صرفهم، ويصرف في عيد الأضحى ثمن بقرة تذبح ويفرق لحمها على أرباب الوظائف. ولكل يتيم من العشرة ومؤدبهم في أول فصل الشتاء فروة حمراء.

- تاريخ الوقفية: ٨٣٦هـ / ١٤٣٣م.

- مصادرها: ثلاث قطع أراضي، أربعة أجزاء من قرى، عمارة، ثمن حصص مختلفة من محلات ودكاكين وغيضات ومزارع.

- الوقفية الحادية عشرة[٥١]

وقف الغرسي خليل التيروزي[٥٢]... ولعشرة أيتام من الصبيان الصغار لكل يتيم في كل شهر عشرة دراهم، ولشيخهم في كل شهر خمسة وأربعين درهماً ويصرف في أيام الرغائب[٥٣] حلوى جوزية خمسة أرطال للشيخ والأيتام وعند عيد الفطر لكل يتيم قميص وملوطة صالحي ومنديل وطاقية ونعل[٥٤]؛ وإذا ختم القرآن منهم أحد صرف له ثلاثون درهماً وقرر عوضهم.

- تاريخ الوقفية: ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م.

- مصادرها: ثلاثة بيوت، دكاكين، خان، معصرة، خمس غراس، جنينه، ثلاث أراضي، ست قرى، مزرعتين، بستانين، حمام، إسطبل.

---

(٥٠) الناظر: في اللغة اسم فاعل من النظر، والنظر هو: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء. ورؤيته، ونظرت في الأمر: تدبرت وفكرت فيه، والناظر على الوقف في اصطلاح الفقهاء: هو الذي يلي الوقف وحفظه وحفظ ريعه، وتنفيذ شرط واقفه، انظر: وزارة الأوقاف، الموسوعة الفقهية، ج٤، ص ١٤.

(٥١) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٦٤.

(٥٢) الأمير غرس الدين خليل التوريزي الدساري (ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م)، صاحب الحجاب بدمشق، وكان والياً عليها، من جملة أوقافه بدمشق البايكة، قرب خان العميان، وتربة رأس الشويكة، ومسجد بجانبها، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٦٧، و ص ١٩٤ و ص ٢٠٤. والمسجد لا يزال موجوداً وقد وجد عام ١٩٩٥م في ساكف باب الجامع وبخط الثلث (النسخي المملوكي) نقشا خصه: " أمر بإنشاء هذا الجامع العمور بذكر الله تعالى المقر الغرسي خليل التوريزي تقبل الله منه في خامس وعشرين جمادى الاخر سنة ثلاث وعشرين وثمانماية " انظر نص النقش وصورته في: الشهابي، النقوش الكتابية ، ص ٣٧٤

(٥٣) أيام الرغائب: أول جمعة من رجب أو ليلة النصف من شعبان، انظر: وزارة الأوقاف، الموسوعة الفقهية، ج٢٢، ص ٢٧٢.

(٥٤) نعل: الصندل أو الخف من الأحنية. انظر: دوزي، المعجم، ص٣٤٠ – ص ٣٤٢.

- الوقفية الثانية عشرة[٥٥]

وقف سودون ابن الناصري الشهير بالداويدار السيفي تانبك الحسيني[٥٦] قرية مجدلون... يصرف لعشرة أيتام لكل يتيم في كل شهر عشرة دراهم، ولشيخهم في كل شهر أربعون درهماً... وإذا قعد ثلاث سنين ولم يحفظ القرآن استبدل الناظر مكانه، وكذلك إذا حفظ القرآن. وعليه أن يقرئ الأيتام في جامع بعلبك الكبير. ومن شرط الأيتام إذا بلغ أن يستبدل غيره، ومن شرط الشيخ أن يكون من أهل السنة والجماعة[٥٧] وإذا نقص محصول القرية المذكورة وزع عليهم. ويصرف من الزيادة للمحصول من القرية المذكورة في كل سنة لكل واحد من الأيتام ثمن قميص وقبع[٥٨]، وسرموجه[٥٩] وفي يوم عيد الفطر، ويوم الأضحى في كل سنة.

- تاريخ الوقفية: ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥م.

مصادرها: ثلاث قرى، ومزرعتان، وبستان، وقيسارية، وخان.

---

(٥٥) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٤٨.

(٥٦) توفي في يوم الثلاثاء ١٦ شوال ٨٢٤هـ / ١٤٢١م وهو في عشر الستين، ودفن في مقبرة الصوفية، كان دواداراً كبيراً عام ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م، وباشر بعفة وعقل وسكون، سافر إلى مصر في رسالة، ولما رجع أشار إلى أستاذه تنبك بعدم العصيان فلم يلتفت إليه، وعزله، ترك الإمرة وأقبل على الزراعة والغراس والاشتغال باستئجار الأراضي وشرائها، وحصل أملاكاً كثيرة، وكان متديناً، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٢٠٠.

(٥٧) أهل السنة: " يقال فلان من أهل السنة ومعناه: من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة " انظر وزارة الأوقاف، الموسوعة الفقهية، ج٢٥، ص ٢٦٣ – ص٢٦٤.

(٥٨) قبع: خرقة كالبرنس، أنظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م)، القاموس المحيط، تحقيق: محمد البقاعي، إشراف: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص ٦٧٤ وسيشار إليه فيما بعد: الفيروز أبادي، القاموس المحيط.

(٥٩) سرموجة: وردت عند القلقشندي سرموزة، وهي نوع من الملابس "وردت سرموزه كذلك عند ماير، على أنها حذاء قصير يسمى نعل تخلع عند دخول المنزل/وكانت تباع في "سوق الأخفافيين" انظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٨٠. وانظر: ماير، ل.أ، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم: عبد الرحمن فهمي محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٥٢م، انظر: ص١٢٩و ص ١٣٢. سيشار إليه لاحقاً: ماير، الملابس المملوكية.

- الوقفية الثالثة عشرة[٦٠]

وقف[٦١] شادي بك بن الجلبانه[٦٢]... ولمؤدب الأيتام العشرة بعلو المدرسة[٦٣] بالمكتب في كل شهر ثمانون درهماً وللعشرة أيتام المذكورين في كل شهر مائة درهم، ولكل يتيم كل عيد ثمن قميص قطن وجبة قطنية طرح مطل[٦٤]، وطاقية ومنديل، ومتاع، ويعطى ذلك له مع درهمين فضة، ويصرف لهم في كل رجب وشعبان ثمن خمسة أرطال حلوى جوزية وغيره؛ يفرق ذلك على الأيتام العشرة وشيخهم مع رطلين من الجردق[٦٥] ودرهمان لكل يتيم في الموسم.

ويصرف في كل جمعة سبعة عشر رطل خبز من الحنطة على باب المدرسة للأيتام والفقراء، ويشترى في كل سنة في عيد الأضحى رأس بقر ينحر أضحية تجاه المدرسة ويفرق على الفقراء والمساكين والأيتام.

- تاريخ الوقفية: ٨٦١هـ / ١٤٥٧م.
- مصادر الوقفية: تسعة عشر وهي: قريتان، بيت، مزرعة، بساتين، مرتب، غراس، كرم، تسع أراض، حصة.

---

(٦٠) الدفتر رقم (٦٠٢)، ص ٦٨.

(٦١) ذكر ابن طولون أنه تمت مصادرة أموال الواقف (شاد بك الجلباني) استدار دمشق سنة (٨٨٦هـ / ١٤٨١م) لأنه دخل دمشق بالطبل والزمر عقب إحدى المعارك الداخلية وحبس شهرين، انظر: شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن علي بن طولون(ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢مج، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م، مج١، ص ٥٠، وسيشار إليه فيما بعد: ابن طولون، مفاكهة الخلان.

(٦٢) شاذ بك (المقصود شادي بك) الجلباني (ت: جمادى الآخرة ٨٨٧هـ /١٤٨٢م)، أتابك دمشق، وصاحب المدرسة التي بالقنوات وفيها دفن، انظر: الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (٨٣١هـ / ١٤٢٨م – ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزءاً، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج٣، ص ٢٩٠. وسيشار إليها لاحقاً: السخاوي، الضوء اللامع.

(٦٣) المدرسة: مدرسة شاذ بك، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٢٠. المدرسة لا تزال موجودة في دمشق ، حي القنوات ، ووجد فوق بابها نص منقوش بالخط الثلث (النسخي المملوكي) في عام ١٩٩٦م ، قرأ: "انشأ هذه المدرسة المباركة المقر العالي المولولي ، السندي المالكي المخدومي السيفي شادي بك امير داوادار / السيفي جلبان كافل المملكة الشامية عز نصره ونلك في رجب من شهور سنة ٨٥٧، وصلى الله على محمد وآله " انظر النص وصورة عن النقش كما صورها المؤلف ١٩٩٦ لدى: الشهابي ، النقوش الكتابية ،ص٣٤٨ وانظر ايضا ص ١٥٩ من نفس المرجع.

(٦٤) طرح مطل: نوع من اللباس: طرحة جمعها طرحات: وصف القلقشندي لباس أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء في تلك الأزمنة: " ويتميز قضاة القضاء الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره، انظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٢٩ – ص ٢٣٠. وذكرها ماير على أنها عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين، انظر : ماير، الملابس المملوكية، ص ٩٣.

(٦٥) الجردق: الجردقة بالفتح الرغيف، انظر: الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ص ٧٨٤.

- الوقفية الرابعة عشرة[٦٦]

وقف الشهابي أحمد العلمي سليمان[٦٧] (بعد الانقراض)[٦٨]؛ الوقف يكون على المبتدئين بقراءة القرآن بالمدرسة القرمشية بسويقة ساروجه[٦٩] والأيتام بها.

- تاريخ الوقفية: ٨٦١هـ / ١٤٥٧م.

- مصادرها: ثماني قرى.

- الوقفية الخامسة عشرة[٧٠]

وقف ناصر الدين محمد بن يوسف بن المستوفي[٧١]... يصرف في كل شهر مائة درهم لعشرة أيتام ومؤذنين والمكتب الذي وقفه الواقف على ظهر بوابة زقاق المقدمية[٧٢] ولشيخهم في كل شهر ستون درهماً، ويصرف لكل واحد من الأيتام وشيخهم في أول الشتوية فروة، وقميص، وطاقية صوف و أوضانه[٧٣]، ونعل، ومن حفظ القرآن العظيم من الأيتام وعرضه على حافظين القرآن في الجامع الأموي في مدة شهر أو أقل في مجالس متعددة صرف له عند الختم وإهداء الثواب للواقف وأموات المسلمين مائة درهم، ولشيخه الذي تعب وسهر عليه حتى حفظ ذلك مائة درهم، والذي سمع عرض الشيخ خمسون درهماً، ومن حفظ من الأيتام بعد حفظه القرآن مختصراً من مختصرات الفقه فمن أي كان من المذاهب

---

(٦٦) دفتر رقم (٦٠٢) ص ١٨٦.

(٦٧) أحمد بن عثمان بن العفيف علم الدين العلوي الحصني لاسعردي الشافعي الصوفي ويعرف بالعلمي (ت٨٦١هـ / ١٤٥٧م)، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٤.

(٦٨) انقضت الذرية في عام (٨٦٨هـ / ١٤٦٤م) حسب الدفتر ٦٠٢، ص ١٨٦.

(٦٩) سويقة ساروجه: فيها أرض حكر تعرف بحكر الأقرع، وبحارة السودان قديماً بالقرب من تربة يونس، حكر على أوقاف الخانقاه الدويرية، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٤٩. وسوق ساروجا ينسب إلى الأمير صارم الدين صاروجا (بالصاد المهملة) ابن عبد الله المظفري مات مكحلاً سنة (٧٤٣هـ / ١٣٤٣م) انظر: محمد عز الدين بن حسين عربي كاتبي الصيادي الرفاعي الحسني الدمشقي الشافعي (١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م) ، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية؛ تحقيق: صلاح الدين خليل الموصلي الباني الحسني القادري، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م،ص٩٧وسيشار إليه فميا بعد: الصيادي ، الروضة البهية.

(٧٠) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٢٥٥.

(٧١) لم نجد ترجمة لابن المستوفي غير أن النعيمي ذكر أن بيته كان في دمشق، جوار الحنبلية سنة (٨٨٦هـ / ١٤٨١م)، ونزل فيه القاضي الحسباني، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٦٤٢.

(٧٢) زقاق المقدمية: زقاق المدقف، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٢٣٩.

(٧٣) اوضانة: الوضية بفتح الواو كعظيم بطان عريض منسوج من سيور أو شعر والجمع وضن، انظر: رجب عبد الجواد ، المعجم العربي، ص٥٣٢.

الأربعة، وعرض ذلك على المشايخ البلد صرف له مائة درهم ولشيخهم مائة درهم.

– تاريخ الوقفية: ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م.

– مصادرها: قرية كفرية[٧٤] تابع بقاع ٣ط و ١ / ٤ ط، ٤٢٢.

– الوقفية السادسة عشرة[٧٥]

وقف الأمير يلبغا[٧٦]...؛ يبدأ الناظر بعمارة الوقف والجامع (جامع يلبغا)[٧٧] في تحت القلعة[٧٨]، وعمارة وقفه؛ وما فضل يخرج منه في كل سنة للجامع المذكور والمرتبين (يفهم من النص أن المرتبين هم الأشخاص الذين يحددهم ويبين وظائفهم ناظر الوقف) ومصارفه والأيتام[٧٩] ومعلمهم في كل سنة ستون ألف درهم في ثمن حصر وبسط وقناديل وسلاسل وزجاج وثمن زيت وشمع وإمام وخطيب ومؤذنين وفراشين وقومة برسم الجامع والطهارة على ما يراه الناظر ... وأربعين يتيماً ومعلماً لهم وألواح وأدوات وأقلام وحصر للمكتب وكسوة الأيتام ومعلمهم على ما يراه الناظر.

– تاريخ الوقفية: ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م[٨٠].

---

(٧٤) قرية كفريّة: قرية في جبال اللاذقية تتبع ناحية كنسبا وتبعد عن بلدة كنسبا ٢٢ كم إلى الجنوب الغربي منها، انظر: العماد مصطفى طلاس، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ٥ مج، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، انظر : مج٥، ص ٧٣، وسيشار إليه فيما بعد: طلاس، المعجم الجغرافي.

(٧٥) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٧٥.

(٧٦) يلبغا بن عبد الله السالمي الظاهري (قتل مخنوقاً في رمضان ٨١١هـ/١٤٠٨م)؛ من مماليك الظاهر، ثم صيره خاصكياً، عمل استدارياً كبيراً ونائب الشام وانتهت إليه الرئاسة، ولقب نظام الملك، وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم، وكان طول عمره يلازم الاشتغال بالعلم ولم يفتح عليه شيء؛ سوى أنه يصوم يوماً بعد يوم، ويكثر التلاوة، وقيام الليل والذكر والصدقة، وكان يحب العلماء والفضلاء ويجمعهم، ولازم سماع الحديث ... وكان يبالغ في حب ابن عربي وغيره من أهل طريقته، ولا يؤذي من ينكر عليه، وكان يتعصب للحنفية ويعطي لمن يتمذهب لأبي حنيفة العطاء الجزيل، انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ٤٠٩– ص٤١٠ و ج٧، ص ٢٢١ – ص ٢٢٢=

(٧٧) جامع يلبغا: أو الجامع السيفي: أنشأه في سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) على شط نهر بردى تحت قلعة دمشق؛ ويقع مقابل بناء العابد بساحة المرجة شمالاً، درس عام ١٩٧٠م، وأعيد بناؤه عام ١٩٩٥م، وكان قيد الانجاز عام ٢٠٠٠م، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٢٤– ٤٢٥، وانظر أيضاً: الصيادي، الروضة البهية، ص ٩٨.

(٧٨) يبدو أن المقصود قلعة دمشق انظر الهامش السابق (٧٤).

(٧٩) ذكر ابن طولون أن داودار السلطان وهو الناظر على جامع يلبغا سنة (٨٩٦هـ/١٤٩١م) أحدث مكتباً للأيتام على علو بابه الخارج إلى تحت القلعة، وزعم أن أمه التي توفيت هذه السنة أوصت بذلك، انظر: ابن طولون، مفاكهة الخلان، مج١، ص ١٣٧.

(٨٠) ذكر النعيمي أن الأمير نجم الدين الزيبق وصحبته الأمير علاء الدين الحراني قدما إلى دمشق للحوطة على أموال

– مصادرها: حمامان، ودكان، ومزرعة، وقريتان، وقيسارية، وخان، وفتاح مقيم[٨١]، جوار حمام يلبغا[٨٢].

– الوقفية السابعة عشرة [٨٣]

وقف شهاب الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن الصابوني البكري[٨٤]، ولشيخ الأيتام المقررين بالمكتب[٨٥]، على السبيل في شرق الجامع الصابوني[٨٦] المزيور، في المدرسة الصابونية[٨٧]؛ خمسين درهماً، ولعشرة أيتام في كل شهر مائة درهم، وثمن كسوة الفقراء العشرة والأيتام العشرة ثمانمائة درهم.

– تاريخ الوقفية: ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م.

– مصادر الوقفية: ثلاثة خانات، وتسعة دكاكين، وأحد عشر أرضاً، وداران، وعمارة، وقاعة، وأحد عشر بستاناً، وثلاث جنائن، وست قرى، وبيت، ومعصرة[٨٨].

الأمير (سيف الدين) يلبغا (سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ونقل عن الأسدي أنه جرت إزالة قبة الجامع (جامع يلبغا) من قبل الأمير محمد بن منجك سنة (٨٣٩هـ/ ١٤٣٦م) ومع ذلك يلاحظ أن الوقفية استمرت لغاية (٩٩٠هـ/ ١٥٨٠م) وأعيد بناء الجامع عام ١٩٩٥م، وكان قيد الإنجاز عام ٢٠٠٠م. انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٤٢٣– ٤٢٥، وانظر الهامش (٧٥) أعلاه.

(٨١) فتاح مقيم: يبدو أن المقصود مبزل الماء على مجرى النهر.

(٨٢) حمام يلبغا: قرب جامع الثابتية، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٤٤٣.

(٨٣) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٦٧.

(٨٤) أحمد الشهابي القضائي ابن علم الدين بن سليمان بن محمد البكري الدمشقي المعروف بالصابوني (ت٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)، أنشأ المقر الخواجكي في الفترة من (ربيع الأول ٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م حتى ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م)، ووقفه لنفسه ونريته، ثم نصف النظر لحاجب دمشق كائناً من كان، والنصف الآخر للإمام، وشرط قراءة البخاري في ثلاثة أشهر؛ واشترط في الخطيب أن يكون شافعي المذهب، وفي الإمام أن يكون من الطائفة المباركة الجبرتية وحنفياً، أو يمانياً أو حجازياً أو افاقياً، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٣– ص ١٥.

(٨٥) المكتب " بني للأيتام في الجهة الشرقية يتسع لعشرة أيتام يقريهم القرآن العظيم شيخ بمعاليم " (رواتب)، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٥.

(٨٦) الجامع الصابوني: " خارج باب الجابية بدمشق؛ جنوب التربة الجيغائية، ومقابل تربة سنبل الطواشي، شمالي تربة المختار الطواشي، يمنة الذاهب في الطريق السلطاني "، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٢٢٧.

(٨٧) المدرسة الصابونية: أنشأها الواقف نفسه كما ورد عند العرضي، وتقع أمام مقبرة باب الصغير في دمشق، كانت في البداية داراً للقرآن ثم تحولت إلى مسجد ". انظر: أبو الوفا بن عمر بن عبد الوهاب العرضي (ت ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م) معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم – حلب، تحقيق: عيسى سليمان أبو سليم، عمان منشورات مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢، ص ٢٨٦، ص ٢٨٧. سيشار إليه لاحقاً: العرضي، معادن الذهب.

(٨٨) ذكر النعيمي أن الواقف أوقف على أوقافه الكثيرة قرى عرفت بالقرى الصابونية غربي مدينة بيروت، ومنها قرية مريري بالغوطة، وترحيم بالبقاع، والصويره بالبقاع أيضاً والقرعون شرقي نهر الليطاني، وقرية كحيل درعا،

- الوقفية الثامنة عشرة[٨٩]

وقف الشرفي يونس الظاهري[٩٠]، على مصالح الخانقاه[٩١] بالشرف الأعلى الشمالي[٩٢]، المعروف بإنشائه... ولعشرة أيتام مائة درهم، ولمؤدب[٩٣] الأطفال في كل شهر أربعون درهماً وثمن أقلام وألواح للأيتام خمسة دراهم.

- تاريخ الوقفية: ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م.

- مصادرها: بستان وحمام، وأرض.

- الوقفية التاسعة عشرة[٩٤]

وقف القاضي برهان الدين بن مفلح[٩٥]، (من ضمن الوقفية)، خصص لزوجة الواقف فاطمة بنت موسك في كل سنة ثلاثماية درهم ؛ فإذا ماتت فاطمة بنت موسك المذكورة صرف ما كان لها على ثلاثين يتيماً مقيماً من أيتام المسلمين.

- تاريخ الوقفية: ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م.

وبصرى بحوران، وقرية خيارة والسبينة، وقرية بيت الأبيار، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص١٥-ص١٦.

(٨٩) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١٧٤.

(٩٠) الأمير الشرفي يونس الظاهري داودار الظاهر برقوق (توفي في ١٢ رمضان ٨٦٥هـ / ١٤٦١م) وقد تجاوز الستين، حنفي، سار سيرة حسنة بحرمة وافرة وعظمة زائدة وتكرم على مماليكه مع كثرتهم، وقرب العلماء والصالحين وتأدب معهم، كان شجاعاً مقداماً عارفاً بأنواع الفروسية وغيرها، وذا ذوق وحشمة مع الشكالة الحسنة والهيئة الجميلة، والطول الفائق، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، م٥، ص ٣٤٥. وانظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٨٩- ص ١٩٠.=

(٩١) المقصود بالخانقاه: الخانقاه اليونسية: أنشأها الواقف بين عامي (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م- ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م) بأول الشرف العالي الشمالي، غربي الخانقاه الطواويسية، واشترط أن يكون الشيخ بها والصوفية حنفية افاقية، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٨٤.

(٩٢) الشرف الأعلى الشمالي أو العالي الشمالي بظاهر مدينة دمشق غربي المدينة، وشمالي طريق بيروت، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ١٣٩، ص ١٦٩.

(٩٣) المؤدب: شخص يقوم بالتدريس في مكتب الأيتام، وكان يطلق عليه أحياناً الفقيه، اشترط خلال العصر المملوكي أن يكون خيراً ديّناً، ذا عقل وعفة متزوجاً، أميناً على أطفال المسلمين، صحيح العقيدة، حافظاً لكتاب الله العزيز، انظر: محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م- ٩٢٣هـ / ١٥١٧م)، دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، انظر: ص٢٩٤- ص ٢٩٥. وسيشار إليه فيما بعد: أمين، الأوقاف والحياة.

(٩٤) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٢٠٩- ٢١٠.

(٩٥) برهان الدين إبراهيم بن مفلح بن محمد بن مفلح الحنبلي الكفل حارسي (توفي يوم الجمعة ١٢ ذي الحجة ٨٧٦هـ / ١٤٧٢م) بكفل حارس، إمام عالم، خطيب، مقرئ، انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص ٤٦٥.

- الوقفية العشرون[٩٦]

وقف الناصري محمد بن الزيني بن المدود[٩٧] على نفسه (والوقف مباشر ومن ضمن شروط الوقفية) وفي ثمن ثلاثين قميصاً تفرق في عيد الفطر على الأيتام في كل سنة.

- تاريخ الوقفية: ٩٧٣هـ / ١٥٦٦م.

- مصادرها: قرية قنيطرة[٩٨] تابع قورنة من بقاع، ١٠ ط.

- الوقفية الحادية والعشرون[٩٩]:

وقف الناصري محمد بن الزيني عمر بن المدود[١٠٠] على نفسه ثم من بعده (وقف غير مباشر)... والنصف الثاني بعد إيفاء شروط الواقف يكون مصروفاً على رجلين وعشرة أيتام من سكان الصالحية، وأحد الرجلين يكون مؤدباً للأيتام في مسجد العفيف[١٠١]، وأحدهما يكون مؤذناً على باب المسجد ويُبلّغ (يردد التكبيرات) خلف الإمام، ولمؤدب الأيتام في كل شهر ستون درهماً، وللأيتام العشرة في كل شهر مائتا درهم، وللمؤذن في كل شهر ثلاثون درهماً مضافاً إلى ما يصرف لهم من القمصان والفراء والحلوى ولحوم الأضحية.

- تاريخ الوقفية: ٨٨١هـ / ١٤٧٦م.

- مصادرها: عن مزرعة كفر ريس، تابع إقليم تفاح من صيدا، ٩ط، ٥٣١. عن مزرعة ميمونية تابع إقليم تفاح ٢ط وثلثي ط، ٥٤٧. وبيت في زقاق القلانسي المعروف بالواقف بالصالحية.

---

(٩٦) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٢٧.

(٩٧) لم نجد له ترجمة، ولكن يبدو أن والده ووالد واقف الوقفية الحادية والعشرين هو نفسه، وهو عمر المدود الذي استنيب على ولاية القاهرة في ذي الحجة (٧٩١هـ / ١٣٨٩م)، واستقر في ولاية مصر، انظر: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (٧٣٥هـ / ١٣٣٥م - ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م) تاريخ ابن الفرات، ٩ أجزاء، تحقيق: قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت: المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٤٢م، ج١، ص ١٦٨، وسيشار إليه فيما بعد: ابن الفرات، تاريخ

(٩٨) قرية قنيطرة: مركز عمل الشعرا؛ جنوب شرقي بانياس، انظر: أكرم حسن العلبي، ١٩٨٢م، دمشق بين عصر المماليك والعثمانين (٩٠٦هـ / ١٥٠٠م- ٩٢٢هـ / ١٥٢٠م)، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، ص٣٨. وسيشار إليه فيما بعد: العلبي، دمشق.

(٩٩) دفتر رقم (٦٠٢)، ص٢٧. (جزء من وقفية)

(١٠٠) الوقفية العشرون وهذه الوقفية للواقف نفسه.

(١٠١) مسجد العفيف بن أبي الفوارس (ت ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م)، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٣٦٩.

- الوقفية الثانية والعشرون[١٠٢]

وقف الشهابي أحمد بن الناصري محمد اليغموري[١٠٣]... الثلثان من الوقف المزبور على نفسه ثم على أولاده وأنسالهم وأعقابهم، وبعد الانقراض على الفقراء المقيمين بالأربطة بمكة والمدينة المشرفتين.

والثلث الثاني يصرف منه إلى عشرة أيتام من أولاد المسلمين المقررين بالتربة التي أنشأها (الواقف) خارج باب الصغير[١٠٤] في جوار جامع الجراح[١٠٥]. في كل يوم ثلاثة دراهم يفرق عليهم بالسوية، ولشيخهم في كل يوم درهم ونصف درهم، ويصرف لكل منهم في أول الصيف ثلاثون درهماً يشترى بها قميصاً وملوطةً لهم، وللفقيه خمسون درهماً يشتري بها قميصاً، ويشترى لكل منهم في كل يوم من صلاة الرغائب[١٠٦]، رطل خبز ونصف رطل حلوى، وللفقيه كذلك، ويشترى في كل عيد أضحى رأس بقر بمائة وخمسين درهماً. ولكل منهم في أول كل فصل شتاء...

- تاريخ الوقفية في السجل ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م.

- مصادرها: عن مزرعة ديرونية تابع مرج[١٠٧]، ٨ / ٢٤ط، ٨٠٠. أرض تعرف بالحقبقية. تابع وادي التحتاني[١٠٨].

(١٠٢) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٢٤- ص ٢٥.

(١٠٣) أحمد بن محمد الشهاب اليغموري (ت:جمادى الآخرة ٨١١هـ/١٤٠٨م)، ولي الحجوبية وشد الدواوين بدمشق، وكان مشهوراً بمعرفة المباشرة، وكان يظهر محبة للعلماء وتعجبه مباحثاتهم ويفهم جيداً. في ١٧ ذي الحجة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م استقر في نيابة الاستدارية بالبلاد الشامية، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، م١ ق٢، ص ٢١٨، وانظر أيضاً: تقي الدين أبو العباس احمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي (ت٨٤٥هـ / ١٤٤١م) السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨ أجزاء، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ج٦، ص ٦٤. سيشار إليه فيما بعد: المقريزي، السلوك.

(١٠٤) باب الصغير: الباب القبلي لمدينة دمشق القديمة؛ سمي بذلك لأنه أصغر الأبواب حين بنيت، وعنده مقبرة هي من أكابر مقابر دمشق، وكان يسمى باب الجابية الصغير، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص١٦ وص ١٦٣.

(١٠٥) جامع الجراح: خارج الباب الصغير بمحلة سوق الغنم، انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ٤٢٠.

(١٠٦) صلاة الرغائب: الرغيبة تدل على سنة صلاة الفجر، في اصطلاح المالكية، ورتبتها عندهم أعلى من المندوبات ودون السنن، والمندوبات عندهم كالنوافل الراتبة التي تصلى مع الفرائض قبلها أو بعدها، ونص الحنفية والشافعية على أن صلاة الرغائب في أول جمعة من رجب، أو في ليلة النصف من شعبان بكيفية مخصوصة، أو بعدد مخصوص من الركعات بدعة منكرة، وينكر أن هذه الصلاة لم تكن معروفة في المسجد الأقصى سوى بدءاً من العام ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م، انظر: وزارة الأوقاف، الموسوعة الفقهية، ج٢٢، ص ٢٧١- ص ٢٧٣.

(١٠٧) مرج: المقصود مرج دمشق الواقع بين قرية الكسوة جنوباً والنبك شمالاً، وبين بادية الشام شرقاً والزبداني غرباً، انظر: العلبي، دمشق، ص ٣٥- ص ٣٦.

(١٠٨) وادي التحتاني: أول مرج دمشق، وهو من متنزهات دمشق، شرقي مرج الشيخ يشتمل على غياض الحور ورياض

أوقاف جرى تعديل شروطها في الفترة العثمانية الأولى

– **الوقفية الثالثة والعشرون**[١٠٩]: (هي الوقفية الوحيدة التي يعود تاريخ تعديل شروط الواقف للفترة العثمانية الاولى).

وقف ست حلب بنت الفخري عثمان بن أغول بك[١١٠]... ولعشرة أيتام من المسلمين ستون درهماً، وشيخهم في كل شهر خمسون درهماً.

تاريخ الوقفية: ٩١٦هـ / ١٥١٠م.

(عدلت شروط الوقف سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م وجاء في التعديل)... بما شرطته لنفسها في كتاب وقفها الذي تاريخه سنة ٩١٦هـ من الإدخال والإخراج والزيادة والتغيير والتبديل وأشهدت عليه بذلك في سنة ٩٣٣هـ.

– مصادر الوقفية: دكاكين في سوق الصابون[١١١] في نفس حلب بقرب الجامع الكبير، ١٢ط عن ٢٣ باب ومقعدين. عن قرية كفر منين[١١٢] النصارى، ٨ط.

السفرجل، يعرب بوادي معربا، انظر: محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٢م)، المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، قسمان، تحقيق: حكمت إسماعيل، ومراجعة: محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة / الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٢م، ق١، ص ٣٩٨. وسيشار إليه فيما بعد: الدمشقي، المواكب الإسلامية.

(١٠٩) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ١١٢.

(١١٠) الست حلب بنت عثمان بن أحمد أوغلبيك الحلبي الحنفي (ت ٩٩٣هـ / ١٥٢٦م)، تنسب لوالدها محلة أغولبيك في مدينة حلب وعدد بيوتها (١٩٥) بيتاً، تزوجها المقر المحبي محمود به آجا كاتب الأسرار الشريفة بالديار المصرية، وسائر الممالك الإسلامية، وحظى بها مالاً كما حظيت به جمالاً، وأثرت من أوقاف أبيها، وكانت الخوند زوجة السلطان الغوري تعظمها، كان في ملكها، في وقت واحد، سبعون جارية بيضاء وسوداء، تزوجت بعد وفاة زوجها من قاضي حلب المولوي ابن الفرفور الدمشقي، تركت ما يناهز عشرين ألف قبرصي؛ انظر: العرضي، معادن الذهب، ص ٨٢، وانظر كذلك، محمد راغب بن محمود بن هشام الطباخ الحلبي (ت ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م)، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ٧ أجزاء، صححه ووقف على طبعه محمد كمال،دار القلم العربي، حلب، ط٢، ١٩٨٩م، ج٥، ص ٤٦٠ – ٤٦١. وسيشار إليه فيما بعد: الطباخ، أعلام النبلاء.

(١١١) سوق الصابون: يقع في الصف الغربي من مدينة حلب في سويقة علي، وكان في البداية يعرف بسوق البلاط نسبة إلى خانقاه البلاط التي وجدت في هذه السوق، وهي أول خانقاه في هذه السوق (٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، انظر: العرضي، معادن الذهب، ص ١٠٢ و ص ١٨٥.

(١١٢) كفر منين: قرية في جبل سنير من أعمال دمشق، انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٢١٨، وهي اليوم بلدة في محافظة ريف دمشق إلى الشمال من دمشق وتبعد عنها ٢٤كم، انظر: صلاح الدين خليل بن آيبك الصفدي (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، تحفة ذوي الألباب، ٢مج، تحقيق احسان خلوصي وزهير الصمام، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، مج١، ص ٦٢، وسيشار إليه فيما بعد: الصفدي، تحفة ذوي الألباب.

- الوقفية الرابعة والعشرين[١١٣]

وقف المرحوم سيباي[١١٤]... على مصالح مدرسته[١١٥] وجامعه[١١٦] في محلة خارج باب الجابية... وفي كل شهر ثلاثمائة درهم لعشرين يتيماً يقرؤون بالمكتب بالمدرسة، وللمؤدب للأيتام من المذكورين في كل شهر مائة درهم... (وخصص) مصاريف وملابس وحاجات الأيتام من ضمن مصالح المسجد.

تاريخ الوقفية: ٩٢٢هـ / ١٥١٦.

مصادرها: خمسة دكاكين، خمسة خانات، وثلاث طواحين، وحمام، وتسع عشرة قطعة أرض، وثلاث قرى، وخمس غراس ومزارع، وبستان واحد، وحوش، وفرن.

- الوقفية الخامسة والعشرون[١١٧]

وقف زين الدين عبد اللطيف بن شمس الدين محمد على أولاده وذريته (ذري... بعد الانقراض)... يصرف من ضمن الآخرين)... والأيتام بصيدا.

-تاريخ الوقفية: ٩١٨هـ / ١٥١٢م.

مصادرها: قرية ومزرعة.

---

(١١٣) دفتر رقم (٦٠٢)، ص ٥٧ و ص٦١.

(١١٤) سيباي بن عبد الله الجركسي (قتل: ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)، كفل حلب، ثم دمشق أيام السلطان قانصوه الغوري، كان أمير السلاح بمصر، ثم نائب الشام، قتل في معركة مرج دابق، كان آخر نواب الشام المماليك، انظر: العرضي، معادن الذهب، ص ٢٠٦، وانظر كذلك: محمد بن إبراهيم بن الحنبلي (٩٠٨هـ / ١٥٠٣م- ٩٧١هـ / ١٥٦٤م)، در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق محمد حمد الفاخوري، ويحيى زكريا عباره، دمشق؛ وزارة الثقافة، ١٩٧٢م، ج١، ص ٦٧١، والنعيمي، الدارس، ج١، ص ٥٣٠.

(١١٥) المدرسة السيبائية: خارج باب الجابية وشمالي بئر الصارم، انظر: النعيمي، الدارس، ج١، ص ٥٣٠.والمدرسة هي آخر مشيدة مملوكية تقام في دمشق، أنشأها الأمير سيباي ، وبدأ بناؤها في ٩١٥هـ وانتهى سنة ٩٢١ هـ قبل دخول العثمانيين لسنة واحدة، ولا زال بناؤها قائما إلى اليوم؛ انظر: الشهابي، النقوش الكتابية ص ١٥٨.

(١١٦) يقع في شارع الدرويشية ويسمى بجامع السباهية، وبالجامع المعلق وبجامع الخراطين، أنشأه نائب الشام سيباي سنة (٩١٥هـ / ١٥٠٩م) وانتهت عمارته (٩٢١هـ / ١٥١٥م) أنظر: طلس، النيل، ٢٢٨ – ٢٢٩.

(١١٧) دفتر رقم ٦٠٢، ص ٢٦٥.

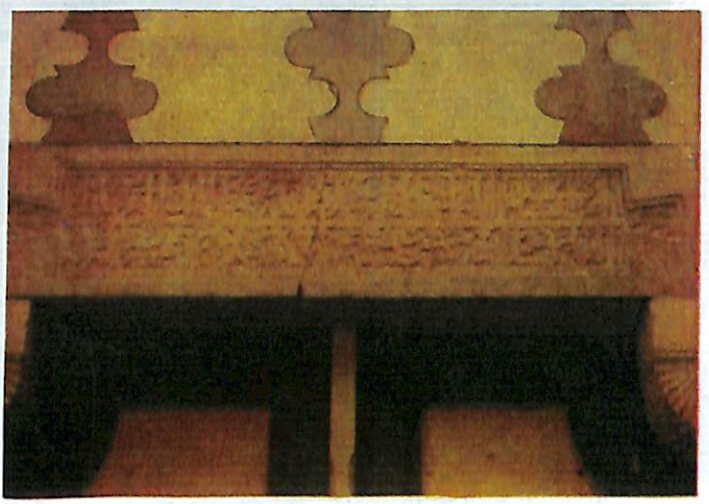

النصّ المنقوش في ساكف باب جامع التوريزي بخطّ الثلث (النسخي المملوكي)
(بعدسة المؤلف عام ١٩٩٥م)

" أمر بإنشاء هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى المقر الفرسي خليل التوريزي تقبّل الله منه في خامس وعشرين جمادى الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ". [الموافق 1420م]

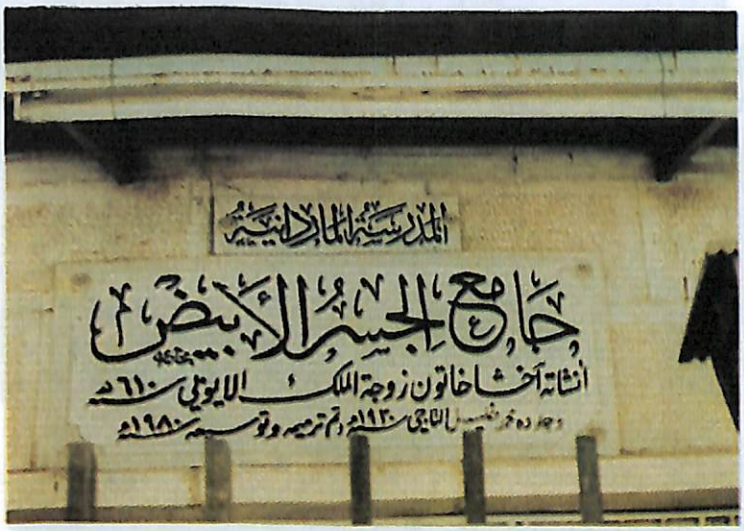

اللوحة الرخامية الحديثة المؤرخة لإنشاء المدرسة المارداني بخط الثلث
(بعدسة المؤلف عام ١٩٩٦م)

المدرسة المارداني

جامع الجسر الأبيض

أنشأته آخشا خاتون زوجة الملك الأيوبي سنة ٦١٠ هـ [الموافق 1213م]
وجدده محمد خليل التاجي سنة ١٩٣٠م وتم ترميمه وتوسيعه سنة ١٩٨٠م

التجاوزات على الأوقاف في بلاد الشام وإجراءات الدولة العثمانية تجاهها دراسة تاريخية في ضوء ما ورد في دفاتر المهمة

فاضل بيات*

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة "التجاوزات على الأوقاف في بلاد الشام وإجراءات الدولة العثمانية تجاهها" في ضوء ما ورد في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة[1]. والمعروف أن هذه الأحكام هي قرارات كان يتم اتخاذها في الديوان السلطاني، وتدوّن في دفتر المهمة بعد مصادقة السلطان عليها. والمهمة هنا مختصر للأمور المهمة التي كان يتم التباحث بشأنها في الديوان السلطاني. وكان هذا الديوان يعدّ أرفع مرجع رسمي في الدولة العثمانية، ويعنى بالأمور السياسية والإدارية والعسكرية والعرفية والشرعية والعدلية والمالية وكذلك النظر في الشكاوى والدعاوى المعروضة عليه. وكان يعقد جلساته برئاسة الصدر الأعظم أي رئيس الوزراء وبمشاركة كبار مسؤولي الدولة. وتحفل دفاتر المهمة بمعلومات في غاية الأهمية تتعلق بجوانب مختلفة من الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة ومنها الأوقاف. من هنا جاء اختياري لهذه الدفاتر للاعتماد عليها في كتابة هذا الموضوع الذي لا يمكن الإحاطة به بالاستناد إلى المصادر التقليدية.

الاهتمام العثماني بالأوقاف

لم تكن الأوقاف المخصص ريعها للمؤسسات الدينية والخيرية المختلفة في بلاد الشام وليدة العهد العثماني، بل انتقل الكثير منها من العهد المملوكي. ولم يتدخل العثمانيون في شؤون هذه الأوقاف بل سعوا إلى المحافظة عليها وإدامتها، وتنظيم أمورها حسب ما

* مركز البحوث الإسلامية للتاريخ والفنون والثقافة (أرسيكا)، اسنانبول / لجنة تاريخ بلاد الشام سابقاً.

(١) عن دفاتر المهمة، انظر: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة،٩٧٧هـ / ١٥٧٠م – ٩٧٩هـ / ١٥٧٢م، ٣ج، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، عمان، ٢٠٠٧م، ج١، ص ٩ وما بعدها. ويضم هذا الجزء الأحكام المتعلقة ببلاد الشام والواردة في الدفاتر ١٢٣٢١ طوب قابو و٣، ٦، ٥ أرشيف رئاسة الوزراء، أما الجزء الثاني الذي صدر عشية المؤتمر (أيلول ٢٠٠٦) فيضم أحكاماً من الدفترين ٧ و٩. ويمكن للقارئ أن يرجع إلى هذين الجزأين للاطلاع على نصوص معظم الأحكام التي استندنا إليها في دراستنا.

ورد في وقفياتها. وأعدوا لهذه الأوقاف دفاتر مستقلة تحت اسم " دفتر أوقاف....."، أو خصصوا جزءاً من دفاتر التحرير[٢] لتسجيل الموارد المرصد لها. كما ألزموا النظار والمتولين الذين يتولون شؤون أي وقف من الأوقاف تنظيم دفاتر مستقلة لتدوين كل ما يتعلق بهذه الأوقاف، وبخاصة مواردها ومصادر هذه الموارد والنفقات الجارية فيها. وكانت هذه الدفاتر خاضعة للتفتيش كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كما كان ينبغي على المتولين تصديق هذه الدفاتر من قبل قضاة المناطق التي تقع فيها هذه الأوقاف.

ولم تكن الأوقاف في بلاد الشام تخص مؤسسات تقع في المنطقة نفسها فقط، بل نجد أن بعضها تقع في أماكن مختلفة يتم تحديدها وتثبيت مواردها في دفاتر التحرير أو دفاتر الأوقاف وكذلك في الدفاتر الخاصة بالوقف نفسه، فعلى سبيل المثال كانت قرى الوقف الخاصة بالعمارة العامرة[٣] التي أقامتها زوجة السلطان سليمان القانوني قي القدس كانت تقع في خمسة ألوية مختلفة (٩٧٢هـ / ١٥٦٤م)[٤]. كما كانت أوقاف السلطان سليمان في بلاد الشام موزعة في ألوية القدس وغزة والرقة وصفد. وكان يتولى النظر فيها متولّ واحد (٩٧٦هـ / ١٥٦٨م)[٥]، وفضلاً عن هذا فإن بعض الأوقاف في بلاد الشام كانت تخص مؤسسات دينية وخيرية تقع خارجها كمصر والحجاز.

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية نظمت إدارة هذه الأوقاف بشكل عملي، إلا أن هذه الإدارة لم تسلم من السوء أو الإساءة إليها، إذ كانت تتعرض دائما إلى تجاوزات يقوم بها رجالات الدولة والرعايا على حد سواء كأمراء السناجق والقضاة والنواب والناظرين والمتولين والأمناء وعمال الخواص السلطانية وأصحاب الأراضي المتاخمة للأوقاف والرعايا والبدو والأشقياء .... الخ. وقد أوردت دفاتر المهمة حالات مختلفة عن هذه التجاوزات.

---

(٢) دفاتر التحرير هي السجلات التي تدوّن فيها معطيات عمليات المسح وإحصاء السكان ومصادر الموارد. وهذه العمليات التي كانت تجريها الدولة تسمى "تحرير". وتحمل هذه الدفاتر عادة أسماء الألوية الخاضعة للتحرير مثل: دفتر تحرير القدس ودفتر تحرير حمص. انظر:
Mehmet Zeki Pakalin: Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozlugu(V3) M.E. B. Devlet Kitaplari Ed2. Istanbul. 1971. III p.: 376.

(٣) العمارة وتأتي في العثمانية بشكل "عمارت"، هي دار الطعام الملحقة بمجمع الوقف لتقديم الطعام مجاناً إلى المحتاجين، وتعني مجمع الوقف بكامله أيضاً. انظر:
Kamil Kepecioglu: Tarih Lugati. Ankara 2000. p. 203. Inalcik. Halil. Osmanli Imparatorlugunun Ekonomik ve Sosyal Tarihi. Istanbul 2000. p. 453.

(٤) مهمة دفترى ٦ ص ٢٨، الحكم ٥٧، ويرمز التاريخ الوارد قبل أرقام الهوامش في الدراسة إلى تاريخ صدور الحكم السلطاني.

(٥) مهمة دفترى ٧، ص ٨٦٤، الحكم ٢٣٦٧.

وقد اعتاد محررو الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة استخدام مصطلح "بلعيات وكتميات" للدلالة على اختلاس مال الوقف أو أكله. وكان هذا الاختلاس يتم بالدرجة الأولى من قبل المتولين، وذلك لعلاقتهم المباشرة بالأوقاف. ولم يكن اختلاس أموال الوقف هو التجاوز الوحيد على الأوقاف، بل نجد هناك تجاوزات أخرى كان قسم منها على علاقة بإخلال شروط الواقفين أو ما يرد في دفاتر التحرير أو الأوقاف، الأمر الذي يستدعي التوقف عندها بشكل أكثر تفصيلاً.

والمعروف أن "شرط الواقف" كان يدوّن عادة في وقفية الوقف التي كان يعدها الواقف نفسه. وكانت هذه الوقفية تحظى باهتمام ورعاية الدولة، ويتقيّد المشرفون على الوقف بالشروط الواردة فيها، ولم يُسمح لهم بأي شكل من الأشكال بتجاهلها أو التجاوز عليها. ولكن مع هذا نجد بعض التجاوزات على هذه "الشروط". غير أن الدولة العثمانية متمثلة بأرفع مرجع فيها وهو الديوان الهمايوني، لم تكن تغض النظر عن هذه التجاوزات، بل تتخذ منها موقفاً متشدداً، وتحاسب كل من يسعى إلى القيام بها، ففي حكم سلطاني وجّه إلى قاضي القدس ورد أنه أستحدثت وظائف (أي منح رواتب من مال الوقف) في مراقد الأنبياء موسى ولوط ويونس، عليهم السلام، في القدس زيادة على ما ورد في شرط الواقف، فصدر الأمر إلى قاضي القدس الشريف وأمير سنجقه بإلغائها، إلا أن القضاة منحوا فيما بعد هذه الوظائف لبعض أصحاب الجهات[٦]، فصدر حكم شريف موجّه إلى قاضي القدس يقضي بالعمل وفق شرط الواقف وإلغاء الوظائف المستحدثة خلافه ومنع الناظر من منح وظائف تزيد عما حدد في الوقفية (٩٨٤ هـ / ١٥٧٧م)[٧].

أما السبب الذي حدا بالديوان الهمايوني إلى إصدار هذا الأمر فيعود إلى أن هذه الوظائف (الرواتب الممنوحة) كانت تبتلع كل موارد الأوقاف فتبقى المراقد دون رعاية، فلا يجد المتولي المال اللازم لتعمير هذه المراقد أو حتى إشعال القناديل فيها. ولم تكن الدولة العثمانية لترضى وصول هذه المراقد إلى وضع مهين، وبخاصة إذا علمنا أنها كانت محط أنظار الزائرين إليها من مختلف الطوائف، فأصدرت أمرها إلى دفتردار الشام[٨] وقاضي

---

(٦) الجهات أو "جهت" كما ترد في العثمانية هي الوظائف المخصصة للأوقاف لتمكينها من مواصلة خدماتها المختلفة. انظر:
Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi. (TDV.IA) Istanbul. VII. pp. 546- 548.

(٧) مهمة دفترى ٢٩، ص ١٤١، الحكم ٢٩.

(٨) دفتردار الشام هو المسؤول المالي في الولاية. انظر:
TDV.IA. IX. pp. 94- 96.

القدس بتعميرها بالشكل اللازم وتعليق قناديلها على الأسلوب السابق، وعدم منح أي صاحب وظيفة أي شيء قبل الانتهاء من إعمار هذه المراقد (٩٧٩ هـ / ١٥٧٢م)[٩].

وعلى العكس من هذا السياق قام بعض المتولين بقطع الوظائف المخصصة من أوقاف العمارة العامرة للسلطان سليمان في دمشق عن معيد المدرسة الشافعية وطلبتها وبوّابها وكنّاسها. وكانت هذه المدرسة من المدارس السنية التي أقامها السلطان في دمشق. وتحجج المتولي بأن ذلك لم يرد في شرط الواقف. ويبدو أن الواقف خصّ المدرستين الحنفية والمالكية بذلك، الأمر الذي وجده الديوان الهمايوني إجراء في غير محله، فأصدر أمراً سلطانياً إلى بكلر بكي الشام وقاضيها بمنح منتسبي المدرسة الشافعية الوظائف على غرار ما يتم منحه لمنتسبي المدرستين الأُخريين دون الأخذ بنظر الأعتبار التحديد الوارد في الوقفية (٩٨٣هـ / ١٥٧٥م)[١٠].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الأوقاف لم تكن لها وقفيات، أو أن وقفياتها ضاعت بمرور الزمن، إلا أن هذه الأوقاف لم تُترك بأيدي المتولين للتصرف بها كيفما يشاؤون، بل أن الدولة كانت تتدخل فيها لتنظيم أمورها ومجالات الصرف من مواردها عليها.

والمعروف أن الدولة العثمانية خصصت قسماً من أقسام دفاتر التحرير للأوقاف لتسجيل الموارد التي خصصت لها من مصادر مختلفة، وكانت هذه الدفاتر تخص لواءً معيناً كدفتر تحرير طرابلس، ودفتر تحرير دمشق ودفتر تحرير عجلون. ولكن بعض الألوية كانت تتضمن أوقافاً كثيرة بحيث لا يمكن إدراجها ضمن دفتر التحرير، وفي هذه الحالة يتم تخصيص دفتر مستقل للأوقاف يدّون فيه كل ما يتعلق بالأوقاف. وتحمل هذه الدفاتر عادة أسماء الألوية المتعلقة بها مثل "دفتر أوقاف لواء القدس الشريف". وهذه الدفاتر (التحرير والأوقاف) كانت تدّون فيها مصادر الموارد المالية، وأغلبها على شكل رسوم وقيمها وكيفية أدائها: جزء منها، عُشرها مثلاً، أو بشكل مقطوع، وبيان أسماء الجهات المختلفة، ومنها الأوقاف التي توزع عليها هذه الموارد.

التجاوزات على الأوقاف:

حفلت الأحكام السلطانية بأمثلة مختلفة من التجاوزات على الأوقاف وطبقاً لما ورد فيها

(٩) مهمة دفترى ١٢، ص ٥٩٤ الحكم ١١٣٣.

(١٠) مهمة دفترى ٢٦، الحكم ٦١٦.

فان هذه التجاوزات كانت تتم من قبل جهات مختلفة من الممكن جمعها فيما يلي:

١. من قبل المشرفين على الأوقاف.
٢. من قبل منتسبي الدولة في الولاية.
٣. من قبل أصحاب الأراضي المتاخمة للأوقاف.
٤. من قبل الأهالي.

تجاوزات المشرفين على الأوقاف

وفيما يتعلق بتجاوزات المشرفين على الأوقاف نجد أن معظمها تتعلق بأكل أموال الأوقاف والتي يعبر عنها – كما ذكرنا- تحت اسم "البلعيات والكتميات" ويقوم بها بالدرجة الأولى المتولي ثم الكاتب والناظر أو نائبه. ولكن لا يمر وقت طويل حتى يكتشف أمر هذه الاختلاسات إذ إن بعض المتولين كانوا يهملون الوقف ولا ينفقون المال اللازم على احتياجاته فيشرف الوقف على الخراب، فقد ورد في حكم سلطاني أن دفتردار الشام أبلغ الديوان الهمايوني أن متولي أوقاف عمارة خاصكي في دمشق عثمان قدوسي قد عرض الوقف إلى الخراب بعد أن أكل مال الوقف، ولم يمنح وظائف المرتزقة[١١]، ثم توارى عن الأنظار وبقيت في ذمته أموال كثيرة للوقف. (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م)[١٢].

وكان المتولون يلجؤون أحيانا إلى أساليب مختلفة للتحايل على الدولة لتغطية ما يقومون به من اختلاسات والتمويه عليه، فمتولي العمارة العامرة للسلطان سليمان في دمشق الملا آغا ادعى أنه صرف عشرين ألف فلوري لبناء المدرسة وسبيل الخان في دمشق، ولكن أُبلغ الديوان الهمايوني وربما من قبل القاضي بأنه بالغ في الصرف؛ لأنه كان من الممكن إكمال بناء المدرسة بمبلغ جزئي وخاصة أنه جلب الأعمدة من مقبرة اليهود ولكنه حمّل الخزينة قيمة هذه الأعمدة فسجلها في الدفتر كنفقات، وجلب الحجر الأسود من حوران، وفرض معظم إيجار نقله وغيره على رعايا الوقف وأخذه منهم، ولكنه سجله إيجاراً في الدفتر، واستولى على معظم الرخام الذي جلبه من بيروت وأماكن أخرى لحساب المدرسة، ولم يستخدم منه للمدرسة إلا جزءاً ضئيلاً منه، كما قام ببناء حجرات على بوابات حرم العمارة

---

(١١) المرتزقة مصطلح يطلق على كل من يتلقى مرتباً يومياً أو شهرياً أو سنوياً أو تعييناً (أي مواد غذائية) من الوقف حسب شروط الواقف. انظر:

Pakalin: II, p. 623.

(١٢) مهمة دفترى ٥١، حكم ٩٥.

العامرة رغم عدم الحاجة إليها، وسجل في الدفتر ألف فلوري نفقة لها، وأقام أربعين غرفة وأربعين دكاناً ملحقة بالمدرسة بلا جدوى، وفرض على النواب (نواب القاضي) تصديق دفتره الذي أعده حسب رغبته. وقام ببيع ما مقداره ٢٥٠٠ فلوري من الرصاص الوارد للمدرسة والخان، ولم يسلم ثمنه للوقف، وصرف قسماً من الرصاص على أماكن ليست ذات جدوى للوقف، وخزّن قسماً منه له. وعندما علم بان المتولي الحالي يحمل أمراً شريفاً يقضي بالنظر في محاسبته غادر إلى مصر دون أن يقوم بتسوية حسابات الأوقاف والمدرسة (٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م)[١٣].

وإلى جانب اختلاس أموال الأوقاف نجد بعض المتولين يهملون الوقف بالكامل، فقد ورد في أحد الأحكام السلطانية أن متولي بيمارستان عزي الذي بناه عز الدين بن آيبك الموصلي في العهد المملوكي في طرابلس غير جدير بتوليته، فهو يتسكع على هواه في دمشق، وأحيانا في القدس، وترك البيمارستان معطلاً منذ ثلاث أو أربع سنوات دون أن يُحصل من أوقافه أي شيء. والمعروف أن هذه الأوقاف كانت تدر في السنة سبعين ألف أقجة، وما يتم الحصول عليه يقوم المتولي والجابي والفراش[١٤] بأكله (٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨م)[١٥]. وفضلاً عن هذا كان بعض المتولين لا يترددون من القيام بأي عمل في سبيل الحصول على الأموال، ويمدون أيديهم حتى إلى المحرم منها. والمعروف أنه كان يتم تسجيل بعض المبالغ الخاصة بالأوقاف تحت اسم "حرمات" في الدفتر. والحرمات جمع حرمت / حرمة تعني المبالغ التي يمنع التصرف بها ولكن بعض المتولين كانوا يضربون هذه "الحرمة" عرض الحائط، ويتصرفون بأموالها خلافاً للقانون[١٦].

وكان بعض المتولين يسعون إلى تغطية ما يقومون به من اختلاس باللجوء إلى أساليب شتّى، فنعرف أن متولي العمارة العامرة في القدس باع ما مقداره ١٦٠ ذهباً من الزيت المخصص للعمارة العامرة بطريقة التواطؤ[١٧].

وإلى جانب الاختلاسات التي تعد أبشع أنواع التجاوزات على الأوقاف نجد أن بعض المتولين لا يترددون من القيام بتعريض أموال الأوقاف إلى التلف، فقد ذُكر أن متولي

---

(١٣) مهمة دفترى ٧، ص ٥٨٤-٥٨٥، الحكم ١٦٤٣.

(١٤) الفرّاش يعني هنا الشخص الذي يتولى أمور التنظيف في المؤسسة الدينية والخيرية. انظر:
TDV.IA: XII. pp. 408- 409.

(١٥) مهمة دفترى ٧، ص ٩٧٩، حكم ٢٧١٤.

(١٦) مهمة دفترى ٣، ص ١١٨، الحكم ٣٠٦ .

(١٧) مهمة دفترى ٣ ص ٥٨ الحكم ١٣٨.

الحرمين الشريفين في دمشق كمال الدين ابن الحمراوي قام بمنح بعض الدكاكين والأراضي السكنية والمزارع التابعة للوقف إلى مصطفى باشا عندما كان بكلر بكي الشام، وإلى أشخاص آخرين بطريقة الملكية، أي ليتصرفوا بها كملك صرف لهم (٩٧٦ هـ / ١٥٦٨م)[١٨]، كما قام متولي أوقاف العمارة العامرة في القدس بتأجير خانات الوقف الكائنة في طرابلس إلى مفلس دون كفيل، وأن هذا المفلس عاجز عن تسديد ما ترتب بذمته من بدلات الإيجار (٩٦٧هـ / ١٥٦٠م)[١٩].

وقام متولي العمارة العامرة للسلطان سليمان في دمشق بتقديم الطعام للأغنياء بلا أمر في أماكن خارج المطعم، وانتهك بذلك شرط الواقف الذي ينص على تقديم هذا الطعام للفقراء وفي داخل المطعم (٩٧٦هـ / ١٥٦٨م)[٢٠].

وورد في الأحكام السلطانية أن بعض الأوقاف كان يتولاها بعض منتسبي الدولة ممن يتولون وظائف معينة في مركز الدولة، فعلى سبيل المثال كانت المدرسة التازية في القدس يتولاها من يتولى وظيفة رئاسة الكُتّاب في سدة السعادة (مركز الدولة)، وكان رئيس الكُتّاب ينوب عنه قائممقاماً لتوليها. غير أن بعض القائمقامين كانوا لا يترددون من مد أيديهم إلى مال الوقف، فقد ذكر أن القائممقام على بن محمد المعروف بابي اللطف اختلس موارد الوقف، ولم يعط لمرتزقته مستحقاتهم، وأهمل ترميم الأماكن المحتاجة إلى الترميم من الوقف، فأشرفت المدرسة على الخراب. ولهذا طلب المرتزقة عزل المتولي المذكور، وإسناد توليتها إلى متولي خليل الرحمن، والنظر في محاسبة المتولي، وبالفعل لبى الديوان طلباتهم (٩٧٥هـ / ١٥٦٨م)[٢١]. وممن اتهم بالتجاوز على أموال الأوقاف كاتب أوقاف خليل الرحمن في القدس فقد أُتهم بأنه قام بجمع أموال الوقف في بيته بعد موت الناظر، وسجل حسابات سبع سنوات في الدفاتر على هواه، وادعى أنه يطالب الأوقاف مبلغاً مقداره سبعة آلاف ذهب، كما سجل على المرتزقة أموالاً خلافاً للواقع، وقام بتصديق الدفاتر التي أعدها لقاض معزول، ولهذا شكا منه فقراء أي أهالي القدس وذكروا أنه لا حد لظلمه على الرعايا والبرايا ومرتزقة الأوقاف (٩٨٤هـ / ١٥٧٧م)[٢٢].

ويبدو من خلال متابعة المعلومات المتعلقة بالتجاوزات على الأوقاف أن بعض المتولين

(١٨) مهمة دفترى ٧ ص ٨٧٥ الحكم ٢٤٠٥.
(١٩) مهمة دفترى ٣، ص ٢٥٨ حكم ٧٤٦.
(٢٠) مهمة دفترى ٧، ص ٥٨٣ حكم ١٦٤٠.
(٢١) مهمة دفترى ٧، ص ٥٥٧، حكم ١٥٧٤.
(٢٢) مهمة دفترى ٢٩، ص ٧١، أ و ب، الحكم ١٨٥.

كانوا يعدون ما استولوا عليه حقاً مكتسباً لهم ولأولادهم، فقد ذكر أن أولاد الشيخ إبراهيم الذي كان متولياً على أوقاف الأنبياء موسى ويونس ولوط عليهم السلام، استولوا على وقفيتها وبيوتها ودكاكينها وأدواتها النحاسية، وامتنعوا عن دفعها عند المطالبة بها. (٩٧٩ هـ/ ١٥٧١م)[٢٣].

ويستدل مما ورد في دفاتر المهمة أن بعض الأوقاف كان يتولاها نواب النظار بدلاً من المتولين، إلا أن هذه الأوقاف لم تسلم هي الأخرى من تجاوزات بعضهم، فقد ورد في حكم سلطاني أن نائب ناظر أوقاف النبي خليل الرحمن عليه السلام، فتح مخزن الدقيق التابع لها، وسرق القمح الموجود فيه وباعه إلى العربان المتمردين. كما أُتهم بسرقة بعض الصحون وأشياء أخرى من مطبخ الوقف، كما لم يسلم مرقد النبي يعقوب عليه السلام، المدفون هناك من التجاوز، فسرقت منه أشياء كثيرة. وقُصّ ما مقداره ذراع من الغطاء الذهب الموجود على قبر النبي اسحق عليه السلام، وسُرق، واتهم ابن نائب الناظر بالقيام بذلك. كما قام النائب المذكور بإنقاص وزن الخبز المخبوز في العمارة المذكورة. (٩٧٣ هـ/ ١٥٦٥م)[٢٤].

تجاوزات منتسبي الدولة على الأوقاف:

لم يرد في الأحكام السلطانية التي تيسّر لي الاطلاع عليها ما يشير إلى قيام البكلر بكيين بالتجاوز على الأوقاف في بلاد الشام، بل نعرف أن مصطفى باشا بكلر بكى الشام (ت ١٥٨٠م) الذي اتهم بتجاوزات كثيرة على الرعايا، لم ينسب إليه أي تجاوز على الأوقاف. ولم يرد في مئات الأحكام السلطانية التي اطلعت عليها سوى إشارة واحدة في هذا الخصوص، إذ ذُكر أن بكلر بكى وأن خسرو باشا وهب بعض الأماكن في دمشق لجانب الوقف، إلا أنه عدل عن هذا وأرسل رجاله ليتصرفوا بهذه الأماكن مرة أخرى، إلا أن الديوان السلطاني لم يُجز له ذلك، وأصدر إليه أمراً بالكف عن ذلك (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م)[٢٥]، ولم يرد في هذه الأحكام تجاوزات من قبل منتسبي الدولة الآخرين إلا ما ندر. فقد سجلت بعض التجاوزات على أمراء السناجق قام بها صوباشيوهم[٢٦] الذين كانوا ينفذون أوامرهم وتوجيهاتهم.

(٢٣) مهمة دفترى ١٢، ص ٤١٥، الحكم ٨١٤.

(٢٤) مهمة دفترى ٥ ص ١٠٩، الحكم ٢٥٣.

(٢٥) مهمة دفترى ٧، ص٥٨٣، الحكم ١٦٣٩.

(٢٦) الصوباشي: يعني هنا الممثل الذي يعينه أمير السنجق لجمع ما خصص له من موارد من قبل الدولة، وتنفيذ أوامره. انظر: فاضل بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية، ج١، ص ٣٨٣.

ويستدل مما ورد في بعض الأحكام أن معظم التجاوزات التي قام بها أمراء السناجق كانت على علاقة بما كان يُستجد في وضع هذه الأوقاف، بناء على أوامر تصدر من الديوان الهمايوني، فنجدهم لا يقرون بالتغيير، بل يعتبرون ما كانوا يحصلون عليه من موارد مالية مما خصص لهم هو حق مكتسب لهم لا يمكن تغييره، ولهذا فإن هذه التجاوزات كانت تجاوزاً على ما يرد في الأحكام السلطانية قبل أن تكون تجاوزاً على الأوقاف نفسها. فعلى سبيل المثال ورد في أحد الأحكام السلطانية أن قرية كفر جيش بقضاء الرملة كانت جزءاً من خواص أمير سنجق غزة ثم أُلحقت بأوقاف العمارة التي أقامتها زوجة السلطان سليمان القانوني في القدس، وهي متاخمة للوقف، وصدر الأمر بتحصيل مواردها العائدة لسنة ٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م لحساب الأوقاف المذكورة، إلا أن صوباشيي أمير السنجق لم يمتثلوا للأمر وقبضوا الموارد بأنفسهم، ولهذا طلب المتولي تدخل الديوان الهمايوني بإلزام أمير السنجق بإعادة المبالغ التي قبضها (٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م)[٢٧].

كما كانت قرية باتع علما بناحية الجيرة بلواء صفد موقوفة للعمارة العامرة في دمشق بستة آلاف أقجه مقطوعة وفق ما دوّن في الدفتر الخاقاني الجديد، وسجّل عشرها ورسومها بحاصل مقداره ٤٣٠٠ أقجة خاصاً لأمير سنجق صفد. وعلى الرغم من صدور أمر شريف بعدم تدخل رجال أمير السنجق بشؤون القرية بعد أخذه المبلغ المخصص له، إلا أن صوباشييه قاوموا بالاعتداء على رعايا القرية (٩٧٣ هـ/ ١٥٦٦م)[٢٨]، الأمر الذي يدل تجاوزه على المقطوع الذي خصص للعمارة العامرة. وعلى الغرار نفسه ورد أن ربع موارد قرية مجدل بلواء غزة كان وقفاً للحرمين الشريفين وثلاثة أرباع منه كان وقفاً ذرياً، وسجل عشر الوقف الذري في الدفتر الجديد ٢٧٥٠ آقجه بشكل مقطوع خاصاً لأمير سنجق غزة، إلا أنه لم يقبل باعتباره مقطوعاً بل أخذ عشرين ألف آقجة من الرعايا ظلماً، فقدّم الرعايا شكوى إلى الديوان الهمايوني واستصدروا أمراً سلطانياً بمنع أمير السنجق بأخذ أي زيادة على ما خصص له. وجاء أهالي القرية بالأمر الشريف إلى مجلس الشرع، وقرأوه بحضور أمير السنجق. إلا أنه لم يمتثل للأمر عندما طُلب منه الكف عن أخذ ما يزيد على المال المقطوع، فلجأ الأهالي وأصحاب الوقف إلى الديوان مرة أخرى يتظلمون، واقترحوا إلحاق المقطوع المذكور بالخواص السلطانية لما لذلك من نفع للفقراء أي الأهالي

---

(٢٧) مهمة دفترى ٦، ص٢٥، حكم ٥١.

(٢٨) مهمة دفترى ٥، ص ٣٩٣، الحكم ١٠٣٩.

والمال الميري. وبالفعل تمت تلبية طلبهم (٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨م)[٢٩].

ولم يرد في الأحكام السلطانية تجاوزات من قبل القضاة إلا ما ندر. فقد ورد في أحد الأحكام أن أهالي القدس شكوا من القاضي في سنة ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨م، واتهموه بالقيام بأخذ أحجار الأوقاف لبناء دار كبيرة له، وأنه استأجر أوقاف القنوات المائية من متوليها ولم يعتن بها فسببّ في انهيارها، وأخذ الكلس والكتان وأدوات البناء من المسجد الأقصى وتواطأ مع متولي القمامة على اختلاس مال الوقف[٣٠].

وعلى الرغم من عدم إمكانية التأكد مما ورد في شكوى الأهالي إلا أنه ينبغي ألا ننسى أن بعض البلاغات التي كان يقوم بتقديمها بعض الأشخاص إلى الديوان السلطاني كانت بلاغات كاذبة، والهدف منها الإيقاع بالقاضي، والنيل منه لأسباب ربما تتعلق بدعاوى لم يكسبوها في مجلس الشرع.

تجاوزات أصحاب الأراضي على الأوقاف

لم تخل الأراضي الموقوفة على الأوقاف من تجاوزات أصحاب الأراضي المتاخمة لها أو المتداخلة معها. ويستدل مما ورد في بعض الأحكام السلطانية أنه كان يتم تحديد حدود الأماكن الموقوفة كالقرى مثلا بوضع علامات الحدود عليها، ولكن يبدو أن هذه العلامات كانت تزول أو تُزال بطريقة أو بأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى وقوع الخلافات بين متولي هذه الأوقاف وأصحاب الأراضي المتاخمة لها، ففي حكم موجّه إلى قاضي الشام طُلب منه زيارة قرى الوقف الأربعة العائدة للوزير الأعظم في قضاء دمشق، إلى جانب الزعماء وأرباب التيمار[٣١] وأصحاب الأوقاف والأملاك المتاخمة لهذه القرى وكبار السن ممن يعتمد عليهم لتفقد الحدود الأصلية للقرى وتثبيتها وإعادة العلامات الحدودية المزالة منها إلى أماكنها السابقة، وذلك لتسوية الخلافات الناشئة بسبب تداخل حدود هذه القرى مع الأراضي المتاخمة لها (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م)[٣٢].

---

(٢٩) مهمة دفتري ٧، ص ٩٥٧، الحكم ٢٦٣٦.

(٣٠) مهمة دفتري ٧، ص ٧٩٠، الحكم ٢١٥٩.

(٣١) الزعماء هم الذين يتصرفون بزعامات أي إقطاعات يتراوح ريعها بين عشرين ألف أقجة وأقل من مائة ألف، وتمنح لهم من قبل الدولة. أما أرباب التيمار فهم الذين يتصرفون بتيمارات أي اقطاعات يقل ريعها عن عشرين ألف أقجة. انظر:
Sertoglu. Midhat: Osmanli Tarih Lugati. Istanbul 1986. pp. 338- 339. 373

(٣٢) مهمة دفتري ٧، ص ١٥٧، الحكم ٤٠٧.

وكان بعض العاملين في الخواص يقومون بتحصيل الموارد من الأراضي الموقوفة لحساب خواصهم مدعين أنها داخلة ضمن أراضيهم. إذ نعرف أن قرية سافرية بلواء القدس كانت من أوقاف العمارة التي أقامتها زوجة السلطان سليمان القانوني في القدس، إلا أن عامل الخواص السلطانية في القدس وغزة الكتخدا مصطفى استولى قسراً على قمح وشعير بعض الأراضي التابعة للقرية بحجة أنها داخلة ضمن حدود قرية خرمند التي سجل عُشرها خاصاً سلطانياً، وذلك خلافاً لكتاب الحدود. (٩٧٢ هـ/ ١٥٦٤م)[٣٣].

ويبدو أن هذه الأوقاف، أي أوقاف العمارة العامرة لزوجة السلطان سليمان في القدس وكما يستدل من الأحكام السلطانية، كانت من أكثر الأوقاف تعرضاً إلى التجاوزات، فالمياه التي كانت تجلب من الأوقاف المذكورة إلى مدينة صيدا والمزرعتين المعروفتين بكنيسة وحليو، كان يتم توزيعها على كل بستان وكل بيت بالتساوي لقاء مبلغ من المال كحاصل للوقف يتم تسجيله في دفتر يُرسل إلى الخزينة. غير أن بعض الزعماء والأمناء كانوا يمتنعون عن دفع ما يترتب على ذممهم من مال الوقف المتحقق من المياه الجارية إلى بساتينهم ومن ثمن الزيت (٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م)[٣٤].

تجاوزات الأهالي على الأوقاف

يستدل مما ورد في الأحكام السلطانية أن تجاوزات الأهالي على الأوقاف انحصرت في إطار امتناعهم عن تسديد ما ترتب على ذممهم من مال الأوقاف، الأمر الذي اعتبرهم الديوان السلطاني أحياناً متمردين. وكان قسم من الأهالي يمارسون الزراعة في بعض القرى الموقوفة لجهات معينة لقاء رسوم كان ينبغي دفعها للأوقاف، إلا أنهم كانوا لا يتقيدون بهذا، مما تطلب تدخل الديوان، فيُصدر أمراً باسم السلطان إلى البكلر بكي أو أمير اللواء لإجبار الأهالي على تسديد ما بذمتهم من مال، فعلى سبيل المثال كان أهالي قرية شويكة يمارسون الزراعة في أراضي قرية قاقون بلواء نابلس. وكانت هذه القرية من أوقاف العمارة العامرة لزوجة السلطان سليمان القانوني في مدينة القدس، وترتب على ذممهم بموجب دفاتر المفردات الكثير من مال الوقف، وذلك من رسوم القطن والقمح والشعير وعُشر البستان، وهم يمتنعون عن الدفع، ويعتمدون على طائفة المشاشقة العصاة، ويتلقون

(٣٣) مهمة دفترى ٦، ص ٢٨، الحكم ٥٦.

(٣٤) مهمة دفترى ٦، ص ٢٧، الحكم ٥٤.

الدعم منهم ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م)[٣٥]، الأمر الذي يدل على تمردهم، ويؤثر سلباً في الإمكانات المادية للأوقاف.

ويبدو أن الدولة العثمانية كانت تسعى جاهدة إلى تأمين إيصال الموارد المخصصة إلى العمارة العامرة، وذلك لمواصلة نشاطها المتمثل بتقديم الطعام مجاناً إلى طلاب العلم والمحتاجين وأبناء السبيل، حتى نعرف أنها استبدلت بعض القرى الموقوفة بأخرى عند انقطاع مواردها. فقد ورد في أحد الأحكام السلطانية أن قرية أريحا بلواء القدس والتي كانت من أوقاف العمارة العامرة المذكورة كانت واقعة في منطقة لا يتمكن عمال الأوقاف فيها من تحصيل الموارد لتمرد أهلها. وكان أهالي القرية (أي أريحا) مطالبين بدفع ما ترتب بذممهم من أثمان القمح والشعير والذرة ورسوم الكروم والجواميس وانتقلوا منها فتعذر تحصيله، ولهذا استبدلت بقرى أخذت من أميري سنجقي القدس وغزة وألحقت بأوقاف العمارة المذكورة (٩٧٢هـ / ١٥٦٤م)[٣٦].

كما كانت قرية بيت تعيا بلواء القدس هي الأخرى من أوقاف العمارة المذكورة، وتمرد رئيسها بدر، وحشّد جمعاً كبيراً وأغار على قرية صفا بحجة أن أهاليها قتلوا ابنه وقتل عدداً منهم ثم التجأ إلى البدو، وبقي في ذمته وذمم أبنائه مال كثير من أموال الأوقاف لم يدفعوه (٩٧٢هـ / ١٥٦٤م)[٣٧].

كما ورد في الأحكام السلطانية أن أهالي إحدى القرى الواقعة في لواء صفد والموقوفة لأوقاف الغوري في صفد هم دائماً على التمرد والعصيان، وقد تم استدعاؤهم إلى الشرع الشريف لأجل النظر في أحوالهم، إلا أنهم لم ينصاعوا للأمر (٩٨٠هـ / ١٥٧٣م)[٣٨].

وفضلاً عن تمرد أهالي القرى الموقوفة عن تسديد ما كان يترتب على ذممهم من أموال الأوقاف نجد أن بعضاً من هذه القرى كانت تتعرض إلى غارات يقوم بها بعض المتمردين من قرى أخرى الأمر الذي يتعذر على الأهالي الإيفاء بالتزاماتهم المادية تجاه الأوقاف. فقد ذكر أن مشايخ المشاشقة (البدو) كانوا يقومون دائماً بإلحاق الأذى بأهالي قرية قاقون بلواء نابلس والموقوفة للعمارة العامرة المذكورة. وكان يُقام في القرية سوق أسبوعي يرتاده الكثير من العصاة والمفسدين من الأرجاء المختلفة، ويستولون على أعلاف أهل

(٣٥) مهمة دفتري ٦، ص ٢٦، الحكم ٥٣.

(٣٦) مهمة دفتري ٦، ص ٢٥، ٢٧، الحكمان ٥٠، ٥٥.

(٣٧) مهمة دفتري ٦، ص ٢٧ الحكم ٥٥.

(٣٨) مهمة دفتري ٢١، الحكم ١٣٠.

القرية ومأكولاتهم قسراً، ولهذا فان القرية شارفت على الخراب.

وفضلاً عن هذا فان أحد "المفسدين" وهو يوسف بن جيوسي كان يقوم دائماً على رأس جمع من أتباعه بالإغارة على قرية جماسين بلواء نابلس والموقوفة للعمارة المذكورة، ويسلبون الأهالي ويتعرضون على عيالهم، ولهذا جلا عنها بعض أهاليها، الأمر الذي أدى إلى إلحاق أضرار كبيرة بمال الوقف. حتى طلب أمير سنجق نابلس من الديوان السلطاني الموافقة على إزالة السوق وتأديب أهل الفساد، وبالفعل صدرت الموافقة[٣٩].

التجاوز على أوقاف المؤسسات الواقعة خارج بلاد الشام

كانت بعض الأوقاف في بلاد الشام تخص مؤسسات دينية وخيرية تقع في خارج بلاد الشام كمصر والحجاز، وكانت موارد هذه الأوقاف يتم تحصيلها من قبل متولين محليين وتُسلم إلى مندوب يوفد من الجهة التابعة لها هذه الأوقاف. غير أن هذه الأوقاف لم تسلم هي الأخرى من التجاوزات، فكثرت الشكاوى من تعثر وصول مواردها، فقد ورد في حكم سلطاني أن أوقاف بعض الجوامع والمساجد في مصر تقع في حلب والشام، وأن عوائدها لا تصل إلى مصر لكون المتولين والنظّار في كل من أهالي هاتين الإيالتين، الأمر الذي أدى إلى مشارفة هذه الجوامع والمساجد على الخراب. ويبدو أن المتولين والنظّار أُتهموا بالتجاوز على أموال هذه الأوقاف، ولم يكن بالإمكان مراقبتهم، ولهذا اقترح بكلر بكى مصر على الديوان السلطاني أن يتم تعيين متولي هذه الأوقاف ونظارها من مصر، ويتم إرسالهم إلى هناك، كما طلب تخويله بإرسال موفدين إلى حلب والشام لتدقيق حسابات المتولين والنظّار هناك. وبالفعل وافق الديوان السلطاني على ذلك، وأمر بفتح تحقيق بهذا الخصوص (٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م)[٤٠].

وعلى الرغم من هذا يستدل من الأحكام السلطانية التي صدرت فيما بعد، أن هذه الأوقاف ظلت تحت إدارة المتولين المحليين، وربما عيّن متولون من مصر لفترة من الزمن ثم عدل عنه، إذ نعرف أن متولي أوقاف المصريين المحليين في حلب ظلوا مستمرين على إدارة هذه الأوقاف، ولم يوضع حد لتجاوزاتهم، فقد اتهمهم بكلر بكي حلب بذلك. وأبلغ البكلر بكى الديوان السلطاني في رسالة ذكر فيها أنه كان يتم إيفاد أحد جاوشية مصر إلى حلب لتحصيل موارد أوقاف المصريين فيها، وعندما وصل الجاوش محمد إلى هناك

(٣٩) مهمة دفترى ٣، ص ١٧٥-١٧٦، الحكم ٤٨٣.

(٤٠) مهمة دفترى ٣، ص ٣٠٣، الحكم ٥٦٣.

وجد أن متوليها عبدي ومتولي أوقاف الشيخ الملك المؤيد الشيخ احمد بن قيتاز قد غادرا إلى استانبول، وربما لعلمهما بوصول الجاوش للنظر في حساباتهما، فقد ذُكر عنهما أنهما اعتادا على التواري عن الأنظار عند الطلب، واعتادا على اختلاس أموال الأوقاف، وقد تأثرت الجوامع والمدارس في مصر من جراء ذلك، وذلك لعدم وصول الأموال، وشارفت على الخراب. ولهذا طلب البكلر بكي إعادة المتولين من استانبول إلى حلب للتحقيق معهما، وبالفعل لبى الديوان طلبه (٩٧٦هـ / ١٥٦٨م)[٤١].

كما ورد في حكم آخر أن متولي التعيينات (الجرايات) التي أوقفها أصحاب الخيرات لفقراء الحرمين الشريفين في دمشق امتنع عن تقديمها بالكامل إليهم عندما طالبوا بها حسب شرط الواقف، واتهموه بأنه لا يقدم منها أحياناً إلا نصفها أو ربعها أو جزءاً منها، الأمر الذي ألحق الظلم بهم، واتهموه بأكل مال الوقف. وهو لم ينصع للأمر الذي سبق أن صدر بالنظر في محاسبته واسترداد حقوق الناس منه، بل تماطل في منحها. (١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م)[٤٢].

التجاوز على الأوقاف غير الإسلامية

إلى جانب الأوقاف الإسلامية التي انتشرت في أرجاء مختلفة من بلاد الشام كانت هناك أوقاف مسيحية ويهودية أيضاً. ولم يرد في الأحكام السلطانية التي تسنى لي الاطلاع عليها أي تجاوز على هذه الأوقاف أو التدخل فيها لا من قبل المسلمين ولا من قبل أبناء الطائفتين المسيحية أو اليهودية. ولكن كان يحدث أحيانا خلاف بين المسلمين وأبناء هذه الطوائف حول ملكية بعض الأوقاف. غير أن هذا الخلاف لم يكن يصل إلى وضع معقد يصعب حله أو يتحول إلى أزمة بين طرفي الخلاف. ونجد أحيانا تدخل الديوان السلطاني لحل الخلاف الناشئ، وكان الديوان يلجأ دائماً إلى التحقيق في الأمر بمواجهة كل الخصوم ودون أن يلتزم جانب أحد الطرفين، ففي حكم موجّه إلى بكلر بكى حلب وقاضيها ورد أنه كان يوجد بستان في محلة بحسيتا بحلب، ادعى اليهود أنه موقوف لكنيسهم، وكان هذا البستان قد تُرك، ولم يكن هناك من يرعاه، ولهذا شارف على الخراب، وأصبح مأوى للمتسكعين وأهل الفساد، فكانوا يرتادونه ويختبئون فيه للاعتداء على المسلمين في الليل. ويبدو أن اليهود حاولوا التصرف به، إلا أن أحد المفتين أفتى ببطلان الحجة التي يمتلكونها بشأن كونه

(٤١) مهمة دفترى ٧، ص ٧١٧، الحكم ١٩٦٧.

(٤٢) مهمة دفترى ٩٢، حكم ٢، ص ٥١.

وقفاً لكنيسهم، فأبلغ البكلر بكي الوضع إلى الديوان السلطاني. غير أن الديوان لم يأخذ فتوى المفتي بالاعتبار، بل أمر على لسان السلطان بالتحقق من أمر البستان فيما إذ اصبح بالفعل مأوى لأهل الفساد، وفيما إذا كان موقوفاً للكنيس اليهودي أم لا، وبعكسه أن يتم بيعه بموجب الشرع الشريف وبالسعر الذي يستحقه إذا كان بيعه ذا نفع للمسلمين. (٩٧٥هـ / ١٥٦٨م)[٤٣].

إجراءات الدولة العثمانية للحد من التجاوزات على الأوقاف

اتخذت الدولة العثمانية موقفاً متشدداً من أي تجاوز يتعرض له الوقف بشكل عام، وذلك حرصاً منها على عدم ضياع أي جزء من مال الوقف أو تعرضه للاختلاس والتلف، ولهذا كانت تسعى جاهدة إلى معرفة أوضاع الأوقاف بشكل عام ومراقبتها، والحيلولة دون تعثرها من الناحية المادية. وكان على مسؤولي الدولة إبلاغ الديوان الهمايوني عن أي تجاوز قد تتعرض إليه هذه الأوقاف، كما فتحت أبواب الديوان للرعايا والأهالي للإبلاغ عن التجاوزات أو تقديم شكوى على كل من يتجاوز أو يتدخل بشكل غير شرعي في الأوقاف. وكانت التبليغات والشكاوى تأخذ مجراها في الديوان السلطاني، ويتم تباحثها مهما كان نوعها أو قيمتها، ويُنظر فيما يرد فيها بشكل جدي دون أن يتعرض أي منها للإهمال مطلقاً.

وكانت الشكاوى والتبليغات المقدمة في هذا الصدد تتضمن مطالب معينة تختلف باختلاف الجهة التي رفعها، فمنتسبو الدولة في الايالات كالبكلر بكي وأمير السنجق والدفتردار والقاضي كانوا يقترحون اتخاذ إجراء معين لرفع التجاوزات أو يستأذنون للإقدام على اتخاذ هذا الإجراء. أما الأهالي فكانوا يتظلمون لإحقاق الحق والمطالبة بإنصافهم. غير أن الديوان السلطاني لم يكن يتخذ أي قرار بشأن ما يرد في التبليغ أو الشكوى إلا بعد إجراء تحقيق محلي في الأمر يشترك فيه كبار مسؤولي الدولة في الولاية كالبكلر بكى والدفتردار والقاضي أو أمير السنجق وأصحاب العلاقة كلهم. وكان الديوان السلطاني يضع في الاعتبار دائماً إحقاق الحق وعدم الميل لأي طرف من طرفي النزاع ومحاباته، ولو كان ذلك على حساب مصلحة الدولة، كما كان يشك، ربما، في حقيقة ما يرد في التبليغ أو الشكوى أو اتهام أحد في القيام بعمل لم يقم به.

وكانت بعض التبليغات التي تعرض على الديوان تتعارض مع بعضها بعضاً، الأمر

(٤٣) مهمة دفترى ٧ ص٣١٩ الحكم ٩١٧.

الذي يستدعي إجراء تحقيق شامل لكشف كل حيثيات المسألة قبل الشروع في اتخاذ القرار المناسب بشأنها. وأورد أحد الأحكام السلطانية مثالاً يوضح لنا كيف كان الديوان السلطاني يتلقى تبليغات متناقضة وكيف كان يتعامل معها. فقد ورد في هذا الحكم أن بعض الأشخاص، سموا أنفسهم "فلاحي قرى أوقاف العمارة العامرة في القدس" شكوا من عبد الكريم متولي الأوقاف واتهموه بممارسة الظلم واختلاس أوقاف الجوامع والمساجد في قرى متعددة مما أدّى إلى إغلاق هذه الجوامع والمساجد بعد أن هجرها أئمتها وخطباؤها، وانعكس ذلك على القرى فأصبحت خراباً. ومن جهة أخرى أبلغ بكلر بكي الشام وقاضيا القدس والرملة الديوان السلطاني بأن بعض "الأشرار" من إحدى قرى قضاء الرملة وهي من أوقاف العمارة المذكورة وعدداً من أهالي يازور واللد هم قتلة وسرّاق، وقد ثبت وبأكثر من دليل فسادهم، وقد سعى المتولي عبد الكريم لدفع مظالمهم بالطرق الشرعية، إلا أنهم لم يردعوا وتمردوا في تأدية مال الوقف المترتب في ذممهم. ولكي يغطوا مفاسدهم راجعوا مركز الدولة ليتهموا المتولي اتهامات باطلة. وأثنى البكلر بكي والقاضيان في تبليغهم على المتولي المذكور ووصفوه بأنه معروف بأمانته ونزاهته، وهو "مجد وساع فيما يقدمه من خدمات للوقف، وانه قام ببيع المحصول المتحقق للوقف بمعرفة القاضي وحسن رضا الرعايا، وطالبوا بمعاقبة المفسدين وإلا فإن مصالح الوقف ستتعطل، ولا يمكن جمع وتحصيل المال المتحقق للوقف.

ويبدو أن الديوان السلطاني لم يتجاهل مزاعم مقدمي الشكوى، كما لم يقر بما ورد في مذكرة المسؤولين بل أصدر أمراً باسم السلطان بالتحقيق في الموضوع بمواجهة الخصوم والنظر في الدعاوى التي لم يتم فصلها شرعاً بالمرة، ولم تمر عليها خمس عشرة سنة والواردة ضمن التهم المنسوبة إلى المتولي المذكور والمدرجة في العريضة المقدمة ليروا فيما إذا كان المتولي المذكور يقوم فعلاً بالظلم والاعتداء على الرعايا، ويأكل مال الوقف وإبلاغ الديوان بنتيجة التحقيق. كما طالب الديوان بالتحقيق مع الأشخاص الذين تقدموا بالشكوى وفيما إذا كانوا بالفعل يشتهرون بالفساد والشقاوة والسرقة، وإلقاء القبض عليهم إذا ما ثبت من الناحية الشرعية قيامهم بأعمال الشر والشقاوة والسرقة، وإبلاغ الديوان بنتيجة التحقيق. ولم ينس الأمر بالمطالبة بالتزام جانب الحياد في التحقيق (٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م)[٤٤].

ومن خلال متابعة ما ورد في الأحكام السلطانية المتعلقة بالأوقاف يمكننا معرفة الإجراءات

(٤٤) مهمة دفتري ٥، ص ٣٨٢-٣٨٣، الحكم ١٠١٧.

التي كانت تتخذها الحكومة العثمانية لرفع التجاوزات التي تتعرض لها الأوقاف أو الحد منها، وعلى الرغم من أن الإجراء المطلوب اتخاذه وفق الحكم السلطاني كان يخص مسألة معينة، إلا أننا نجد أن هذا الإجراء هو جزء من إجراءات عامة تدخل ضمن السياسة العامة للدولة العثمانية في هذا الصدد. وهي خطوط عامة اعتادت الدولة العثمانية الأخذ بها عند تناول معظم القضايا التي عرضت عليها في مجال التجاوز على الأوقاف.

وبعد دراسة التبليغ أو الشكوى المقدمة إلى الديوان السلطاني بشأن التجاوز على الأوقاف في الديوان يصدر أمر باسم السلطان على شكل حكم يوجّه إلى الجهة المعنية ويتضمن هذا الحكم أوامر باتخاذ إجراءات وهي:

١. إجراءات تحقيقية
٢. تحديد الأسس المتبعة في التحقيق
٣. إجراءات تنفيذية

الإجراءات التحقيقية:

كان الحكم السلطاني الموجّه إلى المسؤول أو المسؤولين الحكوميين في الولاية أو اللواء يحدد كيفية إجراء التحقيق في القضايا المتعلقة بالتجاوزات على الأوقاف، وذلك بتشكيل لجنة تحقيق في مركز الولاية أو اللواء، وتضم في عضويتها بكلر بكي الولاية أو أمير السنجق إلى جانب القاضي والدفتردار، وذلك لإجراء تحقيق مفصل في كل ما يتعلق بالتجاوز على الأوقاف، والنظر في الدعاوى المقامة في هذا الصدد.

أما الإجراء التحقيقي فكان الحكم السلطاني الذي يوجّه إلى الجهات المعنية هو الذي يحدد مساره وعلى النحو الآتي:

١. دعوة ذوي العلاقة في الدعاوى المقامة بشأن التجاوز للحضور إلى مجلس الشرع للتحقيق معهم، وللتأكد من أن القضية المطروحة هي مثل ما عرضت إلى الديوان السلطاني من قبل المبلّغين، والاستماع إليهم ومواجهتهم مع الخصوم وبضمنهم المتولي مع المبلغين. وفي حالة امتناع أحدهم عن الحضور يتم جلبه بطريقة أو بأخرى.
٢. تفقد الأماكن المتنازع عليها للوقوف على حقيقة الأمر، فعندما أُبلغ الديوان الهمايوني بان القرى الموقوفة للعمارة العامرة يتم التجاوز عليها، وجّه الديوان أمراً إلى قاضي الشام بالذهاب إلى هذه القرى مع الزعماء وأرباب التيمار وأصحاب

الأوقاف والأملاك وكبار السن ممن يعتمد عليهم لتفقد الحدود القديمة للقرى وتثبيتها وإعادة العلاقات الحدودية التي أزيلت منها إلى أماكنها الثابتة[٤٥].

٣. إرسال رجال أكفاء لتدقيق الحسابات

وكان هذا الإجراء يتخذ بالنسبة إلى المؤسسات التي تقع أوقافها في ولاية أخرى، وعندما لا يكون المتولي من المناطق التي تقع فيها المؤسسات التي رصدت لها هذه الأوقاف. فعندما أُتهم متولي أوقاف المصريين في حلب والشام بالتجاوز عليها، صدر الأمر إلى بكلر بكي مصر بتعيين رجال أكفاء وإرسالهم إلى هناك، وذلك لتدقيق حسابات متولي ونظار الأوقاف، والنظر فيها من الناحية الشرعية بدءاً من مباشرة كل واحد منهم[٤٦].

الأسس المتبعة في الإجراءات التحقيقية:

كان الديوان السلطاني هو الذي يحدد هذه الأسس التي ينبغي على القائمين بالتحقيق الأخذ بها. وعلى الرغم من أن بعض الأسس كانت تخص مسألة معينة، إلا أن معظمها كانت أسس عامة يؤخذ بها في التحقيقات المتعلقة بمختلف المسائل. ومن الممكن حصر أبرز هذه الأسس في ضوء ما ورد في الأحكام السلطانية في النقاط الآتية:

١. التقصي في الأمر (القضية / الدعوى) بمقتضى الشرع القويم وعلى وجه الحق وبالوجه المناسب[٤٧]، والنظر فيه بشكل موضوعي، وتوخي الحذر من التزوير والتلفيق وشهود الزور أو العمل خلاف الشرع الشريف، وإلزام جادة الحق[٤٨]، وعدم الميل لأي جهة أو محاباتها على حساب الجهة الأخرى.

٢. النظر في الدعاوى المتعلقة بالتجاوزات وعدم تركها أو تجاهلها، وإن وقعت هذه التجاوزات في وقت سابق، على ألا تمضي عليها خمس عشرة سنة، ولم تتم تسويتها شرعاً[٤٩].

٣. العمل وفق ما يرد في شرط الواقف والتقيد به والحيلولة دون قيام أحد بإخلاله[٥٠]. ومعرفة فيما إذا كان المتولي يقوم برعاية شرط الواقف أم لا وكيف، ومنعه من

(٤٥) مهمة دفتري ٧، ص ١٥٧، الحكم ٤٠٧.
(٤٦) مهمة دفتري ٣، ص ٣٠٣، الحكم ٥٦٣.
(٤٧) مهمة دفتري ٥، ص ١٠٩، الحكم ٢٥٣.
(٤٨) مهمة دفتري ٥، ص ١٠٩، الحكم ٢٥٣.
(٤٩) مهمة دفتري ٧، ص ٧١٧، الحكم ١٩٦٧ .
(٥٠) مهمة دفتري ١٢، ص ٤٦٠، الحكم ٨٨٦.

القيام بأي عمل خلافاً لشرط الواقف.

٤. توخي الحذر من تعرض مال الوقف للضياع، والسعي إلى كشف ما اختلس من مال الوقف، ومعرفة كيفية قيام المختلسين باختلاس موارد الأوقاف.

٥. تدقيق حسابات المتولي المتهم بالاختلاس، وذلك من خلال النظر في دفاتر المحاسبات والمفردات المتعلقة بالأوقاف.

٦. حل القضايا المتنازع عليها بشكل دائم للحيلولة دون وقوع مشاكل في المستقبل، فعند وقوع الخلاف على حدود أراضٍ موقوفة، صدر الأمر بتثبيت الحدود بحيث لا يتسنى لأصحاب الأراضي المتاخمة لأراضي الوقف الاعتراض عليه، وذلك بإعادة العلامات الحدودية التي أزيلت منها إلى أماكنها السابقة(٥١).

٧. تدوين إجراءات التحقيق في دفتر مستقل وعرضه على الديوان السلطاني وتوخي الحذر من عرض القضية خلافاً للواقع. وإبلاغ الديوان بأسماء من لا يتمثل للأوامر عند التحقيق(٥٢).

الإجراءات التنفيذية

كانت معظم التبليغات والشكاوى المقدمة إلى الديوان السلطاني والمتعلقة بالتجاوزات على الأوقاف تتضمن اتهامات معينة موجّهة إلى من قام بهذه التجاوزات، وكان الديوان يتعامل مع هذه الاتهامات بشكل موضوعي، ويقتصر دوره في بداية الأمر على توجيه المسؤولين لكشف الحقيقة، ولهذا لم يكن يقرّ عند الشروع بالنظر في التبليغات والشكاوى أياً من التهم الواردة فيها. وكان على الجهة المعنية إجراء التحقيق في المسالة وفق آلية معينة يحدد مسارها الديوان السلطاني نفسه في الحكم السلطاني الصادر بهذا الخصوص – كما ذكرنا –. وفضلاً عن هذا كان الديوان يبدي توجيهاته إزاء المسألة أيضاً. وهذه التوجيهات كانت بمثابة أحكام تفرض على لجنة التحقيق الأخذ بها بعد إكمال إجراءات التحقيق، وذلك في حالة ثبوت التهمة على المتهمين. ومن خلال متابعة الأحكام السلطانية من الممكن تحديد هذه التوجيهات على النحو الآتي:

١. كانت التبليغات والشكاوى المقدمة إلى الديوان السلطاني بشأن التجاوزات على

(٥١) مهمة دفترى ٧، ص ١٥٧، الحكم ٤٠٧.

(٥٢) مهمة دفترى ٧، ص ٥٨٨، الحكم ١٦٥٣.

الأوقاف تشكل المسائل المتعلقة باختلاس الأموال نسبة كبيرة منها، فلا غرو إذن أن ينص الحكم في هذه الحالة على استرداد الأموال المختلسة. ولكن اشترط في هذا الأمر أن يثبت من الناحية الشرعية أنه ترتب بذمة المتولي أو غيره "مال الوقف"، وكان الحكم يلزم بـ"استرداد مال الوقف بلا نقص على ضوء دفاتر الوقف، وعدم إبقاء أي أقجة في ذمة من ترتب عليه المال"[٥٣]، ولأجل تحقيق هذه الغاية كانت الأوامر توجّه إلى مسؤولي الدولة في الولاية لتسهيل مهمة المتولي في تحصيل الموارد باسم الأوقاف[٥٤].

وورد في حكم سلطاني أن أحد المتولين في طرابلس أجرّ خانات الوقف فيها إلى مفلس دون كفالة، لا يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية. فصدر الأمر بالتحري في الاتهام، وإذا ثبت ذلك يتم تحميل المتولي بحقوق الوقف وتضمينه بدل الإيجار بمقتضى الشرع[٥٥]، وذلك لأن الديوان اعتبر المتولي إما متواطئاً مع المستأجر، أو أنه تهاون في عمله وسبّب التجاوز على الوقف.

٢. ومما يتعلق بالمتولي فلم يكن يفلت من العقاب بعد ثبوت قيامه باختلاس مال الوقف فبعد استرداد ما يترتب على ذمته يتم عزله من التولية.

٣. كان بعض المتولين الذين يترتب عليهم مال الوقف ويمتنعون عن دفعه، يتوارون عن الأنظار للتهرب من المساءلة ويلجأ بعضهم إلى ولاية أخرى. ولكن الدولة العثمانية لم تكن تتركهم بل تلاحقهم، وتصدر أوامرها إلى بكلر بكى الولاية التي التجأ إليها المتولي لإعادته إلى المكان الذي يجري النظر في قضيته للتحقيق معه[٥٦]، ويطلب أحياناً إلقاء القبض عليه وإرساله موقوفاً للنظر فيما نسب إليه من تهم[٥٧].

٤. وعند عدم ثبوت التهمة الموجّهة إلى المتولي أي بطلان ما نسب إليه من اتهامات وثبوت نزاهته وأمانته وسعيه وكفاءته، يعاد إلى التولية ليقوم بتحصيل موارد الوقف والتصرف به لأجل الوقف كما كان في السابق[٥٨].

٥. ومما يتعلق بالتجاوزات التي تحدث من قبل منتسبي الدولة، فإن الديوان السلطاني

---

(٥٣) مهمة دفترى ٣، ص ٣٠٣، الحكم ٥٦٣.

(٥٤) مهمة دفترى ٦، ص ٢٥، الحكم ٥١، ٦، ص ٢٦، الحكم ٥٣.

(٥٥) مهمة دفترى ٣، ص ٢٥٨، الحكم ٧٤٦.

(٥٦) مهمة دفترى ٧، ص ٥٨٢، الحكم ١٦٣٧، ٥١ حكم ٩٥.

(٥٧) مهمة دفترى ٧، ص ٦٩٢، الحكم ١٩٠٩.

(٥٨) مهمة دفترى ٣، ص ٣١٣، الحكم ٩١٧.

كان يصدر أمراً موجَّهاً إلى البكلر بكي أو أمير السنجق المعنيين بمنع ذلك، كما يصدر أمراً إلى القاضي بمنع رجال البكلر بكي بالتدخل في الأوقاف خلافاً للشرع. فعندما عدل أحد البكلر بكيين عن قرار وَهْبِه بعض الأماكن للوقف وإرساله ممثلين عنه لتحصيل المال باسمه، صدر الأمر إلى القاضي بمنع ممثلي البكلر بكي من التدخل والتعرض لهذه الأماكن، وضبط (أي تحصيل) محاصيلها باسم الوقف[٥٩]. وفي حكم آخر نجد أمراً موجَّهاً إلى أحد أمراء السناجق أُبلغ عن تجاوزه على مال الوقف طلب منه منع رجاله من التدخل بأماكن الوقف والاعتداء على أهاليها[٦٠]. وفي حكم آخر صدر إثر تبلغ الديوان الهمايوني بتدخل عامل الخواص السلطانية بأوقاف العمارة العامرة في القدس، ورد أمر موجَّه إلى أمير سنجق القدس وقاضي القدس والرملة بالحيلولة دون تدخل أحد في الأوقاف المذكورة خلافاً للشرع والقانون وردع من لا يمتثل للأمر[٦١].

٦. أما التجاوز على الأوقاف من قبل الأهالي فكان يتم عادة من "أهل الفساد" الذين يغيرون على قرى الوقف ويسلبون الرعايا، وكان الديوان الهمايوني يطالب البكلر بكي أو أمير السنجق أو القاضي بإلقاء القبض عليهم وتأديبهم، وذلك في حالة ثبوت قيامهم بالتجاوز على الوقف[٦٢].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الديوان الهمايوني كان يُميِّز بين التيماريين (السباهيين / أصحاب التيمارات) وبين الأهالي العاديين في الإجراء التنفيذي، وينص الحكم السلطاني على "سجن السباهي وعرض الأمر على الديوان الهمايوني" والعمل وفق ما سيصدر من الديوان بحقه من حكم، ويُصار عادة عند ثبوت التهمة عليه إلى تجريده من التيمار، واسترداد ما ترتب على ذمته من مال الوقف. أما إذا كان المتجاوز من الأهالي العاديين فإن الحكم السلطاني ينص على " العمل بمقتضى الشرع القويم وتنفيذه" أي تنفيذ ما يستحق من عقوبة وفق الشرع[٦٣].

ويستدل من كل ما ذكرناه أن الأوامر الواردة في بعض الأحكام السلطانية كانت تعالج حالة معينة من الحالات المعروضة إلى الديوان السلطاني، إلا أن بعضاً من هذه الأوامر بقيت

(٥٩) مهمة دفترى ٧، ص ٥٨٣، الحكم ١٦٣٩.

(٦٠) مهمة دفترى ٥، ص ٣٩٣، الحكم ١٠٣٩.

(٦١) مهمة دفترى ٦، ص ٢٨، الحكم ٥٦.

(٦٢) مهمة دفترى ٣، ص ١٧٥، الحكم ٤٨٣.

(٦٣) مهمة دفترى ٥، ص ١٠٩، الحكم ٢٥٣.

تتكرر في معظم الأحكام السلطانية مما يدل على أنها أصبحت بمثابة أحكام قانونية اعتبرتها الدولة العثمانية ثوابت لا يمكن تجاوزها عند إجراء تحقيق في قضية تتعلق بتجاوز على الأوقاف أو إعطاء حكم بشأنها.